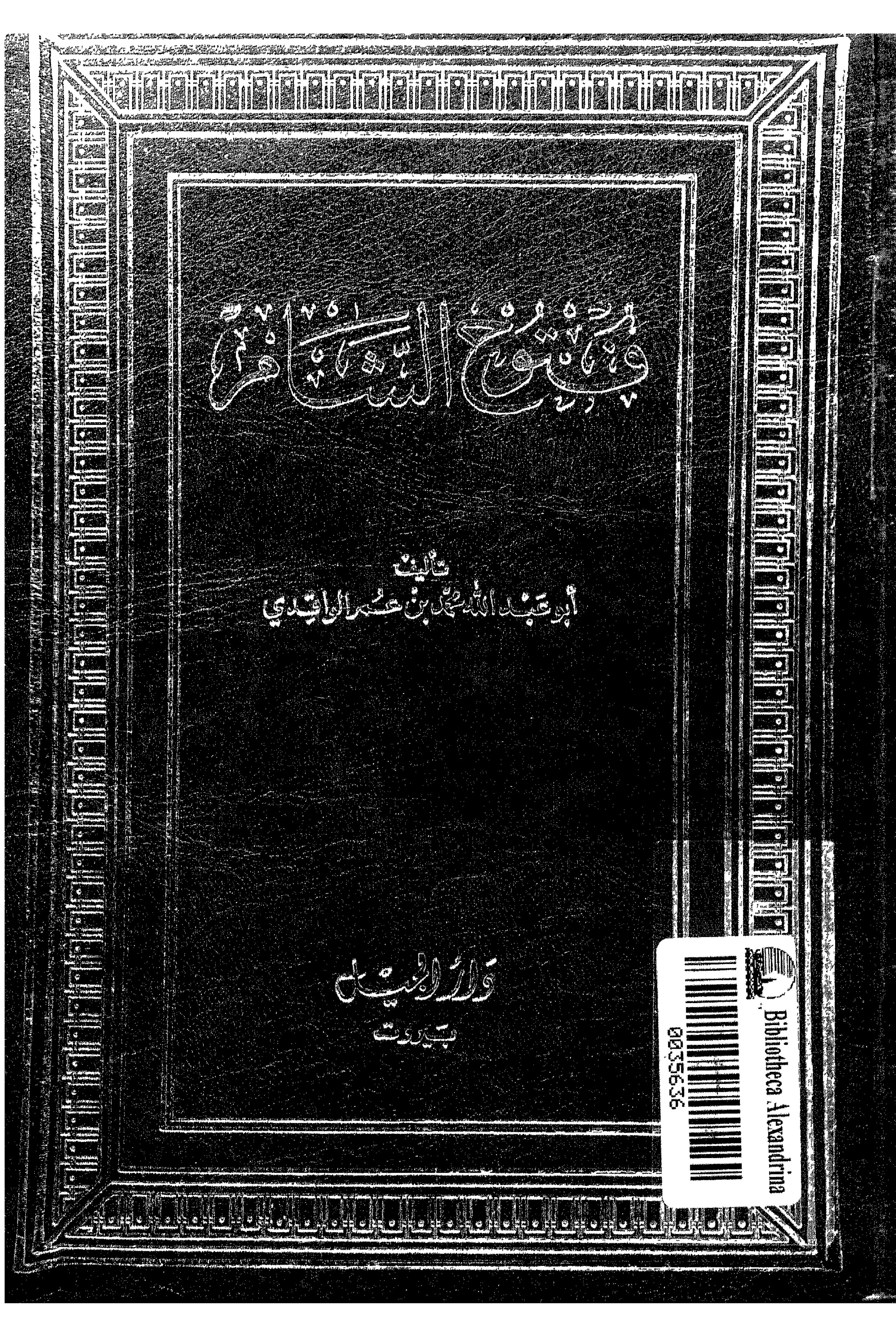

فتوح الشام
تأليف
أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0035636







فتوح الشام

١





تأليف

أبي عبد الله بن عمر الواقدي





بسم الله الرحمن الرحيم

اقبـال الجند

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه اجمعين ٠

(قال الامام الواقدي) رحمه الله تعالى آمين : حدثني ابوبكر بن الحسن بن سفيان بن نوفل بن محمد بن ابراهيم التيمي ، ومحمد بن عبد الله الانصاري ، وأبو سعيد مولى هشام ومالك بن أبي الحسن واسمعيل مولى الزبير ومازن بن عوف من بني النجار ، كل حدث عن فتوح الشام بما كان ، قالوا جميعـا : انه لما توفي رسول الله (ص) واستخلف بعده أبو بكر الصديق (ر ض) قتل في خلافته مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة ، وقاتل بني حنيفة ، وأهل الردة وأطاعته العرب ، فعزم أن يبعث جيشه الى الشام وصرف وجهه لقتال الروم فجمع أصحاب رسول الله (ص) في المسجد وقام فيهم خطيبا فحمد الله عز وجل ، وقال : يا أيها الناس رحمكم الله تعالى : اعلموا ان اللـه فضلكم بالاسلام وجعلكم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وزادكم ايمانا ويقينا ونصركم نصرا مبينا ، وقال فيكم ـ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ـ واعلموا ان رسول الله (ص) كان عول أن يصرف همته الى الشام فقبضه الله اليه واختار له ما لديه ، ألا واني عازم ان اوجه ابطال المسلمين الى الشام بأهليهم ومالهم فان رســول الله (ص) أنبأني بذلك قبل موته ، وقال « زويت لي الارض فرأيت مشارقهـا ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » ، فما قولكم في ذلك ؟٠ فقالوا يا خليفة رسول الله مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت ، فان الله تعالى فرض علينا طاعتك ٠ فقال تعالى ـ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ـ ففرح أبو بكر (ر ض) ٠ ونزل عن المنبر وكتب الكتب الى ملوك اليمن وأهل مكة وكانت الكتب فيها نسخة واحدة ٠ وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم سلام عليكم ٠

(أما بعد) فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد

(ص) ، وقد عزمت أن أوجهكم الى بلاد الشام لتأخذوها من أيدي الكفار والطغاة فمن عول منكم على الجهاد والصدام ، فليبادر الى طاعة الملك العلام ، ثم كتب ـ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ـ الآية ، ثم بعث الكتب اليهم وأقام ينتظر جوابهم وقدومهم ، وكان الذي بعثه بالكتب الى اليمن أنس بن مالك خادم رسول الله (ص) قال : فما مرت الايام حتى قدم أنس (ر ض) يبشره بقدوم أهل اليمن وقال : يا خليفة رسول الله وحقك على الله ما قرأت كتابك على أحد الا وبادر الى طاعة الله ورسوله ، واجاب دعوتك وقد تجهزوا في العدد والعديد والزرد النضيد ، وقد اقبلت اليك يا خليفة رسول الله مبشرا بقدوم الرجال ، وأي رجال ، وقد أجابوك شعثا غبرا وهم أبطال اليمن وشجعانها ، وقد ساروا اليك بالذراري والاموال والنساء والاطفال ، وكأنك بهم وقد أشرفوا عليك ووصلوا اليك فتأهب الى لقائهم · قال فسر أبو بكر (رض) بقوله سرورا عظيما ، وأقام يومه ذلك حتى اذا كان من الغد اقبلوا الى الصديق (رض) وقد لاحت غبرة القوم لاهل المدينة · قال : فاخبروه فركب المسلمون من اهل المدينة وغيرهم واظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الاعلام الاسلامية ورفعوا الالوية المحمدية فما كان الا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا ، قوم في أثر قوم وقبيلة في أثر قبيلة ، فكان اول قبيلة ظهرت من قبائل اليمن حمير وهم بالدروع الداودية والبيض العادية والسيوف الهندية وأمامهم ذو الكلاع الحميري (ر ض) · فلما قرب من الصديق (ر ض) أحب ان يعرفه بمكانه وقومه وأشار بالسلام وجعل ينشد ويقول :

أتتك حمير بالاهلين والولد	أهل السوابق والعالون بالرتب
أسد غطارفة شوس عمالقة	يردوا الكماء غدا في الحرب بالقضب
الحرب عادتنا والضرب همتنا	وذو الكلاع دعا في الاهل والنسب
دمشق لي دوت كل الناس اجمعهم	وساكنيها سأهويهم الى العطب

قال فتبسم أبو بكر الصديق (رض) من قوله ، ثم قال لعلي بن ابي طالب (رض) يا أبا الحسن أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « اذا أقبلت حمير ومعها نساؤها تحمل أولادها فابشر بنصر الله على أهل الشرك أجمعين » · فقال الامام علي صدقت وأنا سمعته من رسول الله (ص) · قال أنس رضي الله عنه : وسارت حمير بكتائبها وأموالها وأقبلت من بعدها كتائب مذحج أهل الخير العتاق والرماح الدقاق ، وأمامهم سيدهم

قيس بن هبيرة المرادي (رض) ، فلما وصل الى الصديق (رض) جعل يقول صلوا على طه الرسول :

أتتك كتائب منا سرعا ذوو التيجان أعني من مراد
فقدمنا أمامك كي ترانا نبيد القوم بالسيف النجادى

قال فجزاه أبو بكر (رض) خيرا وتقدم بكتائبه ومواليه ، وتقدمت من بعده قبائل طيىء يقدمها حارث بن مسعد الطائي (رض) ، فلما وصل هم أن يترجل فأقسم عليه ابو بكر (رض) بالله تعالى أن لا تفعل فدنا منه فصافحه وسلم عليه وأقبلت الازد في جموع كثيرة يقدمها جندب بن عمرو الدوسي (رض) ، ثم جاءت من بعدهم بنو عبس يقدمهم الامير ميسرة بن مسروق العبسي (رض) ، وأقبلت من بعدهم بنو كنانة يقدمهم غيثم بن اسلم الكناني وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضا ومعهم نساؤهم وأموالهم ، فلما نظر ابو بكر (رض) الى نصرتهم سر بذلك وشكر الله تعالى وانزل القوم حول المدينة كل قبيلة متفرقة عن صاحبتها واستمروا فأضر بهم المقام من قلة الزاد وعلف الخيل وجدوبة الارض فاجتمع أكابرهم عند الصديق (رض) ، وقالوا : يا خليفة رسول الله انك أمرتنا بأمر فأسرعنا لله ولك رغبة في الجهاد وقد تكامل جيشنا وفرغنا من أهبتنا ، والمقام قد أضر بنا لان بلدك ليست بلد جيش ، ولا حافر ولا عيش ، والعسكر نازل فان كنت قد بدلت فيما عزمت عليه فأمرنا بالرجوع الى بلدنا وأقبل الجميع وخاطبوه بذلك ، فلما فرغوا من كلامهم قال ابو بكر (رض) : يا أهل اليمن ، ومن حضر من غيرهم · أما والله ما اريد لكم الاضرار ، وانما اردنا تكاملكم ، قالوا انه لم يبق من ورائنا أحد فاعزم على بركة الله تعالى ·

وصية أبي بكر

(قال المؤلف رحمه الله تعالى) لقد بلغني أن أبا بكر الصديق (رض) قام من ساعته يمشي على قدميه وحوله جماعة من الاصحاب منهم عمر وعثمان وعلي (رض) ، وخرجوا الى ظاهر المدينة ووقع النداء في الناس وكبروا بأجمعهم فرحا لخروجهم ، وأجابتهم الجبال لدوي أصواتهم ، وعلا أبو بكر على دابته حتى أشرف على الجيش فنظر اليهم قد ملئوا الارض فتهلل وجهه ، وقال : اللهم انزل عليهم الصبر وأيدهم ولا تسلمهم الى عدوهم _ انك على

كل شيء قدير ـ وكان أول من دعاه أبو بكر يزيد بن أبي سفيان وعقد لـــه راية وأمره على الف فارس من سائر الناس ودعا بعده رجلا من بني عامر بـن لؤي يقال له ربيعة بن عامر ، وكان فارسا مشهورا في الحجاز فعقد له رايـة وأمره على ألف فارس ، ثم أقبل ابو بكر على يزيد بن أبي سفيان ، وقال له هذا ربيعة بن عامر من ذوي العلا والمفاخر قد علمت صولته وقد ضممته اليك وأمرتك عليه فاجعله في مقدمتك وشاوره في أمرك ولا تخالفه • فقال يزيد حبا وكرامة وأسرعت الفرسان الى لبس السلاح واجتمع الجند وركب يزيد بـــن أبي سفيان ، وربيعة بن عامر وأقبلا بقومهما الى أبي بكر (رض) فأقبل يمشي مع القوم • فقال يزيد يا خليفة رسول الله : الناجي من غضب الله مـــن رضيت عنه لا نكون على ظهور خيولنا ، وأنت تمشي فأما ان تركب وأمـا ان ننزل • فقال ما انا براكب وما أنتم بنازلين ، وسار الى ان وصل الى تنيـــة الوداع فوقف هناك فتقدم اليه يزيد فقال يا خليفة رسول الله أوصنا ، فقال « اذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على اصحابك في مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على اصحابك وشاورهم في الامر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فانه لا افلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، ـ واذا لقيتم القوم فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ـ واذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفـــلا ولا تعقروا بهيمة المأكول ولا تغدروا اذا عاهدتم ولا تنقضوا اذا صالحتم ، وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون انهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم وستجدون قوما آخرين من حزب الشيطان وعبدة الصلبان قد حلقوا أوساط رؤوسهـم حتى كأنها مناحيض العظام فاعلوهم بسيوفكم حتى يرجعوا الى الاســـلام او يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقد استودعتكم الله ، ثم عانقـــه وصافحه وصافح ربيعة بن عامر ، وقال يا عامر اظهر شجاعتك علـــى بني الاصفر بلغكم الله آمالكم ، وغفر لنا ولكم » • قال وسار الفوم ورجع أبـو بكر (رض) بمن معه الى المدينة قال فجد الفوم في السير ، فقال ربيعة بن عامر ما هذا السير يا يزيد ، وقد أمرك أبو بكر أن ترفق بالناس في سيرك • فقال يزيد يا عامر ان أبا بكر (رض) سيعقد العقـــود ويرسل الجيوش فاردت اناسبق الناس الى الشام فلعلنا ان نفتح فتحا قبـــــل تلاحق الناس

بنا فيجتمع بذلك ثلاث خصال رضاء الله عز وجل ، ورضاء خليفتنا ، وغنيمة تأخذها • فقال ربيعة فسر الان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم • قال فأخذ القوم في السير على وادي القرى ليخرجوا على تبوك ثم على الجابية الى دمشق • قال واتصل الخبر للملك هرقل من قوم من عرب اليمن المتنصرة كانوا في المدينة ، فلما صح عند الملك ذلك جمع بطارقته في عسكره ، وقال لهم يابني الاصفر : ان دولتكم قد عزمت على الانهزام ، ولقد كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتقيمون الصلاة وتؤثرون الزكاة التي امركم بها الآباء والاجداد والقسس والرهبان ، وتقيمون حدود الله التي أمركم بها في الانجيل لا جرم انكم ما قصدكم ملك من ملوك الوشاة ونازعكم على الشام الا وقهرتموه ولقد قصدكم كسرى بجنود فارس فانكسروا على اعقابهم ، والان قد بدلتم وغيرتم فظلمتم وجرتم ، وقد بعث اليكم ربكم قوما لم يكن في الامم أضعف منهم عندنا ، وقد رمتهم شدة الجوع الينا وأتى بهم الى بلادنا وبعثهم صاحب نبيهم ليأخذوا ملكنا من أيدينا ويخرجونا من بلادنا ، ثم انه حدثهم بالذي سمعه من طرسيسه •

فقالوا أيها الملك نردهم عن مرادهم ونصل الى مدينتهم ونخرب كعبتهم • قال فلما سمع مقالتهم وتبين اغتياظهم جرد منهم ثمانية آلاف من أشجع فرسانهم وأمر عليهم خمسة من بطارقتهم ، وهم البطاليق وأخوه جرجيس وصاحب شرطته ولوقا بن سمعان وصليب بن حنا صاحب غزة ، وكانت هذه الخمسة البطارقة يضرب بهم المثل في الشجاعة والبراعة ، ثم تدرعوا واظهروا زينتهم ، وصلت عليهم الامة صلاة العصر • فقالوا اللهم انصر من كان منا على الحق وبخروهم ببخور الكنائس ، ثم رشوا عليهم من ماء العمودية وودعوا الملك وساروا وأمامهم العرب المنتصرة يدلونهم على الطريق • قال حدثني رفاعة عن ياسر بن الحصين • قال بلغني أن اول من وصل الى تبوك كان يزيد بن سفيان وربيعة بن عامر ومن معهما من المسلمين قبل وصول الروم بثلاثة ايام ، فلما كان في اليوم الرابع والمسلمون قد هموا بالرحيل الى الشام اذ أقبل جيش الروم ، فلما رآه المسلمون اخذوا على أنفسهم وكمن ربيعة بأصحابه الالف وأقبل يزيد بأصحابه الالف ووعظهم وذكر الله تعالى • وقال لهم :

اعلموا ان الله وعدكم بالنصر وأيدكم بالملائكة ، وقال الله تعالى في كتابه

العزيز ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين ـ وقد قال (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف » وأنتم أول جند دخل الشام وتوجه لقتال بني الاصفر فكأنكم بجنود الشام ، واياكم ان تطعموا العدو فيكم وانصروا الله ينصركم ، فبينما يزيد يعظ الناس واذا بطلائع الروم قد اقبلت وجيوشها قد ظهرت فلما رأوا قلة العرب طمعوا فيهم وظنوا انه ليس وراءهم أحد فبربر بعضهم على بعض بالرومية وقالوا : دونكم من يريد أخذ بلادكم واستنصروا بالصليب فانه ينصركم ، ثم حملوا وتلقاهم اصحاب رسول الله (ص) بهمم عالية وقلوب غير دانية ودار القتال بينهم وتكاثرت الروم عليهم وظنوا انهم في قبضتهم اذ خرج عليهم ربيعة بن عامر (رض) بالكمين ، وقد اعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وحملوا على الروم حملةصادقة ، فلما عاينت الروم من خرج عليهم انكسروا ، والقى الله الرعب في قلوبهم فتقهقروا الى ورائهم ونظر ربيعة بن عامر الى البطاليق وهو يحرض قومه على القتال فعلم انه طاغية الروم فحمل عليه وطعنه طعنة صادقة فوقعت في خاصرته وطلعت من الناحية الاخرى ، فلما نظر الروم الى ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ونزل النصر على طائفة محمد المختار • حدثنا سعد بن أوس عن السرية التي انفذها أبو بكر الصديق (رض) مع يزيد بن ابي سفيان وربيعة بن عامر ، قال قد اجتمعا بعساكر الروم في ارض تبوك مع البطاليق وهزمهم الله تعالى على أيدينا ، وكان جملة من قتل منهم الفا ومائتين ، ومن قتل من المسلمين مائة وعشرين رجلا • قال وانالقوم لما انهزموا قال لهم جرجيس وهو أخو المقتول يا ويلكم بأي وجه ترجعون الى الملك ، وقد عملوا فينا عملا ذريعا ، وملئوا الارض من قتلانا ولا ارجع حتى آخذ بثأر أخي أو الحق به •قال واجتمع القوم وسمعوا منه ذلك ورجع بعضهم الى بعض وعادوا الى القتال ، فلما استقروا في خيامهم بعثوا رجلا من العرب المتنصرة اسمه القداح ، وقالوا له امضي الى بني عمك وقل لهم يبعثوا لنا رجلا من كبارهم وعقلائهم حتى ننظر ما يريدون منا • قال فركب القداح جواده واقبل نحو جيش المسلمين ، فلما رأوه مقبلا اليهم استقبله رجال من الاوس وقالوا له ماذا تريد ؟ قال لهم ان البطارقة يريدون رجالا من عقلائكم ليخاطبوهم فيما يريد الله من صلاح شأن الجمعين • قال فأخبروا يزيد بن ربيعة بما قال المتنصر • فقال ربيعة بن عامر أنا أسير الى القوم •

فقال يزيد يا ربيعة أنا أخاف عليك من القوم لانك قد قتلت كبيرهم بالامس · فقال ربيعة ـ قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ـ واني أوصيك والمسلمين أن تكون همتكم عندي فاذا رأيتم القوم غدروا بي فاحملوا عليهم ثم ركب جواده وسار حتى اتى جيش الروم وقرب من سرداق اميرهم · فقال القداح : عظم جيش الملك وانزل عن جوادك · فقال ربيعة (رض) ما كنت بالذي انتقل من العز الى الذل ولست أسلم جوادي لغيري وما أنا بنازل الا على باب السرداق والا رجعت من حيث جئت لاننا ما بعثنا اليكم ، بل انتم بعثتم الينا قال فأعلم القداح الروم بما تكلم به ربيعة بن عامر · فقال بعضهم لبعض صدق العربي في قوله دعوه ينزل حيث اراد قال فنزل ربيعة على باب السرداق وجثا على ركبته وأمسك عنان جواده بيده وسلاحه · فقال له جرجيس يا اخا العرب لم تكن أمة أضعف منكم عندنا وما كنا نحدث انفسنا انكم تغزوننا وما الذي تريدون منا ؟ فقال ربيعة نريد منكم أن تدخلوا في ديننا ، وأن تقولوا بقولنا ، وان أبيتم تعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون والا فالسيف بيننا وبينكم · فقال جرجيس فما منعكم ان تقصدوا الفرس وتدعون الصداقة بيننا وبينكم ؟· فقال ربيعة بدأنا بكم لانكم اقرب الينا من الفرس ، وان الله تعالى أمرنا في كتابه بذلك قال الله تعالى ـ يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ـ قال جرجيس : فهل لك أن تعقد الصلح بيننا وبينكم وأن نعطي كل رجل منكم دينارا من ذهب وعشرة أوسق من الطعام وتكتبوا بيننا وبينكم كتاب الصلح لا تغزون الينا ولا نغزوا اليكم · قال ربيعة لا سبيل الى ذلك وما بيننا وبينكم الا السيف او اداء الجزية أو الاسلام · قال جرجيس : أما ما ذكرت من دخولنا في دينكم فلا سبيل الى ذلك ولو نهلك عن آخرنا لاننا لا نرى لديننا بدلا · واما اعطاء الجزية فان القتل عندنا أيسر من ذلك ، وما انتم بأشهى منا الى القتال والحرب والنزال لان فينا البطارقة وأولاد الملوك ورجال الحرب وارباب الطعن والضرب · قال جلجيس لاصحابه علي بأنفس صقالبة حتى يناظروا هذا البدوي في كلامه · قال وكان الملك هرقل قد بعث معهم قسيسا عظيما عارفا بدينهم مجادلا عن شرعهم · قال فأتى الحاجب به ، فلما استقر به الجلوس قال له جرجيس يا أبانا استخبر من هذا الرجل عن

شريعتهم ، وعن دينهم • فقال القسيس يا اخي العربي انانجد في عملنا ان الله تعالى يبعث من الحجاز نبيا عربيا هاشميا قرشيا علامته ان الله تعالى يسري به الى السماء أكان ذلك ام لا ، قال نعم اسري به ، وقد ذكره ربنا في كتابه العزيز بقوله تعالى ـ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ـ قال القسيس انا نجد في كتابنا ان ربنا يفرض على هذا النبي وأمته شهرا يصومونه يقال له شهر رمضان • قال ربيعة نعم ، وقد قرأنا في القرآن العظيم ـ شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ـ فقال القسيس انا وجدنا في كتابنا أن من أحسن حسنة تكتب بعشرة • قال ربيعة نعم قال الله تعالى ـ من جاء بالحسنة فله عشر امثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الا مثلها وهم لا يظلمون ـ قال القسيس انا نجد في كتابنا ان الله يأمر أمته بالصلاة عليه • قال ربيعة نعم : وقد قال الله في كتابه العزيز ـ ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ـ قال فعجب القسيس من كلامه وقال للبطارقة ان الحق مع هؤلاء القوم • فقال بعض الحجاب ان هذا هو الذي قتل أخاك • فلما سمع ذلك ازورت عيناه وغضب غضبا شديدا وهم ان يثب على ربيعة ففهم ربيعة ذلك منه فوثب من مكانه اسرع من البرق وضرب بيده الى قائم سيفه وعاجل جرجيس بضربة فجندله صريعا قتيلا ووثب على فرسه فركبها فاسرعت البطارقة اليه وهو راكب فحمل فيهم ونظر يزيد بن أبي سفيان الى ذلك • فقال للمسلمين ان اعداء الله قد غدروا بصاحب رسول الله (ص) فدونكم واياهم ، فحمل المسلمون على المشركين واختلط الجيش بالجيش وصبرت الروم لقتال العرب فبينما هم في القتال اذ أشرفت جيوش المسلمين مع شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) ، فلما نظر المسلمون الى اخوانهم في القتال حملوا على القوم حملة صادقة وحكمت سيوفهم في قمم الروم •

(قال الواقدي) لقد بلغني ان الثمانية آلاف المذكورة من الروم لم ينج منهم أحد لان العرب التقطوهم بسبق الخيل وبعد الشام من تبوك ، ثم ان المسلمين اخذوا اموالهم وخيامهم ، ثم سلموا على شرحبيل ومن معه وجمعوا المال والغنائم • فقالوا نبعث الجميع الى أبي بكر الصديق (رض) فرضوا بذلك.

وبعثوا الجميع الا العدة والسلاح ، وبعثوا مع الغنائم والاموال شداد بن أوس (رض) في خمسمائة فارس ، ولما وصل بالمال الى المدينة المنورة وعاين المسلمون اموال المشركين رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، والصلاة على البشير النذير محمد (ص) ، وسمع الصديق بقدوم شداد بن أوس (رض) ومن معه من المسلمين ففرح بذلك فرحا شديدا ، ثم اقبلوا الى الصديق واعلموه بالفتح بعد ان سلموا عليه فسجد لله عز وجل ، ثم كتب كتابا الى أهل مكة يستدعيهم للجهاد مضمونه : بسم الله الرحمن الرحيم من أبي بكر الى أهل مكة وسائر المؤمنين فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) ·

(اما بعد) فاني قد استنفرت المسلمين الى الجهاد وفتح بلاد الشام ، وقد كتبت اليكم والى المسلمين ان تسرعوا الى ما أمركم به ربكم تبارك الله وتعالى : اذ يقول الله عز وجل ـ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ـ وهذه الآية فيكم وانتم أحق بها وأهلها ، وأول من صدق وقام بحكمها من ينصر دين الله فالله ناصره ، ومن بخل استغنى الله عنه والله غني حميد ، فسارعوا الى جنة عالية قطوفها دانية أعدها الله للمهاجرين والانصار ، فمن اتبع سبيلهم كتب من الاولياء الاخيار ، وحسبنا الله ونعم الوكيل · قال وختم الكتاب ودفعه الى عبد الله بن حذافة ، فأخذه وسار حتى وصل مكة وصرخ في أهلها ، فاجتمعوا اليه فدفع اليهم الكتاب فقرأوه على أصحاب رسول الله (ص) ، فلما سمعوه قال سهل ابن عمرو والحرث بن هشام وعكرمة بن ابي جهل ، وقالوا : اجبنا داعي الله وصدقنا قول نبيه محمد (ص) ، فأما عكرمة فانه قال الى متى نبسط لانفسنا وقد سبقنا القوم الى المواطن ، وقد فاز من فاز بالصدق ، وان كنا تأخرنا عن السبق فاللحاق بالسابقين يجعلنا من الفائزين ·· ثم خرج عكرمة بن ابي جهل في بني مخزوم وخرج الحرث بن هشام معهم وتلاحق أهل مكة خمسمائة رجل ، وكتب أبو بكر للطائف فخرجوا في اربعمائة رجل ·

(قال الواقدي) خرج بهم سعيد بن خالد بن سعيد بن العاص وكان غلاما نجيبا ، وذلك ان سعيد بن خالد أتى الى الصديق (رض) · فقال : يا خليفة رسول الله (ص) انك أردت ان تعقد لابي خالد راية ويكون قائدا

من قواد جيشك ، فتكلم فيه المتكلمون فعزلته حين رجع من بعنك ، وقد حبس نفسه في سبيل الله عز وجل ولم أزل مجيبا دعوتك في بعثك ، فهل لك ان تقدمني على هذا الجيش ، فو الله لا يراني الله وانيا ابدا ولا عاجزا عن الحرب ، قال وكان سعيد بن خالد نجيبا انجب من ابيه وأفرس ، فعقد له أبو بكر راية ودفعها اليه وأمره على الفين من العرب • قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام سعيد بن خالد وانه خير من ان يكون أميرا كره لك ذلك وأقبل على الصديق (رض) • يا خليفة رسول الله عقدت هذه الراية لسعيد بن خالد على من هو خير منه ، ولقد سمعته يقول عندما عقدتها على رغم الاعادي والله لتعلم انه ما يريد بالقول غيري ، والله ما تكلمت في أبيه •

(قال الواقدي) فتقل ذلك على أبي بكر وكره ان لا يعقد له ، وكره ايضا ان يخالف عمر لمحبته له ونصحه ومنزلته عند النبي (ص) ووثب قائما ، ودخل على عائشة (رض) واخبرها بخبر عمر بن الخطاب (رض) ، وما كان من كلامه • فقالت عائشة : قد علمت ان عمر ينصر الدين ويريد النصر لرب العالمين ، وما في قلب عمر بغض للمسلمين • قال فقبل قول عائشة (رض) ، ثم دعا بأزد الدوسي وقال له : امض الى سعيد بن خالد وقل له رد علينا رايتك • قال فردها ، وقال والله لاقتلن تحت راية ابي بكر حيث كان ، فاني قد حبست نفسي في سبيل الله •

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان الصديق حال تفكره فيمن يقدم طليعة الجيش • قال فتقدم اليه سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وهشام بن الحرث ، وقالوا اشهدوا اننا قد حبسنا أنفسنا في سبيل الله فلا نرجع عن القتال ابدا • فقال أبو بكر : اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون • ثم ان ابا بكر دعا عمرو بن العاص • فسلم اليه الرايه وقال قد وليتك على هذا الجيش : يعني أهل مكة والطائف وهوران وبني كلاب فانصرف الى ارض فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وأنجده اذا أرادك ولا تقطع أمرا الا بمشورته :أمض بارك الله فيك وفيهم • قال فأقبل عمرو بن العاص على عمر بن ا لخاطب (رض) •وقال له : يا أبا حفص أنت تعلم شدتي على العدو وصبري على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلني أميرا على أبي عبيدة ، وقد رأيت منزلتي عند رسول الله (ص) واني أرجو ان يفتح الله على يدي البلاد ويهلك الاعداء • قال عمر (رض) ما كنت بالذي اكذبك وما كنت بالذي اكلمه في ذلك ، فانه ليس على أبي عبيدة أمير ، ولابي عبيدة عندنا أفضل منزلة منك ، وأقدم سابقة منك

والنبي (ص) قال فيه « أبو عبيدة أمين الامة » قال عمرو ما ينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه . قال عمر بن الخطاب : ويلك يا عمرو انك ما تطلب بقولك هذا الا الرياسة والشرف فاتق الله ولا تطلب الا شرف الاخرة ووجه الله تعالى، فقال عمرو بن العاص : ان الامر كما ذكرت ثم امر الناس بالمسير تحت رايته فساروا ، وتقدم اهل مكة وتبعهم بنو كلاب وطيء وهوزان وثقيف وتخلف المهاجرون والانصار ليسيروا مع ابي عبيدة بن الجراح .

وصية الصديق لعمرو بن العاص

وتقدم عمرو بن العاص وسار . قال ابو الدرداء : كنت مع عمرو بن العاص في جيشه ، فسمعت أبا بكر يقول وهو يوصيه : اتق الله في سرك وعلانيتك واستحيه في خلواتك فانه يراك في عملك ، وقد رأيت تقدمتي لك على من هو أقدم منك سابقة واقدم حرمة فكن من عمال الاخرة ، وأرد بعملك وجه الله وكن والدا لمن معك وارفق بهم في السير فان فيهم أهل ضعف ، والله ناصر دينه ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، واذا سرت بجيشك فلا تسر في الطريق التي سار فيها يزيد وربيعة وشرحبيل ، بل اسلك طريق أيليا حتى تنتهي الى ارض فلسطين ، وابعث عيونك يأتونك بأخبار أبي عبيدة ، فان كان ظافرا بعدوه فكن أنت لقتال من في فلسطين ، وان كان يريد عسكرا فأنفذ اليه جيشا في أثر جيش ، وقدم سهل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل والحرث بن هشام وسعيد ابن خالد ، واياك ان تكون وانيا عما ندبتك اليه ، وأياك والوهن ان تقول جعلني ابن أبي قحافة في نحر العدو ولا قوة لي به ، وقد رأيت يا عمرو ونحن في مواطن كثيرة ونحن نلاقي ما نلاقي من جموع المشركين ونحن في قلة من عدونا ثم رأيت يوم حنين ما نصر الله عليهم . واعلم يا عمرو ان معك المهاجرين والانصار من أهل بدر ، فاكرمهم واعرف حقهم ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نجدة الشيطان فتقول : انما ولاني أبو بكر لاني خيرهم ، واياك وخداع النفس وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك ، والصلاة ثم الصلاة ، اذن بها اذا دخل وقتها ولا تصل صلاة الا بأذان يسمعه اهل العسكر ، ثم ابرز وصل بمن رغب في الصلاة معك فذلك افضل له ، ومن صلاها وحده أجزأته صلاته واحذر من عدوك وأمر أصحابك بالحرس ولتكن انت بعد ذلك مطلعا عليهم وأطل الجلوس بالليل

على أصحابك وأقم بينهم وأجلس معهم ولا تكشف استار الناس ، واتق الله اذا لاقيت العدو ، واذا وعظت اصحابك فأوجز واصلح نفسك تصلح لك رعيتك فالامام ينفرد الى الله تعالى فيما يعلمه وما يفعله في رعيته واني قد وليتك على من قد مررت من العرب فاجعل كل قبيلة على حميتها ، وكن عليهم كالوالد الشفيق الرفيق وتعاهد عسكرك في سيرك وقدم قبلك طلائعك فيكونوا امامك ، وخلف على الناس من ترضاه ، واذا رأيت عدوك فاصبر ولا تتأخر فيكون ذلك منك فخرا ، والزم اصحابك قراءة القرآن وانههم عن ذكر الجاهلية وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم ، وأعرض على زهرة الدنيا حتى تلتقي بمن مضى من سلفك وكن من الائمة الممدوحين في القرآن اذ يقول الله تعالى ـ وجلعناهم آئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكـــاة وكانوا لنا عابدين ـ قال فكان ابو بكر (رض) يوصي عمرو بن العاص وأبـو عبيدة حاضر ، ثم قال سيروا على بركة الله تعالى وقاتلوا اعداء الله وأوصيكم بتقوى الله فان الله ناصر من ينصره ٠ قـــال فسلم المسلمون عليه وودعوا وساروا في تسعة آلاف مع من ذكرنا يريدون أخذ فلسطين ، فلما كان بعدهم بيوم واحد عقد العقود والرايات الى أبي عبيدة بن الجراح وأمره بأن يقصد بمن معه ارض الجابية ، وقال يا أمين الامة قد سمعت ما وصيت به عمرو بن العاص وودعه المسلمون ، فلما عاد ابو بكر والمسلمون دعا بخالد بن الوليد وعقد لـه راية ، وكانت له راية النبي (ص) وأمره على لخم وجذام وضم له جيش الزحف وكانوا شجعانا ما منهم الا من شهد الوقائع مع رسول الله (ص) وقال لـــه يا أبا سليمان : قد وليتك على هذا الجيش فاقصد به ارض العراق وفارس وارجوا الله ان ينصركم ثم انه ودعه وسار خالد بمن معه يطلب العراق ٠

(قال) حدثني ربيعة بن قيس ٠ قال كنت في الجيش الذي وجهه أبو بكر الصديق مع عمرو بن العاص الـى فلسطين وايليا ٠ وكان صاحب رايته سعيد بن خالد ٠ قال وبعث ابو بكر مع كل جيش اميرا وهو يدعوا لهم بالنصر وأخذه القلق على المسلمين حتى عرف ذلك في وجهه ٠ فقال له عثمان بـــن عفان (رض) ما هذا الغم الذي نزل بك ؟ فقال اغتممت على جيوش المسلمين وارجوا الله ان ينصرهم على عدوهم ٠ فقال عثمان والله ما خرج جيش سررت به الا هذا الجيش الذي سار الى الشام ، وهذا الذي اوصى الله نبيه به ، وليس

في قوله خلف وانا سنظهر على الروم وفارس ولكن ما ندري متى يكون أفي هذا البعث أو غيره ولكن احسن الظن بالله • قال وبات الصديق فرأى فـــي منامه كأن عمرو بن العاص وجهه طرمة هو واصحابه ، ثم قصـــد عمـــرو ارضا خضرة سهلة وفرجة فحمل على فرسه ، ثم أتبعه اصحابه ، فاذا هم في ارض واسعة فنزلوا واستراحوا قال وانتبه أبو بكر من منامه فرحا بما رأى • فقال عثمان يدل على فتح الا انه يوشك ان يلقى عمرو في قتال المشركين مشقـــة عظيمة ثم يخلص منها •

(قال الواقدي) كانت الساقطة تنزل المدينة فـــي الجاهلية والاسلام يقدمون بالبر والشعير والزيت والتين والقماش ، وما يكون في الشام ، فقدم بعض الساقطة الى المدينة ، وابو بكر ينفذ الجيوش وسمعوا كلام ابي بكر لعمرو بن العاص ، وهو يقول عليك بفلسطين وايليا • قال فساروا بالخبر الى الملك هرقل • فلما سمع ذلك جمع أرباب دولته وبطارقته واعلمهم بالحديث الـــذي جرى وقال يا بني الاصفر هذا الذي كنت حذرتكم منه قديما وان أصحاب هـــذا النبي لا بد ان تملك ما تحت سريري هذا وقد قرب الوعد ، وان خليفة محمد قد انفذ لكم الجيوش وكأنكم بهم وقد اتوكم وقصدوا نحوكم فحذروا انفسكم وقاتلوا عن دينكم ، وعن حريمكم فان تهاونتم ملكت العرب بلادكم واموالكم • قال فبكى القوم • فقال لهم دعوا عنكم البكاء ، ثم قال له وزيره أيها الملك قد اشتهينا ان تدعو بعض من قدم بهذا الخبر عليك فأمر هرقل بعض حجابه ان يأتي برجل من المتنصرة ممن قدم عليه بالاخبار برجل منهم ، فقال له الملك كم عهدك ؟ قال منذ خمسة وعشرين يوما • قال فمن المتولي عليهم ؟ قال لـــه رجل يقال له ابو بكر الصديق وجه جيوشه الى بلدك ، قال هل رأيت أبـــا بكر • قال نعم وانه أخذ مني شملة بأربعة دراهم وجعلها على كتفه وهو كواحد منهم ، وهو يمشي في ثوبين ويطوف بالاسواق ويدور على الناس يأخذ الحق من القوي للضعيف • قال هرقل : صفه لي • قال هو رجل آدم اللون خفيف العارضين • فقال هرقل : وحق ديني هو صاحب احمد الذي كنا نجد في كتبنا انه يقوم بالامر من بعده ، ونجد في كتبنا أيضا ان بعد هذا الرجـــل رجلا آخر طويلا كالاسد الوناب يكون على يديه الدمدمة والجلاء • قال فشهـــق المتنصر من قول هرقل • وقال ان هذا الذي وصفته لي رأيته معه لا يفارقه • قال هرقل : هذا الامر والله قد صح وقد دعوت الروم الى الرشد والصلاح ، فأبوا ان يطيعوني ، وأن ملكي سوف ينهدم ، ثم عقد صليبا من الجوهر ،

وأعطاه قائد جيوشه روبيس • وقال له قد وليتك على الجيوش فسيروا لمنع العرب من فلسطين فانها بلد خصب كثيرة الخير وهي عزنا وجاهنا وتاجنا ، فتسلم روبيس الصليب وسار من يومه الى أجنادين واتبعه جيش الروم •

عمرو بن العاص في فلسطين

(قال الواقدي) : لقد بلغني ان عمرو بن العاص توجه الى ايليا ، حتى وصل الى ارض فلسطين هو ومن معه قال • فلما نزل المسلمون بفلسطين جمع عمرو المسلمين المهاجرين والانصار وشاورهم في امرهم فبينما هم في المشورة أذ أقبل عليهم عدي بن عامر ، وكان من خيار المسلمين ، وكان كثيرا ما يتوجه الى بلاد الشام ، وداس ارضهم وعرف مساكنها ومسالكها • فلما أشرف على المؤمنين داروا به واوقفوه بين يدي عمرو بن العاص • فقال عمرو بن العاص ما الذي وراءك يا ابن عامر ؟ قال ورائي المتنصرة وجنودهم مثل النمل • فقال له عمرو : يا هذا لقد ملأت قلوب المسلمين رعبا وانا نستعين بالله عليهم • فقال له فكم حزرت القوم ؟ • فقال : أيها الامير اني قد علوت على شرف من الجبال عال ، فرأيت من الصلبان والرماح والاعلام ما قد ملأ الاجم ، وهو اعظم جبل بأرض فلسطين وهم زيادة عن مائة الف فارس ، وهذا ما عندي من الخبر قال فلما سمع عمرو ذلك قال :

لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم أقبل على من حضر من كبار المسلمين • وقال أيها الناس انا واياكم في هذا الامر بالسواء فاستعينوا بالله على الاعداء ، وقاتلوا عن دينكم وشرعكم فمن قتل كان شهيدا ، ومن عاش كان سعيدا ، فماذا أنتم قائلون ؟ قال فتكلم كل رجل بما حضر عنده من الرأي • فقالت طائفة منهم : أيها الامير ارجع بنا الى البرية حتى نكون في بطن البيداء فانهم لا يقدرون على فراق القرى والحصون • فاذا جاءهم الخبر اننا توسطنا البرية يتفرق جمعهم وبعد ذلك نعطف عليهم وهم على غفلة فنهزمهم ان شاء الله تعالى • فقال سهل بن عمرو : ان هذه مشورة رجل عاجز • فقال رجل من المهاجرين : لقد كنا مع رسول الله (ص) نهزم الجمع الكثير بالجمع القليل ، وقد وعدكم الله النصر وما وعد الصابرين الا خيرا ، وقد قال الله تعالى ـ يا أيها الذين آمنو قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ـ قال سهل ابن عمرو : أما أنا فلا رجعت عن قتال الكفرة ولا رددت سيفي عنهم ، فمن شاء فلينهض ، ومن شاء فليرجع ، ومن نكص على عقبيه فأنا وراءه بالمرصاد ، قال فلما سمع المسلمون انه وافقه على ذلك عبد الله

بن عمر بن الخطاب (رض) : قالوا أحسنت يا أبا الفاروق ، قال : ثم ان عمرو بن العاص عقد راية واعطاها عبد الله بن عمر بن الخطاب وضم اليه ألف فارس فيهم رجال من الطائف ومن ثقيف وأمرهم بالمسير فسار عبد الله ، وجعل يجد السير بقية يومه الى الصباح ، واذا بغبرة القوم قد لاحت . فقال عبد الله بن عمر : هذه غبرة عسكر واظنها طليعة القوم ، ثم وقف ووقف امامه اصحابه . فقال قوم من البادية اتركنا نرى ما هذه الغبرة . فقال لا تتفرقوا من بعضكم حتى نرى ما هي فوقف الناس ، واذا بالغبرة قد قربت وانكشفت عن عشرة آلاف من الروم وقد بعث معهم روبيس بطريقا من أصحابه ، وكانوا قد ساروا يكشفون خبر المسلمين . فلما نظرهم عبد الله بن عمر قال لاصحابه لا تمهلوهم لانهم لا بد لهم منكم ، والله ينصركم عليهم : واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف ، قال فأعلن القوم بقول لا اله الا الله محمد رسول الله . فلما جهروا بها أجابهم الشجر والمدر والدواب والحجر ، وكان اول من حمل عكرمة بن أبي جهل وتبعه سهل بن عمرو والضحاك أيضا بالجملة وصاح في رجاله وحمل المهاجرون ، والانصار معهم والتقى الجمعان ، وعمل السيف في الفريقين . قال عبد الله بن عمر : وبينما انا في الوقعة اذ نظرت من القوم بطريقا عظيم الخلقة وهو كالحائر البليد ، وهو يركض يمينا وشمالا ، فقلت ان يكن لهذا الجيش عين ، فهذا عين الجيش وصاحب الطلائع ، وهو مرغوب من الحرب . فلما حملت عليه ومددت قناتي اليه ، نفر فرسه من الرمح فقربت منه واوهمته اني أريد الانهزام ، ثم عطفت عليه وطعنته ، فوالله لقد خيل لي اني ضربت بسيفي حجرا ، وسمعت طنين السيف حتى حسبت ان سيفي انفصل ، واذا هو صريع ثم عطفت عليه واخذت لامته . فلما رأى المشركون صاحبهم مجندلا داخلهم الفزع والهلع وصدمهم المسلمون في الضرب والقتال ، فلله در الضحاك والحرث بن هشام ، لقد قاتلا قتالا شديدا ما عليه من مزيد ، فما كان غير قليل حتى انهزم الكفار من بين ايديهم هاربين . قال فرجع المسلمون واجتمع بعضهم على بعض وجمعوا الغنائم والاموال . وقال بعضهم لبعض ما فعل الله بعبد الله بن عمر ، قال قائل منهم : الله خبير بحسن زهده وعبادته . وقال اخرون : لقد أصبنا بابن عمر فما كان يساوي هذا الفتح شعرة من رأسه .

قال عبد الله بن عمر : وانا مع ذلك أسمع كلامهم خلف الراية . فاعلنت بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وهززت الراية . فلما نظر المسلمون الراية سارعوا الي وقالوا : أين كنت فقلت اشتغلت بقتال صاحبهم ،

فقالوا أفلح والله وجهك فهذا والله فتح قد رزقنا الله اياه ببركتك • قال عبد الله ، بوجوهكم ، ثم حازوا الاموال والغنائم والخيل وستمائة أسير وقتل من المسلمين سبعة نفر فواروهم وصلى عليهم ابن عمر وانعطف الجيش الى عمرو بن العاص وحدثوه بما جرى ففرح وحمد الله تعالى ، ثم دعا بالاسرى واستنطق منهم بالعربية فما كان فيهم غير ثلاثة نفر من أنباط الشام فسألهم عن خبرهم وخبر اصحابهم فقالوا يا معشر العرب : ان هذا روبيس قد أقبل في مائة الف فارس ، وقد امره الملك ان لا يدع احدا من العرب يصل ايليا •• وانه بعث بهذا البطريق طليعة ، وقد قتل وكأنكم به • فقال عمرو ان الله يقتله كما قتل صاحبكم ، ثم عرض عليهم الاسلام ، فما أحد منهم أسلم • فقال عمرو للمسلمين كأنكم بصاحبهم ، وقد أتى يأخذ ثأرهم وهؤلاء تركهم علينا بلاء ، ثم أمر بضرب اعناقهم وصاح بالمسلمين استعدوا فاني أظن ان القوم سائرون ، فان أتوا الينا فهم في شدة وقوة وسنلقي منهم تعبا في القتال وان سرنا اليهم نرجو من الله النصر والظفر بهم كما ظفرنا بغيرهم وما عودنا الله الا خيرا • قال ابو الدرداء : بتنا مكاننا • فلما جاء الله بالصباح رحلنا فما بعدنا غير قليل حتى اشرقت علينا عشرة صلبان تحت كل صليب عشرة آلاف فارس • فلماأشرف الجيش على الجيش أقبل عمرو ورتب أصحابه وجعل في الميمنة الضحاك وفي الميسرة سعيدا ، وأقام على الساقة أبا الدرداء وثبت عمرو في القلب ومعه أهل مكة ، وأمر الناس يقرأون القرآن • وقال لهم اصبروا على قضاء الله وارغبوا في ثواب الله وجنته ، ثم انه جعل يصفهم ويعبيهم تعبية الحرب ونظر روبيس بطريق الروم الى عسكر المسلمين ، وقد صفهم عمر بن العاص لا يخرج سنان عن سنان ولا عنان عن عنان ولا ركاب عن ركاب، وهم كأنهم بنيان مرصوص ، وهم يقرأون القرآن • والنور يلمع من نواصي خيولهم فشم منهم رائحة النصر وتبين من نفسه الجزع ، وعلم أن كل من معه كذلك فوقف ينظر ما يكون من المسلمين وانكسرت حميته • قال وكان اول من برز من جيش المسلمين سعيد ابن خالد (رض) ،وهو اخو عمرو بن العاص من امه • فلما برز نادى برفيع صوته ابرزوا يا اهل الشرك ، ثم حمل على الميمنة فالجأها الى المسيرة ، وحمل على الميسرة فألجأها الى ا لميمنة وقتل رجالا وجندل ابطالا ، ثم اقتحم فيهم فشوشهم وزعزع جيشهم • قال فاجتمعوا عليه فقتلوه رحمة الله عليه • قال فحزن المسلمون على قتله حزنا عظيما واكثرهم عمرو بن العاص • وقال : واسعيداه ، لقد اشترى نفسه من الله عز وجل • ثم قال : يافتيان من يحمل معي هذه الحملة حتى ننظر ما يكون

من امرها وأنظر حال سعيد • قال فاسرع بالاجابة ذو الكلاع الحميري وعكرمة بن أبي جهل والضحاك والحرث بن هشام ، ومعاذ بن جبل وابو الدرداء ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب (رض)عنهم اجمعين • قال عبد الله وكنا سبعين رجلا، وحملنا حتى دنونا من القوم وهم لا يفكرون من حملتنا لانهم جبال من حديد •

(قال الواقدي) رحمة الله عليه : فلما رأى المسلمون ثبات الروم صاح بعضنا لبعض ابعجوا دوابهم فما هلاكهم غير ذلك قال فبعجنا دوابهم بالاسنة فتنكسوا فبعد انتكاسهم تفرق بعضهم عن بعض وحملوا علينا وحملنا عليهم، وكنا فيهم كالشامة البيضاء في جلد البعير الاسود وكان شعارنا يوم فلسطين: لا اله الا الله محمد رسول الله يا رب انصر امة محمد (ص) قال ابو الدرداء : فلقد شغلني الحرب عن مناشدة الاشعار ، ولقد كان احدنا لا يدري أهو يضرب أخاه أو عدوه من كثرة القتام قال فثبت المسلمون مع قتلهم وفوضوا امرهم الى الله عز وجل وما كان احد من المسلمين يضرب الا وظهره ناطق بالدعاء يقول : اللهم انصرنا على من يتخذ معك شريكا • قال عبد الله بن عمر بن الخطاب فلم يزل الحرب بيننا الى وقت الزوال وهبت الرياح والناس في القتام اذ نظرت الى السماء وقد انفرج فيها فرج وخرجت منها خيول شهب تحمل رايات خضرا أسنتها تلمع ومناد ينادي بالنصر ابشروا يا امة محمد (ص) فقد أتاكم الله بالنصر • قال فلما كان غير قليل اذ نظرت الى الروم منهزمين ، والمسلمون في أعقابهم لان خيل العرب أسبق من خيل الروم • قال ابن عمر : فقتلنا في هذه الواقعة قريبا من خمسة عشر الف فارس واكثر ولم نزل في آثارهم الى الليل وعمرو بن العاص قد فرح بالنصر وقلبه متعلق بالمسلمين لاسراعهم وراء العدو ، وقال عمرو بن غياث : فنظرت الى عمرو بن العاص والراية في يده ، وقد أوفى القناة علي عاتقه وهو يعركها بيده ويقول من يرد الناس علي رد الله عليه ضالته اذ نظرت العرب قد عطفت راجعة كعطفة الام على ولدها فاستقبلهم عمرو ، وهو يقول هنيئا لهذه الوجوه التي تعبت في رضا الله تعالى أما كان لكم كفاية في ان خولكم الله حتى اتبعتم العدو ، فقالوا : ما اردنا الغنيمة ، بل القتال والجهاد ، قال ولما رجع المسلمون لم يكن لهم همة الا افتقاد بعضهم بعضا ففقد من المسلمون مائة وثلاثون رجلا ختم الله لهم بالسعادة منهم سيف بن عبادة ونوفل بن دارم والاهب بن شداد والباقي من اليمن ووادي المدينة • قال فاغتم عمرو لفقدهم ، ثم راجع نفسه وقال قد نزل بهم خير ، وانت يا عمرو تأبى ذلك ثم ندب الناس الى الصلاة كما أمره ابو بكر الصديق (رض) فصلى ما فاته كل صلاة بأذان واقامة ، قال ابن

عمر : ما صلى خلفه الا قليل ، بل صلى الناس في رحالهم من تبعهم ولم يجمعوا من الغنائم إلا القليل وبات الناس ، فلما أصبح عمرو أذن وصلى بهم وأمر الناس بجمع القتلى وأن يخرجوا أخوانهم المؤمنين من الروم فجعلوا يلتقطونهم : قال فاخرجوا مائة وثلاثين رجلا ووجدوا سعيد بن خالد ، فلما نظر عمرو الى ما نزل به بكى ، وقال رحمك الله فقد نصحت لدين الله وأديت النصيحة ثم جعله في جملة المسلمين وصلى عليهم وأمر بدفنهم ، وذلك قبل أن يخمس شيئا من الغنائم ثم بعد ذلك جمعها اليه وكتب الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه :

كتاب عمرو بن العاص الى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص الى أمين الامة ، أما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وصلت الى ارض فلسطين ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس في مائة الف فارس فمن الله بالنصر وقتل من الروم خمسة عشر الف فارس وفتح الله على يدي فلسطين بعد أن قتل من المسلمين مائة وثلاثون رجلا فان احتجت الي سرت اليك والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ٠ ودفع الكتاب الى ابي عامر الدوسي وأمره أن يسير الى أبي عبيدة ٠ قال فاسرع ابو عامر بالكتاب فوجد أبا عبيدة وهو نازل بأرض الشام وجاهر بالدخول اليها غير انه امره كما امره ابو بكر ٠ قال فلما وصل ابو عامر قال له ابو عبيدة ما وراءك ؟ قال خير هذا كتاب من عمرو بن العاص يخبرك بما فتح الله على يديه ، ثم سلم اليه الكتاب ، فلما قرأه خر ساجدا فرحا بنصر الله ثم قال والله قتل من المسلمين رجال اخيار منهم سعيد بن خالد ٠ قال ابو عامر فكان خالد والده جالسا ، فلما سمع بأن ولده قد قتل قال : « وا ابناه » وجعل يبكيه حتى بكى المسلمون لبكائه ، ثم ان خالدا اسرع الى فرسه فركبها وعزم الى ارض فلسطين لينظر الى قبر ولده ٠ فقال ابو عبيدة كيف تسير وتدعنا ٠ فقال انما انظر قبر ولدي وارجو الله ان يلحقني به ، قال وكتب ابو عبيدة كتابا لعمرو بن العاص يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم انما أنت مأمور فان كان ابو بكر امرك أن تكون معنا فسر الينا ، وان كان امرك بالثبات في موضعك فاثبت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ٠ وطوى الكتاب وسلمه الى خالد بن سعيد وسار مع ابي عامر الى ان اتيا الى جيش عمرو بن العاص فدفع له الكتاب وهو يبكي فوثب عمرو وصافح خالدا ورفع منزلته وعزاه في ولده سعيد وعزاه

المسلمون • فقال خالد : يا أيها الناس هل اروى سعيد رمحه وسيفه في الكفار قالوا نعم • فلقد قاتل وما قصر ، ولقد جاهد في الدين ونصر • فقال اروني قبره ، قال فأروه اياه فأقام على القبر وقال : يا ولدي رزقني الله الصبر عليك والحقني بك وانا لله وانا اليه راجعون ، والله ان مكنني الله لآخذن بثأرك يا ولدي عند الله احتسبتك ، ثم قال لعمرو بن العاص اني اريد أن أسري بسرية في طلب القوم فلعل أن أجد فيهم فرصة أو غنيمة واكون قد أخذت بثأر ولدي ، فقال عمرو : ان الحرب امامك يا ابن الام • فاذا رأيت الروم فلا تبق عليهم • فقال خالد : والله لأسيرن اليهم ، ثم أخذ اهبته للمسير وعزم ان يسير وحده فركب معه ثلثمائة فارس من فتيان حمير فساروا يومهم ذلك اجمع وارادوا النزول في ألاودية ليعلفوا دوابهم ويسيروا ليلتهم اذ نظر خالد بن سعيد الى أشباح على ذروة جبل هناك عال منيع • فقال لاصحابه اني أرى أشباحا على ذروة هذا الجبل ونحن في هذا الوادي ، ثم قال كونوا في اماكنكم ثم نزل عن فرسه وتقلد سيفه والتحف بازاره وقال اعلموا ان القوم ما علموا بنا ولو نظروا الينا ما ثبتوا في اماكنهم فمن منكم يبذل نفسه ويصنع كما أصنع ؟ قالوا كلنا لك قال فطافوا في الجبل حتى أشرفوا على القوم وهم في أماكنهم فعند ذلك قال خذوهم بارك الله فيكم فأسرع اليهم المسلمون فقتلوا منهم ثلاثين واسروا اربعة فسألهم خالد بن سعيد فاذا هم من انباط الشام عن حالهم فقالوا نحن من أهل هذا البقيع والجامعة وكفار القرية وقد عظم علينا دخول العرب الى بلادنا وقد فزعنا منهم فزعا عظيما ، وقد هرب اكثرنا الى الحصون والقلاع ، وقد اعتصمنا نحن بهذا الجبل ، لانه ليس في الرستاق أحصن منه فعلونا عليه وانتم كبستمونا • قال خالد فما بلغكم عن جيش الروم ؟ قالوا بأجنادين وهذا البطريق أقبل الينا ليأخذ الميرة والعلوفة ، وقد جمعوا له الدواب والبغال والحمير تحمل الميرة وهم مع ذلك خائفون ان تلحقهم خيل العرب ، وهذا خبر قومنا ولا شك انهم رحلوا من يومهم ، قال فلما سمع خالد بن سعيد مقالتهم ، قال غنيمة للمسلمين ورب الكعبة ، ثم قال : اللهم انصرنا عليهم ثم سأل على أي طريق سار القوم قالوا على هذه الطريق التي انتم عليها لانها اوسع الطرق كلها ، واما الميرة فانها مجموعة من حول البلاد ، فلما سمع خالد كلامهم قال لهم •

أسلموا فقالوا له ما نعرف الا دين الصليب ، ونحن فلاحين قال فهم خالد بقتلهم • فقال رجل من اصحابه دعهم يدلونا على الطريق الى مسيرة القوم فأجابوهم الى ذلك وساروا وهم يدلونهم الى تل عظيم • قال فتوافق

القوم وهم يحملون دوابهم حول التل ومعهم ستمائة لابس من القوم ، فلما نظر خالد الى ذلك • قال لاصحابه اعلموا ان الله قد وعدكم بالنصـــر على عدوكـم وفرض عليكم الجهاد وهذا جيش العدو امامكم فارغبوا في ثواب الله تعالـــى واسمعوا ما قال الله عز وجل : ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا وكأنهم بنيان مرصوص ، وها انا احمل فاحملوا ولا يخرج أحد عن صاحبـــه ثم ان خالدا حمل وحمل ا صحابه قال فلما رأونا استقبلونا وانهزم من كان مع الدواب من الفلاحين وصبرت الخيل لقتالنا ساعة من النهار قال فبينما ذو الكلاع الحميري يشجع اصحابه ويقول يا اهل حمير ابواب الجنة فتحت والحـــور العين قد تزخرفت واذا بصاحب القوم قد لقيه خالد فعرفه بلامته وحسن زيه • قال فاستقبله وصرخ فيه فأرعبه ثم قال يا لثأر ولدي سعيد وطعنه طعنة صادقة فجندله صريعا كانه برج من حديد وما بقي أحد الا قتل من الروم • قال فلما رأى الروم ذلك ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وقتل منهم ثلثمائة وعشرون فارسا وولى الباقون منهزمين وتركوا الاثقال والبغال والميرة واخذ المسلمون الجميع بعون الله تعالى • قال واطلق سراح الفلاحين وعاد خالد ومن معـــه بالغنائم والميرة الى عمرو بن العاص ففرح بسلامتهم وشكر فعلهم وكتب كتابا الى ابي بكر الصديق ، وذكر له ما جرى مع الروم وبعث الكتاب مع ابي عامر الدوسي (رض) واخذه وقدم به المدينة وأعطاه أبا بكر الصديق (رض) •فلما قرأه على المسلمين فرحوا وضجوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، ثم ان ابا بكر استخبر عن أبي عبيدة • فقال له عامر انه قد اشرف على اوائل الشام ولم يجسر على الدخول اليها وانه سمع ان جيوش الملـــك قد اجتمعت من حول ا جنادين وهم أمم لا تحصى وقد خاف على المسلمين أن يتوسط بهم عدوهم •

خالد بن ا لوليد في الشام

فلما سمع ابو بكر ذلك علم ان أبا عبيدة لين العريكة ولا يصلح لقتال الروم وعول أن يكتب الى خالد بن الوليد ليوليه على جيوش المسلمين وقتال الروم واستشار المسلمين في ذلك فقالوا الرأي ما تراه ، وكتب كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عتيق بن أبي قحافة الى خالد بـن الوليد سلام عليك : اما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) واني قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم وان تسارع الى مرضاة الله عز وجل وقتال اعداء الله ، وكن ممن يجاهد في

الله حق جهاده ثم كتب ـ يا ايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ـ الآية وقد جعلتك الامير على ابي عبيدة ومن معه وبعث الكتاب مع نجم بن مقدم الكناني فركب على مطيته وتوجه الى العرّاق فرأى خالـــدا (رض) قد اشرف على فتح القادسية فدفع اليه الكتاب فلما قرأه قال : السمع والطاعة لله ولخليفة رسول الله (ص) ثم ارتحل ليلا واخذ طريقه عن اليمين وكتب كتابا الى أبي عبيدة يخبره بعزله وبسيره ا لى الشام ، وقد ولاني ابو بكر على جيوش المسلمين فلا تبرح من مكانك حتى ا قدم عليك والسلام وبعث الكتاب مع عامر بن الطفيل (رض) ، وكان أحد أبطال المسلمين فأخذه وتوجـه يطلب الشام •

وأما خالد فلما وصل الى ارض السماوة قال : ايها الناس ان هذه الارض لا تدخلونها الا بالماء الكثير لانها قليلة الماء ونحن في جيش عظيم والماء معكم قليل فكيف يكون الامر ؟ فقال له رافع بن عميرة الطائي (رض) ايها الامير اني أشير عليك بما تصنع ، فقال يا رافع أرشدك الله بما نصنع ووفقك الله مولانا جل وعلا للخير ، قال فأخذ رافع ثلاثين جملا وعطشها سبعة ايام ثم اوردها الماء فلما رويت خرم أفواهها ، ثم ركبوا المطايا وجنبوا الخيول وساروا فكانوا كلما نزلوا منزلا أخذوا عشرة من الابل يشقون بطونها ويأخذون مـــا يجدون من الماء في بطونهافيجعلونه في حياض الادم ، فاذا برد سقوه للخيل واكلوا اللحم ولم يزالوا كذلك حتى تمت الابل وفرغ الماء وقطعوا مرحلتين بلا ماء واشرف خالد ومن معه على الهلاك • فقال خالد لرافع ابن عميرة يا رافع قد اشرفنا على الهلاك والتلف أتعرف لنا ماء ننزل فيه •

(قال الواقدي) وكان رافع رمدت عيناه • فقال ايها الامير أتاني رمد كما ترى ، ولكن اذا اشرفتم على ارض سهلة فاعلموني • قال فلما اشرفوا عليها اعلموا رافعا بذلك • قال فرفع طرف عمامته عن عينيه ، وسار على راحلته يضرب يمينا وشمالا والناس من ورائه الى ان أقبل على شجرةمن الاراك فكبر وكبر المسلمون ، ثم قال احفروا هنا • قال فحفرت العرب واذ الماء قد طلـــع كالبحر ، فنزل الناس عليه وشكروا الله تعالى واثنوا عليه وعلى رافع خيرا ، ثم وردوا الماء وسقوا خيلهم وابلهم ، ثم جدوا في طلب من انقطع من المسلميـــن ومعهم القرب بالماء • قال فسقوهم فارتجعت قوتهم • ثم لحقوا بالجيش وأراحوا انفسهم ، ثم في ثاني يوم جدوا في المسير الى ان بقي بينهم وبين أركة مرحلـة واحدة ، فبينما هم كذلك اذ اشرفوا علىحلة عامرة واغنام وابل قد سدت الفضاء

والمستوى ، فأسرع المسلمون الى الحلة واذا براع يشرب الخمر والى جانبه رجل من العرب مشدود • قال فتبينه المسلمون واذا هو عامر بن الطفيل الـــذي أرسله خالد • قال فأقبل خالد ابن الوليد مسرعا حتى وقف عليه ، فلما رآه تبسم وقال : يا ابن الطفيل كيف كان سبب اسرك ؟ قال عامر ايها الامير اني اشرفت على هؤلاء القوم في هذه الحلة وقد اصابني الحر والعطش فملت الى هذا الراعي ليسقيني من اللبن فوجدته يشرب خمرا • فقلت له يا عدو الله أتشرب الخمر وهي محرمة • فقال لي يا مولاي انها ليست بخمر وانما هي ماء زلال ، فانزل كي تراه واستنشق ما في الجفنة فان كان خمرا فافعل ما بدا لك ، فلما سمعت كلامه انخت المطية ونزلت عن كورهاوجلست على ركبتي فـــي الجفنة وإذا نا بالعبد قد طلبنـ، بعصا كانت الى جانبه وضربني عـــلى رأسي فشجني شجة موضحة ، فانقلبت على جانبي فأسرع العبد الي وشدني كتافا واوثقني رباطا وقال لي اظنك من اصحاب محمد بن عبد الله ولست ادعـــك من بين يدي او يقدم سيدي من عند الملك • فقلت له ومن سيدك من العرب ؟ فـــقال القداح بن وائلة واني عند هذا العبد كلما شرب الخمر حضرني كمـــا ترى والقى علي فضلة من كأسه • قال فلما سمع خالد بن الوليد كلام عامـــر بن الطفيل اشتد به الغضب ومال على العبد وضربه ضربة هائلة فجندله صريعا ونهب المسلمون المال والاغنام والابل وقلعوا الحلة بما فيها واطلق عامرا وقال له أين رسالتي يا عامر ؟ فقال يا مولاي هي فى طرف عمامتي لم يعلم بهـــا العبد • فقال خالد انطلق بها يا عامر على بركة الله تعالى • قال فركب عامر وسار يطلب الشام وارتحل خالد من موضعه ذلك فنزل بأركة وهي رأس الامانة لمن يخرج من العراق ، وكانت الروم تمسك بها القوافل وكان عليها بطريق من قبل الملك فأغار خالد عليها وأخذ ما كان فيها وتحصن أهلها بحصنها وكان يسكن فيها حكيم من حكماء الروم وقد طالع الكتب القديمة والملاحم ، فلمـــا رأى المسلمين وجيشهم انتقع لونه وقال اقترب الوقت وحق ديني • فقال أهل أركة وكيف ذلك ؟ قال ان عندي ملحمة فيها ذكر هؤلاء القوم ، وان أول راية تشرف من خيلهم هي الراية المنصورة وقد دنا هلاك الروم ، فانظروا ان كانت رايتهم سوداء واميرهم عريض اللحية طويل ضخم بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل في وجهه اثر جدري فهو صاحب جيشهم في الشـــام وعلـــى يديـــه يكون الفتح •

قال فنظر القوم واذا الراية على رأس خالد وهي كما قال حكيمهم • قال

واجتمعوا على بطريقهم وقالوا له أنت تعلم ان الحكيم سمعان لا ينطق الا بالحق والحكمة وقد قال كذا وكذا • والذي وصفه لنا رأيناه عيانا ونرى من الرأي آن نعقد بيننا وبين العرب صلحا ونأمن على حريمنا وانفسنا • فلما سمع ذلك بطريقهم قال اخروني الى غد لارى من الرأي • قال فانصرفوا من عنده وبات البطريق يحدث نفسه ويدبر امره وكان عارفا عاقلا خبيرا بالامور ، وقال ان أنا خالفتهم خفت أن يسلموني للعرب ، وقد تحقق أن روبيس سار بجيش عظيم فهزمهم العرب ولم يزل يراود نفسه الى أن أصبح الصباح فدعا قومه • وقال على ماذا عولتم ؟ قالوا عولنا على اننا نقيم الصلح بيننا وبين العرب • فقال البطريق : انا واحد منكم مهما فعلتم لا اخالفكم • قال فخرج مشايـــخ أركة الى خالد وكلموه في الصلح ، فأجابهم الى الصلح والان الكلام لهـــم وتلقاهم بالرحب والسعة ليسمع بذلك اهل السخنة ويبلغ الخبر لاهل قدمة ، وكان الوالي عليهم بطريق اسمه كوكب ، فجمع رعيته وقال لهم بلغني عـــن هؤلاء العرب انهم فتحوا أركة والسخنة وان قومنا يتحدثون بعدلهم وحسن سيرتهم وانهم لا يطلبون الفساد وهذا حصن مانع لا سبيل لاحد علينا ، ولكن نخاف على نخلنا وزرعنا ، وما يضرنا ان نصالح العرب ، فان قومنا هم الغالبين فسخنا صلحهم ، وان كان العرب ظافرين كنا آمنين • قال ففرح قومه بذلـك وهيئوا العلوفة والضيافة حتى خرج خالد (رض) من اركة ونزل عليهـــم فخرجوا اليه بالخدمة وصالحهم على ثلثمائة أوقية من الذهب وكتب لهم كتابا بالصلح ، ثم ارتحل عنها الى حوران وبلغ عامر بن الطفيل كتاب خالد الـــى عبيدة ، فلما قرأه تبسم وقال : السمع والطاعة لله تعالى ولخليفة رســـول الله (ص) ، ثم اعلم المسلمين بعزله وولاية خالد بن الوليد ، وكان ابو عبيدة وجه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص الى بصرى في أربعة آلاف فارس • قال فسار على فنائها ، وكان على بصرى بطريق عظيم الشان والقدر عند الملك وعند الروم اسمه روماس ، وكان قرأ الكتب السالفة والاخبار الماضية ، وكان يجتمع اليه الروم من اقصى بلادها ينظرون الى عظيم خلقته ويسمعون الفاظ حكمته) ، وكانت آهلة بالخلق عامرة بالناس ، وكان فيها ألف فارس ، وكان العرب يقصدونها ببضائعهم وتجارتهم من اقصى اليمين وبـلاد الحجاز ، فاذا كان في ايام الموسم ينصب لبطريقهم كرسي ليجلس عليـــه ويجتمع الناس اليه ، ويستفيدون من علمه وحكمته ، فبينما هم قد اجتمعوا اليه وقعت الضجة بقدوم شرحبيل بن حسنة وعسكره فبادر الى جـــواده

فركبه وصاح في قومه فأجابوه وقال لا تتحدثوا حتى نسمع كلام القوم وما عندهم ، ثم سار حتى قرب من شرحبيل بن حسنة وجيشه ، ونادى يا معشر المسلمين انا روماس واني اريد صاحبكم • قال فخرج اليه شرحبيل ، فلما قرب منه قال البطريق من انتم ؟ قال شرحبيل من أصحاب محمد (ص) النبي الامي القرشي الهاشمي المنعوت في التوراة والانجيل فقال روماس : ما فعـــل اللــه به ؟

فقال شرحبيل قبضه الله اليه ؟ فقال البطريق فمن ولى الامر بعده قال عتيق بن ابي قحافة بن بكر بن تيم بن مرة • فقال روماس : وحق ديني لقد أعلم بأنكم على الحق ولا بد لكم ان تملكوا الشام والعراق وانا اشفق عليكـم اذا بتم في جمع يسير ونحن في جمع كثير ، ولكن ارجعوا الى بلادكم فانـا لا نتعرض لكم • واعلم يا أخا العرب ان ابا بكر هو صاحبي ورفيقي ولـــو كان حاضرا ما قاتلني • فقال شرحبيل : لو كن ودله او ابن عمه لما عفا عنـه الا انيكون من اهل ملته ، وليس له في الامر شيء لانه مكلف ، وقد امره الله ان يجاهدكم ولسنا نبرح عنكم الا باحدى ثلاث : اما ان تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية ، أو السيف • فقال روماس : وحق ما اعتقده من ديني : لو كان الامر الي ما أقاتلكم لاني أعلم انكم على حـــق ، وهؤلاء طواعية الروم وقوم مجتمعون ، واني أريد ان ارجع اليهم وانظر ما عندهم • فقال شرحبيل : ارجع اليهم فلا بد لكم بما ذكرت • قال فعاد روماس الى قومه وجمعهم ، وقال يا اهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية : ان الذي كنتم تعتقدونه في كتبكم مـــن الخروج من بلادكم ودياركم ونهب اموالكم قد قرب ، وهذا وقته وزمانـــه ولستم اعظم جيشا من روبيس سار الى شرذمة من العرب بأرض فلسطين • فقتل وقتل من معه وانهزم الباقون ، ولقد بلغني ان رجلا منهم قد خرج من ارض السماوة صوب العراق اسمه خالد بن الوليد وقد فتح أركة والسخنة وتدمر وحوران ، وهو عن قريب يحضر اليكم ، والصواب أن تؤدوا الجزية عن يد الى هؤلاء العرب وينصرفون عنكم • قال : فلما سمع قومه ذلك غضبوا وشوشوا وهموا بقتله • فقال روماس : يا قوم انما اردت ان اختبركم ، وأرى حمية دينكم والان دونكم والقوم وانا في اولكم • قال فرجعت الروم الى عددهـــا وعديدها وتظاهروا بالدروع البيض وقادوا الجنائب وتهيئوا للحملة • فلما رأى شرحبيل بن حسنة ذلك وعظ اصحابه • وقال اعلمـــوا رحمكم الله ان رسول الله (ص) قال : الجنة تحت ظلال السيوف وأحب ما قرب الى الله

قطرة دم في سبيل الله او دمعة جرت في جوف الليل من خشية الله • قال الله تعالى ـ يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ـ ثم حمل وحمل المسلمون على جيش بصرى • قال عبد الله بن عدي : واجتمع علينا العدو وطمعوا فينا ، وحملوا علينا في اثني عشر الف فارس من الروم ، ونحن فيهم كالشامة البيضاء في جلدالبعير الاسود وصبرنا لهم صبر الكرام ، ولم يزل القتال بيننا وبينهم الى ان توسطت الشمس في قبة الفلك ، وقد طمع العدو فينا ، فرأيت شرحبيل بن حسنة قد رفع يده الى السماء وهو يقول : يا حى يا قيوم يا بديع السموات والارض يا ذا الجلال والاكرام ، اللهم انصرنا على القوم الكافرين • قال فوالله ما استتم شرحبيل كلامه ودعاءه حتى جاء النصر من عند الله العزيز الحكيم ، وذلك ان القوم داروا بنا فرأينا غبرة قد اشرفت علينا من صوب حوران • فلما قربت لنا رأينا تحتها سوابق الخيل ، فلاحت لنا الاعلام الاسلامية والرايات المحمدية ، وقد سبق الينا فارسان : احدهما ينادي ويزعق : يا شرحبيل يا ابن حسنة ابشر النصر لدين الله ، انا الفارس الصنديد والبطل المجيد ، انا خالد ابن الوليد ، والاخر يزعق ويقول : انا عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، واشرفت العساكر من كل جانب • قال واشرفت راية العقاب يحملها رافع بن عميرة الطائي • قال : حدثنا سالم بن عدي عن ورقاء بن حسان العامري عن مسيرة بن مسروق العبسي • قال :

« والله لقد خمدت اصوات الروم عند زعقة خالد (رض) ، واقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، واقبل شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد ، وسلم عليه • فقال خالد يا شرحبيل : أما علمت ان هذه مينا الشام والعراق ، وفيها عساكر الروم وبطارقتهم • فكيف غررت بنفسك وبمن معك من المسلمين ؟ • قال كله بأمر أبي عبيدة • فقال خالد : أما أبو عبيدة فانه رجل خالص النية ، وليس عنده غائلة الحرب ولا يعلم بمواقعها ، ثم أمر الناس بالراحة فنزلوا وارتاحوا من اتعابهم • فلما كان في اليوم الثاني : زحفت جيوش بصرى على المسلمين فقال خالد ان الروم زحفوا لعلمهم بتعبنا وتعب خيولنا فاركبوا بارك الله فيكم ، واحملوا على بركة الله تعالى • قال فركب المسلمون ، واخذوا اهبتهم للحرب فجعل من الميمنة رافع بن عميرة الطائي ، وجعل في الميسرة ضرار بن الازور • وكان غلاما فاتكا في الحرب ، وجعل على الدرك عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، ثم قسم جيش الزحف فجعل على

شطره المسيب بن نجيبة الفزاري ، وعلى الشطر الاخر مذعور بن غانم الاشعري، وأمرهم ان يزفوا الخيل اذا حملت • قال وبقي خالد في الوسط وهـــو يعظ الناس ويوصيهم ، وقد عزموا على الحملة ، واذا بصفوف الروم قد انشقت وخرج من وسطها فارس عظيم الخلقة كثير الزينة يلمع ما عليه من الذهـــب الاحمر والياقوت • فلما توسط الجمعين نادى بلسان عربي كأنه بدوي يـــا معشر العرب لا يبرز لي الا اميركم ، فأنا صاحب بصرى • قال فخرج اليـــه خالد (رض) كالاسد الضرغام وقرب منه • فقال له البطريق انت امير القوم ؟ قال كذلك يزعمون اني اميرهم ما دمت على طاعة الله ورسوله ، فان عصيته فلا امارة لي عليهم • قال البطريق اني رجل عاقل من عقلاء الروم وملوكهـم وان الحق لا يخفى عن ذي بصيرة ، واعلم اني قرأت الكتب السابقة ، والاخبار الماضية ، فوجدت ان الله تعالى يبعث قرشيا واسمه محمد بن عبد الله • قال خالد والله نبينا • قال : انزل عليه الكتاب ؟ قال نعم القرآن • قـــال روماس البطريق أحرم عليكم فيه الخمر • قال خالد نعم من شربها حددناه ، ومن زنى جلدناه ، وان كان محصنا رجمناه • قال أفرضت عليكم الصلوات ؟ قال نعم خمس صلوات في اليوم والليلة • قال أفرض عليكم الجهاد قال خالد : ولولا ذلك ما جئناكم نبغي قتالكم • قال روماس والله اني لاعلم انكم علـــى الحق واني احبكم وحذرت قومي منكم واني خائف منكم ، فأبوا • فقال خالد : فقل اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله يكون لك ما لنا وعليك ما علينا • فقال اني أسلمت واخاف ان يعجل هؤلاء بقتلي وسلبي حريمي ، ولكن أنا اسير الى قومي وارغبهم فلعل الله ان يهديهم • فقال خالد : وان رجعت الى قومك بغير قتال يكون بيني وبينك خفت عليك ، ولكن احمل علي حتـــى لا يتهموك وبعد ذلك اطلب قومك فحمل بعضهم على بعض ، وأرى خالد الفريقين ابوابا من الحرب حتى أبهر روماس • فقال لخالد شدد علي الحملة حتى يرى الديرجان فاني خائف عليك من بطريق بعث به الملك يقال له الديرجان • فقال خالد ينصرنا الله عليه ، ثم شدد على روماس الحملة حتى انه انهزم من بين يديه الى قومه : فلما وصل الى قومه قالوا : ما الذي رأيت من العرب ؟ • قال ان العرب اجلاد ما لكم بقتالهم طاقة ولا بد لهم ان يملكوا الشام ، وما تحت سريري هذا فادخلوا تحت طاعتهم وكونوا مثل اركة والسخنة قال • فلما سمعوا كلامه زجروه وأرادوا قتله ، وقالوا له ادخل المدينة والزم قصرك ودعنا لقتال العرب ، فانصرف روماس ، وقال : لعل الله ينصر خالدا • ثم ان اهل بصرى

ولوا عليهم الديرجان ، وقالوا اذا فرغنا من المسلمين سرنا معك الى الملك ، ونسأله انينزع روماس ويوليك علينا • قال الديرجان : وما الذي تريدون ؟ قالوا نحمل ونطلب قتال العرب • قال فخرج الديرجان وطلب خالدا •

فقال عبد الرحمن لخالد يا أمير أنا اخرج اليه • فقال دونك يا ابن الصديق ، فخرج عبد الرحمن وحمل على الديرجان ، فما لبثوا غير ساعة ، وقد أحس الديرجان من نفسه بالتقصير فولى منهزما وراح الى قومه • فلما رأوا ذلك منه نزل الرعب في قلوبهم وعلم خالد ما عند القوم من الفزع فحمل وحمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، وحمل المسلمون • فلما نظر اهل بصرى الى حملة المسلمين حملوا وتلاقى الفريقان ، وضجت الرهبان بكلمة كفرهم • فقال شرحبيل بن حسنة : اللهم ان هؤلاء اليك بلا اله الا انت ، وان محمدا عبدك ورسولك ، الا ما نصرت هذا الدين على اعدائك المشركين ، ثم حملوا حملة واحدة ، فلم يكن للروم ثبات مع العرب ، فولى المشركون الادبار ، وركنوا الى الفرار • فلما حطوا داخل المدينة اغلقوا الابواب وتحصنوا بالاسوار ، ورفعوا الصلبان ، وعولوا ان يكتبوا للملك ليمدهم بالخيل والرجال • قال عبد الله بن رافع : فلما تحصنوا رجعنا عنهم وافتقدنا اصحابنا فوجدنا قد قتل منا مائة وثلاثون فارسا ، وقتل من الاعيان بدريان • قال وغنم المسلمون الاموال ، وصلى خالد على الشهداء ، وأمر بدفنهم • فلما كان الليل تولى الحرس عبدالرحمن بن ابي بكر الصديق ومعمر بن راشد ومائة من جيش الزحف • فبينما هم يدورون حول العسكر ، واذا بروماس صاحب بصرى قد اقبل عليهم • وقال لهم ، أين خالد بن الوليد فاخبروه واتوا به الى خالد • فلما رآه رحب به • فقال ايها الامير بعد ان فارقتك طردني قومي ، واقلوا : الزم قصرك والا قتلناك فلزمت قصري ، وهو ملاصق للسور ولما وقع لهم ما وقع وانهزموا تحصنوا • فلما جن الليل أمرت غلماني بحفر السور وفتحوا فيه بابا فأتيتك فارسل معي من تعتمدعليه من اصحابك تستلمون المدينة • فلما سمع خالد هذا الكلام أمر عبد الرحمن بن ابي بكر ان يأخذ مائة من المسلمين ويسيروا مع روماس • قال ضرور بن الازور وكنت ممن دخل المدينة • فلما صرنا في قصر روماس فتح لنا خزانة السلاح ، فلبسنا من سلاحهم وقسمنا اربعة اقسام ، كل جانب خمسة وعشرون رجلا • وال لنا عبد الرحمن اذا سمعتم التكبير فكبروا • فلما سرنا حيث امرنا اخذنا انفسنا بالحملة على القوم •

(قال الواقدي) بلغني ممن اثق به من الرواة ان عبد الرحمن لما فارق

اصحابه لبس سلاحه هو وروماس يطلبون الدرج الذي عليه الديرجان ، وسار معهم ضرار ورافع وشرحبيل بن حسنة • فقال لا اهلا ولا مرحبا بك ، ومن الذي معك • قال معي صديق لك ومشتاق الى رؤياك قال : ويحك ، ومن هو يا روماس ؟ قال هذا بن ابي بكر الصديق • فلما سمع الديرجان ذلك هم ان يقتله فلم تطاوعه نفسه فحمل عليه عبد الرحمن ، وهز سيفه في وجهه وضربه على عاتقه فتجندل صريعا يخور في دمه ، وعجل الله بروحه الى النار • قال وكبر عبد الرحمن فأجابه روماس وسمع اصحابه التكبير فكبروا من جوانب بصرى • قال واجابتهم الاحجار والاشجار • قال وكبر المسلمون من جوانب بصرى ووضعوا السيف في الروم ، وسمع خالد التكبير فصرخوا ، واذا بغلمان روماس واولاده قد فتحوا لهم الابواب فعبرخالد ومن معه من المسلمين • فلما نظر أهل بصرىالى الابواب ، وقد فتحت بالسيف قهرا ضجوا بأجمعهم يقولون : الامان الامان • فقال خالد بن الوليد (رض) : ارفعوا السيف عنهم، واقام خالد الى الصباح واجتمع اليه اهلها • وقالوا يا أيها الامير لو صالحناك ما جرى شيء من ذلك ، ولكن نسألك بالذي ايدك ونصرك ما الذي فتح لك أبواب مدينتنا ؟ فاستحى خالد (رض) ان يقول ، فوثب روماس ، وقال انا فعلت ذلك يا اعداء الله واعداء رسوله ، وما فعلته الا ابتغاء مرضاة الله وجهادا فيكم • فقالوا أولست منا ؟ فقال ا للهم لا تجعلني منهم ، رضيت بالله ربا وبالاسلام دينا وبالكعبة قبلة وبالقرآن اماما ، وانا اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله • قال ففرح خالد بذلك • وأما أهل بصرى فغضبوا وأضمروا له شرا ، وعلم بذلك روماس • فقال لخالد انا لا اريد المقام عندهم ، واني أسير معك حيث سرت • فاذا فتح الله على يديك الشام وصار لكم الامر ردوني اليها لان الوطن عزيز •

(قال الواقدي) حدثني معمر بن سالم عن جده • قال كان روماس يجاهد معنا جهادا حسنا حتى فتح الله على ايدينا الشام ، فكان ابو عبيدة يكاتب به عمر بن الخطاب (رض) في ايامه فولاه على بصرى فلم يلبث الا يسيرا حتى توفي رحمه الله ، وخلف عقبا يذكر به ، قال وأمر خالد رجالا يعينونه على اخراج رحله وماله من المدينة ففعلوا ذلك ، واذا بزوجته تخاصمه وتطلب فراقه • فقاللها المسلمون : ما الذي تريدين ؟ • قالت أريد امير جيشكم يحكم بيننا فجاءوا بها الى خالد ، فقالت له : أنا استغيث بك من روماس ؟ فقال لها خالد وكيف ذلك ؟ فقالت اني كنت البارحة نائمة اذ رأيت شخصا ما رأيت منه وجها كأن البدر يطلع من بين عينيه ، وكأنه يقول : ان

المدينة فتحت على يد هؤلاء القوم والشام والعراق • فقلت له ومن انت يا سيدي ؟ • قال : محمد رسول الله ، ثم دعاني الى الاسلام فاسلمت ، ثم علمني سورتين من القرآن • قال فحدث الترجمان خالد بما كان منها • فقال ان هذا لعجيب ، ثم قال خالد للترجمان : قل لها ان تقرأ السورتين ففرأت الفاتحة ، وقل هو الله احد ، ثم جددت اسلامها على يد خالد بن الوليد ، وقالت يا أيها الامير اما أن يسلم روماس والا يتركني أعيش بين المسلمين • قال فضحك خالد من قولها ، وقال : سبحان الله الذي وفقنا جميعا • ثم قال للترجمان قل لها ان روماس اسلم قبلها ففرحت بذلك • ثم ان خالدا أحضر اهل بصرى وقررهم على اداء الجزية وولى عليهم من اتفق رأيه عليه ؛ ثم كتب الى ابي عبيدة كتابا يبشره بالفتح ، ويقول له : يا صاحب رسول الله قد ارتحلنا الى دمشق فالحقنا ا ليها • ثم كتب كتابا اخر الى ابي بكر الصديق يخبره برحيله ، ويقول له : يوم كتبت اليك هذا الكتاب ارتحلت الى دمشق فادع لنا بالنصر والسلام عليك ومن معك ورحمة الله وبركاته • ثم بعث الكتابين كلاهما ، ثم ارتحل خالد الى نحو دمشق حتى اشرف على موضع يقال له الثنية فوقف هناك وركز راية العقاب فسميت بذلك ثنية العقاب • ثم ارتحل منها الى الدير المعروف الان بدير خالد ، وكان اهل السواد قد التجئوا الى دمشق ، وقد اجتمعت خلائق وامم لا تحصى من الرجال • واما اصحاب الخيل فكانوا اثني عشر الفا ، وقد زينوا اسوارهم بالطوارق والبيارق والصلبان ، واقام خالد على الدير ينتظر قدوم المسلمين •

(قال الواقدي) : ووصلت الاخبار الى الملك هرقل وما فتح خالد من الشام ، وكيف قدم على دمشق فغضب وجمع البطارقة وقال : يا بني الاصفر ، لقد قلت لكم وحذرتكم فأبيتم وهؤلاء العرب قد فتحوا اركة وتدمر والسخنة وبصرى ، وقد توجهوا الى الربوة ففتحوها فواكرباه لان دمشق جنة الشام وقد سارت اليها الجيوش وهم اضعاف العرب ، ثم قال أيكم يتوجه الى قتال العرب ويكفيني أمرهم ، فان هزمهم اعطيته ما فتحوه ملكا • فقال بطريق من البطارقة أسمه كلوس بن حنا ، و كان من فرسانهم ، وقد عرفت شجاعته في عساكر الروم والفرس أيها الملك أنا اكفيك وأردهم على اعقابهم منهزمين • قال فلما سمع الملك قوله سلم اليه صليبا من الذهب وقدمه على خمسة الاف فارس ، وقال له قدم صليبك أمامك فانه ينصرك • قال فأخذه كلوس وسار من يومه من انطاكية الى أن وصل حمص فوجدها مزينة بالسلاح ، فلما بلغ أهلها قدومه خرجوا الى لقائه ، وقد خرجت القسس والرهبان واستقبلوه ودعوا له

بالنصر وأقام بحمص يوما وليلة ، ثم ارتحل الى مدينة بعلبك فخرج اليه النساء لاطمات الخدود وقلن : أيها السيد ان العرب فتحوا اركة وحوران وبصرى ، فقال لهن : كيف قدرت العرب على حوران وبصرى ؟ • فقلن : أيها السيد ان الذين ذكرتهم لم يبرحوا من أماكنهم ، وان هذا الرجل قد أقبل من العراق ، وهو الذي فتح أركة • فقال وما اسمه ؟ قلن خالد بن الوليد • قال في كم يكون من العساكر ؟ قلن في الف وخمسمائة فارس • فقال وحق المسيح لاجعلن رأسه على رأس سناني • ثم رحل فلم ينزل الا بدمشق ، وكان واليها بطريقا من قبل الملك هرقل اسمه عزازير ، فلما قدم كلوس اجتمع عليه عزازير وأصحابه وقرأوا عليهم منشور الملك ، ثم قال لهم أتريدون أن أقاتل عدوكم وأصده عن بلادكم ؟ قالوا نعم فقال اخرجوا عزازير عنكم حتى أكون وحدي في هذا الامر • فقالوا أيها السيد وكيف ينبغي أن يخرج صاحبنا من بلدنا ، وهذا العدو قاصد الينا • قال فغضب عزازير في وجه كلوس من كلامه ، وقد اتفق رأيهم على أن كل واحد يقاتل العرب يوما فثبتت عداوة عزازير في قلب كلوس •

(قال الواقدي) ولقد بلغني انهم كانوا يخرجون كل يوم من باب الجابية مقدار فرسخ ينظرون قدوم أبي عبيدة بن الجراح فلم يشعروا حتى قدم اليهم خالد بن الوليد من نحو الثنية ، قال حدثنا يسار بن محمد • قال أخبرنا رفاعة بن مسلم • قال : كنت في جيش خالد بن الوليد لما نزل على الدير المعروف به ، واذا بجيش الروم قد زحف علينا وهو كالجراد المنتشر ، فلما نظر خالد ذلك تدرع بدرع مسلمة ، ثم صرخ في وجه المسلمين • و قال : هذا يوم ما بعده يوم ، وهذا العدو قد زحف بخيله فدونكم والجهاد فانصروا الله ينصركم وكونوا ممن باع نفسه لله عز وجل وكأنكم باخوانكم المسلمين قدموا عليكم مع أبي عبيدة بن الجراح ، ثم بعد ذلك استقبل الجيش وصرخ بملء رأسه فأرعب المشركين من صرخته وحمل شرحبيل بن حسنة وعبد الرحمن بن أبي بكر وضرار بن الازور ، ومذ حمل ضرار لم يول عنهم بل قتل من الميمنة خمسة فرسان ومن الميسرة كذلك • ثم حمل ثاني مرة فقتل منهم ستة فرسان ، ولولا سهام القوم لما رد عن قتالهم فشكره خالد بن الوليد وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر (رض) : احمل بارك الله فيك • قال فحمل عبد الرحمن وفعل كما فعل ضرار بن الازور وقاتل قتالا شديدا • ثم حمل من بعده خالد بن الوليد ورفع رمحه ورأى العسكر من أمور الحرب حتى جزع الروم من شجاعته •

فلما نظر اليه البطريق كلوس علم انه امير الجيش وعلم أنه يقصده فتأخر كلوس الى ورائه من مخافته • فلما نظر خالد الى قهقرة كلوس إلى ورائه حمل عليه ليرده فوقعت عليه البطارقة ورموه بالسهام فلم يلتفت اليهم خالد، ولم يعبأ بهم ولم يرجع حتى قتل عشرين • ثم انثنى بجواده بين الصفين وجال بجواده بين الفريقين وطلب البراز فلم يجبه احد ، وقالوا : أخرجوا غيره منكم • فقال : ويلكم ها أنا رجل واحد من العرب وكلنا في الحرب سواء فما منهم من فهم كلامه ، فأقبل عزازير على كلوس ، وقال : أليس الملك قد قدمك على جيشه وبعثك الى قتال العرب فدونك حام عن بلدك ورعيتك •

فقال كلوس : أنت أحق مني بذلك لانك أقدم مني ، وقد عزمت أنك لا تخرج الا باذن الملك هرقل فما بالك لا تخرج الى قتال أمير العرب • فقال لهما العساكر تقارعا فمن وقعت عليه القرعة فلينزل الى قتال أمير العرب • فقال كلوس لا بل نحمل جميعا فهو أهيب لنا ، قال وخاف كلوس أن يبلغ الملك ذلك فيطرده من عنده أو يقتله • قال فتقارعا فوقعت القرعة على كلوس • فقال عزازير : اخرج وبين شجاعتك ، فقال كلوس لاصحابه : أريد أن تكون همتكم عندي ، فان رأيتم مني تقصيرا فاحملوا وخلصوني • فقال أصحابه : هذا كلام عاجز لا يفلح أبدا ، فقال يا قوم ان الرجل بدوي ولغته غير لغتي فخرج معه رجل أسمه جرجيس ، وقال له أنا أترجم لك فسار معه • فقال كلوس : اعلم يا جرجيس ان هذا رجل ذو شجاعة فان رأيته غلبني فاحمل انت عليه حتى نقضي يومنا معه ، ويخرج له غدا عزازير فيقتله ونستريح منه وأتخذك أنا صديقي • فقال له ما أنا أهل حرب ، وانما أخوفه بالكلام • قال فسكت وسارا حتى قربا من خالد فنظر اليهما • قال فهم أن يخرج اليهما رافع بن عميرة فصاح فيه خالد ، وقال مكانك لا تبرح فاني كفء لهما ، فلما دنوا من خالد • قال كلوس لصاحبه : قل له من أنت وما تريد وخوفه من سطواتنا فقرب جرجيس من خالد ، و قال له يا أخا العرب : أنا اضرب لك مثلا ان مثلكم ومثلنا كمثل رجل له غنم فسلمها الى راع وكان الراعي قليل الجرأة على الوحوش فأقبل عليه سبع عظيم فجعل يلتقط منه كل ليلة رأسا الى ان انقضت الاغنام والسبع ضار عليها ولم يجد له مانعا عنها • فلما نظر صاحب الغنم ما حل بغنمه علم أنه لم يؤت الا من الراعي فانتدب لغنمه غلاما نجيبا فسلمه الغنم فكان كل ليلة يكثر الطوفان حول الغنم • فبينما الغلام كذلك اذ أقبل عليه السبع على عادته الاصلية واخترق الغنم فهجم الغلام على السبع وبيده منجل فضربه فقتله ، ولم يقرب الغنم وحش بعدها وكذلك

انتم نتهاون بأمركم لانه ما كان أضعف منكم لانكم جياع مساكين ضعفاء وتعودتم أكل الذرة والشعير ومص النوى • فلما خرجتم الى بلادنا وأكلتم طعامنا وفعلتم ما فعلتم ، وقد بعث لكم الملك رجالا لا تقاس بالرجال ولا تكترث بالابطال ولا سيما هذا الرجل الذي بجانبي فاحذر منه أن ينزل بك ما انزل الغلام بالاسد ، وقد سألني أن أخرج اليك واتلطف بك في الكلام فأخبرني ما الذي تريد قبل أن يهجم عليك هذا الفارس ؟ فلما سمع خالد منه ذلك ، قال يا عدو الله والله لا نحسبكم عندنا في الحرب الا كقابض الطير بشبكة ، وقد قبضتها يمينا وشمالا فلم يخرج الا ما انفلت منه • وأما ما ذكرت من بلادنا وأنها بلاد قحط وجوع فالامر كذلك الا أن الله تعالى ابدلنا ما هو خير منه ، فأبدلنا بدل الذرة الحنطة والفواكه والسمن والعسل • وهذا كله قد رضيه لنا ربنا ووعدنا به على لسان نبيه وأما قولك : ما الذي تريدونه منا ؟ فنريد منكم احدى ثلاث خصال اما أن تدخلوا في ديننا أو تؤدوا الجزية ، أو القتال • وأما قولك: ان هذا الرجل الذليل الذي هو عندكم مسكين فهو عندنا أقل القليل وان يكن هو ركن الملك فأنا ركن الاسلام • أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد • أنا صاحب رسول الله (ص) •

معارك الشام

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فلما سمع جرجيس كلام خالد تأخر الى ورائه وقد تغير لونه ، فقال له كلوس : يا ويلك رأيتك في بدايتك تهيم كالسبع فمالك قد تأخرت ؟ فقال وحق المسيح ما أعلم انه الفارس الجحجاح وبطلهم الصفاح ، هذا صاحب القوم الذي ملأ الشام شرا • فقال كلوس يا جرجيس اسأله ان يؤخر الحرب بيننا الى غد فالتفت الى خالد ، وقال له يا سيد قومك هذا صاحبي يريد ان يرجع الى قومه ليشاورهم • فقال خالد : ويحك أتريد ان تخدعني بالكلام وأقبل برمحه في وجه جرجيس • فلما نظر جرجيس ذلك انعقد لسانه وولى هاربا • فلما رأى خالد ذلك طلب كلوس وحمل عليه وتطاعنا واحترز البطريق من طعنات خالد ، فلما نظر خالد احتراز البطريق حط يده في أطواقه وجذبه فقلعه من سرجه • فلما نظر المسلمون فعل خالد كبروا بأجمعهم وتسابق الفرسان الى خالد ، فلما قربوا منه رمى لهم البطريق ، وقال اوثقوه كتافا فصار يبربر بلسانه فأتى المسلمون برومانس صاحب بصرى ، وقالوا له اسمع ماذا يقول ؟ • فقال لهم يقول لكم لا تقتلوني فاني اجبت صاحبكم في المال والجزية • فقال خالد استوثقوا منه ثم نزل عن

جواده وركب جوادا أهداه له صاحب تدمر وعزم أن يهجم على الروم • فقال ضرار بن الازور أيها الامير دعني أنا أحمل على القوم حتى تستريح أنت • فقال يا ضرار : الراحة في الجنة غدا ، ثم عول خالد على الحملة فصاح به البطريق كلوس ، وقال وحق دينك ونبيك الا ما رجعت الي حتى أخاطبك فرجع خالد اليه ، وقال لروماس اسأله ما يريد • فقال أعلمه أني صاحب الملك ، وقد بعثنى اليكم في خمسة الاف فارس لاردكم عن بلده وأهله ورعيته ، وقد تحجبت أنا وعزازير متولي دمشق وقدم الي معه كذا وكذا ، وأنا اسألك بحق دينك اذا خرج اليك فأقتله ، وان لم يخرج اليك فاستدعه وأقتله فانه رأس القوم • فان قتلته فقد ملكت دمشق • فقال خالد لروماس قل له انا لا نبقي عليك ولا عليه ولا على من أشرك بالله تعالى • ثم انه بعد ذلك الكلام حمل ، وهو ينشد ويقول :

لك الحمد مولانا على كل نعمة — وشكر لما أوليت من سابغ النعم
مننت علينا بعد كفر وظلمة — وأنقذتنا من حندس الظلم والظلم
وأكرمتنا بالهاشمي محمد — وكشفت عنا ما نلاقي من الغم
فتمم اله العرش ما قد ترومه — وعجل لاهل الشرك بالبؤس والنقم
وألقهم ربي سريعا ببغيهم — بحق نبي سيد العرب والعجم

(قال الواقدي) لقد بلغني ممن أثق به أنه لما ولى جرجيس هاربا من بين يدي خالد الى أصحابه رأوه يرتعد من الفزع • فقالوا له ما وراءك ؟ فقال يا قوم ورائي الموت الذي لا يقاتل ، والليث الذي لا ينازل ، وهو أمير القوم ، وقد آلى على نفسه ان يطلبنا اينما كنا ، وما خلصت روحي الا بالجهد فصالحوا الرجل قبل ان يحمل عليكم بأصحابه فلا يبقى منكم أحدا ، فقالوا له ما يكفيك انك انهزمت ، وقد هموا بقتله ، فبينما هم كذلك اذ أقبل أصحاب كلوس على عزازير وهم خمسة الاف وصاحوا به وقالوا له ما أنت عند الملك أعز من صاحبنا ، وقد كان بيننا وبينك شرط فاخرج انت الى خالد واقتله او أسره وخلص لنا صاحبنا والا وحق المسيح والمذبح والذبيح شننا عليك الحرب فقال عزازير ، وقد رجع به مكره ودهاؤه : يا ويلكم أتظنون اني جزعت من الخروج الى هذا البدوي من أول مرة ، ولكني ما تأخرت عن الخروج اليه وتقاعدت عن قتاله حتى يتبين عجز صاحبكم وسوف وسوف ينظر الفريقان أينا أفرس وأشجع وأثبت في مقام القتال اذا نحن تشابكنا بالنصال ؟ ثم انه في الحال ترجل عن جواده ولبس لامته وركب جوادا يصلح للجولان ، وخرج الى قتال سيدنا خالد بن الوليد ، الفارس الصنديد (رض) ، فلما قرب منه -

قال يا أخا العرب ادن مني حتى أسألك وكان ا لملعون يعرف العربية ، فلما سمع خالد ذلك • قال يا عدو الله ادن أنت على أم رأسك ، ثم هم أن يحمل عليه • فقال على رسلك يا أخا العرب أنا أدنو منك فعلم خالد أن الخوف داخله فأمسك عنه حتى قرب منه • فقال يا أخا العرب ما حملك ان تحمل انت بنفسك ؟ • أما تخشى الهلاك فلو قتلت بقيت أصحابك بلا مقدم • فقال خالد يا عدو الله قد رأيت ما فعل الرجلان من أصحابي لو تركتهم لهزموا اصحابك بعون الله تعالى ، وانما معي رجال ، وأي رجال يرون الموت مغنما والحياة مغرما ، ثم قال له خالد من أنت ؟ فقال أوما سمعت باسمي أنا فارس الشام أنا قاتل الروم والفرس أنا كاسر عساكر الترك • فقال خالد ما اسمك ؟ فقال أنا الذي تسميت باسم ملك الموت اسمي عزرائيل •

(قال الواقدي) فضحك خالد من كلامه ، وقال يا عدو الله تخوفني ان الذي تسميت باسمه هو طالبك ومشتاق اليك ليرديك الى الهاوية • فقال له عزازير وما منعك فعلت بأسيرك كلوس ؟ • فقال هو موثق بالقيود والاغلال • فقال له عزازير وما منعك من قتله ، وهو داهية من دواهي الروم ؟ • فقال خالد منعني من ذلك أني أريد قتلكم جميعا ، فقال عزازير : هل لك ان تأخذ الف مثقال من الذهب وعشرة أثواب من الديباج وخمسة رؤوس من الخيل وتقتله وتأتيني برأسه • فقال له خالد هذه دينه فما الذي تعطيني أنت عن نفسك • قال فغضب عدو الله من ذلك ، وقال ما الذي تأخذ مني ؟ • قال الجزية وأنت صاغر ذليل ؟ فقال عزازير كلما زدنا في كرامتكم زدتم في اهانتنا فخذ الان لنفسك الحذر فاني قاتلك ولا أبالي ، فلما سمع خالد كلام عزرائيل حمل عليه حملة عظيمة كانه شعلة نار فاستقبله البطريق ،وقد أخذ حذره وكان عزازير ممن يعرف بالشجاعة في بلاد الشام فلما نظر خالد الى عدو الله أظهر شجاعته وبراعته تبسم • فقال عزازير : وحق المسيح لو أردت الوصول اليك لقدرت على ذلك ولكنني أبقيت عليك لاني أريد أن أستأسرك ليعلم الناس أنك اسيري ، وبعد ذلك أطلق سبيلك على شرط انك ترحل من بلادنا وتسلم لنا ما اخذت من بلاد الشام ، فلما سمع خالد كلام عزازير قال له : يا عدو الله قد داخلك الطمع فينا ، وهذه العصابة قد ملكوا تدمر وحوران وبصرى وهم ممن باعوا أنفسهم بالجنة ، واختاروا دار البقاء على دار الفناء ، وستعلم أينا من يملك صاحبه ويذل جانبه ، ثم ان خالدا أرى البطريق ابواب الحرب • قال فندم عزازير على ما كان منه من الكلام ، وقال يا أخا العرب أما تعرف الملاعبة • فقال خالد ملاعبتى الضرب في طاعة الرب ، ثم ان الملعون هاجم خالدا ولوح

اليه بسيفه وضربه به فلم يقطع شيئا فذهل عدو الله من جولان خالد وثباته ، وعلم أنه لا يقدر عليه ولا على ملاقاته فولى هاربا ، وكان جواده أسبق من جواد خالد • قال عامر بن الطفيل (رض) : وكنت يوم حرب دمشق في القلب وشاهدنا ما جرى بين خالد وعزازير لما ولى هاربا وقصر جواد خالد عن طلبه فوقع في قلبه الطمع ، وقال كأن البدوي خاف مني ومالي الا أن أقف حتى يلحقني وآخذه أسيرا ولعل المسيح ينصرني عليه ، فلما وقع ذلك في نفسه وقف حتى لحق به خالد ، وقد جلل فرسه العرق ، فلما قرب منه صاح عزازير ، وقال : يا عربي لا تظن أني هارب خوفا منك ، وانما أبقيت عليك خوفا على شبابك فارحم نفسك ، وأن أردت الموت أسوقه اليك أنا قابض الارواح أنا ملك الموت ، فعند ذلك ترجل عن جواده وسحب السيف وسار اليه كأنه الاسد الضاري

فلما نظر عزازير الى ذلك والى ترجل خالد زاد طمعه فيه وحام حوله وهم اليه يريد أن يعلو رأسه بالسيف فزاغ خالد عنها وصاح فيه وضرب قوائم فرسه بضربة عظيمة فقطعها فسقط عدو الله على الارض ثم ولى هاربا يريد أصحابه فسبقه خالد • وقال يا عدو الله ان الذي تسميت باسمه قد غضب عليك واشتاق اليك وها هو قد اقبل عليك يقبض روحك ليؤديك الى جهنم، ثم هجم عليه وهم أن يجلد به الارض ونظرت الروم الى صاحبها ، وهو في يد خالد فهموا أن يحملوا على خالد ويخلصوه من يده اذ قد أقبلت جيوش المسلمين ، وأبطال الموحدين مع الامير أبي عبيدة بن الجراح (رض) كان قد سار من بصرى فوجدوه ، وقد أخذ عزازير في تلك الساعة ، فلما نظرت عساكر دمشق الى جيوش المسلمين قد أقبلت داخلهم الجزع والفزع فوقفوا عن الحملة • قال حدثني عمر بن قيس عن شعيب عن عبدالله عن هلال القشعمي قال لما قدم الامير أبو عبيدة سأل عن خالد فقالوا انه في ميدان الحرب ، وقد أسر بطريق الروم فدنا أبو عبيدة اليه وهم ان يترجل فأقسم عليه خالد ان لا يفعل وأقبل عليه وصافحه ، وكان أبو عبيدة يحب خالدا لمحبة رسول الله (ص) • فقال أبو عبيدة لخالد يا أبا سليمان : لقد فرحت بكتاب أبي بكر الصديق حين قدمك علي وأمرك علي وما حقدت فى قلبي عليك لانى أعلم مواقفك فى الحرب • فقال خالد : والله لا فعلت أمرا الا بمشورتك ووالله لولا أمر الامام طاعة لما فعلت ذلك أبدا لانك اقدم مني في دين الاسلام وأنا صاحب رسول الله (ص) ، وأنت قال فيك : أبو عبيدة أمين هذه الامة فشكره أبو عبيدة وقدم لخالد جواده فركبه ، وقال خالد لابي عبيدة اعلم أيها الامير

أن القوم قد خذلوا ووقع الرعب في قلوبهم ،وأهينوا بأخذ كلوس وعزازير قال وسار مع أبي عبيدة يحدثه بما صار من البطريقين ، وكيف نصره الله عليهما الى أن اتيا الدير فنزلا هناك ، وأقبل المسلمون يسلم بعضهم على بعض • فلما كان الغد ركب الناس وتزينت المواكب وزحف أهل دمشق للقتال وقد أمروا عليهم صهر الملك هرقل ، ولما أقبلوا قال خالد لابي عبيدة ان القوم قد انخذلوا ووقع الرعب في قلوبهم فاحمل بنا على القوم • قال أبو عبيدة : افعل قال فحمل خالد وحمل أبو عبيدة وحمل المسلمون على عساكر الروم حملة عظيمة وكبروا بأجمعهم فارتجت الارض من تكبيرهم ووقع القتل في الروم ، وجاهد أصحاب رسول الله (ص) جهادا عظيما ، وذهلتْ منهم الكفار • قال عامر بن الطفيل : لقد كان الواحد منا يهزم من الروم العشرة والمائة • قال فما لبثوا معنا ساعة واحدة حتى ولوا الادبار ، وركنوا الى الفرار، وأقبلنا نقتل فيهم من الدير الى الباب الشرقي • فلما نظر أهل دمشق الى انهزام جيشهم أغلقوا الابواب في وجه من بقي منهم • قال قيس ابن هبيرة (رض) : فمنهم من قتلناه ، ومنهم من أسرناه ، فلما رجع خالد عنهم قال لابي عبيدة ان من الرأي أن أنزل أنا على الباب الشرقي وتنزل انت على باب الجباية • فقال أبو عبيدة : هذا هو الرأي السديد •

(قال حدثنا) سهل بن عبدالله عن أويس بن الخطاب أن الذي قدم مع الامير ابي عبيدة من المسلمين من اهل الحجاز واليمن وحضرموت وساحل عمان والطائف وما حول مكة كان سبعة وثلاثين الف فارس من الشجعان ،وكان مع عمرو بن العاص تسعة الاف فارس ، والذين قدم بهم خالد بن الوليد (رض) من العراق ألف فارس وخمسمائة فارس فكان جملة ذلك سبعة واربعين ألفا وخمسمائة غير ما جهز عمر بن الخطاب في خلافته ، وسنذكر ذلك اذا وصلنا اليه ان شاء الله تعالى ، هذا وان خالدا نزل بنصف المسلمين على الباب الشرقي ونزل أبو عبيدة بالنصف الثاني على باب الجابية • فلما نظر أهل دمشق الى ذلك نزل الرعب في قلوبهم ، ثم ان خالدا أحضر البطريقين بين يديه وهما كلوس وعزازير فعرض عليهما الاسلام فأبيا فأمر ضرار بن الازور أن يضرب عنقيهما ففعل • قال : فلما نظر أهل دمشق ما فعلوا بالبطريقين كتبوا الى الملك كتابا يخبرونه بما جرى على كلوس وعزازير ، وقد نزلت العرب على الباب الشرقي وباب الجابية ، وقد نزلوا بشبانهم وأولادهم وقد قطعوا أرض البلقاء وأرض السواد ووصفوا له ما ملك العرب من البلاد فأدركنا والا سلمنا اليهم البلد ، ثم سلموا الكتاب الى رجل منهم وأعطوه أوفى أجرة

وأدلوه بالحبل من أعلى الاسوار في ظلمة الاعتكار ٠
(قال الواقدي) وان الرجل وصل الى الملك هرقل ، وهو بأرض انطاكيـة فاستأذن عليه فأمر له بالدخول ٠ فلما دخل سلم الكتاب اليه ٠ فلما قـرأه الملك رماه من يده وبكى ، ثم انه جمع البطارقة ٠ وقال لهم : يا بني الاصفـر لقد حذرتكم من هؤلاء العرب ، وأخبرتكم انهم سوف يملكون ما تحت سريري هذا فاتخذتم كلامي هزوءا وأردتم قتلي وهؤلاء العرب خرجوا من بلاد الجـدب والقحط وأكل الذرة والشعير الى بلاد خصبة كثيرة الاشجار والثمار والفواكه فاستحسنوا ما نظروه من بلادنا وخصبنا وليس يزجرهم شيء لما هم فيه مـن العزم والقوة وشدة الحرب ولولا أنه عار علي لتركت الشام ورحلـت الـى القسطنطينية العظمى ، ولكن ها أنا أخرج اليهم وأقاتلهم عن أهلي وديني ٠
فقالوا أيها الملك ما بلغ من شأن العرب ان تخرج اليهم بنفسـك وقعـودك أهيب قال الملك هرقل نبعث اليهم ، قالوا عليك ايها الملك بـوردان صاحـب حمص لانه ليس فينا مثله في القوة وملاقاة الرجال ، ولقد بين لنا شجاعته في عساكر الفرس لما قصدونا ٠ قال فأمر الملك باحضاره ، فلما حضر وردان قال له الملك انما قدمتك لانك سيفي القاطع وسندي المانع فاخرج من وقتك وساعتك ولا تتأخر ، فقد قدمتك على اثني عشر الفا ، فاذا وصلت الى بعلبك فانفذ الى من بأجنادين بأن يتفرقوا في أرض البلقاء وجبـال السواد فيكونوا هناك ولا تتركوا أحدا من العرب يلحق بأصحابه ، يعني عمرو بن العاص (رض) ٠
فقال وردان : السمع والطاعة لك أيها الملك وسوف يبلغك الخبر أني لا أعود الا برأس خالد بن الوليد ومن معه اهزمهم جميعا وبعد ذلك أدخل الحجـاز ولا أخرج حتى أهدم الكعبة ومكة والمدينة ٠ قال فلما سمع الملك هرقل قوله قال وحق الانجيل لئن فعلت ذلك ووفيت بقولك لاعطينك ما فتحوه حرثا وخراجا وكتبت كتاب العهد انك الملك من بعدي ، ثم سوّره وتوجه وأعطاه صليبا من الذهب وفي جوانبه أربع يواقيت لا قيمة لها ، وقال اذا لاقيت العـرب فقدمه أمامك فهو ينصرك ، قال فلما تسلم وردان الصليـب مـن وقته دخل الكنيسة وانغمر في ماء المعمودية وبخروه ببخور الكنائس وصلى عليه الرهبان وخرج من وقته فضرب خيامه خارج المدينة ٠ قال وأخذت الروم على أنفسهـم بالرحيل ، فلما تكاملوا ركب الملك هرقل وسار لوداعهم وصحبتـه أرباب دولته فوصل معهم الى جسر الحديد بها فودعه الملك وسار الى أن وصل الى حماة فنزل بها وأنفذ من وقته كتابا الى من بأجنادين من جيـوش الـروم يأمرهم ليتفرقوا في سائر الطرقات ليمنعوا عمرو بن العاص ومـن معـه أن

يصلوا الى خالد ، فلما سار الرسول بالكتاب جمع وردان اليه البطارقة وقال لهم : اني أريد أن أسير على حين غفلة على طريق مارس حتى أكبس على القوم ولا ينجو منهم أحد ، فلما كان الليل رحل على طريق وادي الحياة ٠

(قال حدثني شداد بن أوس) قال : لما دخل خالد بن الوليد (رض) بعد قتل البطريقين أمر المسلمين أن يزحفوا الى دمشق ٠ قال فزحف منا الرجال من العرب وبأيديهم الحجف يتلقون بها الحجارة والسهام ، فلما نظر أهل دمشق الينا ، ونحن قد زحفنا اليهم رمونا بالسهام والحجارة من أعلى الاسوار ، وضيقنا عليهم في الحصار ، وأيقن القوم بالدمار ٠ قال شداد ابن أوس فأقمنا على حصارهم عشرين يوما ، فلما كان بعد ذلك جاءنا ناوي بن مرة وأخبرنا عن جموع الروم بأجنادين وكثرة عددهم فركب خالد نحو باب المدينة الجابية الى أبي عبيدة يخبره بذلك ويستشيره وقال يا أمين الامة اني رأيت أن ترحل من دمشق الى اجنادين ، ونلقى من هناك من الروم، فاذا نصرنا الله عليهم عدنا الى قتال هؤلاء القوم ٠ قال أبو عبيدة ليس هذا برأي قال خالد ولم ذلك ؟ ٠ قال أبو عبيدة اذا رحلنا يخرج أهل المدينة فيملكون مواضعنا ، فلما سمع خالد ذلك من أبي عبيدة ٠ قال يا أمين الامة اني أعرف رجلا لا يخاف الموت خبيرا بلقاء الرجال قد مات أبوه وجده في القتال ٠ قال ومن هذا الرجل يا أبا سليمان ؟ ٠ قال هو ضرار بن الازور بن طارق ٠ قال أبو عبيدة : والله لقد صدقت ووصفت رجلا باذلا معروفا فافعل ٠ قال فرجع خالد الى بابه واستدعى بضرار بن الازور فجاء اليه وسلم عليه ٠ فقال : يا ابن الازور اني أريد أن أقدمك على خمسة الاف قد باعوا انفسهم لله عز وجل واختاروا دار البقاء والاخرة على الاولى ، وتسيروا الى لقاء هؤلاء القوم الذين وردوا علينا ، فان رأيت لك فيهم طمعا فقاتلهم ، وان رأيت أنك لا تقدر عليهم فابعث الينا رسولك ٠ فقال ضرار بن الازور وافرحتاه ، والله يا ابن الوليد ما دخل قلبي مسرة أعظم من هذه فاتركني أسير وحدي ٠ قال خالد لعمري انك ضرار ، ولكن لا تلق نفسك الى الهلاك وسر بما ندب معك من المسلمين ٠ قال فقام ضرار (رض) مسرعا فقال خالد ارفق بنفسك حتى يجتمع عليك الجيش ٠ فقال : والله لا وقفت ومن علم الله فيه خيرا أدركني ثم ركب ضرار وأسرع الى ان وصل الى بيت لهيا ، وهو الموضع الذي كان يصنع فيه الاصنام فوقف هناك حتى لحق به أصحابه ٠ فلما تكاملوا نظر ضرار ، واذا بجيش الروم ينحدر كأنه الجراد المنتشر وهم غائصون في الدروع وقد أشرقت الشمس على لأماتهم وطوارقهم ٠

فلما نظر اليهم أصحاب رسول الله (ص) قالوا لضرار : أما والله ان هذا الجيش عرمرم والصواب أننا نرجع • فقال ضرار ، والله لا زلت أضرب بسيفي في سبيل الله واتبع من أناب الى الله ولا يراني الله مهزوما ، ولا أولى الدبر لان الله تعالى يقول ـ فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ـ وتكلم رافع بن عميرة الطائي وقال يا قوم وما الخيفة من هؤلاء العلوج ؟ أما نصركم الله في مواطن كثيـرة والنصر مقرون مع الصبر ولم تزل طائفتنا تلقى الجموع الكثيـرة والجموع اليسيرة فاتبعوا سبيل المؤمنين وتضرعوا الى رب العالمين وقولوا كما قال قوم طالوت عند لقائهم جالوت ـ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا علي القوم الكافرين ـ • فلما سمع ضرار كلامهم وأنهم اشتروا الاخرة على الاولى كمن بهم عند بيت لهيا وأخفى أمره وجلس عاري الجسد بسراويلـه علـى فرس له عربي بغير سلاح وبيده قناة كاملة الطول وهو يوصي القوم •

(قال الواقدي) هكذا حدثني تميم بن أوس عن جده عمرو بن دارم •قال كنت يوم بيت لهيا ممن صحب ضرار بن الازور (رض) وهو بهذه الصفة رغبة منه في الشهادة • فلما قارب العدو كان أول من برز وكبر ضرار بن الازور قبل فأجابه المسلمون بتكبيرة واحدة رعبت منها قلوب المشركين وفاجئوهم بالحملة ونظروا الى ضرار بن الازور وهو في أول القوم وهو في حالته التي وصفناها فهالهم أمره ، وكان وردان في المقدمة والاعلام والصلبـان مشتبكـة على رأسه • قال فما طلب ضرار غيره لانه علم أنه صاحبهم فحمل عليه غير مكترث به وطعن فارسا كان في يده العلم فتجندل من على فرسه قتيلا ، ثـم انه طعن اخر في الميمنة فارداه وحمل يريد القلب ، وكان قـد عايـن وردان والصليب على رأسه يحمله فارس من الروم والجواهر تلمع من أربع جوانبه فعارضه ضرار وطعن حامله طعنة عظيمة فخرج السنان يلمع من خاصرته • قال فسقط الصليب منكسا الى الارض • فلما نظر وردان الى الصليب أيقن بالهلاك ، وهم ان يترجل لاخذه أو يميل في ركابه ليأخذه فما وجد لذلك سبيلا لماقد أحدق به وترجل عليه قوم من المسلمين ليأخذوه وقد اشتغل كل عن نفسه ونظر ضرار الى من ترجل لاخذ الصليب • فقال معاشر المسلمين ان الصليب لي دونكم وأنا صاحبه فلا تطمعوا فاني اليه راجع اذا فرغت مـن كلب الروم • قال فسمع ذلك وردان وكان يعرف العربية فعطف من القلـب يريد الهرب • فقالت البطارقة الى أين أيها السيد أتفر من الشيطان فما رأينا ادنى من منظره ولا أهول من مخبره ، ونظر اليه ضرار وقد عطف راجعا فعلم

أنه قد عزم على الهرب فصاح بقومه ثم اقتحم في أثره ومد رمحه وهمز جـواده. فتصارخت به الروم وعطفت عليه المواكب من كل جانب فأنشد يقول :

الموت حـق أين لـي منـه المفر وجنة الفردوس خير المستقر
هذا قتالي فاشهدوا يا من حضـر وكل هذا في رضا رب البشر

ثم اخترق القوم وحمل عليهم وحمل المسلمون في أثره فاحدقوا بهم من كل مكان ، ونظروا الى ضرار وقد قصده وردان صاحب حمص عندما علم أنه اخترق القوم فمد اليه رمحه وقد احدقت به بطارقته وضرار يمانع عن نفسه يمينا وشمالا فما طعن احدا الا اباده الى ان قتل من القوم خلقا كثيرا ، وهـو يصرخ بقومه : ويقول ــ ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفـا كأنهـم بنيان مرصوص ــ قال واكبت عليه جيوش الروم من كل جانب ومكان واشتعل الحرب بينهم ووصل همدان بن وردان الى ضرار بن الازور ورماه بسهـم ٠ فأصاب عصده الايمن فوصل السهم اليه فأوهنه واحس ضرار بالالم فحمل على همدان وصمم عليه برمحه وطعنه ٠ فأصاب بالطعنة فؤاده فوصل السنان الى ظهره فجذب الرمح منه فلم يخرج ، واذا به قد اشتبك في عظم ظهره فخرج الرمح من غير سنان فطمعوا فيه وحملوا عليه وأخذوه أسيرا ، فنظر أصحاب رسول الله (ص) الى ضرار وهو اسير فعظم الامر عليهم وقاتلوا قتالا شديـدا ليخلصوه فما وجدوا الى ذلك سبيلا وأرادوا الهرب ٠ فقال رافع بن عميرة الطائي يا أهل القرآن الى أين تريدون ؟ أما علمتم ان من ولى ظهره لعدوه فقد باء بغضب من الله ، وان الجنة لها أبواب لا تفتح الا للمجاهديـن ، الصبـر الصبر ، الجنة الجنة ، يا أهل الكتاب كروا على الكفار عباد الصلبان ، وها أنا معكم في أوائلكم ، فان كان صاحبكم أسر أو قتل فان الله حي لا يموت ، وهو يراكم بعينه التي لا تنام ، فرجعوا وحملوا معه ٠٠٠

قال ووصل الخبر الى خالد ان ضرار قد أسر بيد الروم ، وانـه قتل من الروم خلقا كثيرا فعظم ذلك على خالد ، وقال في كم العدو ؟ قالوا اثني عشر الف فارس ٠ فقال والله ما ظننت الا أنهم في عدد يسير ، ولقد غررت بقومي ، ثم سأل عن مقدمهم من يكون ؟ فقيل وردان صاحب حمص ، وقـد قتل ضرار ولده همدان ، فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثـم ارسل الى أبي عبيدة يستشيره فبعث اليه أبو عبيدة يقول له : اتـرك علـى الباب الشرقي من تثق به وسر اليهم فانك تطحنهم باذن الله تعالـى ٠ فلمـا وصل الجواب الى خالد قال والله ما أنا ممن يبخل بنفسه في سبيل الله ثـم أوقف بالمكان ميسرة بن مسروق العبسي (رض) ومعه الف فارس ، وقال لـه

احذر أن تنفذ من مكانك • فقال ميسرة حبا وكرامة وعطف خالد بالناس ، وقال لهم أطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة فاذا أشرفتم على العدو فاحملوا حملة واحدة ليخلص فيها ضرار ان شاء الله تعالى ان كانوا أبقوا عليه ، والله ان كانوا عجلوا عليه لنأخذن بثأره ان شاء تعالى وأرجو أن لا يفجعنا به ، ثم تقدم امام القوم وجعل يقول :

اليوم يوم فاز فيه من صدق	لا ارهب الموت اذا الموت طرق
لاروين الرمح من ذوي الحدق	لاهتكن البيض هتكا والدرق
عسى أرى غدا مقام من صدق	في جنة الخلد والقى من سبق

خولة بن الازور

فبينما خالد يترنم بهذه الابيات ، اذ نظر الى فارس على فرس طويل وبيده رمح طويل وهو لا يبين منه الا الحدق والفروسية تلوح من شمائله وعليه ثياب سود وقد تظاهر بها من فوق لامته وقد خرم وسطه بعمامة خضراء وسحبها على صدره ومن ورائه وقد سبق أمام الناس كأنه نار ، فلما نظره خالد قال ليت شعري من هذا الفارس وايم الله انه لفارس شجاع ، ثم اتبعه خالد والناس ، وكان هذا الفارس اسبق الناس الى المشركين • قال وكان رافع بن عميرة الطائي (رض) في قتال المشركين وقد صبر لهم هو ومن معه اذ نظر خالدا وقد أنجده هو ومن معه من المسلمين ، ونظر الى الفارس الذي وصفناه وقد حمل على عساكر الروم كأنه النار المحرقة فزعزع كتائبهم وحطم مواكبهم ، ثم غاب في وسطهم فما كانت الا جولة الجائل حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء من الروم ، وقد قتل رجالا وجندل أبطالا وقد عرض نفسه للهلاك ، ثم اخترق القوم غير مكترث بهم ولا خائف وعطف على كراديس الروم في الناس وكثر قلقهم عليه ، فأما رافع بن عميرة ومن معه فما ظنوا الا انه خالد وقالوا ما هذه الحملات الا لخالد فهم على ذلك اذ أشرف عليهم (رض)وهو في كبكبة من الخيل : فقال رافع بن عميرة من الفارس الذي تقدم أمامك فلقد بذل نفسه ومهجته • فقال خالد والله انني أشد انكارا منكم له ولقد أعجبني ما ظهر منه ومن شمائله • فقال رافع ايها الامير انه منغمس في عسكر الروم يطعن يمينا وشمالا •

فقال خالد معاشر المسلمين احملوا بأجمعكم وساعدوا المحامي عن دين الله • قال فأطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة والتصق بعضهم ببعض وخالد أمامهم اذ نظر الى الفارس وقد خرج من القلب كأنه شعلة نار والخيل في أثره ،

وكلما لحقت به الروم لوى عليهم وجندل ، فعند ذلك حمل خالد ومن معه ووصل الفارس المذكور الى جيش المسلمين · قال فتأملوه فرأوه قد تخضب بالدماء فصاح خالد والمسلمون لله درك من فارس بذل مهجته في سبيل الله وأظهر على الاعداء اكشف لنا عن لثامك · قال فمال عنهم ولم يخاطبهم وانغمس في الروم فتصايحت به الروم من كل جانب وكذلك المسلمون ، وقالوا أيها الرجل الكريم : أميرك يخاطبك وأنت تعرض عنه اكشف عن اسمك وحسبك لتزداد تعظيما فلم يرد عليهم جوابا ، فلما بعد عن خالد سار اليه بنفسه وقال له ويحك لقد شغلت قلوب الناس وقلبي بفعلك من أنت ؟ قال فلما لج عليه خالد خاطبه الفارس من تحت لثامه بلسان التأنيث ، وقال : انني يا امير لم أعرض عنك الا حياء منك لانك أمير جليل وأنا من ذوات الخدور وبنات الستور ، وانما حملني على ذلك اني محرقة الكبد زائدة الكمد · فقال لها من أنت ؟ قالت أنا خولة بنت الازور المأسور بيد المشركين أخي وهو ضرار واني كنت مع بنات العرب وقد اتاني الساعي بأن ضرار أسير فركبت وفعلت ما فعلت · قال خالد نحمل بأجمعنا ونرجو من الله ان نصل الى أخيك فنفكه · قال عامر بن الطفيل : كنت عن يمين خالد بن الوليد حين حملوا وحملت خولة أمامه وحمل المسلمون وعظم على الروم ما نزل بهم من خولة بنت الازور وقالوا ان كان القوم كلهم مثل هذا الفارس فما لنا بهم من طاقة ولما حمل خالد ومن معه اذا بالروم قد اضطربت جيوشهم ونظر وردان اليهم · فقال لهم اثبتوا للقوم فاذا رأوا ثباتكم ولوا عنكم ويخرج أهل دمشق يعينونكم على قتالهم · قال فثبت المسلمون لقتال الروم وحمل خالد بالناس حملة منكرة وفرق القوم يمينا وشمالا وقصد خالد مكان صاحبهم و ردان عند اشتباك الاعلام والصلبان واذا حوله اصحاب الحديد والزرد النضيد وهم محدقون به ، فحمل خالد عليهم حملة منكرة واشتبك المسلمون بقتال الروم وكل فرقة مشغولة بقتال صاحبها · وأما خولة بنت الازور فانها جعلت تجول يمينا وشمالا وهي لا تطلب الا أخاها وهي لا ترى له اثرا ولا وقفت له على خبر الى وقت الظهر وافترق القوم بعضهم عن بعض وقد أظهر الله المسلمين على الكافرين وقتلوا منهم مقتلة عظيمة · قال وتراجعت كل فرقة الى مكانها وقد كمدت افئدة الروم مما ظهر لهم من المسلمين وقد هموا بالهزيمة وما يمسكهم الا الخوف من صاحبهم وردان ، فلما رجع القوم الى مكانهم أقبلت خولة بنت الازور على المسلمين وجعلت تسألهم رجلا رجلا عن أخيها فلم تر من المسلمين من يخبرهما انه نظره أو رآه أسيرا أو قتيلا ، فلما يئست منه بكت بكاءا شديدا

وجعلت تقول يا ابن أمي ليت شعري في أي البيداء طرحوك أم بأي سنان طعنوك أم بالحسام قتلوك ، يا أخي أختك لك الفداء لو اني أراك انقذتك من أيدي الاعداء ، ليت شعري اترى ألي أراك بعدها ابدا ، فقد تركت يا ابن أمي في قلب اختك جمرة لا يخمد لهيبها ولا يطفأ ، ليت شعري لحقت بأبيك المقتول بين يدي النبي (ص) فعليك مني السلام الى يوم اللقاء • قال فبكى الناس من قولها وبكى خالد وهم أن يعاود بالحملة اذ نظر الى كردوس من الروم قد خرج من ميمنة العقبان فتأهب الناس لحربهم وتقدم خالد وحوله أبطال المسلمين • فلما قربوا من القوم رموا رماحهم من أيديهم والسيوف وترجلوا ونادوا بالامان • فقال خالد اقبلوا أمانهم وائتوني بهم فأتوا اليه • فقال خالد من أنتم ؟ فقالوا نحن من جند هذا الرجل وردان ومقامنا بحمص وقد تحقق عندنا انه ما يطيقكم ولا يستطيع حربكم فأعطونا الامان واجعلونا من جملة من صالحتم من سائر المدن حتى نؤدي لكم المال الذي اردتم في كل سنة ، فكل من في حمص يرضي بقولنا •

فقال خالد اذا وصلت الى بلادكم يكون الصلح ان شاء الله تعالى ان كان لكم فيه أرب ، ولكن نحن ههنا لا نصالحكم ولكن كونوا معنا الى أن يقضي الله ما هو قاض ، ثم ان خالدا قال لهم هل عندكم علم عن صاحبنا الذي قتل ابن صاحبكم ؟ • قالوا لعله عاري الجسد الذي قتل منا مقتلة عظيمة وفجع صاحبنا في ولده • قال خالد عنه سألتكم ؟ • قالوا بعثه وردان عندنا أسيرا على بغل • ووكل به مائة فارس وأنفذه الى حمص ليرسله الى الملك ويخبره بما فعل • قال ففرح خالد بقولهم ، ثم دعا برافع بن عميرة الطائي وقال : يا رافع ما أعلم أحدا أخبر منك بالمسالك وأنت الذي قطعت بنا المفازة من أرض السماوة وأعطشت الابل واوردتها الماء وأوردتنا أركة وما وطئها جيش قبلنا لمفازتها ، وأنت أوحد أهل الارض في الحيل والتدبير فخذ معك من أحببت و اتبع اثر القوم فلعلك أن تلحق بهم وتخلص صاحبنا من أيديهم ، فلئن فعلت ذلك لتكونن الفرحة الكبرى • فقال رافع بن عميرة حبا وكرامة ، ثم انه في الحال انتخب مائة فارس شدادا من المسلمين وعزم على المسير فأتت البشارة الى خولة بمسير رافع بن عميرة ومن معه طلب اخيها ضرار فتهلل وجهها فرحا وأسرعت الى لبس سلاحها وركبت جوادها وآتت الى خالد بن الوليد ، ثم قالت له ايها الامير سألتك بالطاهر المطهر محمد سيد البشر ا لا ما سرحتني مع من سرحت فلعلي أن أكون مشاهدة لهم • فقال خالد لرافع انت تعلم شجاعتها فخذها معك • فقال له رافع السمع والطاعة وارتحل رافع ومن معه ، وسارت خولة في أثر القوم ولم

تختلط بهم ، وسار الى أن قرب من سليمة • قال فنظر رافع فلم يجد للقـــوم اثرا ؟ فقال لاصحابه أبشروا فان القوم لم يصلوا الى ههنا ، ثم انه كَمن بهم في وادي الحياة، فبينما هم كامنون اذا بغبرة قد لاحت • فقال رافع لاصحابه ايقظوا خواطركم وانتبهوا ، فأيقظ القوم هممهم وبقوا في انتظار العدو واذا بهم قد أتوا وهم محدقون بضرار ، فلما رأى رافع ذلك كبر وكبر المسلمون معـــه وحملوا عليهم فلم يكن غير ساعة حتى خلص الله ضرارا وقتلوهم جميعا وأخذوا سلبهم • قال واذا بعساكر الروم قد اقبلت منهزمة وأولهم لا يلتفت الى آخرهم ، فعـلم رافع ان القوم انهزموا فأقبل يلتقطهم بمن معه• قال وكان خالد لما أرسل رافع بن عميرة في طلب ضرارليخلصه ومعه المائة فارس صدم وردان صدمة مـــن يحب الشهادة ويبتغي دار السعادة وصدم المسلمون الروم ، فما لبثوا ان ولوا الادبار وركنوا الى الفرار وكان أولهم وردان واتبعهم المسلمون وأخذوا أسلابهم وأموالهم ولم يزالوا في طلبهم الى وادي الحياة ، فاجتمع المسلمون برافع بن عميرة الطائي وضرار بن الازور وسلموا عليهم وفرحوا بضرار (رض) وهنؤوه بالسلامة • قال واثنى خالد على رافع خيرا ورجعوا الى دمشق وفرح المسلمون بالنصر واتصل الخبر الى الملك هرقل وان وردان قد انهزم وقتل ولده همدان • قـــال فأيقن بزوال ملكه من الشام فكتب الى وردان كتابا يقول فيه : أما بعد فاني قد بلغني جياع الاكباد عراةالاجساد قد هزموك وقتلوا ولدك رحمه المسيح ورحمك ، ولولا اني أعلم أنك فارس الحرب ومجيد الطعن والضرب وليس النصر آتيك لحل عليك سخطي والآن مضى ما مضى ، وقد بعثت الى اجنادين تسعين الفا، وقــد أمرتك عليهم فسر نحوهم وانجد اهل دمشق وأنفذ بعضهم ليمنعوا من في فلسطين مـــن العرب وحل بينهم وبين اصحابهم وانصر دينك وصاحبك • قال وانفذ اليـــــه الكتاب مع خيل البريد ، فلما ورد عليه الكتاب وقرأه سرى عنـــه بعض ما كان يجده وأخذ الاهبة الى اجنادين فسار فوجد الروم قد تجمعوا وأظهروا العـــدد والزرد وخرجوا الى لقائه وسلموا عليه وتقدموا بين يديه وعزوه في ولده ، فلما استقر قراره قرأ عليهم منشور الملـــك فأجابوا بالسمع والطاعة واخـــذوا على أنفسهم •

(قال حدثني) روح بن طريف قال : كنت مع خالد بن الوليد على باب شرقي حينرجعنا من هزيمة وردان واذ قد ورد علينا عباد بن سعد الحضرمي ، وكان قد بعثه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) من بصرى يعـلم خالدا بمسير الروم اليه من اجنادين فيتسعين ألف فارس فخذ أهبتك للقائهم • قال فلما سمع خالد ذلك ركب الى أبي عبيدة وقال له : يا أمين الامة هذا عبادبن

سعد الحضرمي قد بعث به شرحبيل بن حسنة يخبر أن طاغية الروم هرقل قد ولى وردان على من تجمع باجنادين من الروم وهم تسعون الفا فما ترى من الرأي يا صاحب رسول الله • فقال أبو عبيدة : اعلم يا أبا سليمان أن أصحاب رسول الله (ص) متفرقون مثل شرحبيل بن حسنة بأرض بصرى ، ومعاذ بن جبل بحوران ، ويزيد بن أبي سفيان بالبلقاء ، والنعمان بن المغيرة بأرض تدمر وأركة ، وعمرو بن العاص بأرض فلسطين ، والصواب ان تكتب اليهم ليقصدونا حتى نقصد العدو ومن الله نطلب المعونة والنصر • قال فكتب خالد الى عمرو بن العاص كتابا يقول فيه • بسم الله الرحمن الرحيم • أما بعد فان اخوانكم المسلمين قد عولوا على المسير الى اجنادين فان هناك تسعين الفا من الروم يريدون المسير الينا — يريدون ليطفئوا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون — فاذا وصل اليك كتابي هذا فاقدم علينا بمن معك الى اجنادين تجدنا هناك ان شاءالله تعالى والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وكتب نسخة الكتاب الى جميع الامراء الذين ذكرناهم ثم أمر الناس بالرحيل فرفعت القباب والهوادج على ظهور الجمال وساقوا الغنائم والاموال • فقال خالد لابي عبيدة قد رأيت رأيا أن أكون على الساقة مع الغنائم والاموال والبنين والولدان والبنين والولدان وكن انت على المقدمة مع خاصة أصحاب رسول الله (ص) • فقال أبو عبيده بل اكون أنا على الساقة وأنت على المقدمة مع الجيش • فان وصل اليك جيش الروم مع وردان يجدوك على أهبة فتمنعهم من الوصول الى الحريم والاولاد فلا يصلون الينا الا وأنت قتلت فيهم والا كنت أنا ومن معي غنيمة لهم اذا كنت أنا في المقدمة • فقال خالد لست أخالفك فيما ذكرت • ثم أن خالدا قال أيها الناس أنكم سائرون الى جيش عظيم فايقظوا هممكم . وان الله وعدكم النصر وقرأ عليهم قوله تعالى — كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين — •

ثم ان خالدا أخذ الجيش وسار في المقدمة وبقي أبو عبيدة في الف من المسلمين ، ونظر الى ذلك أهل دمشق فعطفوا عليهم واقبلوا بسيوفهم وهم يظنون أنهم منهزمون لاجل ما بلغهم من الجيش العظيم الذي هو باجنادين • فقال لهم عقلاؤهم ان كانوا سائرين على طريق بعلبك فانهم يريدون فتحها وفتح حمص ، وان كانوا على طريق مرج راهط فالقوم لا شك هاربون الى الحجاز ويتركون ما اخذوا من البلاد • قال وكان بدمشق بطريق يقال له بولص وكان عظيما عند النصرانية ، وكان اذا قدم على الملك يعظمه ، وكان الملعون فارسا وذلك انهم كان عندهم شجرة فرماها بسهم فغاص السهم في الشجرة من قوة

ساعده • ثم ان من عجبه كتب عليها ان كل من يدعي الشجاعة فليرم بسهمه الى جانب سهمي ، وكان قد شاع ذكره بذلك ولم يحضر قتال المسلمين منذ دخلوا دمشق ، فلما اجتمعوا عليه قال لهم بولص ما الذي حل بكم ؟ فأعلموه بما جرى عليهم من المسلمين وقالو له : ان كنت تريد حياة الابد عند الملك وعند المسيح وعند اهل دين النصرانية فدونك والمسلمين فاخرج اليهم واخطف كل من تخلف منهم ، وان رأيت لنا فيهم مطمعا قاتلناهم • فقال بولص انما كان سبب تخلفي عن نصرتكم لانكم قليلو الهمة لقتال عدوكم فتخلفت عنكم والآن لا حاجة لي في قتال العرب •

فقالوا . وحق المسيح والانجيل الصحيح لئن سرت في مقدمتنا لنثبتن معك وما منا من يولى عنك وقد حكمناك فيمن ينهزم أن تضرب عنقه ولا يعارضك في ذلك احد • قال فلما استوثق منهم دخل الى منزله ولبس لامته • فقالت له زوجته : الى أين عزمت ؟ • قال أخرج في اثر العرب فقد ولاني أهل دمشق عليهم • فقالت لا تفعل والزم بيتك ولا تطلب ما ليس لك به حاجة فاني رأيت لك في المنام رؤيا • فقال لها وما الذي رأيتي ؟ • قالت رأيتك كأنك قابض قوسك وانت ترمي طيورا وقد سقط بعضها على بعض ، ثم عادت صاعدة فبينما أنا متعجبة اذ أقبلت نحوك سحابة من الجو فانقضت عليك من الهواء وعلى من معك فجعلت تضرب هاماتهم ثم وليتم هاربين ، ورأيتها لا تضرب احدا الا صرعته ثم اني انتبهت وأنا مذعورة باكية العين عليك • فقال لها ومع ذلك رأيتيني فيمن صرع قالت نعم وقد صرعك فارس عظيم • قال فلطم وجهها وقال لا بشرك المسيح بخير لقد دخل رعب العرب في قلبك حتى صرت تحلمين بهم في النوم فلا بد أن أجعل لك أميرهم خادما وأجعل أصحابه رعاة الغنم والخنازير • فقالت له زوجته افعل ما تريد فقد نصحتك • قال فلم يلتفت الى كلامها وخرج من عندها وركب وسار معه من كان في دمشق من الروم ، ففرضهم فاذا هم ستة الاف فارس وعشرة الاف راجل من أهل النجدة والحمية وسار يطلب القوم •

معركة حول دمشق

وكان خالد في المقدمة وأبو عبيده يمشي مع الاموال والاغنام والجمال اذ نظر رجل من أصحابه ، وهو يتأمل الغبرة من ورائهم ، فسأله أبو عبيدة عن ذلك فقال أظنها غبرة القوم • فقال أبو عبيدة أن أهل الشام قد طمعوا فينا ، وهذا العدو قاصد الينا • قال فما استتم كلامه حتى بدت الخيل كأنها السيل وبولص في اوائلهم • فلما نظر الى أبي عبيدة قصده ومعه الفرسان وأخوه

بطرس قصد الحريم والمال فاقتطعوا منها قطعة · فلما احتوى عليها رجع بها بطرس نحو دمشق · فلما بعد جلس هناك لينظر ما يكون من أمر اخيه · وأما أبو عبيدة فانه لما نظر الى ما فاجأه من الروم · قال والله لقد كان الصواب مع خالد لما قال دعني في الساقة فلم أدعه وانه قد وصل اليه بولص وقصده والاعلام والصلبان على رأسه مشتبكة والنساء يولولن والصبيان يصيحون والالف من المسلمين قد اشتغلوا بالقتال وقد قصد عدو الله بولص أبا عبيدة واشتد بينهم الحرب ووقع القتال من أصحابه والروم وارتفعت الغبرة عليهم وهم في كر وفر على أرض سحورا · قال وقد بلى ابو عبيدة بالقتال وصبر صبر الكرام · قال سهيل بن صباح ، وكان تحتي الجواد محجل من خيل اليمن شهدت عليه اليمامة· فقومت السنان وأطلقت العنان فخرج كأنه الريح العاصف ، فما كان غير بعيد حتى لحقت بخالد بن الوليد والمسلمين فأقبلت اليهم صارخا وقلت : أيها الامير أدرك الاموال والحريم · فقال خالد ما وراءك يا ابن الصباح ؟ · فقلت أيها الامير الحق ابا عبيدة والحريم فان نفير دمشق قد لحق بهم ، وقد اقتطعوا قطعة من النسوان والولدان وقد بلى أبو عبيدة بما لا طاقة لنا به · قال فلما سمع خالد ذلك الكلام من سهل بن صباح قال انا لله وانا اليه راجعون ، قد قلت لابي عبيدة دعني أكون على الساقة ، فما طاوعني ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، ثم أمر رافع بن عميرة على ألف من الخيل · وقال له كن في المقدمة وأمر عبد الرحمن بن أبي بكر ا لصديق على ألفين · وقال له ادرك العدو وسار خالد في أثره ببقية الجيش ·

قال فبينما أبو عبيدة في القتال مع بولص لعنه الله اذ تلاحقت به جيوش المسلمين وحملوا على اعداء الله وداروا بهم من كل مكان ، فعند ذلك تنكست الصلبان ، وأيقن الروم بالهوان ، وتقدم الامير ضرار بن لازور كأنه شعلة نار وقصد نحو بولص ·فلما رآه عدو الله تبلبل خاطره ووقعت الرعدة في فرائصه· وقال لابي عبيدة : يا عربي وحق دينك الا ما قلت لهذا الشيطان يبعد عني وكان بولص قد سمع به ورآه من سور دمشق وما صنع بعسكر كلوس عزازير وسمع بفعاله في بيت لهيا ، فلما رآه مقبلا اليه عرفه · فقال لابي عبيدة قل لهذا الشيطان لا يقربني فسمعه ضرار (رض) فقال له أنا شيطان ان قصرت عن طلبك ، ثم انه فاجأه وطعنه ، فلما رأى بولص ان الطعنة واصلة اليه رمى نفسه عن جواده وطلب الهرب نحو أصحابه فسار ضرار في طلبه · وقال له أين تروح من الشيطان وهو في طلبك ؟ولحقه وهم ان يعلوه بسيفه · فقال بولص : يا بدوي آبق علي ففي بقائي بقاء أولادكم وأموالكم · قال فلما سمع ضرار

قوله أمسك عـــن قتله وأخذه أسير ، هـــذا والمسلمون قـد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة ٠

(قال حدثني) أسلم بن مالك اليربوعي عن أبي رفاعة بن قيس ٠ قـال كنت يوم وقعة سحورا مع المسلمين وكنت في خيل عبد الرحمن بن أبي بـكر الصديق (رض) ٠ قال فدرنا بالروم من كل جانب وبذلنا اسيافنا في القوم ، وكانوا ستة كتائب في كل كتيبة ألف فارس قال رفاعة بن قيس : فوالله لقد حملنا يوم فتح دمشق وانه ما رجع منهم فوق المائة ووجه خبر لضرار أن خولة مع النسوان المأسورات فعظم ذلك عليه وأقبل على خالد وأعلمه بذلك ، فقال له خالد لا تجزع ، فقد أسرنا منهم خلقا كثيرا ، وقـد أسرت أنت بولص صاحبهم وسوف نخلص من اسر من حريمنا ولا بد لنا من دمشق في طلبهم ، ثم أمر خالد أن يسيروا بالناس على مهل حتى ننظر ما يكون من أمر حريمنا ٠ ثم انه سار في ألف فارس جريدة وبعث العسكر كله الى أبي عبيدة مخافـة ان يلحقهم وردان بجيوشه فسار القوم وتوجه خالد بمن معه في طلب المأسورات ، وقد قدم أمامه رافع بن عميرة الطائي وميسرة بن مسروق العبسي وضرار بن الازور ٠

(قال حدثني) سعيد بن عمر عن سنان بن عامر اليربوعي ، قال سمعت حبيب بن مصعب يقول : لما اقتطعوا من ذكرنا من نساء العرب سار بهم بطرس أخو بولص الى أن نزل بهم الى النهر الذي ذكرناه ، ثم قال بطرس انا لا أبرح من ههنا حتى انظر ما يكون من أمر أخي ، ثم انه عرض عليه النساء المأسورات فلم يعجبه منهن الا خولة بنت الازور أخت ضرار ٠ قال بطرس هذه لي وأنا لها لا يعارضني فيها أحد ، فقال له أصحابه هي لك وانت لها ٠ قال وكل من سبق الى واحدة يقول هي لي حتى قسموا الغنيمة على ذلك ، ووقفوا ينتظرون مـــا يكون من أمر بولص وأصحابه ، وكان في النساء عجائز من حمير وتبع من نسل العمالقة والتبابعة وكن قد اعتدن ركوب الخيل فقالت لهن خولة بنت الازور : يا بنات حمير بقية تبع أترضين بأنفسكن علوج الروم ، ويكون أولادكن عبيـــدا لاهل الشرك ، فأين شجاعتكن وبراعتكن التي نتحدث بها عنكن في احياء العـرب ومحاضر الحضر ولا أراكن الا بمعزل عن ذلك ، وأني أرى القتل عليكن أهون مـن هذه المصائب وما نزل بكم من خدمة الروم الكلاب ٠

فقالت عفرة بنت غفار الحميرية صدقت ، ووالله يـا بنت الازور نحن في الشجاعة كما ذكرت ، وفي البراعة كما وصفت ، لنا المشاهد العظـام والمواقف الجسام ، ووالله لقد اعتدنا ركوب الخيل وهجوم الليل غير ان السيف يحسن فعله في مثل هذا الوقت ، وانما دهمنا العدو على حين غفلة ، وما نحن الا كالغنم

فقالت خولة يا بنات التبابعة والعمالقة خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الاطنـــــاب ونحمل بها على هؤلاء اللئام فلعل الله ينصرنا عليهم أو نستريح من معرة العرب، فقالت عفرة بنت غفار والله ما دعوت الا ما هو احب الينا مما ذكرت ، ثم تناولت كل واحدة عمودا من أعمدة الخيام وصحن صيحة واحدة وألقت خولة على عاتقها عمود الخيمة وسعت من ورائها عفرة وأم أبان بنت عتبة وسلمة بنت زراع ولبنى بنت حازم ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت النعمان ، ومثل هـــؤلاء (رض) • فقالت لهن خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ولا تتفرقن فتملكن فيقع بكن التشتيت وحطمن رماح القوم واكسرن سيوفهن • قال فهجمت خولة امامهن ، فأول ما ضربت رجلا من القوم على هامته بالعمود فتجندل صريعا والتفت الروم ينظرون ما الخبر ، فاذا هم بالنسوة ، وقد أقبلن والعمد بأيديهن فصاح بطريق يا ويلكن ما هذا ، فقالت عفرة هذه فعالنا فلنضربن القوم بهـــذه الاعمدة ولا بد من قطع اعماركم وانصرام أجالكم يا أهل الكفر • قـــال فجـــاء بطرس ، وقال تفرقوا عن النسوة ولا تبذلوا فيهن السيوف ولا أحد منكم يقتل واحدة منهن وخذوهن اسارى ومن وقع منكم بصاحبتي فلا ينلها بمكروه ، فتفرق القوم عليهن وحدقوا بهن من كل جانب وراموا الوصول اليهن فـــلم يجدوا الى ذلك سبيلا ولم تزل النساء لا يدنو اليهن أحد من الروم الا ضربن قـــوائم فرسه فاذا تنكس عن جواده بادرت النساء بالاعمدة فيقتلنه ويأخذن سلاحه •

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان النسوة قتلن ثلاثين فارســا مـــن الروم ، فلما نظر بطرس الى ذلك غضب غضبا شديدا وترجل وترجلت أصحابه نحـــو النساء والنساء يحرض بعضهن بعضا ويقلن متن كراما ولا تمتن لئاما ، وأظهـــر بطرس رأسه وتلهمه عندما نظر الى فعلهن ، ونظر الى خولة بنت الازور ، وهي تجول كالاسد وتقول :

نحـــن بنات تبــــع وحمير	وضربنا في القوم ليس ينكر
لاننا في الحـــرب نار تسعر	اليوم تسقون العذاب الاكبر

قال فلما سمع بطرس ذلك من قولها ، ورأى حسنها وجمالها ، قال لها يا عربية اقصري عن فعالك فاني مكرمك بكل ما يسرك أما ترضين أن أكون انا مولاك وانا الذي يهابني أهل النصرانية ولي ضياع وبساتين وأمـــوال ومواش ومنزلة عند الملك هرقل ، وجميع ما أنا فيه مردود اليك ، أمـــا ترضين أن تكوني سيدة أهل دمشق فلا تقتلي نفسك ، فقالت له يا ملعون ويا ابن ألف ملعون والله لئن ظفرت بك لاقطعن رأسك والله ما أرضى بك ان ترعى لي الابل فكيف ارضاك أن تكون لي كفؤا • قال فلما سمع كلامها حرض أصحابه على القتال ، وقال أتروز

عارا اكبر من هذا في بلاد الشام ان النسوة غلبنكم فاتقوا غضب الملك ، قال فافترق القوم وحملوا حملة عظيمة وصبر النساء لهم صبر الكرام ، فبينما هم على ذلك اذ أقبل خالد بن الوليد (رض) ومن معه من المسلمين ، ونظروا الى الغبار وبريق السيوف ، فقال لاصحابه من يأتيني بخبر القوم فقال رافع بن عميره الطائي انا آتيك به قال ثم اطلق جواده حتى أشرف على النسوة وهن يقاتلن قتال الموت • قال فرجع وأخبر خالدا بما رأى ، فقال خالد لا أعجب من ذلك انهن من بنات العمالقة ونسل التبابعة ، وما بينهن وبين تبع الا قرن واحد ، وتبع بن بكر بن حسان الذي ذكر رسول الله (ص) قبل ظهوره ، وشهد له بالرسالة قبل ان يبعث ، وقال :

شهدت بأحمد أنه رسول	من الله باريء كل النسم
وأمته سميت في الزبور	بأمة أحمد خير الامم
فلو مد عمري الى عصره	لكنت وزيرا له وابن عم

بطولة النساء

(قال الواقدي) قال خالد لا تعجب يا رافع واعلم ان هؤلاء النسوة لهن الحروب المذكورات والمواقف المشهورات ، وان يكن فعلهن ما ذكرت ، فلقد سدن على نساء العرب الى آخر الابد وأزلن عنهن العار فتهللت وجوه الناس فرحا ووثب ضرار بن الازور عندما سمع كلام رافع • فقال خالد مهلا يا ضرار ولا تعجل فانه من تأنى نال ما تمنى ايها الامير لا صبر لي عن نصرة بنت ابي وامي فقال خالد قد قرب الفرج انشاءالله تعال ثم ان خالدا وثب ووثب اصحابه ، وقال معاشر الناس اذا وصلتم الى القوم فتفرقوا عليهم وأحدقوا بهم فعسى ان يخلص حريمنا ، فقالوا حبا وكرامة • ثم تقدم خالد • قال فبينما القوم في قتال شديد مع النسوة اذ أشرفت عليهم المواكب والكتائب والاعلام والرايات ، فصاحت خولة يا بنات التبابعة ، قد جاءكم الفرج ورب الكعبة • ونظر بطرس الى الكتائب المحمدية ، وقد اشرفت فخفق فؤاده وارتعدت فرائضه وأقبل القوم ينظر بعضهم بعضا • قال فصاح بطرس يا معاشر النسوة ان الشفقة والرحمة قد دخلت في قلبي ، لان لنا أخوات وبنات وأمهات ، وقد وهبتكن للصليب • فاذا قدم رجالكن فأخبرنهم بذلك • ثم عطف يريد الهرب اذ نظر الى فارسين ، قد خرجا من قلب العسكر احدهما قد تكمى في سلاحه والآخر عاري الجسد ، وقد أطلقا عنانهما كأنهما أسدان • وكانا خالدا وضرارا ، فلما رأت خولة أخاها قالت له الى أين يا أبن ؤمي أقبل ؟ فصاح بها بطرس : انطلقي الى اخيك ، فقد وهبتك له • ثم ولى يطلب الهرب • فقالت له خولة ،

وهي تهزأ به ليس هذا من شيم الكرام تظهر لنا المحبة والقرب • ثم تظهـــر الساعة الجفاء والتباعد وخطت نحوه • فقال قد زال عني ما كنت أجد مـــن محبتك • فقالت له خولة لا بد لي منك على كل حال • ثم اسرعت اليه ، وقـــد قصده ضرار • فقال له بطرس خذ اختك عني فهي مباركة عليك ، وهي هديـــة مني اليك • فقال له الامير ضرار قد قبلت هديتك وشكرتها واني لا أجد لك على ذلك الا سنان رمحي فخذ هذه مني اليك • ثم حمل عليه ضرار ، وهـــو يقـــول ـواذا حييتم بتحيه فحيو بأحسن منها أو ردوهاـ ثم همهم اليه بالطعنة ووصلت اليه خولة فضربت قوائم فرسه فكبا به الجواد ووقع عدو الله الى الارض فأدركـــه ضرار قبل سقوطه وطعنه في خاصرته فأطلع السنان مـــن الجانب الآخـــر فتجندل صريعا الى الارض فصاح به خالد لله درك يا ضرار هـــذه طعنـــة لا يخيب طاعنها •

ثم حملوا في أعراض القوم وجميع المسلمين معهم فما كانت الا جـــولة جائل حتى قتل من الروم ثلاثة الاف رجل • قال حامد بن عامر اليربوعي : لقـد عددت لضرار بن الازور في ذلك اليوم ثلاثين قتيلا وقتلت خولة خمسة وعفـــراء بنت غفار الحميرية أربعة • وقال وانهزم بقية القـــوم ، ولم يزالوا في أدبارهم والمسلمون على اثرهم الى أن وصلوا الى دمشق فلم يخرج اليهم أحـــد بل زاد فزعهم واشتد الامر عليهم ورجع المسلمون وجمعوا الغنائم والخيـــل والسلاح والاموال ، ثم قال خالد : الحقوا بأبي عبيدة لئلا يكون وردان وجيوشه قد لحقوا به ، فسار ضرار والقوم ، وقل جعل ضرار رأس البطريق على سنان رمحه ، ولم يزل القوم سائرين الى أن لحقوا بأبي عبيدة في مرج الصفر ، وقـــد تخلف ابو عبيدة حتى اشرف المسلمون عليه فكبر وكبر خـــالد بن الوليد (رض) ومعـــه المسلمون • فلما اجتمع الناس سلم بعضهم على بعض ورأوا المأسورات وقـــد خلصن ، وأخبر خالد أبا عبيدة بما فعلت خولة وعفـــرة وغيرهن من الصحابـــة فاستبشر بنصر الله وعلموا أن الشام لهم • ثم دعا خالد ببولص ، فقال له أسلم والا فعلت بك كما فعلت بأخيك • فقال له وما الذي صنعت بأخي • قال قتلته ، وهذه رأسه ورماها ضرار قدامه • فلما رأى اخيه بكى ، وقال له لا بقاء لي بعـــده حيا فألحقوني به • قال فقام اليه المسيب بن يحيى الفزاري (رض) فضرب عنقه بأمر خالد ثم رحل القوم •

(قال الواقدي) حدثنا سعيد بن مالك • قال لما بعث خـــالد الكتب الى شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) والى يزيد بن أبي سفيان والى عمرو بن العاص قرأ كل واحد من الامراء كتابه • قـــال فساروا بأجمعهم الى اجنادين لعون اخوانهم وجاءوا بعددهم وعديدهم • قـــال سفينة مولى رسول

الله (ص) كنت في خيل معاذ بن جبل ، فلما أشرفنا بأجمعنا على اجنادين كنا كلنا على سيارة واحدة في يوم واحد ، وذلك في شهر صفر سنة ٢٠ من الهجرة ونبادر المسلمون يسلم بعضهم على بعض ، قال ورأينا جيوش الروم في عدد لا يحصى • فلما أشرفنا عليهم أظهروا لنا زينتهم وعددهم واصطفوا مواكب وكتائب ومدوا صفوفهم ، فكانوا ستين صفا في كل صف الف فارس ، قال الضحاك بن عروة والله لقد دخلنا العراق ورأينا جنود كسرى فما رأينا اكثر من جنود الروم ولا اكثر من عددهم وسلاحهم • قال فنزلنا بازائهم • قال فلما كان من الغد بادرت الروم نحونا • قال الضحاك • فلما رأيناهم ، وقد ركبوا أخذنا على أنفسنا وتأهبنا ، وان خالدا ركب ، وجعل يتخلل الصفوف ويقول اعلموا انكم لستم نرون للروم جيشا مثل هذا اليوم ، فان هزمهم الله على أيديكم فما يقوم لهم بعدها قائمة أبدا فأصدقوا في الجهاد وعليكم بنصر دينكم واياكم أن تولوا الادبار فيعقبكم ذلك دخول النار وأقرنوا المواكب ومكنوا المضارب ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة وأيقظوا هممكم •

(قال الواقدي) ولقد بلغني ممن اثق به أن وردان لما رأى اصحاب رسول الله (ص) اقد اجتمعوا وعولوا على حربهم جمع اليه الملوك والبطارقة وقال لهم : يا بني الاصفر اعلموا أن الملك يعول عليكم ، واذا انكسرتم لا تقوم لكم بعدها قائمة أبدا وتملك العرب بلادكم وتسبي حريمكم فعليكم بالصبر ولتكن حملتكم واحدة ولا تتفرقوا واعلموا ان كل ثلاثة منا بواحد منهم واستعينوا بالصليب ينصركم ، فهذا ما كان من هؤلاء • وأما خالد (رض) فانه مشى على أصحابه وقال : معاشر المسلمين من فيكم يحذر لنا القوم وينذرهم ؟ فقال ضرار بن الازور أنا ايها الامير • فقال خالد انت لها والله ولكن يا ضرار اذا أشرفت على القوم فاياك ان تحمل نفسك ما لا تطيق ، وان تغرر بنفسك وتحمل على القوم فما أمرك الله بذلك ،فقد قال الله تعالى؟ـ ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ـ قال فأطلق ضرار عنان جواده حتى اشرف على جيش الروم فرأى أثاثهم وخيامهم وشعاع البيض والطوارق والرايات كأجنحة الطيور ، قال وكان وردان ينظر نحو جيش المسلمين اذ نظر الى ضرار ، وهو مشرف على القوم ، فقال للبطارقة اني أرى فارسا قد أقبل ولست اشك انه طليعة للقوم فأيكم يأتيني به فانتدب من القوم ثلاثين فارسا طلبوا ضرارا ، فلما نظر اليهم ضرار ولى من بين ايديهم فتبعوه وظنوا انه قد انهزم ، وانما أراد بذلك ان يبعدهم عن أصحابهم ، فلما بعدوا علم انه تمكن منهم فلوى رأس جواده اليهم وصوب السنان عليهم ، فأول ما طعن فارسا من القوم أرداه وثنى على الآخر فأعدمه الحياة وصال فيهم صولة الاسد على الغنم ودخل رعبه في قلوبهم فولوا منهزمين فتبعهم ، وهو يصرع منهم فارسا

بعد فارس الى أن صرع منهم تسعة عشر فارسا ٠

فلما رأوا ذلك وقرب هو من جيوش الروم لوى راجعا الى خالد ومعـــه اسلابهم وخيولهم وأعلمه بما كان ، فقال له خالد ألم اقل لك لا تغرر بنفسك ولا تحمل عليهم ، فقال ان القــــوم طلبوني فخفت ان يراني الله منهزما فجاهدت باخلاص ولا جرم أن الله ينصرنا عليهم والله لولا خوفي من ملامك لاحملن عـلى الجميع ٠ واعلم أن القوم غنيمة لنا ٠ قال فرتب خـــالد عسكره ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين فجعل في القلب معاذ بن جبل وفي الميمنة عبـد الرحمن بن أبي بكر الصديق وفي الميسرة سعيد بن عامر وفي الجنـــاح الايسر شرحبيل بن حسنة ، وفي الساقة يزيد بن أبي سفيان في أربعة آلاف فارس حـــول الحريم والبنات والاولاد ، ثم التفت الى النسوة وهن عفراء بنت غفار الحميرية وأم أبان ابنة عتبه وكانت عروسا قد تزوج بها في هذا اليوم ابان بن سعيد ابن العاص والخضاب في يدها والعطر في رأسها ، وخولة بنت الازور ومزروعة بنت عملوق وسلمة بنت زارع وغيرهن من النسوة ممن عرفن بالشجاعة والبراعة ٠

نصيحـــة خـــالد

فقال لهن خالد : يا بنات العمالقة وبقية التبابعة قد فعلتن فعــلا أرضيتن به الله تعالى والمسلمين ، وقد بقي لكن الذكر الجميل ، وهذه أبواب الجنة قـد فتحت لكن ، وابواب النار قد أغلقت عنكن وفتحت لاعدائكن ، واعلمن اني اثق بكن ٠ فان حملت طائفة من الروم عليكن فقاتلن عن أنفسكن ، وان رأيتن أحـدا من المسلمين قد ولى هاربا فدونكن وايـــاه بالاعمدة وارمين بولده وقلن له اين تولى عن أهلك ومالك وولدك وحريمك فانكن ترضين بذلـك الله تعالى ٠ فقالت عفراء بنت غفار . أيها الامير والله لا يفرحنا الا أن نموت أمامـك ، فلنضربـن وجوه الروم ولنقاتلن الى أن لا تبقى لنا عين تطرف ، والله ما نبالي اذا رمينا الروم كله قال فجزاهن خيرا ٠ ثم عاد الى الصفوف فجعل يطوف بينهم بفرسه ، ويحرض الناس على القتال ، وهو ينادي برفيـــع صوته يا معاشر المسلمين : انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا في سبيل الله واحتسبوا نفوسكم في سبيل الله ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة ، ولتكن السهام اذا خرجت من اكبـــاد القسي كأنها من قوس واحدة ٠ فاذا تلاصقت السهام رشقا كالجراد لم يخل أن يـكون منها سهم صائب ، ـ واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ـ ، واعلموا أنكم لم تلقوا بعد هذا عدوا مثله ، وان هـــذه الفئة جملتهم وأبطالهم وملوكهم فجردوا السيوف وأوتروا القسي وفوقوا السهام ٠ ثم ان خالدا أقبـل ووقف في القلب مع عمرو بن العاص وعبد الله بن عمر قيس بن هبيرة ورافع بن عميرة وذي الكلاع الحميري وربيعة بن عامر ونظائرهم ٠ قال فلما نظر ودان الى

بجيش المسلمين قد زحف ، زحفوا وكانوا ملء تلك الارض في الطول والعرض من كثرتهم فترامى الجمعان وتلاقى الفريقان ، وقد اظهر أعداء الله الصلبان والاعلام ، ورفع المسلمون اصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير ·

فلما قرب القوم بعضهم من بعض خرج من علوج الروم شيخ كبير وعليه قلنسوة سوداء · فلما قرب من المسلمين نادى بلسان عربي : أيكم المقدم فليخاطبني وليخرج الي وعليه أمان · قال فخرج اليه خالد بن الوليد · فقال له القس : انت أمير القوم ؟ · فقال خالد : كذلك يزعمون ما دمت على طاعة الله وسنة رسوله ، وان أنا غيرت أو بدلت فلا امارة لي عليهم ولا طاعة · قال القس : بهذا نصرتم علينا ، ثم قال : اعلم انك توسطت بلادا ما جسر ملك من الملوك أن يتعرض لها ولا يدخلها ، وان الفرس دخلوها ورجعوا خائبين ، وان التبابعة أتوها وأفنوا أنفسهم عليها وما بلغوا ما أرادوا ، ولكنكم أنتم نصرتم علينا وان النصر لا يدوم لكم وصاحبي وردان قد اشفق عليكم وقد بعثني اليكم وقال : انه يعطي كل واحد منكم دينارا وثوبا وعمامة ولك أنت مائة دينارا ومائة ثوب ومائة عمامة وارحل عنا بجيشكم فان جيشنا على عدد الذر ولا تظن ان هؤلاء مثل من لقيت من جموعنا ، فان الملك ما انفذ في هذا الجيش الا عظماء البطارقة والاساقفة · قال خالد : والله ما نرجع الا باحدى ثلاث خصال : اما ان تدخلوا في ديننا ، أو تؤدوا الجزية ، أو القتال · وأما ما ذكرت من أنكم عدد الذر فان الله تعالى قد وعدنا النصر على لسان محمد (ص) وأنزل ذلك في كتابه العزيز · واما ما ذكرت من أن صاحبكم يعطي كل واحد منا دينارا وعمامة وثوبا فعن قريب ان شاء الله نرى ثيابكم وبلادكم وعمائمكم كل ذلك في ملكنا وبأيدينا · فقال الراهب اني راجع الى صاحبي أخبره بجوابك ، ثم لوى راجعا وأخبر وردان بما كان من جواب خالد · فقال وردان : أيظن أننا مثل من لقيه من قبل وانما هؤلاء لحقهم الطمع اذ تقاصرنا عن قتالهم والملك قد أرسل اليهم أكابر البطارقة وما بيننا وبينهم الا جولة الجائل ثم نتركهم صرعى ، ثم رتب اصحابه وزحف وقدم أمامه الرجالة صفا أمام القوم والخيالة وبأيديهم المزاريق والقسي · قال فصاح معاذ بن جبل : معاشر الناس ان الجنة قد زخرفت لكم والنار قد فتحت لاعدائكم والملائكة عليكم قد اقبلت والحور العين قد تزينت للقائكم فابشروا بالجنة السرمدية ، ثم قرأ ـ ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ـ بارك الله فيكم الحملة · فقال خالد : مهلا يا معاذ حتى اوصي الناس ، ومشى في الصفوف ورتبها وقال : اعلموا ان هؤلاء أضعافكم فطاولوهم الى وقت العصر ،

فانها ساعة نرزق فيها النصر ، واياكم أن تولوا الادبار فيراكم الله منهزمين ، ازحفوا على بركة الله تعالى ٠

فلما تقارب الجمعان رمت الاروام سهامهم رمية واحدة ٠ قال فقتلوا رجالا وجرحوا اناسا ، وخالد قد منع الناس من الجملة ٠ فقال ضرار بن الازور : وما لنا والوقوف والحق سبحانه وتعالى قد تجلى علينا، والله ما يظن أعداء الله الا أننا قد فشلنا عنهم وجزعنا ، فأمرنا بالحملة حتى نحمل معك ٠ قال فأنت لها ياضرار ،فخرج ضرار بن الازور، وقال والله ما من شيء اشهى الى قلبي من ذلك٠ ثم حمل ضرار وقد تدرع بدرع كان لبطرس أخي بولص ، وألقى الزرد على وجهه وركب جواده ، وكان عليه يومئذ جبتان من جلود الفيلة كان قد اخذهما أيضا من بطرس ، وقد اخفى نفسه عن الروم بلباسه ذلك ، وقد اطلق عنانه وقوم سنانه وحمل في صفوف الروم فرشقوه بالسهام فلم يصل اليه منهم أذى ، وهو يخترق صفوفهم ، فما كان قدر ساعة حتى قتل من الروم عشرين فارسا ومثلها رجالة ٠ قال عنان بن عوف النجبي : كنت ممن يعد قتلى ضرار بن الازور ، وكنت كلما قتل فارسا من الروم أعده ، فكان جملة قتل ضرار في حملته هذه فرسانا ورجالا ثلاثين فارسا ٠

(قال عمر بن سالم) هكذا حدثني نوفل بن زياد ٠ ثم انه رمى البيضة عن رأسه والزرد عن وجهه ونادى بأعلى صوته : أنا الموت الاصفر ، أنا ضرار بن الازور ، أنا صاحبكم ، أنا قاتل همدان بن وردان ، أنا البلاء المسلط عليكم وعلى من أشرك بالرحمن ٠ قال فلما سمعت الروم كلامه عرفوه وتقهقروا الى ورائهم ٠ قال فطمع فيهم وحمل على أثرهم ، فعند ذلك انطبقت عليه الروم ٠ فقال وردان من هذا البدوي ، فقالوا أيها الملك هذا الذي بقي طول عمره عاري الجسد ، ومرة برمح ومرة بنبل ٠ فلما سمع ذلك وبذكر ضرار بن الازور تنفس الصعداء وقال هذا قاتل ولدي ، ولقد اشتهيت من يأخذ منه بثاري وله مني ما يريد ٠ قال فبرز اليه بطريق ، وكان صاحب طبرية ، وقال لوردان انا آخذ لك بالثار ، ثم لوى عنانه وحمل على ضرار فجالا أكثر من ساعة ، ثم طعنه ضرار طعنة صادقة خرق بها كبد عدو الله فتجندل صريعا، فقال وردان لهم ما أتى به ولو اتى به عينا ما صدقته، فان هذا لا تطيق الانس أن تقاتله ، وأنا أرى لهذا غيري ، ثم ترجل وغير لامته وألقى عليه درعا ، وجعل على رأسه التاج وركب جوادا من الخيول العربية وهم أن يخرج الى ضرار بن الازور ، فتقدم اليه بطريق اسمه اصطفان ، وهو صاحب عمان ٠ قال وباس ركاب وردان وقال ايها السيد ان أخذ بثأرك من هذا الذميم أو أسرته لك أتزوجني ابنتك ، فقال له وردان هي لك وأشهد عليه من حضر من

صوت النسام • فلما سمع اصطفان بذلك خرج كأنه شعلة نار وحمل على ضرار وقال له ويلك قد نزل بك ما لا قدرة لك به • قال فلم يدر ضرار ما يقول غيـــر انه أخذ حذره منه ، وقد أخرج اصطفان صليبا من الذهب ، وجعله في عنقــه في سلسلة من الفضة وجعل يقبله ويرفعه على رأسه فعلم ضرار انـــه يستنصر به عليه ، فقال ضرار (رض) ان كنت تستنصر علي به فأنا أستنصر بالقريب المجيب الذي هو ممن دعاه قريب • ثم حمل عليه وأرى الناس أبوابا مـــن الحرب حتى ضج الناس من قتالهما ، فصاح خالد يا ابن الازور ما هذا التكاســـل والتغافل والجنة قد فتحت لك والنار قد فتحت لاعدائك ، واياك الكســـل فان اللـــه عز وجل يعينك قال فأيقظ ضرار نفسه وانقض من سرجــه وحمــل على خصمه وتصايحت الروم بصاحبها تشجعه وكلاهما في ضرب عظيم ، وقد حميت الشمس وتعب الجوادان • فأشار البطريق الى ضرار أن نرجل حتى نتقابل ، فهم ضـــرار أن يترجل شفقة على الجواد ، واذا بصفوف الروم قد خرجت ورجل يقود جنيبــا امامهم ، وكان ذلك غلام البطريق ، فلما نظر اليه ضرار صاح في جواده ، وقـــال له : اجلد معي ساعة والا شكوتك الى رسول الله (ص) •

قال فحمحم الجواد وشمر اجنحته جريا واستقبل ضرار غـــلام البطريق بطعنة فقتله واخذ الجنيب فركبه وأطلق جواده نحو عساكر المسلمين فتناه لوه وعاد ضرار نحو البطريق • فلما رآه اقبل اليه بعد ما قتل غلامه وركب جـــواده ايقن عدو الله بالهلاك وعلم انه ان ولى قتله بلا محالة ، وان وقف اهلكه • فلما نظر ضرار الى عدو الله علم ما عنده فهجم عليه اذ نظر الى الروم وقد خرج منهم كردوس ، وذلك أن وردان لما نظر الى صاحبه وقد اشرف على الموت علم انه ان لم يدركه هلك ، فقال لقومه يا قوم ان هذا الشيطان قد أكـــل من كبـــدي قطعة ، واذا لم أقتله قتلت نفسي ولا بد لي من الخروج اليه • قال فخـــرج فـــي عشرة من البطارقة وهم مدرعون ، وفي ارجلهم اخفاف من الحديد وسواعد مـــن الحديد ، وبأيديهم اعمدة من الحديد ووردان قد لبس لامته وعلى رأســـه تـــاج عظيم مجوهرا ووردان أمامهم كأنه شعلة نار ونظر أصطفان الى من خرج فصرخ بضرار فلم يلتفت الى من خرج اليه الا أنه تأهب • فبينما هم كذلك اذ نظر خالد الى القوم وخروجهم ونظرالى التاج ، وهو يلمع على رأس صاحبهم • فقال ان التاج لا يكون الا على رأس الملك ولا شك انه صاحب القوم قد خرج الى صاحبنا فما الذي يقعدنا عن نصرته ؟ • ثم قال لاصحابه لا يخرج الا عشرة حتى نساوي القوم ، فخرج خالد في عشرة اصحابه وأطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة ، قال ووصل الروم الى ضرار فاستقبلهم بقلب اقوى من الحجر الجلمود ، قال فناداه خالد

ابشر يا ضرار • فقد اسعدك الجبار ولا تجزع من الكفار ، فقال ضرار (رض) ما اقرب النصر من الله ، وجاء خالد ومن معه والتقت الرجال بالرجال وانفرد كل واحد بصاحبه وطلب خالد وردان ، ولم يبرح ضرار عن خصمه اصطفان ، وقد كل ساعة وارتعدت فرائصه عندما نظر الى خالد ومن معه ، فنظر يمينا وشمالا ليطلب الهرب فعلم ضرار منه ذلك فهجم عليه بسنانه ، فلما أيقن بالموت القى نفسه الى الارض وولى هاربا فبادر اليه ضرار والقى نفسه عن جواده وطلب عدو الله حتى لحقه وتقابضا على وجه الارض ،وكان عدو الله كالصخر الجلمود، وكان ضرار نحيف الجسم غير ان الله تعالى اعطاه قوة الايمان • فلما طال بهم العراك ضرب بيده الى مراق بطنه وقلعه من الارض بحيله وجلد به الارض فصاح عدو الله وجعل يستنجد بوردان وقال بالرومية : ايها السيد انجدني مما انا فيه فقد هلكت فصاح وردان يا ويلك ومن ينقذني انا من هؤلاء السباع الكاسرة ، فسمع خالد ذلك فطمع فيه وحمل على وردان وهم ضرار بخصمه ونظر اليهما الفريقان ، وأقبل صاحب رسول الله (ص) ضرار فلم يمهل خصمه دون حتى برك على صدره وذبحه مثل البعير ، وكل واحد مشتغل عن نصرة صاحبه • قال فاخذ ضرار رأس عدو الله وهو ملطخ بالدماء وركب جواده وحملت الروم على المسلمين ونادى سعيد بن زيد : يا معشر الناس اذكروا الوقوف بين يدي الله الملك الجبار فاياكم ان تولوا الادبار فتستوجبوا دخول النار ، يا اهل الايمان يا حملة القرآن اصبروا • قال فزاد الناس بقوله نشاطا وتزاحم الفريقان • قال وجاء وقت العصر فافترقوا وقد قتل من الروم ثلاثة الاف وعشرة من ملوكهم ، ومنهم رومان صاحب الاميرة ، ودمر صاحب نوى ، وكوكب صاحب ارض البلقاء ، ولاوى بن حنا صاحب غزة • قال ثم افترق القوم ورجع وردان الى مكانه وقد امتلأ قلبه رعبا مما ظهر له من المسلمين من شدة صبرهم وقتالهم • فجمع البطارقة وقال لهم : يا أهل دين النصرانية ما تقولون في هؤلاء العرب فاني اراهم غالبين علينا وقد رأيت اسيافهم قاطعة وخيلهم صابرة وسواعدكم بليدة ، وان القوم أطوع منكم لربكم وما خذلتم الا بالظلم والجور والغدر ، وما مرادي منكم الا أن تتوبوا الى ربكم ، فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر من عدوكم ، وان لم تفعلوا ذلك فائذنوا بحرب من المسيح وبهلاك انفسكم ، فان الله عاقبكم اشد عقوبة اذ سلط عليكم اقواما لا نفكر بهم ولا نعدهم ، لان اكثرهم جياع وعبيد وعراة ومساكين اخرجهم الينا قحط الحجاز وجوعه وشدة الضرر والبلاء ، والان قد أكلوا من خبز بلادنا وفواكه أرضنا وأكلوا العسل والتين والعنب ، وأعظم ذلك سبي نسائكم واموالكم •

(قال الواقدي) فلما سمع القوم ذلك بكوا وقالوا نقتل عن آخرنا ولا يصل الينا هؤلاء القوم وانا نرى أن نقاتلهم بالرماح • قال فلما سمع وردان ذلك منهم صاح بالبطارقة وقال لهم ما عندكم من الرأي ؟ • فقال رجل منهم يا وردان اعلم انك قد بليت بقوم لا تقوم لقتالهم ، وقد رأيت الواحد منهم يحمل على عسكرنا ولا يبالي من احد ولا يرجع حتى يقتل منهم ، وقد قال لهم نبيهم ان من قتل منكم صار الى الجنة • ومن قتل من الروم صار الى النار ، والموت والحياة عندهم سواء وما أرى لكم من القوم مطمعا الا أن نتحيل على صاحبهم فنقتله فان قتلتموه ينهزم القوم وانك لا تصل اليه الا بحيلة توقعه فيها • فقال وردان واي حيلة ندخل بها على القوم والحيل والخداع والمكر منهم ؟ •

فقال له البطريق : أنا أقول لك شيئا ان صنعته وصلت به الى امير العرب من حيث لا يصل اليك شيء ولا أذى ، وذلك أنك تنتخب عشرة من الفرسان من ذوي الشدة والبأس ويكمنون في مكمن من جهة العسكر قبل خروجك اليه وبعد ذلك تخرج اليه وتشاغله بالحديث ثم اهجم عليه وأخرج قومك يبادرون من المكمن ويقطعونه اربا اربا وتستريح منه وبعد ذلك تتفرق اصحابه ولا يجتمع منهم أحد • قال فلما سمع وردان ذلك من البطريق فرح فرحا عظيما • وقال : ما هذا الا رأي سديد فنعم ما أشرت به وقد أصبت فيما ذكرت غير ان هذا الامر يعمل في جنح الليل ولا يأتي الصباح الا وقد فرغنا مما نريد ، ثم ان وردان دعا برجل من العرب المتنصرة اسمه داود وكان في سكنه • وقال له يا داود أنا أعلم انك فصيح اللسان واني أريد ان تخرج الى هؤلاء العرب وتسألهم ان يقطعوا الحرب بيننا وبينهم ، وقل لهم لا يخرجون لنا بكرة النهار حتى أخرج بنفسي اليهم منفردا عن قومي ولعلنا نصطلح مع العرب • فقال داود ويحك وتخالف أمر الملك هرقل فيما أمرك به من الحرب وتصطلح انت والعرب فان الملك ينسبك الى الجزع والفزع وما كنت بالذي أخاطب العرب في ذلك أبدا فيبلغ الملك اني كنت السبب في ذلك فيقتلني • فقال له وردان يا ويلك انما دبرت حيلة على أمير العرب حتى أصل اليه بها فأقتله وتتفرق هؤلاء العرب عنا ثم انه حدثه بما عزم عليه من المكر بخالد بن الوليد • فقال لوردان ان الباغي مخذول في كل فعل فالق الجمع بالجمع واترك ما عزمت عليه ، فقال وردان وقد غضب ويلك أنت تعاندني فيما أمرتك به دع عنك المحاججة • فقال حبا وكرامة ، ثم انه مضى وقال في نفسه ان وردان قد عزم ان يلحق بولده ،ثم اقبل حتى انه وقف قريبا من المسلمين ونادى برفيع صوته ، وقال يا معاشر العرب حسبكم من القتل وسفك الدماء فان الله تعالى يسألكم عن سفكها ،

وأريد أن يخرج الي أمير العرب حتى اخاطبه بما ارسلت به · قال فما استتم كلامه حتى خرج اليه خالد (رض) و هو كأنه شعلة نار ·

فلما نظر اليه داود النصراني قال له : يا عربي على رسلك فما خرجت أحارب ولا أنا من رجال الحرب وما أنا الا رسول · فلما سمع خالد مقالته قرب منه · وقال اذكر مسألتك واستعمل الصدق تنج فمن صدق نجا ومن كذب هلك ، فقال صدقت يا عربي : ان أميرنا وردان كاره سفك الدماء ، وقد رأى شدتكم ولا يريد حربكم ، وقد نظر الى من قتل من جماعته فكره أن يحاربكم ، وقد رأى ان يدفع لكم مالا ويحقن به دماء الناس لكن بشرط ان يكون بينك وبينه كتاب وشهد عليك كبراء قومك انك لا تتعرض له ولا لاحد من أصحابه ولا لحصن من حصونه ، فان فعلت ذلك وثق بقولك وهو يسألك أن تقطع الحرب بقية يومك ، فاذا اصبحت فاخرج بنفسك ولا يكن معك أحد ويخرج هو أيضا منفردا فننظر ما تتفقان عليه عسى ان تحقنا دماء الناس بيننا وبينكم · قال فلما سمع خالد ما نطق به داود قال له : ان كان ما أخبر به صاحبكم يريد به حيلة أو مكيدة فنحن والله جرثومة الخداع وما مثلنا يأتي بحيلة ولا بخديعة ، فان كان ذلك ضميره واعتقاده فما هو الا قرب أجله وانقطاع عمره وهلاك جموعكم والانفصال بيننا وبينكم ، وان كان ذلك حقا من قوله فلست اصالحه الا اذا أدى الجزية عن جماعته · وأما المال فلست براغب فيه الا على ما ذكرته لكم وعن قريب نأخذ اموالكم ونملك بلادكم · فقال داود وقد عظم عليه كلام خالد ما يكون الامر الا كما ذكرت فاذا توافقتم كان الانفصال بيننا ، وها انا راجع فأذكر له ما ذكرت ثم لوى راجعا وقد امتلأ قلبه رعبا من خالد وفزع منه فزعا شديدا ، ثم قال في نفسه صدق والله أمير العرب وأنا اعلم والله ان وردان اول مقتول ونحن من بعده وما لي الا أن أصدق أمير العرب وآخذ لي ولاهلي منه أمانا ، ثم رجع الى خالد وقال له : يا امير اني قد أضمرت على سر وأريد أن أبديه لك لاني أعلم أن البلاد لكم ، ان وردان قد نوى على شيء · فقال خالد وما هو ؟ · فقال خذ لنفسك الحذر وكن مستيقظا فانه قد اضمر لك كيدا ، ثم أخبره بالقصة من أولها الى اخرها ، ثم قال لخالد أريد منك الامان لي ولاهلي · فقال خالد الامان لك ولاهلك ولاولادك ان أنت لم تخبر القوم ولم تغدر قال داود لو أردت أن أغدر لما حدثتك · فقال خالد وأين كمين القوم ؟ · قال عند كثيب عن يمين عسكرهم ، ثم انه خلاه ورجع وأعلم وردان ففرح وقال الان ارجو أن يظفرني الصليب بهم ، ثم انه دعا بعشرة من الابطال ، وقال لهم امضوا رجالة وأكمنوا وأمرهم أن يفعلوا ما دبروه · وأما خالد فانه رجع فلقيه امين الامة ابو عبيدة فرآه ضاحكا · فقال يا ابا سليمان اضحك الله سنك ما

الخبر ؟ فحدثه بما جرى • فقال ابو عبيدة على ماذا عزمت • قال عزمت ان اخرج الى القوم وحدي • فقال يا ابا سليمان لعمرك انك لكفء ولكن ما أمرك الله ان تلقي بنفسك الى التهلكة والله تعالى يقول ـ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ـ وقد أعد لك عشرة ، وهو حادي عشر وما آمن عليك من اللعين ولكن اندب له رجالة كما ندب لك رجالة ويكمنون قريبا من القوم ، فاذا صرخ اللعين بقومه فاصرخ انت بقومك ونكون نحن متأهبين على خيولنا ، فاذا فرغت من عدو الله حملنا جميعا ونرجوا من الله النصر ، ثم قال : والمسلمون هم رافع بن عميره الطائي ، ومعاذ بن جبل ، وضرار بن الازور ، وسعيد بن زيد ، وقيس بن هبيرة ، وميسرة بن مسروق العبسي ، وعدي بن حاتم حتى استتم العشرة واخبرهم خالد بما قد عزم عليه الروم من الحيلة والمكيدة التي قد دبرها وردان • وقال اخرجوا رجالة بحيث لا يدري بكم احد حتى انكم تأتون الكتيب الذي عن يمين العسكر فاكمنوا هناك ، فاذا صرخت بكم فبادروا وانفروا للقوم كل واحد لواحد واتركوني لعدو الله فانني ان شاءالله تعالى كفء له فقال ضرار : ايها الامير اخاف ان يكثر عليك الجمع الكثير فلا نأمن ان يصلوا بشرهم اليك ، وقد كنت ادبر لك حيلة اننا نسير من وقتنا هذا الى مكمن القوم فاذا وجدناهم رقودا قتلناهم وفرغنا منهم قبل الصباح ونكمن نحن في مواضعهم فاذا خلوت انت بعدو الله خرجنا عليكم بغير مقالة •

فقال خالد افعل يا ابا الازور ما ذكرت ان وجدت الى ذلك سبيلا وخذ معك هؤلاء الذين ندبتهم وانت الامير عليهم ، وارجو ان الله يبلغك ما تطلبه ، وخرج هو واصحابه في جنح الليل رجالة وبأيديهم اسلحتهم وودعوا الناس ، وكان وقت خروجهم قد مضى ثلث الليل ، ثم سار ضرار حتى وصل الكثيب فاوقف اصحابه وقال على رسلكم حتى استخبر لكم خبر القوم • فلما اشرف عليهم من بعيد سمع غطيطهم وهم نيام سكرى غرقوا في النوم لما نالهم من التعب والنصب وقد أمنوا من أحد ينظرهم • فقال ضرار في نفسه ان أنا دنوت من القوم لاقتلهم خشيت ان يوقظ بعضهم بعضا • قال فرجع الى اصحابه وقال لهم ابشروا فقد اتاكم الله بما تريدون ، وأذهب عنكم ما تحذرون ، فجردوا سيوفكم وسيروا الى القوم فاقتلوهم كيف شئتم ، ثم تقدم ضرار امامهم وهم في اثره الى ان وصل بهم اليهم فوجدوهم نياما كل واحد منهم سلاحه عند رأسه فانفرد كل واحد منهم بواحد ، فلم يلبثوا الا وقد فرغوا منهم عن اخرهم وأخذ كل واحد سلاح غريمه وأخذوا كل ما معهم من الزاد وغيره ، فقال لهم ضرارا أبشروا فان هذا اول النصر ان شاء الله تعالى ، وأقبلوا بقيلة

ليلتهم يصلون. ويدعون الله ان ينصرهم على عدوهم ولم يزل كل واحد منهم في مصلاه الى ان اضاء الفجر فصلوا صلاة الفجر • فلما فرغوا من الصلاة لبس كل واحد ثياب غريمه ولباسه وغيبوا القتلى مخافة ان يرسل اليهم وردان خبرا ••

معركة اجنادين

(قال الواقدي) فلما اصبح الصباح صلى خالد بالناس ورتب اصحابه لاهبة الحرب ، فبينما هم كذلك اذ خرج من القلب فارس وقال : يا معاشر العرب أريد اميركم ليخرج الى صاحبنا وردان لننظر ما يتفقان عليه من أمر الجيشين وحقن الدماء بينهما • قال فخرج اليه خالد بن الوليد • فقال له الفارس ان وردان يريد ان تنتظره حتى تتكلم معه • فقال خالد السمع والطاعة ارجع واخبره ، فعند ذلك خرج وردان وقد تزين بقلادة جوهر وعلى رأسه تاج • فقال خالد عندما رآه هذه غنيمة للمسلمين ان شاء الله تعالى • قال فلما نظر عدو الله الى خالد ترجل عن جواده وكذلك خالد وجلس كلاهما ، وقد جعل عدو الله سيفه على فخذه • فقال له خالد قل ما تشاء ، واستعمل الصدق والزم طريق الحق ، واعلم انك جالس بين يدي رجل لا يعرف الحيل • فقال ما تريد ؟ فقال وردان يا خالد اذكر لي ما الذي تريدون وقرب الامر بيني وبينكم ، فان كنت تطلب منا شيئا فلا نبخل به عليك صدقة منا عليكم لاننا ليس عندنا امة اضعف منكم ، وقد علمنا انكم كنتم في بلاد قحط وجوع تموتمون جوعا فاقنع منا بالقليل وارحل عنا • فلما سمع منه خالد هذا الكلام• قال له يا كلب الروم ان الله عز وجل اغنانا عن صدقاتكم واموالكم وجعل اموالكم نتقاسمها بيننا وأحل لنا نساءكم واولادكم الا ان تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ، وان ابيتم فالحرب بيننا وبينكم ، أو الجزية عن يد وانتم صاغرون ، وبالله اقسم ان الحرب اشهى لنا من الصلح • واما قولك يا عدو الله لم تكن امة اضعف منا عندكم فانتم عندنا بمنزلة الكلاب ، وان الواحد منا يلقي الفا منكم بعون الله تعالى وما هذا خطاب من يطلب الصلح ، فان كنت ترجو ان تصل الي بانفرادي عن قومي وقومك فدونك وما تريد ؟

قال فلما سمع وردان مقالات خالد وثب من مكانه من غير ان يجرد سيفه وتشابكا ونقابضا وتعانقا • قال فصاح عدو الله عندما وثق من خالد وقال لاصحابه : بادروا الان الصليب قد مكنني من أمير العرب ، فما استتم كلامه حتى بادر اليه الصحابة كأنهم عقبان يتقدمهم ضرار بن الازور ، وقد رموا

النشاب عنهم وجردوا سيوفهم وضرار عاري الجسد بسراويله قابض على سيفه وهو يزأر كالاسد وأصحابه من ورائه فالتفت عدو الله ونظر الى القوم وهم يتسابقون اليه وهو يظن انهم قومه حتى انهم وصلوا اليه ونظر في أوائلهم ضرار بن الازور • فقال لخالد سألتك بحق معبودك ان تقتلنيْ أنت بيدك ولا تدع هذا الشيطان يقتلني • فقال خالد هو قاتلك لا محالة فهز ضرار سيفه وقال يا عدو الله اين خديعتك من خديعة اصحاب رسول الله (ص) • فقال خالد اصبر يا ضرار حتى آمرك بقتله ، ثم وصل اليه اصحاب رسول الله (ص) فهزوا سيوفهم في وجهه ومرادهم ان يقتلوه ونظر عدو الله الى ما دهمه فوقع الى الارض وهو يشير باصبعه الامان الامان • فقال خالد يا عدو الله لا نعطي الامان الا لاهل الامان وانت اظهرت لنا المكر والخديعة ـ والله خير الماكرين ـ فلما سمع ضرار كلام خالد لم يمهله دون ان ضربه على عاتقه فخرج السيف يلمع من علائقه ، ثم أخذ التاج من على رأسه • وقال من سبق الى شيء كان اولى به وقد أدركته سيوف المجاهدين فقطعوه اربا اربا وتبادروا الى سيفه فأخذوه ، ثم ان خالدا قال لاصحابه اني اريد ان تحملوا على الروم لانهم مشتاقون الى اصحابهم • قال فأخذوا رأس عدو الله وردان وتوجهوا نحو عسكر الروم • فلما وصل خالد الصفوف نادى •• يا اعـداء الله هذا رأس صاحبكم وردان •• انا خالد بن الوليد انا صاحب رسول الله (ص) ، ثم انه رمى الرأس وحمل عليهم وحمل المسلمون وحمل ابو عبيدة وقال احملوا يا اهل القرآن وحفاظ الدين وحماة المسلمين • فلما رأى الروم رأس وردان ولوا الادبار وركنوا الى الفرار ، ولم يزل السيف يعمل فيهم من وقت الصباح الى الغروب • قال عامر بن الطفيل الدوسي : كنت مع ابي عبيدة ونحن نتبع المنهزمين الى طريق غزة اذ اشرف علينا خيل فظننا انها نجدة من عند الملك هرقل فأخذنا على انفسنا واذا بالغبرة قد قربت منا ، فاذا هي عسكر من ارسلها ابو بكر الصديق ، وما رأوا احدا من المنهزمين الا قتلوه ونهبوا ما معه•

(قال الواقدي) وكان الروم بأجنادين تسعين الفا فقتل منهم في ذلك اليوم خمسون الفا وتفرق من بقى منهم ، فمنهم من انهزم الى دمشق ، ومنهم من انهزم الى قيسارية وغنم المسلمون غنيمة لم يغنم مثلها واخذوا منهم صلبان الذهب والفضة ، فجمع خالد ذلك كله مع تاج وردان الى وقت القسمة وقال خالد لست أقسم عليكم شيئا الا بعد فتح دمشق ان شاء الله تعالى ، وكانت الوقعة باجنادين ليلة ست خلت من جمادي الاول سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية ، وذلك قبل وفاة ابي بكر بثلاث وعشرين ليلة ، ثم ان خالدا (رض)

كتب كتابا الى ابي بكر يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد المخزومي الى خليفة رسول الله (ص) ، سلام عليك • اما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) ، وازيد حمدا وشكرا على المسلمين ودمارا على المتكبرين المشركين وانصداع بيعتهم ، وانا لقينا جموعهم بأجنادين وقد رفعوا صلبانهم وتقاسموا بدينهم ان لا يفروا ولا ينهزموا ••• فخرجنا اليهم واستعنا بالله عز وجل متوكلين على الله خالقنا فرزقنا الله الصبر والنصر ، وكتب الله على اعدائنا القهر فقاتلناهم في كل واد وسبسب ، وجملة من احصيناهم ممن قتل من المشركون خمسون الفا وقتل من المسلمين في اليوم الاول والثاني اربعمائة وخمسون رجلا ختم الله لهم بالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرا ، فلما فهم ما فيه قرأه على عشرون والباقي من اخلاط الناس ، ويوم كتبت لك الكتاب كان يوم الخميس لليلتين خلتا من جمادي الاخر ، ونحن راجعون الى دمشق ان شاء الله تعالى فادع لنا بالنصر والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه الى عبد الرحمن بن حميد وامره بالمسير الى المدينة المنورة على ساكنها افضل الصلاة واتم السلام ، وسار خالد بالمسلمين طالب دمشق •

(قال الواقدي) رحمة الله عليه : ولقد بلغني ان أبا بكر الصديق كان يخرج كل يوم بعد صلاة الفجر اذ أقبل عبد الرحمن بن حميد • فلما رآه تسابقت اليه أصحابه وقالوا له من أين أقبلت ؟ قال من الشام وان الله قد نصر المسلمين فسجد أبو بكر الصديق لله شكرا ، وأقبل عبد الرحمن ابن حميد الى أبي بكر وقال : يا خليفة رسول الله ارفع رأسك فقد أقر الله عينك بالمسلمين فرفع أبو بكر رأسه وقرأ الكتاب سرا ، فلما فهم ما فيه قرأه على المسلمين جهرا ، فتزاحم الناس يسمعون قراءة الكتاب ، فشاع الخبر في المدينة فهرعت الناس من كل مكان ، فقرأه أبو بكر ثاني مرة وتسامع الناس من أهل مكة والحجاز واليمن بما فتح الله على أيدي المسلمين وما ملكوا من أموال الروم فتسابقوا بالخروج الى الشام ورغبوا في الثواب والاجر ، وأقبل الى المدينة من أهل مكة وأكابرهم بالخيل والرماح وفي اوائلهم ابو سفيان والغيداق بن وائل ، وأقبلوا يستأذنون أبا بكر في الخروج الى الشام فكره عمر بن الخطاب خروجهم الى الشام وقال لابي بكر : لا تأذن للقوم فان في قلوبهم حقائد وضغائن ، والحمد لله الذي كانت كلمته هي العليا وكلمتهم هي السفلى وهم على كفرهم وأرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله

الا أن يتم نوره ، ونحن مع ذلك نقول : ليس مع الله غالب • فلما أن أعز الله ديننا ونصر شريعتنا اسلموا خوفا من السيف • فلما سمعوا ان جند الله قد نصروا على الروم أتونا لنبعث بهم الى الاعداء ليقاسموا السابقين الاولين ، والصواب أن لا نقربهم • فقال أبو بكر لا أخالف لك قولا ولا أعصى لك أمرا • قال وبلغ أهل مكة ما تكلم به عمر بن الخطاب فأقبلوا بجمعهم الى ابي بكر الصديق في المسجد فوجدوا حوله جماعة من المسلمين وهم يتذاكرون ما فتح الله على المسلمين وعمر بن الخطاب عن يساره وعلي بن ابي طالب عن يمينه والناس حوله ، فأقبلت قريش الى أبي بكر فسلموا عليه وجلسوا بين يديه وتشاوروا فيمن يكون أولهم كلاما ، فكان أول من تكلم أبو سفيان بن حرب فأقبل على عمر بن الخطاب وقال : يا عمر كنت لنا مبغضا في الجاهلية ، فلما هدانا الله تعالى الى الاسلام هدمنا ما كان لك في قلوبنا لان الايمان يهدم الشرك وأنت بعد اليوم تبغضنا فما هذه العداوة يا ابن الخطاب قديما وحديثا ؟ اما آن لك ان تغسل ما بقلبك من الحقد والتنافر ، وانا لنعلم أنك أفضل منا وأسبق في الايمان والجهاد ، ونحن عارفون بمرتبتكم غير منكرين • قال فسكت عمر (رض) واستحى من هذا الكلام • فقال أبو سفيان اني اشهدكم اني قد حبست نفسي في سبيل الله وكذلك تكلم سادات مكة • فقال ابو بكر اللهم بلغهم أفضل ما يؤملون ، وأجزهم باحسن ما يعملون وأرزقهم النصر على عدوهم ولا تمكن عدوهم فيهم — انك على كل شيء قدير — •

(قال الواقدي) فما تمت أيام قلائل حتى جاء جمع من اليمن وعليهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رض) يريد الشام فما لبثوا حتى أقبل مالك بن الاشتر النخعي (رض)عنه فنزل عند الامام علي (رض) بأهله ، وكان مالك يحب سيدنا عليا ، وقد شهر معه الوقائع وخاض المعامع في عهد رسول الله (ص) وقد عزم على الخروج مع الناس الى الشام •

كتاب أبو بكر الى خالد

(قال الواقدي) واجتمع بالمدينة نحو تسعة الاف ، فلما تم امرهم كتب ابو بكر كتابا الى خالد بن الوليد يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي بكر خليفة رسول الله الى خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين • أما بعد فاني احمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) ، وأوصيكم وآمركم بتقوى الله في السر والعلانية ، وقد فرحت بما أفاء الله على المسلمين

من النصر وهلاك الكافرين وأخبرك أن تنزل الى دمشق الى أن يأذن الله بفتحها على يدك فاذا تم لك ذلك فسر الى حمص وانطاكية والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وقد تقدم اليك أبطال اليمن وأبطال مكة ويكفيك بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الاشتر وانزل على المدينة العظمى انطاكية ، فان بها الملك هرقل فان صالحك فصالحه وان حاربك فحاربه ولا تدخل الدروب ، وأقول هذا وان الاجل قد قرب · ثم كتب ـ كل نفس ذائقة الموت ـ ثم ختم الكتاب وطواه ودفعه الى عبد الرحمن ، وقال له أنت كنت الرسول من الشام وانت ترد الجواب فأخذه عبد الرحمن وسار على مطيته يطوي المنازل والمناهل الى أن وصل الى دمشق ·

(قال حدثني) نافع بن عميرة قال لما بعث خالد بن الوليد الكتاب الى ابي بكر الصديق ارتحل يريد دمشق ، وكان أهلها قد سمعوا بقتل بطريقهم وأبطالهم وانهزام جيوشهم ومن أرسلهم الملك بأجنادين فخافوا وتحصنوا بدمشق واعدوا آلة الحصار ورفعوا السيوف والطوارق وعلوا على الاسوار ونشروا الاعلام والصلبان ، فلما أخذوا على أنفسهم اشرف عليهم الامير خالد بن الوليد والجيش قد زاد عمرو بن العاص في تسعة الاف ويزيد بن أبي سفيان في الفين وشرجبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة في ألفين ، وأقبل السواد من ورائهم معاذ بن جبل في الفين ، فلما رأى أهل دمشق عسكرالمسلمين مثل البحر الزاخر ايقنوا بالهلاك ، وأقبل خالد في جيش الزحف فنزل على الدير المعروف به ، وبينه وبين المدينة أقل من ميل ، فلما نزل هناك دعا بالامراء فاحضرهم ، فقال لابي عبيدة انت نعلم ما ظهر لنا من غدر هؤلاء القوم عند انصرافنا عنهم وخروجهم في اثرنا فامض بمن معك من اصحابك وانزل بهم على باب الجابية ولا تسمح للقوم بالامان فيأخذوك بمكرهم ولتكن متباعدا عن الباب وابعث اليهم فوجا بعد فوج ، واجعل قتال الناس دولا ولا يضق صدرك من كثرة المقام ولا تبرح من مكانك واحذر من القوم الكافرين · فقال ابو عبيدة حبا وكرامة · ثم انه خرج حتى نزل بباب الجابية ونصب له بيتا من الشعر بالبعد من الباب ·

حول دمشق

(قال الواقدي) حدثني مسلمة بن عوف عن سالم بن عبدالله عن حجاج الانصاري · قال قلت لجدي رفاعة بن عاصم ، وكان ممن قاتل بدمشق ،وكان فى خيل أبي عبيدة فقلت يا جداه ما منع ابا عبيدة أن ينصب له قبة من بعض

قبب الروم مما اخذه من اجنادين ومن بصرى ، فقد كان عندهم الوف من ذلك ، ففال يا بني منعهم من ذلك التواضع ولم يتنافسوا في زينة الدنيا وملكها حتى ينظر الروم انهم لا يقاتلون طلبا للملك ، وانما يقاتلون رجاء ثواب الله تعالى وطلب الاخرة ونصرة للدين ولقد كنا ننزل فننصب خيامنا وخيام الروم بالبعد . قال فلما نزل ابو عبيدة على باب الجابية أمر اصحابه بالقتال . ثم ان خالدا استدعى بيزيد بن ابي سفيان ، وقال له يا يزيد خذ صاحبك وانزل على الباب الصغير واحفظ قومك ، وان خرج اليك احد لا يكون لك به طاقة فابعث الي حتى انجدك ان شاء الله تعالى . ثم استدعى بشر حبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) وقال له انزل على باب توما . ثم توجه بقومه واستدعى بعمرو بن العاص وأمره ان يسير الى باب الفراديس . ثم استدعى بعده بقيس بن هبيرة ، وقال له اذهب بقومك الى باب الفرج . ثم نزل خالد الى الباب الشرقي ودعا بضرار بن الازور (رض) وضم اليه ألفي فارس ، وقال له تطوف حول المدينة بعسكرك ، وان دهمك أمر أو لاحت لك عيون القوم فأرسل الينا . قال ثم سار ضرار واتبعه قومه وبقي خالد على الباب الشرقي . ثم قدم عبد الرحمن بن حميد من المدينة بكتاب أبي بكر الصديق (رض) وعدل الى ناحية خالد بن الوليد على الباب الشرقي وقد تقدم للقتال طائفة من اصحابه مع رافع بن عميرة . فلما رفع اليه الكتاب فرح بعد أن قرأه على المسلمين واستبشر بقدوم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وأبي سفيان بن حرب . قال وشاع الخبر عند جميع الناس وبعث خالد كتاب ابي بكر الى كل باب فقرىء على الناس وبات الناس متأهبين للحرب يتحارسون الى الصباح وضرار يطوف حولهم ولا يقف في مكان واحد مخافة ان يكبس بهم العدو .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان اهل دمشق اجتمعوا الى كبارهم من البلد وتشاوروا فيما بينهم . فقال بعضهم ما لنا الا الصلح ونعطي العرب جميع ما طلبوه منا ، وقال اخرون ما نحن بأكثر من جموع اجنادين . فقال لهم بطريق من الروم اطلبوا لنا صهر الملك توما نتشاور في هذا الامر لنسمع ما يقول ونطلب منه ان يكشف عنا ما نحن فيه فاما ان يصالحهم ، واما ان يحامي عنا . قال فمضى القوم الى توما وعليه رجال موكلون بالسلاح ، فقالوا لهم ما الذي تريدون ؟ فقالوا نريد صهر الملك توما نشاوره في هذا الامر . قال فأذنوا لهم فدخلوا عليه وقبلوا الارض بين يديه. فقال لهم ما الذي تريدون ؟ فقالوا أيها السيد انظر ما نزل ببلادنا ، وقد جاءنا ما لا طاقة لنا به . فاما ان نصالح العرب على ما طلبوا . واما ان نرسل الى الملك فينجدنا او يمانع عنا فقد أشرفنا على

الهلاك ، فلما سمع ذلك منهم نبسم ضاحكا وقال : يا ويلكم أطمعتم العرب فيكم وحق رأس الملك ما أرى القوم أهلا للقتال ولا هم خاطرون لي على بال فلو فتح لهم الباب ما جسروا ان يدخلوا • فقالوا أيها السيد ان أكبرهم وأصغرهم يقاتل العسرة والمائة وصاحبهم داهية لا تطاق • فان كان ولا بد فاخرج بنا لقتالهم • فقال لهم توما انكم أكثر منهم ومدينتنا حصينة ولكم مثل هذا العدد والسلاح ، وأما القوم فهم حفاة عراة ، فقالوا له أيها السيد ان معهم من عددنا واسلحتنا كثيرا مما أخذوه من واقعة فلسطين ومما أخذوه من بصرى ومن يوم لقائهم بكلوس وعزازير ومما أخذوه من أجنادين ، وأيضا ان نبيهم قال لهم ان من قتل منا صار الى الجنة فلاجل ذلك يبقون عراة الاجساد ليصلوا الى ما قال لهم نبيهم • قال فضحك من قولهم ، وقال لهم لاجل ذلك أطمعتم العرب فينا ولو صدقتم في الحرب والصدام لقتلتموهم لانكم اضعافهم مرارا •

ففالوا ايها السيد اكفنا مؤونتهم كيف شئت ، واعلم انك ان لم تمنعهم عنا فتحنا لهم الابواب وصالحناهم • فلما سمع توما كلامهم فكر طويلا وخشي أن تفعل القوم ذلك • فقال انا أصرف عنكم هؤلاء العرب واقتل اميرهم وأريد منكم ان تقاتلوا معي • قالوا نحن معك وبين يديك نقاتل حتى نهلك عن أخرنا • فقال لهم باكروا القوم بالقتال فانصرفوا عنه وهم له شاكرون ولامره منتظرون ، وباتوا بقية ليلتهم على الحصن وأصحاب رسول الله (ص) في مواضعهم ولهم ضجة بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير ، وخالد بن الوليد عند الدير ومعه النساء والعيال والاموال والغنائم التي غنموها من أعدائهم ، ورافع بن عميرة على الباب الشرقي في عسكر الزحف وغيرهم ولم يزل الناس في الحرس الى ان برق الصباح وصلى كل امير بمن معه من قومه وصلى أبو عبيدة بمن معه • ثم أمر اصحابه بالزحف ، وقال لهم : لا تخلوا عن القتال واركبوا الخيل •

(حدثني) رفاعة بن قيس ، قال سألت والدي قيسا ، وكان ممن حضر فتوح دمشق الشام فقلت له أكنتم تقاتلون في دمشق خيالة او رجالة يوم حصار المسلمين ، فقال ما كان أحد منا فارسا الا زهاء الفي فارس مع ضرار بن الازور ، وهو يطوف بهم حول العسكر وحول المدينة وكلما أتى بابا من الابواب وقف عنده وحرض أهله على القتال ، وهو يقول صبرا صبرا لاعداء الله • قال وأقبل توما صهر الملك هرقل من بابه الذي يدعى باسمه ، وكان عندهم عابدا راهبا ولم يكن في بلاد الشرك أعبد منه ولا أزهد في دينهم ،

وكان معظما عند الروم فخرج ذلك اليوم من قصره والصليب الاعظم على رأسه وعلا به فوق البرج وأوقف البطارقة حوله والانجيل تحمله ذوو المعرفة قال ونصبوه بالقرب من الصليب ورفع القوم أصواتهم ، وتقدم توما ووضع يده على أسطر من الانجيل • وقال اللهم ان كنا على الحق فانصرنا ولا تسلمنا لاعدائنا واخذل الظالم منا فانك به عليم اللهم اننا نتقرب اليك بالصليب ومن صلب على دينه ، وأظهر الايات الربانية والافعال اللاهوتية انصرنا على هؤلاء الظالمين • قال وأمن الناس على دعائه • قال رفاعة بن قيس : هكذا حدثني شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) والذي فسر لنا هذا الكلام روماس صاحب بصرى ، وكان في جيش شرحبيل بن حسنة يقاتل على باب توما ، وكلما قال الروم شيئا بلغتهم فسره لنا • قال ونهض شرحبيل وقصد الباب بحملته ، وقد عظم عليه قول توما اللعين ، وقال له يا لعين لقد كذبت ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب احياه متى شاء ورفعه متى شاء • ثم ان روماس ناوشه بالقتال ، فقاتل توما قتالا شديدا وهشم الناس بالحجارة ورمى النشاب رميا متداركا فجرح رجالا ، وكان ممن جرح أبان بن سعيد بن العاص أصابته نشابة ، وكانت مسمومة فأحس بلهيب السم في بدنه فتأخر وحمله اخوانه الى ان اتوا به الى العسكر فأرادوا حل العمامة • فقال لا تحلوها فان حللتم جرحي تبعتها روحي أما والله لقد رزقني الله ما كنت أتمناه • قال فلم يسمعوا قوله وحلوا عمامته • فلما حلوها شخص الى السماء وصار يشير باصبعيه أشهد أن لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، فما استتمها حتى توفي الى رحمة الله تعالى •

بطولة المرأة

وكانت زوجته بنت عمه ، وكان قد تزوجها باجنادين ، وكانت قريبة العهد من العرس ولم يكن الخضاب ذهب من يدها ، ولا العطر من رأسها ، وكانت من المترجلات البازلات من اهل بيت الشجاعة والبراعة ، فلما سمعت بموت بعلها أتته تتعثر في أذيالها الى ان وقعت عليه ، فلما نظرته صبرت واحتسبت ، ولم يسمع منها غير قولها هنئت بما أعطيت ومضيت الى جوار ربك الذي جمع بيننا ثم فرق ، ولاجهدن حتى الحق بك فاني لمتشوقة اليك ، حرام علي أن يمسني بعدك أحد واني قد حبست نفسي فى سبيل الله عسى ان الحق بك وأرجو أن يكون ذلك عاجلا ، ثم حفر له ودفن مكانه فقبره معروف ، وصلى عليه خالد بن الوليد ، فلما غيب في التراب لم تقف على قبره دون أن أتت الى سلاحه ولحقت الجيش من غير أن تعلم خالدا بذلك ،

وقالت على أي باب قتل بعلي ؟ فقيل لها على باب توما والذي قتله هو صهر الملك . قال فسارت الى أصحاب شرحبيل بن حسنة فاختلطت بهم ، وقاتلت مع الناس قتالا لم ير مثله ، وكانت أرمى الناس بالنبل ، وكان قد جعل لها قوس وكنانة . قال شرحبيل بن حسنة رأيت يوم حصار دمشق رجلا على باب توما يحمل الصليب وهو امام توما ، وهو يشير اليه اللهم انصر هذا الصليب ومن لاذ به ، اللهم اظهر له نصرته وأعل درجته . قال شرحبيل بن حسنة وانا دائما أنظر اليه اذ زمته زوجة ابان بنبلة فلم تخطىء رميتها ، واذا بالصليب قد سقط من يده وهوى الينا وكأني أنظر لمعان الجوهر من جوانبه فما فينا الا من بادر اليه ليأخذه وقد استتر بالدرق وتزاحم بعضنا على بعض كل منا يسبق اليه ليأخذه ونظر عدو الله توما الى ذلك من تنكس الصليب الاعظم واهوائه الى المسلمين ، فعند ذلك كفر وعظم عليه الامر ، وقال يبلغ الملك ان الصليب الاعظم أخذ مني وملكته العرب ، لا كان ذلك أبدا ثم انه حزم وسطه وأخذ سيفه ، وقال : من شاء منكم فليتبعني ومن شاء فليقعد فلا بد لي من القوم عسى ان أشفي صدري ، ثم انحدر مسرعا وأمر بفتح الباب ، وكان هو أول مبادر . فلما نظرت الروم الى ذلك لم يكن فيهم الا من انحدر في أثره لما يعلمون من شجاعته وخرجوا كالجراد المنتشر . هذا والمسلمون محيطون بالصليب ، فلما خرج الروم ووقع صياحهم حذر الناس بعضهم بعضا ، فلما نظر المسلمون الى الروم سلموا الصليب الى شرحبيل بن حسنة وانفردا لاعدائهم وحملوا في أعراضهم وأخذهم النشاب والحجارة ومن كل مكان من أعلى الباب ، فصاح شرحبيل بن حسنة : معاشر المسلمين تقهقروا الى ورائكم لتأمنوا النشاب من أعداء الله العالين على الباب ، قال فتقهقر الناس الى ورائهم الى أن أمنوا من ضرب النشاب فاتبعهم عدو الله توما ، وهو يضرب يمينا وشمالا وحوله أبطال المشركين من قومه ، وهو يهدر كالجمل . فلما نظر شرحبيل بن حسنة ذلك صرخ بقومه ،وقال معاشر الناس كونوا آيسين من آجالكم طالبين جنة ربكم وأرضوا خالقكم بفعلكم . فانه لا يرضى منكم بالفرار ولا أن تولوا الادبار فاحملوا عليهم واقربوا اليهم بارك الله فيكم ، قال فحمل الناس حملة منكرة واختلط الناس بعضهم ببعض وعملت بينهم السيوف وتراموا بالنبل ، وتسامع أهل دمشق ان توما خرج الى العرب من بابه وان صليبه الاعظم سقط اليهم من كف حامله فجعلوا يهرعون الى أن تزايد أمرهم وجعل عدو الله ينظر يمينا وشمالا وينظر الصليب فحانت منه التفاتة فنظر فرآه مع شرحبيل بن حسنة ، فلما نظر اليه لم يكن له صبر دون أن حمل وصاح

هات الصليب لا أم لك ، فقد لحقتك بواثقه ٠

قال ونظر شرحبيل بن حسنة الى عدو الله ، وهو مقبل فرمى الصليب من يده وصادمه ٠ فلما رأى عدو الله الصليب مرميا على الارض صرخ بأصحابه صرخة هائلة ونظرت زوجة أبان ابن سعيد الى حملة عدو الله على شرحبيل ٠ فقالت من هذا ؟ قيل هو صهر الملك ، وهو قاتل بعلك أبان بن سعيد ، فلما سمعت ذلك منهم حملت حملة منكرة الى أن فاربته ورمته بنبلة ، وكان الروم أرهبوها فلم تلتفت اليهم دون أن حققت نبلتها على صاحبها ، وقالت بسم الله وبركة رسول الله (ص) ثم أطلقتها ، وكان عدو الله واصلا الى شرحبيل اذ جاءته النبلة فأصابت عينه اليمنى فسكنت النبلة فيها فتقهقر الى ورائه صارخا وهمت بأن ترميه بأخرى فتبادرت اليها الرجال واستتروا بالطوارق وتبادر اليها قوم من المسلمين يحامون عنها ، فلما أمنت من شر الاعداء اخذت ترمي بالنبل٠ ثم انها رمت علجا من الروم فأصابت صدره فسقط هاويا الى الارض ، وكان عدو الله أول من تقهقر ذلك اليوم هاربا من شدة حرارة النبلة وصرخ صرخة عظيمة الى ان دخل الباب ونظر شرحبيل الى ذلك فصرخ بأصحابه يا ويلكم دونكم وكلب الروم احملوا على الكلاب عسى أن تدركوا عدو الله ٠ قال فحمل الناس على الروم الى أن أوصلوهم الى الباب فحماهم قومهم من أعلى الباب بالحجارة والنشاب ٠ قال فتراجع الناس الى مواضعهم ، وقد قتلوا من الروم مقتلة عظيمة وأخذوا أسلابهم وأموالهم وصليبهم ، ودخل عدو الله توما الى المدينة وأغلقوا الابواب وجاء الحكماء يعالجون في قلع النبلة من عينه فلم تطلع فجذبوها فلم تنجذب ، وهو يضج بالصراخ فلما طال على القوم ذلك ولم يجدوا حيلة في اخراجها نشروها وبقي النصل في عينه ولم تزل في مكانها وسألوه المسير الى منزله فأبى وجلس داخل الباب الى ان سكن ما به وخف عنه الالم ، فقالوا له عد الى منزلك بقية ليلتك ، فقد نكبنا في يومنا هذا نكبتين نكبة الصليب ونكبة عينك كل هذا مما وصل الينا من النبال ، وقد علمنا ان القوم لا يصطلي لهم بنار ، وقد سألناك أن نصالح القوم على ما طلبوه منا ، قال فغضب توما من قولهم ، وقال : يا ويلكم يؤخذ الصليب الاعظم وأصاب بعيني وأغفل عن هذا ويبلغ الملك عني ذلك فينسبني للوهن والعجز ولا بد من طلبهم على كل حال وآخذ صليبي وآخذ في عيني الف عين منهم وسأوقع حيلة أصل بها الى كبيرهم وآخذ جميع ما غنموه وبعد ذلك اسير الى صاحبهم الذي هو في الحجاز وأقطع آثاره وأخرب دياره وأهدم مساكنه ، وأجعل بلده مسكنا للوحوش ٠ ثم ان الملعون سار الى أعلى السور ، وهو معصوب العين وصار

يحرض الناس لكي يزيل عن قلوبهم الرعب وأقبل يقول لهم : لا تفزعوا ولا تجزعوا مما ظهر لكم من العرب ولا بد للصليب أن يرميهم وأنا الضامن لكم • قال فثبت القوم من قومه وحاربوا حربا شديدا وبعث شرحبيل بن حسنة الى خالد بن الوليد يخبره بما صنع مع القوم • فقال الرسول : ان عدو الله توما قد ظهر لنا منه ما لم يكن في الحساب ونطلب منك رجالا لان الحرب عندنا اكثر من كل باب ، فلما سمع خالد ذلك الخبر حمد الله ، وقال كيف أخذتم الصليب من الروم ؟ فقال الرسول كان يحمل صليب الروم رجل وهو أمام توما صهر الملك فرمته زوجة أبان بنبلة فوقع الصليب الينا وخرج عدو الله فرمته زوجة أبان بنبلة فاشتبكت في عين توما اليمنى •

فقال خالد ان توما عند الملك معظم وهو الذي يمنعهم عن الصلح ونرجو من الله أن يكفينا شره • ثم قال للرسول : عد الى شرحبيل وقل له كن حافظا ما أمرتك به فكل فرقة مشغولة عنك ولم تؤت من قبلهم وأنا بالقرب منك ، وهذا ضرار بن الازور يطوف حول المدينة وكل وقت عندك • قال فرجع الرسول فأخبره بذلك فصبر وقاتل بقية يومه ووصل الخبر الى أبي عبيدة بما نزل بشرحبيل بن حسنة من توما وبما غنم من صليبه فسر بذلك ، قال ولما أصبح الصباح بعث توما الى أكابر دمشق وأبطالهم • فلما حضروا بين يديه قال لهم يا أهل دين النصرانية انه قد طاف عليكم قوم لا أمان لهم ولا عهد لهم وقد أتوا يسكنون بلادكم فكيف صبركم على ذلك وعلى هتك الحريم وسبي الاولاد وتكون نساؤكم جواري لهم وأولادكم عبيدا لهم وما وقع الصليب الا غضبا عليكم مما اضمرتم لهذا الدين من مصالحة المسلمين واذلالكم للصليب وأنا قد خرجت ولولا أني أصبت بعيني لما عدت حتى أفرغ منهم ولا بد من أخذ ثاري وان اقلع الف عين من العرب ثم لابد أن أصل الى الصليب وأطالبهم به عن قريب • فلما سمعوا كلامه قالوا له : ها نحن بين يديك وقد رضينا بما رضيت لنفسك ، فان امرتنا بالخروج خرجنا معك وان أمرتنا بالقتال قاتلنا ، فقال توما : اعلموا أن من خاض الحروب لم يخف من شيء واني قد عزمت على أن أهجم هذه الليلة واكبسهم في أماكنهم فان الليل مهيب وانتم اخبر بالبلد من غيركم فلم يبق الليلة فيكم أحد حتى يتأهب للحرب ويخرج من الباب وأرجو أن لا أعود حتى تنقضي الاشغال فاذا فرغت من القوم أخذت أميرهم اسيرا وأحمله الى الملك يأمر فيه بأمره ، فقالوا حبا وكرامة فعند ذلك فرق القوم على الباب الشرقي فرقة وعلى باب الجابية فرقة وعلى كل باب جماعة ، وقال لهم : لا تجزعوا ، فان امير القوم متباعد عنكم وليس هناك الا الاراذل والموالي فاطحنوهم طحن الحصيد • قال

ودعا بفرقة أخرى الى باب الفراديس الى عمرو بن العاص وخرج توما من بابه واخذ معه أبطال القوم ولم يترك بطلا يعرف بالشجاعة الا أخذه معه ورتب على الباب ناقوسا ، وقال لهم اذا سمعتم الناقوس فهي العلامة التي بيننا فافتحوا الابواب واخرجوا مسرعين الى اعدائكم ولا تجدوا رجالا نياما الا وتضعون السيف فيهم • فان فعلتم ذلك فرقتم جمعهم في هذه الليلة وانكسروا كسرة لا يجبرون بعدها أبدا ، قال ففرح القوم بذلك وخرجوا الى حيث امرهم وقعدت كل فرقة على بابها وأقاموا ينتظرون صوت الناقوس ليبادروا الى المسلمين ، قال ودعا توما برجل من الروم ، وقال له خذ ناقوسا واجعل به على الباب فاذا رأيتنا قد فتحنا الباب فاضرب الناقوس ضربة خفيفة يسمعها قومنا ، وقد سار توما بقطعة من جيشه عليهم الدروع وبأيديهم السيوف وتوما فيأوائلهم وبيده صفيحة هندية والقى على رأسه بيضة كسروية كان هرقل قد أهداها له ، وكانت لا تعمل فيها السيوف القواطع حتى وصل الى الباب ، ثم وقف حتى تكامل القوم ، فلما نظر اليهم قال يا قوم فتحنا لكم الباب فأسرعوا الى عدوكم وجدوا في سعيكم الى أن تصلوا الى القوم ، فاذا وصلتم اليهم فاحملوا ومكنوا السيوف فيهم ومن صاح منهم بالامان فلا تبقوا عليه الا أن يكون أمير القوم ومن أبصر منكم الصليب فليأخذه فقالوا حبا وكرامة •

القتال من فوق الاسوار

ثم أمر رجلا من أصحابه أن يسير الى الذي بيده الناقوس ويأمره أن يضربه ضربة خفيفة ثم فتح الباب وتبادر الرجال الى أصحاب رسول الله (ص) وهم في غفلة مما دبر القوم لهم الا أنهم في يقظة ، فلما سمعوا الصوت أيقظ بعضهم بعضا وتواثبت الرجال من أماكنهم كالاسود الضارية فلم يصل اليهم العدو الا وهم على حذر وحملوا عليهم وهم في غير ترتيب فتقاتل القوم فيجنح الظلام وعمل السيف وسمع خالد بن الوليد فقام ذاهل العقل مما سمع من الزعقات فصاح واغوثاه واسلاماه كيد قومي ورب الكعبة اللهم انظر لهم بعينك التي لا تنام وانصرهم يا أرحم الراحمين • وسار خالد ومن معه وهم أربعمائة فارس من أصحابه ، وهو بغير درع قد لبس ثوب كتان من عمل الشام مكشوف الرأس • ثم جد في السير والاربعمائة فارس معه كأنهم الليوث العوابس الى ان وصلوا الى الباب الشرقي واذا بالفرقة التي هناك قد هاجمت أصحاب رافع بن عميرة الطائي • قال : وأصوات المسلمين عالية بالتهليل والتكبير ، والقوم من أعلى الاسوار قد أشرفوا وتصايحوا عندما استيقظ لهم المسلمون فحمل خالد بن الوليد على الروم ونادى برفع صوته أبشروا يا معشر المسلمين أتاكم

الغوث من رب العالمين ، أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد وحمل في أوساط الناس بمن معه فجندل أبطالا وقتل رجالا ، وهو مع ذلـــك منشغل القلب على أبي عبيدة والمسلمين الذين على الابواب وهو يسمـــع اصواتهـــم وزعقانهم ، قال وتصايح الروم والنصارى واليهود ٠

(قال سنان بن عوف) قلت لابن عمي قيس هل كانت اليهود تقاتلكم ؟ قال نعم يقاتلوننا من أعلى الاسوار ويرمون بالسهام وخشي خالد على شرحبيل ابن حسنة مما وصل اليه من عدو الله توما لانه ملازما الباب ٠ وقـــال لقي شرحبيل بن حسنة من عدو الله توما أمرا عظيما لم يلق احد منله وذلك أنـــه هجم عليه توما في تلك الليلة ، وكان أول من وصل الى المسلمين عـدو الله توما قال فصبروا له صبر الكرام وقاتل عدو الله قتالا شديدا وهو ينادي أين أميركم الذميم الذي أصابني انا ركن الملك الرحيم ، أنا ناصر الصليب ٠ قال فلما سمع شرحبيل صوته قصد جهته ، وقد جرح رجالا من المسلمين ، وقال ها أنا صاحبك وغريمك ، أنا مبيد جمعكم وآخـــذ صليبكم ، انا كاتب وحي رسول الله (ص) فعطف عليه توما عطفة الاسد ورأى مـــن شرحبيل بن حسنة أمرا هائلا ولم يزالوا كذلك الى أن زال من الليل شطره وكل قرن مع قرنـــه وكانت زوجة ابان مع شرحبيل وكانت في تلك الليـــلة احسن الناس صبرا ورمت بنبالها ، وكانت لا تقع نبلة من نبالها الا في رجل من المشركين الى أن قتلت من الروم مقتلة عظيمة بالنبال والروم يتحايدون عنها الى ان لاح رجل من الروم فرمته بنبلة فبقيت معلقة فى نحره ٠ قـــال فصرخ بالروم فهاجموها وأخذوها أسيرة ومات عدو الله الذي رمته ٠ قال ولقي شرحبيل من الروم ما لا يلقاه احد وانه ضرب توما ضربة هائلة فتلقاها الملعون بدرقته فانكسر سيف شرحبيل فطمع عدو الله فيه وحمل عليه وظن انه يأخذه اسيرا واذا بفارسين قد أشرفا من ورائهما مع كبكبة من الفرسان فهجموا على الروم ونظروا واذا بزوجة ابان قد خلصت وهجمت على الروم وهتفت فلحقها فارسان فبرز لهما عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) ، وأبان بن عثمان بن عفـــان (رض) فقتلا الرجلين ورجع عدو الله توما هاربا الى المدينة ٠

(قال حدثني) تميم بن عدي ، وكان ممن شهد الفتوحات ٠ قـــال كنت في خيمة ابي عبيدة وذلك أن أبا عبيدة كان يصلي فيهـــا اذ سمع الصياح ٠ فقال لا حول ولا قوة الابالله العلي العظيم ثم لبس سلاحه ورتب قومه ودنا من القوم فنظر اليهم وهم في المعمعة والحرب وعدل عنهم ميسرة وميمنـــة الى أن جاوزهم وعطف نحو الباب وكبر وكبر المسلمون ، فلما سمع المشركون تكبيرهم

ظنوا أن المسلمين قد دهموهم من ورائهم في جمع كثير فولوا راجعين فتلقاهم ابو عبيدة وقومه واخذوا عليهم المجاز وبذل أبو عبيدة السيف فيهم ٠

(قال الواقدي) ولقد بلغني أنه ما سلم من الروم تلك الليلة احد من الذين هم غرماء ابي عبيدة ولقد قتلوا عن آخرهم فبينما هم في القتال إذ أشرف عليهم ضرار بن الازور ، وهو ملطخ بالدماء ٠ فقال له خالد ما وراءك يا ضرار ؟ فقال أبشر أيها الامير ما جئتك حتى قتلت في ليلتي هذه مائة وخمسين رجلا وقتل قومي ما لا يعد ولا يحصى ، وقد كفيتكم مؤنة من خرج من الباب الصغير الى يزيد بن أبي سفيان ، ثم عطفت الى سائر الابواب فقتلت خلقا كثيرا قال فسر بذلك خالد بن الوليد ، ثم ساروا جميعا حتى أتوا شرحبيل بن حسنة وشكروا فعله وكانت ليلة مقمرة ولم يلق مثلها الناس فقتلوا في تلك الليلة ألوفا من الروم قال فاجتمع كبار أهل دمشق الى توما وقالوا له أيها السيد انا قد نصحناك فلم تسمع لقولنا وقد قتل منا أكثر الناس وهذا أمير لا يطاق ، يعني خالد بن الوليد فصالح فهو أصلح لك ولنا وان لم تصالح صالحنا وأنت وشأنك ٠ فقال يا قوم أمهلوني حتى أكتب الى الملك واعلمه بما نزل بنا ، فكتب من وقته وساعته كتابا يقول فيه : الى الملك الرحيم من صهرك توما ، أما بعد فان العرب محدقون بنا كاحداق البياض بسواد العين ، وقد قتلوا أهل اجنادين ورجعوا الينا وقد قتلوا منا مقتلة عظيمة ، وقد خرجت اليهم وأصيبت عيني ، وقد عزمت على الصلح ودفع الجزية للعرب فاما أن تسير بنفسك ، واما ان ترسل لنا عسكرا تنجدنا بهم ، واما أن تأمرنا بالصلح مع القوم ، فقد تزايد الامر علينا ثم طوى الكتاب وختمه وبعث به قبل الصباح ٠٠٠

فلما أصبح الصباح باكرهم المسلمون بالقتال ٠٠ وبعث خالد لكل أمير أن يزحف من مكانه فركب ابو عبيدة ووقع القتال واشتد الامر على أهل دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى الا القتال ولم يزل كذلك الى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع اهل البلد وقالوا لبعضهم ما لنا صبر على ما نحن فيه من الامر وان هؤلاء ان قاتلناهم نصروا علينا وان تركناهم أضر بنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحا على ما طلبوه منكم ، فقال لهم شيخ كبير من الروم وقد قرأ الكتب السالفة : يا قوم والله اني أعلم أنه لو اتى الملك في جيشه جميعا لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب ان صاحبهم محمدا خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ما طلبوا منكم فهو وأفق لكم ، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا اليه لما يعلمون من علمه

ومعرفته بالاخبار والملاحم • فقالوا كيف الرأي عندك ؟ فنحن نعلم ان هـــذا الامير الذي على باب شرقي رجل سفاك للدماء • فقال لهم : ان أردتم تقــارب الامر فامضوا الى الذي على باب الجابية ، وليتكلم رجل يعرف بالعربيـــة ، ويقول بصوت رفيع ، يا معاشر العرب الامان حتى ننزل اليكم ونتكلم مـــع صاحبكم • قال أبو هريرة (رض) : وكان أبو عبيدة قد انفذ رجالا من المسلمين مكبرا بالقرب من الباب مخافة الكبسة مثل الليلة التي خلت ، وكانت النوبة تلك الليلة لبني دوس والامير عليها عامر بن الطفيل الدوسي • قال فبينما نحن جلوس في مواضعنا من الباب اذ سمعنا اصوات القوم وهم ينادون قــال أبو هريرة ، فلما سمعت بادرت الى ابي عبيدة قال وبشرته بذلـــك فاستبشر وقال أمض وكلم القوم وقل لهم لكم الامان قال فأتيت القوم وبشرتهم بالامان فقالوا من أنت ؟

فقلت أنا أبو هريرة صاحب رسول الله (ص) ولو أن عبيدا أعطـــوكم الامان والذمام ونحن في الجاهلية لما غدرنا فكيف وقـــد هدانا الله الى دين الاسلام• قال فنزل القوم وفتحوا الباب واذ هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر اليهم وأزلوا عنهم الصلبان الى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال ان نبينا محمدا (ص) قــال « اذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه »وتكلموا في أمر الصلح وقالوا انا نريد منـكم ان تتركوا كنائسنا ولا تنقضوا علينا منها كنيسة وهي الجـامع الآن بدمشق ، فقال لهم أبو عبيدة جميع الكنائس.لا يؤمر بهدمها قال وكان في دمشق كنائس واحدة تسمى كنيسة مريم وكنيسة حنا وكنيسة سوق الليل وكنيسة انذار ، وهي عند دار عبد الرحمن ذرة فكتب لهم أبو عبيدة كتاب الصلح والامان ولم يسم فيه اسمه ولا اثبت شهودا وذلك ، لانه لم يكن أمير المؤمنين ، فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له قم معنا الى البلد • قال فقام أبو عبيدة وركب معه ابو هريرة ومعاذ بن جبل ونعيم بن عمرو وعبد الله بن عمرو الدوسي وذو الكلاع الحميري وحسان بن النعمان وجرير بن نوفـــل الحميري وسيف بن سلمة ومعمر بن خليفة وربيعة بن مالك والمغيرة بن شعبة وأبو لبابة بن المنذر وعوف بن ساعدة ، وعامر بن قيس ، وعبادة بن عتيبة ، وبشر بن عـــامر ، وعبد الله بن قرط الاسدي وجملتهم خمسة وثلاثون صحابيا مـــن اعيـــان الصحابة (رض) ، وخمسة وستون من اخلاط الناس فلما ركبوا وتقدموا نحو الباب • قال ابو عبيدة أريد منكم رهائن حتى ندخل معكم فأتوه برهائن ، وقيل ان ابا عبيدة رأىفي منامه أن رسول الله (ص) يقول له : نفتح المدينة ان شاء

الله تعالى في هذه الليلة ، فقلت يا رسول الله أراك على عجل قـــال لاحضر جنازة أبي بكر الصديق • قال فاستيقظت من المنام •

(قال الواقدي) وقد بلغني ان أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الانجيل والمباخـــر بالند والعود ، ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد لانه شد عليهم بالقتال • قال وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها : ان الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة ويعلو دينهم على كل دين ، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس مـــن داره وحفر موضعا وخرج على حين غفلة من أهله واولاده وقصد خالدا وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعا والآن أريد أمانا لي ولاهلي ولاولادي قال فأخذ خالد عهده على ذلك وانفذ معه مائة رجل من المسلمين اكثرهم مـــن حمير ، وقال لهم اذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الاقفال وأزيلوا السلاسل حتى تدخلوا ان شاء الله تعالى • قال ففعل القوم ما أمرهم به خالد (رض) وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج • فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجـوا وقصدوا الباب واعلنوا بالتكبير • قال فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا ان أصحاب رسول الله (ص) حطوا معهم في المدينـــــة ، وأن أصحاب رسول الله (ص) قصدوا الباب وكسروا الاقفال وقطعوا السلاسل ، ودخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعـوا السيف في الروم وهم مختلفون بين يديه الى ان وصل الى كنيسة مريم وخالد بن الوليد يأسر ويقتل •

(قال الواقدي) والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين ايديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفه ، فلما نظر خالد اليهم ورأى ان لا أحد منهم جرد سيفه بهت وجعل ينظر اليهم متعجبا • قال فنظر اليه أبو عبيدة وعرف فى وجهـه الانكار • فقال أبا سليمان قد فتح الله عـــلى يدي المدينة صلحا وكفى الله المؤمنين القتال •

(قال الواقدي) ما خاطب ابو عبيدة خالدا يـــوم الفتح بدمشق الا بالامارة : فقال ايها الامير قد تم الصلح • فقال خالد ومـا الصلح ؟ لا أصلح الله بالهم وأنى لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف ، وقد خضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الاولاد عبيدا وقد نهبت الاموال • فقال ابو عبيدة أيهـــا

الامير : اعلم اني ما دخلتها الا بالصلح • فقال له خالد بن الوليد انك لم تزل مغفلا وأنا ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لهم حمايـة فكيف صالحتهم • قال أبو عبيدة : اتق الله أيها الامير ، والله لقد صالحت القوم ونفذ السهم بما هو فيه وكتب لهم الكتاب وهو مع القوم • فقال خالد وكيف صالحتهم من غير أمري وأنا صاحب رايتك والامير عليك ولا أرفع السيف عنهم حتى افنيهم عن آخرهم • فقال أبو عبيدة والله ما ظننت أن تخالفني اذا عقدت عقـدا ورأيت رأيا فالله الله في أمري ، فوالله لقد حقنت دماء القوم عـن آخرهم واعطيتهم الامان من الله جل جلاله وامان رسول الله (ص) وقـد رضي من معي مـن المسلمين ، والغدر ليس من شيمنا • قال وارتفع الصياح بينهما وقد شخص الناس اليهما وخالد مع ذلك لا يرجع عن مراده ، ونظـر أبو عبيدة الى ذلك فرأى أصحاب رسول الله (ص) مع خالد وهم جيش البوادي مـن العـرب مشتبكون على قتال الروم ونهب اموالهم • قال فنادى أبو عبيدة واثكلاه خفرت الله ونقض عهدي وجعل يحرك جواده ويشير الى العرب مرة يمينا ومرة شمالا • وينادي معاشر المسلمين اقسمت عليكم برسول الله (ص) أن لا تمدوا ايديكم نحو الطريق الذي جئت منه حتى نرى ما نتفق أنا وخالد عليه ، فلما دعـاهم بذلك سكتوا عن القتل والنهب واجتمع اليهما فرسان المسلمين والامـراء واصحاب الرايات مثل معاذ بن جبل (رض) ويزيد بن ابي سفيان (رض) وعمرو ابن العاص (رض) وشرحبيل بن حسنة (رض) وربيعة بن عامر (رض) وعبدالله بن عمر بن الخطاب (رض) أجمعين ونظرائهم ، والتقوا عند الكنائس واجتمع هناك فرسان للمشورة والمناظرة • فقالت طائفة من المسلمين منهم معـاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان الرأي أن تمضي الى ما أمضاه أبو عبيدة بن الجراح وتكفوا عن القتال للقوم • فان مدن الشام لم تفتح ابدا ، وهرقل في انطاكية كما تعلمون ، وان علم اهل المدن صالحتهم وغدرتم لم تفتح لكم مدينـة صلحا ولان تجعلوا هؤلاء الروم في صلحكم خير من قتلهم ، ثم قـالوا لخالد أمسك عليك ما فتحت بالسيف ويعينك أبو عبيدة بجانبه واكتبا الى الخليفـة وتحاكما اليه ، فكل ما أمر به فعلناه ، فقال لهم خالد بن الوليد قد أجبت الى ذلك وقبلت مشورتكم ، فاما أهل دمشق فقد امنتهم الا هذين اللعينين توما وهربيس وكان هربيس هو المؤمر على نصف البلدة ولاه توما حين رجع الامر اليه • فقال أبو عبيدة ان هذين أول من دخل في صلحي فلا تخفر ذمتي رحمك الله تعالى • فقال خالد ، والله لولا ذمامك لقتلتهما جميعا ، ولكن يخرجان من الامير ابا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يقول الا الصدق قال فانطلق توما

الى المدينة فلعنهما الله حيث سارا ٠

قال ابو عبيدة وعلى هذا صالحتهما ٠ قال ونظر توما وهربيس الى خالد وهو يتنازع مع أبي عبيدة فخافا الهلاك فأقبلا على أبي عبيدة ومعهما من يترجم عنهما وقالا له ما يقول هذا يعني خالدا ٠ قال الترجمان لابي عبيدة ما نقول انت وصاحبك فيه من المشاورة : ان صاحبك هـــذا يريد غدرنا فنحن واهل المدينة دخلنا في عهدكم ونقض العهد ما هـــو من شيمكم ، واني أسألكم ان تدعوني أن أخرج أنا وأصحابي واسلك اي طريق أردت ٠ فقال أنت في ذمتنا فاسلك اي طريق شئت ، فاذا صرت في أرض تملكونها فقد خرجت من ذمتنـــا أنت ومن معك ٠ فقال توما وهربيس نحن في ذمتكم وجواركم ثلاثة ايـــام أي طريق سلكنا ، فاذا كان بعد ثلاثة ايام فلا ذمة لنا عندكم ، فمن لقينا منـــكم بعد ثلاثة ايام وظفر بنا فنحن لهم عبيد ان شاء أسرنا وان شاء قتلنا ٠ فقال خالد قد اجبناك الى ذلك ، لكن لا تحملوا معكم من هذا البلد الا الزاد الـــذي تتقوتون به ٠ قال أبو عبيدة لخالد : هذا كلام داع لنقض العهد والصلح انما وقع بيننا انهم يخرجون برجالهم وأموالهم ٠ فقال خالد سمحت لهم بذلك الا الحلقة يعني السلاح فاني لا أطلق لهم شيئا من ذلك ٠ فقال توما لا بد لنا من السلاح نمنع به عن انفسنا في طريقنا ان طرقنا طارق حتى نصل الى بلدنا ، والا فنحن بين ايديكم فاحكموا فينا بما أردتم ٠ فقال ابو عبيدة اطلق لـــكل واحد قطعة من السلاح ان أخذ سيفا فلا يأخذ رمحا ، وان أخذ رمحا فلا يأخذ سيفا ، وان اخذ قوسا فلا يأخذ سكينا ٠ فقال توما لما سمع منهم ذلك الكلام قد رضينا بذلك وما يريد كل واحد منا الا قطعة من السلاح لا غير ، ثم قال توما لابي عبيدة اني خائف من هذا الرجل اعني خالد بن الوليد فليكتب لي بذلك قال ابو عبيدة ثكلتك امك انا معاشر العرب لا نغـــــدر ولا نكذب وان الامير ابا سليمان قوله قول وعهده عهد ولا يقول الا الصدق قال فانطلق توما وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج ٠ قال وكان الملك له خزانة ديباج
وهربيس يجمعان قومهما ويأمرانهم بالخروج ٠ قال وكان الملك له خزانـــة
ديباج في دمشق فيها زهاء من ثلاثمائة حمل دبباج وحلل مذهبة فعزم علـــى اخراجها وأمر توما فضربت له خيمة من القز ظاهر دمشق وأقبلت الروم تخرج الامتعة والاموال والاحمال حتى اخرجوا شيئا عظيما ، فنظر خالد بن الوليد الى كثرة احمالهم ٠ فقال ما اعظم رحالهم ، ثم قرأ قوله تعالى ـ ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ـ الاية ، ثم نظر خالد الى القوم كأنهم حمر مستنفرة ولم يلتفـــت احد الى اخيه من شدة عجلتهم ، فلما نظر خالد الى ذلك رفع يديه الى السماء٠

وقال: اللهم جعله لنا وملكنا اياه واجعل هذه الامتعة قوتا للمسلمين آمين انك سميع الدعاء ، ثم اقبل على اصحابه وقال لهم اني رأيت أنا رأيا فهل انتم تتبعوني عليه ؟ فقالوا نتبعك ولا نخالف لك امرا ، فقال خالد قوموا بخيولكم حق القيام واحسنوا اليها ما استطعتم وانجزوا سلاحكم فاني اسير بكم بعد ثلاثة ايام في طلب هؤلاء القوم وارجو من الله ان يغنمنا هذه الغنيمة والاموال التي رأيتموها ٠ وان نفسي تحدثني ان القوم ما تركوا في دمشق متاعا ولا ثوبا حسنا الا وقد اخذوه معهم ٠

فقالوا افعل ما تريد فما نخالف لك أمرا ، ثم اخذوا في اصلاح شأنهم ، وتوما وهربيس قد جمعوا مال الرساتيق وجميع المال ، فلما جمعوه جاءوا به الى ابي عبيدة ٠ فقال لهم وفيتم بما عليكم فسيروا حيث شئتم فلكم الامان منا ثلاثة ايام ٠ قال يزيد ابن ظريف فلما سلموا المال لابى عبيدة ارتحلوا سائرين كأنهم سواد مظلم ، وكان قد خرج مع القوم خلق كثير من اهل دمشق بأولادهم وكرهوا ان يكونوا في جوار المسلمين ٠ قال واشتغل خالد عن اتباعهم بخلاف ما وقع بينهم وبين أهل دمشق في حنطة وشعير وجدوا في المدينة منه شيئا كثيراً ٠ فقال ابو عبيدة هو للقوم دخل في صلحهم فكادت الفتنة ان تثور بين اصحاب خالد وبين اصحاب ابي عبيدة ، واتفق رأيهم أن ان يكتبوا كتابا الى ابي بكر الصديق (رض) في ذلك وليس عندهم خبر انه مات يوم دخولهم دمشق ٠

(قال عطية بن عامر) كنت واقفا على باب دمشق في اليوم الذي سارت فيه الروم مع توما وهربيس ومعهم ابنة الملك هرقل ٠ قال فنظرت الى ضرار بن الازور وهو ينظر الى القوم شزرا ويتحسر على ما فاته منهم ، فقلت له : يا ابن الازور مالي اراك كالمتحسر أما عند الله اكثر من ذلك فقال والله ما اعني مالا وانما أنا متأسف على بقائهم وانفلاتهم منا ، ولقد أساء ابو عبيدة فيما فعل بالمسلمين ٠ فقلت يا ابن الازور ما أراد أمين الامة الا خيرا للمسلمين ان يحقن دمائهم وازواجهم من تعب القتال فان حرمة رجل واحد خير مما طلعت عليه الشمس ، وان الله سبحانه وتعالى اسكن الرحمة في قلوب المؤمنين وان الرب يقول في بعض الكتب المنزلة ان الرب لا يرحم من لا يرحم ٠ وقال تعالى: والصلح خير ٠ فقال ضرار لعمري انك لصادق ، ولكن اشهدوا علي اني لا ارحم من يجعل له زوجة وولدا ٠

(قال حدثني) عمر بن عيسى عن عبد الواحد بن عبد الله البصري عن واثلة بن الاسقع ٠ قال كنت مع خالد بن الوليد في جيش دمشق ، وكان قد

جعلني مع ضرار بن الازور في الخيل التي تجوب من باب شرقي الى باب توما الى باب السلامة الى باب الجابية الى باب الصغير الى باب قيان اذ سمعنا صرير الباب وذلك قبل فتوح الشام واذا به قد خرج منه فارس فتركناه حتى قرب منا فأخذنا قبضا بالكف وقلنا ان تكلمت قتلناك فسكت واذا قد خرج فارس اخر قام على الباب وجعل ينادي بالذي قد اخذناه ، فقلنا له : كلمه حتى يأتي • قال نرطن له بالرومية ان الطير في الشبكة فعلم انه قد اسر فرجع وأغلق الباب • قال فاردنا قتله ، فقال بعضنا لا تقتلوه حتى نمضي به الى خالد الامير • قال فأتينا به خالدا ، فلما نظر اليه قال له من انت ؟ قال له أنا من الروم واني تزوجت بجارية من قومي قبل نزولكم عليهم وكنت أحبها ، فلما طال علينا حصاركم سألت أهلها ان يزفوها علي فأبوا ذلك ، وقالوا ان بنا شغلا عن زفافك وكنت احب انالفاها ولنا في المدينة ملاعب نلعب فيها فوعدتها ان نخرج الى الملاعب فخرجت وتحدثنا فسألتنى ان اخرج بها الى خارج المدينة ففتحنا الباب وخرجت انظر اخباركم فأخذني أصحابك فنادتني • فقلت انالطير وقع في الشبكة احذرها منكم مخافة عليها ولو كان غيرها لهان علي ذلك • فقال خالد ما تقول في الاسلام ؟ فقال أشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فكان يقاتل معنا قتالا شديدا ، فلما دخلنا المدينة صلحا أقبل يطلب زوجته • فقيل له انها لبست ثياب الرهبانية فأقبل اليها وهي لا تعرفه • فقال لها ما حملك على الرهبانية ؟ قالت حملني على ذلك اني غررت بزوجي حتى أخذته العرب وترهبنت حزنا عليه • قال أنا زوجك وقد دخلت في دين العرب • قال فلما سمعت ذلك قالت وما تريد ؟ قال ان تكوني في الذمة • فقالت وحق المسيح لا كان ذلك ابدا ومالي الى ذلك سبيل ، وخرجت مع البطريق توما ، فلما نظر الى امتناعها أقبل الى خالد بن الوليد فشكا له حاله •

فقال له خالد ان ابا عبيدة فتح المدينة صلحا ولا سبيل لك اليها ولما علم ان خالدا يسير وراء القوم • فقال أسير معه لعلي افع بها وأقام خالد بدمشق الى اليوم الرابع ، ثم اقبل اليه يونس الدمشقي زوج الجارية وقال ايها الامير قد عزمت على المسير في طلب هذين اللعينين توما وهربيس واخذ ما معهما قال بلى • فقال له وما الذي أقعدك عن ذلك • قال بعد القوم وبيننا وبينهم اربعة ايام بلياليها وهم يسيرون سير الخوف وما يمكن اللحاق بهم • فقال يونس ان كان تخلفك لبعد المسافة بيننا وبينهم فأنا اعرف الديار وأسلك طريقا فنلحقهم ان شاء الله تعالى ، ولكن البسوا زي لخم وجذام وهو العرب المتنصرة

وخذوا الزاد وسيروا . قال فسار خالد واخذ عساكر الزحف وهم اربعة آلاف فارس فامرهم ان يسيروا ويخففوا حمل الزاد ففعلوا ذلك ، وخالد ومن معه قد ساروا ويونس الدليل امامهم وهو يتبع اثار القوم وقد أوصى خالد أبا عبيدة على المدينة والمسلمين . قال زيد بن طريف وكان يونس دليلنا .قال فرأى اثار القوم وانهم اذا سقط منهم حمل جمل تركوه ، وسار خالد ومن معه كلما دخلوا بلدا من بلاد الروم يظنون انهم من العرب المتنصرة من لخم وجذام حتى أشرف بهم الدليل على ساحل البحر ونوى انيطلب الاثر واذا بالقوم قد عدوا انطاكية ولم يدخلوها خيفة الملك . قال فوقع للدليل عند ذلك حيرة في امره فعدل الى قرية هناك ، وسأل بعضا من الناس فاخبروه ان الخبر قد أتصل الى الملك بأن نوما وهربيس قد سلما دمشق للعرب فنقم عليهما ولم يدعهما يأتيان اليه ، وذلك انه جمع الجيوش وأرسلها الى اليرموك فخاف أن ينحدثوا بشجاعة العرب اصحاب رسول الله (ص) فنضعف قلوبهم فبعث الى نوما ومن معه ان يسيروا الى القسطنطينية ، فلما علم يونس ان القوم عدلوا واخذوا في طلب التحيز فكر في ذلك وغاب عن المسلمين فوقف خالد وصلى بالناس واذا بيونس قد اقبل وقال : ايها الامير اني والله قد غررت بكم وبلغت الغاية في الطلب . قال خالد وكيف الامر ؟ قال ايها الامير تبعتني في اثارهم في هذا المكان رجاء ان الحقهم ، وانالملك منعهم من الدخول الى انطاكية لئلا يرعبوا عسكره وامرهم أن يطلبوا القسطنطينية ، وقد قطع بينكم وبينهم هذا الجبل العظيم وانتم في جبل هرقل وهو يجمع عسكره ويسير الى حربكم واني خائف عليكم ان تركتم هذا الجبل خلف ظهوركم هلكتم وبعد هذا فالامر اليك وكل ما أمرتني به فعلت . قال ضرار بن الازور فرأيت خالدا وقد انتقع لونه كالخضاب ... وكانذلك منه جزعا وما عهدت به ذلك . فقلت يا أمير على ماذا عولت ؟ فقال يا ضرار والله ما فزعت من الموت ولا من القتل ، وانما خفت ان يؤتى المسلمون من قبلي واني رأيت قبل فتح دمشق مناما افزعني وأنا منتظر تأويله وارجو ان يجعل الله لنا خيرا وينصرنا على عدونا . فقال ضرار خيرا رأيت وخيرا يكون ان شاء الله تعالى فما الذي رأيت ؟ قال : رأيت المسلمين في برية قفرة ونحن سائرون فبينما نحن كذلك واذا بقطيع من حمر الوحش كثيرة عظيمة اجسامها مهزولة اخفافا وهي لا تكدم برماحنا ونحن نضربها بأسيافنا وهي لا تكترث فيما نزل بها من الاذى ولا تهلع مما ينزل فلم نزل مثلذلك حتىاجتهدنا واجتهدتخيولنا وأني اقبلت علىاصحابيوفرقتهم عليها من اربعة جوانب البرية وحملت عليهم فجفلت من أيدينا الى مضايق وتلال واودية خصبة فلم نأخذ منها الا اليسير فبينما نحن نطبخ ونشوي لحومها

واذا هي قد رجعت تطلب الحرب منا ، فلمـــا نظرت اليهـــا وقد طرحت المضايق والاجام صحت بالمسلمين اركبوا في طلبها بارك الله فيكم فاستوى المسلمون على خيولهم وركبت معهم وطلبناها حتى وقعت بها وتصيدت منها بعيرا عظيما فقتلته فجعل المسلمون يقتلون ويتصيدون فما بقي منها الا اليسير فبينما أنا فرح وأنا اريد الرجوع بالمسلمين الى وطنهم اذ عثرت فرسي فطارت عمامتي من على رأسي فهويت لاخذها فانتبهت من منامي وانا فزع مرعوب ، فهل فيكم احد يفسره ؟ فاني اقول الرؤيا ما نحن فيه · قال فصعب ذلك على القوم وجعل خالد يراود نفسه على الرجوع ·

فقال له عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) : اما تفسير الوحوش فهؤلاء الاعاجم الذين نحن في طلبهم ، وأما سقوطك عن فرسك فانه أمر تنحط عليه من رفعة الى خفضة ، واما سقوط العمامة عن رأسك فالعمائم تيجان العرب وهي معرة تلحقك · فقال خالد : اسأل الله العظيم ان كان ذلك تأويل ما رأيته أن يجعله من أمر الدنيا ولا يجعله من امر الاخرة وبالله استعين وعليه أتوكل في كل الامور · قال ثم سار خالد والدليل امامهم حتى قطعوا الجبل ، فلمـا كانت الليلة التي أردنا ان نصبح فيها القوم أتى مطر كافواه القرب وكان من توفيق الله عزوعلا ان حبس القوم عنالمسير · قال روح بن طريف(رض) ، ولقد رأيتنا ونحن نسير والمطر ينزل علينا كافواه القرب طول ليلتنا ، فلما اصبح الصباح وطلعت الشمس قال يونس : ايها الامير قف حتى أنظر القوم لانهـم لا شك بالقرب منا وقد سمعت صياحهم · فقال له خالد بن الوليد أحقا سمعت صياحهم يا يونس قال نعم أيها الامير واريد منك أن تأذن لي بالمسير اليهـــم وآتيك بخبرهم · قال فعند ذلك التفت خالد بن الوليد الى رجل اسمه المفرط بن جعدة · قال له : يا مفرط سر مع يونس وكن له مؤنسا واحذر ان يأخذ خبركما القوم فقال المفرط السمع والطاعة لله ولك ايها الامير ، ثم انطلقا الى أن صعدا على جبل يقال له الابرش والروم تسمه جبلباردة · قال المفـرط فلما علونا عليه وجدنا مرجا واسعا كثير الجنبات كثير النبات وفيه خضرة عظيمة ، وان القوم قد اصابهم المطر حتى بل رحالهم وقد حميت عليهم الشمس فخافوا اتلافها فاخرجوها واخرجوا الديباج ونشروها في طول المرج ، وقد نام اكثرهم من شدة السير والتعب والمطر الذي اصابهم · قال المفرط بن جعدة ، فلما رأيت ذلك فرحت فرحا شديدا ورجعت الى خالد بن الوليد وتركت صاحبي يونس ، فلما رآني خالد وحدي اسرع الي وظن ان صاحبي كيد · فقال مـــا وراءك يا ابن جعدة اخبرني وعجل بالخير ؟ فقلت الخير والغنيمة يا امير القوم خلف هذا الجبل وقد اصابهم المطر وقد وجدوا الراحة بطلوع لشمس وقـــد

نشروا امتعتهم • فقال بشرك الله بالخير ، ثم ظهر لي من وجهه الخير والفرح والسرور ، فبينما نحن كذلك واذا بيونس قد اقبل • فقال له خالد خيرا ، فقال له ابشر أيها الامير فان القوم امنوا على انفسهم ، ولكن اوصى اصحابك ان كل من وقع بزوجتي فليحفظها فما اريد من الغنيمة سواها • فقال له خالد هي لك ان شاء الله تعالى ، ثم ان خالدا قسم اصحابه اربع فرق فأمر ضرار بن الازور على الف فارس وعلى الالف الثاني رافع بن عميرة الطائي ، وعلى الالف الثالث عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق وبقي هو في الفرقة الرابعة • وقال سيروا على بركة الله تعالى واياكم ان تخرجوا اليهم دفعة واحدة : بل يخرج كل امير منكم بينه وبين صاحبه قدر ساعة ، ثم افترق القوم وحمل ضرار بن الازور والروم مطمئنون وحمل من بعده رافع بن عميرة الطائي ، ثم عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ، ثم خالد بن الوليد سار في اخر القوم حتى وصلوا المرج • قال عبيد ابن سعيد لقد كدنا ان نعتنه من حسن منظره فزعق فينا خالد بن الوليد وقال عليكم باعداء الله ولا تشتغلوا بالغنائم ولا بالنظر الى المرج فانها لكم ان شاء الله تعالى •

ثم عطف خالد بن الوليد (رض) على الروم وقد نظرت الروم الى الخيل وقد خرجت عليهم وخالد امامهم ، فعلموا انها خيول المسلمين فبادروا الى السلاح وركبوا الخيل وقال بعضهم لبعض انها خيل قليلة ساقها المسيح اليكم وجعلها غنيمة لكم فبادروا اليها • قال فنبادر الروم وهم يظنون ان ليس وراء خالد احد ، واذا بضرار بن الازور قد خرج عليهم في ألف فارس وطلع رافع بن عميرة الطائي بعده وطلع عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق بعدهم وطلبت كل كتيبة فرقة من الروم وتفرقوا من حولهم وطلبوا ما في ايديهم وقد رفعوا اصواتهم يقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله وانصبت خيل المسلمين على الروم كأنها السيل المنحدر ونادى هربيس برجاله قاتلوا عن نعمكم فما لهؤلاء القوم حيلة ولا يخلصون من هذا المكان ابدا ، فانقسمت الروم طائفة معه وطائفة مع توما فكان من طلب خالدا توما وقد احدق به خمسمائة فارس وقد رفع بين عينيه صليبا من الجوهر مقمعا بالذهب الاحمر فعدل خالد وحمل عليه وقال : يا عدو الله اظننتم انكم تفلتون منا والله تعالى يطوي لنا البلاد وكان توما أعور عورته امرأة ابان قال فحمل عليه وطعنه في عينه الاخرى ففقأها وارداه عن جواده وحمل اصحابه على رجال توما ولله در عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) ، فانه لما نظر الى توما وقد سقط عن جواده نزل وجلس على صدره واحتز رأسه ورفعها على السنان ونادى قد قتل والله توما اللعين فاطلبوا هربيس •

(قال الواقدي) ففرح العرب بذلك · قال رافع بن عميرة الطائي كنت في الميمنة مع خالد بن الوليد اذ نظر الى فارس زيه زي الروم ، وقد نزل عن جواده ، وهو يقاتل علجة مع نساء الروم وهي تظهر عليه مرة فدنوت انظرها · فاذا هو يونس الدليل وهو يقاتل زوجته ويصراعها صراع الاسد · قال رافع فدنوت ان انقدم اليهما فاعينه فقصد الي عشرةمن النساء يرمين قومي بالحجارة فخرج حجر كبير من امرأة حسناء عليها ثياب الديباج · قال فوقع الحجر في جبهة جوادي فانكب على رأسه ، وكان جوادا شهدت عليه اليمامة فسقط الجواد ميتا · قال فأسرعت في طلبها فهربت من بين يدي كأنها ظبية القناص وهربت النساء من وراءها فلحقتهن وقصدت قتلهن وزعقت عليهن وكنت اريد قتلهن ومالي قصد الا الجارية التي قتلت حصاني فدنوت منها وعلوت بالسيف على رأسها فجعلت تقول الغوث الغوث فرجعت عن قتلها وأقبلت اليها ، واذا عليها ثياب الديباج وعلى رأسها شبكة من اللؤلؤ فاخذنها أسيرة من النساء وأوثقتها كتافا ، ورجعت على اثري فركبت جوادا من خيل الروم · ثم قلت والله لامضين وانظر ما كان من امر يونس فوجدته ، وهو جالس وزوجته بجانبه وقد تلطخت بدمائها وهو يبكي عليها ، فلما رأيتها قلت لها اسلمي ، فقالت لا وحق المسيح لا اجتمعت انا وانتم ابدا · ثم اخرجت سكينا كانت معها فقتلت بها نفسها · فقلت ان الله عز وجل ابدلك ما هي اعظم منها وعليها ثياب الديباج وشبكة من اللؤلؤ وهى كأنها القمر فخذها لك بدلا عن زوجتك ، فقال اين هي ؟ فقلت ها هي معي ·

قال فلما نظر اليها والى ما عليها من الحلى والزينة وتبين حسنها وجمالها راطنها بالرومية وسألها عن امرها فرطنت عليه ، وهي تبكي فالتفت الي ، وقال لى أتدري من هذه ؟ قلت لا فقال هذه ابنة الملك هرقل زوجة توما وما مثلي يصلح لها ولا بد لهرقل من طلبها ويفديها بماله · قال وافتقد المسلمون خالدا فلم يجدوا له اثرا فقلقوا عليه قلقا عظيما وخالد (رض) غائص في المعركة وقصد اللعين هربيس بعد قتل توما ، فبينما هو يحمل يمينا وشمالا اذ نظر علجا من علوج الرومان عظيم الخلقة احمر اللون فظن خالد انه اللعين فأطلق جواده نحوه وطلبه طلبا شديدا ليقتله ، فلما نظر اليه العلج والى حملته فر هاربا من بينيديه فوكزه خالد بالرمح ، واذا هو واقع على الارض على أم رأسه فانقض عليه خالد كالاسد ، وهو يقول ويلك يا هربيس أظننت انك تفوتني وذلك العلج يعرف العربية · فقال يا عربي ما انا هربيس أظننت انك قابق علي ولاتقتلني · فقال خالد مالك من يدي خلاص الا اذا كنت تدلني على

هربيس ٠ فاذا دللتني عليه اطلقتك ٠ فقال له العلج انذا دللتك عليه تطلقني،
فقال خالد نعم لك ذلك ٠ فقال العلج يا أخا العرب قم من على صدري حتى
ادلك عليه فقام خالد من على صدره فوثب العلج ونظر يمينا وشمالا ٠ قال
ثم قال لخالد أترى هذا الجبل وهذه الخيل الصاعدة اقصدها فان هربيس فيها٠
قال فوكل خالد بالعلج واحدا ، وهو ابن جابر ثم اطلق خالد عنان جواده
حتى لحق بهم وصرخ عليهم ، وقال : يا ويلكم اني لكم مني خلاص ؟ فلما سمع
هربيس ذلك ظنه من بعض العرب فزعق فيه ورجع ورجعت البطارقة بالسلاح٠
فقال لهم خالد يا ويلكم ظننتم انالله لا يمكننا منكم أنا الفارس الصنديد انا
خالد بن الوليد ٠ ثم طعن فارسافرماه واخر فأرداه ٠ فلما سمع هربيس كلام
خالد ، قال لاصحابه يا ويلكم هذا الذي قلب الشام على اصحابه ، هذا صاحب
بصرى وحوران ودمشق وأجنادين دونكم واياه قال فطمع القوم فيه لانفراده عن
اصحابه ، وكان المسلمون في قتال الروم ونهب الاموال وكل منهم مشتغل
بنفسه ٠ قال فترجلت البطارقة حول خالد لانهم في جبل كثير الوعر واحاطوا
بخالد بن الوليد فعندها ترجل عن جواده واخذ سيفه وجحفته وصبر لقتالهم ٠
قال حدثني شداد بن أوس وكان ممن حضر وقعة مرج الديباج ، وقال خالد
قد صحت الرؤيا ٠ فلما ترجل اقبل يقاتل بنفسه واقبل اليه هربيس ، وهو
مشتغل بالقتال وأتاه من ورائه وضرب خالدا بالسيف فوقع السيف على
البيضة فقدها ، وقد عمامته وانقض السيف من يد هربيس وخاف خالد ان
يلتفت الى ورائه فتهجم عليه الروم وخاف ان يفلت هربيس من بين يديه
فعند ذلك صاح بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير كأنه مستبشر
بشيء اغاثه او ادركه وذلك خديعة منه وحيلة يريد بها ان يتمكن من الاعلاج ٠
فبينما هو كذلك اذ سمع من المسلمين زعقات ، وقد اخذت الروم من ورائهم
وهم يصيحون بالتهليل والتكبير وقائل يقول : لا اله الا الله محمد رسول
الله أتاك النصر من رب العالمين انا عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق ٠ فلما
سمع خالد صوته لم يلتفت الى عبد الرحمن ولا الى من معه ومضى يفرق الاعلاج
ذات اليمين وذات الشمال ، وما ان سمع اللعين هربيس اصوات المسلمين اراد
الهرب فلحقه سيدنا خالد وضربه ضربة فأرداه قتيلا وعجل الله بروحه الى
النار واستطال اصحاب رسول الله (ص) على اصحاب هربيس ونزلوا فيهم
بالسيف حتى ابادوهم عن اخرهم ، وكان اكثرهم قتلا من يد ضرار بن الازور ٠
فلما انكشف الكرب عن خالد ونظر الى ما فعل ضرار ٠ قال افلح الله وجهك
يا ابن الازور فما زلت مباركا في كل افعالك انجح الله اعمالك واصلح ربي

حالك • ثم سلم على عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وعلى المسلمين ، وقال من اين علمتم مكاني هذا ، فقال عبد الرحمن يا امين بينما نحن في قتال الروم ، وقد نصرنا الله عليهم والمسلمون قد اشتغلوا بالغنائم اذا سمعنا هاتفا من الهواء يقول اشتغلتم بالغنائم وخالد قد احاطت به الروم • فلما سمعنا ذلك لم ندر اي مكان انت فيه ، وفقدنا شخصك فدلنا عليك علج كان بيد رجل من اصحابك ، وقال ان صاحبكم انا الذي دللته على هربيس وانه معه في هـــذا الجبل فسرنا اليك •

فقال خالد لقد دلنا على عدونا ودل علينا المسلمين ، وقد وجب له الحق علينا ورجع خالد واصحابه الى المسلمين ، فلما رأوه بادروا وسلموا عليـــه فرد عليهم السلام • ثم ان خالدا (رض) دعا بذلك العلج الذي دله على هربيس، وقال له انك وفيت لنا ونريد ان نوفى لك بما وعدناك لانك نصحت لنا فهل لك أن تكون من اصحاب دين الصلاة والصيام وملة محمد عليه الصلاة والسلام تكون من اهل الجنة ، فقال ما أريد بديني بدلا فأطلق خالد سبيله • قال نوفل بن عمرو فرأيته قد استوى على ظهر جواده يطلب بلاد الروم وحده • ثم ان خالدا (رض) امر بجمع الغنائم والاسارى فجمع ذلك اليه ، فلما رأى كثرته حمد الله تعالى وشكره واثنى عليه ودعا بدليله يونس النجيب • ثم قال له ما فعلت بزوجتك فحدثه معها ، وما كان من امرها فعجب من ذلك ، فقال رافع بن عميرة ايها الامير اني أسرت ابنة الملك هرقل ، وقد سلمتها اليه بدلا من زوجته ، فقال خالد : وأين ابنة الملك هرقل فمثلت بين يديه فنظر الى حسنها وجمالها وما منحها الله به من الجمال فصرف وجهه عنها ، وقال سبحانك اللهم وبحمدك تخلق ما تشاء وتختار • ثم قرأ قوله تعالى ــ وربك يخلق ما يشاء ويختار ــ ثم قال ليونس اتريدها بدلا من زوجتك • قال نعم ولكني اعلــم ان الملك هرقل لا بدله ان يفديها بالاموال او يخلصها بالقتال • فقال خالد خذها لك الان فان لم يطلبها فهي لك ، وان طلبها فالله يعوضك خيرا منها • فقال يونس ايها الامير انك في مكان ضيق ومكان صعب فاعزم على الخروج قبــل ان يلحق نفير القوم • فقال خالد : الله لنا ومعنا وعطف راجعا يجد في مسيره والغنائم امامه والمسلمون في اثره فرحين بالغنيمة والسلامة والنصر •

(قال روح بن عطية) فقطعنا الطريق كلها وما عرض لنا من الروم احد ونحن نخوض في وسط ديار القوم خوضا ، فلما وصلنا مرج الصغير عند قنطرة أم حكيم نظرنا الى غبرة من ورائنا • فلما عايناها انكرنا ذلك فاسرع رجــال من المسلمين الى خالد يخبرونه بالغبرة • قال أيكم يأتيني بخبرها فبادر بالاجابة

رجل من غفار يقال له صعصعة بن يزيد الغفاري • قال : انا ايها الامير • ثم نزل عن جواده ، وكان بجريه يسبق الفرس الجواد لقوة عزمه فورد الغبرة واختبرها ورجععلى عقبه ، وهو ينادي ايها الامير ادركنا الصلبان من ورائنا وهم مصفدون في الحديد لم يبن منهم غير حماليق الحدق ، فدعا خالد بيونس الدليل عندما قاربته الخيل وقال يا يونس اقصد نحو الخيل وانظر مـــا يريدون • فقال السمع والطاعة • ثم دنا من الخيل وقاربهم ، ثـم رجع الى خالد ، وقال له ألم أقل لك ايها الامير ان هرقل لا يغفل عن طلب ابنته وقد انفذ هذه الخيل يريدون ان يأخذوا الغنيمة من أيدي المسلمين ، فلما لحقوك ههنا قريبا من دمشق بعثوا رسولا يسألك في الجارية أما بيعها واما هدية ، فبينما خالد يتحدث اذ أقبل اليه شيخ عليه لبس المسوح فأقبل حتى دنا مـن المسلمين فاوقفوه امام خالد ، وقال له قل ما تشاء • فقال الشيخ انا رسول الملك هرقل وانه يقول لك بلغني ما فعلت برجالي وقتلت توما زوج ابنتـي وهتكت حرمتي ، وقد ظفرت وسلمت فلا تفرط بمن معك ، والان ما ان تبيع ابنتي أو تهديها الي فالكرم شيمتكم وطبعكم ولا يرحم من يرحم واني ارجـو أن يقع بيننا الصلح ، فلما سمع خالد ذلك • قال للشيخ قل لصاحبك والله لا رجعت عنه وعن اهل ملته حتى أملك سريره وما تحت قدميه كما في علمك ، واما ابقاؤك علينا فلو وجدت الى ذلك من سبيل فماقصرت ، وأما ابنتك فهي لك هدية منا ثم ان خالدا اطلق ابنة الملك هرقل وسلمها للشيخ ولم يأخذ في فدائها شيئا ، فلما بلغ ذلك الرسول الى الملك هرقل قال لعظماء الروم هـذا الذي اشرت عليكم فلم تقبلوه واردتم قتلي وسيكون الامر اعظم ، ولكن ليس هذا منكم بل هو من رب السماء •

(قال الواقدي) فبكت الروم بكاء شديدا وسار خالد حتى أتى دمشق ، وكان المسلمون وابو عبيدة قد أيسوا من خالد ومن معه فهم في أعظم القلق والاياس اذ قدم عليهم خالد (رض) والمسلمون فخرجوا الى لقائه وهنئـــوه بالسلامة وسلم المسلمون بعضهم على بعض ووجد خالد في دمشق عمرو بن معد يكرب الزبيدي ومالك بن الاشتر النخعي ومن كان معهما واقبل خالد الى جانب أبي عبيدة ، وهو يحدثه بما لاقى في غزوته وابو عبيدة يتعجب مـــن شجاعته وجسارته ، فلما استقر بخالد مكانه اخذ الخمس من الغنائم وفـرق الباقي على المسلمين ، ثم ان خالدا اعطى من ماله ليونس ، وقال خذ هـــذا فتزوج به او اشتر به جارية لك من بنات الروم • قال يونس والله لا اتزوج في هذا الدار الدنيا زوجة ابدا وما اريد الا ان اتزوج في الاخرة بعيناء من الحور

نعين • قال رافع بن عميرة الطائي فسهد معنا القتال الى يوم اليرموك فما
كنت أراه في حرب الا ويجاهد جهادا عظيما ، وقد أبلى في الروم بلاء حسنا
فأتاه سهم فى لبته فخر ميتا رحمه الله تعالى • قال رافع فحزنت عليه واكثرت
من الترحم عليه فرأيته في النوم وعليه حلل تلمع وفي رجليه نعلان من ذهب
وهو يجول في روضة خضراء ، فقلت له ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي
واعطانى بدلا من زوجتي سبعين حوراء لو بدت واحدة منهن فى الدنيا لكف
ضوء وجهها نور الشمس والقمر فجزاكم الله خيرا فقصصت الرؤيا على خالد ،
فقال ليس والله سوى الشهادة طوبى لمن رزقها •

كتب خالد بالفتح

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان خالدا (رض) لما رجع من غزوته ومسيره
غانما ظن ان الخليفة ابا بكر الصديق (رض) حي لم يقبض فهم ان يكتب له
كتابا بالفتح والبشارة وما غنم من الروم ، وابو عبيدة لا يخبره بذلك ولا
يعلمه ان الخليفة عمر بن الخطاب (رض) فدعا خالد بدواة وبياض وكتب :
بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله خليفة رسول الله (ص) من عامله على
الشام خالد بن الوليد • اما بعد سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا
هو واصلي على نبيه محمد (ص) ثم انا لم نزل في مكايدة العدو على حرب
دمشق حتى انزل الله علينا نصره وقهر عدوه وفتحت دمشق عنوة بالسيف
من باب شرقي ، وكان ابو عبيدة على باب الجابية فخدعته الروم فصالحوه على
الباب الاخر ومنعني ان اسبي واقتل ولقيناه على كنيسة يقال لها كنيسة مريم
وامامه القسس والرهبان ومعهم كتاب الصلح ، وان صهر الملك توما واخر يقال
له هربيس خرجا من المدينة بمال عظيم واحمال جسيمة فسرت خلفها في عساكر
الزحف وانتزعت الغنيمة من ايديهما وقتلت الملعونين واسرت ابنة الملك
هرقل ، ثم اهديتها اليه ورجعت سالما ، وانا منتظر امرك والسلام عليك ،
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم ، وطوى الكتاب وختمه
بخاتمه ، ودعا برجل من العرب يقال له عبد الله بن قرط فدفع اليه الكتاب
وسار الى مدينة رسول الله (ص) فوردها والخليفة عمر بن الخطاب (رض)
فقرأ عنوان الكتاب ، واذا هو : من خالد الى خليفة رسول الله (ص) فقال عمر
أما عرف المسلمون وفاة ابي بكر (رض) ، فقال لا يا امير المؤمنين ، فقال قد
وجهت بذلك كتابا الى ابي عبيدة وامرته على المسلمين وعزلت خالدا وما اظن
ابا عبيدة يريد الخلافة لنفسه ، فسكت وقرأ الكتاب : قال اصحاب السير

في حديثهم ممن تقدم ذكرهم واسنادهم في اول الكتاب ممن روى فتوح الشام ونقلوها عن التقاب منهم محمد بن اسحق وسيف بن عمرو وابو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (رض) كل حدث بما رواه وسمعه ثقة عن ثقة ٠
قالوا جميعا في اخبارهم : انه لما قبض ابو بكر الصديق (رض) وولي الامر بعده عمر بن الخطاب (رض) وله من العمر اثنتان وخمسون سنة بايعه الناس في مسجد رسول الله (ص) بيعة تامة ولم يتخلف عن مبايعته احد لا صغير ولا كبير وانقطع في امارته الشقاق والنفاق وانحسم الباطل وقام الحق وقوي السلطان في امارته وضعف كيد الشيطان وظهر أمر الله وهم كارهون ، ومن أمره انه كان يجلس مع الفقير ويتلطف بالناس والمسلمين ويرحم الصغير ويوقر الكبير ويعطف على اليتيم وينصف المظلوم من الظالم حتى يرد الحق الى اهله ولا تأخذه في الله لومة لائم ، وكان في امارته يدور في اسواق المدينة وعليه مرقعة وبيده درته وكانت درته أهيب من سيف الملوك وسيوفكم هذه ، وكان قوته في كل يوم خبز الشعير وادمه الملح الجريش ، وربما اكل خبزه بغير ملح تزهدا واحتياطا وترفقا على المسلمين ورأفة ورحمة لا يريد بذلك الا الثواب من الله سبحانه وتعالى ولا يشغله شاغل عن اداء الفريضة ٠ وما اوجب الله عليه من حقوقه وسنة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام قالت عائشة (رض) : ولقد تولى والله عمر بن الخطاب (رض) الخلافة فجد في التشمر وترك عن نفسه التكبر ، ولقد كان احرقه خبز الشعير والملح واراد أكل الزيت واليابس من التمر ، وربما أخذ شيئا من السمن ، ويقول أكلت الزيت وخبز الشعير والملح والجون اهون غدا من نار جهنم ، من حل بها لم يمت ولم يجد فيها راحة ابدا ، قرارها بعيد وعذابها شديد وشرابها الصديد لا يؤذن لهم فيعتذرون ، جند الجنود في امارته وبعث العساكر وفتح الفتوحات ومصر الامصار ، وكان يخاف عذاب النار ، (رض) ٠

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : ولقد بلغني ان هرقل لما بلغه ان عمر بن الخطاب (رض) قد ولي الامر من بعد ابي بكر الصديق (رض) جمع الملوك والبطارقة وارباب دولته وقام فيهم خطيبا على منبر قد نصب له في كنيسة القسيسين ، وقال يا بني الاصفر : هذا الذي كنت احذركم منه فلم تسمعوا مني ، وقد اشتد الامر عليكم بولاية هذا الرجل الاسمر وقد دنا موعد صاحب الفتوح المشبه بنوح ، والله ثم والله لا بد ان يملك ما تحت سريري هذا الحذر ثم الحذر قبل وقوع الامر ونزول الضرر ، وهدم القصور وقتل القسس وتبطيل الناقوس ، هذا صاحب الحرب والجالب على الروم والفرس الكرب ، هذا

الزاهد فى دنياه ، وهذا الغليظ على من أتبع فى غير ملته هواه ، واني ارجو لكم النصر ان امرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وتركتم الظلم واتبعتم المسيح فى اداء المفروضات ولزوم الطاعات وترك الزنا وانواع الخطايا ، وان ابيتم الا الفساد والفسوق والعصيان والركون الى شهوات الدنيا يسلط الله عليكم عدوكم ويبلوكم بما لا طاقة لكم به ، ولقد أعـــلم أن دين هؤلاء سيظهر عـلى كل دين ولا يزال اهله بخير ما لم يغيروا ويبدلوا ، فاما ان ترجعوا اليه ، واما ان تصالحوا القوم على اداء الجزية ، فلما سمع القوم ذلك نفروا وبادروا اليـه وهموا بقتله فسكن غضبهم بلين كلامه ولاطفهم ٠ وقال لهم انما أردت أن أرى حميتكم لدينكم وهل تمكن خوف العرب في قلوبكم أم لا ؟

ثم استدعى برجل من المتنصرة يقال له طليعة بن ماران وضمن له مالا ، وقال له انطلق من وقتك هذا الى يثرب وانظر كيف تقتل عمر بن الخطاب ، فقال له طليعة نعم أيها الملك ٠ ثم تجهز وسار حتى ورد مدينة رسول الله (ص) وكمن حولها ، واذا بعمر بن الخطاب (ض) خرج يشرف على أموال اليتامى ويفتقد حدائقهم فصعد المنصر الى شجرة ملتفة الاغصان فاستتر بأوراقها ، واذا بعمر (رض) قد اقبل الى أن قرب من الشجرة التي عليها المتنصر ونام على ظهره وتوسد بحجر ، فلما نام هم المتنصر ان ينزل اليه ليقتله ، واذا بسبع أقبل من البرية فطاف حوله وأقبل يلحس قدميه ، واذا بهاتف يقول يا عمر عدلت فأمنت ، فلما استيقظ عمر (رض) ذهب السبع ونزل المتنصر وترامى على عمر (رض) فقبل يديه ، وقال بأبي أنت وأمي أفدى من الكائنات مـــن السباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم أعلمه بما كان منـه وأسلم على يديه ٠

(قال الواقدي) ثم ان عمر (رض) كتب كتابا لابي عبيدة بن الجراح يقول فيه : قد وليتك على الشام وجعلتك أميرا على المسلمين وعزلت خالد بن الوليد والسلام ٠ ثم سلم الكتاب الى عبد الله بن قرط وأقام قلقا على ما يرد عليه من أمور المسلمين وصرف همته الى الشام ٠

تولية ابي عبيدة

(قال الواقدي) حدثني رافع بن عميرة الطائي ٠ قال حدثني يونس بن عبد الاعلى ، وقد قرأت عليه بجامع الكوفة ٠ قال حدثني عبد الله بن سالم الثقفي عن أشياخه الثقات ٠ قال لما كانت الليلة التي مات فيها ابو بكر الصديق (رض) رأى عبد الرحمن بن عوف الزهري (رض) رؤيا قصهـــا عـــلى

عمر (رض) ، وكانت تلك الليلة بعينها • قال رأيت دمشق والمسلمون حولها وكأني أسمع تكبيرهم في أذني وعند تكبيرهم وزحفهم رأيت حصنا قد ساخ في الارض حتى لم أر منه شيئا ورأيت خالدا ، وقد دخلها بالسيف وكأن نارا أمامه وكأنه وقع على النار فانطفأت ، فقال الامام علي كرم الله وجهه ورضي الله تعالى عنهم اجمعين : أبشر فقد فتح الشام هذه الليلة أو قال يومك هذا ان شاء الله تعالى ،فبعد أيام قدم عقبة ابن عـــامر الجهنى صاحب رسول الله (ص) ومعه كتاب الفتح ، فلما رآه قال يا ابن عامر كم عهدك ؟ قال قلت يوم الجمعة • قال ما معك من الخبر ؟ فقلت خير وبشارة واني سأذكرها بين يدي الصديق (رض) • فقال فبض والله حميدا وصار الى رب كريم ، وقلدها عمر الضعيف في جسمه فان عدل فيها نجا وان ترك أو خلط هلك • قـــال عقبة بن عامر فبكيت وترحمت عـــلى أبي بكر الصديق (رض) ، وأخرجت الكتاب فدفعته اليه ، فلما قرأه نظر فيه وكتم الامر الى وقت صلاة الجمعة • فلما خطب وصلى ورقى المنبر واجتمع المسلمون اليه وقرأ عليهم كتاب الفتح فضج المسلمون بالتهليل والكبير وفرحوا ، ثم نزل عـن المنبر وكتب الى أبي عبيدة (رض) بتوليته وعزل خالد ، ثم سلمني الكتاب وأمرني بالرجوع ، قال فرجعت الى دمشق فوجدت خالدا قد سار خلف توما وهربيس فدفعت الكتاب الى ابي عبيدة فقرأه سرا ولم يخبر احدا بموت ابي بكر الصديق (ض) ثم كتم أمره وكتم عزل خالد وتوليته على المسلمين حتى ورد خالد من السرية فكتب الكتاب بفتح دمشق ونصرهم على عدوهم وبما ملكوا من مرج الديبـاج واطلاق بنت الملك هرقل وسلم الكتاب الى عبد الله بن قرط ، فلما ورد به الى عمر بن الخطاب (رض) ، وقرأ عنوان الكتاب من خالد بن الوليد الى أبي بكر الصديق (رض) انكر الامر ورجعت حمرته الى البياض ، وقال : يا بن قرط أما علم الناس بموت أبي بكر (رض) وتوليتي أبا عبيدة بن الجراح ؟ قـال عبد الله بن قرط • قلت لا ، فغضب وجمع الناس اليه وقام على المنبر • ثم قال يا معاشر الناس اني أمرت أبا عبيدة الرجل الامين ، وقد رأيته لذلك أهلا ، وقد عزلت خالدا عن امارته ، فقال رجل من بني مخزوم : أتعزل رجلا قد أشهر الله بيده سيفا قاطعا ونصربه دينه ، وان الله لا يعذرك في ذلك ولا المسلمين ان انت أغمدت سيفا وعزلت أميرا أمره الله لقـــد قطعت الرحم ، ثم سكت الرجل ، فنظر عمر (رض) الى الرجل المخزومي فرآه غلاما حدث السن • فقال شاب حدث السن غضب لابن عمه ثم نزل على المنبر وأخذ الكتاب وجعـــله تحت رأسه وجعل يؤامر نفسه في عزل خالد ، فلما كان من الغد صلى صلاة

الفجر وقام فرقى المنبر خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر الرسول (ص) فصلى عليه وترحم على أبي بكر الصديق (رض) ، ثم قال : ايها الناس اني حملت امانة عظيمة واني راع وكل راع مسؤول عن رعيته ، وقد جئت لاصلاحكم والنظر في معايشكم وما يقربكم الى ربكم أنتم ومن حضر في هذا البلد فاني سمعت رسول الله (ص) يقول « من صبر على أذاها وشرها كنت له شفيعا يوم القيامة » وبلادكم بلاد لا زرع فيها ولا ضرع ولا ماء أوقر به الابل لآمن مسيرة شهر وقد وعدنا الله مغانم كثيرة واني أريدها للخاصة والعامة لأؤدي الامانة والتوقير للمسلمين ... وما كرهت ولاية خالد على المسلمين الا لان خالدا فيه تبذير المال يعطي الشاعر اذا مدحه ويعطي للمجد والفارس بين يديه فوق ما يستحقه من حقه ولا يبقى لفقراء المسلمين ولا لضعفائهم شيئا ، واني أريد عزله وولاية أبي عبيدة مكانه والله يعلم أني ما وليته الا أمينا فلا يقول قائلكم : عزل الرجل الشديد وولى الامين اللين للمسلمين فان الله معه يسدده ويعينه ، ثم نزل عن المنبر وأخذ جلد أدم منشور وكتب الى أبي عبيدة كتابا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) وبعد فقد وليتك أمور المسلمين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق ، واني أوصيك بتقوى الله الذي يبقي ويفني ما سواه والذي استخرجك من الكفر الى الايمان ، ومن الضلال الى الهدى ، وقد استعملتك على جند ما هنالك مع خالد فاقبض جنده واعزله عن امارته ولا تنفذ المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنفذ سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم النصر فان النصر انما يكون مع اليقين والثقة بالله ، واياك والتغرير بالقاء المسلمين الى الهلكة ، وغض عن الدنيا عينيك واله عنها قلبك ، واياك ان تهلك كما هلك من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم وخبرت سرائرهم وانما بينك وبين الآخرة ستر الخمار وقد تقدم فيها سلفك وأنت كأنك منتظر سفرا ورحيلا من دار قد مضت نضرتها وهبت زهرتها فأحزم الناس فيها الراحل منها الى غيرها ويكون زاده التقوى وراع المسلمين ما استطعت ، وما الحنطة والشعير الذي وجدت بدمشق وكثرت في ذلك مشاجرتكم فهو للمسلمين ، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسهام ، وأما اختصامك انت وخالد في الصلح او القتال فأنت الولي وصاحب الامر وان صلحك جرى على الحقيقة أنها للروم فسلم اليهم ذلك والسلام ورحمة الله وبركاته عليك وعلى جميع المسلمين ،

واما هديتك ابنة الملك هرقل فهديتها الى ابيها بعد أسرها تفريط ،وقد كان يأخذ في فديتها مالا كبيرا يرجع به على الضعفاء من المسلمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وختمه بخاتمة ، ثم دعا بعامر بن أبي وقاص أخي سعد ودفع الكتاب اليه ، وقال له انطلق الى دمشق وسلم كتابي هذا الى أبي عبيدة وامره أن يجمع الناس اليه واقرأه انت على الناس يا عامر واخبره بموت أبي بكر الصديق (ر ض) ثم دعا عمر (ر ض) شداد بن أوس فصافحه ، وقال له أمض انت وعامر الى الشام فاذا قرأ أبو عبيدة الكتاب فأمر الناس يبايعونك لتكون بيعتك بيعتي ٠

(قال الواقدي) فانطلقا يجدان في السير الى ان وصلا الى دمشق والناس مقيمون بها ينتظرون ما يأتيهم من خبر أبي بكر الصديق (رض) وما يأمرهم به فأشرف صاحبا عمر (ر ض) على المسلمين ، وقد طالت اعناقهم اليهما وفرحوا بقدومهما فاقبلا حتى نزلا في خيمة خالد (ر ض) وقال له عامر بن ابي وقاص تركته يعني عمر بخير ومعي كتاب وانه أمرني أن اقرأه على الناس بالاجتماع فاستنكر خالد ذلك واستراب الامر وجمع المسلمين اليه فقام عامر أبي وقاص فقرأ الكتاب فلما انتهى الى وفاة أبي بكر الصديق (رض) ارتفع للناس ضجة عظيمة بالبكاء والنحيب وبكى خالد (رض) ، وقال ان كان أبو بكر قد قبض وقد استخلف عمر فالسمع والطاعة لعمر وما أمر به وقرأ عامر الكتاب الى آخره ، فلما سمع الناس بما فيه من أمر المبايعة لشداد بن أوس بايعوه ، وكانت المبايعة بدمشق لثلاث خلت من شهر شعبان سنة ثلاث عشر من الهجرة ٠

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : قد بلغني أنه كان على العدو بعد عزله اشد فظاعة وأصعب جهادا لا سيما في حصن أبي القدس ٠

ذكر حديث وقعة أبي القدس

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : سألت من حدث بهذا الحديث عن حصن أبي القدس ٠ قال ما بين عرقا وطرابلس مرج يقال له مرج السلسلة وكان بازائه دير وفيه صوامع وفيه صومعة راهب عالم بدين النصرانية وقد قرأ الكتب السالفة وأخبار الامم الماضية المتقدمة وكانت تقصده الروم وتقتبس من علمه وله من العمر ما ينوف عن مائة سنة ، وكان في كل سنة يقوم عند ديره عيد آخر صيام الروم وهو عيد الشعانين فتجتمع الروم والنصارى وغيرهم من جميع النواحي والسواحل ومن قبط مصر ويحدقون به فيطلع عليهم من ذروة له فيعلمهم ويوصيهم بوصايا الانجيل ، وكان يقوم في ذلك العيد سوق عظيم من السنة الى السنة ، وكان يحمل له الامتعة والذهب

والفضة ويبيعون ويشترون ثلاثة ايام ، وما كان المسلمون يعلمون بذلك ولا يعرفونه حتى دلهم عليه رجل نصراني من المعاهدين وقد اصطفاه وأمنه وأهله ، فلما ولى أبو عبيدة أمر المسلمين أراد ذلك المعاهد أن يتقرب الى أبي عبيدة (رض) فعسى ان يكون فتح الدير والسوق على يديه فأقبل اليه وأبو عبيدة قد أطال الفكر فيما يصنع واي بلد من بلاد الروم يقصد ، فمرة يقول أسير الى بيت المقدس بالجيش فانها أشرف بلدهم وكرسي مملكة الروم بها قيام دينهم ، ووقتا يقول اسير الى انطاكية وأقصد هرقل وأفرغ منه ، وبينما هو يفكر في أمره وقد جمع المسلمين اذ أقبل ذلك المعاهد وكان من نصارى الشام • فقال : أيها الامير انك قد احسنت الي وأمنتني ووهبتني أهلي ومالي وولدي وقد اتيتك ببشارة وغنيمة تغنمها المسلمون ساقها الله اليهم ، فأن أظفرهم الله بها استغنوه غنى لا فقر بعده • فقال أبو عبيدة أخبرنا ما هذه الغنيمة وأين تكون ؟ فما علمتك الا ناصحا • فقال أيها الامير انها بازائك على دير الساحل وهو حصن يعرف بأبي القدس وبازائه دير فيه راهب تعظمه النصرانية وينبركون بدعائه ويقتبسون من علمه وله في كل سنة عيد يجتمعون اليه من كل النواحي والقرى والامصار والضياع والاديرة ويقوم عنده سوق عظيم يظهرون فيه فاخر ثيابهم من الديباج والذهب والفضة يقيمون عنده ثلاثة ايام او سبعة وقد قرب وقت قيام السوق فتأخذون جميع ما فيه وتقتلون الرجال وتسبون النساء والذرارى ، وهذه غنيمة يفرح بها المسلمون ويوهن لها عدوكم •

(قال الواقدي فلما سمع ابو عبيدة ما قاله المعاهد فرح رجاء ان يكون ما قاله المعاهد غنيمة للمسلمين • فقال للمعاهد كم بيننا وبين هذا الدير ؟ قال عشرة فراسخ للمجد السائر • قال أبو عبيدة وكم بقي الى قيام السوق قال أيام قلائل قال أبو عبيدة فهل يكون لهم حامية يلي أمرهم ويصد عنهم قال المعاهد لسنا نعرف ما ذكرت في بلاد الملك لانه لا يصيب بعضنا بعضا لهيبة هرقل في قلوبهم ، فلما سمع ابو عبيدة قال هل بالقرب منه شيء من مدائن الشام ؟ قال نعم بالقرب من السوق مدينة تسمى طرابلس وهي مينا الشام اليها تقدم المراكب من كل مكان وفيها بطريق عظيم كثير التجبر وقد أقطعه الملك اياها من تجبره وهو يحضر السوق وما كنت أعهد ان لهذا السوق حامية من الروم الا أن يكون الآن لخوفهم منكم ولو سار الى الدير والسوق أدنى المسلمين لرجوت لهم الفتح ان شاء الله تعالى •

فقال ابو عبيدة : أيها الناس أيكم يهب نفسه لله تعالى وينطلق مع جيش

ابعثه فتحا للمسلمين فسكت الناس ولم يتكلم أحد ، فنادى أبو عبيدة ثانية وانما يريد خالدا بقوله واستحى أن يواجهه في ذلك لاجل عزله ، فقام من وسط الناس غلام شاب نبت شعر عارضيه واخضر شاربه وكان ذلك الشاب عبد الله بن جعفر (رض) ، وكانت أمه أسماء بنت عميس الختعمية وكان أبوه جعفر (رض) قد مات في غزوة تبوك وخلف ولده عبد الله صغيرا فتزوجها أبو بكر الصديق (رض) ، فلما كبر وترعرع كان يقول لامه يا أماه : ما فعل أبي ؟ فتقول يا ولدي قتله الروم وكان يقول لئن عشت لآخذن بثأره ، فلما مات أبو بكر وتولى عمر (رض) جاء عبد الله الى الشام في بعث بعثه عمر مع عبد الله بن انيس الجهني وكان فيه مشابهة من رسول الله (ص) في خلقه وخلقه وهو احد الاصحاب الاسخياء ، فلما قال ابو عبيدة (رض) : ايها الناس من ينطلق الى هذا الدير وثب عبد الله بن جعفر الطيار (رض) • فقال أنا أول من يسير مع هذا البعث يا أمين الامة ففرح أبو عبيدة وجعل يندب له رجالا من المسلمين وفرسان الموحدين وقال له : أنت الامير يا ابن عم رسول الله (ص) وعقد له راية سوداء وسلمها اليه ، وكان على الخيل خمسمائة فارس منهم رجال من أهل بدر، وكان من جملة من سيره مع عبد الله ابو ذر الغفاري وعبد الله بن أبي اوفي وعامر بن ربيعة وعبد الله بن أنيس وعبد الله ابن ثعلبة وعقبة بن عبد الله السلمي ووائلة بن الاسقع وسهل بن سعد وعبد الله بن بشر والسائب بن يزيد ومثل هؤلاء السادات (رض) اجمعين •

(قال الواقدي) ولما ان اجتمعت الخمسمائة فارس تحت راية عبد الله بن جعفر وما منهم الا من شهد الوقائع وخاض المعامع لا يولون الادبار ولا يركنون الى الفرار عولوا على المسير • وقال أبو عبيدة لعبد الله بن جعفر : يا ابن عم رسول الله (ص) لا تقدم على القوم الا في أول قيام السوق ، ثم انه ودعهم وساروا •

(قال الواقدي) وكان في هذه السرية مع عبد الله بن جعفر وائلة بن الاسقع وكان خروجهم من أرض الشام وهي دمشق الى دير ابي القدس في ليلة النصف من شعبان وكان القمر زائد النور • قال وأنا الى جانب عبد الله ابن جعفر • فقال لي يا ابن الاسقع ما احسن قمر هذه الليلة وأنوره فقلت يا ابن عم رسول الله (ص) هذه ليلة النصف من شعبان وهي ليلة مباركة عظيمة ، وفي هذه تكتب الارزاق والآجال وتغفر فيها الذنوب والسيئات وكنت أدرت أن أقومها • فقلت ان سيرنا في سبيل الله خير من قيامها والله جزيل العطاء • فقال صدقت ثم اننا سرنا ليلتنا ، فبينما نحن سائرون اذ أشرفنا

على صومعة راهب وعليه برنس اسود ، فجعل يتأملنا وينظر في وجوهنا فتفقدنا واحدا بعد واحد ، ثم جعل يطيل النظر في وجه عبد الله ، ثم قال اهذا الفتى ابن نبيكم ؟ فقلنا لا قال ان نور النبوة يلوح بين عينيه فهل يلحق به • فقلنا هو ابن عمه • فقال الراهب هو من الورقة والورقة من الشجرة • فقال عبد الله : ايها الراهب وهل تعرف رسول الله (ص) ؟ • فقال وكيف لا أعرفه واسمه وصفته فيالتوراة والانجيل والزبور ، وانه صاحب الجمل الاحمر والسيف المشهر • فقال عبد الله فلم لا تؤمن به وتصدقه ؟ فرفع يده الى السماء وقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء فاعجبنا كلامه وسرنا والدليل بين ايدينا اذ أتى بنا الى واد كثير الشجر والماء أمرنا ان نكمن فيه ، ثم قال لعبد الله بن جعفر اني ذاهب أجس لكم الخبر • فقال له عبد الله : أسرع في مسيرك وعد الينا بالخبر • قال فانطلق مسرعا وأقام عبد الله بن جعفر يحرس المسلمين بنفسه الى الصباح • قال فلما اصبحنا صلينا صلاة الصبح وجلسنا ننتظر رجوع الرسول فلم يأت وأبطأ خبره علينا فقلق المسلمون عليه لاحتباسه وخافوا من المكيدة ووسوس لهم الشيطان وساءت بالدليل الظنون فما من المسلمين الا من ظن بالمعاهد شرا الا أبا ذر الغفاري (رض) فانه قال : ظنوا بصاحبكم خيرا ولا تخافوا منه كيدا ولا مكرا ان له شأنا تعلمونه • قال فسكت الناس بعد ذلك واذا بصاحبهم قد اقبل • قال واثلة بن الاسقع فلما رأيناه فرحنا به وظننا أنه يأمر بالنهوض الى العدو فاقبل حتى وقف وسط المسلمين • وقال : يا أصحاب محمد وحق المسيح ابن مريم أني لا أكذبكم فيما احدثكم به واني رجوت لكم الغنيمة وقد حال بينكم وبينها ماء •

فقال له عبد الله (ر ض) : وكيف حيل بينا وبينها ؟ قال حال بينكم وبينها بحر عجاج ، وذلك اني اشرفت على السوق وقد قام فيه البيع والشراء ، فاجتمع فيه اهل دين النصرانية وقد دار أكثرهم بالدير دير أبي القدس واجتمع اليه القسسوالرهبان والملوك والبطارقة . فلما نظرت الى ذلك لم ارجع حتى اختبرت ما السبب الذي تجمعت له الخلق زيادة على كل سنة ، وذلك اني مضيت واختلطت بالقوم واذا بصاحب طرابلس قد زوج ابنته ملكا من ملوك الروم ، وقد أتوا بالجارية الى الدير ليأخذوا لها من راهبهم قربانا وقد دار بها فرسان الروم المنتصرة في عددهم وعديدهم ، كل ذلك خوفا منكم لانهم يعلمون انكم بأرض الشام : يا معاشر المسلمين وما ارى لكم صوابا ان تصلوا الى القوم لانهم خلق كثير وجم غفير وجمع غزير • فقال عبد الله بن جعفر (رض) في

كم يكون القوم وكم خررتهم ؟ فقال اما السوق ففيه اكثر من عشرين الفا من عوام الروم والارمن والنصارى والقبط واليهود من مصر والشام وأهل السواد والبطارقة والمتنصرة ، وأما المستعدون للحرب فخمسة الاف فارس فما لكم بالقوة طاقة ، وان وقع طائح في بلادهم انضاف اليهم امثالهم فان بلادهم متصلة بهم ، وأما أنتم فعددكم يسير ، والعرب منكم بعيد .

(قال الواقدي) فصعب ذلك على عبد الله بن جعفر وعلى المسلمين وسقط في ايديهم وهموا بالرجوع . فقال عبد الله بن جعفر : معاشر المسلمين ، ما الذي تقولون في هذا الامر ؟ فقالوا نرى أن لا نلقي بأيدينا الى التهلكة كما امر ربنا في كتابه العزيز ، ونرجع الى الامير ابي عبيدة (ر ض) والله لا يضيع أجرنا . قال فلما سمع عبدالله قولهم قال أما أنا فأخاف ان فعلت ذلك ان يكتبني الله من الفارين وما ارجع او أبدى عذرا عند الله تعالى ، فمن ساعدني فقد وقع اجره على الله ، ومن رجع فلا عتب عليه ، فلما سمعوا ذلك من عبدالله بن جعفر اميرهم وبذل مهجته استحيوا منه وأجابوه بأجمعهم وقالوا افعل ما تريد فما ينفع حذر من قدر ففرح باجابتهم ، ثم عمد الى درعه فأفرغه عليه ووضع على رأسه بيضة وشد وسطه بمنطقة وتقلد بسيف أبيه واستوى على متن جواده واخذ الراية بيده وامر الناس بأخذ الاهبة فلبسوا دروعهم واشتملوا بسلاحهم وركبوا خيولهم وقالوا للدليل سربنا نحو القوم فستعاين من اصحاب رسول الله (ص) عجبا . قال واثلة بن الاسقع فرأيت الدليل قد اصفر وجهه وتغير لونه وقالوا سيروا انتم برأيكم وما علي من امركم وخرج قال أبو ذر الغفاري فرأيت عبدالله بن جعفر يتلطف به حتى سار بين يديه يدله على القوم ساعة ، ثم وقف وقال أمسكوا عليكم فانكم قد قربتم من القوم فكونوا في مواضعكم كامنين الى وقت السحر ثم أغيروا على القوم . قال واثلة بن الاسقع فبتنا ليلتنا حيث امرنا ونحن نطلب النصر من الله تعالى على الاعداء ، فلما أصبح النهار صلي بهم عبدالله بن جعفر صلاة الصبح ، فلما فرغوا من صلاتهم قال ما ترون في الغارة ؟

فقال عامر بن عميرة بن ربيعة أدلكم على أمر تصنعونه قالوا قل . قال اتركوا القوم في بيعهم وشرائهم واظهار امتعتهم ، ثم اكبسوا عليهم على حين غفلة وغرة من امرهم ، فصوب الناس رأيه وصبروا الى وقت قيام السوق ، ثم اظهروا السيوف من أغمادها وأوتروا القسي وشرعوا لاماتهم ، وعبدالله بن جعفر امامهم الراية بيده ، فلما طلعت الشمس عمد عبدالله الى المسلمين

فجعلهم خمسة كراديس كل كردوس مائة فارس وجعل على كل مائة نقيبا وقال تأخذ كل مائة منكم قطرا من أقطار سوقهم ولا تشتغلوا بنهب ولا غارة ، ولكن ضعوا السيوف في المفارق والعواتق ، وتقدم عبدالله بن جعفر بالراية وطلع على القوم فنظر الى الروم متفرقين في الارض كالنمل لكثرتهم وقد احدق منهم بدير الراهب خلق كثير ، والراهب قد اخرج رأسه من الدير وهو يعظ الناس ويوصيهم ويعلمهم معالم ملتهم وهم اليه شخوص بابصارهم وابنة البطريق عنده في الدير والبطارقة وابناؤهم عليهم الديباج المتقل بالذهب ، ومن فوقهم دروع وجواشن تلمع وبيض وهم ينظرون صيحة بين ايديهم او طارقا يطرقهم من خلفهم ، ونظر عبد الله الى الدير والى ما أحدق به، والى الراهب وما حول صومعته فهاله ذلك من امرهم وصاح فيهم قبل الحملة. وقال يا صاحب رسول الله (ص) احملوا بارك الله فيكم ، فان كانت غنيمة وسرور فالفتح والسلامة ويكون الاجتماع تحت صومعة الراهب ، وان كان غير ذلك فهو وعدنا الجنة ونلتقي عند حوض رسول الله (ص) مع الصحابة . قال وطلب عبدالله الجم العظيم فغاص فيهم وجعل يضرب بسيفه ويطعن برمحه ويحمل المسلمون من ورائه ، وسمع الروم اصوات المسلمين مرتفعة بالتهليل والتكبير فتيقنوا ان جيوش المسلمين قد ادركتهم وكانوا لذلك منتظرين وعلى يقظة من امرهم ، فأما السوقة فانهم تبادروا الى اسلحتهم والمتع عن انفسهم وأموالهم وأخرجوا السيوف من الاغمدة وانعطفوا على قتال المسلمين عطفة الاسد الضاري ، وطلبوا صاحب الراية ولم يكن مع المسلمين راية غيرها فأحدقوا بالراية من كل جانب ومكان وقامت الحرب على ساق وثار الغبار وانعقد وأحدق الروم بالمسلمين ، فما كان المسلمون فيهم الا كشامة بيضاء في جلد بعير اسود ، وما كان اصحاب رسول الله (ص) يعرف بعضهم بعضا الا بالتهليل والتكبير ، وكل واحد مشتغل بنفسه عن غيره ، وقال ابو سبرة ابراهيم بن عبد العزيز بن ابي قيس ، وكان من السابقين والمتقدمين بايمانهم في الاسلام وصاحب الهجرتين جميعا قال : شهدت قتال الحبشة مع جعفر بن ابي طالب (ر ض) وشهدت المشاهد مع رسول الله (ص) في بدر وفي احد وفي حنين ، وقلت اني لا اشهد مثلها ، فلما قبض الله (ص) حزنت عليه ولم استطع ان اقيم بالمدينة بعد فقده فقدمت مكة فأقمت بها فعوتبت في منامي من التخلف عن الجهاد ، فخرجت الى الشام وشهدت اجنادين والشام وسرية خالد خلف توما وهربيس وشهدت سرية عبدالله بن جعفر وكنت

معه على دير ابي القدس فانستني وقعتها ما شهدت قبلها من الوقائع بين يدى رسول الله (ص) ، وذلك اني نظرت الى الروم حين حملنا عليهم في كثرتهم وعددهم وقلنا ماثم غيرهم وليس لهم كمين عظيم ٠ قال فرأينا اجسادهم هائلة وعليهم الدروع وما يبين منهم الا حماليق الحدق لهم طقطقة وزمجرة عندما يحملون حتى نظرت الى المسلمين قد غابوا في اوساطهم ولا اسمع منهم الا الاصوات تارة يجهرون بها وتارة اقول هلكوا ٠

ثم انظر الى الراية بيد عبدالله بن جعفر (رض)مرفوعة بذلك ، وعبدالله يقاتل بالراية ويكر على المشركين ولا يتني ٠٠٠ ويجاهد على صغر سنة ولم تزل الحرب بيننا كلما طال مكثها اشتد ضرامها وعلا قتامها والتهب نارها ، وصار عبدالله في وسط القوم وهم حوله كالحلقة الدائرة والروم يحدقون به فجعل كلّما حمل يمينا حملت يمينا وان حمل شمالا حملت شمالا ولم نزل في الحرب والقتال حتى كلت منا السواعد وخدرت منا المناكب ٠ قال وعظم الامر علينا وهالنا الصبر وتثلم سيف عبدالله في يده وكادت تقع فرسه من تحته فالتجأ بأصحابه في موضع ، فاجتمع اصحابه اليه فنظر المسلمون الى رايته فقصدوها ، وما منهم الا مكلوم من المشركين فضاق لذلك ذرعه وما نزل في نفسه مثل ما نزل بالمسلمين فألجأ الى الله تعالى أمره وفوض الى صاحب السماء شأنه ورفع يده الى السماء وقال في دعائه يا من خلق خلقه وابلى بعضهم ببعض وجعل ذلك محنة لهم أسألك بجاه محمد النبي (ص) الا ما جعلت لنا من امرنا فرجا ومخرجا ، ثم عاد الى القتال واصحاب رسول الله (ص) يقاتلون معه تحت رايته ، فلله در ابي ذر الغفاري(ر ض) فانه نصر ابن عم رسول الله (ص) وجاهد بين يديه ٠ قال عمرو بن ساعدة فلقد رايته مع كبر سنه يضرب بسيفه ضربا شديدا في الروم وينتمي الى قومه ويذكر عند حملانه اسمه ويقول انا أبو ذر ، والمسلمون يفعلون كفعلة الى ان بلغت القلوب الحناجر وظنوا ان في ذلك الموضع قبورهم ٠

(قال الواقدي رحمه الله تعالى) حدثني عبدالله بن انيس الجهني ٠ قال كنت احب جعفرا واحب من اولاده عبدالله ، فلما قبض ابو بكر (ر ض) وكان قائما مقام ابيه نظرت الى أمه أسماء بنت عميس حزينة فكرهت ان انظر اليها في ذلك الحزن ، وايضا ان ابا بكر (ر ض) في المسير الى الشام فاستأذن عبدالله بن جعفر عمر بن الخطاب (ر ض) في المسير الى الشام ٠ وقال لي : يا ابن انيس الجهني اشتهي ان ألحق بالشام ومعنا عشرون فارسا أكون مجاهدا أفتصحبني ؟ فقلت نعم فودع عمه عليا (ر ض) وودع عمر (رض)

وسار يريد الشام ومعنا عشرون فارسا حتى اتينا تبوك • فقال يا ابن انيس اتدري موضع قبر ابي ؟ فقلت نعم فقال استهي ان ارى الموضع • قال فما اتينا الموضع فأريته موضع مصرع.أبيه وموضع الوقعة وقبر ابيه جعفر رحمه الله تعالى وعليه حجارة ، فلما نظر اليه نزل ونزلنا معه وبكى وترحم فاقمنا عنده الى صبيحة اليوم الثاني ، فلما رحلنا رايت عبد الله يبكي ووجهه مثل الزعفران فسألته عن ذلك • فقال رأيت ابي البارحة في النوم وعليه حلتان خضراوتان وتاج وله جناحان وبيده سيف مسلول اخضر فسلمه الي وقال يا بني قاتل به اعداءك فما وصلت الى ما ترى الا بالجهاد ، وكأني اقاتل بالسيف حتى تثلم • قال عبدالله بن انيس وسرنا حتى اتينا عسكر ابي عبيدة (ر ض) بدمشق ، فبعثه امير تلك السرية إلى دير ابي القدس • قال عبدالله بن انيس فلما رأيت بينه وبين الروم ، قلت يوشك ان يذهب عبدالله فسرت كالبرق ورجعت الى ابي عبيدة (ر ض) ، فلما راني قال أبشارة يا ابن انيس ام لا ؟ فقلت انفذ المسلمين الى نصرة عبدالله بن جعفر ومن معه ، ثم حدثته بالقصة فقال ابو عبيدة (ر ض) ـ انا لله وانا الله راجعون ايصاب عبدالله بن جعفر ومن معه تحت رايتك يا ابا عبيدة وهي اول امارتك •

(قال الواقدي) ثم التفت خالد بن الوليد (ر ض) • فقال له يا ابا سليمان سألتك بالله • الحق عبد الله بن جعفر فأنت المعد لها • فقال خالد انا لها ان شاء الله وما كنت انتظر الا ان تأمرني فقال ابو عبيدة (ر ض) استحيت منك يا ابا سليمان فقال والله لو امر علي طفل صغير لاطيعن له ، فكيف اخالفك وانت اقدم مني ايمانا واسبق اسلاما سبقت باسلامك مع السابقين وسارعت بايمانك مع المسارعين وسماك رسول الله بالامين ،فكيف الحقك او انال درجتك ، والان اشهدك اني قد جعلت نفسي حبيسا في سبيل الله تعالى لا أخالفك ابدا ، ولا وليت امارة بعدها ابدا •

قال (قال الواقدي) فاستحسن المسلمون قوله ، فقال ابو عبيدة (ر ض) يا ابا سليمان الحق اخوانك رحمك الله • قال فوثب خالد (ر ض) كأنه الاسد وسار الى رحلة فأفرغ عليه درع مسيلمة الكذاب الذي سلبه منه يوم اليمامة والقى بيضة على رأسه واردفها قلنسوة وتقلد بحسامه وانصب في سرجه كأنه السيل ونادى بجيش الزحف هلموا الى جزب السيوف فأجابوه مسرعين كأنهم العقبان وبادروا الى طاعة الرحمن واخذ خالد الراية بيده وهزها على ركابه ودار به عسكر الزحف من كل جانب وودع المسلمون بعضهم بعضا وساروا وسار خالد وعبدالله بن انيس يدلهم على الطريق • قال رافع بن عميرة

الطائي : كنت يومئذ من اصحاب خالد بن الوليد (ر ض) ولم يزل مجدا في السير والله عز وجل يطوي لنا البعيد ، فلما كان عند غروب الشمس اشرفنا على القوم والروم كالجراد المنتشر قد غرق المسلمون في كثرتهم • فقال خالد يا ابن انيس في اي جانب اطلب ابن عم رسول الله (ص) فقلت له انه واعد اصحابه ان يلتقوا عند دير الراهب او موعدهم الجنة •

(قال الواقدي)فنظر خالد نحو الدير فنساهد الراية الاسلامية ، وهي بيد عبدالله بن جعفر ، وما من المسلمين الا من اصيب بجرح ، وقد ايسو من الحياة الفانية وطمعوا في الحياة السرمدية ، والروم تناوشهم بالحرب ونكثر الطعن والضرب وعبدالله بن جعفر يقول لاصحابه دونكم والمشركين واصبروا لقتال المارقين واعلموا انه قد نجلى عليكم ارحم الراحمين ، ثم قرأ الاية قوله تعالى ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ـ فلما نظر خالد (ر ض) الى صبرهم وتجلدهم على القتال اعدائهم لم يطق الصبر دون ان حمل عليهم وهز رايته ، وقال لاصحابه دونكم القوم القباح فأرووا من دمائهم السلاح ، وابشروا بالنجاح يا اهل حي على الفلاح •

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فبينما اصحاب عبد الله بن جعفر في اشد ما يكونون فيه اذ خرجت عليهم خيل المسلمين وكتائب الموحدين كأنهم الطيور وعليها الرجال كأنهم العقبان الكاسرة والليوث الضارية وهم غائصون في الحديد ، وقد ارتفع لهم الضجيج ، وبخيلهم العجيج فلما نظر عبدالله واصحابه الى ذلك ظنوا انها نجدةالاعداء فأيقنوا بالهلاك والفناء وجعلوا ينظرون الى الخيل التي رأوها هي قاصدة اليهم ففزعوا وظنوا ان كمينا من الروم قد خرج لقتالهم فعظم عليهم الامر ، وقل منهم الصبر واخذهم البهر وقد لحق بالمشركين الدمار واتاهم حرب مثل النار،والسيوف تلمع ،والرؤوس من الرجال تقطع ، والارض قد امتلات قتلى وهم في ايدى المشركين كالاسرى والقوم في اشد القتال والسيف يعمل في الرجال اذ نادى فيهم مناد وهتف بهم هاتف خذل الامن ونصر الخائف يا حملة القران جاءكم النصر من الرحمن ونصرتهم على عبدة الصلبان ، وقد بلغت القلوب الحناجر ، وعملت المرهفات البواتر ، واذا بفارس على المقدمة كأنه الاسد الزائر او الليث الهادر ويده تشرق بالأنوار كاشراف القمر فنادى الفارس باعلى صوته ابشروا يا معاشر حملة القران بالنصر المشيد أنا خالد بن الوليد فلما نظر المسلمون الرباية وسمعوا صوت خالد (ر ض) كانهم كانوا في لجه واخرجهم فاجابوه بالتهليل والتكبير ، وكانت اصواتهم كالرعد القاصف والرياح العواصف ، ثم حمل خالد بن الوليد (ر ض) بجيش الزحف الذي لا يفارقه ووضع السيف في

الروم • قال عامر بن سراقة فما شبهت حملته الا حملة الاسد في الغنم ففرقهم يمينا وشمالا • قال فنبت المسلمون ،وكل علج من الروم شديد يمانع عن نفسه وخالد يطلب ان يصل الى عبدالله بن جعفر •

ولما نظر المسلمون الى الخيل المقبلة عليها ولم يعلموا ما هي حتى سمعوا صوت خالد بن الوليد (ر ض) ، فقال : يا ايها الناس دونكم الاعداء ، فقد جاءكم النصر من رب السماء ، ثم حمل المسلمون معه • قال وائلة بن الاسقع لقد كنا ايسنا من انفسنا وايقنا بالهلاك حتى اتتنا المعونة من الله عز وجل ، فحملنا بحملة اخواننا • قال فما اختلطا لظلام حتى نظرت الى خالد بن الوليد (ر ض) والراية بيده ، وهو يسوق المشركين بين يديه سوق الغنم ، الى المراعي والمسلمون يقتلون ويأسرون فلله در ابي ذر الغفاري وضرار بن الازور والمسيب بن نجية الفزاري لقد قرنوا المواكب وهزوا المضارب وقتلوا الروم من كل جانب والتقى ضرار بعبدالله بن جعفر (ر ض) فنظر اليه والدم على اكمامدرعه كأكباد الابل فقال:شكر الله تعالى لك يا ابن عمرسول الله (ص) والله انكلقد اخذت بثأر ابيك وشفيت غليلك ، فقال عبد الله بن جعفر (رض) : من الرجل المخاطب لي ؟ وكان الظلام قد اعتكر وضرار ملثم لا يبين منه الا الحدق فلم يعرفه عبدالله • فقال انا ضرار بن الازور صاحب رسول الله (ص) ، فقال مرحبا بطلعتك وبأخ منا عدل لنا وقام لنصرتنا •

معركة ضرار

قال عبدالله بن انيس فبينما هم على ذلك اذ اقبل خالد بن الوليد (رض) وجيش الزحف • فقال شكر لك الله واحسن جزاءك ، ثم قال عبد الله يا ضرار اعلم ان حامية الروم والبطارقة عند الدير لاجل ابنه صاحب طرابلس وما معها من الاموال ، وقد احاط بها كل فارس من الروم ، فهل لك يا ابن الازور ان تحمل معي ؟ فقال وأين هم ؟ فقال اما تنظر اليهم فمد عينه ، واذا بحامية الروم وبطريق طرابلس وقد احدقوا بالدير يمنعون عن الجارية والنيران مشتعلة والصلبان تلمع كضوء النار وكانهم سد من حديد • فقال ارشدك الله للخيرات فنعم المرشد انت احمل حتى احمل معك بحملتك قال : فحمل عبدالله بن جعفر من جهته وحمل ضرار بن الازور من جهته واتبعتهما الرجال وزعقوا في الروم وحماة المشركين وهم يمانعون عن انفسهم وكان اشدهم منعة بطريقهم فبرز امام القوم وهو يهدر كالبعير ويزأر زئير الاسد يصيح بكلمة الكفر ويحمل حملات الشجعان فقصده ضرار بن الازور وباطشه في الضرب والتقت الاقران ونظر ضرار الى العلج وعظم خلقته وتمكنه في

سرجه وشدة ضربه وحسن احترازه فاخذ ضرار منه حذره ، واحترز منـــه البطريق وطلبه اشد الطلب وكل واحد منهما طامع في صاحبه ، فانفرد ضرار بن الازور مع صاحبالقوم وكل قرن مع قرنه ، وليس مع ضرار احد المسلمين فانبسط ضرار بين ايديهم ليمكر بهم وطلبه البطريق واصحابه وقصـــدوه بحملتهم ، فلما نظر ضرار الى ذلك قصد موضعا يصلح لمجال الخيل فاعترضه واحد من ظلمة الليل فكبابه الجواد فسقط الارض هاويا ثم ثار من سقطتـــه يروم اخذ الفرس فلم يجد الى ذلك سبيلا فوقف مكانه وسيفه وجحفتـــه بيده وجعل يجاهدهم بسيفه وصبر لهم صبر الكرام ولم يأخذه في الله لومـة لائم فخفق عليه بطريق الروم واقبل يضرب بعموده ، فلما لازمه ورمى العمود عليه زاغ ضرار عن الضربة ، ثم وثب اليه وثبة الاسد وضربه ضربة ازعجـت فرس البطريق من تحته وقام على رجليه وشك بيديه وضربه الثانية فوقعت ضربة ضرار في عين جواده فانتكس الجواد الى الارض ووقع العلج علـــى ظهره ولم يقدر ان يقوم لانه مزرد في سرجه ، فعالجه ضرار قبل وصـــول غلمانه اليه وضربه على حبل عانقه فنبا سيفه ولم يعمل شيئا فناهضه المعلج وقد ايكن بالهلاك وقبض عليه وكان كالجبل العظيم فرماه ضرار تحتـه وملك صدر هواستوى على نحره ، وكان مع ضرار سكين من صنعة اليمن لا تفارقه فاستلها من غمدها وضرب صر عدو الله الى سرته فسقط عدو الله قتيلا وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار •

ثم وثب ضرار وملك جواد عدو الله واستوى في سرجه ، وكان علـــى الجواد كثيرا من الذهب والفضة والفصوص التي تساوي ثمنا كثيرا ، فلمـا صار على ظهر الجواد حمل وكبر على المشركين ففرقهم يمينا وشمالا ، وكان ضرار لما انبسط امام القوم ملك عبدالله بن جعفر الدير ومن فيه ومن معه من المسلمين واحدقوا به ولم ياخذوا منه شيئا حتى رجع خالد (ر ض) من اتبـاع الروم ، وذلك ان خالدا اتبعهم الى نهر عظيم كان بينهم وبين طرابلس الشام، والروم يعرفون مخاوضه فوقف خالد ورجع الى اصحاب رسول الله (ص) فوجدهم قد ملكوا الدير وقتلوا العلج وانتشرت الناس في جمع الغنائم ومـا كان في السوق والفراش والقماش والثياب والطعام وغيره قال واثلة بـن الاسقع : فجعلنا نجمعه ونأكل الخيرات واخرجوا ما كان في الدير من انيـة الذهب والفضة والستور والمراتب واخرجوا ابنة البطريق ومعها اربعـــون جارية لهن حلي وحلل ، والمال على البراذين والبغال والحمير فانقلب اصحاب رسول الله (ص) بالغنيمة والاموال الجسيمة •

(قال الواقدي) فنسبت تلك السرية لثلاث : عبد الله بن جعفر صاحبها،

وعبدالله بن انيس مدركها ، وخالد بن الوليد منجدها ولقى خالد فيها مشقة وجراحا مؤلمة ، فلما سار واقبل خالد الى الدير فصاح بصاحبه يا راهب فلم يكلمه فهتف به مرة اخرى وهدده فاطلع عليه وقال ما تشاء وحق المسيح ليطالبنك صاحب هذه الخضراء بدماء من قتلت • فقال خالد كيف يطالبنا وقد امرنا ان نقاتلكم ونجاهدكم ووعدنا على ذلك الثواب ، ووالله لولا رسول الله (ص) نهانا ان نتعرض لكم لاتركتك في صومعتك بل كنت قتلتك اشر قتلة فسكت الراهب عنه ولم يجبه وانقلب خالد والمسلمون بالغنائم الى دمشق وابو عبيدة (رض) فيها فشكر لهم وسلم خالد وعلى عبداللهبن جعفر (ر ض) ورجع الى مكانه فخمس الغنيمة وقسمها على الناس فدفع لضرار بن الازور فرس البطريق وسرجه وما عليه من حلى الذهب والفضة والجواهر والفصوص فأتى به ضرار الى اخته السيدة خولة (ر ض) قال فرأيتها تنزع فصوص الجوهر فنفرقها على نساء المسلمين وان الفص منها ليساوي الثمن الكثير قال وعرض السبي على ابي عبيدة (ر ض) وفي الجملة ابنة البطريق ، فقال عبد الله ابن جعفر اريدها • قال ابو عبيدة : حتى استأذن امير المؤمنين في ذلك فكتب اليه يعلمه بها وبمسألة عبدالله بن جعفر فكتب عمر بن الخطاب (رض) هي له ، فأخذها عبدالله واقامت زمانا عنده وعلمها الطبخ ، وكانت من قبل تعرف طبخ الفرس والروم واقامت عنده الىايام يزيد فأخبر بها فاستداها منه فاهداها له ، وكانت عنده ، وقال عامر بن ربيعة : اصابني من غنيمة سوق الدير اثواب ديباج حرير فيها صور الروم ، وكان في كل ثوب منها صورة حسنة وهي صورة مريم وعيسى عليهما السلام فحملت الثياب الى اليمن فبيعت بثمن كثير وكتب الى عمي وأنا مع ابي عبيدة : يا ابن اخي ابعث لي من هذه الثياب واكثر منها فانها تنفق •

(قال الواقدي) فلما رجع جيش المسلمين غانما كتب ابوعبيدة بن الجراح (ر ض) الى عمر بن الخطاب (ر ض) كتابا يخبره بما فتح الله على يديه وما غنم المسلمون من دير ابي القدس ويمدح خالدا ويشكره ويثني عليه ويخبره بما قالوما تكلم بهوسأله فيكتابهانيكتب الىخالديستشيره فيالمسير الى هرقل او الى بيت المقدس وكتب اليه ايضا ان بعض المسلمين يشربون الخمر ، قال عاصم بن ذؤيب العامري ، وكان ممن شهد قتال الروم بالشام وفتح دمشق العرب الوافدين من اليمن فأخذوا في الشرب واستطابوا ذلك فانكر ذلك الامير ابو عبيدة • فقال رجل من العرب اظنه سراقة ابن عامر يا

معاشر المسلمين خلوا شرب الخمور فانها تزيل العقول وتكسب الاثـــم ، وان رسول الله (ص) لعن شارب الخمر حتى لعن حاملها والمحمولة اليه ٠

(وحدثني) اسامة بن زيد الليتي عن الزهري عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الغفاري قال : كنت مع ابي عبيدة بالشام فكتب الى عمر بن الخطاب (ر ض) يخبره بفتح الشام وفي الكتاب : ان المسلمين يشربون الخمر واستقلوا الحد فقدمت المدينة فوجدت عمر (ر ض) في مسجد رسول الله (ص) جالسا وعنده نفر في الصحابة وهم عثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف يتحدثـــون فدفعت الكتاب اليه ، فلما قرأه جعل يفكر في ذلك ثم قال ان رسول الله (ص) جلد من شربها ، ثم سأل عمر عليا (رض) في ذلك وقال ما ترى في هـــذا فقال علي (ر ض) ان السكران اذا سكر هذي ، واذا هذي افترى فكتب اليـه عمر ان من شرب الخمر فعليه ثمانون جلدة ولعمري ما يصلح لهم الا الشدة والفقر ، ولقد كان حقهم يراقبوا ربهم عز وجل ويعبدوه ويؤمنوا به ويشكروه فمن عاد فأقم عليه الحد ٠

قال الواقدي ق فلما ورد كتاب عمر (ر ض) وقراه نادى في المسلمين من من كان في نفسه حد فليعط ذلك من نفسه وليتب الى الله عز وجل ففعـــل ذلك كثير من الناس ممن كان شرب الخمر واعطى الحد من نفسه ، ثم قـــال ابو عبيدة (رض) اني عزمت على المسير الى انطاكيا وقصد قلب الروم لعل الله يفتح فتحا على ايدينا ٠ فقال المسلمون : سر حيث شئت فنحن تبع لـك نقاتل اعداءاك فسر بقولهم وقال تأهبوا للرحيل فاني سائر بكم الى حلب فاذا فتحناها توجهنا منها ان شاء الله تعالى الى انطاكيا ، فاسرع المسلمون فـــي اصلاح شأنهم واخذوا اهبتهم ، فلما فرغ ابو عبيدة (ر ض) من جميع شغلـــه امر خالد بن الوليد (ر ض) ان يأخذ راية العقاب التي عقدها ابو بكر الصديق (ر ض) وامره ان يسير امام الجيش بعسكر الزحف فسار خالد على المقدمـة ومعه ضرار بن الازور ورافع بن عمرة الطائي والمسيب بـــن نجيبة الفزاري والناس يتبع بعضهم بعضا وترك على دمشق صفوان بن عامر السلمـــــي وترك عنده خمسمائة رجل وسار ابو عبيدة بالمسلمين ومعه ناس من اليمـــن ومصر ٠

ذكـــر فتـــح حمص

قال الواقدي : وسار ابو عبيدة على طريق البقاع واللبوة ، فلما وصـــل الى هناك بعث خالد بن الوليد (ر ض) الى حمص قال : يا ابا سليمان انهـض

على بركة الله تعالى وعونه ، ونازل القوم وشن الغارة على ارض العواصم وقنسرين وأنا اسير الى بعلبك فلعل الله ان يسهل علينا فتحها ، ثم ودعه وسار خالد (رض) بمن معه الى حمص وتوجه ابو عبيدة (رض) الى بعلبك اذ ورد بطريق جوسية ومعه الهدايا والتحف وصالح المسلمين سنة كاملة وقال : ان فتحتم بعلبك فانا بين ايديكم ولانخالف لكم قولا فصالحهم ابو عبيدة (رض) على اربعة الاف درهم وخمسين ثوبا من الديباج ، فلما انبرم الصلح سار ابو عبيدة (رض) ، يطلب بعلبك فما بعد من اللبوة الا وقد اشرف عليه راكب نجيب فاذا هو اسامة بن زيد الطائي ، فقال يا اسامة من اين اقبلت ؟ فأتاح نجيبه وسلم على ابي عبيدة (ر ض) وعلى المسلمين وقال انيت من المدينة وسلم اليه كتابا من عمر بن الخطاب (رض) ففضه ابو عبيدة (رض) ، واذا فيه: لا اله الا الله محمد رسول الله ، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى امين الامة : سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) ، اما بعد فلا مرد لقضاء الله وقدره ، ومن كتب في اللوح المحفوظ كافرا فلا ايمان له ، وذلك ان جبلة بن الايهم الغساني كان قدم علينا ببني عمه وسراة قومه ، فأنزلتم واجسنت اليهم واسلموا على يدي وفرحت بذلك اذ شد الله عضد الاسلام والمسلمين بهم ، ولم اعلم ما كمن في الغيب وانا سرنا الى مكة حرسها الله تعالى وعظمها نطلب الحج ، فطاف جبلة بالبيت اسبوعا فوطىء رجل من فزارة ازاراه فسقط ازاره عن كتفه فالتفت الى الفزاري ، وقال يا ويلك كشفتني في حرم الله تعالى ، فقال والله ما تعمدتك فلطم جبلة بن الايهم الفزاري لطمة هشم بها انفه وكسر ثناياه الاربع فأقبل الفزاري الي مستعيا على جبلة ، فأمرت باحضاره وقلت له ما حملك على ان لطمت اخاك في الاسلام وكسرت ثناياه الاربع وهشمت انفه ؟ فقال جبلة : انه وطىء ازاري برجله فحله ، ووالله لولا حرمة هذا البيت لقتلته ، فقلت له اقررت على نفسك فاما ان يعفو عنك واما ان اخذ له منك القصاص ، فقال ايقتص وانا ملك وهو من السوقة ؟ قلت قد شملك واياه الاسلام فما تفضله الا بالعافية ، فقال اتتركني الى غدا او تقتص مني ؟ فقلت للفزاري اتتركه الي غد ؟ قال نعم . فلما كان الليل ركب في بني عمه وتوجه الى الشام الى كلب الطاغية ، وأرجوا ان الله تعالى يظفرك به فانزل على حمص ولا تنفذ عنها فان صالحك اهلها فصالحهم ، وان ابوا فقاتلهم وابعث عيونك الى انطاكية وكن على حذر من المتنصرة والسلام عليك ورحمة الله وعلى جميع المسلمين .

(قال الواقدي) فلما قرأ ابو عبيدة الكتاب في سره جهر به مرة اخرى ثم لوى يطلب حمص ، وكان خالد (ر ض) سبقه اليها بثلث الجيش فنــزل عليها يوم الجمعة من شوال سنة اربع عشرة من الهجرة النبوية ، وكـان عليها واليا بطريق من قبل هرقل اسمه لقيطا وكان قد مات قبل نزول خالـد والمسلمين (ر ض) عنهم اجمعين فاجتمع المشركون في كنيستهم العظمى ، وقال كبيرهم اعلموا ان صاحب الملك قد مات وليس عند الملك خبر من هؤلاء العرب وقد نزلوا علينا وما ظننا ذلك ، ولقد حسبنا انهم لا ينزلون علينا حتـى يفتحوا جوسيه وبعلبك وان انتم قاتلتوهم وكاتبتم الملك ان يسير اليكـم واليا وجيشا ، فان العرب لا تمكن احدا من جنود الملك ان يسيراليكم ولا يصل لكم ، وليس عندكم طعام يقوم بكم للحصار ، فقالوا ايها السيد فما الذي ترى ؟ قال تصالحون القوم على ما ارادوا وتقولون نحن لكم وبين ايديكم ان فتحتم حلب وقنسرين وهزمتهم جيش الملك ، فاذا توجه القوم عنا بعثنا الى الملك ان يمدنا بجيش عرمرم ويولي من اراد علينا ويستوثق لنامن الطعام والعدد ، وبعد ذلك نقاتلهم فاستصوب القوم رأيه وقالوا دبرنا بحسن رأيك وتدبيرك فبعث البطريق الى ابي عبيدة (ر ض) جاثليقا كان عندهم معظما ليعقد الصلـح بينهم وبين المسلمين فخرج الجاثليق ووصل الى ابي عبيدة (ر ض) وتكلـم في الصلح معه بما تحدث به البطريق منا مر سير المسلمين الى حلـب وقنسرين والعواصم وانطاكية فأجابهم ابو عبيدة (ر ض) الى ذلك وصالـح القوم وهم اهل حمص على عشرة الاف دينار ومائتي ثوب من الديباج وعقـد الصلح مع القوم سنة كاملة اولها ذو القعدة واخرها شوال سنة اربع عشرة من الهجرة . قال وانبرم الصلح وخرجت السوقة من حمص الى عسكـر المسلمين فباعوا واشتروا ورأى اهل حمص سماحة العرب من بيعهم وشرائهم وربحوا منهم ربحا وافيا .

ذكر حديث سرية خالد بن الوليد (ر ض)

(قال الواقدي) ان ابا عبيدة دعا بخالد وضم اليه اربعة الاف فارس من لخم وجذام وطي ونبهان وكهلان وستس وخولان وقال ياابا سليمان شن الغارة بهذه الكتيبة واقصد بها المعرة واقرب من معرة حلب وشن بها الغارة على بلدة العواصم وارجع على اثرك ونفذ عيونك وانظر ان كان للقوم نجدة او ناصـر من قومهم ام لا ؟ فاجابه خالد الى ذلك واخذ الراية و تقدم امام الكتيبة وجعـل ينشد ويقول :

اخذتها والملك العظيم وانني بحملها زعيم
لانني كبش بني مخزوم وصاحب لاحمد الكريم
اسيرمثل الاسد الغشوم يارب فارزقني قتال الروم

(قال الواقدي) وسار خالد بن الوليد الى شيزر ونزل على النهر المقلوب ، ودعابمصعب بن محارب اليشكري وضم اليه خمسمائة فارس وأمره ان يشن الغارة على العواصم وقنسرين •• وسار خالد بن الوليد الى كفر طاب والمراه والى دير سمعان وجعلت خيل المسلمين تغير يمينا وشمالا على القرى والرساتيق ويأخذون الغنائم والاسارى فرجعوا الى خالد بن الوليد بالاسارى فسار بهم الى ابي عبيدة (ر ض) ، فلما نظر الى خالد وما معه من الغنائم والاموال فرح فرحا شديدا واذا خلف خالد سواد عظيم قد ارتفعت اصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على المبشير النذير • فقال ابو عبيدة (رض) ما هؤلاء يا أبا سليمان ؟

فقال خالد : هذا مصعب بن محارب اليشكري وقد عقدت له راية على خمسمائة فارس من قومه ، ومن اهل اليمن وانه اغار بهم على العواصم وقنسرين وقد اتى بالغنائم والسبي والاموال ، فالتفت الامير ابو عبيدة فنظر الى سرح عظيم من البقر والغنم وبراذين عليها رجال ونساء وصبيان ولهم دوي عظيم وبكاء شديد فقصدهم ابو عبيدة (رض) واذا برجال مقرونين في الحبال وهم يبكون على عيالهم ونهب اموالهم ، وخراب ديارهم • فقال ابو عبيدة (رض) لترجمانه : قل لهم ما بالكم تبكون ولم لا تدخلون في دين الاسلام وتطلبون الامان والذمام لتأمنوا على انفسكم واموالكم ؟ فقال لهم الترجمان ذلك • فقالوا : ايها الامير نحن كنا بالبعد منكم وكانت اخباركم تأتينا وما ظننا انكم تبلغون الينا فما شعرنا حتى اشرف علينا اصحابكم فنهبوا اموالنا واولادنا وساقونا في الحبال كما نرى •

(قال الواقدي) وكانت الاعلاج زهاء من اربعمائة علج • فقال لهم الامير ان مننا عليكم واطلقناكم من اسركم ورددنا عليكم اموالكم واهاليكم فهل تكونون في طاعتنا وتؤدون الجزية الينا والخراج ؟ فقالوا : اوف لنا بذلك ونحن نفعل جميع ما شرطته علينا ، فعند ذلك اقبل ابو عبيدة (رض) الى المسلمين ، وقال لهم : قد رأيت من الرأي ان اؤمن هؤلاء من القتل وارد عليهم اموالهم وعيالهم فيكونوا عبيدا لنا ويعمروا الارض والبلاد ونأخذ خراجهم وجزينهم فما انتم قائلون فما كنت بالذي اقطع امرا الا بمشورتكم ، فقالوا : الرأي في ذلك ايها الامير ان رأيت صلاحا للمسلمين •

(قال الواقدي) ففرض على كل واحد اربعة دنانير وبذلك كتب الى عمر بن الخطاب (رض) ، فعند ذلك رد عليهم اموالهم واولادهم واقرهم على بلادهم وكتب اسماءهم وامرهم بالرجوع الى اوطانهم ، فلما استقروا في خيامهم اخبروا من كان بالقرب منهم بحسن سيرة العرب وما عاملوهم به من الجميل وقالوا : لقد ظننا انهم يقتلوننا ويستعبدون اولادنا والآن قد رحمونا وأقرونا في بلادنا على اداء الجزية والخراج .

(قال الواقدي) فسمعت الروم ذلك فاقبلوا الى ابي عبيدة (رض) في طلب الامان واداء الجزية والخراج .

ذكر فتح قنسرين

(قال الواقدي) وبلغ الخبر الى اهل قنسرين ان الامير ابا عبيدة يعطي الامان من قصده فأحبوا ان يأخذوا الامان من ابي عبيدة (رض) واجمعوا رأيهم على ذلك وان ينفذوا رسولا من غير علم بطريقهم .

(قال الواقدي) وكان على قنسرين والعواصم بطريق من بطارقة الملك من اهل الشدة والبأس ، وكان اهل قنسرين يخافون منه ، وكان اسمه لوقا ، وصاحب حلب عسكره مثل عسكره وسطوته مثل سطوته ، وكان الملك هرقل قد دعا بهما اليه ، فقالا له ايها الملك ما كنا نترك ملكنا من غير ان نقاتل قتالا شديدا فشكرهما الملك هرقل على ذلك ووعدهما ان يبعث اليهما جيشا عرمرميا وكانا منتظرين ذلك من وعد الملك لهما ، وكان مع كل واحد منهما عشرة آلاف فارس الا انهما لا يجتمعان في موضع واحد . قال فلما سمع صاحب قنسرين ما قد عزم عليه اهل قنسرين من الصلح مع ابي عبيدة غضب غضبا شديدا وعزم ان يمكر بهم فجمع اهل قنسرين اليه وقال لهم : يا بني الاصفر ما تريدون ان اصنع مع هؤلاء العرب وكأنكم بهم وقد اقبلوا الينا يفتحون بلادنا كما فتحوا اكثر بلاد الشام ؟ . فقالوا ايها السيد قد بلغنا انهم اصحاب وفاء وذمة وقد فتحوا اكثر البلاد بالصلح والعدل ومن قاتلهم قاتلوه واستعبدوا اهله واولاده ، ومن دخل تحت طاعتهم اقروه في بلده وكان آمنا من سطوتهم ، والرأي عندنا ان نصالح القوم ونكون آمنين على انفسهم واموالنا . فقال لهم البطريق : لقد اشرتم بالصواب والامر الذي لا يعاب ، لان هؤلاء العرب قوم منصورون على من قاتلهم ، وها أنا اعقد لكم الصلح معهم سنة كاملة الى ان توافينا جيوش الملك هرقل ونعطف عليهم وهم آمنون فنبيدهم عن آخرهم . فقالوا افعلوا ما فيه الصلاح .

(قال الواقدي) واتفق اهل فنسرين والبطريق على صلح المسلمين وفي قلوبهم الغدر • قال وان لوقا البطريق دعا برجل من اصحابه اسمه اصطخر ، وكان قسيسا عالما بدين النصرانية فصيح اللسان قوي الجنان يعرف العربية والرومية ، وقد عرف الدينين اليهودية والنصرانية . فقال لوقا : يا أبانا سر الى العرب وقل لهم يصالحونا سنة كاملة حتى نبعد القوم بالحيلة والخداع • ثم كتب الكتاب الى الامير ابي عبيدة (رض)• فقال بعد كلمة كفره: اما بعد يا معاشر العرب ان بلدنا منيع كثير العدد والرجال فما تأتونا من قبله ولو اقمتم علينا مائة سنة ما قدرتم علينا ، وان الملك هرقل قد استنجد عليكم من حد الخليج الى رومية الكبرى ونحن قد بعثنا اليكم نصالحكم سنة كاملة حتى نرى لمن تكون البلاد، ونحن نريد منكم ان تجعلوا بيننا وبينكم علامة من حد ارض قنسرين والعواصم حتى اذا همت العرب بالغارة بدت العلامة تريكم حد ارضنا، ونحن نصالحكم خفية من الملك هرقل لئلا يعلم فيقتلنا والسلام • ثم خلع على اصطخر خلعة سنية واعطاه بغلة من مراكبه وعشرة غلمان ، وسار حتى وصل الى حمص فرأى الامير ابا عبيدة (رض) يصلي بالمسلمين صلاة العصر فوقف اصطخر ينظر ما يفعلون ويعجب من ذلك ، فلما فرغوا من صلاتهم ونظروا الى القسيس وثبوا اليه ، وقالوا له من انت ؟ ومن اين اقبلت • فقال : انا رسول ومعي كتاب، فمثلوه بين يدي ابي عبيدة فهم القسيس بالسجود له فمنعه ابو عبيدة (رض) ، من ذلك ، وقال له نحن عبيد الله عز وجل فمنا شقي ومنا سعيد ــ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والارض ــ فلما سمع اصطخر ذلك بهت وبقي لا يرد جوابا ، وهو متعجب مما تكلم به الامير ابو عبيدة (رض) ، فناداه خالد بن الوليد (رض)، وقال له ما شانك ايها الرجل ورسول من انت؟ فقال اصطخر: أانت امير القوم؟ فقال خالد لا بل هذا اميرنا ، واشار الى ابي عبيدة (رض). فقال اصطخر انا رسول صاحب قنسرين والعواصم، ثم اخرج الكتاب ودفعه الى ابي عبيدة (رض) فأخذه وقرأه على المسلمين ، فلما سمع خالد بن الوليد (رض) مافي الكتاب من صفة مدينتهم وكثرة عددهم ورجالهم وتهديدهم بجيوش الملك هرقل حرك رأسه وقال لابي عبيدة : وحق من ايدنا بالنصر وجعلنا من امة محمد (ص) الطاهر ان هذا الكتاب من عند رجل لا يريد الصلح بل يريد حربنا ، ثم قال لاصطخر تريدون ان تخدعونا حتى اذا جاءت جنود صاحبكم ورأيتم القوم وقد جاءتكم نقضتم صلحنا وكنتم اول من يقاتلنا ، وان رأيتم الغلبة لنا هربتم الى طاغيتكم هرقل ، فان اردتم ذلك فنواعدكم

الحرب مواعدة من غير ان يكون صلحا سنة كاملة ، فان لحق بكم جيش هذه السنة من الملك هرقل ، فلا بد من قتاله فمن اقام في المدينة ولم يقاتل مع الجيش فهو على صلحنا لا نتعرض له · قال اصطخر : قد اجبنا كم الى ذلك فاكتبوا لنا كتابا بذلك. فقال خالد بن الوليد (رض) : ايها الامير اكتب لهم كتابا بمواعدة الحرب سنة كاملة اولها مستهل شهر ذي القعدة سنة اربع عشرة من الهجرة النبوية · قال فكتب له ابو عبيدة (رض) بذلك ، فلما فرغ من الكتاب · قال له اصطخر ايها الامير حد بلادنا معروف وبازائنا صاحب حلب وبلاده بحد بلادنا ونريد ان تجعل لنا علامة فيما بيننا وبينكم حتى اذا طلب اصحابكم الغارة لا يتجاوزون ذلك ·

(قال الواقدي) فرضني ابو عبيدة (رض) بذلك ، وقال انا ابعث من يحدد لكم ذلك ، قال اصطخر ايها الامير ما نريد معنا احدا من اصحابك نحن نصنع عمودا وننصحه ويكون عليه صورة الملك هرقل ، فاذا رآه اصحابك لا يجاوزنه · فقال ابو عبيدة (رض) افعل ذلك ، ثم دفع اليه الكتاب ونادى في عساكر المسلمين واصحاب الغارات من نظر الى عمود فلا يتعداه ولا يتجاوزه بل يشن الغارة على ارض حلب وحدها ولا يتجاوز العمود فليبلغ الشاهد الغائب ·

(قال الواقدي) ورجع اصطخر الى بطريق قنسرين واعلمه بما جرى له مع خالد بن الوليد (رض) ودفع له الكتاب ، ففرح بذلك وقصد الى عمود عظيم وصنع عليه صورة الملك هرقل كأنه جالس على كرسي مملكته ·

(قال الواقدي) وكانت خيل المسلمين تضرب غارتها الى اقصى بلاد حلب والعمق وانطاكية ويحيدون عن حد قنسرين والعواصم إلا يقربون العمود. قال عمر بن عبدالله الغبري عن سالم بن قيس عن ابيه سعد بن عبادة (رض) قال : كان صلح المسلمين لاهل قنسرين والعواصم على اربعة الاف دينار ملكية ومائة اوقية من الفضة والف ثوب من متاع حلب والف وسق من طعام ·

(قال الواقدي) حدثنا عامر • قال كنا في بعض الغارات اذ نظرنا الى العمود وعليه صورة الملك هرقل فجئنا عنده وجعلنا نجـول حوله بخيولنا ونعلمها الكر والفر ، وكان بيد أبي جندلة قناة تامة فقرب به الجواد من الصورة ، وهو غير متعمد ذلك ففقأ عين الصورة ، وكان عندها قوم مـــن الروم وهم غلمان صاحب قنسرين يحفظون العمود فرجعوا الى البطريـــق وأعلموه بذلك فغضب غضبا شديدا ودفع صليبا من الذهب الى بعـــض اصحابه وضم اليه ألف فارس من أعلاج الروم وعليهم الديباج الرومـــي وعليهم المناطق المجوفة وأمر اصطخر ان يسير معهم • وقال له ارجع الـــى امير العرب وقل له غدرتم بنا ولم توفوا بذمامكم ، ومن غدر جندل ، فأخـذ اصطخر الصليب وسار مع الف فارس من الروم حتى اشرف على ابي عبيدة (ر ض) ، فلما نظر المسلمون الى الصليب ، وهو مرفوع اسرعوا اليـــه ونكسوه فاستقبل ابو عبيدة القوم وقال من انتم ؟ قال اصطخر انـا رسول صاحب قنسرين اليك ، وهو يقول لك غدرتم ونقضتم العهد الذي بيننـــا وبينكم ، فقال بو عبيدة (رض) : وحق رسول الله (ص) ما علمت بذلك وسوف اسال عنه ، ثم نادى يا معاشر الناس من فقأ عين التمثال فليخبرنا بذلك ، فقالوا ايها الامير : ابو جندلة وسهل بن عمرو صنعا ذلك من غيـــر ان يتعمداه. فقال ابو عبيدة (رض) لاصطخر ان صاحبنا فعل ذلك من غير ان يتعمد فما الذي يرضيك منا ؟ فقالت الاعلاج لا نرضى حتى تفقأ عين ملككم يريدون بذلك ان يتطرقوا الى رقاب المسلمين • فقال ابو عبيدة (رض) ها أنا فاصنعوا بي مثل ما صنع بصورتكم • قالوا لا نرضى بذلك الا بعيـن ملككم الأكبر الذي يلي امر العرب كلها • فقال ان عين ملكنا تمنـع مـــن ذلـــك •

(قال الواقدي) وغضب المسلمون حين ذكر الاعلاج عين عمر بـــن الخطاب (رض) وهمـوا بقتل الاعلاج ، فنهاهم ابو عبيدة (رض) عن ذلك فقال المسلمون : ايها الامير نحن دون امامنا فنفديه بأنفسنا ونفقأ عيوننـــا دون عينه. فقال اصطخر عندما نظر الى المسلمين وقد هموا بقتله وقتل من معه من الاعلاج : لا نفقا عين عمر ولا عيونكم ، ولكن نصور صورة اميركم على عمود

ونصنع به مثل ما صنعتم بصورة ملكنا . فقالت المسلمون : ان صاحبنا فعل ذلك من غير تعمد وانتم تريدون العمد • فقال ابو عبيدة (ر ض) مهلا يا قوم ، فاذارضي القوم بصورتي فقد اجبتم الى ذلك ولا يتحدث القوم عنا اننا عاهدنا وغدرنا فان هؤلاء القوم لا عهد لهم ولا عقل ، ثم اجابهم الى ذلك •

(قال الواقدي) فصوروا ابي عبيدة (ر ض) على عمود وجعلوا له عينين من زجاج وافبل فارس منهم حنقا ففقأ عين الصورة ، ثم رجع اصطخر الى صاحب قنسرين واخبره بذلك. فقال لقومه بهذا نالهم ما يريدون. قال واقام ابو عبيدة على حمص يغير يمينا وشمالا ينتظر خروج السنة لينظر ما بعد ذلك •

(قال الواقدي) وأبطأ خبر أبيعبيدة على عمر بن الخطاب (ر ض)، ولم يرد عليه شيء من الكتب والفتح ، فأنكر عمر ذلك وظن به الظنون. وحسب انه قد داخله خبر وقد ركن الى القعود عن الجهاد ، فكتب اليه عمر بن الخطاب (ر ض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عمر بن الخطاب امير المؤمنين الى امين الامة ابي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك ، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) وآمرك بتقوى الله عز وجل سرا وعلانية ، وأحذركم عن معصية الله عز وجل وأحذركم وانهاكم ان تكونوا ممن قال الله في حقهم ـ قل ان كان آباؤهم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ـ الآية ، وصلى الله على خاتم النبيين وامام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين • فلما وصل الكتاب الى ابي عبيدة (رض) قرأه على المسلمين ، فعلموا ان امير المؤمنين عمر يحرضهم على القتال ، وندم ابو عبيدة (ر ض) على صلح قنسرين ولم يبق احد من المسلمين الا بكى من كتاب عمر بن الخطاب (ر ض) • وقالوا :

ايها الامير ما يقعدك عن الجهاد فدع اهل شيزروقنسرين واطلب بنا حلب وانطاكية ، فلعل الله ان يفتحهما على ايدينا وقد انقضى اجل الصلح

وما بقي الا القليل ، وما البقاء الا للملك الجليل ، فعزم ابو عبيدة على المسير الى حلب وعقد راية لسهل بن عمرو ، وعقد راية اخرى لمصعب بن محارب اليشكري ، وامر عياض بن غانم ان يسير على مقدمتهم واتبعه خالد بن الوليد وسار ابو عبيدة (ر ض) الى ان نزل على الرشين وصالح اهلها وسار الى حماة فخرج اهلها اليه ومعهم الانجيل وقد رفعه الرهبان على اكفهم والقسس امام القوم يطلبون منه الصلح والذمام ، فلما رآهم ابو عبيدة (رض) وقف ، وقال لهم : ما الذي تريدون ؟ . فقالوا : ايها الامير نريد ان نكون في صلحكم وذمامكم فأنتم احب الينا ·

(قال الواقدي) فصالحهم ابو عبيدة وكتب لهم كتاب الصلح والذمام وخلف رجالا من المؤمنين وسار حتى نزل الى شيزر فاستقبلوه فصالحهم وقال لهم : اسمعتم للطاغية هرقل خبرا ؟ فقالوا ما سمعنا له خبرا غير انه اتصل بنا الخبر ان بطريق قنسرين قد كتب الى الملك هرقل يستنجد عليكم ، وقد بعث بجبلة بن الايهم الغساني من بني غسان والعرب المنتصرة ومعه بطريق عمورية في عشرة آلاف فارس وقد نزلوا على جسر الحديد فكن منهم على حذر ايها الامير · فقال ابو عبيدة (ر ض) : حسبنا الله ونعم الوكيل ·

(قال الواقدي) واقام الامير ابو عبيدة على شيزر وبقي مرة يقول : اسير الى حلب ومرة يقول اسير الى انطاكية فجمع امراء المسلمين اليه · وقال : ايها الناس قد بلغني ان بطريق قنسرين قد نقض العهد وارسل للملك هرقل والخبر كذا وكذا فما انتم قائلون ؟ فقالوا ايها الامير دع اهل قنسرين والعواصم وسر بنا الى حلب وانطاكية · فقال خذوا اهبتكم رحمكم الله ·

(قال الواقدي) وكان بقي من الصلح والعهد الذي بينهم وبين اهل قنسرين شهر او اقل من ذلك ، فأقام ابو عبيدة (ر ض) ينتظر انفصال العهد · قال وكانت عبيد العرب يأتون بجرائيم الشجر من الزيتون والرمان وغير ذلك من الاشجار التي تطعم الثمار فعظم ذلك على الامير ابي عبيدة

(ر ض) فدعا العبيد اليه وقال ما هذا الفساد ؟ فقالوا ايها الامير ان الاحطاب متباعدة منا وهذه الاشجار قريبة · فقال الامير ابو عبيدة عزيمة مني على كل حر وعبد قطع سجرة لها طعم وثمر لاجازينه ولانكلن به ، فلما سمع العبيد ذلك النكال جعلوا يأتون بالاحطاب من اقصى الدبار · قال سعيد بن عامر وكان معى عبد نجيب وكان اسمه مهجعا وقد شهد معي الوقائع والحروب وكان جريء القسب في القتال وكان اذا خرج في غارة او في طلب حطب بتوغل ويبعد فخرج هو وجماعة من العبيد ممن شهد الوقائع في طلب الحطب ، فأبطأ خبره على سيده سعيد بن عامر ، فركب جواده وخرج في طلبه وجعل يقفو انره واذا لاح له شخص وقد سال دمه على وجهه وصبغ سائر جسده وما كاد يمشي خطوة واحدة الا ويهوي على وجهه · قال سعيد بن عامر فنزلت اليه وقلت له ما وراءك من الاخبار ؟ فقال هلكة ودمار يا مولاي فقلت عليك يا ابن الاسود حدثني بخبرك · قال سعيد فلم يكد يقف حتى سقط على وجهه ، فنضحت على وجهه ماء فسكن ما به . فقال : يا مولاي انج بنفسك والا ادركك القوم يصنعون بك مثل ما صنعوا بي ·فقلت ما القوم الذين صنعوا بك ما ارى ؟ فقال خرجت يا مولاي أنا وجماعة من الموالي لنحطتب حطبا ، فتباعدنا كثيرا في البر واذا نحن بكتيبة من الخيل زهاء عن الف فارس كلهم عرب وفي اعناقهم صلبان الذهب والفضة وهم معتقلون بالذهب والفضة والرماح ، فلما نظروا الينا اسرعوا نحونا وداروا بنا وعزموا على قتلنا . فقلت لاصحابي دونكم واياهم !

فقالوا : ويحك ومن يقاتل وليس لنا طاقة بقتال هذه الكتيبة والخيل وما لنا الا ان نلقي بأيدينا الى الاسر فهو اهون من القتال · فقلت لا والله ما سلمت نفسي اليهم دون ان اقاتل قتالا شديدا ، فلما رأوا مني الجد فعلوا مثل فعلي فقاتلنا القوم وقاتلونا فقتلوا منا عشرة وأسروا عشرة ، وأما انا فأثخنت بالجراح حتى سقطت على وجهي فرجعوا عني وبقيت كما ترى ·قال سعيد بن عامر الانصاري فغمني والله ما نزل بالعبيد فأردفته ورائي ورجعت على اثري واذا بالخيل قد طلعت من ورائي كأنها الريح الهبوب او الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب ، واذا بخيل غسان احدقت بالرماح الطوال وهم

يقولون : نحن بنو غسان من حزب الصليب والرهبان • قال سعيد بن عامر فناديتهم انا من اصحاب محمد المختار (ص) • فأسرع بعضهم الي وهم ان يعلوني بالسيف فناديته : يا ويلك اتقتل رجلا من قومك •ففال من اي الناس انت ؟ قلت انا من الخزرج الكرام ، فرد السيف وقال أنت طلبة سيدنا جبلة بن الايهم وحق المسيح ، فقلت ومن اين يعرفني جبلة حتى يطلبني ؟ فقال انه يطلب رجلا من اهل اليمن من انصار محمد بن عبد الله ، ثم قال سر بنا طائعا والا سرت كرها . قال سعيد بن عامر فسرت والجيش معي حتى اشرفنا على جيش عرمرم وعنده اعلام وصلبان قد رفعت فلم ازل مع القوم حتى اتوا بي الى مضرب جبلة بن الايهم واذا به جالس على كرسي من ذهب احمر وعليه ثياب الديباج الرومي وعلى رأسه شبكة من اللؤلؤ وفي عنقه صليب من الياقوت • فلما وقفت بين يديه رفع رأسه الي وقال : من اي عرب انت ؟ قلت أنا من اليمن ، فال اكرمت من ايها • فقلت انا من ولد حارثة بن ثعلبة بن عمرو وبن عامر بن حارثة بن تعلبة بن امرىء القيس بن عبدالله بن الازور بن عوف بن مالك بن كهلان بن سبأ . فقال جبلة من اي الملأ انت نسبا ؟ فقلت انا من ولد الخزرج بن حارثة من انصار محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام . فقال جبلة : وانا من قومك من بنى غسان ؟ فقلت انا من القبيلة التي نسبت اليها ، فقال : انا جبلة بن الايهم الذي رجعت عن الاسلام، فما رضي صاحبكم عمر بن الخطاب ان يكون مثلي لهذا الدين ناصرا حتى يأخذ مني القود لعبدحفير وانا ملك اليمن وسيد غسان • فقلت : يا جبلة ان حق الله اوجب من حقك وديننا لا يقوم الا بالحق والنصفة ، وان عمر بن الخطاب (ر ض) لا يخاف ولا تأخذه في الله لومة لائم ، فقال لي ما اسمك ؟ فقلت سعيد بن عامر الانصاري ، فقال اوطىء يا سعيد قال فجلست فقال ألك عهد بحسان بن ثابت الانصاري • فقلت شاعر رسول الله (ص) ومن قال فيه المصطفى : انت حسان ولسانك حسام • فقال لي كم لك منذ فارقته ؟ فقلت عهدي به قريب وقد دعاني الى دعوة صنعها وامر مولاته ان تنشد بها شعرا فيك فانشدت :

لله در عصابة نادمتهم

يوما بجلق في الزمان الاول

يغشون حتى ما تهر كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة انسابهم
شم الانوف من الطراز الاول

الملحقيـن فقيرهـم بغنيهم
المشفقين على اليتيم الارمل

اولاد جفنة حول قبر ابيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

ثم خرجنا الى الشام وهذا آخر عهدي به · قال جبلة بن الايهم اوحفظ لي هذه المكرمة ؟ قلت نعم ، قال فأمر لي بثوب من الكتان الرومي وفيه شيء من الورق · وقال : أنا امرت لك بالكتان كي تلبسه ولا تحرمه ، ثم قال لي بحق ذمة العرب ما كنت تصنع في المكان الذي اسرت فيه ؟ فقلت ان الصدق اوفى ما استعمله الرجل ، انا من اصحاب الامير ابي عبيدة بن الجراح وقـد قصدنا نريد حلب وانطاكية · فقال جبلة : اعلم ان الملك قد بعثني انا وهذا البطريق صاحب عمورية حتى ننصر صاحب قنسرين ، فانه قد كادكم بصلحه لكم وانا منتظر ان يلاقينا بهذا المكان ولكن ارجع الى صاحبك ابي عبيـدة وحذره من اسيافنا وقل له يرجع من حيث قدم ولا يتعرض لبلاد هرقل وسوف ينزع من ايديكم ما قد ملكتموه من الشام · قال سعيد بن عامر : فركبـت واردفت غلامي وسرت حتى اتيت عسكر المسلمين ، فأسرع الناس الي وقالوا اين كنت يا ابن عامر فأتيت خيمة الامير ابي عبيدة (ر ض) وحدثته بقصتي مع جبلة بن الايهم فقال لي لقد خلصك الله بذكرك لحسان بن ثابت الانصاري، ثم جمع اصحاب رسول الله (ص) للمشورة ، ثم قال ايها الناس ما ترون من قصة هذا البطريق وقد وفينا له وكادنا ؟ فقال خالد بن الوليد (رض) : ان البغيَ مصرعة وان كادنا كان الله من ورائه بالمرصاد وسوف نكيده اعظـم مكيدة وانا اسير الى لقائه بعشرة رجال من اصحاب رسول الله (ص) . فقال

ابو عبيدة انت لها يا ابا سليمان ولكل كريهة فخذ من احببت من اصحاب رسول الله (ص) . فقال خالد بن الوليد (ر ض) اين عياض بن غانم الاشعري ، اين عمرو بن سعيد ، اين مصعب بن محارب اليشكري ، اين ابو جندلة بن سعيد المخزومي ، اين سهل بن عمرو العامري ، اين رافع بن عميرة الطائي ، اين المسيب بن نجية الفزاري ، اين سعيد بن عامر الانصاري ، اين عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، اين عاصم بن عمر القيسي ، اين عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (ر ض) ؟ فاجابوه بالتلبية .

(قال الواقدي) وكان ضرار بن الازور (ر ض) رمد العينين لم يحضر هذه الوقعة ، فقال لهم خالد بن الوليد هلموا فوجدوه قد تدرع بدرع مسيلمة الكذاب الذي استلبه منه يوم اليمامة واشتمل بلامة حربه وركب جواده ، وقال لعبده همام : سر معي حتى ترى مني عجبا فسار معه وسار خالد بن الوليد (ر ض) والعشرة من اصحاب رسول الله (ص) وابو عبيدة يا سعيد اما اخبرك جبلة بن الايهم من اين يأتي البطريق صاحب قنسرين اليه؟ فقال نعم يا ابا سليمان اخبرني فقال له خذنا في الطريق الى جبلة بن الايهم (ر ض) يدعو لهم بالنصر . فأقبل خالد على سعيد بن عامر الانصاري وقال: حتى نكمن له فيه ، فاذا اتى البطريق صاحب قنسرين كدناه كما كادنا ودمرناه ومن معه ، فسار سعيد امام القوم يدلهم ويجد السير طالب عسكر جبلة بن الايهم ، وكان مسيرهم ليلا فلما وصلوا الى قرب النيران وسمعوا اصوات القوم عدل بهم سعيد بن عامر الى صوب طريق البطريق وكمن بمن معه من الرجال الى وقت الصباح فلم يأت احد فصلى خالد بأصحابه صلاة الفجر وهم في المكمن فبينما هم في المكمن اذ اشرف عليهم جيش جبلة بن الايهم والعرب المنتصرة وصاحب عمورية وهم طالبون ارض العواصم وقنسرين . فقال المسلمون لخالد يا ابا سليمان: أما ترى هذا الجيش الذي قد اشرف علينا في عدد الشوك والشجر ؟ فقال خالد بن الوليد (ر ض) فما يكون من

كثرتهم اذا كان النصر لنا والله معنا فاختلطوا بهم انتم وكونوا في جملتهم كأنكم من جيشهم الى ان نلتقي بالبطريق صاحب قنسرين ويفعل الله تعالى ما يشاء ويختار ، فعند ذلك اختلطوا بهم وصاروا في جملتهم وهم لايفترقون. قال رافع بن عميرة الطائي ، فلما اشرفنا على حد صلحنا ولاح لنا بلد العواصم وقنسرين اذا ببطريقها قد استقبلنا وقد رفع امامه الصليب واخرج بين يديه القسوس والرهبان وهم يقرأون الانجيل وقد ارتفعت اصواتهم بكلمة الكفر ودنا بعضهم من بعض .

وخرج البطريق امام الصحابة ليأتي الى جبلة بن الايهم يسلم عليه فاستقبله خالد بن الوليد (ر ض) مواجها له وحوله اصحاب رسول الله (ص) فلما قرب البطريق منهم . قال سلمكم المسيح وأبقاكم الصليب . فقال خالد ويا ويلك ما نحن من عباد الصليب ، بل نحن من اصحاب رسول الله (ص) محمد الحبيب وكشف خالد بن الوليد (ر ض) وجهة ونادى : لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا عبده ورسوله يا عدو الله انا خالد بن الوليد انا المخزومي صاحب رسول الله (ص) وضرب بيده البطريق وقبض عليه وانتزعه من سرجه وبرز اصحاب رسول الله (ص) وسلوا السيوف على اصحابه وارتفعت الضجة والجلبة واعلن العدو بكلمة الكفر ، وضج المسلمون بكلمة التوحيد وسمع جبلة وصاحب عمورية اصوات المسلمين ، وقد ارتفعت بالتهليل والتكبير فانزعجوا لذلك ونظروا الى السيوف وقد جردت والرماح وقد شرعت فبرزوا نحو اصحاب رسول الله (ص) واحاطوا بهم من كل جانب ومكان ، فلما نظر خالد الى ما دهمه ونزل بأصحابه الذين معه والبطريق صاحب قنسرين لا يفارقه وقد ملك قياده وهو خائف ان ينفلت من يديه او تجري عليه حادثة قبل ان يقتله هم خالد ان يقتله ورفع السيف ليعلوه به فتبسم البطريق من فعاله وعجب خالد من ضحكه ، وقال ويلك مم ضحكك ؟ فقال البطريق لانك مقتول انت ومن معك وتريد قتلي ، وان انت ابقيت علي

فهو اصوب فتركه خالد ولم يقتله ثم صاح خالد بأصحابه اصحاب رسول الله (ص) كونوا حولي واحموا عني واصبروا على ما نزل بكم ولا يكثر عليكم من احدق بكم فان اشد ما تخافون منه القتل والموت منية خالد في سبيل الله واني والله اهدبت نفسي للقتل مرارا لعلي ارزق الشهادة ؛ واعلموا رحمكم الله ان حجتنا واضحة ومفوضة الى الله عز وجل وكأني بكم ، وقد وصلتم الى ربكم وسكنتم دارا لا يموت ساكنها ، ثم قرأ ـ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ـ ٠

جبلة يحارب خالدا

(قال الواقدي) فاجتمع اصحاب رسول الله (ص) الى خالد (ر ض) وداروا من حوله وسار عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (ر ض)عن يمينه ورافع بن عميرة عن يساره وعبده همام من ورائه واصحابه محدقون به وسلم خالد البطريق صاحب قنسرين الى عبده همام وقال اوثقه الى جانبك ولا تبرح من مكانك وأبشر بالنصر من الله عز وجل ٠

(قال الواقدي) واقبلت اليهم العرب المتنصرة يقدمهم جبلة بن الايهم في عنقه صليب من الذهب الاحمر وفيه طوق من الجوهر وعليه ثياب الديباج المزركش ومن فوقه درع مذهب الزرد وعلى رأسه بيضة من الذهب وعلى أعلاها صليب من الجوهر ، وفي يده رمح طويل رسنانه يضيء كالقناديل وصاحب عمورية كالبرج المشيد ومن حوله الاعلاج المدلجة وقد احدق بهم الجيش من كل جانب ٠ فلما نظر صاحب عمورية الى خالد بن الوليد (ر ض) وقد ملك صاحب قنسرين وهو في يده اسير خاف ان يعجل عليه خالد ، فأقبل الى جبلة وقال له وحق المسيح ما هؤلاء العرب الا شياطين الا ترى الى هذا العربي ومعه وهم عشرة رجال وقد احدق بهم هذا الجيش العظيم وما يفكرون فيه وقد ملكوا صاحبنا وهو معهم اسير ولا يخلص من ايديهم واني خائف عليه ان يقتلوه وهو عزيز عند الملك هرقل فاخرج الى هذا العربي ، وقل له يخلي صاحبنا ويوصله الينا حتى نجود لهم بانفسهم ، فاذا اطلقوا صاحبنا حملنا عليهم وقتلناهم عن آخرهم ٠ قال رافع ابن عميرة الطائي فبينما نحن وقوف حول خالد بن الوليد (ر ض) وجيش الروم والعرب المتنصرة محدقون بنا ونحن لا نفكر في كثرتهم لانا واثقون بالله عز وجل واذا بجبلة بن الايهم وهو ينادي برفيع صوته ، ويقول : من انتم من اصحاب محمد المعروفين ؟ ٠٠ من انتم من العرب التابعين ؟ اخبرونا من قبل ان ينزل بكم الدمار ، فكان المكلم له خالد وبادره بالخطاب وقال له : بل نحن من اصحاب محمد المختار المعروفين بأهل القبلة والاسلام والاكرام والانعام ٠ وأما سؤالك عن انسابنا فنحن الآن من قبائل شتى وقد جعل الله كلمتنا واحدة ونحن مجتمعون عليها، وهي قول لا اله الا الله محمد رسول الله زاده

الله تعالى شرفا • فلما سمع جبلة كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا اذ لم يفكر فيه ولا فيمن معه •

فقال جبلة : يا فتى انت امير هؤلاء العرب ؟ • فقال خالد لست اميرهم بل اخوهم في الاسلام ، وهم اخواني المؤمنون • فقال جبلة : من انت من اصحاب محمد بن عبدالله (ص) ؟ فقال خالد انا المعروف بكبش بني مخزوم ، انا خالد بن الوليد صاحب رسول الله (ص) ، وهذا الرجل الذي عن يميني هو عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (ر ض) ، وهذا الذي عن شمالي من اهل اليمن من كرام طيء ، وهو رافع بن عميرة الطائي صهري وفؤادي ، وذلك اني اخذت من كل قبيلة شجاعها المعروف ، وبطلها الموصوف ، فلا نزدر بقتلنا ، ولا تفرح بكثرتهم ، فما انتم في القتال الا كطيور وقع عليها صائدها وهي كامنة في اوكارها فألقى القانص الشبكة عليها فما انفلت منها الا النجيب •

(قال الواقي) فزاد غضب جبلة من كلام خالد ، وقال له ستعلم ان كلامك عليك ميشوم اذا دارت بك الاسنة وبقيت انت ومن معك طعاما للوحوش في هذه الفلاة نمزقكم بكرة وعشيا ، فقال له خالد ذلك لا يكثر علينا وهو سهل لدينا • فأنت من العرب التي قد نسبت لعبادة الصليب ، فقال انا سيد بني غسان ومن ملوك همدان ، انا ملك غسان وتاجها ، انا جبلة بن الايهم ، فقال انت المرتد عن دين الاسلام ومن اختار الضلالة على الهدى ، وسلك سبيل الغي وضل وغوى، فقال جبلة لست كذلك انا الذي اخترت العز على الذل والهوان ، فقال خالد : فانك على ذل نفسك حريص ، وانما الكرامة غدا في دار البقاء والبعد عن دار الشقاء ، فقال جبلة يا اخا بني مخزوم لاتفرط علينا في المقال فانما بقائي عليك وعلى اصحابك بسبب هذا الاسير الذي في يدك لانني اخاف ان حملت عليكم قتلته وهو معظم عند الملك هرقل وقريب عنده في النسب فأطلقه من يدك حتى اجود عليكم بأنفسكم ، فقال خالد : اما اسيري فلا اطلقه من يدي حتى اقتله ولا ابالي بما صنع بي بعده ، واما قولك تحمل علي وعلى من معي بهذه الجموع فما انصفت في المقال ، فاذا اردت النصفة في القتال فجمعكم عظيم وعددكم كثير ، ونحن عشرة رجال وقد فارس وهذا اميركم ، فن قتلتمونا فقد خلصتم اسيركم ، وان اظفرنا الله احدقت بنا اعنت خيولكم واسنة رماحكم وطيال سيوفكم فابرزوا فارسا بكم وما النصر الا من عند الله فما يعظم عليكم هلاك اسيركم اذا هلكت انفسكم قبله •

قال الواقدي ، فعند ذلك نكس جبلة رأسه وأقبل يحدث صاحب عمورية بجواب خالد بن الوليد (رض) فغضب صاحب عمورية غضبا شديدا وانتضى سيفه فلما نظر خالد بن الوليد الى البطريق وقد جرد سيفه علم أنه يريد القتال ، فلما هم صاحب عمورية بالحملة أمسكه جبلة ومنعه عن الحملة وأوقفه تحت صليبه وأقبل جبلة على خالد بن الوليد ، وقال : يا أخا بني مخزوم ان الحرب كما ذكرت تحتمل النصفة وهؤلاء بنوا الاصفر اعلاج الروم غنم ما يعرفون النصفة في البراز وقد حدثتهم بحديثك معي وقد رضوا منك بالمبارزة فمن أراد منكم المبارزة فليبرز . قال رافع بن عميرة الطائي : فعزم خالد بن الوليد ان يبرز فمنعه عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) ، وقال يا أبا سليمان وحق القبر الذي ضم أعضاء رسول الله (ص) وحق شيبة أبي بكر الصديق (رض) لا يبرز لهؤلاء القوم غيري وأبذل المجهود فيهم فلعلي الحق بأبي بكر الصديق فتركه خالد ، وقال اخرج شكر الله مقالك وعرف لك مقالك . قال فخرج عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق (رض) ، وهو على فرس كان لعمر بن الخطاب (رض) وكان دفعه له من قسمة غنيمة وقعة أجنادين وكان الجواد من خيل بني لخم وجذام من العرب المتنصرة وكان كالطود العظيم وعبد الرحمن غارقا في الحديد والزرد النضيدوبيده قناة تامة الطول فجال عبد الرحمن بجواده بين عساكر الروم والعرب المتنصرة ودعاهم الى القتال والبراز والنزال وقال دونكم والقتال فأنا ابن الصديق ثم جعل يقول:

أنا ابن عبدالله ذي المعالي والشرف الفاضل ذي الكمال

أبي المجيد الصادق المقال أدين هذا الدين بالفعال

ثم طلب البراز . قال رافع بن عميرة : فخرج اليه خمسة فوارس من شجعان الروم فما كان يجول عبد الرحمن على الفارس الا جولة واحدة فيصرعه قتيلا فلما قتل الخمسة فوارس توقفوا عنه فهم بالحملة على عسكر الروم فخرج اليه جبلة بن الايهم وقد اشتد به الغضب ، فلما قرب من عبد الرحمن قال له يا غلام قد تعديت علينا في فعالك وبغيت علينا في قتالك ، فقال عبد الرحمن : وكيف ذلك وما البغي من شيمتنا، قال جبلة لانك قد ملأت الارض من قتلانا وما خرجت اليك اقاتلك لانك لست لي كفؤا في القتال ، وانما خرجت اليك لان رجلا من أصحابك قد خرج بعينك ، وليس هذا من شيم الاشراف والانصاف . قال فلما سمع عبد الرحمن كلام جبلة تبسم ، وقال يا ابن الايهم تريد ان تخدعني وأنا تربية الامام علي بن أبي طالب (رض) ، وقد شهدت معه الوقائع والقتال . فقال جبلة لست مخادعا وما قلت الا حقا . فقال عبد الرحمن : فأخرج بازاء من خرج معي فارسا من قومك ان كنت صادقا في مقالتك واحمل على علي فاني كفء كريم .

(قال الواقدي) فلما نظر جبلة بن الايهم الى عبد الرحمن وانه لا يؤتى من قبل الخداع والحيل . قال هل لك يا غلام ان تلقي بيدك الينا واغمسك في ماء المعمودية غمسة تخرج منها نقيا من الذنوب كما خرجت من بطن امك وتكون من حزب الصليب والانجيل

وتأكل القربان وتأخذ الجائزة العظيمة من الملك هرقل وأزوجك ابنتي وأقاسمك نعمتي واتفضل عليك باكرامي وانعامي ، وانا الذي مدحني شاعر نبيكم حيث يقول :

ان ابن جفنــة من بقيــة معشر لم تغذهم آباؤهم باللــوم باللوم
يعطي الجزيــل ولا يــراه بـأنه الا كبعــض عطيــة المذموم
لم ينسني بالشام اذ هــو بارح يومــا ولا متنصـرا بالـــروم
ان جئته يــوما تقــر بمنــزل تسقي براحته مــن الخــرطوم

فأسرع الى ما عرضته عليك لتنجو من المهالك وتكون في النعم والعيش السليم .

فقال عبد الرحمن : لا اله الا الله وحده لا شريك له يا ويلك يا ابن اللئام أتدعوني من الهدى الى الضلال ومن الايمان الى الكفر والجهالة ، وأنا ممن وقر الايمان في قلبه وعرف رشده من غيه وصدق نبي الله وأبغض من كفر بالله ، فدونك والقتال ودع عنك الخديعة والمحال وتقدم الى ما عزمت عليه حتى أضـربك ضربة اعجل بها حمامك وأرغم بها أنفك وتستريح العــرب من أن تنسب اليك لانك كافـر بالرحمــن وعابد للصلبان . قال فغضب جبلة من كلام عبد الرحمن وحمل عليه وهم به ورفــع رمحه يريد ان يطعنه فزاع عبد الرحمن من الطعنة وحمل على جبلة حملة عظيمة وتطاعنــا بالرماح حتى كل عبد الرحمن من حمل قناته فرماها من يده وانتضى سيفه وتعاركا في الحرب فهجم عبد الرحمن على جبلة وضرب رمحه فبراه فرمى جبلــة باقي الرمح من يده وانتضى سيفه من غمده وكان من سيوف كندة من بقايا كأنه صاعقــة بارقة ما ضرب به شيئا الا براه وحمل على عبد الرحمن (رض) حملة عظيمة . قــال رافع بن عميرة الطائي : فعجبنا والله من عبد الرحمن وصبره على قتال جبلة ومنازلته على صغر سنه وقلة أعوانه ، ثم التقيا بضربتين واصلتين فسبقه عبد الرحمن بالضــربة فأخذها جبلة من حجفته فقطع الدرق ونزل السيف الى البيضة فانثنــى سيف عبد الرحمن عنها لانها ذات سقاية عظيمة فجرحه جرحا واضحا اسال دمه وضربه جبلة ضربة واصلة فقطع ما كان عليه من الزرد والدروع والثياب ووصلت الضــربة الــى منكبه فجرحته ، فلما احس عبد الرحمن (رض) بالضربة قد وصلت اليه ثبت نفسه وأرى قرينه كأن الضربة لم تصل وحرك جواده واطلق عنان فرسه حتى لحق بخالــد بن الوليد (رض) وأصحابه ، فلما وصل اليهم قال له خالد قد وصل اليــك عدو الله بضربته ؟ فقال نعم ، واظهر له ضربته وما لحقه فأخذوه عــن فرسه وسدوا جراحه . فقال يا ابن الصديق ان كان جبلة قد وصل آليك بضربته فوحق بيعة أبيك لافجعنهم في اسيرهم كما فجعوني بك ثم صاح خالد بعبده همام وقال قدم هذا العلج فقدمــه بين يديه فضربه بسيفه فأطاح رأسه عن جسده ، فلما نظرت الروم الى صاحبهم وقد قتله خالد فجعهم ذلك وغضب جبلة ، وقال ابيتم الا الغدر وقتلتم صاحبنا ثــم صاح في الروم والعرب المتنصرة وهموا بالحملة ونظر خالد اليهم وقد حملوا عــلى المسلمين فقال لعبده همام قف أنت عند عبد الرحمن فامنع عنه من اراده بسوء ، ثم قــال

لاصحابه أصحاب رسول الله (ص) لا يخرج أحد منكم عن صاحبه وكونوا حولي. فما أسرع الفرج والنصر من الله عز وجل ، فوقف أصحاب رسول الله (ص) حول خالد بن الوليد (رض) كما امرهم وما قصدهم الا من آيس من نفسه وحملت الروم والعرب المتنصرة بأجمعهم وبت لهم المسلمون الاخيار وعظم بينهم القتال ودارت بهم الاهوال . قال ربيعة بن عامر : والله لقد كان خالد بن الوليد كلما كثرت الخيل حولنا وازدحمت علينا يتقيها بنفسه ويفرقها بسيفه ولم نزل كذلك حتى أخذنا العطش والظمأ . قال رافع بن عميرة الطائي : فلما رايت ذلك قلت لخالد بن الوليد يا أبا سليمان لقد نزل بنا القضاء . فقال والله لقد صدقت يا أبا عميرة لاني نسيت القلنسوة المباركة ولم أصحبها معي .

(قال الواقدي) وقد عظم عليهم الامر وعز منهم الصبر وأخذهم الانبهار ورأوا من المشركين الدمار والارض قد ملئت من قتلى المشركين وهم بين الروم كأنهم أسرى واذ قد نادى بهم مناد وهتف بهم هاتف وهو يقول : خذل الآمن ونصر الخائف أبشروا يا حملة القرآن جاءكم الفرج من الرحمن ونصرتم على عبدة الاوثان ، هذا وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر ودارت عليهم الحوافر .
(قال الواقدي) حدثنا بسرة عن اسحق بن عبدالله قال كنت مع أبي عبيدة (رض) فبينما نحن في شيرزة وابو عبيدة في مضربه واذا به قد خرج في بعض الليل من مضربه وهو ينادي النفير النفير يا معشر المسلمين لقد أحيط بفرسان الموحدين قال فأسرعنا اليه من كل جانب ومكان وقلنا له ما نزل بك ايها الامير ؟ فقال الساعة كنت نائما اذ طرقني رسول الله (ص) وجرني وقال لي معنفا : يا ابن الجراح أتنام عن نصرة القوم الكرام ، فقم والحق بخالد بن الوليد (رض) فقد أحاط به القوم اللئام وانك تلحق به ان شاء الله تعالى رب العالمين .

(قال الواقدي) رحمه الله تعالى : فلما سمع المسلمون قول أبي عبيدة (رض) تبادروا الى لبس السلاح والزرد وركبوا خيولهم وساروا يريدون خالدا ومن معه قال فبينما الامير ابو عبيدة (رض) على المقدمة في أوائل الخيل اذ نظر الى فارس يسرع به جواده وهو أمام الخيل ويكر في سيره كرا فأمر أبو عبيدة (رض) رجالا من المسلمين ان الحقوا به فلم يقدروا على ذلك لسرعة جواده قال فلما كلت الخيل عن ادراكه نظر أبو عبيدة اليه وظن انه من الملائكة قد ارسله الله أمامهم غير انه نادى به الامير ابو عبيدة على رسلك أيها الفارس المجد والبطل المكد ارفق بنفسك يرحمك الله ؛ فوقف الفارس حين سمع النداء ، فلما قرب أبو عبيدة من الفارس اذا هي أم تميم زوجة خالد بن الوليد (رض) . فقال لها أبو عبيدة ما حملت على المسير امامنا فقالت أيها الامير اني سمعتك وانت تصيح وتضج بالنداء وتقول ان خالدا احاطت به الاعداء فقلت ان خالدا ما يخذل ابدا ومعه ذؤابة المصطفى (ص) اذ حانت مني التفاتة الى

القلنسوة المباركة وقد نسيها فأخذتها واسرعت اليه كما ترى . فقال أبو عبيدة لله درك يا أم تميم سيري على بركة الله وعونه قالت أم تميم كنت في جماعة نسوة من مذحج وغيرهم من نساء العرب والخيل تطير بنا طيرا حتى اشرفنا على الغبرة والقتال ونظرنا الاسنة والصوارم تلوح في القتال كانها الكواكب وما للمسلمين حس يسمع قالت فأنكرنا ذلك وقلنا ان القوم قد وقع بهم عدوهم فعند ذلك كبر الامير أبو عبيدة (رض) وحمل وحملت المسلمون ، قال رافع بن عميرة : فبينما نحن قد أيسنا من انفسنا اذ سمعنا التهليل والتكبير فلم تكن الا ساعة حتى أحاط جيش المسلمين بعسكر الكافرين ووضعوا السيوف من كل جانب وعلت الاصوات وارتفعت الزعقات قال مصعب بن محارب اليشكري فرايت عبدة الصلبان وهم هاربون ورايت خالد بن الوليد (رض) وهو ثابت في سرجه متشوف الى الاصوات من اين هي ، واذا بفارس قد خرج من الغبار وهو يسوق فرسان الروم بين يديه ويهربون منه حتى ازاح من حولنا الكتائب والرجال فأسرع خالد بن الوليد اليه ، وقال : من انت أيها الفارس الهمام والبطل الضرغام ؟ فقالت انا زوجتك ام تميم يا أبا سليمان ، وقد أتيتك بالقلنسوة المباركة التي تنصر بها على أعدائك فخذها اليك فوالله ما نسيتها الا لهذا الامر المقدر ، ثم سلمتها اليه فلمع من ذؤابة رسول الله (ص) نور كالبرق الخاطف .

(قال الواقدي) وعيش عاش فيه رسول الله (ص) ما وضع خالد القلنسوة على راسه وحمل على الروم الا قلب أوائلهم على أواخرهم وحملت المسلمون حملة عظيمة ، فما كان غير بعيد حتى ولت الروم الادبار وركنوا الى الفرار ولم يكن في القوم الا قتيل وجريح واسير ، وكان جبلة اول من انهزم والعرب المتنصرة اثره ، فلما رجع المسلمون من اتباعهم اجتمعوا حول راية الامير ابي عبيدة (رض) واتباعه وسلموا على الامير أبي عبيدة (رض) وعن المسلمين وشكروا الله على سلامتهم ، ونظر ابو عبيدة (رض) الى خالد بن الوليد واصحابه وهم كأنهم قطعة أرجوان فصافحه وهنأه بالسلامة ، وقال لله درك يا أبا سليمان قد أشفيت الغليل وارضيت الملك الجليل . ثم قال الامير ابو عبيدة (رض) : يا معاشر الناس قد رايت أن نسير من وقتنا هذا ونغير على قنسرين والعواصم ونقتل الرجال وننهب الاموال ، فقال المسلمون : نعم ما رايت يا أمين الامة .

(قال الواقدي) فانتخب ابو عبيدة (رض) فرسانا فجعلهم في المقدمة مع عياض بن غانم الاشعري وساروا حتى أشرفوا على قنسرين والعواصم . فقال لاصحاب رسول الله (ص) شنوا الغارات فشنوا الغارات عليهم وسبوا الذراري وقتلوا الرجال ، فلما نظر اهل قنسرين الى ذلك غلقوا مدينتهم واذعنوا بالصلح واداء الجزية ، فأجابهم أبو عبيدة (رض) الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح وفرض على كل راس منهم أربعة دنانير ، وبذلك أمره عمر بن الخطاب (رض) .

(قال الواقدي) لما فتح ابو عبيدة (رض) قنسرين والعواصم . قال لاصحاب

رل الله (ص) اشيروا علي برايكم رحمكم الله ، فان الله تعالى يقول لنبيه (ص) : وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله الآية ، فهل أسير الى حلب وقلاعها وانطاكية وملوكها وعساكرها أو نرجع الى ورائنا ؟ فقالوا أيها الامير كيف نرجع الى حلب وانطاكية ، وهذه أيام انقضاء الصلح الذي بيننا وبين أهل شيزر وأرمين وحمص وجوسية ولا شك أنهم قد اخذوا الحصار وقووا بلادهم بالاطعمة والرجال ونخاف ان يتغلبوا علينا ، فيما أخذناه من البلاد ويغيروا علينا لا سيما بعلبك وحصنها ، فانهم أولو شدة وعديد، ونرى من الراي انا نرجع اليهم ونقاتلهم فلعل الله عز وجل أن يفتح على أيدينا . قال فاستصوب ورجع على طريقه فوجدوا البلاد كما قالوا ، قد تحصنت بالعدد والرجال والطعام ولم يكن لابي عبيدة قصد الا حمص فوجدها قد تحصنت بالعدد والعديد ، وقد بعث اليها الملك هرقل بطريقا من اهل بيته ، وكان من أهل الشدة والبأس ومعه جيش عرمرم ، وكان اسم البطريق هربيس ، فلما نظر أبو عبيدة الى ذلك ترك على حمص خالد بن الوليد (رض) ، وسار هو الى بعلبك ، فلما قرب منها ، واذا بقافلة عظيمة فيها جمع من الناس ومعهم البغال والدواب وعليها من انواع التجارات ، وقد اقبلت من الساحل يريدون بعلبك ، فلما نظر أبو عبيدة (رض) الى سوادها قال لمن حوله من الفرسان ما هذا الا جمع كثير أمامنا . فقالوا لا علم لنا بذلك . فقال علي بخبرهم فسارت الخيل اليهم وأخذت أخبارهم ورجع بعضهم بخبرها والقافلة من قوافل الروم محملة متاعا . قال شداد بن عدي : وكانت أحمال القافلة أغلبها سكر ، وكانت لاهل بعلبك ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك قال : ان بعلبك لنا حرب وليس بيننا وبينهم عهد فخذوا ما قد ساقه الله اليكم ، فانها غنيمة من عند الله .

(قال الواقدي) فاحتوينا على القافلة ، وكان فيها اربعمائة حمل من السكر والفستق والتين وغير ذلك وأخذنا اهلها أسارى ، فقال أبو عبيدة (رض) كفوا عن القتل واطلبوا منهم الفداء فابتعناهم انفسهم بالذهب والفضة والثياب والدواب وصنعنا من السكر العصيدة والفالوذج بالسمن والزيت ودعس المسلمون دعبنا وبتنا حيث حوتنا القافلة ، فلما أصبح الصباح أمرنا أبو عبيدة (رض) بالمسير الى بعلبك والنزول عليها ، وكان قد هرب قوم من القافلة وأخبروا أهل بعلبك بالقافلة .

(قال الواقدي) وكان على بعلبك بطريق عظيم يقال له هربيس وكان شديد البأس شجاع القلب ، فلما أتاه الخبر بقدوم عساكر المسلمين جمع رجاله وأهل الحرب وامرهم بلبس السلاح والعدد وخرج بعسكره وجعل يسير ، وهو يعلم أن الامير أبا عبيدة (رض) سائر اليهم بجيوش المسلمين ، فلما انتصف النهار وتراءى الجمعان ، وكان هربيس معه سبعة آلاف فارس سوى من اتبعه من سواد بلده ، ونظر طوالع جيش أبي عبيدة (رض) ، ونظر المسلمون الى ذلك نادوا النفير فعندها تبادرت الفرسان

وتقدمت الشجعان وشرعوا رماحهم وجردوا سيوفهم وصف هربيس رجاله وعباهم تعبية الحرب ، فقال له بعض بطارقته ما الذي تريد ان تصنع مع العرب ، فقال اقاتلهم لئلا يطمعوا فينا فينزلوا على مدينتنا ، فقالوا له : الراي عندي ان لا تقاتل العرب وارجع سالما انت ورجالك . فان اهل دمشق الشام ما قدروا عليهم ولا ردهم عساكر اجنادين ولا جيوش فلسطين ، وقد بلغك ما فيه كفاية مما جرى لهم بالامس مع صاحب قنسرين وصاحب عمورية والعرب المتنصرة ، وكيف ردهم هؤلاء العرب على اعقابهم منهزمين والصواب انك تفوز بنفسك وبمن معك وارجع .

فقال هربيس : لست افعل ذلك ولا انهزم امام العرب ، وقد بلغني ان عسكرهم الكبير على حمص مع الامير ابي عبيدة الذي كان فيها خالد بن الوليد وهذه غنيمة ساقها المسيح لنا ، فقال ذلك البطريق الناصح : اما انا فلست اتبع رايك ولا اقاتل العرب . ثم لوى عنان فرسه راجعا الى بعلبك واتبعه خلق كثير من القوم ، واما هربيس فانه صف رجاله وزحف يريد القتال ، فلما نظر أبو عبيدة (رض) ذلك وأنهم قد عولوا على الحرب صف رجاله وعساكره ، وقال أيها الناس اعلموا رحمكم الله تعالى ان الله قد وعدكم وايدكم بالنصر حتى هزم أكثر هؤلاء القوم وهذه المدينة التي انتم قاصدون اليها وسط ما فتحتموه من البلاد وأهلها قد اكثروا من الزاد والعدد والقوة فاياكم والعجب وانتصروا واغزوا أعداء الدين وانصروا الله ينصركم واعلموا أن الله معكم . ثم حمل الامير أبو عبيدة وحمل المسلمون قال عامر بن ربيعة : وعيش عاش فيه رسول الله (ص) سيد المرسلين ما كان بيننا وبينهم الا جولة الجائل حتى ولوا الادبار وطلبوا الاسوار ودخل هربيس المدينة مع أصحابه وفيه سبع جراحات فتلقاه الذي اشار عليه لا تقاتل العرب ، وقال له وأين غنائم العرب التي غنمتموها ؟ فقال هربيس قبحك المسيح اتهزأ بي ، وقد قتلت العرب رجالي ، وقد جرحت هذه الجراحات ، فقال له البطريق : الم أقل لك انك مهلك نفسك ورجالك .

(قال الواقدي) ثم ان الامير أبا عبيدة سار حتى نزل على بعلبك فنظر الى مدينة هائلة وحصن حصين والقوم قد اغلقوا الابواب ، وقد أحرزوا أموالهم ومواشيهم في جوفها واطلع المسلمون على الاموال كأنها الجراد المنتشر . قال فلما نظر الامير أبو عبيدة (رض) الى البلد وتحصينه وامتناعه وكثرة رجاله وشدة برده وذلك أنه بلد لا يزايله البرد في الشتاء والصيف . فقال الامير أبو عبيدة (رض) لخواص أصحاب رسول الله (ص) ما الراي في ذلك ؟ فاجتمع رايهم على شورى واحدة ، وهو أن يحاصروا القوم ويضيقوا عليهم ، فقال معاذ بن جبل (رض) : أصلح الله الامير اني اعلم أن الروم ازدحم بعضهم ببعض من كثرتهم واظن أن المدينة لا تسعهم ، وان طاولناهم رجونا من الله النصر وأن يفتحها الله على أيدينا ، فقال الامير يا ابن جبل من اين علمت أن القوم يتضايقون في مدينتهم ، فقال ايها الامير : اني كنت أول من أسرع بجواده

قبل واشرفت على هذه المدينة والقلعة البيضاء ورجوت ان نلحق سوابق الخيل فرايت القوم يدخلون المدينة من جميع الابواب مثل السيل المنحدر والمدينة مشحونة بأهل السواد والقرى والمواشي ودوابهم فيها ، وقد ضاقت بهم وهذه اصوات القوم في المدينة كانهم النحل من كثرتهم ، فقال ابو عبيدة صدقت يا معاذ ونصحت وايم الله ما عرفتك الا مبارك الراي سديد المشورة .

(قال الواقدي) وبات المسلمون تلك الليلة يحرس بعضهم بعضا الى الصباح . ثم كتب أبو عبيدة (رض) الى أهل بعلبك كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من أمير جيوش المسلمين بالشام وخليفة أمير المؤمنين فيهم ابو عبيدة بن الجراح الى اهل بعلبك من المخالفين والمعاندين . أما بعد فان الله سبحانه وتعالى وله الحمد اظهر الدين وأعز أولياءه المؤمنين على جنود الكافرين وفتح عليهم البلاد وأذل أهل الفساد ، وان كتابنا هذا معذرة بيننا وبينكم وتقدمة الى كبيركم وصغيركم لانا قوم لا نرى في ديننا البغي وما كنا بالذين نقاتلكم حتى نعلم ما عندكم . وان دخلتم فيما دخل فيه المدن من قبلكم من الصلح والامان صالحناكم ، وان أردتم الذمام ذممناكم وان ابيتم الا القتال استعنا عليكم بالله وحاربناكم فأسرعوا بالجواب والسلام على من اتبع الهدى . ثم كتب — انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى — وطوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وأمره أن يسير به الى أهل بعلبك ويأتيه بالجواب فاخذ المعاهد الكتاب واتى به الى السور وخاطبهم بلغتهم ، وقال اني رسول اليكم من هؤلاء العرب فدلوا حبلا فربطه في وسطه ، واخذه القوم اليهم وأتوا به الى بطريقهم هربيس فناوله الكتاب فجمع هربيس اهل الحرب والبطارقة وقرا عليهم كتاب ابي عبيدة (رض) ، وقال أشيروا علي برايكم ، فقال له بطريق من بطارقه ، وهو صاحب مشورة الرأي :

« عندي أن لا نقاتل العرب لانا ليس لنا طاقة بقتالهم ومتى صالحناهم كنا في أمن وخصب ودعة كما قد صار اهل اركه وتدمر وحوران وبصرى ودمشق ، وان نحن قاتلناهم واخذونا في الحرب قتلوا رجالنا واستعبدونا وسبوا حريمنا والصلح خير من الحرب ، فقال هربيس : لا رحمك المسيح فما رايت أجبن منك ولا أقل جلدا يا ويلك كيف تأمرنا ان نسلم مدينتنا الى أوباش العرب ، ولا سيما وقد عرفت حربهم وقتالهم واختبرت نزالهم واني في هذه النوبة لو حملت في ميسرتهم كنت هزمتهم ، فقال له البطريق نعم كانت الميسرة والقلب يخافون منك . ثم تخاصما وتشاتما وافترق اهل بعلبك فرقتين فرقة يطلبون الصلح وفرقة يطلبون القتال ورمى هربيس الكتاب الى المعاهد بعد ان مزقه وأمر غلمانه أن يدلوه الى ظاهر المدينة ففعلوا ذلك ووصل المعاهد الى عسكر المسلمين واتى أبا عبيدة (رض) وحدثه بما كان من القوم ، وقال ايها الامير ان اكثر القوم عولوا على القتال ، فقال أبو عبيدة (رض) للمسلمين شدوا

عليهم ، واعلموا أن هذه المدينة في وسط أعمالكم وبلادكم . فان بقيت كانت وبالا على من صالحتم ولا تقدرون على سفر ولا على غيره ، قال فلبس أصحاب رسول الله (ص) السلاح والعدد ورجعوا الى الاسوار وعطف اهل بعلبك عليهم وتراموا بالسهام والاحجار ، وان هربيس قد نصب كرسيه وسريره على برج من ابراج القلعة من ناحية النملة ، وقد عصب جراحته ولبس سلاحه ولامته ولبس على راسه صليبا من الجواهر وحوله البطارقة والديرجانية بالدروع المذهبة والعدد الكاملة وفي اعناقهم صلبان الذهب والجوهر وبأيديهم القسى والسهام . قال عامر بن وهب اليشكري شهدت حرب بعلبك ، وقد زحفت المسلمون الى سورها . قال ونشاب الروم كالجراد المنتشر ، وكان اناس من العرب بلا سلاح فأصابهم سهام القوم . قال ورايت القوم يتساقطون علينا من السور تساقط الطير على الحب فذهبت الى رجل سقط لاضرب عنقه فصاح الفوث الفوث وكنا قد عرفنا من الحرب ان من قال : الفوث يعني الامان ، فقلت له يا ويلك لك الامان فما الذي القاك الينا من سوركم ؟ فجعل يكلمني بالرومية ، وانا لا ادري ما يقول . قال عامر ابن وهب اليشكري فسحبته الى خيمة ابي عبيدة ، وقلت له ايها الامير : اطلب من يعرف لغة هذا العلج فاني رايتهم يرمي بعضهم بعضا ، فقال ابو عبيدة (رض) لمن حضر من المترجمة اخبرنا بخبر هذا العلج وما قضيته ، ولم يرمي بعضهم بعضا ؟ فقال له الترجمان يا ويلك قد اعطيناك الامان فاصدقنا في الكلام وقل لنا لم يرمي بعضكم بعضا ؟ قال ان بعضنا لا يرمي بعضا ولكنا من اهل والقرى ، فلما سمعنا بمسيركم ورجوعكم عن أهل قنسرين التجانا الى هذه المدينة من جميع الرساتيق لنتحصن فيها لما نعلم من كثرة ما بها من الجيش فضيق بعضنا على بعض وسددنا طرقات المدينة ومضى بعضنا الى السور ، فاذا ليس لنا موضع نأوي اليه ولا مسكن نسكن فيه فجعلنا الابراج والاسوار مسكنا لنا . فلما زحفتم الى القتال برز اليكم أهل الحرب والنزال من هذه المدينة فجعلوا يدوسوننا بأرجلهم ، واذا اشتد الحرب عليهم والقتال يدفع الرجل منهم الرجل منا فيلقيه اليكم .

(قال الواقدي) فلما سمع الامير أبو عبيدة (رض) ذلك فرح فرحا شديدا وقال ارجو من الله ان يجعلهم غنيمة لنا . قال واخذت الحرب مأخذها وطحنت رجالها وعلا الضجيج وحمى الروم أسوارهم فلم يقدر أحد من المسلمين ان يصل اليها من كثرة السهام والحجارة . قال غياث بن عدي الطائي : حاربنا اهل بعلبك في أول يوم فأصيب من المسلمين اثنا عشر رجلا ، وأصيب من الروم على السور خلق كثير من أهل الحرب وغيرهم ، وانصرف المسلمون الى رحالهم وما لهم همة الى الطعام ولا الشراب ولا يريد أحد منا الا الاصطلاء بالنار من شدة البرد . قال فبينما نحن ليلتنا نوقد النار ونتناوب في الحرس الى الصباح ، فلما صلينا الفجر نادى مناد من قبل ابي عبيدة (رض) يقول : عزيمة مني على كل رجل من المسلمين لا يبرز الى حرب

هؤلاء القوم حتى ينفذ الى رحله ويصلح له طعاما حارا يأكله ليكون بذلك شديدا على لقاء العدو . قال فابتدرنا لاصلاح أمورنا ، فلما نظر أهل بعلبك الى تأخرنا عن حربهم وقتالهم طمعوا فينا وظنوا أن ذلك فشل منا وعجز ، فصاح هربيس في الروم وقال اخرجوا لهم بارك المسيح فيكم . قال غياث بن عدي : فلم يشعر المسلمون الا والابواب قد فتحت والخيل والرجال قد طلعت الينا كالجراد المنتشر . قال وكان بعضنا قد مد يده الى الطعام وبعضنا ينضج له القرص واذا بمناد ينادي يا خيل الله اركبي وللجهاد تأهبي ، فدونكم والقوم قبل أن يدهموكم . قال حمدان بن أسيد الحضرمي وكان لي قرص خبزته وقدمت شيئا من الزيت لاجعله ادامي للقرص واذا بالمنادي ينادي النفير النفير ، قال فوالله ما راعني ذلك حتى اخذت قطعة وغمستها في الزيت وهويت بها الى فمي ، سمعت النفير فقمت مسرعا وركبت جوادي عريانا من دهشتي لسرعة الاجابة وضربت بيدي على عمود من اعمدة الخيام وحملت على القوم ، فوالله ما شعرت بما صنعت ولا عقلت على نفسي حتى صرت في الروم فجعلت احطمهم حطما واهبرهم بالسيف هبرا . قال فنظرت الى خيل الروم متفرقة والأمير ابو عبيدة قد نصب رايته والناس يهرعون اليها ، وان ابا عبيدة (رض) ينادي برفيع صوته اليوم يوم له ما بعده . قال ونظر ابو عبيدة الى شدة ضرب الروم وصبرهم على قتال المسلمين ، فحمل عليهم بالخيل العربية واحاط بالروم من كل جانب ومكان وكان في جملة خيله عمرو بن معد يكرب الزبيدي وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وربيعة بن عامر ومالك بن الاشتر وضرار بن الازور (رض) وذو الكلاع الحميري فلله درهم فلقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ، فلما نظرت الروم الى فعلهم رجعوا الى أعقابهم طالبين الاسوار وغلقوا الابواب ، ورجع المسلمون الى عسكرهم واضرموا نيرانهم ودفنوا من استشهد منهم واقبلت رؤساء المسلمين الى الامير أبي عبيدة (رض) وقالوا : أيها الامير ما الذي قد عزمت عليه وما عندك من الراي يرحمك الله ؟ فقال ابو عبيدة (رض) : اعلموا أن من الراي ان نتأخر عن المدينة مقدار شوط فرسخ ليكون ذلك مجالا لخيلكم ومنعة لحريمكم والنصر من عند الله تعالى ..

ثم دعا أبو عبيدة (رض) بسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وعقد له راية وامره على خمسمائة فارس وثلثمائة راجل وأمرهم ان يهبطوا الى الوادي وان يقاتلوا القوم على الابواب وأن يشغلوهم عن المسلمين ، ثم دعا ضرار بن الازور وعقد له راية وامره على خمسمائة فارس ومائة راجل سرحه الى باب الشام ، وقال : يا بن الازور اظهر شجاعتك على بني الاصفر فقاتل من هناك من الروم ، فقال حبا وكرامة . قال ومضت كل فرقة الى جهة من الجهات ، فلما أصبح الصباح فتحت الروم الابواب وخرجوا في خلق كثير الى ان تكاملوا حول بطريقهم هربيس . فقال لهم البطريق : اعلموا يا

معاشر النصرانية أن اهل هذا الدين من قبلكم قد فشلوا عن قتال هؤلاء العرب وعجزوا عن قتالهم ونزالهم . فقالوا ايها السيد طب نفسا وقر عينا فانا كنا نخاف من العرب قبل أن نختبرهم ونعلم قتالهم ، وقد علمنا انهم اذا لاقوا حربنا لم يكونوا اصبر منا على الحرب ، لان أحدهم يلقي الحرب وعليه ثوب خلق خام أو فروة خلقة ، ونحن علينا الدروع والزرد وقد وهبنا انفسنا للمسيح .

(قال الواقدي) فلما نظر ابو عبيدة الى كثرتهم نادى برفيع صوته : يا معاشر المسلمين لا تفشلوا فتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين . قال وان الروم داخلهم الخوف لما كانوا قد نالوه من غرة المسلمين بالامس فحملوا حملة عظيمة . قال سهل بن صباح العبسي شهدت قتال اهل بعلبك ، وقد خرج الينا اهلها في اليوم الثاني وهم اطمع مما كانوا في اليوم الاول وقد حملوا علينا حملة عظيمة شديدة منكرة وكنت في ذاك اليوم اصابني جرح في عضدي الايمن وما اطيق ان احرك يدي ولا أحمل سيفا فترجلت عن جوادي وجريت بين اصحابي وقلت في نفسي اذا قصدني احد من هؤلاء الاعلاج لم يكن لي غنى أدفع عن نفسي فطلعت الى ذروة الجبل فعلوته واشرفت على العسكرين وجعلت انظر الى حربهم وقتالهم وقد طمعت الروم في العرب والمسلمون ينادون بالنصر ، وابو عبيدة يدعو لهم بالنصر والتحمت القبائل وافتخرت العشائر قال سهل بن صباح : وانا على الجبل من وراء حجر انظر الى ضرب السيوف على البيض والحجف والشرر يطير من شعاعها وقد التقى الفريقان واختلط الجمعان فقلت في نفسي ويحي وما عسى أن ينفع المسلمين مقام سعيد بن زيد وضرار بن الازور على الابواب والامير ابو عبيدة في مثل هذا الحرب وانهم والله على وجل ان ينكشفوا من عظم شدتهم وحربهم وهول ما يلقونه قال فاسرعت الى جرائيم الشجر فجعلت اكسرها وأعبي الحطب بعضه على بعض وعمدت الى زناد كان معي فأوقدت النار واضرمتها فيه وعبيت عليه حطبا اخضر ويابسا حتى علا منه دخان عظيم وكانت علامتنا اذا أردنا أن يجتمع بعضنا الى بعض بأرض الشام في الليل وقود النار واثارة الدخان قال فما هو الا أن علا الدخان وتصاعد الى الافق حتى نظر اليه سعيد بن زيد وأصحابه وضرار بن الازور واصحابه فنادى بعضهم بعضا الحقوا الامير ابا عبيدة رحمكم الله فان هذا الدخان ما هو الا من شيء عظيم ، والصواب ان تكون بخيلنا في موضع واحد فأسرعوا بخيلهم وساروا حتى اشرفوا على المسلمين وهم في شدة الحرب وأعظم الكرب وقد بلغت القلوب الحناجر وعملت السيوف البواتر واذا بمناد هتف بهم : يا حملة القرآن جاءكم النصر من الرحمن ونصرتم على عبدة الصلبان ، واذا قد اشرف عليهم سعيد بن زيد وضرار بن الازور في أوائل خيلهم وقد شرعا سنانهما وحملا في الروم وقد أيقن الروم انهم الغالبون اذ ظهرت عليهم رايات المسلمين وكتائب الموحدين فالتفتوا ينظرون ما الخبر ، واذا بالمسلمين من ورائهم وقد حالوا بينهم وبين

بمدينتهم فنادوا بالويل والخراب وظنوا انه قد اتى للمسلمين نجدة ومدد وقد غرر بهم البطريق ، فلما نظر البطريق الى تبلدهم زعق فيهم وقال يا ويلكم لا ترجعوا الى المدينة قد حيل بينكم وبينها وهذه مكيدة من مكايد العرب ، فلما سمعت الروم ذلك احاطوا ببطريقهم كالحلقة المستديرة يحمي بعضهم بعضا فعدل بهم البطريق نحو الجبل ذات الشمال ، وكان سعيد بن زيد وضرار بن الازور قد اقبلا بجيشهما عن يمين الحصن وشماله فحملوا عليهم واتبعوا آثارهم حتى طلعوا الى الجبل والتجأت الروم الى ضيعة في الجبل حصينة خالية من اهلها فاستند الروم اليها وتحصنوا فيها وتبعهم سعيد بن زيد في الخمسمائة فارس الذين كانوا معه وذلك ان الامير ابا عبيدة (رض) لما نظر الى هزيمة الروم نادى في المسلمين معاشر الناس لا يتبعهم احد ولا يفترق جمعكم لاني اخشى ان تكون هزيمة القوم مكيدة لكم حتى اذا تفرق جمعكم زحفوا عليكم ، قال وان سعيد بن زيد لم يكن يسمع النداء ، ولو سمع النداء ما تبع القوم .

(قال الواقدي) لما تحصنت الروم في الضيعة قال سعيد بن زيد : هذه طائفة قد اراد الله هلاكها فدوروا بهم وحاصروا في كل مكان ولا تدعوا احدا يطلع راسه الى ان تلحق بكم المسلمون ويأتي اليكم امر من الامير ابي عبيدة ثم اقبل الى رجل من عظماء المسلمين وقال له اخلفني في قومي حتى انظر راى الامير ابي عبيدة ومن معه ثم اخذ معه زهاء من عشرين فارسا من أصحابه وسار حتى لحق بجيش المسلمين فلما نظر اليه الامير ابو عبيدة ومن معه قال يا سعيد اين رجالك وما صنعت بهم ؟ قال ابشر ايها الامير فان المسلمين في خير وسلامة وقد حاصروا اعداء الله في ضيعة في هذا الجبل ثم اخبره بالقصة من أولها الى آخرها . فقال ابو عبيدة : الحمد لله الذي هزمهم عن اوطانهم وجعلهم اشتاتا ، ثم أقبل ابو عبيدة على سعيد بن زيد وعلى ضرار بن الازور وقال لهما ما هذه المخالفة رحمكم الله الم آمركم بالاقامة على ابواب المدينة والمشاغلة للقوم فما الذي ردكم الي وقد ارعبتم قلبي وقلب من كان معي وظننت ان اهل المدينة كادوكم وهو الذي منعنا أن نتبع المنهزمين . فقال سعيد بن زيد ايها الامير والله ما عصيت لك امرا ولا خالفتك في قول واني قد وقفت حيث أمرتني اذ رأينا دخانا قد علا قتامه ولاح لنا بيانه فقلنا والله ما هذه الا داهية من دواهي الروم او نفير قد استدعانا به المسلمون فأسرعنا نحوك فعندها نادى الامير أبو عبيدة في المسلمين معاشر الناس : ايكم اوقد نارا أو دخن دخانا في هذا الجبل فليجب الامير ابا عبيدة ؟ قال سهل بن صباح فلما سمعت النداء اجبت المنادي واتيت الامير ابا عبيدة . فقال ما الذي جراك على ذلك فقصصت عليه قصتي . فقال أبو عبيدة لقد وفقك الله تعالى الى الجنة فاياك بعدها أن تحدث حديثا من غير اذن اميرك .

(قال الواقدي) فبينما الامير كذلك يحدث سهل بن صباح واذا برجل من

المسلمين منحدر من الجبل وهو ينادي النفير النفير يا أمة البشير النذير ادركوا اخوانكم المسلمين فقد أحاط بهمَ الروم وهم في أشد ما يكون من القتال وانه قد دنا البطريق من المسلمين ونادى بأصحابه ورجاله وقال يا عباد المسيح اليكم هذه الشرذمة اليسيرة والعصابة الحقيرة التي قد أحاطت بكم فاقتلوهم وادخلوا المدينة فانكم ان قتلتم القوم كسرتم بذلك حدة العرب وانصرفوا عنكم . قال مصعب بن عدي : وكنت في بعلبك من أصحاب سعيد بن زيد ، وقد جعلنا محاصرين البطريق والروم في الضيعة ونحن دون الخمسمائة رجل فما شعرنا الا والبطريق والروم قد تبادروا الينا من كل مكان فنادى بعضنا بعضا واجتمعنا قال والله لقد كبوا علينا الخيل واحاطوا بنا بعد ما كنا احطنا بهم وكان شعارنا في ذلك اليوم الصبر الصبر قال فبينما نحن كذلك في أشد الحرب وأعظم الكرب اذ سمعنا صوتا عاليا قد ملأ الجبل ومناديا ينادي ويقول : اما من رجل يهب نفسه في الله ويشنعر المسلمين فانهم بالقرب منا ولا يعلمون ما نزل بنا . قال مصعب بن عدي : فلما سمعت الصوت همزت جوادي بكعبي ؛ وكان جواد عتيقا يسبق الريح الهبوب او الماء اذ انسكب من ضيق الانبوب وكأنه الطود العظيم ، والله لقد خرج من تحتي كأنه البرق ولم تلحق منه الروم الا الغبار بعد ما قتلت منهم رجلين ، ولقد نظرت الى فرسي ، وهو يشب الصخرة ويسلك الوعرة حتى اشرفت على عساكر المسلمين فناديت النفير النفير يا أمة البشير النذير .

فلما سمع ابو عبيدة ذلك صاح بالرماة . فأجابه خمسمائة رام من أصحاب القسي العربية فضمهم الى سعيد بن زيد ، وقال له أسرع يرحمك الله والحق بأصحابك قبل ان يأتي العدو اليهم . ثم نادى بضرار بن الازور وأصحابه ، وقال له ادرك اخاك سعيد بن زيد . قال فسار المسلمون مثل الجراد المنتشر حتى علوا على قلة الجبل وأشرفوا على الروم وهم محدقون بأصحاب رسول الله (ص) ، وقال ابو زيد بن ورقة بن عامر الزبيدي، وكنت ممن شهد القتال على الضيعة مع أصحاب سعيد بن زيد ؛ وقد أحاطت بنا الروم ، وقد صبرنا لهم صبر الكرام ، وقد صرع منا سبعون رجلا ما بين جريح وقتيل ، ونحن في اشدَ ما يكون من القتال والجراح ، وقد طمعت الروم فينا حتى سمعنا التهليل والتكبير ولحقنا النفير ، فلما اشرفت علينا راية المسلمين رجعت الروم على أعقابهم مدبرين الى الضيعة راجعين ولحقنا من تأخر منهم وكثر فيهم القتل والجراح لكثرتهم وتحصن القوم في الضيعة فأحطنا بهم من كل جانب وما تركنا منهم أحدا يخرج رأسه من كثرة النبل وورد الخبر لى الامير أبي عبيدة (رض) بمن استشهد من المسلمين ومن قتل من الكافرين ، وأن القوم قد لزمهم الحصار ، وأن لا زاد عندهم ولا ماء ، فقال ابو عبيدة الحمد لله . ثم قال للمسلمين معاشر الناس ارجعوا الى أموالكم واضربوا خيامكم حول المدينة ، فان الله عز وجل كاد عدوكم ، وهو منجز لنا ما وعدنا من نصره . قال فعندها رجع المسلمون الى أموالهم ومواضعهم

التي كانوا فيها اول مرة وضربوا خيامهم وانفذوا طوالعهم وارسلوا الى المرعى خيولهم وابلهم وسرحوا الى الحطب عبيدهم واضرموا النيران في عسكرهم وذهب منهم الخوف واتاهم الامان ، وان اهل بعلبك افترقوا على السور وجعلوا يضربون على وجوههم ويصيحون بلغتهم ، فقال الامير ابو عبيدة لبعض التراجمة : ما يقول هؤلاء ؟ فقال له الترجمان : ايها الامير انهم يقولون يا ويلهم ويا عظم ما اصابهم ويا خراب ديارهم ويا فناء رجالهم حتى ظفرت العرب ببلادهم .

(قال الواقدي) فلما دنا المساء ارسل الامير ابو عبيدة الى سعيد بن زيد يقول له : يا بن زيد الحذر الحذر على من معك من المسلمين واجتهد رحمك الله ان لا يفوتك من الروم احد ولا تفسح لهم قدما واحدا فيخرج منهم واحدا ... فيتبع اولهم آخرهم ، فتكون كمن حصل في يده شيء فاضاعه ، فلما وصل الرسول الى سعيد بن زيد بهذه الرسالة ، امر المسلمين ان يحيطوا بالضيعة من كل جانب ، وان لا يخرجوا الى الحطب الا مائة بالسلاح ففعلوا ذلك واضرموا نيرانهم وباتوا طول ليلتهم يهللون ويكبرون وبالضيعة يطوفون ، فلما نظر البطريق هربيس الى ذلك اقبل على اصحابه ورجاله وقال لهم : يا ويلكم لقد ايسنا من التدبير واخطانا الراي وما لنا مدد ولا نجدة ولا نصير ولو اجتهدنا لما اجتهدت العرب على ان يحبسونا في هذه الضيعة ، والآن قد حبسنا انفسنا في حبس ليس فيه طعام ولا شراب ، وان دام علينا هذا يوما ثانيا او ثالثا ضعف قوينا ومات ضعيفنا وبطلت حيلتنا وسلمنا انفسنا كارهين فنقتل عن آخرنا ، فقالت البطارقة فما الذي ترى ايها السيد ؟ فقال قد رايت من الراي أن اخدع العرب واحتال عليهم واسالهم الصلح لنا ولاهل مدينتنا كما قد طلبوا واضمن أن افتح لهم المدينة ، ونكون في ذمامهم فاذا دخلنا المدينة حاربناهم على سورنا ولعلنا نرسل الى صاحب عين الجوز والى صاحب جوسية فلعلهما يقدمان الى نصرتنا فيكونان لقتال العرب من خارج المدينة ونحن من اعلى الاسوار ؛ ويكفينا المسيح هذه النوبة .

فقالت البطارقة : اعلم ايها السيد ان صاحب جوسية لا يجيبك الى نجدة ابدا لانه مشتغل بنفسه وربما يكون محاصرا مثل حصارنا هذا ، فلقد بلغنا قبل نزول هؤلاء العرب علينا انهم صالحوهم وليس لهم من القدرة والقوة ان يقاتلوا العرب ، واما اصحاب عين الجوز فانهم في تجارتهم متفرقون في اقصى الشام وما اظن الا انهم في صلح العرب ، فانظر لنفسك ورعيتك ما فيه الصلاح ، فلما سمع البطريق هربيس قولهم اجابهم الى ذلك ، فلما اصبح الصباح طلع البطريق على جدار الضيعة ونادى برفيع صوته : يا معاشر العرب اما فيكم رجل يعرف كلامي انا هربيس البطريق ، فلما سمعه بعض التراجمة اقبل على سعيد بن زيد وقال له : يا مولاي ان هذا العلج هو هربيس صاحب القوم وهو يستدعي كلامك ، فقال له سعيد بن زيد ادن منه

وانظر ماذا يريد وما يقول ؟ قال فدنا الترجمان منه ، فقال له ما الذي تريد ؟ قال أريد أن يؤمنني اميركم هذا في ذمامه وذمام أصحابه ويدنو مني حتى أخاطبه بما يعود صلاحه على الفريقين ، فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال سعيد بن زيد : لا كرامة له حتى أدنو منه وامشي اليه حتى يخاطبني فان كان له حاجة فليأت الي خاضعا ذليلا صاغرا حتى اسمع كلامه واعلم مراده . قال فأعلم الترجمان هربيس بكلام سعيد بن زيد ، فقال هربيس فكيف أنزل اليه وانا محارب له فأنا اخاف ان يقتلني ، فقال له الترجمان انا آخذ لك منه الذمام فان العرب لا تخون اذا أمنت ، فقال البطريق نعم قد تناهت الينا اخبارهم ولكني أريد أن استوثق لنفسي ولاصحابي واهل بلدي لانهم قوم قد لحقهم الحقد علينا وقد اصبنا منهم دما كثيرا واني اريد ان ارسل له شخصا يأخذ لي منه أمانا ، فقال الترجمان انا اعرفه ذلك ، ثم اقبل الترجمان على سعيد بن زيد وقال له : ان البطريق هربيس يريد أن يوجه اليك رجلا من أصحابه يأخذ له منك امانا ، فقال سعيد بن زيد دعه يوجه من يريد وأعلمه أن رسوله منا في أمان حتى يرجع اليه ، قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل البطريق على رجل من عظماء أصحابه ، وقال له ترى ما قد نزل بنا وكيف قد ملك العرب علينا الطريق وان بلاد الشام قد أذن المسيح بخرابها وقد نصرت العرب علينا وانا في شدة شديدة وان لم نأخذ من القوم الامان والا هلكنا وهلكت خيلنا ، وبعد ذلك يتحكمون في أولادنا وحريمنا ويقتسمون أموالنا وذرارينا وليس لنا نجدة لان كل بلدة مشتغل بنفسه عن نصرتنا فانزل الى هؤلاء العرب وخذ لنا منهم أمانا واستوثق لنا منهم ، حتى أنزل انا اليهم فلعلنا نجري بينهم صلحا ولعلي أمكر بهم حتى نرجع الى المدينة ، ولعلي أرغب صاحبهم في شيء من المال فلعله يرغب وينصرف عنا الى أن نرى ما يكون بينهم وبين الملك هرقل .

(قال الواقدي) فنزل الرجل ووقف أمام الامير سعيد بن زيد وهم الرجل ان يسجد له فمنعه من ذلك وتبادرت اليه المسلمون فامسكوه ففزع الرجل وقال لم تمنعوني أن اعظم صاحبكم ؟ فقال الترجمان ذلك لسعيد بن زيد ، فقال انما انا وهو عبدان الله تعالى ولا يجوز السجود والتعظيم الا للهالملك المعبود القديم ، فقال الرجل بهذا نصرتم علينا وعلى غيرنا من الامم فقال سعيد بن زيد فما الذي جاء بك ؟ قال جئت لآخذ منك امانا لبطريقنا أن لا تنقض لنا عهدا فقال سعيد بن زيد ليس من اخلاق الامراء ، ومن يقود الجيوش ان يغدر بعد الامان ، ولسنا بحمد الله ممن ينقض عهدا ، وقد أعطيت صاحبك أمانا ولمن معه ممن القى السلاح وخرج يطلب الامان مستسلما ، فقال الرجل نريد منك الامان ومن اميرك وممن معك ، فقال سعيد لكم ذلك ، فعند ذلك رجع الرجل الى البطريق وأعلمه بجواب سعيد . وقال له اخرج واياكم والغدر فانه يهلك صاحبه ، وان هؤلاء العرب لا يخونون أمانهم وعهدهم .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان البطريق هربيس خلع ما كان عليه من الثياب والديباج والقى السلاح ولبس ثياب الصوف وخرج حافيا حاسرا ذليلا ومعه رجال من قومه حتى وقف بين يدي سعيد بن زيد فخر سعيد لله ساجدا وقال الحمد لله الذي ازال عنا الجبابرة وملكنا بطارقتهم وملوكهم ثم اقبل عليه وقال له : ادن مني فدنا الى ان جلس الى جانبه وقال له : اهذا لباسك دائما أم غيرته ، فقال لا وحق المسيح والقربان ما لبست الصوف أبدا غير الحرير والديباج وما لبست هذا الا في وقتي هذا فاني ما أريد حربكم ولا قتالكم ثم قال لسعيد هل لك أن تصالحني على اصحابي هؤلاء وعلى أهل المدينة ومن فيها ؟ فقال سعيد أما اصحابك هؤلاء فاني اوفيهم على شرط أن من دخل في ديننا فله ما لنا ، ومن اختار الاقامة على دينه والقى السلاح كان آمنا من القتل وعليه العهد انه لا يحمل علينا سلاحا ولا يكون لنا حربا ابدا ، واما المدينة فالامير ابو عبيدة عليها وقد فتحها ان شاء الله تعالى ، ثم قال ان احببت أن تسير معي الى أبي عبيدة حتى يسمع كلامك وتصالح عن قومك فسر وأنت في ذمامي فان اتفق بينكما الامر ، والاردتك الى موضعك هذا ومن اراد الرجوع معك من رجالك الى أن يحكم الله وهو خير الحاكمين . فقال البطريق انا افعل ذلك فعندها دعا سعيد بن زيد سعد بن أبي وقاص بن عوف العدوى ، وقال يا ابن أبي وقاص كن بشيرا للامير أبي عبيدة بما سمعت واسرع بالجواب . قال فأسرع ابن أبي وقاص بن عوف وركب جواده وكان حصانا شديد العدو وجعل يسير سيرا حثيثا حتى أشرف على الامير أبي عبيدة (رض) ووقف بين يديه وسلم عليه ، وقال أصلح الله تعالى شأن الامير ابشرك بأن البطريق هربيس قد اخذ الامان من سعيد بن زيد وهو يريد أن يقبل به عليك يسألك الصلح والامان له ولاهل مدينته ، فلما سمع الامير ذلك سجد لله شكرا ورفع رأسه ، وقال أيها الناس تقدموا الآن الى قتال أهل المدينة واظهروا اسلحتكم عليها وكبروا تكبيرة واحدة لكي ترعبوا بها القوم ، قال ففعل المسلمون ذلك فارتجت المدينة وفزع اهل بعلبك وتداعوا للقتال واحاط المسلمون بالمدينة من كل جانب ، وكان اول من سبق الى المدينة واعطاهم خبر البطريق المرقال ابن عتبة وقال حصنوا انفسكم وأولادكم وأموالكم بالصلح فان ابيتم ذلك فقد وعدنا الله تبارك وتعالى على لسان نبينا محمد (ص) أن يفتح لنا بلادكم وامصاركم وغيرها وان الله تعالى منجز امره . فلما سمع أهل بعلبك ذلك فزعوا فزعا شديدا واغبرت وجوههم ورعبت قلوبهم وكلت من الحرب أيديهم ، وقالوا : أهلكنا البطريق واهلك نفسه ولو كنا صالحنا العرب من قبل أن يوجد بنا هذا الحصار لكان خيرا لنا . قال وشدد المسلمون عليهم القتال .

(قال الواقدي) فلما علم أبو عبيدة ان نيران الحرب قد أضرمت على المدينة ارسل الى سعيد بن زيد يقول له أسرع بالبطريق الينا وله الامان الذي امنت انت ، فنحن لا ننقض لك عهدا ، فلما ورد رسول أبي عبيدة على سعيد بن زيد استخلف

على الضيعة رجلا من اصحابه وسار سعيد مع البطريق حتى وردا على الامير ابي عبيدة (رض) فلما وقف البطريق بين يديه ونظر الى زيه وزي من معه وشهد قتالهم وعظم ما تلقى المدينة من حربهم وقتالهم حرك البطريق راسه وعض على انامله . فقال ابو عبيدة (رض) لترجمانه ما لهذا يحرك راسه ويعض انامله كأنه يتأسف على شيء فاته ؟ قال فأعلمه الترجمان بذلك فأقبل على الترجمان ، وقال له وحق المسيح وما مسح وحق البيعة والمذبح لقد ظننت انكم اكثر عددا من الحصى واكثر مددا ، ولقد كان يخيل لنا عند حربكم وشدة ما نلقى منكم انكم على عدد الحصى والرمل من كثرتكم ، ولقد كنا نرى خيلا شهبا وعليها رجال وبأيديهم رايات صفر وعليهم ثياب خضر فلما صرت بينكم لم أر من ذلك شيئا وما اراكم الا في قلة عدد وما ادري ما فعل جمعكم أبعثتموه الى عين الجوز أاو الى جوسية او مكان آخر ؟ فأخبر الامير الترجمان بذلك . فقال أبو عبيدة للترجمان قل له يا ويلك نحن معاشر المسلمين يكثرنا الله تعالى في اعين المشركين ويمدنا بالملائكة كما فعل بنا يوم بدر ، وبذلك فتح الله تعالى بلادكم وحصونكم علينا واذل ملوككم ، فلما سمع البطريق كلام أبي عبيدة (رض) على لسان الترجمان قال : لقد وطئتم الشام الذي عجزت عنه ملوك الفرس والترك والجرامقة وما ظننا أن يكون ذلك ابدا ، وأما مدينتنا فهي حصينة لا تعبأ بالحصار لانها مدينة ليس بالشام مثلها ، بناها سليمان بن داود عليهما السلام لنفسه وعملها دار مقامه وخزانة لملكه ولولا ما سبق من تفريطنا وخروجنا عنها اليكم والانحرافنا عنها ما صالحناكم ابدا ولا هالنا حربكم ولو اقمتم علينا مائة سنة ، والآن فقد كان ذلك فهل لكم أن تصالحونا حتى نصالحكم فتعدل فينا فهو اقرب رشدا لنا ولكم ، فوحق المسيح والانجيل الصحيح لئن فتحنا لكم هذه المدينة لا يصعب عليكم في الشام حصن ولا مدينة ، قال فلما أخبر الترجمان الامير ابا عبيدة (رض) بما قاله ، قال أبو عبيدة للترجمان قل له الحمد لله تعالى الذي ملكنا ارضكم ودياركم فلا بد أن تؤدوا الجزية ، وقد ظننت لنفسك أمانا كاذبا حتى أراك الله الذل والصغار بعد العز والاقتدار ولا بد لنا ان نملك مدينتكم ان شاء الله تعالى ونقتل الرجال ونأسر الابطال ، فمن أراد حربنا وقتالنا فلا يدخل في صلحنا ابدا ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .
فقال البطريق لما سمع ذلك على لسان الترجمان : لقد تيقنت أن المسيح قد غضب على اهل هذه المدينة اذ بعث بكم اليها وملككم عليها ، وقد اجتهدت في حربكم ومكرت بكم وما نفع مكرى واجتهادي لانكم قوم مسلطون ، وانما طلبت منكم السلم والقيت يدي في أيديكم بعد جهد مني ، لا شفقة مني على نفسي ولا بقاء مني على ملكي ولكن أردت صلاح البلاد لان الله تعالى لا يحب الفساد ، والآن فهل لكم أن تصالحوا على المدينة وما فيها وعلى أصحابي هؤلاء ؟ فقال له الامير ابو عبيدة (رض) فما الذي تبذل لنا في صلحك ؟ قال له البطريق : ايها الامير انظر ما الذي تريد ؟ فقال الامير أبو عبيدة : لو أن الله فتح على المسلمين من الصلح على هذه المدينة بملئها ذهبا وفضة ما كان أحب

الي من سفك دم رجل واحد ، لكن الله تعالى اعطى الشهداء في الآخرة أكثر من ذلك .
فقال البطريق انا اصالحكم على الف أوقية من الفضة البيضاء والف ثوب من الديباج .
(قال الواقدي) فتبسم الامير ابو عبيدة من كلامه واقبل على المسلمين وقال لهم أما تسمعون ما يقول هذا البطريق ؟ قالوا نعهم ، قال فما رايكم فيما شرط على نفسه . فقالوا يزيد عليه وشرطه يرضينا ، فأقبل الامير على البطريق وقال له : انا اصالحكم على الفي اوقية من الذهب الاحمر والفي أوقية من الفضة البيضاء والفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف من مدينتكم وسلاح أصحابك الذين هم في الضيعة محاصرون ، ولنا عليكم خراج ارضكم في العام الآتي واداء الجزية في كل عام وانتم بعد ذلك لا تحملون علينا سلاحا ولا تكاتبون ملكا ولا تحدثون حدثا ولا كنيسة وترون النصح للمسلمين ، فلما سمع البطريق ذلك من شرط الامير أبي عبيدة (رض) .
قال لك ذلك كله علينا الا اني اريد ان أشرط عليك وعلى أصحابك شرطا . فقال له الامير ابو عبيدة وما شرطك ؟ فقال لا يدخل الينا من اصحابك احد وتنزل صاحبك الذي تستخلفه علينا خارج المدينة بأصحابه ويكون له الخراج والجزية وتدعني انا من داخل المدينة من قبل الاصلاح بين الناس والنظر في أحوالهم ، ونحن نخرج الى من تخلفه علينا من اصحابك سوقا يكون فيه من جميع ما في مدينتنا ، ولا يدخلون الينا مخافة ان يغلظوا بكلامهم على كبرائنا ويفسد الامر بيننا وبينكم ويكون سببا للغدر ونقض العهد . قال أبو عبيدة : فاذا صالحناكم نجاهد عدوكم لانكم تصيرون في ذمتنا ويكون الرجل الذي نخلفه عليكم مثل الواسطة والسفير بيننا وبينكم . قال البطريق هربيس يكون خارج المدينة ويفعل ما يشاء ان يفعله من المحاماة . فقال أبو عبيدة : لكم ذلك وما لنا في الدخول الى مدينتكم من حاجة . فقال البطريق : تم الصلح على ذلك ، ثم سار البطريق الى المدينة وابو عبيدة معه ، فلما وصل الى الباب حسر البطريق عن راسه ورطن عليهم بلغه الروم فعرفوه عند ذلك ، فقالوا له : وأين أصحابك ورجالك ؟ . . فقص عليهم قصته وأخبرهم بخبره وخبر اصحابه وأعلمهم بالصلح ، فبكى القوم وقالوا تلفت النفوس وذهبت الاموال . فقال لهم البطريق : يا قوم وحق المسيح ما صالحتم ولي وجه غير الصلح ، فقالوا له اذهب أنت وصالح عن نفسك .
واما نحن فلن نصالح العرب ابدا ولن ندع احدا منهم يملكنا ولا يدخل بلادنا ومدينتنا وهي احصن مدينة في الشام .. وكان الامير ابو عبيدة (رض) قد أعلم المسلمين بمصالحة البطريق وامرهم أن يكفوا عن القتال والحرب . فلما سمع الترجمان كلام أهل بعلبك لبطريقهم أخبر الامير ابا عبيدة (رض) بذلك . فأقبل البطريق فقال له أبو عبيدة : هات ما عندك والا نرد الحرب كما كان . فقال البطريق : دعني والقوم ، فوحق الانجيل الصحيح وعيسى المسيح لو لم يقبلوا مني لادخلنك بالكثرة اليهم فتضع السيف فيهم وتقتل رجالهم وتسبي نساءهم وتنهب أموالهم لاني خبير بعورات بلدهم وبطرقاتها . قال أبو عبيدة (رض) ما شاء الله كان . قال وكان الروم على سورهم

يسمعون كلام البطريق لابي عبيدة (رض) فدخل الزعب في قلوبهم ، فعند ذلك اقبل البطريق على الروم وقال لهم ما تقولون في صلح العرب ؟ فاني أسير في أيديهم ورجالهم وبنو عمكم في قبضتهم ، فان لم تصالحوا العرب والا يقاتلونا جميعا ويرجعوا اليكم من بعدنا .

فقالوا ايها السيد : انا لا نطيق هذا المال . فقالوا يا ويلكم علي وحدي ربع ما طلبوا فطابت قلوبهم بذلك وقالوا انا لا نفتح الباب الا لك وحدك ولا يدخل معك احد من العرب حتى نصلح مدينتنا ونرفع رحالنا ونخفي حريمنا . فقال البطريق : ويحكم فاني قد صالحت القوم على أن لا يدخل مدينتكم احد منهم ، وان الرجل الذي يخلفونه عليكم يكون هو واصحابه خارج المدينة وتخرجون اليه سوقا يتسوقون منه . قال ففرحت الروم بذلك وفتحوا له الباب فدخل اليهم ، وبعث الامير ابو عبيدة الى سعيد بن زيد ان يخلي عن الرجال الذين هم في الضيعة محاصرون فخلى سعيد بن زيد سبيلهم وجاء بهم عند الامير ابي عبيدة واخذ سلاحهم وتركهم عنده رهائن على المال الذي عندهم لانه خاف ان تركهم أن يرجعوا الى المدينة ويغدروا بالمسلمين ، فتركهم عنده في عساكره ، هذا والبطريق في المدينة يجبي المال بعد اثني عشر يوما وهم مع ذلك يحملون الى عسكر المسلمين الزاد والميرة والعلوفة حتى كملت الاموال والثياب والسلاح وحملها البطريق الى ابي عبيدة (رض) وقال له تسلم الاموال على ما وافقتك عليه وخل عن الرجال ، وانظر الى من تخلفه علينا من اصحابك فأحضره لنا حتى نشرط عليه بحضرتك أن لا يجور علينا ولا يطالبنا بما لا نطيق ولا يدخل مدينتنا . قال فدعا أبو عبيدة برجل من سادات قريش اسمه رافع ابن عبدالله السهمي وقال له : يا رافع بن عبدالله استعملتك على هذه المدينة وضم اليك خمسمائة فارس من بني عمك وعشيرتك وأربعمائة فارس من أخلاط المسلمين ، واني آمرك بما امرك الله به فاتق الله حق تقاته ولا تكن الا من الولاة العادلين ، واياك والظلم والجور فتحشر مع الظالمين . واعلم أن الله تعالى سائلك عنهم ومطالبك بما تصنع بغير الحق . واعلم اني سمعت رسول الله (ص) يقول « ان الله تبارك وتعالى اوحي الى موسى بن عمران عليه السلام : أن يا موسى لا تظلم عبادي أخرب بيتك من نفسك » فأقم الارصاد في أطراف البلاد فانك بين اعدائك ، وبعد هذا ما عرفتك الا استيقاظا ، واحذرك من السواحل وشن الغارة عليهم ، ولتكن غارتك في المائة والمائتين ، ولا تمكن احدا من المدينة يختلط بأصحابك في غارة حتى يطمع عدوكم فيه ، واحسن معاملة من ساعدك واصلح بينهم وأمرهم بالعدل ، وكن بينهم كأحدهم ، وأمر اصحابك ومن معك أن يكفوا أيديهم عن الفساد والظلم للرعية ، والله تعالى خليفتي عليك ، والسلام عليك .

ذكر حديث نزول المسلمين على حمص

(قال الواقدي) ثم هم ابو عبيدة (رض) بالرحيل الى حمص ، واذ قد ورد عليه

صاحب عين الجوز يطلب منه الصلح فصالحه على نصف ما صالحه عليه اهل بعلبك وولى عليهم سالم بن ذؤيب السلمي واوصاه بمثل ما أوصي به رافع بن عبدالله ورحل الامير أبو عبيدة (رض) يطلب حمص ، فلما وصل الى بين الراس والكفيلة لاقاه صاحب الجوسية ومعه هدية كثيرة فقبلها منه وجدد معه صلحا ، وسار الامير أبو عبيدة (رض) حتى نزل على حمص .

(قال الواقدي) حدثنا حبان بن تميم الثقفي . قال : كنت فيمن اقام مع رافع بن عبدالله السهمي في جملة اصحابه ، وذلك اننا نصبنا بيوت الشعر على العمد واقمنا خارج المدينة لا يدخل اليها احد منا ، ونحن مع ذلك نشن الغارة على سواحل الروم ونكبس على العرب التي لم تكن في صلحنا ، وكنا اذا خرجنا في سرية نبيع الغنائم في بعلبك ، ففرح أهلها ببيعنا وشرائنا ووجدونا قوما ليس فينا كذب ولا خيانة ولا نريد ظلم احد وطابت قلوبهم وربحوا في تلك المدة اليسيرة مالا عظيما ، فلما نظر البطريق هربيس الى ما ربح اهل بعلبك منا في تجارتهم ورخص ما يشترونه منا جمعهم اليه في كنيسة المدينة وهي الجامع اليوم وكان ذلك بميعاد وعدهم فيه الاجتماع ، فلما اجتمعوا عنده اقبل عليهم وقال للتجار والباعة والسوقة : لقد علمتم اني قد اجتهدت في اموركم واحرصت على سلامة نفوسكم واهاليكم وأولادكم وانتم تعلمون ما ذهب مني من المال ، وانا اليوم واحد منكم وقد سلمت مالي وسلاحي وقتل اكثر غلماني ورجالي وبنو عمي وانتم قوم قد أصبتم مع هؤلاء العرب خيرا كثيرا في هذه التجارات وقد اديت وحدي ربع المال ، فقالوا صدقت أيها البطريق وقد عرفنا كل ما وصفت فما الذي تريد الآن ؟ فقال يا قوم انما كنت قبل هذا اليوم بطريقكم وانا اليوم واحد منكم واريد أن تردوا علي بعض ما بذلت من المال للعرب . فقالوا أيها البطريق واني لك بذلك ؟ فقال البطريق : يا قوم الست اكلفكم أن تخرجوا من اموالكم ولا مما حوته منازلكم شيئا ، وانما اريد ان تجعلوا في هذه البيوع والاشربة العشر مما تأخذون وتعطون . قال فاضطرب القوم اضطرابا شديدا لذلك وعظم عليهم واقبل بعضهم على بعض وقالوا يا قوم هذا رجل منا وصاحب ملكنا وقد اجتهد في امورنا وحامى بماله ونفسه عنا وما عسى يصيب منا في مالنا . قال فأجابوه الى ذلك وجعلوا له عليهم العشر فنصب عليهم من قبله عشارا يأخذ منهم اعشارهم ويجمعها ويحملها اليه فأقام على ذلك اربعين يوما ، فلما نظر هربيس الى كثرة ما قد اجتمع له من المال العشر قال : انا اعلم ان هذه المدينة في كسب عظيم وتجارة رابحة ما رأى أهل بعلبك مثل هذا أبدا ، ثم جمعهم في الكنيسة مرة ثانية وقال لهم يا قوم قد علمتم ما بذلت من المال على صلحكم وهذا الذي تعطوني اياه من العشر ليس يحزنني ، فان أردتم ان تردوا علي مالي وتجعلوني كأحدكم فاجعلوا الى الربع في أموالكم حتى يرجع الي مالي سريعا والا فمتى أخلف من هذا العشر مالي وسلاحي وغلماني .

(قال الواقدي) فأبى القوم وضجوا عليه واشهروا عددهم ووقفوا في الطريق بغلمانه فقطعوهم اربا اربا وارتفع ضجيجهم ، فجزع المسلمون لذلك وهم لا يعلمون بالقصة فاجتمعوا الى اميرهم رافع بن عبدالله السهمي وقالوا أيها الامير : أما تسمع أصوات هؤلاء القوم في مدينتهم . فقال يا قوم قد سمعت كما سمعتم فما عسى أن أصنع بهم ولا يحل لنا الدخول اليهم ، وبهذا جرى الشرط بيننا وبينهم ، ونحن احق بمن أوفى بعهد الله تعالى ، فان هم خرجوا الينا واعلمونا بأمرهم صالحنا بينهم ونظرنا في أمورهم .

(قال الواقدي) فما استتم الامير رافع بن عبدالله كلامه حتى خرج أهل بعلبك يهرعون اليه ، فلما وقفوا بين يديه قالوا : انا بالله وبك ايها الامير ، ثم اعلموه بقصتهم وما فعل البطريق بهم اول مرة وما فعل بهم ثاني مرة . قال رافع بن عبدالله انا لا نمكنه من ذلك ، فقالوايها الامير انا قد قتلناه وجميع غلمانه فصعب ذلك على أصحاب رسول الله (ص) . فقال لهم رافع فما الذي تريدون ؟ . فقالوا نريد ان تدخلوا الى المدينة فانا قد اطلقنا لكم الدخول اليها . فقال رافع بن عبدالله انا لا اقدر أن أدخل المدينة الا باذن الامير أبي عبيدة لانه ما اذن لي بذلك ، ثم كتب رافع بن عبدالله الى الامير ابي عبيدة يعلمه بالقصة وبحديث البطريق وبحديثهم الذي قالوه ، فكتب له بالدخول الى المدينة كما قد اذنوا له فدخل رافع واصحابه .

(قال الواقدي) حدثنا موسى بن عامر قال حدثنا يونس بن عبدالله قال حدثنا سالم بن عدي عن جده عبد الرحمن بن مسلم الربيعي ، وكان ممن حضر فتوح الشام اوله وآخره . قال لما فتح الله بعلبك على يد المسلمين وترك ابو عبيدة رافع بن عبدالله وتوجه الى حمص للحوق بخالد بن الوليد ، فلما قرب من حمص موضع يقال له الزراعة وجه على مقدمة جيشه ميسرة بن مسروق العبسي وعقد له راية سوداء معلمة بالبياض ، وضم اليه خمسة آلاف فارس من المسلمين ، فلما سار ميسرة حتى وصل الى حمص خرج خالد بن الوليد (رض) الى لقائه وسلم عليه وعلى من معه من المسلمين ، ثم بعث أبو عبيدة بعده ضرار بن الازور في خمسة آلاف فارس وبعث بعده عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، وقدم أبو عبيدة (رض) ببقية الجيش ، فلما اشرف ابو عبيدة على حمص قال : اللهم عجل علينا فتحها واخذل من فيها من المشركين واستقبلهم المسلمون بأجمعهم وسلموا عليه وعلى من معه ، ونزل ابو عبيدة (رض) على النهر المقلوب ، فلما استقر به القرار كتب الى اهل حمص وبطريقها الجديد وهو هربيس كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على الشام وقائد جيوشه : أما بعد فان الله تعالى قد فتح علينا بلادكم ولا يغرنكم عظم مدينتكم وتشييد بنيانكم وكثرة رجالكم ، فما مدينتكم عندنا اذا أتاكم الحرب الا كالبرمة قد نصبناها في وسط عسكرنا والقينا اللحم فيها وجميع العساكر يتوقع الاكل منها

وقد داروا بها ينتظرون نضجها واكل ما فيها ، ونحن ندعوكم الى دين ارتضاه لنا ربنا عز وجل ، فان اجبتم الى ذلك ارتحلنا عنكم وخلفنا عندكم رجالا منا يعلمونكم أمر دينكم وما فرض الله تعالى عليكم ، وان ابيتم الاسلام قررناكم على اداء الجزية ، وان أبيتم الاسلام والجزية فهلموا الى الحرب والقتال حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين ، وكان ذلك الرجل يحفظ بالعربية والرومية وقال له انطلق الى حمص وائتنا بالجواب ، فأخذ المعاهد الكتاب وسار حتى وصل الى السور فهم اهل حمص أن يرموه بالسهام والحجارة . فقال لهم بالرومية : يا قوم امسكوا عليكم فأنا رجل معاهد وقد جئتكم بكتاب من هؤلاء العرب .

(قال الواقدي) فدلوا له حبلا فربط وسطه به وشالوه اليهم وأتوا به الى بطريقهم ، فلما وقف بين يديه خضع له وناوله الكتاب . فقال له البطريق ارجعت عن دينك الى دين هؤلاء العرب ؟ قال لا ، ولكن في ذمتهم وعهدتهم انا واولادي واهلي ومالي وما راينا من القوم الا خيرا والصواب عندي ان لا تقاتلوهم ، فان القوم أولو بأس شديد لا يخافون ولا يرهبون الموت قد تمسكوا بدينهم والموت عندهم افضل من الحياة ، وقد اقسم بدينهم لا يبرحون عن مدينتكم حتى تسلموها اليهم او يفتحها الله على ايديهم ، وحق ديني انكم احب الي من العرب وأريد النصر لكم دون القوم ، ولكني خائف عليكم من بأسهم وسطوتهم فسلموا تسلموا ولا تخالفوا تندموا .

(قال الواقدي) فلما سمع البطريق هربيس كلامه غضب غضبا شديدا ، وقال وحق المسيح والانجيل الصحيح لولا أنك رسول لامرت بقطع لسانك على جراءتك علينا ، فلما قرا الكتاب وعلم ما فيه أمر كاتبه أن يكتب الى الامير ابي عبيدة بجواب كتابه فكتب كلمة الكفر . ثم قال يا معاشر العرب انه وصل الينا كتابكم وعلمنا ما فيه من التهديد والوعد والوعيد ولسنا كمن لاقيتم من اهل الشام ولم يزل الملك هرقل يستنصر بنا على من عاداه وعلى من قصد اليه من العساكر والآن فلا بد لنا من الحرب والقتال ، فان سورنا شديد وابوابنا حديد وحربنا عتيد والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى المعاهد وأمر غلمانه أن يدلوه بالحبال من السور وسار حتى وصل الى الامير ابي عبيدة وسلمه الكتاب ففضه وقرأه ... فلما سمع المسلمون ما فيه عولوا على الحرب والقتال وقسم الامير ابو عبيدة عسكر المسلمين اربع فرق فبعث فرقة مع المسيب بن نجية الفزاري فنزل بهم على باب الجبل مما يلي باب الصغير ، وبعث فرقة اخرى مع المرقال بن هشام بن عقبة بن ابي وقاص فنزل بهم على باب الرستق ، وبعث فرقة أخرى مع يزيد بن ابي سفيان فنزل على باب الشام ونزل الامير أبو عبيدة وخالد بن الوليد على باب الصغير وزحف المسلمون اليهم من كل مكان وقاتلوهم بقية يومهم هذا وسهام الروم تصل اليهم فيتلقونها بالحجف ونبال العرب تصل اليهم والى من بأعلى السور فأثرت لاجل ذلك ضرا فانفضوا عند المساء ، فلما كان الغد جمع خالد

بن الوليد كل عبد كان في عسكر المسلمين وامرهم ان يتقلدوا بالسيوف ويتنكبوا بالحجف ويزحفوا الى سور حمص ويضربوا السور بأسيافهم ويتلقوا السهام بحجفهم . فقال الامير أبو عبيدة : وما عسى أن يغني عنا هذا يا أبا سليمان ، فقال خالد (رض) على رسلك أيها الامير ولا تخالفني فيما صنعت فاني عزمت أن أقاتلهم بالعبيد ونعلمهم ان ليس لهم عندنا من القدر شيء فما نقاتلهم بأنفسنا الا ان يخرجوا الينا ، فقال أبو عبيدة (رض) افعل ما شئت فالله تعالى يوفقك ، فعند ذلك امرهم خالد بن الوليد (رض) بالزحف على الاسوار وكانوا اربعة آلاف عبد ، وأمر خالد الفا من العرب أن تترجل معهم ففعلوا ذلك وزحفوا على السور ، وقد استتروا بالحجف والعرب من ورائهم فرموا بالنبل وضربوا بسيوفهم فمنها ما تثلم ، ومنها ما انكسر .

(قال الواقدي) وأشرف عليهم هربيس صاحب حمص ، وقد دارت بطارقته واصحاب الرتب فجعلوا يتأملون الى افعالهم ، فقال هربيس يا معاشر البطارقة وحق المسيح ما ظننت أن العرب بهذه الصفة واذا هم كلهم سودان . فقال له بعض من لحقه بأجنادين وسائر المواطن لا أيها السيد بل هؤلاء عبيدهم وهذه من بعض مكايد العرب في الحرب وقد قدم هؤلاء السودان والعبيد الى حربنا وقتالهم معنا ، وأن ليس لنا عندهم من القدر أن يلقونا بانفسهم أو نخرج اليهم ، فقال هربيس وحق المسيح ان هؤلاء اشد من العرب بأسا وأقوى مراسا واعلموا انه ما لزق قوم بسور مدينتنا ولا دنوا منها الا وقد هان عليهم امرها واقترب على أيديهم فتحها .

(قال الواقدي) ولقد بلغني أن العبيد قاتلوا يومهم قتالا شديدا وهجموا على الابواب مرارا ولم يزالوا بقية يومهم حتى اقبل الليل ورجعت الموالي الى عسكر المسلمين وبعث هربيس من ليلته رسولا الى الامير أبي عبيدة (رض) فأقبل الرسول والظلام معتكر فأحس جيوش المسلمين به فهموا به ، فقال أنا رسول من البطريق هربيس صاحب حمص واريد الجواب عن هذا الكتاب فسلم اليهم كتاب هربيس فأخذه أبو عبيدة (رض) وقرأه ، فاذا فيه : يا معاشر العرب أنا ظننا ان عندكم عقلا تدبرون به الحرب وتستعينون به على الامور ، واذا انتم بخلاف ذلك لانكم في أول حربكم لنا تفرقتم على الابواب ، فقلنا هذا اشد ما يكون من الحصار وأعظم ما يقدرون عليه من الاضرار . .

فلما كان الغد تأخرتم عن حربنا وبعثتم هؤلاء المساكين الى حربنا يقطعون أسيافهم ويكسرون سلاحهم فيا ليت شعري هل تصبر سيوفهم على فساد سورنا ، وقد بان لنا عجز رأيكم وتدبيركم في القتال وملاقاة الرجال والآن فانا اشير عليكم بأمر فيه الصلاح لنا ولكم، وهو أن تسيروا الى الملك هرقل وتفتحوا ما بين ايديكم كما فتحتم ما وراءكم واياكم واللجاج والبغي فانهما قاتلان لمن اتبعهما وراجعان على من بدأ بهما أو نحن نخرج اليكم صبيحة هذه الليلة والله ينصر من يشاء منا ومنكم ممن على الحق .

قال فلما قرأ الامير ابو عبيدة كتاب هربيس صاحب حمص استشار المسلمين فيما يصنع ، وكان قد حضر عنده رجل كبير من اكابر خثعم وسيد من ساداتهم اسمه عطاء بن عمرو الخثعمي ، وكان كبير السن قديم الهجرة سديد الراي قد قاد الرجال وولى أمر الجيش وحزم العساكر ، فلما سمع كتاب هربيس وثب قائما على قدميه ، وقال للامير ابي عبيدة (رض) : أقسمت عليك أيها الامير برسول الله (ص) الا ما سمعت مقالي ، فان فيه صلاحا للمسلمين فالله وفقني لمقالة اريد المسلمين بها ، قال أبو عبيدة (رض) : قل يا أبا عمرو فأنت عندنا ناصح للمسلمين . قال فدنا من الامير أبي عبيدة وساروه ، وقال له أصلح الله الامير اعلم ان خبرك عند هؤلاء منذ نزلت على هؤلاء الشام وهذا البطريق أشد منعة واعظم جولة ممن كان قبله ، وقد علم بفتوح بعلبك وانك لا بد أن تنزل على حصارها ، وقد استدعى بالطعام والعلوفة وآلة الحصار ، وقد شحنا بالرجال وما ترك في رساتيقها وقراها طعاما الا وقد خزنوه ، عندهم ما يكفيهم اعواما ، وان نحن حاصرناهم يطول الامر كما طال امر نا على دمشق ، والراي عندي أن تخدعهم بخديعة وتحتال عليهم بحيلة . فان تمت لنا عليهم الحيلة فتحنا المدينة عن قريب ان شاء الله تعالى . قال أبو عبيدة (رض) : وما الحيلة عندك يا ابن عمرو ؟ فقال الراي عندي ان نكتب الى هؤلاء القوم ان يجبرونا بالزاد والعلوفة ونضمن لهم أن نرتحل عنهم الى أن يفتح الله تعالى عليك غير مدينتهم ونرجع اليهم ، وقد قل زادهم وانتشروا في سوادهم وتفرقوا في امصارهم وتجاراتهم ونشن عليهم غارة فنملك ما ظهر منهم ويهون عليك أمر من بقي في حمص مع قلة الزاد والعلوفة ، فقال أبو عبيدة اصبت الراي يا ابن عمرو اني سوف أفعل ما ذكرته ونرجو من الله التوفيق والعون .

ثم دعا ابو عبيدة (رض) بدواة وبياض وكتب جواب الكتاب يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد فاني رأيت في قولك صلاحا لنا ولكم ولسنا نريد البغي على احد من عباد الله عز وجل . وقد علمت ان عسكرنا كثير وخيلنا وابلنا كثير ، فان اردتم ان نرتحل عنكم فابعثوا لنا ميرة خمسة ايام وانتم تعلمون ان الطريق الذي أمامنا بعيد وما نلقي بعدكم الا كل حصن منيع وابواب حديد فاذا مونتمونا رحلنا عنكم الى بعض مدائن الشام ، فاذا فتح الله علينا بعض مدائن الشام رجعنا عنكم كما زعمتم ، فان فعلتم ذلك كان صلاحا لكم . وطوى الكتاب وسلمه الى الرسول وسار الى حمص ، فلما قرأ هربيس الكتاب فرح بذلك وجمع الرؤساء والرهابين ، وقال لهم اعلموا أن العرب قد بعثوا يطلبون منكم الزاد والميرة حتى يرحلوا عنكم فان العرب مثلهم كمثل السبع اذا وجد فريسته لم يرجع الى غيرها . وهم قد لحقهم الجوع في مدينتكم ، واذا اشبعناهم انصرفوا عنا . فقالوا أيها الامير : نخاف من العرب ان يأخذوا الزاد والعلوفة ولا يرحلوا عنا . فقال : انا نأخذ لكم عليهم العهود والمواثيق انكم اذا أمرتموهم يرحلون عنكم . فقالوا : افعل ما بدا لك ، واستوثق لنا ولك . قال فبعث هربيس وأحضر

القسوس والرهبان وامرهم ان يخرجوا الى الامير أبي عبيدة (رض) ويأخذوا عليهم العهود والمواثيق اذا أمرناهم يرحلون عنا .

قال فخرجوا وقد فتح لهم باب الرستن فساروا حتى وصلوا الى الامير ابي عبيدة وإخذوا عليهم ميثاقا وعهدا أن يرحلوا عنهم اذا هم ماروهم ولا يرجع عليهم حتى يفتح الله على يديه مدينة من مدائن الشام شرقا او غربا سهلا كان أو جبلا ، فقال الامير أبو عبيدة (رض) : قد رضيت بذلك وتم الصلح على ذلك ، وأخرج لهم أهل حمص مما كانوا قد ادخروه من الزاد والعلوفة شيئا عظيما له ولعسكره ما يكفيهم مدة خمسة أيام ، فأقبل ابو عبيدة عليهم ، وقال يا أهل حمص قبلنا ما حملتموه لنا من الزاد والعلوفة ، فاذا رايتم الآن ان تبيعوا من الزاد والعلوفة ، فقالوا نحن نفعل ذلك ، فعندها نادى الامير ابو عبيدة بشراء الزاد والعلوفة ولتكثروا من ذلك ، فان قدامكم طريقا واسعا قليل الزاد والعلوفة ، فقالوا أيها الامير بماذا نشتري الزاد ، وعلى أي شيء نحمله ؟ فقال ابو عبيدة من كان معه شيء من الذي غنمتموه من الروم فليشتر به الزاد والعلوفة . قال حسان بن عدي القطفاني خفف الله عن أبي عبيدة الحساب كما خفف عنا ما كنا نحمله من البسط والطنافس مما كان قد اتقلنا واثقل دوابنا فأخذنا به الزاد والعلوفة من القوم وكانت العرب تسمح لهم في البيع والشراء ويشتري منهم اهل حمص ما يساوي عشرين دينارا بدينارين ورغب اهل حمص في شراء الرخيص ولم يزل اهل حمص كذلك ثلاثة أيام وأهل حمص فرحون برحيل العرب عنهم . قال وكان للروم في عسكر العرب جواسيس وعيون يأخذون لهم الاخبار ، فلما نظرت الجواسيس الى أهل حمص ، وقد فتحوا مدينتهم وهم يميرون العرب ظنوا أنهم دخلوا في طاعتهم فسارت الجواسيس الى انطاكية طالبين وجعلوا كلما اجتازوا ببلد من البلد او حصن من الحصون يقولون ان أهل حمص قد دخلوا في طاعة العرب وفتحوا مدينتهم صلحا فكان يعظم ذلك على الروم ويزيدهم خوفا ورعبا ، وكان ذلك توفيقا من الله عز وجل للمسلمين ، وكانت الجواسيس اربعين رجلا فدخل ثلاثة رجال منهم الى شيزر فأشاعوا ذلك وأشيع فيها ذلك .

ذكر فتح الرستن

(قال الواقدي) وسار الامير أبو عبيدة بالعسكر حتى نزل على الرستن فرآها حصنا منيعا وماؤها غزير وهي مشحونة بالرجال والعدد العديد فبعث اليهم رسولا يأمرهم أن يكونوا في ذمته فأبوا ذلك ، وقالوا لا نفعل حتى نرى ما يكون من امركم مع الملك هرقل ، وبعد ذلك يكون ما شاء الله تعالى ، فقال الامير أبو عبيدة (رض) فانا متوجهون الى قتال الملك هرقل ومعنا رجال وأمتعة وقد أثقلتنا واشتهينا أن نودعها عندكم الى وقت رجوعنا ، قال فأتى أهل الرستن الى بطريقهم ، وكان اسمه نقيطاس وشاوروه في ذلك ، فقال يا قوم ما زالت الملوك والعساكر يودع بعضهم بعضا وما يضرنا

ذلك ، ثم بعث الى الامير أبي عبيدة يقول له مهما كان لك من حاجة فنحن نقضيها ونريد منكم المراعاة لاهل سوادنا حتى نرى ما يكون من امركم مع الملك هرقل ، فقال الامير ابو عبيدة : ونحن نفعل ان شاء الله تعالى .

(قال الواقدي) عن ثابت بن قيس بن علقمة . قال كنت ممن حضر عند أبي عبيدة (رض) ، فعند ذلك دعا أهل الراي والمشورة من أصحاب رسول الله (ص) وقال لهم ان هذا حصن شديد منيع ليس لنا الى فتحه سبيل الا بالحيلة والخديعة وأريد أن أجعل منكم عشرين رجلا في عشرين صندوقا وتكون الاقفال عندهم من باطنها ، فاذا صاروا في المدينة فثوروا على اسم الله تعالى فانكم تنصرون على من فيها من المشركين ، فقال خالد الوليد : فاذا عزمت على ذلك فلتكن الاقفال ظاهرة ويكون أسفل الصناديق أنثى في ذكر من غير شيء يمسكها فاذا حل أصحابنا في حصن من هؤلاء القوم يخرجون جملة واحدة ويكبرون . فان النصر مقرون بالتكبير ، فأجابه أبو عبيدة الى ذلك واخذ صناديق الطعام المنتخبة عند الروم ففض أسافلها وجعلها ذكرا في أنثى فأول من دخل في الصناديق ضرار بن الازور والمسيب ابن نجية وذو الكلاع الحميري وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والمرقال وهاشم بن نجعة وقيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ومالك بن الاشتر وعوف بن سالم وصابر بن كلكل ومازن بن عامر والاصيد بن سلمة وربيعة بن عامر وعكرمة بن أبي جهل وعتبة بن العاص ودارم بن فياض العبسي وسلمة بن حبيب والفارع بن حرملة ونوفل بن جرعل وجندب بن سيف وعبدالله بن جعفر الطيار وجعله اميرا عليهم وسلموا الصناديق الى الروم ، فلما حطت الصناديق في الرستن القاها نقيطاس في قصر امارته ، وارتحل الامير ابو عبيدة (رض) وسار حتى نزل في قرية يقال لها السودية ، فلما أظلم الليل بعث خالد بن الوليد (رض) بجيش الزحف الى الرستن ينظر ما يكون من أصحابه وما فعلت الصحابة (رض) فسار خالد بن الوليد برجاله حتى وصل القنطرة واذا بالصياح قد علا والتهليل والتكبير من داخل مدينة الرستن .

(قال الواقدي) كان من امر الصحابة انه لما تركهم نقيطاس في دار امارته ركب الى البيعة مع بطارقته واهل مدينته ليصلوا صلاة الشكر ، لاجل رحيل المسلمين عنهم وارتفعت أصواتهم بقراءة الانجيل وسمع أصواتهم اصحاب رسول الله (ص) فخرجوا من الصناديق وشدوا على أنفسهم ، وشهروا سلاحهم وقبضوا على امراة نقيطاس وحريمه وقالوا نريد مفاتيح الابواب فسلمتها اليهم ، فلما حصلت المفاتيح في أيديهم رفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير وكبس القوم على أبواب مدينتهم فلم يجسروا عليهم لانهم بدون عدة وسلاح وبعث عبدالله بن جعفر الطيار ربيعة بن عامر والاصيد بن سلمة وعكرمة ابن ابي جهل وعتبة بن العاص والفارع بن حرملة وسلم اليهم المفاتيح ، وقال افتحوا الابواب وارفعوا أصواتكم بالتهليل

والتكبير ، فان اخوانكم المسلمين من حول المدينة كاملون فتبادر الخمسة الى الباب القبلي وهو باب جمص وفتحوه ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة واذا هم بعسكر الزحف ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد (رض) فأجابوهم بالتهليل والتكبير ودخلوا المدينة وسمع اهل الرستن اصوات اصحاب رسول الله (ص) فعلموا انهم في قبضتهم وان مدينتهم قد اخذت من ايديهم فاستسلموا جميعا وخرجوا اليهم وقالوا لهم انا لا نقاتلكم ونحن الآن اسرى لكم فاعدلوا فينا فأنتم أحب الينا من قومنا .

قال فعرض خالد بن الوليد (رض) الاسلام عليهم فأسلم منهم كثير وبقي الاكثر يؤدون الجزية ، واما اميرهم نقيطاس فانه قال لا أريد بديني بدلا . فقال له خالد بن الوليد : الآن فاخرج باهلك عنا وحدث قومك بعدلنا فأخرجوه من الرستن فتوجه بأهله وامواله الى حمص ، وأعلى اهلها بفتح الرستن فصعب ذلك على أهل حمص وعلموا أن العرب تصبحهم أو تمسيهم بالغارة وبعث عبدالله بن جعفر الطيار الى ابي عبيدة يخبره بالفتح والنصر فسجد لله شكرا وبعث اليهم الف رجل من اليمن ووصاهم بحفظ الرستن وأمر عليهم هلال بن مرة اليشكري ، فلما استقروا بالرستن رحل خالد بن الوليد (رض) وعبدالله بن جعفر واهلهم وعساكرهم وتوجهوا الى حماة وكان اهل حماة في صلح المسلمين كما ذكرنا وكذلك اهل شيزر الا أن بطريق أهل شيزر مات وبعث اليهم الملك هرقل بطريقا عاتيا جبارا اسمه نكس ففسخ الصلح واذاق أهل شيزر ضرا وشرا وكان يصادرهم ويأخذ اموالهم ويحتجب عنهم لاهيا في أكله وشربه ، فلما بلغ الخبر الامير ابا عبيدة بعث خيلا جريدة الى شيزر فغارت الخيل على بلدهم ووقعت الضجة بشيزر وسمع البطريق نكس الضجة فنزل اليهم من قلعته وأظهر لهم بعض حجابه وجلس في بيعتهم المعظمة عندهم وجمع الرؤساء منهم وقال لهم يا أهل شيزر أنتم تعلمون ان الملك هرقل قد استخلفني عليكم احفظ مدينتكم وأمنع عن حريمكم واموالكم ثم فتح خزانة السلاح وفرق عليهم العدد وامرهم بالحرب والقتال فبينما القوم كذلك اذ أشرف عليهم خالد بن الوليد في أصحابه ومعه جيش الزحف فنزلوا بأزائهم .واشرف بعده يزيد بن ابي سفيان بأصحابه فنزل عليهم واشرف بعد الامير ابو عبيدة في عساكره جميعهم ، فلما نظر اهل شيزر تلاحق العساكر بهم هالهم ذلك وعظم عليهم وحارت ابصارهم .

(قال الواقدي) فلما نظر ابو عبيدة (رض) كتب الى اهل شيزر كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : اما بعد يا أهل شيزر فان حصنكم ليس بأمنع من حصن بعلبك ولا من الرستن ولا رجالكم اشجع فاذا قراتم كتابي هذا فادخلوا في طاعتي ولا تخالفوني فيكون وبالا عليكم وقد بلغكم عدلنا وحسن سيرتنا فكونوا مثل سائر من صالحنا ودخل في طاعتنا من سائر بلاد الشام والسلام . وطوى الكتاب وسلمه الى رجل من المعاهدين وبعثه اليهم فلما وصل الكتاب اليهم اعطوه بطريقهم نكس فقرىء

عليه ، فلما فهم ما فيه قال : ما تقولون يا اهل شيزر فيما ذكرت العرب ؟ فقالوا : صدقت العرب ايها البطريق الكبير فان حصننا ليس بأمنع من الرستن ولا بعلبك ولا دمشق ولا بصرى وأنت أعلم شدة أهل حمص وحدة شجاعتهم ، وقد صالحوا العرب وكذلك اهل فلسطين ومدنها والاردن وحصنها ، فكيف تمنع عنهم شيزر وهي حصن لطيف فان عصيت هؤلاء العرب فانك معول على هلاكنا وخراب مدينتنا .

(قال الواقدي) وكثر فيهم الخطاب وعلا الكلام واقبل البطريق نكس يسب اهل شيزر وأمر غلمانه بضربهم ، فلما نظر أهل شيزر ذلك غضبوا واظهروا سلاحهم عليه وعلى غلمانه ووقع القتال بين الفريقين فعرف المسلمون ذلك وقالوا : اللهم اهلكهم ببأسهم ... ولم يزل أهل شيزر في القتا لحتى نصروا على البطريق وعلى غلمانه وقتلوهم عن آخرهم ، ثم اخرجوا الى الامير ابي عبيدة (رض) رجالا الى لقائه بغير سلاح ، فلما وقفوا بين يدي الامير ابي عبيدة سلموا عليه وقالوا أيها الامير انا قتلنا بطريقنا في محبتكم ، قال : يا أهل شيزر بيض الله وجوهكم وادر رزقكم فقد كفيتمونا الحرب والقتال ، ثم قال للمسلمين الا ترون الى حسن طاعة هؤلاء الروم وفعالهم ببطريقهم في محبتكم والدخول في طاعتكم ، وقد رأيت من الرأي أن أحسن الى القوم وانعم عليهم . فقال المسلمون نعم ما رايت حتى يصل ما تصنع الى غيرهم ويفتح الله علينا البلاد ان شاء الله تعالى .

(قال الواقدي) فأقبل على أهل شيزر ، وقال : ابشروا فاني لست اكره احدا منكم فمن احب منكم الدخول في ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا والخراج موضوع عنكم سنتين ومن اقام على دينه فعليه الجزية وقد وضعنا عنه الخراج سنة كاملة ، ففرح الروم بذلك ، وقالوا ايها الامير سمعنا واطعنا وهذا قصر بطريقنا فأنت أحق بما فيه وهو هدية منا اليك فدونك واياه وما فيه من الرجال ، والآنية والاموال ، فأخرج أبو عبيدة (رض) منها الخمس وقسم الباقي على المسلمين بالسوية ، ونادى أبو عبيدة (رض) : يا معاشر المسلمين قد فتح الله على أيديكم هذه المدينة ايسر فتح واهونه ، وقد خرج اهل حمص من ذمتكم ووفيتم لهم ما عاهدوكم عليه فارجعوا بنا عليهم رحمكم الله تعالى .

(قال الواقدي) فركب المسلمون ظهور خيولهم وهموا بالمسير واذ قد لاح لهم غبرة مرتفعة من وراء النهر المقلوب وهي منقلبة من طريق انطاكية وقد أخذت عرضا فأسرعت خيل المسلمين اليها ، فاذا معها قسيس كبير من قسوس الروم ومعه مائة برذون موسوقة بالاحمال ومن حولها مائة علج من علوج الروم يحفظونها .

(قال الواقدي) ولم يكن للقسيس خبر بنزول المسلمين على شيزر فصاح بهم خالد بن الوليد (رض) وكبر المسلمون معه وأحدقوا بهم من كل جانب وأخذوا العلوج أسرى واخذوا البراذين ، واقبل خالد على القسيس ، وقال له يا ويلك من أين اقبلت

بهذه الاحمال . قال فرطن القسيس بالرومية فلم يدر خالد ما يقول هذا القسيس الميشوم ، فبدا اليه رجل من اهل شيزر وقال يا أيها الامير انه يذكر انه من القسوس المعظمة عند الملك هرقل ، وقد بعثه وبعث معه الى هربيس هذه الاحمال فيها ديباج أحمر منسوج بقضبان الذهب وعشرة أحمال مملوءة دنانير وباقي الاحمال مملوءة من الثياب والدنانير فأخذوها واخرجوا منها مالا عظيما وغنم المسلمون غنيمة عظيمة لم يغنموا مثلها ، وساق خالد بن الوليد الاحمال الى الامير ابي عبيدة (رض) فوجده على النهر المقلوب مما يلي شيزر وتحته عباءة قطوانية وعلى رأسه مثلها تظله من حر الشمس فأقبل خالد بن الوليد (رض) بالقسيس فأوقفه بين يديه . فقال أبو عبيدة : ما هذا يا أبا سليمان . فقال خالد : انهم قوم من انطاكية ومعهم هدية لهربيس صاحب حمص من ملك الروم هرقل .

(قال الواقدي) وعرض عليه الغنيمة ففرح الامير أبو عبيدة بها فرحا شديدا وقال : يا أبا سليمان لقد كان فتح شيزر علينا مباركا ، ثم دعا بترجمان كان معه لا يفارقه ، وقال : اسأل هؤلاء عن ملك الروم الطاغية هرقل هل هو في جمع كثير أم لا ؟ فكلم الترجمان القسيس ساعة فقال القسيس : قل للامير ان الملك هرقل قد بلغه انكم فتحتم دمشق وبعلبك وجوسية وانكم لم تنزلوا على حمص فبعث معي هذه الهدية الى هربيس البطريق وكتب اليه يامره بقتالكم ويعده بالنجدة وقدوم العساكر اليه لان الملك هرقل قد استنجد عليكم كل من يعبد الصليب ويقرأ الانجيل فأجابته الرومية والصقالبة والافرنج والارمن والدقس والمغليط والكرج واليونان والعلف والفزنة واهل رومية وكل من يحمل صليبا والعساكر قد وصلت الى الملك هرقل من كل جانب ومكان قال فحدث الترجمان الامير أبا عبيدة (رض) بكل ما اعلمه القسيس به فعظم ذلك على الامير أبي عبيدة وعرض على القسيس الاسلام ، فقال القسيس للترجمان قل للامير أبي عبيدة اني البارحة رأيت رسول الله (ص) في المنام وقد أسلمت على يديه ففرح الامير ابو عبيدة بذلك وعرض على الاعلاج الاسلام فأبوا ذلك فضربت رقابهم ، ورحل أبو عبيدة (رض) متوجها الى حمص ، وقد سير الخيل جريدة في مقدمته فما يشعر أهل حمص الا والخيل قد اغارت عليهم فرجع القوم الى المدينة وقد غلقوا الابواب ، وقالوا غدرت العرب وحق المسيح . قال ونزل المسلمون حول حمص وداروا بها من كل جانب ومكان ، وقد نفذ الزاد من المدينة واكثر أهلها قد خرجوا الى تجارتهم وفي طلب الميرة، وقد تفرقوا في البلاد فلما نزل الامير أبو عبيدة (رض) على حمص ، دعا بالعبيد والموالي وامرهم أن يتفرقوا على الطرقات والمحارس وقال لهم كل من وجدتموه قد رجع الى حمص بزاد أو تجارة فائتوني به ، ففعل العبيد ذلك ، وصعب على هربيس صاحب حمص وكتب الى الامير ابي عبيدة كتابا يقول فيه : أما بعد يا معاشر العرب فانا لم نخبر عنكم بالغدر ولا بنقض العهد ، ألستم صالحتمونا

على الميرة فمرناكم ، فطلبتم منا البيع فابتعناكم فلم نقضتم ما عاهدناكم عليه ؟ فكتب الامير أبو عبيدة (رض) يقول : اريد ان ترسل الى القسوس والرهبان الذين أرسلتهم الي حتى أوقفهم على ما عاهدتهم عليه ليعلموك اننا لم نفدر ولا مثلنا من يفعل ذلك ان شاء الله تعالى ، فلما قرأ هربيس الكتاب احضر القسوس والرهبان وبعث بهم الى الامير ابي عبيدة ، فخرجوا اليه وفتح لهم باب حمص وساروا الى ان وصلوا للامير أبي عبيدة ، فسلموا عليه وجلسوا بين يديه ، فقال لهم أبو عبيدة (رض) الم تعلموا اني عاهدتكم وحلفت لكم اني منصرف عنكم حتى افتح مدينة من مدائن الشام سهلا كان او جبلا ، ثم يكون الراي لي ان شئت رجعت اليكم او سرت الى غيركم فقالوا بلى وحق المسيح ، فقال لهم : ان الله تعالى قد فتح علينا شيزر والرستن في أهون وقت ، وقد غنمنا الله مال بطريقهم نكس وغيره مما لم نؤمله في هذه المدة اليسيرة والآن فلا عهد لكم عندنا ولا صلح الا أن تصالحونا على فتح المدينة وتكونوا في ذمتنا وامانتنا ، فقال القسوس والرهبان لقد صدقت ايها الامير ليس عليكم لوم وقد وفيتم بذمتكم ، وقد بلغنا فتحكم شيزر والرستن والخطأ كان منا اذ نستوثق لانفسنا والآن الامر بيد بطريقنا ونحن نرجع اليه ونعلمه بذلك ، ثم رجعوا الى مدينتهم ودعا الامير أبو عبيدة (رض) بالرجال والابطال واهل الحرب ، وقال : خذوا اهبتكم فان القوم بلا زاد ولا مدد يأتي اليهم من عند طاغيتهم ولا نجدة فاستعينوا بالله وتوكلوا على الله ...

فلبس المسلمون السلاح والعدد ورجعوا الى الابواب والاسوار واجتمع اهل حمص ببطريقهم هربيس وقالوا : ما عندك من الراي في أمر هؤلاء العرب . فقال : الامر عندي أن نقاتلهم ولا نريهم منا ضعفا قالوا فان الزاد قد نفد من مدينتنا ، وقد اخذه القوم منا وما سمعنا بمثل هذه الحيلة ، فقال هربيس : ما لكم تعجزون عن حرب عدوكم وما قتل منكم قتيل ولا جرح منكم جريح ولم تصبكم شدة ولا جوع ، وانما أصابوا منكم على غرة ولو دخلوا المدينة لما قدروا عليكم واقل الرجال على السور يكفيكم اياهم وعندي من الزاد في قصري ما يعم كثيركم المدة الطويلة وما احسب أن الملك هرقل يغفل وسيبلغه خبركم ويوجه العساكر .

(قال الواقدي) وكان عند البطريق هربيس في قصره جب عظيم مملوء طعاما ففتحه وفرق الطعام على أهل حمص فسكنت بذلك نفوسهم وجعل البطريق يفرق على كبيرهم وصغيرهم بقية يومهم ذلك ؛ وقد انحصر أهل حمص جميعهم فنفد ذلك اليوم نصف ما في الجب وقال لهم اقنعوا بما أعطيتكم ثلاثة أيام وابرزوا الى حرب عدوكم ، ثم أخذوا أهبة الحرب وعرض عسكره وانتخب منهم خمسة آلاف فارس من أولاد الزراوزة والعمالقة لا يساويهم غيرهم فيهم ألف مدبجة ملكية وفتح خزانة جده جرجيس وفرق عليهم الدروع والجواشن والبيض والمغافر والقسي والنشاب والحراب واقبل يحرضهم على القتال ويوعدهم بالمدد والنجدة من الملك هرقل ...

ثم دعا بالقسوس والرهبان وقال لهم : خذوا أهبتكم وادعوا المسيح أن ينصرنا على العرب فان دعاءكم لا يحجب ولا يرد قال فدخلوا كنيستهم المعظمة عندهم وهي كنيسة جرجيس وهي الجامع اليوم ونشروا المزامير وضجوا بالتهمير واقبلوا يبتهلون بكلمة الكفر وباتوا بقية ليلتهم على مثل ذلك ، فلما كان الصباح دخل هربيس الى البيعة وتقرب وصلوا عليه صلاة الموتى فدخل قصره وقدم له خنوص مشوي فأكله حتى اتى على آخره وقدم بين يديه باطية الذهب والفضة فشرب حتى انقلبت عيناه في ام راسه ثم لبس ديباجا محشوا بالفرو والزرد الصفار المضعف العدد ولبس فوقها درعا من الذهب الاحمر وعلق في عنقه صليبا من الياقوت وتقلد بسيف من صنعة الهند وقدم له مهر كالطود العظيم فاستوى على ظهره ، وخرج من قصره طالبا باب الرستن فأحاطت به بطارقته من الروم من كل جانب ومكان ، وفتحت ابواب حمص وخرجت الروم من كل جانب ومكان في عددهم وعديدهم وراياتهم وصلبانهم وبين يدي هربيس خمسة آلاف فارس من علوج الروم وهم بالعدد العديد ، والزرد النضيد ، فصفهم هربيس امام المدينة كأنهم سد من حديد ، او قطع الجلمود ، وقد وطنوا نفوسهم على الموت دون اموالهم وذراريهم فتبادر المسلمون اليهم مثل الجراد المنتشر ، وحملوا عليهم حملة عظيمة والعلوج كأنهم حجارة نابتة ماولوا عن مواضعهم ولا فكروا فيما نزل بهم ، فعندها صاح البطريق هربيس على رجاله وزجرهم فتبادرت الروم وصاح بعضهم ببعض وركب المسلمون وحملوا عليهم ورشقوا الرجال بالسهام واشتبكت الحرب واختلط الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا ما عليه من مريد ، الا ان المسلمين رجعوا القهقرى ، وقد فشا فيهم القتل والجراح ...

فلما نظر الأمير ابو عبيدة الى ذلك من هزيمة المسلمين عظم عليه وكبر لديه وصاح فيهم بصوته يا بني القرآن الرجعة الرجعة بارك الله فيكم فهذا يوم من ايام الله تعالى فاحملوا معي بارك الله فيكم فتراجع الناس وحملوا على اهل حمص حملة عظيمة وشدوا عليهم الحملة ، وحمل خالد بن الوليد (رض) في جمع كثير من بني مخزوم وجعلوا يضربون فيهم بسيوفهم ويطعنون برماحهم حتى طحنوهم طحن الحصيد ووضع المسلمون فيهم السيف ، وحمل ابن مسروق العبسي في طائفة من قومه من بني عبس ، وقد رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير وصدموا الروم صدمة عظيمة فتراجعت الروم الى الاسوار وقد فشا فيهم القتل ، فبربرت الروم بلغاتها وتراجعت على المسلمين واحاطوا بهم من كل جانب ومكان ورشقت العلوج بالنشاب وطعنوا في المسلمين بالحراب ، وقد استتروا بالدرق والطوارق . قال فلما نظر خالد بن الوليد الى ذلك برز باللواء وكان هو صاحب اللواء يوم حمص وصاح خالد بأصحابه وقال شدوا عليهم بالحملة بارك الله فيكم فانها والله غنيمة الدنيا والآخرة . قال فبينما خالد بن الوليد يحرض أصحابه على القتال اذ حمل عليه بطريق من عظماء الروم وعليه لامة

مانعة وهو يهدر كالاسد فحمل خالد بن الوليد عليه وضربه على راسه فوقع سيفه على البيضة فطار السيف من يد خالد بن الوليد وبقيت قبضته في يده فطمع العلج فيه وحمل عليه ولاصقه حتى حك ركابه بركاب خالد وتعانقا جميعا بالسواعد والمناكب فضم خالد العلج الى صدره واحتضنه بيده وشد عليه بقوته فطحن اضلاعه وادخل بعضها في بعض فأرداه قتيلا ، واخذ خالد سيف العلج وهزه في يده حتى طار منه الشرر ووضع راسه في قربوس سرجه وحمل وصاح في بني مخزوم فحملوا حملة عظيمة وهاجوا في اوساطهم وخالد بن الوليد (رض) يفرقهم يمينا وشمالا وهو ينادي برفيع صوته .

أنا الفارس الصنديد ، أنا خالد بن الوليد صاحب رسول الله (ص) ، ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد حتى توسطت الشمس في كبد السماء وحمى الدرع على خالد بن الوليد (رض) فخرج من المعركة وبنو مخزوم يتقاطرون من خلفه والدم يسيل ملء درعهم وسواعدهم كأنها شقائق الارجوان ، وخالد بن الوليد (رض) في أوائلهم وهو يقول :

ويل لجمع الروم من يوم شغب اني رأيت الحرب فيه تلتهب
وكم لقوا منا مواقع النصب وكم تركت الروم في حال العطب

قال فناداه الامير ابو عبيدة : لله درك يا أبا سليمان لله درك لقد جاهدت في الله حق جهاده ، فلما نظر المرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى غفلة الروم صاح في بني زهرة وحملوا في ميمنة الروم وحمل ميسرة بن مسروق العبسي في قومه وحمل عكرمة بن أبي جهل وحوله جمع كثير من بني مخزوم ، وحمل المسلمون بأجمعهم وقد اطاعوا على الشهادة وايقنوا بالعناية .

معركة حمص

(قال الواقدي) فلم يكن يوم حمص اشد حربا ولا اقوى جلدا منْ بني مخزوم غير أن عكرمة بن أبي جهل كان اشدهم بأسا واقداما وهو يقصد الاسنة بنفسه فقيل له اتق الله وارفق بنفسك ، فقال يا قوم انا كنت اقاتل عن الاصنام ، فكيف اليوم وأنا اقاتل في طاعة الملك العلام واني ارى الحور متشوقات الي ولو بدت واحدة منهن لاهل الدنيا لاغنتهم عن الشمس والقمر ولقد صدقنا رسول الله (ص) فيما وعدنا ، ثم سل سيفه وغاص في الروم ولم يزدد الا اقداما وقد عجبت الروم من حسن صبره وقتاله . فبينما هو كذلك اذ حمل عليه البطريق هربيس صاحب حمص وبيده حربة عظيمة تضيء وتلتهب وهزها في كفه وضربه بها فوقعت في قلبه ومرقت من ظهره فانجدل صريعا وعجل الله تعالى بروحه الى الجنة ، فلما نظر خالد بن الوليد الى ابن عمه وقد وقع صريعا اقبل حتى وقف عليه وبكى ، وقال يا ليت عمر بن الخطاب نظر الى ابن عمي صريعا حتى يعلم انا اذا لاقينا العدو ركبنا الاسنة ركوبا . قال ولم يزالوا في

الاهوال الشديدة حتى هجم الليل عليهم وتراجعت الروم الى مدينتهم وغلقوا الابواب وطلعوا على الاسوار ورجعت المسلمون الى رحالهم وخيامهم وباتوا ليلتهم يتحارسون ، فلما أصبح الصباح قال الامير أبو عبيدة (رض) : يا معاشر المسلمين ما بالكم قد صدكم هؤلاء القوم ؟ وبعد الطمع فيهم ما بالكم هزمتم وجزعتم منهم والله البسكم عافية مجللة وسلامة سابغة واظفركم على بطارقة الروم وفتح لكم الحصون والقلاع ، فما هذا التقصير والله تعالى مطلع عليكم ؟

فقال خالد بن الوليد (رض) : هؤلاء فرسان الروم اشد الرجال ليس فيهم سوقة ولا جبان ، وقد تعلم انهم يكونون اشد في الحرب لانهم يمنعون عن الذراري والنسوان . فقال أبو عبيدة (رض) : فما الراي عند يا أبا سليمان يرحمك الله ؟ . فقال خالد بن الوليد (رض) : أيها الامير قد رايت من الراي اننا ننكشف للقوم غدا وندع لهم سوائمنا وابلنا فاذا تباعدنا عن مدينتهم وتبعتنا خيلهم وتباعدوا عن مدينتهم وصاروا معنا عطفنا عليهم ومزقناهم بالاسنة ونقطع ظهورهم لبعدهم عن مدينتهم . فقال أبو عبيدة : نعم الراي ما رايت يا أبا سليمان ولقد أشرت واحسنت . قال وتواعد المسلمون على أن ينكشفوا بين أيدي الروم وان يتركوا لهم سوائمهم ، فلما أصبح الصباح فتحت أبواب حمص وخرجت الروم من جميع الابواب وزحفوا يريدون القتال ، فسألهم العرب كفوا القتال واروهم التقصير والخوف واطمعوهم في انفسهم وجعلوا ينحرفون عن قتالهم حتى تضاحى النهار وانبسطت الشمس وطاب الحرب وطمعت الروم في المسلمين لما بان لهم من تقصيرهم فشد الروم بالحملة عليهم ، فانهزمت العرب من بين أيديهم وتركوا سوائمها .

قال نوفل بن عامر حدثنا عرفجة بن ماجد النميمي عن سراقة النخعي وكان ممن حضر يوم حمص . قال لما انهزمت العرب أمام الروم وتبعنا هربيس البطريق في خمسة آلاف أشهب وكانوا اشد الروم . قال سراقة بن عامر وانهزمنا امام القوم كأننا نطلب الزراعة وجوسية ، وادركتنا البطارقة وبعضهم مال الى السواد طمعا في الزاد والطعام .

(قال الواقدي) وكان بحمص قسيس كبير السن عظيم القدر عند الروم قد حنكته التجارب وعرف أبواب الحيل والخداع ، وكان عالما من علماء الروم وقد قرأ التوراة والانجيل والزبور والمزامير وصحف شيث وابراهيم ، وادرك حواري عيسى ابن مريم عليه السلام ، فلما اشرف ذلك القسيس ونظر الى العرب وقد ملك الروم سوادهم جعل يصيح ويقول وهو ينادي : وحق المسيح ان هذه خديعة ومكر ومكيدة من مكايد العرب ، وان العرب لا تسلم اولادها وابلها ولو قتلوا عن آخرهم . قال وجعل القسيس يصيح وأهل حمص قد وقعوا في النهب وليس يغنيهم سوى الزاد والطعام ، والبطريق هربيس قد الح في طلب المسلمين في خمسة آلاف فارس ، فلما أبعدوا عن المدينة صاح الامير أبو عبيدة (رض) برفيع صوته : اعطفوا على الروم كالسباع

الضارية والعقبان الكاسرة فردوا عليهم كردوسا واحدا حتى احاطوا بالبطريق واصحابه من كل جانب وداروا بهم مثل الحلقة المستديرة واحدقوا بهم كاحداق البياض بسواد العين ، وبقيت الروم في أوبساطهم كالشامة السوداء في الثور الابيض فعند ذلك نصبت العلوج نشابها على العرب ، والمسلمون يكرون عليهم مثل الاسود الضارية ويحومون عليهم كما تحوم النسور ويضربونهم بالسيوف ويصرعونهم يمينا وشمالا حتى انكسر اكثرهم .

(قال عطية بن فهر الزبيدي) فلما نظرت الروم الى فعلنا بهم تكالبت علينا ، فلما حميت الحرب ابتدر خالد بن الوليد (رض) من وسط العسكر وهو على جوّاد اشقر وعليه جوشن مذهب كان لصاحب بعلبك اهداه له يوم فتح بعلبك ، وكان خالد بن الوليد (رض) قد عمم نفسه بعمامة حمراء وكانت تلك العمامة عمامته في الحرب وجعل يهدر كالاسد الحردان وقد انتضى سيفه من غمده وهزه حتى طار منه الشرر ونادى برفيع صوته : رحم الله رجلا جرد سيفه وقوى عزمه وقاتل اعداءه فعندها انتضب المسلمون سيوفهم وصدموا الروم صدمة عظيمة ونادى الامير ابو عبيدة يا بني العرب قاتلوا عن حريمكم ودينكم وأموالكم فان الله مطلع عليكم وناصركم على عدوكم . قال وكان معاذ بن جبل قد انفرد في خمسمائة فارس الى السواد والاموال وانقض على الروم فما شعرت الروح والعلوج ممن انغمس في الفارة وحمل الزاد والرحال والامتعة الا والطعن قد اخذهم بأسنة الرماح من كل جانب كأنها السنة النار المضرمة ونادى مناد يا فتيان العرب اطلبوا الباب لئلا ينجو أحد من الروم برحالنا وأولادنا ، فجعل المسلمون يطلبون الابواب وكانت علوج الروم قد غرقت في رحال المسلمين ، فلما نظروا الى معاذ وقد حمل عليهم في رحاله عادت وقد رمت الرحال وطلبت الهرب فانفلت منهم من انفلت وقتل من قتل . قال صهيب بن سيف الفزاري : فوالله ما انفلت من الخمسة آلاف الذين كانوا مع هربيس صاحب حمص الا ما ينوف عن مائة فارس . قال واتبعنا القوم الى الابواب فكان اعظم المصيبة قتلنا اياهم على الابواب ، لان اكثر الرجال من العواصم وغيرهم كانوا في المدينة . قال سعيد بن زيد : شهدت يوم حمص وكنت ممن أولع بعدد القتلى فعددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح فدنوت من الامير ابي عبيدة (رض) وقلت البشارة أيها الامير فاني عددت خمسة آلاف وستة غير أسير وجريح . فقال الامير ابو عبيدة بشرت بخير يا سعيد يا ابن زيد فهل ترى قتل بطريقهم هربيس . فقال سعيد بن زيد : أيها الامير اذا كان قتل بطريقهم هربيس فما قتله غيري . فقال الامير أبو عبيدة وكيف علمت انه قتيلك يا سعيد . فقال سعيد بن زيد : أيها الامير اني رأيت فارسا عظيم الخلقة طويلا ضخما أحمر اللون وبيده سيف وعليه لامة حربه صفتهما كذا وكذا وهو في وسط الروم كأنه البعير الهائج فحملت عليه وقلت في حملتي : اللهم اني أقدم قدرتك على قدرتي وغلبتك

على غلبتي : اللهم اجعل قتله على يدي وارزقني اجره . فقال له ابو عبيدة اما اخذت سلبه يا سعيد . قال لا ، ولكن علامتي فيه نبلة من كنانتي اثبتها في قلبه فخر يهوي عن جواده ونفرت عنه أصحابه فلحقته فضربته بسيفي ضربة فصرمت حقوته ونبلتي في قلبه . قال أبو عبيدة (رض) ادركوه رحمكم الله وسلموا سلبه الى سعيد ففعلوا ذلك.

(قال الواقدي) فلما اخذت الحرب أوزارها اخذ المسلمون الاسلاب والدروع والشهابي ومثلوا الجميع امام الامير ابي عبيدة (رض) فأخرج منها الخمس لبيت مال المسلمين وقسم الباقي على المجاهدين . قال ووقع الصياح والبكاء في حمص على من قتل منهم من فرسان الكفار ورجالهم . قال واجتمع مشايخ حمص ورؤساؤهم الى بيعتهم وتحدثوا مع القسوس والرهبان على أن يسلموا حمص الى المسلمين ، وخرج علماء دينهم ورؤساؤهم الى ابي عبيدة (رض) وصالحوه على تسليم المدينة اليه وان يكونوا تحت ذمامه وأمانه ، فصالحهم ابو عبيدة (رض) ، وقال لست ادخل مدينتكم حتى نرى ما يكون بيننا وبين الملك هرقل واراد اهل حمص أن يكرموا المسلمين بالاقامة والعلوفة فنهاهم الامير ابو عبيدة عن ذلك ولم يدخل احد من المسلمين الى حمص الا بعد وقعة اليرموك كل ذلك ليتقرب المسلمون الى الروم بالعدل وحسن الصحبة .

(قال جرير بن عوف) حدثنا حميد الطويل . قال حدثني سنان بن راشد اليربوعي . قال حدثنا سلمة بن جريج قال حدثنا النجار وكان ممن يعرف فتوح الشام ، قال لما صالحنا اهل حمص بعد قتل هربيس خرج اهل حمص ودفنوا قتلاهم فافتقدنا القتلى الذين استشهدوا من اصحاب رسول الله (ص) فوجدنا من استشهد من المسلمين مائتين وخمسة وثلاثين فارسا كلهم من حمير وهمدان الا ثلاثين رجلا من اهل مكة : وهم عكرمة بن أبي جهل وصابر بن جرىء والريس بن عقيل ومروان بن عامر والمنهال بن عامر السلمي ابن عم العباس (رض) ، وجمح بن قادم ، وجابر بن خويلد الربعي ، فهؤلاء من المسلمين الذين استشهدوا يوم حمص والباقون من اليمن وهمدان ومن أخلاط الناس .

ذكر وقعة اليرموك

(قال الواقدي) واتصلت الاخبار الى الملك هرقل ان المسلمين ، قد فتحوا حمص والرستن وشيزر ، وقد اخذوا الهدية التي بعثها الى هربيس البطريق فبلغ ذلك منه دون النفس وأقام ينتظر الجيوش والعساكر من اقصى بلاد الروم لانه قد كان كاتب كل من يحمل الصليب فما مضى عليه الا ايام قلائل حتى صار اول جيوشه عنده بانطاكية وآخرها في رومية الكبرى وانه بعث جيشا الى قيسارية ساحل الشام يكون حفظه على عكاء وطبرية وبعث بجيش آخر الى بيت المقدس واقام ينتظر قوم ماهان الارمني ملك الارمن ، وقد جمع من الأرمن ما لا يجمعه أحد من أهالي الملك هرقل ، وبعد أيام قدم على الملك هرقل للقائه في ارباب دولته ، فلما قرب منه ترجل ماهان

وجنوده وكفروا بين يديه ورفعوا اصواتهم بالبكاء والنحيب مما وصل اليهم من فتح المسلمين بلادهم فنهاهم عن ذلك ، وقال يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية قد حذرتكم وخوفتكم من هؤلاء العرب ولم تقبلوا مني فوحق المسيح والانجيل الصحيح والقربان ومذبحنا المعمدان لا بد لهؤلاء العرب أن يملكوا ما تحت سريري هذا والآن البكاء لا يصلح الا للنساء ، وقد اجتمع لكم من العساكر ما لم يقدر عليه ملك من ملوك الدنيا ، وقد بذلت مالي ورجالي كل ذلك لاذب عنكم وعن دينكم وعن حريمكم فتوبوا للمسيح من ذنوبكم وانووا للرعية خيرا ولا تظلموا وعليكم بالصبر في القتال ولا يخامر بعضكم بعضا واياكم والعجب والحسد فانهما ما نزلا بقوم الا ونزل عليهم الخذلان واني اريد ان اسألكم واريد منكم الجواب عما أسألكم عنه ، فقالت العظماء من الروم والملوك : اسأل ايها الملك عما شئت .

قال : انكم اليوم اكثر عددا واغزر مددا من العرب واكثر جمعا واكثر خياما واعظم قوة فمن أين لكم هذا الخذلان وكانت الفرس والترك والجرامقة تهاب سطوتكم وتفزع من حربكم وشدتكم ، وقد قصدوا اليكم مرارا ورجعوا منكسرين والآن قد علا عليكم العرب وهم اضعف الخلق عراة الاجساد جياع الاكباد ولا عدد ولا سلاح ، وقد غلبوكم على بصرى وحوران واجنادين ودمشق وبعلبك وحمص قال فسكت الملوك عن جوابه ، فعندها قام قسيس كبير عالم بدين النصرانية ، وقال أيها الملك اما تعلم لم نصرت العرب علينا ؟ قال لا وحق المسيح ، فقال القسيس أيها الملك لان قومنا بدلوا دينهم وغيروا ملتهم وجحدوا باجابة المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله وسلامه عليه وظلموا بعضهم وليس فيهم من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر وليس فيهم عدل ولا احسان ولا يفعلون الطاعات وضيعوا أوقات الصلوات واكلوا الربا وارتكبوا الزنا وفشت فيهم المعاصي والفواحش ، وهؤلاء العرب طائعون لربهم متبعون دينهم رهبان بالليل صوام بالنهار ولا يفترون عن ذكر ربهم ولا عن الصلاة على نبيهم وليس فيهم ظلم ولا عدوان ولا يتكبر بعضهم على بعض شعارهم الصدق ودثارهم العبادة ، وان حملوا علينا لا يرجعون ، وان حملنا عليهم فلا يولون ، وقد علموا أن الدنيا دار الفناء ، وان الآخرة هي دار البقاء .

(قال الواقدي) فلما سمع القوم والملك هرقل ما قاله القسيس ، قالوا : وحق المسيح لقد صدقت ، بهذا نصرت العرب علينا لا محالة ، واذا كان فعل قومنا ما ذكرت فلا حاجة لي في نصرتهم واني قد عولت أن اصرف هذه الجيوش والعساكر الى بلادها وآخذ اهلي ومالي وانزل من ارض سورية وارحل الى اسبوك ، يعني القسطنطينية فأكون هناك آمنا من العرب ، قال فلما سمع القوم ذلك من الملك صفوا بين يديه ، وقالوا ايها الملك لا تفعل ولا تخذل دين المسيح فيطالبك بذلك يوم القيامة وتعيرك الملوك بذلك ويستضعفون رايك وايضا تشمت بنا اعداؤنا اذا انت خرجت من جنة

(١١)

الشام وسكن بعدنا فيها العرب ، وقد اجتمع لنا مثل هذا الجيش الذي ما اجتمع للملك من ملوك الدنيا ، ونحن نلقى العرب ونصبر على قتالهم ولعل المسيح أن ينصرنا عليهم فاعزم وقدم من شئت واتركنا ننهض الى قتال العرب .

قال ففرح الملك هرقل بقولهم ونشاطهم وعول على أن يبعث الجيش مع خمسة ملوك من الروم ، فأول ما عقد لواء من الديباج المنسوج بالذهب الاحمر وعلى رأسه صليب من الجوهر وسلمه الى قناطير ملك الروسية وضم اليه مائة الف فارس من الصقالبة وغيرهم وخلع عليه وتوجه ومنطقه وسوره ، ثم عقد لواء آخر من الديباج الابيض فيه شمس من الذهب الاحمر وعلى رأسه صليب من الزبرجد الاخضر وسلمه الى جرجير وهو ملك عمورية وملورية وخلع عليه وسوره ومنطقه وضم اليه مائة ألف فارس من الروم والفردانة ومن سائر الاجناس الرومية ، ثم عقد لواء ثالثا من الدستري الملون عليه صليب من الذهب الاحمر وسلمه الى الديرجان صاحب القسطنطينية وضم اليه مائة ألف فارس من المغليط والافرنج والقلن وخلع عليه ومنطقه وسوره .

ثم عقد لواء رابعا مرصعا بالدر والجوهر عليه قبضة من الذهب وعليه صليب من الياقوت الاحمر وسلمه الى ماهان ملك الارمن وكان يحبه محبة عظيمة لانه كان من أهل الشجاعة والتدبير ، وقد قاتل عساكر الفرس والترك وهزمهم مرارا فلما عقد له لواء خلع عليه الثياب التي كانت عليه وتوجه وسوره ومنطقه وقلده بالقلائد التي لا يتقلد بها الا الملوك الاكابر ، وقال له يا ماهان : قد وليتك على هذا الجيش كله ولا أمر على أمرك ولا حكم على حكمك . ثم قال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين وهم ملوك الجيش : اعلموا أن صلبانكم تحت صليب ماهان وأمركم اليه فلا تصنعوا أمرا الا بمشورته ورأيه واطلبوا العرب حيث كانوا ولا تفشلوا ، وقاتلوا عن دينكم القديم وشرعكم المستقيم وافترقوا على أربع طرق فانكم ان أخذتم على طريق واحدة لم تسعكم وتهلكوا الارض ومن عليها . ثم خلع على جبلة بن الايهم الغساني وضم اليه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، وقال لهم : كونوا في المقدمة ، فان هلاك كل شيء بجنسه والحديد لا يقطعه الا الحديد ، ثم أمر القسوس أن يغمسوهم في ماء المعمودية ويقرءوا عليهم ويصلوا عليهم صلاة الموتى .

(قال حدثنا) نوفل بن عدي عن سراقة عن خالد . قال أخبرنا قاسم مولى هشام بن عمرو ابن عتبة ، وكان ممن حضر فتوح الشام كله ، قال : فكانت جملة من بعث الملك هرقل الى اليرموك من العساكر ستمائة الف فارس من سائر طوائف أهل الكفر ممن يعتقد الصليب .

(قال وحدثنا) جرير بن عبدالله عن يونس بن عبد الاعلى أن جملة من بعث الملك هرقل سوى جيش انطاكية الى اليرموك سبعمائة الف فارس . قال راشد بن

سعيد الحميري كنت أحضر اليرموك من أوله الى آخره ، فلما أشرفت علينا عساكر الروم باليرموك نحونا صعدت على تل من الارض مرتفع وأقبلت الروم بالرايات والصلبان فعددت عشرين راية . فلما استقرت الروم باليرموك بعث الامير أبو عبيدة (رض) روماس صاحب بصرى ليحزر عدد القوم . قال فتنكر روماس وغاب عنا يوما وليلة ، ثم عاد الينا . فلما رأيناه اجتمعنا عنده وسأل أبو عبيدة روماس عن ذلك . فقال أيها الامير سمعت القوم يذكرون أن عددهم الف الف فلا أدري أهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ويحدثوا بذلك أم لا ؟ فقال أبو عبيدة يا روماس كم عهدك بهم وكم يكون تحت كل راية من عساكر الروم ؟ فقال أيها الامير : أما ما عهدت في عساكر الروم فتحت كل راية خمسون الف فارس ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك . قال الله اكبر أبشروا بالنصر على الاعداء ، ثم قرأ الآية — كمْ من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين —

(قال الواقدي) ثم ان الملك هرقل لما قلد أمر جيوشه ماهان ملك الارمن وأمره بالنهوض الى قتال المسلمين ركب الملك هرقل وركب الروم وضربوا بوق الرحيل وخرج الملك هرقل ليتبع عساكره على باب فارس وسار معهم يوصيهم ، وقال لقناطير وجرجير والديرجان وقورين : ليأخذ كل رجل منكم طريقا وأمر كل واحد منكم نافذ على جيشه . فاذا لقيتم العرب فالامر فيكم لماهان ، ولا يد على يده ، واعلموا انه ليس بينكم وبين هؤلاء الا هذه الوقعة ، فان غلبوكم فلا يقنعوا ببلادكم بل يطلبونكم حيث سلكتم ولا يقنعون بالمال دون النفس ويتخذون حريمكم وأولادكم عبيدا فاصبروا على القتال وانصروا دينكم وشرعكم .

(قال الواقدي) ثم وجه قناطير بجيشه على طريق جبلة واللاذقية ، وبعث جرجير على طريق الجادة العظمى وهي أرض العراق وسومين ، وبعث قورين على طريق حلب وحماة ، وبعث الديرجان على أرض العواصم وسار ماهان في أثر القوم بجيوشه والرجال أمامه ينحتون له الارض ويزيلون من طريقهم الحجارة ، وكانوا لا يمرون على بلد ولا مدينة الا اضروا بأهلها ويطالبونهم بالعلوفة والاقامات ولا قدرة لهم بذلك فيدعون عليهم ويقولون لاردكم الله سالمين . قال وجبلة بن الايهم في مقدمة ماهان ومعه العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام .

(قال الواقدي) حدثني من أثق به ان الطاغية هرقل لما بعث جيوشه الى قتال المسلمين ، وكان للامير أبي عبيدة في جيوش الروم عيون وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الاخبار ، فلما وصل جيش الروم الى شيزر فارقتهم عيون أبي عبيدة وساروا طالبين عسكر المسلمين فلم يجدوهم على حمص فسألوهم عنهم فأخبروهم انهم رحلوا لان الامير ابا عبيدة (رض) لما فتح حمص ترك عندهم من يأخذ الخراج والذي تركه عندهم رجال من أهل حمص من كبرائهم ورؤسائهم وجعل الجواسيس

يسيرون حتى وصلوا الى الجابية وحضروا بين يدي الامير ابي عبيدة (رض) واخبروه بما راوه من عظم الجيوش والعساكر ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك عظم عليه وكبر لديه ، وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وبات قلقا لم تغمض له عين خوفا على المسلمين ، فلما طلع الفجر أذن فصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته اقسم على المسلمين أن لا يبرحوا حتى يسمعوا ما يقول ، ثم قام فيهم خطيبا وحمد الله تعالى واثنى عليه وذكر النبي (ص) ، وترحم على ابكر الصديق (رض) ودعا للمسلمين بالنصر ، وقال : يا معاشر المسلمين اعلموا رحمكم الله ان الله ابتلاكم ببلاء حسن لينظر كيف تعملون وذلك عندما صدقكم الوعد وايدكم بالنصر في مواطن كثيرة ، واعلموا أن عيوني اخبروني أن عدو الله هرقل استنجد علينا من كبار بلاد الشرك ، وقد سيرهم اليكم واثقلهم بالزاد والسلاح — يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون — واعلموا انهم قد ساروا اليكم في طرق مختلفة ووعدهم طاغيتهم ان يجتمعوا بازائكم على قتالكم ، واعلموا ان الله معكم وليس بكثير من يخذله الله تعالى وليس بقليل من يكون الله تعالى معه فما عندكم من الرأي رحمكم الله تعالى ؟ ثم قال لبعض عيونه قم واخبر المسلمين بما رايت فقام الرجل واخبر الناس بما راى من الجيوش الثقيلة وعددها وعديدها ، فعظم ذلك على المسلمين وداخل قلوب رجال منهم الهيبة والجزع ، وجعل بعضهم ينظر الى بعض ولم يرد احد منهم جوابا ، فقال ابو عبيدة (رض) ما هذا السكوت عن جوابي رحمكم الله فاشيروا على ايديكم . فان الله عز وجل يقول لنبيه محمد (ص) — وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل عن الله — .

(قال الواقدي) فتكلم رجل من اهل السبق وقال أيها الامير : اذ مترجل لك رفعة ومكان وقد نزلت فيك آية من القرآن ، وانت الذي جعلك رسول الله (ص) أمين هذه الامة . فقال عليه السلام : لكل أمة امين وامين هذه الامة ابو عبيدة (رض) عامر بن الجراح اشر انت علينا بما يكون فيه الصلاح للمسلمين . فقال الامين أبو عبيدة (رض) : انما انا رجل منكم تقولون واقول وتشيرون وأشير والله الموفق في ذلك . فقام اليه رجل من أهل اليمن ، وقال : أيها الامير الذي نشير به عليك أن تسير من مكانك وتنزل في فرجة من وادي القرى ، فيكون المسلمون قريبا من المدينة والنجدة تصل الينا من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) واذا طلب القوم اثرنا واقبلوا الينا كنا عليهم ظاهرين . فقال الامير أبو عبيدة (رض) : اجلسوا رحمكم الله فقد اشرتم بما عندكم من الرأي واني ان برحت من موضعي هذا كره لي عمر بن الخطاب ذلك واخذ يعنفني ويقول تركت مدائن فتحها الله على يديك ونزحت عنها ، وكان ذلك هزيمة منك ، ثم قال اشيروا علي برايكم رحمكم الله تعالى .

فقام اليه قيس بن هبيرة المرادي وقال يا امير المؤمنين لاردنا الله الى اهلنا سالمين ان خرجنا من الشام ، وكيف ندع هذه الانهار المتفجرة والزروع والاعناب والذهب

والفضة والديباج ونرجع الى قحط الحجاز وجد به واكل خبز الشعير ولباس الصوف ونحن في مثل هذا العيش الرغد ، فان قتلنا فالجنة وعدنا ونكون في نعيم لا يشبه نعيم الدنيا . فقال أبو عبيدة (رض) صدق والله قيس بن هبيرة وبالحق نطق ، ثم قال يا معاشر المسلمين اترجعون الى بلاد الحجاز والمدينة وتدعون لهؤلاء الاعلاج قصورا وحصونا وبساتين وأنهارا وطعاما وشرابا وذهبا وفضة ما لكم مع ما لكم عند الله عز وجل في دار البقاء من حسن الطعام ولقد صدق قيس بن هبيرة في قوله لنا ولسنا ببارحين منزلنا هذا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال فوثب قيس بن هبيرة وقال صدق الله قولك أيها الامير واعانك على ولايتك ولا تبرح من مكانك وتوكل على الله وقاتل أعداء الله ، فان فاتنا فتح عاجل فما يفوتنا ثواب آجل . فقال ابو عبيدة(رض) شكر الله فضلك وغفر لنا ولك والراي رايك وتتابع قول المسلمين بحسن رأيهم الا خالد بن الوليد (رض) فانه ساكت لا يقول شيئا . فقال ابو عبيدة (رض) يا أبا سليمان أنت الرجل الجريء والفارس الشهم ومعك راي وعزم فما تقول فيما قال قيس بن هبيرة . فقال خالد (رض) نعم ما اشار به قيس الا ان الراي عندي غير رايه ولكن لا اخالف المسلمين ، فقال ان كان عندك راي فيه صلاح فائت به وكلنا لرايك تبع ، فقال خالد بن الوليد (رض) اعلم أيها الامير انك ان اقمت في مكانك هذا فانك تعين على نفسك ، لان هذه الجابية قريبة من قيسارية وفيها قسطنطين ابن الملك هرقل في أربعين الف فارس وأهل الاردن قد اجتمعوا اليه خوفا منكم ، والذي اشير به عليكم أن ترحلوا من منزلكم هذا وتجعلوا اذرعات خلف ظهوركم حتى ينزلوا اليرموك ، ويكون المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) قريبا منكم متلاحقا بكم وانتم على فتح لقتال عدوكم وهي ارض واسعة لمجال الخيل . قال فلما نطق خالد بن الوليد بهذا الكلام . قال المسلمون نعم ما اشار به خالد ، وقال ابو سفيان بن حرب ايها الامير : افعل برأي خالد بن الوليد (رض) وابعثه الى ما يلي الرمادة فيكون بين عساكرنا وعساكر الروم المقيمة بالاردن لئلا ندهي منهم عند رحيلنا فانه سيكون لرحيلنا ورحيل عسكرنا بين هذه الاشجار ضجة عظيمة وجلبة هائلة فيداخل عدوكم فيكم الطمع فان اقبلوا يريدون غارة ومكيدة لقيهم خالد بن الوليد (رض) بمن معه . فقال خالد بن الوليد والله يا ابن حرب لقد نطقت عن ضميري وهكذا الراي عندي .

فعند ذلك امر ابو عبيدة الناس بالرحيل من الجابية فرحلوا ودعا ابو عبيدة بجيش خالد بن الوليد الذي اقبل به من ارض العراق وهو جيش الزحف وهو يومئذ اربعة آلاف فارس وامر خالد بن الوليد (رض) أن يسير بهم ويكون على طلائع المسلمين وحرسهم من وراء ظهورهم . قال ووقعت الضجة للمسلمين عند رحيلهم حتى سمع ضجيجهم من مسيرة فرسخين وطلبوا اليرموك وسمع الروم المجتمعة بالاردن ضجة المسلمين عند رحيلهم فظنوا انهم هاربون الى الحجاز لما بلغهم من جيش هرقل فطمعوا

فيهم وهموا بالغارة على أطرافهم فلقيهم خالد بن الوليد (رض) فصاح في رجاله وقال دونكم والقوم فهذه علامة النصر ، قال فانتضى المسلمون السيوف ومدوا الرماح وحمل خالد بن الوليد (رض) وحمل ضرار بن الازور (رض) والمرقال وطلحة بن نوفل العامري وزاهد بن الاسد وعامر بن الطفيل وابن أكال الدم وغير هؤلاء من الفرسان المعدودين للبراز فلم يكن للروم طاقة بهم فولوا منهزمين والمسلمون يقتلون ويأسرون حتى وصلوا الى الاردن فغرق منهم خلق كثير ، ورجع خالد بن الوليد (رض) ، واما الامير أبو عبيدة فانه نزل باليرموك .وجعل اذرعات من خلفه وكان هناك تل عظيم فعمد أبو عبيدة (رض) الى نساء المسلمين وأولادهم فأصعدهم على ذلك التل واقام الحراس والطلائع على سائر الطرقات ، فلما وصل خالد بن الوليد (رض) بالاسارى والغنائم فرح أبو عبيدة (رض) فرحا شديدا ، وقال : ابشروا رحمكم الله تعالى هذه علامة النصر والظفر واقام المسلمون باليرموك وهم مستعدون لقتال عدوهم كأنهم ينتظرون وعدا وعدوا به وبلغ الخبر الى قسطنطين ابن الملك هرقل بأن المسلمين قد نزلوا باليرموك ، وأن ملوك الروم سائرون لقتالهم فبعث رسولا الى الملوك يستضعف رأيهم في ابطاء أمرهم ويحثهم على قتال المسلمين ، فلما ورد رسوله الى ماهان دعا بالملوك والبطارقة وقرا عليهم كتاب قسطنطين ابن الملك هرقل وأمرهم بالمسير ، فسارت جيوش الروم يتلو بعضها بعضا لا يمرون ببلد من مدائن الشام التي فتحها المسلمون الا ويعنفون اهلها ويقولون لهم : يا ويلكم تركتم اهل .دينكم وملتكم وملتم الى العرب . فيقولون لهم انتم احق بالملامة منا لانكم هربتم منهم وتركتمونا للبلاء فصالحنا عن انفسنا فيعرفون الحق فيسكتون ولم يزالوا سائرين حتى وصلوا الى اليرموك فنزلوا بدير يقال له دير الجبل وهو بالقرب من الرمادة والجولان وجعلوا بينهم وبين عسكر المسلمين ثلاثة فراسخ طولا وعرضا ، فلما تكاملت الجيوش باليرموك اشرفت سوابق الخيل على أصحاب رسول الله (ص) وكان جبلة بن الايهم في المقدمة في ستين الف فارس من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام وهم على مقدمة ماهان ، فلما نظر أصحاب رسول الله (ص) الى كثرة جيوش الروم قالوا : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . قال عطية بن عامر : فوالله ما شبهت عساكر اليرموك الا كالجراد المنتشر اذا سد بكثرته الوادي . قال ونظرت الى المسلمين قد ظهر منهم القلق وهم لا يفترون عن قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وابو عبيدة (رض) يقول ــ ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ــ قال واخذ المسلمون اهبتهم ودعا الامير ابو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وامرهم أن يدخلوا عساكر الروم يجسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم ، وقال أبو عبيدة (رض) : انا ارجو من الله تعالى أن يجعلهم غنيمة لنا .

(قال الواقدي) فلما نزل ماهان بعساكره باذاء المسلمين على نهر اليرموك أقام

اياما لا يقاتل ولا يثير حربا .

جبلــة بــن الايهــم

(قال الواقدي) وكان تأخير ماهان لامر ، وذلك أن رسولا ورد عليه من الملك هرقل يقول له لا تنجز الحرب بينك وبين المسلمين حتى نبعث اليهم رسولا ونعدهم منا كل سنة بمال كثير وهدايا لصاحبهم عمر بن الخطاب ولكل أمير منهم ، ويكون لهم من الجابية الى الحجاز ، فلما وصل الرسول الى ماهان قال هيهات هيهات ان كانوا يجيبون الى ذلك أبدا . فقال له جرجير وهو من بعض ملوك الجيش وما عليك في هذا الذي ذكره الملك هرقل من المشقة . فقال ماهان : اخرج أنت اليهم وادع منهم رجلا عاقلا وخاطبه بالذي سمعت واجتهد في ذلك . قال فلبس جرجير ثياب الديباج وتعصب بعصابة من الجوهر وركب شهباء عالية بسرج من الذهب الاحمر المرصع بالدر والجوهر وخرج معه ألف فارس من المدبجة ، وسار حتى أشرف على عساكر المسلمين ، وقف جرجير أصحابه وقرب من المسلمين ووقف بازائهم وقال يا معاشر العرب أنا رسول من الملك ماهان فليخرج الي أميركم والمقدم عليكم حتى نعرض عليه مقالنا ولعلنا نصطلح ولا نسفك دم بعضنا . قال فسمعه المسلمون فأعلموا الامير أبا عبيدة (رض) بذلك فخرج بنفسه اليه وعليه ثوب من كرابيس العراق وعلى راسه عمامة سوداء وهو متقلد بسيفه وسار الى ان وصل الى جرجير ورفس فرسه حين التقت عنق فرسيهما والناس ينظرون اليهما . فقال أبو عبيدة (رض) يا أخا الكفر قل ما أنت قائل واسأل عما تريد . فقال جرجير يا معاشر العرب ! لا يغرنكم أن تقولوا هزمنا عساكر الروم في مواطن كثيرة وفتحنا بلادهم وعلونا أكثر ارضهم فانظروا الآن ما قد أتاكم من العساكر فان معنا من سائر الاجناس المختلفة وقد تحالف الروم أن لا يفروا ولا ينهزموا وأن يموتوا عن آخرهم ، وليس لكم على ما ترون من طاقة فانصرفوا الى بلادكم وقد نلتم ما نلتم من بلاد الملك هرقل ، وقد عول الملك أن يتعود الاحسان اليكم وهو يهب لكم ما أخذتم من بلادهم منذ ثلاث سنين وقد أخذتم السلاح والذهب والفضة وقد كنتم من الهالكين . فقال الامير أبو عبيدة : اما ما ذكرت من عساكر الروم وانهم لا يفرون ولا ينهزمون ، فلو رات الروم شفار سيوفنا هربت ناكصة على أعقابها ، وأما تهويلك لنا بكثرة عددكم فقد رأيت قلتنا وضعف أجسامنا ، وكيف لقينا جموعكم وكثرتها وعظم عددها وسلاحها واحب الاشياء الينا يوم مشاجرتكم بالحرب والقتال حتى يعرف من الذي يثبت للحرب ، فلما سمع جرجير كلام الامير أبو غبيدة التفت الى رجل من أصحابه يقال له بهيل . فقال يا بهيل :

ـ الملك هرقل كأنه أعرف بهؤلاء العرب منا ، ثم لوى راس جواده ورجع الى ماهان وأخبره بما قال أبو عبيدة ... فقال له ماهان دعوتهم الى الموعد ؟ فقال لا وحق المسيح اني لم أفاتحه في شيء من ذلك لكن ابعث لهم بعض العرب المتنصرة ، فان

العرب يميل بعضهم الى بعض . قال فعندها دعا ماهان بجبلة بن الايهم الغساني . وقال يا جبلة : اخرج الى هؤلاء وخوفهم من كثرتنا وتواتر عددنا والق في قلوبهم الرعب واحط بهم مكرك . قال فخرج جبلة بن الايهم وسار حتى قرب من عساكر المسلمين ونادى برفيع صوته : يا معاشر العرب ليخرج الي رجل من ولد عمرو بن عامر لاخاطبه بما أرسلت به .

فلما سمع الامير أبو عبيدة (رض) كلام جبلة بن الايهم . قال قد بعث اليكم القوم بأبناء جنسكم يريدون الخديعة بصلة الرحم والقرابة فابعثوا اليه رجلا من الانصار من ولد عمرو بن عامر ، فاسرع اليه بالخروج عبادة بن الصامت الخزرجي(رض) وقال لابي عبيدة : أيها الامير انا اخرج اليه وانظر ماذا يقول فاجيب عنه ، ثم خرج عبادة نحوه بجواده الى ان وقف أمام جبلة بن الايهم فنظر جبلة الى رجل اسمر طويل شديد السمرة كانه من رجال شنوءة فهابه ودخل الرعب في قلبه من عظم خلقته ، وكان عبادة بن الصامت من الخطاط (رض) . فقال له جبلة يا فتى من أي الناس انت؟ فقال عبادة: انا من من ولد عمرو بن عامر، فقال جبلة: حييت فمن انت؟ فقال عبادة بن الصامت صاحب رسول الله (ص) : فاسأل عما تريد . فقال جبلة : يا ابن العم انما خرجت اليكم لاني أعلم ان أكثركم من الرحم والقرابة فخرجت اليكم ناصحا ومشيرا ، واعلم أن هؤلاء القوم الذين قد نزلوا بازائكم معهم جنود لا قبل لكم بها وخلفهم عساكر وحصون وقلاع واموال ولا تقولوا كسرنا وهزمنا عساكر الروم ، واعلم ان الحرب دول وسجال ، وان هزمكم هؤلاء القوم لا يكون لكم ملجأ غير الموت ، وهؤلاء القوم ان انهزموا يرجعون الى بلادهم وعساكرهم والخزائن والحصون ، وما قد نلتم نيلا فخذوه وامضوا الى بلادكم سالمين .

(قال عبادة بن الصامت) : يا جبلة اما علمت ما لقينا من جموعكم المتقدمة باجنادين وغيرها وكيف نصرنا الله عليكم وهرب طاغيتكم ونحن نعلم من بقي من جموعكم قد تيسر علينا أمره ونحن لا نخاف ممن يقدم علينا من جموعكم وقد ولغنا في الدماء فلم نجد احلى من دماء الروم ، وانا يا جبلة ادعوك الى دين الاسلام وان تدخل مع قومك في ديننا وتكون على شرفك في الدنيا والآخرة ولا تكون تابع علج من علوج الروم تفديه بنفسك من المهالك وانت رجل من سادات العرب وملوكهم ، وان ديننا ظهر أوله وآخره يظهر كما ظهر أوله فاتبع سبيل من أناب الى الحق وصدق به ، فقل : لا اله الا الله محمد رسول الله : اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

(قال الواقدي) فغضب جبلة بن الايهم من كلام عبادة بن الصامت ، وقال لست مفارقا ديني . فقال عبادة بن الصامت فان أبيت الا ما أنت عليه من الكفر فاياك أن تلقاني في الموعد الاول فان لنا وقعة عظيمة ، فان اخذتك شفار سيوفنا فلا تخلص من شفارها ودعنا وعساكر الروم فهم أهون علينا فان ابيت الا ما أنت علية حل بك

مثل ما حل بهم .

(قال الواقدي) فغضب جبلة بن الايهم وقال لماذا تخوفني من سيوفكم : اما نحن عرب مثلكم رجل لرجل . فقال عبادة بن الصامت قد علمنا انك انما خرجت الينا مخادعا ومعينا ولسنا كأنتم يا ويلكم نحن على قلتنا نوحد ربنا ونتبع سنة نبينا محمد وان وراءنا عسكرا يعلو الاقطار ويسد القفار . فقال جبلة لست أعرف وراءكم جيشا غير هذا الجيش ولا من ينصركم غيرهم . فقال عبادة بن الصامت كذبت والله يا ابن الايهم في قولك وان وراءنا رجالا انجادا وابطالا شدادا يرون الموت مغنما والحياة مغرما كل واحد بنفسه يلقي جيشا حافلا يا ويلك انسيت عليا وسطوته وعمر وشدته وعثمان وبراعته والعباس وطلعته والزبير مع ما يجتمع اليهم من فرسان المسلمين من مكة والطائف واليمن وغير ذلك . قال فلما سمع جبلة ذلك من كلام عباة بن الصامت قال يا ابن العم انا ما خرجت الا اريد النصيحة لكم فان ابيتم ذلك فاسال قومك يجيبونا الى الصلح . فقال عبادة بن الصامت لا صلح بيننا الا باداء الجزية أو الاسلام او السيف وهو حكم بيننا وبينكم ، والله لولا أن الغدر يقبح بنا لعلوتك بسيفي هذا ، فلما سمع جبلة كلام عبادة وانه قد حاف عليه في الكلام لم يرد عليه جوابا . . . غير انه ثنى راس جواده واتى الى ماهان فزعا مرعوبا وقد امتلأ قلبه رعبا من كلام عبادة بن الصامت ، فلما وقف بين يدي ماهان تبين في وجهه الجزع والفزع . فقال لجبلة ما وراءك ؟ فقال أيها الملك اني خوفت وارعبت ومنيت فكان ذلك كله عندهم بالسواء وقالوا ما بيننا الا الحرب والقتال . فقال له ماهان فما هذا الفزع الذي أراه في وجهك وهم عرب مثلكم وانتم عرب مثلهم وقد بلغني انهم ثلاثون الف فارس ، وانتم ستون الف فارس أما يقاتل الرجلان منكم الرجل الواحد منهم ، دونك يا جبلة فسر انت وابناء عمك من العرب المتنصرة الى قتالهم وانا وراءكم ، فان ظفرتم بهم كان الملك مشتركا بيننا وبينكم وتكون اقرب الناس الينا ويسلم اليكم ما فتحه العرب من بلاد الشام .

(قال الواقدي) وجعل ماهان يرغب جبلة في العطاء ويلينه ويحرضه على القتال في المسلمين حتى أجابه الى ذلك ، واخبر قومه وبني عمه من بني غسان ولخم وجذام وغيرهم من العرب المتنصرة وامرهم بأخذ الاهبة للحرب والقتال ففعل القوم ذلك وركبوا في سابغ الحديد والزرد النضيد وهم ستون الف فارس ما يخالطهم من غير العرب أحد يقدمهم جبلة بن الايهم وعليه درع من الذهب الاحمر متقلد بسيف من عمل التبابعة وعلى راسه الراية التي عقدها له الملك هرقل ، فسار جبلة نحو الصحابة في ستين الف فارس حتى اشرف على عساكر المسلمين وابو عبيدة يتحدث مع عبادة بن الصامت بما جرى بينه وبين جبلة بن الايهم اذ اشرفت عليهم العرب المتنصرة ، فلما رآهم المسلمون صاح بعضهم على بعض يا معاشر المسلمين قد اقبلت عليكم العرب المتنصرة لقتالكم فما انتم قائلون ؟

قالوا : نقاتلهم ونرجو من الله تعالى الظهور عليهم والمعونة وعلى غيرهم وهموا بالحملة فصاح عليهم خالد بن الوليد (رض) وقال اصبروا رحمكم الله ولا تعجلوا حتى اكيدهم بمكيدة يهلكون بها وقال لابي عبيدة (رض) ايها الاميران القوم قد استعانوا علينا بالعرب المتنصرة وهم اضعاف عددنا وان نحن نقاتلهم بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا وضعفا واريد أن أبعث لهم رسولا من بني عمهم يكلمهم في شأن ردهم عنا فان فعلوا كان ذلك كسرا لهم وللمشركين ووهنا عظيما ، وان ابوا الا الحرب والقتال خرج منا نفر يسيريردونهم على أعقابهم بعزة الله عز وجل ، قال فتعجب أبو عبيدة (رض) وقال يا أبا سليمان افعل ما تريد .

فعند ذلك دعا خالد بن الوليد بقيس بن سعد وعبادة بن الصامت الخزرجي وجابر بن عبدالله وابي ايوب بن خالد بن يزيد رضوا الله عليهم اجمعين ، فلما وقفوا بين يديه . قال لهم يا انصار الله تعالى ورسوله هؤلاء العرب المتنصرة يريدون قتالكم وهم غسان ولخم وجذام وهم بنو عمكم في النسب فاخرجوا اليهم وخاطبوهم واجتهدوا في ردهم عن حربكم وقتالكم فان فعلوا ذلك والا اخذهم السيف منا ومنكم وكنا لقتالهم كفؤا .

(قال الواقدي) فخرج أصحاب رسول الله (ص) الى العرب المتنصرة فوجدوا جبلة بن الايهم قد نزل بازاء المسلمين يريد حربهم وقتالهم ، فلما قربوا من بني غسان نادى جابر ابن عبدالله وقال يا معاشر العرب من لخم وغسان وجذام اننا بنو عمكم ونريد الدنو اليكم . قال فأذن لهم جبلة بالدنو اليه فدخلوا عليه . فاذا هو في مضرب من الديباج ، وقد فرش بالحرير الاصفر وهو جالس وحوله ملوكه وملوك جفنة فحيوه بتحية ملوك العرب فرفع جبلة اقدارهم وادنى مزارهم وقال يا بني العم انتم من الرحم ومن القرابة واني خرجت اليكم من جهة هذا الجيش الذي يرهقكم فخرج الي رجل منكم فأفرط علي في المقال فما الذي اتى بكم الي ، فكان أول من كلمه جابر بن عبدالله ، وقال : يا ابن العم لاتؤاخذنا فيما تكلم به صاحبنا فان ديننا لا يقوم الا بالحق والنصيحة وان النصيحة لك منا واجبة لانك ذو قرابة ورحم ، وقد اتينا اليك ندعوك الى دين الاسلام وتكون من أهل ملتنا ، ويكون لك ما لنا وعليك ما علينا فان ديننا شريف ونبينا ظريف فقال : وما احب ذلك ولا غيره انني ضنين بديني وأنتم يا معاشر الاوس والخزرج رضيتم لانفسكم أمرا ونحن رضينا لانفسنا أمرا لكم دينكم ولنا ديننا . فقال له الانصاري : ان كنت لا تحب أن تفارق دينك الذي انت عليه فاعتزل عن قتالنا لتنظر لمن تكون العاقبة والغلبة فان كانت لنا واردت الدخول في ديننا قبلناك وكنت منا وأخانا ، وان اقمت على دينك قنعنا منك بالجزية وأقررناك على بلدك وعلى مواطن كثيرة لآبائك وأجدادك .

فقال جبلة أخشى ان تركت حربكم وقتالكم وكانت الدائرة للقوم لا آمن ان

يتقووا على بلدي ، لان الروم لا ترضى مني الا ان أكون مقاتلا لكم وقد رأسوني على جميع العرب وانا لو دخلت دينكم كنت دنيئا ولا اتبع ، فقال الانصاري فان ابيت ما عرضناه عليك فان ظفرنا بك قتلناك فاعتزل عنا وعن سيوفنا فانها تفلق الهام وتبري العظام فتكون الوقعة بغيرك احب الينا من الوقعة بك وبمن معك قال وكانت الانصار يريدون بهذا الكلام تخويفه.وترغيبه كي ينصرف عنهم وجبلة يابى ذلك . فقال وحق المسيح والصليب لا بد ان أقاتل عن الروم ولو كان لجميع الاهل والقرابة . فقال له قيس بن سعد يا جبلة ابيت الا ان يحتوي الشيطان على قلبك فيهوى بك في النار فتكون من الهالكين ، وانما اتينا لندعوك الى دين الاسلام لان رحمك متصلة برحمنا فان ابيت فستعاين منا حربا شديدا يشيب فيه الطفل الصغير ، ثم وثب قيس بن سعد وقال لقومه انهضوا على بركة الله تعالى وعونه وحسن طاعته فبعدا له وسحقا فقام جبلة فاستعد للقتال بعدته قال فركب الانصار خيولهم ورجعوا الى الامير أبي عبيدة وخالد بن الوليد (رض) واعلموهما بمقالة جبلة وانه ما يريد الا القتال . فقال خالد بن الوليد (رض) أبعده الله تعالى ، فوعيش عاش فيه رسول الله (ص) سيد المرسلين لينظرن منا جبلة ما ينظر .

ثم قال خالد بن الوليد (رض) : اعلموا معاشر المسلمين أن القوم في ستين الف فارس من العرب المتنصرة وهم حزب الشيطان ونحن ثلاثون الف فارس من حزب الرحمن ونريد أن نلقي هذا الجمع الكبير فان قاتلنا جبلة بجمعنا كله كان ذلك وهنا منا ، ولكن ينتدب منا أبطال ورجال الى قتال هؤلاء العرب المتنصرة ، فقال أبو سفيان صخر بن حرب لله درك يا أبا سليمان ، فلقد اصبت الراي فاصنع ما تريد وخذ من الجيش ما احببت . فقال اني قد رايت من الرأي أن نندب من جيشنا ثلاثين فارسا فيلقى كل واحد الفي فارس من العرب المتنصرة .

(قال الواقدي) فلم يبق احد من المسلمين الا عجب من مقالة خالد بن الوليد(رض) وظنوا انه يمزح بمقالته ، وكان اول من خاطبه في ذلك أبو سفيان صخر بن حرب ، وقال يا ابن الوليد هذا كلام منك جد أو هزل . فقال خالد بن الوليد (رض) لا وعيش عاش فيه رسول الله (ص) ما قلت الا جدا . فقال أبو سفيان فتكون مخالفا لامر الله تعالى ظالما لنفسك وما أظن أن لك في هذه المقالة مساعدا ولو قاتل الرجل منا مائتين كان ذلك اسهل من قولك يقاتل الرجل منا الفين وان الله عز وجل رحيم بعباده فرض علينا أن الرجل منا يقاتل الرجلين والمائة والمائتين والالف الالفين وانك تقول ثلاثون رجلا منا تلقى الستين الف فارس فما يجيبك احد الى ذلك وان اجابك رجل لما قلته فانه ظالم لنفسه معين على قتله . فقال خالد بن الوليد (رض) : يا أبا سفيان كنت شجاعا في الجاهلية فلا تكن جبانا في الاسلام وانظر لمن انتخب من رجال المسلمين ، وأبطال الموحدين فانك اذا رايتهم علمت انهم رجال قد وهبوا أنفسهم لله عز وجل

وما يريدون بقتالهم غير الله تعالى ، ومن علم الله عز وجل ذلك من ضميره كان حقا على الله أن ينصره ولو سلك مفظمات النيران . فقال ابو سفيان يا أبا سليمان الامر كما ذكرت وما اردت بقولي الا شفقة على المسلمين فاذا قد صح عزمك على ذلك فاجعل القوم ستين رجلا ليقاتل الرجل منهم الف فارس من العرب المتنصرة .

فقال الامير ابو عبيدة (رض) : نعم ما اشار به ابو سفيان يا أبا سليمان . فقال خالد بن الوليد (رض) والله يا أيها الامير ما اردت بفعلي هذا الا مكيدة لعدونا لانهم اذا رجعوا الى اصحابهم منهزمين بقوة الله عز وجل ويقولون لهم من لقيكم فيقولون لقينا ثلاثون رجلا يداخلهم الرعب منا ويعلم ماهان ان جيشنا كفء له . فقال ابو عبيدة (رض) ان الامر كما ذكرت الا أنه اذا كان ستون رجلا منا يكونون عصبة ومعينا بعضهم بعضا . فقال خالد بنُ الوليد (رض) انا انتدب من المسلمين رجالا اعرف صبرهم وقرارهم واقدامهم في الحرب واعرض عليهم هذه المقالة فان احبوا لقاء الله ورغبوا في ثواب الله عز وجل فانهم يستجيبون الى ذلك وان احبوا الحياة الدنيا والبقاء فيها ولم يكن فيهم من تطيب نفسه للموت فما بخالد الا أن يبذل مهجته لله عز وجل والله الموفق لما يحبه ويرضاه .

(قال ابو عبدالله) حدثنا عمرو بن سالم عن جده برعي بن عدي قال كنت بين يدي خالد بن الوليد (رض) فدعا بستين رجلا من اصحاب رسول الله (ص) فاول ما دعا خالد ابن الوليد . قال ابن عمرو التميمي اين شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) أين خالد ابن سعيد بن العاص ، أين يزيد بن ابي سفيان الاموي ، أين صفوان بن امية الجمحي ، أين سهل ابن عمرو العامري ، أين ضرار بن الازور الكندي ، أين رافع بن عميرة الطائي ، أين زيد الخيل أبيض الركابين ، أين حذيفة بن اليمان ، أين قيس بن سعد ، أين كعب بن مالك الانصاري ، أين سويد بن عمرو الغنوي ، أين عبادة بن الصامت ، أين جابر بن عبدالله ، أين أبو أيوب الانصاري ، أين عبد الرحمن بن ابي بكرُ الصديق (رض) أجمعين ، أين عبدالله ابن عمرو بن الخطاب العدوي ، أين رافع بن سهل ، أين يزيد بن عامر ، أين عبيد بن أوس ، أين مالك بن نصر ، أين نصر بن الحرث ، أين عبيدالله بن ظفر ، أين ابو لبابة بن المنذر ، أين عوف ، أين عابس بن قيس ،أين عبادة بن عبدالله الانصاري ، أين رافع بن عجرة ، أين عبيد بن عبدالله ، أين معقب بن قيس ، أين هلال ، أين الصابرون يوم احد ، وقد ذكرهم الله تعالى في كتابه ــ فان تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ــ ، أين أسيد الساعدي ، أين كلال بن الحرث المازني ، أين حمزة بن عمر الاسلمي ، أين يزيد بن عامر .

(قال الواقدي) وقد سمى خالد بن الوليد (رض) الرجال الذين دعاهم لقتال جبلة بن الايهم ، الا اني اختصرت في ذكرهم وقدمت ذكر الانصار (رض) لان خالد بن الوليد (رض) انتخب أكثر الرجال من الانصار . فلما كثر النداء فيهم قالت الانصار

ان خالدا اليوم يقدم ذكر الانصار ويؤخر المهاجرين من ولد المغيرة بن قصي ، ويوشك انه يختبرهم أو يقدمهم للمهالك ، ويشفق على ولد المغيرة .

(قال الواقدي) فلما سمع خالد بن الوليد (رض) ذلك من قولهم ، اقبل يخطو بجواده حتى توسط جميع الانصار ، وقال لهم والله يا أولاد عامر ما دعوتكم الا لما ارتضيته منكم وحسن يقيني بكم وبايمانكم فأنتم ممن رسخ الايمان في قلبه ، فقالوا انك صادق في قولك يا أبا سليمان ، ثم صافحه القوم .

(قال الواقدي) فلما انتخب خالد بن الوليد من فرسان المسلمين ستين رجلا كل واحد منهم يلقى جيشا بنفسه . قال لهم خالد بن الوليد (رض) يا انصار الله ما تقولون في الحملة معي على هذا الجيش الذي قد إتى يريد حربكم وقتالكم ، فان كان لكم صبر وايدكم الله بنصره مع صبركم وهزمتم هؤلاء العرب المتنصرة ، فاعلموا انكم لجيش الروم غالبون ، فاذا هزمتم هؤلاء العرب وقع الرعب في قلوبهم فينقلبون خاسرين . فقالوا يا أبا سليمان افعل بنا ما تريد والق ما تشاء فوالله لنقاتلن أعداءنا قتال من ينصر دين الله ونتوكل على الله تعالى وقوته ونبذل في طلب الآخرة مهجنا . فجزاهم خالد بن الوليد (رض) خيرا ، وكذلك الامير أبو عبيدة (رض) ، وقال لهم : تأهبوا رحمكم الله وخذوا اسلحتكم وعدتكم وليكن قتالكم بالسيف ولا يأخذ أحد منكم رمحا فان الرمح خوان ربما زاغ عن الطعن ولا تأخذوا السهام فانها منايا منها المخطىء ومنها المصيب ، والسيف والحجف عليهما تدور دوائر الحرب واركبوا خيولكم السبق النواجي ولا يركب الرجل منكم الا جواده الذي يصبر به ، وتواعدوا أن الملتقى عند قبر المصطفى (ص) . قال فقدموا على أهاليهم وودعوهم . فأما ضرار بن الازور فانه عمد الى خيمته ليستعد بما يريد ، ويسلم على أخته خولة (رض) بنت الازور فلما لبس لامة حربه قالت له اخته خولة : يا أخي مالي أراك تودعني وداع من أيقن بالفراق اخبرني ماذا عزمت عليه ؟ فأخبرها ضرار بما قد عزم عليه وانه يريد أن يلقى العدو مع خالد بن الوليد (رض) فبكت خولة وقالت يا أخي افعل ما تريد أن تفعل والق عدوك وانت موقن بالله تبارك وتعالى ، فانه لكم ناصر وان عدوك لا يقرب اليك أجلا بعيدا ولا يبعد عنك أجلا قريبا فان حدث عليك حدث أو لحقك من عدوك نائبة فوالله العظيم شأنه لا هدات خولة على الارض أو تأخذ بثأرك فبكى ضرار بن الازور لبكائها وأعد آلة الحرب وكذلك الستون من أصحاب رسول الله (ص) ولم يناموا طول ليلتهم ، حتى ودعوا أولادهم وأهاليهم وباتوا في بكاء وتضرع وهم يسألون الله تعالى النصر على الاعداء الى أن أصبح الصباح فصلى بهم الامير أبو عبيدة (رض) صلاة الفجر ، فلما فرغ من صلاته كان أول من أسرع الى الخرج خالد بن الوليد (رض) وحرض أصحابه على الخروج وهو ينشد ويقول :

هبوا جميع اخوتي أرواحا　　نحــو العدو نبتغي الكفاحا

نرجو بذاك الفوز والنجاحا   اذا بذلنـا دونـه أرواحا
ويرزق الله لنـا صلاحا   في نصرنا الغدو والرواحا

(قال الواقدي) وانشد بيتا آخر لم ادر ما هو وخرج أمام المسلمين واصحابه يقدمون اليه واحدا بعد واحد حتى اجتمع اليه الستون رجلا الذين انتخبهم وكان آخر من اقبل عليه الزبير بن العوام (رض) ومعه زوجته اسماء بنت ابي بكر الصديق (رض) وهي سائرة الى جانب اخيها عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق (رض) وهي تدعو لهم بالسلامة والنصر وتقول لاخيها يا اخي لا تفارق ابن عمة رسول الله (ص) ووقت الحملة اصنع كما يصنع ولا تأخذكم في الله لومة لائم . قال وودع المسلمون الستين اصحابهم ، وساروا بأجمعهم وخالد بن الوليد (رض) في اوساطهم كأنه اسد قد احتوشته الاسود ولم يزالوا حتى وقفوا بازاء العرب المتنصرة .

(قال الواقدي) ونظرت العرب المتنصرة الى أصحاب رسول الله (ص) وقد اقبلوا نحوهم وهم نفر يسير فظنوا انهم رسل يطلبون الصلح والمواعدة فصاح جبلة بالعرب المتنصرة وحرضهم ليرهب المسلمين ونادى يا آل غسان اسرعوا الى نصرة الصليب وقاتلوا من كفر به فبادروا بالاجابة واخذوا الاهبة للحرب ورفعوا الصليب واصطفوا للقتال وقد طلعت الشمس علىٰ لامة الحرب فلّمع شعاعها على الحديد والزرد والبيض كأنها شغل نار ووقفوا يبصرون ما يصنع اصحاب رسول الله (ص) الى أن قاربوا صلبان العرب المتنصرة ونادى خالد بن الوليد (رض) يا عبدة الصلبان ويا اعداء الرحمن هلموا الى الحرب والطعان ، فلما سمع جبلة كلام خالد (رض) علم أنهم ما خرجوا رسلا ، وانما خرجوا للقتال فخرج جبلة من بين اصحابه وقد اشتمل بلامة حربه وهو يقول :

انا لمن عبدوا الصليب وسن به   نسطو على من عابنا بفعالنا
ولقد علونا بالسيح وامـه   والحرب تعلم انهـا ميراثنا
انا خرجنا والصليب أمامنا   حتـى تبددكم سيوف رجالنا

ثم قال جبلة من الصائح بنا والمستنهض لنا في قتالنا ؟ فقال خالد بن الوليد(رض) انا فاخرج الى حومة الحرب . فقال جبلة نحن قد رتبنا امورنا لحربكم وقتالكم وأنتم تتربصون عن قتالنا فوحق المسيح لا اجبناكم الى الصلح أبدا فارجعوا الى قومكم واخبروهم اننا ما نريد الا القتال قال فأظهر خالد التعجب من قوله وقال له يا جبلة اتظن أننا خرجنا رسلا اليك ؟ . فقال جبلة أجل . فقال خالد بن الوليد (رض) لا تظن ذلك ابدا فوالله ما خرجنا الا لحربكم وقتالكم فان قلتم اننا شرذمة فان الله ينصرنا عليكم . فقال جبلة يا فتى قد غررت بنفسك وبقومك اذ خرجت الى قتالنا ونحن سادات غسان ولخم وجذام . فقال خالد بن الوليد (رض) لا تظن ذلك وانا قليلون فقتالكم رجل منا لالف منكم وتخلف منا رجال أشهى اليهم الحرب من العطشان الى

الماء البارد ، فقال جبلة يا اخا بني مخزوم لقد كنت أفضلك في عقلك وأروم بك مرام الابطال حتى سمعت منك هذا الكلام انك انت والستين رجلا ترومون قتالنا ونحن سادات غسان وأبطال الزمان ها أنا أحمل بهذه الستين الف فارس فلا يبقى منكم احد ، ثم صاح جبلة بقومه يا آل غسان الحملة .

فلما سمعوا كلام سيدهم حملت الستون الف فارس في وجه خالد بن الوليد والستين رجلا فتبت لهم أصحاب رسول الله (ص) واشتبك الحرب بينهم فما كنت تسمع الا زئير الرجال وزمجرة الابطال ووقع السيف على البيض الصقال حتى ما ظن احد من المسلمين ولا من المشركين أن خالدا ومن معه ينجو منهم احد فبكى المسلمون واخذهم القلق على اخوانهم وجعل بعضهم يقول لقد غرر خالد بن الوليد بأصحاب رسول الله (ص) واهلكهم والروم تقول ان جبلة اهلك هؤلاء القوم فهلاك العرب حاصل بأيدينا لا محالة ولم يزل القوم في الحرب والقتال حتى قامت الشمس في كبد السماء قال عبادة بن الصامت فلله در خالد بن الوليد (رض) والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) والفضل بن العباس وضرار بن الازور وعبدالله بن عمر بن الخطاب رضوان الله عليهم اجمعين ، لقد رأيت هؤلاء الستة قد قرنوا مناكبهم في الحرب وقام بعضهم بجنب بعض وهم لا يفترقون وزادت الحرب اشتعالا وخرقت الاسنة صدور الليوث حتى بلغت الى خزائن القلوب لانقطاع الآجال ولم يزالوا في القتال الشديد الذي ما عليه من مزيد . قال عبادة بن الصامت فحملت معهم وكنت في جملتهم ، وقلت يصيبني ما يصيبهم ونادى خالد بن الوليد وقال يا أصحاب رسول الله (ص) ههنا المحشر وقد اعطى خالد القلب مناه ، فلما حمى بينهم القتال حمل خالد بن الوليد وهاشم والمرقال وتكاثرت عليهم الرجال فلله در الزبير ابن العوام والفضل بن العباس وهم ينادون افرجوا يا معاشر الكلاب وتباعدوا عن الاصحاب نحن الفرسان هذا الزبير بن العوام ، وانا الفضل بن العباس انا ابن عم رسول الله (ص) قال عبادة بن الصامت (رض) فوحق رسول الله (ص) لقد احصيت للفضل بن العباس عشرين حملة يحملها عن خالد بن الوليد حتى أزال عنه الرجال والابطال وحملوا على المشركين حملة عظيمة ولم يزالوا في القتال يومهم الى أن جنحت الشمس الى الغروب ، والمسلمون قد جهدهم القلق على اخوانهم . اما الامير ابو عبيدة (رض) فانه صاح بالمسلمين وقال يا أصحاب رسول الله (ص) هلك خالد بن الوليد ومن معه لا محالة وذهبت فرسان المسلمين فاحملوا بارك الله فيكم لننظر ما كان من امر اخواننا فكل أجاب الى قوله واشارته الا ابا سفيان صخر بن حرب (رض) فانه قال للامير أبي عبيدة (رض) لا تفعل ايها الامير فانه لا بد للقوم أن يتخلصوا ونرى ما يكون من أمرهم قال فلم يلتفت ابو عبيدة (رض) الى كلامه وهم ان يحمل وقد اخذه القلق فبينما هو كذلك واذا جيش العرب المتنصرة منهزمون واصوات الصحابة (رض) قد ارتفعت

بالتهليل والتكبير كل ينادي اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، والعرب المتنصرة منهزمة على أعقابهم كأنما صاح بهم صائح من السماء فبدد شملهم. واقبل خالد بن الوليد من وسط المعمعة يلتهب بما لحقه من التعب ، وكذا أصحابه الذين كانوا معه .

قال وان خالد بن الوليد افتقد أصحابه الستين رجلا فلم يجد منهم الا عشرين فجعل يلطم على وجهه وهو يقول أهلكت المسلمين يا ابن الوليد فما عذرك غدا عند الرحمن وعند الامير عمر بن الخطاب (رض) ؟ فبينما هو متحير في ذلك اذ أقبل عليه الامير أبو عبيدة (رض) وفرسان المسلمين وابطال الموحدين فنظر أبو عبيدة (رض) الى خالد بن الوليد وما يصنع بنفسه ، وقد اشتغل عن متابعة المشركين . فقال أبو عبيدة يا أبا سليمان الحمد لله على نصر المسلمين ودمار المشركين . فقال خالد بن ألوليد : اعلم أيها الامير ان الله قد هزم الجيش ، ولكن أعقبتك الفرحة ترحة . فقال أبو عبيدة (رض) ، وكيف ذلك ؟ فقال خالد أيها الامير فقدت اربعين رجلا من اصحاب رسول الله (ص) فيهم الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله (ص) وفيهم الفضل بن العباس وجعل خالد بن الوليد (رض) يسمي فرسان المسلمين واحدا بعد واحد حتى سمى أربعين رجلا فاسترجع ابو عبيدة (رض) ، وقال لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وقال لخالد لا بد لعجبك يهلك المسلمون . فقال سلامة بن الاحوص السلمي أيها الامير دونك والمعركة فاطلب فيها أصحاب رسول الله (ص) فان رايتموهم والا فالقوم أسرى أو قد تبعوا المشركين فامر ابو عبيدة فأتوا بهوادي النيران ، وكان الظلام قد اعتكر فافتقدوا المعركة بين القتلى فاذا قتل من العرب المتنصرة خمسة آلاف فارس وسيدان من ساداتهم وهما رفاعة بن مطعم الفساني والآخر شداد بن الاوس ووجدوا من قتل المسلمين عشرة رجال منهم اتنان من الانصار أحدهما عامر الاوسي والآخر سلمة الخزرجي . فقال أبو عبيدة (رض) يوشك أن بعض الصحابة قد تبع المشركين فقال أبو عبيدة (رض) اللهم ائتنا بالفرج القريب ولا تفجعنا بابن عمة نبيك الزبير بن العوام ولا بابن عمه الفضل ابن العباس ثم قال ابو عبيدة معاشر المسلمين من يقفو لنا أثر القوم ويتعرف خبر الصحابة واجره على الله عز وجل ؟ فكان أول من اجابه خالد بن الوليد (رض) . فقال له الامير ابو عبيدة لا تفعل يا أبا سليمان لانك تعبت من شدة الحرب . فقال خالد والله لا يمضي في طلبهم غيري ثم غير جواده بفرس من خيول المسلمين وهو فرس حازم بن جبير بن عدي من بني النجار فركبه خالد ابن الوليد (رض) وطلب آثار القوم وتبعه جماعة من المسلمين فما سار خالد بعيدا حتى سمع خالد التهليل والتكبير فأجابهم بمثله فاقبل القوم وفي أوائلهم الزبير بن العوام والفضل ابن العباس وهاشم والمرقال ، فلما نظر خالد اليهم فرح فرحا شديدا ورحب بهم وسلم عليهم وقال خالد بن الوليد (رض) للفضل بن العباس يا ابن عم

رسول الله (ص) ما كان أمركم ؟

فقال يا أبا سليمان هزم الله المشركين وردهم على ادبارهم خائبين فتبعنا آثارهم وان رجالا منا أسروا فرجونا خلاصهم فلم نرهم ولا شك أنهم قتلوا . فقال خالد (رض) ان القوم في الاسر لا محالة فقال الزبير بن العوام : من اين علمت ذلك يا ابا سليمان ؟ فقال خالد (رض) انا لم نجد في المعركة غير عشرة رجال ونحن عشرون وانتم خمسة وعشرون وقد اسر خمسة رجال لا محالة وكان الاسرى رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الازور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان فعظم ذلك على المسلمين ورجعوا الى أبي عبيدة (رض) ، فلما نظر الى الفضل بن العباس والى الزبير بن العوام والمرقال بن هاشم وقد رجعوا سالمين فرحين بما نصرهم الله على الكافرين سجد على قربوس سرجه شكرا لله تعالى . فقال خالد بن الوليد (رض) معاشر المسلمين ، لقد بذلت مهجتي ان اقتل في سبيل الله تعالى فلم أرزق الشهادة فمن قتل من المسلمين كان اجله قد حضر ومن أسر كان خلاصه على يدي ان شاء الله تعالى قال وباتت الفرسان في فرح وسرور وبات الروم في نوح عظيم حين كسرت حامية عسكرهم .

(قال الواقدي) حدثني من اثق به ان الامير ابا عبيدة (رض) لما نظر الى عساكر الروم معولة على قتاله كتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أبي عبيدة عامر بن الجراح عامله ، سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) . واعلم يا امير المؤمنين أن كلب الروم هرقل قد استفز علينا كل من يحمل الصليب ، وقد سار القوم الينا كالجراد المنتشر وقد نزلنا باليرموك بالقرب من أرض الرماة والخولان والعدو في ثمانمائة الف مقاتل غير التبع وفي مقدمتهم ستون الفا من العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام ، فأول من لقينا جبلة بن الايهم في ستين الف فارس وأخرجنا اليه ستين رجلا ، فهزم الله تعالى المشركين على أيديهم ــ وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ــ وقتل من اصحابنا عشرة رجال ، وهم راعلة وجعفر بن المسيب ونوفل بن ورقة وقيس بن عامر وسلمة بن سلامة الخزرجي ، وأسر منهم خمسة رجال ، وهم رافع بن عميرة وربيعة بن عامر وضرار بن الازور وعاصم بن عمرو ويزيد بن أبي سفيان ونحن على نية الحرب والقتال فلا تغفل عن المسلمين وامدنا برجال من الموحدين ، ونحن نسأل الله تعالى ان ينصرنا وينصر الاسلام وأهله والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته . وطوى الكتاب وسلمه الى عبدالله بن قرط الازدي وامره ان يتوجه الى مدينة يثرب . قال عبدالله بن قرط فركبت من اليرموك يوم الجمعة في الساعة العاشرة بعد العصر ، وقد مضى من شهر ذي الحجة اثنا عشر يوما والقمر زائد النور فوصلت يوم الجمعة في الساعة الخامسة والمسجد مملوء بالناس فانخت ناقتي على باب جبريل عليه السلام وأتيت الروضة وسلمت على رسول

الله (ص) وعلى ابي بكر الصديق (رض) وصليت فيها ركعتين ونشرت الكتاب الى عمر بن الخطاب (رض) . قال فضجت المسلمون عند رؤيته وتطاولت الى عمر بن الخطاب (رض)، وقبلت يديه وسلمت عليه ، فلما فتح عمر الكتاب انتقع لونه وتزعزع كونه ، وقال : انا لله وانا اليه راجعون . فقال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس وعبد الرحمن بن عوف وطلحة وغيرهم من الصحابة : يا امير المؤمنين اطلعنا على ما في هذا الكتاب من امر اخواننا المسلمين ، فقام عمر (رض) ورقى المنبر خطيبا وقرا الكتاب على الناس ، فلما سمعوا ما فيه ضجوا بالبكاء شوقا الى اخوانهم وشفقة عليهم وكان أكثر الناس بكاء عبد الرحمن بن عوف (رض) ، وقال يا أمير المؤمنين ابعث بنا اليهم ولو قدمت انت الى الشام لشدت بك ظهور المسلمين فوالله ما املك الا نفسي ومالي وما ابخل بهما على المسلمين . قال فلما سمع عمر بن الخطاب كلام عبد الرحمن بن عوف ونظر الى اشفاق المسلمين وجزعهم على اخوانهم اقبل على عبدالله . وقال يا بن قرط من المقدم على عساكر الروم فقلت خمسة بطارقة احدهم ابن اخت الملك هرقل وهو قورين والديرجان وقناطير وجرجير وصلبانهم تحت صليب ماهان الارمني وهو الملك على الجميع وجبلة بن الايهم الغساني مقدم على ستين الف فارس من العرب المتنصرة فاسترجع عمر وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم قرأ عمر : يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم قال ما تشيرون به علي رحمكم الله تعالى . فقال له علي بن ابي طالب (رض) ابشروا رحمكم الله تعالى فان هذه الوقعة يكون فيها آية من آيات الله تعالى يختبر بها عباده المؤمنين لينظر أفعالهم وصبرهم فمن صبر واحتسب كان عند الله من الصابرين واعلموا أن هذه الوقعة هي التي ذكرها لي رسول الله (ص) التي يبقى ذكرها الى الابد هذه الدائرة المهلكة ، فقال العباس : علي من هي يا ابن اخي ، فقال : يا عماه علي من كفر بالله واتخذ معه ولدا فثقوا بنصر الله عز وجل ، ثم قال لعمر يا امير المؤمنين اكتب الى عاملك ابي عبيدة كتابا واعلمه فيه ان نصر الله خير له من غوثنا ونجدتنا فيوشك انه في امر عظيم فقام عمر ورقى المنبر وخطب خطبة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون وذكر فضل الجهاد ثم نزل وصلى بالمسلمين ، فلما فرغ من صلاته كتب الى ابي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر امير المؤمنين الى امين الامة ابي عبيدة بن الجراح ومن معه من المهاجرين والانصار سلام عليكم فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) أما بعد فان نصر الله خير لكم من معونتنا ، واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير يهزم الجمع القليل وانما يهزم الجمع القليل وانما يهزم بما أنزل الله من النصر وان الله عز وجل يقول — ولن تغنى عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين — وربما ينصر الله العصابة القليل عددها على العصابة الكثيرة وما النصر الا من عند الله ، وقد قال تعالى — فمنهم من قضى

نحبه ومنهم من ينتظر ـ الآية ، يا طوبى للشهداء ويا طوبى لمن يتكل على الله . فالق العدو بمن معك من المسلمين ولا تيأس بمن صرع من المسلمين ، فقد رأيت من صرع بين يدي رسول الله (ص) وما عجزوا عن عدوهم في مواطن كثيرة حتى قتلوا في سبيل الله ، ولم يهابوا لقاء الموت في جنب الله تعالى بل جاهدوا في سبيل الله حق جهاده ـ وما كان قولهم الا ان قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ـ ، فاذا ورد عليك كتابي هذا فاقرأه على المسلمين وامرهم أن يقاتلوا العدو في سبيل الله عز وجل واقرأ عليهم ـ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ـ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم طوى الكتاب وسلمه الى عبدالله بن قرط ، وقال له : يا ابن قرط اذا أشرفت على المسلمين وقد استوت الصفوف فسر بين صفوف الموحدين وقف على أصحاب الرايات منهم وخبرهم أنك رسولي اليهم وقل لهم ان عمر بن الخطاب يسلم عليكم ويقول لكم : يا أهل الايمان اصدقوهم الحرب عند اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف وليكونوا عليكم اهون من الذباب فانكم المنصورون عليهم ان شاء الله تعالى ، ثم اقرأ عليهم ـ الا ان حزب الله هم الغالبون ـ . قال عبدالله بن قرط قلت له يا امير المؤمنين ادع الله تعالى لي بالسلامة والسرعة في السير .

فقال عمر بن الخطاب (رض) : اللهم احمه وسلمه واطو له البعيد انك على كل شيء قدير . قال عبدالله بن قرط وخرجت من المسجد من باب الحبشة ، فقلت في نفسي لقد أخطأت في الراي اذ لم اسلم على قبر رسول الله (ص) فما ادري اراه بعد اليوم أم لا ، قال عبدالله فقصدت حجرة رسول الله (ص) وعائشة (رض) جالسة عند قبره ، وعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه والعباس جالسان عند القبر والحسين في حجر علي والحسن في حجر العباس (رض) وهم يتلون سورة الانعام وعلي (رض) يتلو سورة هود ، فسلمت على رسول الله (ص) فقال علي (رض) يا ابن قرط عولت على المسير الى الشام فقلت نعم يا ابن عم رسول الله (ص) وما اظن أن أصل اليهم الا والجيش قد التقى والحرب دائرة واذا أشرفت عليهم لا يرون معي مدادا ولا نجدة خشيت عليهم ان يهنوا ويجزعوا وكنت احب ان اصل اليهم قبل التقائهم بعدوهم حتى اعظهم واصبرهم . فقال علي (رض) فما منعك ان تسأل عمر بن الخطاب أن يدعو لك ، اما علمت يا ابن قرط أن دعاءه لا يرد ولا يحجب وان رسول الله (ص) قال فيه « لو كان نبي ثان بعدي لكان عمر بن الخطاب » اليس هو الذي يوافق حكمه حكم الكتاب حتى قال المصطفى (ص) « لو نزل من السماء الى الارض عذاب ما نجا منه الا عمر بن الخطاب » ، أما علمت أن الله تعالى انزل فيه آيات بينات ، اما هو الزاهد التقي ، اما هو العابد ، اما هو المشبه بنوح النبي فان كان هو قد دعا لك فقد قرن دعاؤه

بالاجابة . فقال عبدالله بن قرط ما ذكرت شيئا الا وانا عارف به من فضل عمر بن الخطاب (رض) ولكني اردت الزيادة من دعائك ودعاء العباس عم رسول الله (ص) ولا سيما عند قبر الرسول المعظم المكرم . قال فرفع العباس (رض) عند يديه وعلي (رض) كذلك وقالا : اللهم انا نتوسل بهذا النبي المصطفى والرسول المجتبي الذي توسل به آدم فأجبت دعوته ، وغفرت خطيئته الا سهلت على عبدالله طريقه وطويت له البعيد وايدت أصحاب نبيك بالنصر انك سميع الدعاء ، ثم قال سر يا عبدالله بن قرط فالله تعالى اكرم من أن يرد دعاء عمر وعباس وعلي والحسن والحسين وازواج رسول الله (ص) وقد توسلوا اليه بأكرم الخلق عليه . قال عبدالله بن قرط فخرجت من الحجرة وانا فرح مستبشر واستويت على كور المطية وركبت الفلاة وانا فرح بدعاء علي والعباس وعمر (رض) اجمعين . قال عبدالله خرجت من المدينة بعد العصر من يومي ذلك الذي دخلت فيه المدينة وانا ارقب الطريق ، فلما اختلط الظلام واسبل الليل سجفه ارخيت زمام المطية فحسبت انها تطير بي ولم ازل سائرا ثلاثة أيام . فلما كانت صلاة العصر من اليوم الثالث اشرفت على اليرموك وسمعت ضجيج اذان المسلمين . قال عبدالله فقصدت خيمة الامير أبي عبيدة (رض) وانخت ناقتي وسلمت عليه وكان لي منذ فارقته عشرة ايام فأخبرته بدعاء عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب والعباس والحسن والحسين (رض) . فقال ابو عبيدة صدقت يا ابن قرط وانهم لكرام على الله عز وجل وان دعاءهم لا يرد ، ثم قرأ الكتاب على المسلمين فطابت قلوبهم بذلك ، وقالوا أيها الامير ما منا الا من يطلب الشهادة فالله تعالى يبلغنا اياها .

(قال الواقدي) حدثني عمرو بن العلاء ، قال حدثنا ماجد عن الثقات ، قال لما سار عبدالله ابن قرط من المدينة يوم الجمعة ، فلما كان يوم السبت وقد صلينا الصبح خلف عمر بن الخطاب ونحن نقرأ من القرآن ما تيسر ، اذ سمعنا ضجة عظيمة وجلبة هائلة ففزعت قلوبنا فخرجنا مبادرين واذا نحن بقوم من اليمن من صدوان وارض سبأ وحضرموت واجتمعوا للجهاد ، وهم ستة آلاف يقدمهم جابر بن خول الربعي ، فترجلت ساداتهم وسلموا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فأمرهم بالنزول ، فلما أقبل الظلام جاء الف فارس من مكة والطائف ووادي نخلة وثقيف يقدمهم سعيد بن عامر وسلموا على عمر ونزلوا بازاء اهل اليمن ، فلما كان يوم الاحد حمل عمر ضعيفهم وزودهم وعقد راية حمراء على قناة تامة وسلمها الى سعيد بن عامر . قال سعيد بن عامر فهممت بالمسير ، فقال عمر على رسلك يا ابن عامر حتى أوصيك . ثم أقبل عمر بن الخطاب يمشي راجلا ومعه عثمان بن عفان والعباس وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف ، فلما قربوا من الجيش وقف عمر والناس حوله ، وقال لسعيد بن عامر : يا سعيد اني وليتك على هذا الجيش ولست بخير رجل منهم الا أن نتقي الله فاذا سرت فارفق بهم ما استطعت ، ولا تشتم أعراضهم ولا تحتقر

صغيرهم ولا تؤثر قويهم ولا تتبع سواك ولا تسلك بهم المفاوز واقطع بهم السهل ولا ترقد بهم على جادة الطريق والله تعالى خليفتي عليك وعلى من معك من المسلمين ، فقال له علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : اسمع وصية امامك امير المؤمنين الذي ختم الله تعالى به الاربعين وسميت به الامة مؤمنين وهو الذي قال فيه رسول الله (ص) « ان تطيعوه تهتدوا وترشدوا » فسر يا سعيد واذا وصلت الى ابي عبيدة والتقى بكم الجيش الذي لا تلقون مثله ، وصعب عليكم امره فاكتبوا الى امير المؤمنين عمر حتى يوجهني اليكم حتى اقلب ارض الشام على من فيها من المشركين ان شاء الله تعالى . قال فسار بن عامر وهو يقول :

نسير بجيش من رجال اعزة	على كل عجعاج من الخيل يصبر
الى شبل جراح وصحب نبينا	لننصره والله للدين ينصر
على كل كفار لعين معاند	تراه على الصلبان بالله يكفر

قال وسار يجد السير . قال سعيد بن عامر وكنت عارفا ببلاد الشام وطرقه وكنت اسير اليه في السنة مرة أو مرتين عسفا من غير جادة طريق اسير على الكواكب ، فلما سرت من المدينة وانا بين يدي المسلمين سلكت بهم على طريق بصرى فضللت عن الطريق وعدلت عن الجادة وانا محترز من العدو وخائف على المسلمين فجعلت أحيد عن العمارات واسلك الفلاة توفيقا من الله واكراما ولطفا بعباده المؤمنين ، فلما ضللت اشكل علي الطريق كأني ما سلكته يوما قط فوقفت حائرا حتى تلاحق بي المسلمون فلم اعلمهم بأمري ولا اني ضللت عن الطريق ، وانا اقول : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فسرت يومين وليلتين وانا اتيه بالناس والمسلمون يسألونني عن ذلك ، وانا اقول لهم اني على طريق ، فلما كان في اليوم العاشر من مسيرنا من المدينة لاح لي جبل عظيم فنظرت اليه وحققته فلم اعرفه ، فقلت غررت والله بالمسلمين ، وانا أقول في نفسي اترى هذا جبل بعلبك وقد سهل علينا الطريق ، وكان الجبل قد لاح لنا من بعيد من اول النهار وما أدركناه الا والليل قد اقبل ، فلما صرنا بقربه اعترضنا واد عظيم فيه شجرة عظيمة كبيرة قال فلما تأملت الشجرة عرفتها ، وقلت لاصحابي أبشروا فقد وصلنا الى بلاد الشام وفتح المسلمين ودخلنا الوادي واذا به وعر ليس فيه جادة ولا طريق فلحق المسلمين من هوله تعب عظيم . قال سعيد بن عامر وكان اكثر المسلمين رجالة ، وانما كان يحمل بعضهم بعضا ويتعقبون على ظهور الخيل والابل .

فلما نظرت المسلمون الى وحشة ذلك الوادي ووعورة مسلكه قالوا يا سعيد انا نظن انك قد اخطأت الطريق وسلكت بنا غير طريقنا فأرحنا في هذا الوادي قليلا فقد اضر بنا المسير قال فأجبتهم الى ذلك ، وكان في الوادي عين ماء غزيرة فنزل المسلمون عليها فشربوا وسقوا خيلهم وابلهم ورعت الخيل والجمال ورق الشجر ونام أكثر الناس وبعضهم يصلي على محمد . قال سعيد بن عامر وكنت جلست في

آخر الناس أحرسهم ، وانا أتلو القرآن العظيم ، وادعو الله لنا بالسلامة اذ غلبتني عيني فنمت فرايت في منامي كاني في جنة خضراء كثيرة الاشجار والثمار وكاني آكل من ثمرها واشرب من انهارها واجني من ثمرها واناول أصحابي وهم يأكلون ، وانا فرح مسرور . فبينما انا كذلك اذ خرج من بين تلك الشجر اسد عظيم فزأر في وجهي وهم أن يفترسني ، وانا من ذلك فزع مرعوب اذ خرج على الاسد اسدان عظيمان فصرعاه في موضعه فسمعت له خوارا عظيما فانتبهت من نومي وحلاوة ذلك الثمر في فمي الاسود تتمثل بين يدي . قال سعيد بن عامر ففسرتها انها غنيمة يأخذها المسلمون ويمنعنا منها مانع ونظفر به . فقلت في نفسي الجنة هي الشهادة . قال سعيد بن عامر ولم ازل جالسا أتلو القرآن ، وانا قلق اذ سمعت هاتفا يهتف بي عن يمين الوادي ، وهو يقول :

يا عصبة الهادي الى الرشاد ... لا تفزعوا من وعر هذا الوادي
ما فيه من جن ولا معادي ... ستعلمون معشر العباد
لطف الذي يرفق بالاولاد ... ويطرح الرحمة في الاكباد
سيصنع الله بكم رشاد ... وتغنموا المال مع الاولاد

قال سعيد بن عامر ، فلما سمعت شعر الهاتف وما يشير به من الغنيمة سجدت لله تعالى شكرا واستيقظ المسلمون لصوت الهاتف . قال سعيد بن عامر وكنت قد حفظت من الهاتف بيتا وحفظ سماح ثلاثة ابيات ، وانشدني اياها وفرح المسلمون بما سمعوا من الهاتف وطابت قلوبهم بالغنيمة واقام المسلمون في الوادي حتى اصبح الصباح وصلى بهم سعيد بن عامر صلاة الفجر ، فلما طلعت الشمس خرج المسلمون من الوادي وحققت تلك الارض والجبل ، واذا به جبل الرقيم ، فلما رأيته عرفته فرفعت صوتي بالتكبير ، وقلت الله اكبر وكبرت المسلمون لتكبيري ، وقالوا ما الذي رأيت يا ابن عامر ؟ فقلت وصلنا الى بلاد الشام ، وهذا جبل الرقيم . قال سعيد وأكثر من معي طماعو العرب . قالوا يا سعيد وما الرقيم ؟ أما تعرفه فحدثتهم بحديث الرقيم ، قال سعيد فعجبوا من ذلك . ثم أقبلت بهم الى الغار فصلوا فيه ، ثم سرنا حتى أشرفنا على بلاد عمان . قال سعيد بن عامر فعدلت الى قرية هناك يقال لها الجنان فنظرت الى دهاقين القرية وهم خارجون منها ومعهم الاهل والاولاد ، فلما رآهم المسلمون حملوا عليهم من غير اذن لهم وأخذوا بعضهم اسارى فرجع القوم الى القرية ، وكان فيها حصن منيع فتحصنوا فيها منا ، قال سعيد بن عامر فقربت من الحصن وصحت بهم ، وقلت يا ويلكم ما بالكم كنتم خارجين من قريتكم فرجعتم فأشرف علي واحد منهم ، وقال لي يا معاشر العرب اعلموا اننا كنا خارجين من المدينة ففزعنا منكم وذلك أن صاحب عمان بعث الينا وامرنا بالمسير الى عمان لنكون من تحت كنفه في عمان ، والآن يا معاشر العرب هل لكم أن نكون في ذمامكم وامانكم .

قال سعيد نعم فوقع الصلح بيننا على عشرة آلاف دينار وكتبت لهم كتاب الصلح ، فلما هممت بالمسير . قالوا يا معاشر العرب قد صالحناكم ونحن خائفون من قومنا واعلموا ان نقيطاس صاحب عمان لا بد أن نلقى منه شدة عظيمة فلو ظفرتم به لكان خيرا لنا ولكم ، فقلت : فكيف نظفر به ؟ ,فقالوا ان الملك ماهان مقدم العساكر قد بعث بذلك اليه ، وان أنتم ظفرتم بصاحب عمان ملكتم غنيمة جسيمة ، فقال سعيد بن عامر (رض) وفي كم يكون جيش عمان ، فقالوا في خمسة آلاف فارس ، ولكن قد وقع خوفكم في قلوبهم فلن يفلحوا اذا ابدا ،فقال سعيد بن عامر يا معاشر المسلمين ما تقولون في لقاء هذا البطريق صاحب عمان واخذ غنيمته ، فقالوا افعل ما تريد فان قتله الله على ايدينا كان ذلك صلاحا للمسلمين ووهنا على المشركين . فقال سعيد بن عامر لاهل القرية على أي طريق يأتي القوم ، فقالوا على هذا الطريق . .

قال فدلونا على طريق عمورية فسرنا الى واد عظيم وكمنا فيه يوما وليلة فلم يأتنا احد ، فلما اصبح الصباح قال سعيد يا معاشر المسلمين ان الذي وجهنا اليه عمر بن الخطاب من نجدة ابي عبيدة والمسلمين افضل من مقامنا هنا فاخرجوا رحمكم الله . فانا اذا أشرفنا على المسلمين في سبعة آلاف فارس كان ذلك وهنا على المشركين وذلة للكافرين ، فقال المسلمون يا ابن عامر ان قلوبنا توقن بالغنيمة فلا تحرمنا ذلك قال فبينما هم في المحاورة اذا أشرف عليهم جماعة من القسوس والرهبان وعليهم ثياب الشعر وفي أيديهم الصلبان ، وقد حلقوا أوساط رؤوسهم فابتدر المسلمون اليهم وأخذوهم واوقفوهم بين يدي سعيد بن عامر ، فقال لهم من أنتم وكان فيهم قس كبير فكلم سعيدا ، وقال نحن رهبان هذه الاديرة والصوامع ونريد أن نصل الى قسطنطين ولد الملك هرقل حتى ندعو للعساكر بالنصر قال سعيد فادعوا وما دعاء الكافرين الا في ضلال فما وراءكم من الاخبار ، قالوا وراءنا صاحب عمان في خمسة آلاف فارس من فرسان النصرانية وعباد الصليب ، فقال سعيد اللهم اجعلهم غنيمة لنا . ثم قال سعيد للقسيس الذي خاطبه اسمع أيها الشيخ ان نبينا أمرنا أن لا نتعرض لراهب حبس نفسه في صومعة ولولا أنكم تنذرون العدو لخلينا سبيلكم ، ثم أمر المسلمين أن يوثقوهم كتافا فأوثقوهم بزنانيرهم التي في أوساطهم ، فبينما نحن كذلك اذ أشرف علينا جيش عمان والرجالة أمامهم يعزلون لهم الحجر من الدروب ، فلما أشرفوا علم المسلمين حمل عليهم المسلمون من غير أهبة ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فقتلوا الرجالة عن آخرهم فأخبر صاحب عمان بذلك ، فلما نظر الى صنع المسلمين أمر اصحابه بالحملة فحملوا عليهم حملة عظيمة واقتتلوا قتالا شديدا ، قال سعيد بن عامر ونظرت الى المسلمين وهم يقتلون الروم قتلا ذريعا ويضجون بالتهليل والتكبير ، فلما نظر البطريق صاحب عمان ما صنع المسلمون بأصحابه ولى منهزما طالب عمان وتبعه قومه وتبعهم المسلمون وبعضهم مال الى الغنيمة

والبطريق نقبطاس صاحب عمان في الهرب ، وكان قد سبق فوقف حتى تلاحق به المنهزمون من قومه ، قال فبينما هم كذلك اذ اشرف عليهم خيل من ورائهم تسرع بركابها ، وقد أطلقوا الاعنة وقوموا الاسنة وهم زهاء من الف فارس يقدمهم فارسان كأنهما اسدان احدهما الزبير بن العوام والآخر الفضل بن العباس فحملوا على الروم فقتلوهم قتلا ذريعا وحمل الزبير بن العوام على نقيطاس بطريق عمان وهو واقف تحت الصليب فطعنه الزبير فتنا.ه عن جواده وعجل الله بروحه الى النار واقبل الفضل بن العباس يجندل الفرسان وينكس الابطال ، قال واشرف سعيد بن عامر على الموضع فراى الحرب قائمة فظن انه وقع بينهم الخلف ، فلما قربوا منهم سمعوا التهليل والتكبير ، فقالوا هذه دعوة الحق لمن قالها فاقتحم سعيد ابن عامر المعركة فسمع الفضل بن العباس ، وهو ينتمي باسمه ، ويقول أنا ابن عم رسول الله (ص) .

قال سعيد بن عامر فوالله ما انفلت من القوم احد ، فقلت له لله درك يا ابن العباس ومن معك من أصحاب رسول الله (ص) ، فقال معي الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله (ص) . قال سعيد بن عامر فوالله ما انفلت من القوم احد الا بين اسير وقتيل وغنم المسلمون غنيمة عظيمة وسلم بعضهم على بعض واقبل الزبير على سعيد بن عامر ، وقال يا ابن عامر ما الذي حبسك عن المسير جهتنا ، وقد جاءنا سالم بن نوفل العدوي واخبرنا بمسيرك الينا ، وقد ساءت بك ظنوننا فأرسلنا ابو عبيدة لنفير على عمان والحمد لله على سلامة المسلمين ودمار المشركين ، ثم امر الزبير برؤوس القتلى فسلخت وحملتها العرب على اسنة الرماح فكانت الرؤوس اربعة آلاف راس والاسرى الف اسير . قال واطلق سعيد بن عامر الرهبان وسار المسلمون حتى اشرفوا على أبي عبيدة (رض) ، ورفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير واجابهم جيش المسلمين بمثل ذلك فانزعجت قلوب الروم لذلك ونظروا الى ثمانية آلاف فارس والرؤوس معهم على الاسنة فبهتوا لذلك وحدث سعيد بن عامر أبا عبيدة بالنصر وغنيمتهم من الروم فسجد شكرا لله عز وجل وامر بالالف اسير فضربت اعناقهم والروم ينظرون اليهم . قال قطبة بن سويد واخبرت الروم انه لم ينج احد من جيش عمان .

(قال الواقدي) لما اسر الخمسة من اصحاب رسول الله (ص) اغتم لفقدهم اصحاب رسول الله (ص) وكان اكثرهم غما ابو عبيدة بن الجراح واقبل على البكاء والتضرع يدعو لمن اسر بالخلاص ، واما الخمسة فانهم مثلو بين يدي ماهان لعنه الله تعالى وغضب عليه ، فلما نظر اليهم استحقر شأنهم ، وقال لجبلة بن الايهم من هؤلاء ؟ قال أيها الملك هؤلاء قوم من جيش المسلمين ، وقد كانوا ستين رجلا فقتلت اكثرهم واسرت هؤلاء وما بقي في عسكرهم من تخاف غائلته الارجل واحد وهو الذي يثبتهم ويرمي بهم كل المرامي ، وهو الذي فتح اركة وتدمر وحوران وبصرى ودمشق ، وهو الذي كسر عساكر أجنادين وتبع توما وهربيس وقتلهم في مرج الديباج واسر ابنة

الملك هرقل وهو خالد بن الوليد . قال فلما سمع ماهان ذلك قال لا بد لي ان احتال على هذا الرجل حتى احصله عندي واقتله مع هؤلاء الخمسة الاسرى ، ثم دعا ماهان برجل من الروم اسمه جرجة وكان حكيما فاضلا عند الروم فصيحا بلسان العرب . فقال يا جرجة اريد ان تمضي الى هؤلاء العرب وتقول لهم يبعثوا لنا رسولا وليكن هذا الرسول الرجل المسمى بخالد قال فركب جرجة وسار نحو عساكر المسلمين فالتقى بخالد بن الوليد . فقال له ما الذي تريد ؟ فقال ان الملك ماهان قد بعثني اليكم حتى تبعثوا رجلا منكم فلعل الله أن يحقن دماءنا ودماءكم فقال خالد بن الوليد (رض) انا اكون الرسول اليه واوقف رسول الروم بين يديه ويدي ابي عبيدة (رض) واخبره انه يريد المسير الى ماهان . فقال ابو عبيدة امض يا ابا سليمان سلمك الله تعالى فلعل الله تعالى أن يهديهم او يدعونا للصلح واداء الجزية ، فتحقن الدماء على يدك فحقن دم رجل واحد احب الى الله تعالى من اهل الشرك جميعا . فقال خالد بن الوليد (رض): انا اطلب من الله تعالى العون .

ثم وثب خالد بن الوليد (رض) الى خيمته ولبس خفين حجازيين وتعمم بعمامة سوداء وشد وسطه بمنطقة من الاديم وتقلد سيفه الذي استلبه من مسيلمة الكذاب يوم اليمامة وأمر عبده عمان أن يأخذ قبته الحمراء وكانت من الاديم الطائفي وفيها شمعات من الذهب الاحمر وحليتها من الفضّة البيضاء وكان خالد قد اشتراها من امراة ميسرة بن مسروق العبسي بثلثمائة دينار فحملها على بغل وركب خالد جواده ، فلما هم بالمسير قال له ابو عبيدة يا أبا سليمان خذ معك رجالا من المسلمين يكونون لك عونا . فقال خالد أيها الامير أحب ذلك ولكن لا اكراه في الدين ، وليس لي عليهم طاعة فأمر من شئت ، فلما سمع المسلمون كلام خالد بن الوليد (رض) . قال معاذ بن جبل يا أبا سليمان انك من اهل الفضل ولو أمرتنا بأمر امتثلناه لانك سائر في طاعة الله تعالى ورسوله .

(قال الواقدي) فاستركب معه مائة فارس من المهاجرين والانصار منهم المرقال بن عتبة بن ابي وقاص وشرحبيل بن حسنة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل العدوي وميسرة بن مسروق العبسي وقيس بن هبيرة المرادي وسهل بن عمرو العامري وجرير بن عبدالله البجلي والقعقاع بن عمرو التميمي وجابر بن عبدالله الانصاري وعبادة بن الصامت الخزرجي والاسود بن سويد المازني وذو الكلاع الحميري والمقداد بن الاسود الكندي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي (رض) اجمعين ، ولم يزل خالد ينتخب مثل هؤلاء السادات (رض) حتى كمل منهم مائة فارس كل فارس منهم يرد جيشا وحده فاخذوا زينتهم واشتملوا بلباس الحرب وتوشحوا بالابراد وتعمموا بالعمائم وتمنطقوا بالخناجر وتقلدوا بالسيوف وركبوا الخيل العتاق ، وسار خالد بن الوليد (رض) وعن يمينه معاذ بن جبل وعن شماله المقداد بن الاسود الكندي والمائة فارس محدقون

به . قال معاذ بن جبل (رض) وسرنا ونحن نعلن بالتهليل والتكبير . قال نصر بن سالم المازني فنظرت الى أبي عبيدة (رض) حين سار خالد بمن معه يقرأ آية من القرآن ودموعه جارية على خده . فقلت أيها الامير ما يبكيك ؟ فقال يا بن سالم هؤلاء والله انصار الدين فان أصيب رجل منهم في امارة أبي عبيدة فما يكون عذري عند رب العالمين وعند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) .

(قال الواقدي) فلما اشرف خالد بن الوليد (رض) ومن معه على عساكر الروم نظر المسلمون الى عساكر الروم وهم خمسة فراسخ في العرض ، وعن نوفل بن دحية أن خالد بن الوليد لما ترجل عن جواده وترجل المائة جعلوا يتبخترون في مسيرهم ويجرون حمائل سيوفهم ويخترقون صفوف الحجاب والبطارقة ولا يهابون احدا الى أن وصلوا الى النمارق والفراش والديباج ولاح لهم ماهان وهو جالس على سريره ، فلما نظر أصحاب رسول الله (ص) الى ما ظهر من زينته وملكه عظموا الله تعالى وكبروه وطرحت لهم الكراسي فلم يجلسوا عليها ، بل دفع كل واحد منهم ما تحته وجلسوا على الارض ، فلما نظر ماهان الى فعلهم تبسم وقال يا معاشر العرب لم تأبون كرامتنا ولم ازلتم ما تحتكم من الكراسي وجلستم على الارض ولم تستعملوا الادب معنا ودستم على فراشنا ؟ . قال فقال خالد بن الوليد ان الادب مع الله تعالى افضل من الادب معكم وبساط الله أطهر من فرشكم لان نبينا محمدا (ص) قال جعلت لي الارض مسجدا وطهورا ثم قرأ قوله تعالى ـ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى ـ .

(قال حدثني) عاصم بن رواح الزبيدي قال حدثنا بن عبدالله الشيباني قال حدثنا طرفة بن شيبة الخولاني عن عمه جرير وكان محالفا لخالد بن الوليد (رض) قال لم يكن بين خالد وماهان ترجمان يبلغ عنهما ، بل كانا يتحدثان كلاهما . فقال خالد يا ماهان اني أكره أن ابدأك بالكلام فتكلم انت بما تريد فاني لست ابالي بما تتكلم ولكل كلام جواب فان شئت فتكلم وان شئت بدأتك ، قال ماهان : انا ابدؤكم الحمد لله الذي جعل سيدنا الروح المسيح كلمته وملكنا افضل الملوك وامتنا خير الامم ، قال فعظم ذلك على خالد بن الوليد وقطع خالد كلامه فقال الترجمان لا تقطع كلام الملك يا أخا العرب واستعمل حسن الادب فأبى خالد ان يسكت ، بل قال خالد : الحمد لله الذي جعلنا نؤمن بنبينا ونبيكم وجميع الانبياء وجعل اميرنا الذي وليناه امورنا كبعضنا لو زعم انه يملك علينا لعزلناه فلسنا نرى أن له فضلا علينا الا ان يكون اتقى لله عز وجل منا وقد جعل الله امتنا تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتقر بالذنب وتستغفر منه وتعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، قال فاصفر وجه ماهان وسكت قليلا .

ثم قال : الحمد لله الذي ابلانا وأحسن البلاء الينا وعافانا من الفقر ونصرنا على الامم واعزنا ومنعنا من الضيم ولسنا فيما خولنا الله فيه من نعيم الدنيا بطرين ولا باغين على الناس وقد كان يا معاشر العرب طائفة منكم يغشوننا ويلتمسون نائلنا

ورفدنا وجوائزنا ونحن نحسن اليهم ونكرمهم ونكرم ضعيفهم ونعظم قدرهم ونتفضل عليهم ونفي لهم بالوعد وكنا نظن أن العرب كلها تعرف لنا ذلك من جميع القبائل وتشكرنا عليه لما أسدينا من عطايانا الجميلة لهم ، فما شعرنا حتى جئتمونا بالخيل والرجل وظننا انكم تطلبون منا طلب اخوانكم فاذا انتم على خلاف راي أولئك ، جئتم تقتلون الرجال وتسبون النساء وتغنمون الاموال وتهدمون الاطلال وتطلبون أن تخرجونا من أرضنا وتغلبونا على بلادنا ، وقد طلب منا ذلك من كان قبلكم ممن هو أكثر منكم عددا وأكثر أموالا وسلاحا وظهرا فرددناهم خائفين وجلين خائبين بين قتيل وجريح وطريد وطريح فأول ما فعلنا ذلك بملك فارس فرده الله على عقبيه بالخيبة والذل وكذلك فعلنا بملك الترك وملك الجرامقة وغيرهم وانتم لم يكن في أمة من الامم أصغر منكم مكانا ولا أحقر شأنا لانكم اهل الشعر والوبر والبؤس والشقاء وانكم مع ذلك تظلمون في بلادكم وبلادنا وحوالينا أمة كثيرة العدد وشوكتنا شديدة وعصبتنا عظيمة ، وانما قبلتم علينا لانكم خرجتم من جدوبة الارض وقحط المطر فانجليتم الى بلادنا وافسدتم كل الفساد وركبتم مراكب ليست كمراكبكم ولبستم ثيابا ليست كثيابكم وتمتعتم ببنات الروم البيض الاوانس فجعلتموهن خدما لكم واكلتم طعاما ليس كطعامكم وملئت ايديكم من الذهب والفضة والمتاع الفاخر ، ولقد لقيناكم الآن ومعكم اموالنا وما غنمتموه من قومنا واهل ديننا وقد تركناه لكم لا نطالبكم به ولا ننازعكم فيه ولا نعتب عليكم فيما تقدم من فعالكم والآن فاخرجوا من بلادنا فان أبيتم الانصراف عنا عزمنا عليكم عزمة فنترككم كأمس الدابر ، وان جنحتم للصلح نأمر لكل واحد من عسكركم بمائة دينار وثوب ولاميركم أبي عبيدة بألف دينار ولخليفتكم عمر بن الخطاب بعشرة آلاف دينار وعلى انكم تحلفون لنا أن لا تعودوا الى حربنا .

(قال الواقدي) وماهان يرغب تارة ويرهب اخرى وخالد مطرق لا يتكلم حتى فرغ ماهان من كلامه . فقال خالد : ان الملك قد تكلم فأحسن وسمعنا كلامه ونتكلم ويسمع كلامنا ، ثم قال خالد بن الوليد (رض) : الحمد لله الذي لا اله الا هو ، فلما سمع ماهان ذلك مد يده الى السماء وقال نعم ما قلت يا عربي . فقال اشهد أن لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله المرتضى ونبيه المجتبى (ص) . فقال ماهان ما ادري أمحمد رسول الله أم لا ولعله كما تقول وتزعم وتذكر . فقال خالد (رض) : حسب الرجل دينه ، ثم قال افضل الساعات وخيرها الساعات التي يطلع فيها الله رب العالمين فالتفت ماهان الى قومه ، وقال بلسانه انه رجل عاقل يتكلم بالحكمة . فقال خالد ما الذي قلت لقومك فاخبره بمقالته . فقال خالد ان كنت أوتيت العقل فالله تعالى المحمود على ذلك ، وقد سمعنا نبينا محمدا (ص) يقول « لما خلق الله تعالى العقل وصوره وقدره قال اقبل فاقبل ، ثم قال له ادبر فادبر . فقال الله تعالى وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أحب الي منك بك تنال طاعتي وتدخل جنتي » . فقال ماهان :

اذا كنت بهذا العقل والفهم فلم جئت بهؤلاء معك ،قال خالد بن الوليد (رض) جئت بهم لاشاورهم . قال ماهان وانت مع جودة عقلك وحسن رأيك وبصيرتك تحتاج الى مشورة غيرك ، قال خالد : نعم بهذا امر الله عز وجل نبينا محمدا (ص) . فقال الله تعالى في كتابه العزيز ـ وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ـ وقال (ص) « ما ضاع امرؤ عرف قدره ، ولا ضاع مسلم استشار » فأنا وان كنت ذا راي وعقل كما تزعم وكما بلغك ، فاني لا استغني عن رأي ذي راي ومشورة اصحابي . قال ماهان : وهل في عسكركم من له راي مثل رأيك وحزم مثل حزمك . قال نعم : ان في عسكرنا أكثر من ألف فارس لا يستغني عن رأيهم ولا عن مشورتهم فقال له ماهان : ما كنا نظن ذلك فيكم ، وانما كان يبلغنا عنكم أنكم طماعون جهال لا عقول لكم يغير بعضكم على بعض وينهب بعضكم أموال بعض . فقال له خالد (رض) : ذلك كان شأن أكثرنا حتى بعث الله عز وجل فينا نبينا محمدا (ص) فهدانا لرشدنا وعرفنا سبيلنا ، وفهمنا الخير من الشر ، والهدى من الضلال . فقال ماهان : يا خالد انك قد أعجبتني بما أراه من رأيك وبصيرتك ، وقد أحببت أن أؤاخيك فتكون اخي وخليلي . فقال خالد بن الوليد (رض) : وافرحاه ان تمم الله مقالتك ، فتكون اذا سعيدا ولا نفترق . فقال ماهان وكيف ذلك ؟ . قال خالد تقول : اشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله الذي بشر به عيسى ابن مريم : فاذا فعلت ذلك كنت اخي وكنت اخاك وتكون خليلي واكون خليلك ولا نفترق الا لامر يحدث . فقال ماهان : أما ما دعوتني اليه من الترك لديني والدخول في دينكم فمالي الى ذلك من سبيل . فقال خالد بن الوليد : وكذلك ايضا لا سبيل الى مؤاخاتي لك وانت مقيم على دينك دين الضلال . قال ماهان : أريد أن القي الحشمة بيني وبينك واكلمك كلام الاخ لاخيه : فأجبني عن كلامي الذي دعوتك اليه حتى اسمع ما تقول .

قال خالد : اما بعد فانك تعلم أن الذي ذكرته مما فيه قومك من الغنى والعز ومنع الحريم والظهور على الاعداء والتمكن في البلاد ، فنحن عارفون به ، وكل ما ذكرته من انعامكم على جيرانكم من العرب فقد عرفناه ، ولكن انما فعلتم ذلك ابقاء لنعمتكم ونظرا منكم لانفسكم وذراريكم وزيادة لكم في مالكم وعزا لكم فتستكثرون جموعكم وتلقون الشوكة على من ارادكم ، وأما ما ذكرته من فقرنا ورعينا الابل والشاة فما منا من لم يرع واكثرنا رعاة ، ومن رعى منا كان له الفضل على من لم يرع ، وأما قولك باننا أهل فقر وفاقة وبؤس وشقاء ، فنحن لا ننكر ذلك ، وانما ذلك من أجل انا معاشر العرب أنزلنا الله تعالى منزلا ليس فيه انهار ولا اشجار ولا زرع الا قليل وكنا اهل جاهلية جهلاء لا يملك الرجل منا الا فرسه وسيفه وأباعره وشياهه ويأكل قوينا ضعيفنا ، ولا يأمن بعضنا بعضا الا في الاربع الاشهر الحرم نعبد دون الله الاصنام والاوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ونحن عليها مكبون ولها حاملون ، فبينما نحن

كذلك على شفا حفرة من النار من مات منا مات مشركا وصار الى النار ومن بقى منا
كان كافرا بربه قاطعا لرحمه حتى بعث الله لنا نبيا نعرف حسبه ونسبه هاديا مهديا
رسولا نبيا ، واماما تقيا اظهر الاسلام بدعوته ودحض المشركين بكلمته جاءنا بقرآن
مبين وصراط مستقيم ختم الله تعالى به النبيين ، وأمرنا بعبادة رب العالمين نعبده ولا
نشرك به شيئا ولا نتخذ من دونه وليا ، ولا نجعل لربنا صاحبة ولا ولدا لا شريك له
ولا ضد ولا ندله ولا نسجد للشمس ولا للقمر ولا للنور ولا للنار ولا للصليب ولا
للقربان ، ولا نسجد الا لله وحده لا شريك له ونقر بنبوة نبينا محمد (ص) وعلى آله
وصحبه أنزل الله عليه كلامه الذي هدانا به مولانا فاستجبنا له واطعنا امره ، فكان
مما أمرنا به أن نجاهد من لا يدين بديننا ولا يقول بقولنا ممن كفر بالله واتخذ معه
شريكا جل ربنا وتعالى عن ذلك لا تأخذه سنة ولا نوم فمن اتبعنا كان اخانا وصار له
ما لنا وعليه ما علينا ومن ابى الاسلام كانت عليه الجزية يؤديها الينا عن يد وهو صاغر
فاذا اداها حقن بها ماله ودمه وولده ومن ابى الاسلام وأن يؤدي الجزية فالسيف حكم
بيننا وبينه حتى يقضي الله جل جلاله بحكمه ، وهو خير الحاكمين ، ونحن ندعوكم الى
هذه الخصال الثلاث ليس غيرها اما أن تقولوا : نشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك
له وأن محمدا عبده ورسوله أو الجزية في كل عام على كل محتلم من الرجال وليس
على من لم يبلغ الحلم جزية ولا على امرأة ولا على راهب منقطع في صومعته ، قال ماهان
فهل بعد قول : لا اله الا الله غير هذا ، فقال خالد نعم أن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة
وتحجوا البيت الحرام وتجاهدوا من كفر بالله تعالى وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن
المنكر وتوالوا في الله تعالى وتعادوا في الله ، فان ابيتم ذلك فالحرب بيننا وبينكم حتى
يورث الله ارضه من يشاء والعاقبة للمتقين . قال ماهان فافعل ما تشاء فاننا لا نرجع
عن ديننا ولا نؤدي الجزية ، واما ما ذكرت من ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده
فلقد صدقت فانها لم تكن لنا ولا لكم بل كانت لقوم غيرنا وغيركم فقاتلناهم عليها حتى
ملكناها منهم والحرب بيننا وبينكم فابرزوا على اسم الله تعالى ، فقال خالد بن
الوليد (رض) ما انتم بأشهى منا الى الحرب وكأني بجيوشكم ، وقد انهزمت والنصر
يقدمنا وتساق انت والحبل في عنقك ذليلا حقيرا وتقدم بين يدي عمر بن الخطاب
فيضرب عنقك . قال فلما سمع ماهان كلام خالد بن الوليد غضب غضبا شديدا .
قال فلما نظرت البطارقة والحجاب والهرقلية والقياصرة الى غضب ماهان هموا بقتل
خالد الا انهم صبروا ينظرون امره ، فقال ماهان لخالد وقد استشاط غضبا : وحق
المسيح لاحضرن اصحابك الخمسة الاسارى واضربن اعناقهم وانت تنظر اليهم ، فقال
له خالد اسمع ما اقول لك يا ماهان انت اقل واذل واحقر من ذلك واعلم ان هؤلاء
الذين في يدك هم منا ونحن منهم ، فوحق الدعوة المستجابة وحق بيعة ابي بكر
الصديق (رض) وخلافة عمر بن الخطاب لئن قتلتهم لاقتلنك بسيفي هذا ويقتل كل
رجل منا من قومك بعددهم وزيادة . ثم وثب خالد (رض) من موضعه وانتضى سيفه

من غمده وفعل أصحاب رسول الله (ص) كفعله ، وهو يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله وجردوا سيوفهم وهاجوا كالجمال او كالسباع الضواري واستقتلوا وأيقنوا بالشهادة في ذلك المكان .

(قال الشيخ أبو عبدالله محمد الواقدي) مؤلف هذا الكتاب والله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في أخبار هذه الفتوح الا الصدق وما نقلت احاديثها الا عن ثقات وعن قاعدة الحق لاثبت فضائل أصحاب رسول الله (ص) وجهادهم حتى ارغم بذلك أهل الرفض الخارجين عن السنة والفرض اذ لولاهم بمشيئة الله لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين ، فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده ونصروا دينه ، وثبتوا للقاء الاعداء وبذلوا جهدهم ونصروا الدين حتى زحزحوا الكفر عن سريره وتقهقر ، لا جرم وقد قال فيهم الملك المقتدر ــ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ــ .

(قال الواقدي) حدثني مسلم بن عبد الحميد عن جده رافع بن مازن . قال كنت مع خالد يوم سرنا الى ماهان وكنا في سرادقة ، فلما جذبنا السيوف وهممنا بالقوم وما في اعيننا من جيوش الروم شيء ، وقد ايقنا بالحشر من ذلك الموضع .

(قال الواقدي) فلما راى ماهان الحقيقة منا ومن خالد وتبين الموت في شفار سيوفنا نادى ماهان مهلا يا خالد لا تكن بهذه العجلة تهلك وانا اعلم انك ما قلت ذلك القول الا انك رسول والرسول يحمل ولا يقتل ، وانا انما تكلمت بما تكلمت لاختبركم وانظر ما عندكم والآن فما أواخذك فارجع الى عسكرك واعزم على القتال حتى يعطي الله تعالى النصر لمن يشاء ، فلما سمع ذلك اغمد سيفه ، وقال يا ماهان ما تصنع في هؤلاء الاسرى ؟ فقال ماهان : اطلقهم كرامة لك واخلي سبيلهم فيكونون عونا لك ولن تعجزونا في الحرب غدا ففرح خالد بذلك وامر ماهان بتخلية اصحاب رسول الله (ص) . قال فاطلقوا من وثاقهم وهم خالد بالمسير ، فقال ماهان يا خالد اني كنت احب أن يصلح الامر بيني وبينكم واني اسألك حاجة ، فقال خالد سل ما تريده ، فقال ان قبتك هذه الحمراء قد اعجبتني واني اريد أن تهبها لي وانظر في عسكري ما أعجبك من شيء فأهبه لك . فقال خالد : والله لقد فرحتني اذ طلبت ما أملكه وهي موهوبة لك ، وأما ما عرضت علي من عسكرك فلا حاجة لي فيه ، فقال ماهان لله درك أنت تكرمت وأجملت . فقال خالد (رض) وأنت أيضا قد تكرمت علينا بما صنعت من اطلاق أصحابي من الاسر ثم انثنى خارجا من عند ماهان وأصحابه من حوله ، وقدم له جواده فركبه وركب أصحابه أصحاب رسول الله (ص) وأمر ماهان أصحابه وحجابه أن يسيروا معهم حتى يبلغوهم . قال ففعل القوم ذلك ووصل خالد وأصحابه الى الامير أبي عبيدة (رض) اجمعين وسلموا عليه وفرح المسلمون بخلاص اصحاب رسول الله (ص) وحدث خالد أبا عبيدة بكل ما جرى لهم ، ثم قال خالد وحق المنبر والروضة ما كان

ماهان ليطلق لنا أصحابنا الا فزعا من سيوفنا .

فقال أبو عبيدة حين سمع ما مر لخالد ولماهان من الخطاب والجدال هذا رجل حكيم الا أن الشيطان غلب على عقله فعلام افترقتم ؟ قال على اننا نلتقي معهم ويعطي الله النصر لمن يشاء ، فلما سمع أبو عبيدة (رض) ذلك جمع عظماء المسلمين وقام فيهم خطيبا فحمد الله تعالى واثنى عليه وذكر النبي (ص) واخبرهم ان العدو يصبحهم بالقتال في غداة غد وأمرهم بالاهبة ، واقبل فرسان المسلمين يحرض بعضهم بعضا واقبل خالد على اصحابه وهم عسكر الزحف ، وقال لهم اعلموا أن هؤلاء الكفرة الذين نصركم الله عليهم في المواطن الكثيرة قد حشدوا لكم جموع بلادهم ، واني دخلت الى عسكرهم ونظرت اليهم فكأنهم النمل ولكنهم اصحاب عدة بلا قلوب ولا لهم من ينصرهم عليكم وهذه الوقعة بيننا وبينهم ، وقد ايقنا إن القتال في غداة غد وأنتم أهل البأس والشدة فما عندكم رحمكم الله تعالى ، قال فتكلم أصحاب خالد وقالوا أيها الامير القتال بغيتنا والقتل في سبيل الله تعالى مسرتنا ولا نزال نصبر لهم على الحرب والطعن والضرب حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين ففرح خالد بقولهم ، وقال لهم وفقكم الله تعالى وأرشدكم .

(قال الواقدي) فلم يبق احد منهم تلك الليلة الا وقد اخذ عدته واهبته واستعد بآلة الحرب والقتال وباتوا فرحين بالجهاد والثواب وخائفين من العقاب ، فلما أصبح القوم ولاح الفجر اذن المؤذنون في عسكر المسلمين حتى ارتفعت لهم جلبة عظيمة بالتوحيد واسبغوا الوضوء لصلاتهم خلف أبي عبيدة ، فلما صلوا ركبوا خيولهم الى قتال عدوهم وعبوا صفوفهم للقتال وكانوا ثلاثة صفوف متلاصقة اول الصف لا يرى آخره ، واقبل خالد بن الوليد على أبي عبيدة (رض) ، وقال أيها الامير من تجعل في الميسرة . قال كنانة بن مبارك الكناني أو قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي والله أعلم أيهما كان فولاه الميسرة وأمره ان يكون مكانه في الميسرة ففعل وضم الى كنانة قيسا . قال فسار لما أمره ابو عبيدة (رض) .

(قال الواقدي) حدثني فضالة بن عامر . قال حدثني موسى بن عوف عن جده يوسف بن معن . قال كان هذا الغلام كنانة عارفا بالحرب صاحب شجاعة وغارة ، وقد ذكر إنه كان من شجاعته وشدة فراسته انه كان يخرج من حي قومه بني كنانة وحده ويسير حتى يأتي احياء العرب المعادين له ، فاذا أشرف عليهم صرخ بهم وانتمى باسمه فتثور الرجال على أعناق الخيل ، فلا يزال يقاتلهم ويقاتلونه ، فان ظفر بهم كان مراده وان رأى منهم غلبة وعظم عليه امرهم نزل عن جواده وسعى بين أيديهم فلا يلحقون منه الا الغبار .

(قال الراوي) لما ولاه أبو عبيدة وقف حيث أمره ، والتفت أبو عبيدة الى خالد ، وقال يا أبا سليمان قد وليتك على الخيل والرجل فول أمر الرجالة من شئت ، فقال

خالد ابن إلوليد (رض) سأولي أمرهم رجالا لا يؤتي المسلمون من قبلهم . ثم نادى بهاشم بن عتبة ابن ابي وقاص ، وقال له ولاك الامير على الرجالة ، فقال ابو عبيدة (رض) انزل يا هاشم وكن معهم رحمك الله وانا أوافقك .

(قال الواقدي) ورتب ابو عبيدة صفوف المسلمين وعبأهم . قال خالد بن الوليد (رض) ابعث الآن الى اصحاب الرايات وقل لهم يسمعوا مني ، فدعا أبو عبيدة (رض) بالضحاك بن قيس ، وقال له يا بن قيس اسرع الى أصحاب الرأيات ، وقل لهم ان الامير أبا عبيدة يأمركم أن تسمعوا لخالد وتطيعوا أمره ففعل الضحاك ذلك ، وجعل يدور على أصحاب الرايات حتى انتهى الى معاذ بن جبل وقال له مثل ذلك . قال معاذ بن جبل : سمعا وطاعة ، ثم اقبل معاذ على الناس ، وقال : أما انكم قد أمرتم بطاعة رجل ميمون الغرة مبارك الطلعة ، فان امركم بأمر فلا تخالفوه فيما يأمركم به ، فما يريد غير صلاح المسلمين والاجر من رب العالمين . قال فقلت لمعاذ بن جبل انك لتقول في خالد قولا عظيما ، فقال ما اقول الا ما قد عرفته فالله دره ، وقال الضحاك : فرجعت الى خالد واخبرته بما تكلم به معاذ بن جبل وبما أثنى به عليه فأثنى عليه ، وقال هو اخي في الله تعالى ، ولقد سبقت له ولاصحابه سوابق لا يفعلها خالد بن الوليد فمن يناله . قال الضحاك : فرجعت الى معاذ بن جبل واخبرته بما قال خالد وبما اثنى به عليه وما ذكره من امره وبما اورده من علي شأنه ، فقال معاذ والله اني أحبه في الله تعالى ، وأرجو من الله أن يكون قد أثابه بحسن نيته ونصيحته للمسلمين .

(قال الواقدي) فلما وصى الضحاك بن قيس اصحاب الرايات بقول أبي عبيدة بالطاعة لخالد بن الوليد (رض) جعل خالد يسير بين الصفوف ويقف على كل راية ، ويقول : يا أهل الاسلام ان الصبر قد عزم ان شاء الله تعالى على صحبتكم ، والفشل والجبن سببان من أسباب الخذلان ، فمن صبر كان حقا على الله نصره على عدوه لان الله معه ، ومن صبر على حد السيوف فانه اذا قدم على الله تعالى أكرم منزلته وشكر له فعله وسعيه والله يحب الشاكرين . قال وما زال خالد (رض) يقول هذا الكلام لاهل كل راية حتى مر بجماعة الناس . ثم ان خالدا جمع اليه خيل المسلمين من اهل الشدة والصبر ومن شهد معه الزحف ، فقسمهم اربعة أرباع فجعل على أحدهم قيس بن هبيرة المرادي ، وقال له أنت فارس العرب فكن على هذه الخيل واصنع كما اصنع ، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العبسي وأوصاه بمثل ذلك ، ودعا عامر بن الطفيل على الربع الثالث وأوصاه بمثل ذلك ووقف خالد مع عسكر الزحف .
(قال الواقدي) فلم تطلع الشمس الا وقد فرغوا من تعبية صفوفهم للحرب . واما ماهان الارمني فانه أمر الروم بالزينة والاهبة للحرب ففعلوا ذلك ، الا ان المسلمين كانوا أسرع في التعبية . قال وزحف الروم الى أصحاب رسول الله (ص) ونظر الروم

الى تعبيتهم فكان عسكر المسلمين صفوفا.كالبنيان المرصوص ، وكأن الطير تظلهم والصفوف متلاصقة والرماح مشرعة مشتبكة . قال فلما راى الروم ذلك داخلهم الفزع والجزع وألقى الله الرعب في قلوبهم ، ثم ان ماهان عبى عسكره فجعل العرب المتنصرة من غسان ولخم وجذام في مقدمة الصفوف ، وجعل عليهم جبلة وقدم امامهم صليبا من الفضة وزنه خمسة ارطال وهو مطلي بالذهب ، وفي اربعة اركانه اربع جواهر تضيء كأنها الكواكب .

(قال الواقدي) حدثني سنان بن أوس الربعي . قال حدثني عدي بن الحرث الهمداني ، وكان ممن حضر الفتوح من أولها الى آخرها . قال وكانت الصفوف التي صفها ماهان ثلاثين صفا كل صف منها مثل عسكر المسلمين كله ، وقد اظهر ماهان بين الصفوف القسوس والرهبان وهم يتلون الانجيل ويترنمون واكثر من الرايات والاعلام والصلبان ، فلما تكاملت صفوفهم واذا ببطريق عظيم الخلقة قد برز وعليه درع مذهب ولامة حرب مليحة وفي عنقه صليب من الذهب مرصع بالجوهر وتحته فرس اشهب ، وكان البطريق من عظماء الروم ممن يقف عند سرير الملك ، فلما برز جعل يرطن بكلام الروم بصوت كالرعد فعلم المسلمون انه يطلب البراز فتوقف المسلمون عن الخروج اليه فصاح خالد ، وقال يا أصحاب رسول الله هذا العلج الاغلف يدعوكم لقتاله وأنتم تتأخرون، فان لم تخرجوا اليه والا خرج خالد،وهم بالخروج واذا بفارس قد خرج من المسلمين على برزون اشهب عظيم الخلقة يشبه برزون المشرك وعلى المسلم لامة حسنة وعدة سابغة وقصد نحو البطريق فلم يكن في رجال خالد من يعرف الفارس الذي خرج ، فقال خالد لهمام مولاه : اخرج الى هذا الفارس وانظر من هو من المسلمين ومن أ ي العرب هو ومن قومه ؟ فمضى همام يهتف به وقد هم أن يقرب من البطريق فصاح به من انت يا ذا الرجل ؟ من المسلمين رحمك الله ، فقال انا روماس صاحب بصرى فلما أخبر خالد به . قال اللهم بارك فيه وزد في نيته ، فلما صار بازاء العلج كلمه بلسانه ، فقال الرومي وقد عرفه يا روماس كيف تركت دينك وصبأت الى هؤلاء القوم ، فقال روماس هذا الدين الذي دخلت فيه دين جليل شريف ، فمن تبعه كان سعيدا ومن خالفه فقد ضل .

ثم حمل روماس على العلج وحمل العلج على روماس وتقاتلا ساعة حتى عجب الجمعان منهما ، فوجد العلج من روماس غفلة فضربه ضربة أسال دمه . قال فأحس روماس بالضربة وقد وصلت اليه فانثنى راجعا نحو المسلمين فأتبعه العلج طالبا له لا يقصر عن طلبه ، وكاد أن يدركه فصاح به فرسان المسلمين من الميسرة والميمنة فقوي قلب روماس وداخل العلج الجزع والخوف من صياحهم والهلع وقصر عن طلبه ، ودخل روماس عسكر المسلمين والدم على وجهه فائر فأخذه جماعة من المسلمين فشدوا جراحه وشكروه على فعله ووعدوه بالغفران من الله تعالى وهنئوه بالسلامة .

قال ولما رجع روماس منهزما اعجب العلج بنفسه واظهر عناده واغلظ في كلامه وطلب البراز فهم أن يخرج اليه ميسرة بن مسروق العبسي ، فقال له خالد يا ميسرة ان وقوفك في مكانك أحب الي من خروجك الى هذا العلج وانت شيخ كبير وهذا عاج عظيم الخلق ، والشاب شجاع ولا احب ان تخرج اليه ، فانه لا يكاد الشيخ الكبير يقاوم الشاب الحدث ، ولا سيما ان شعرة من مسلم أحب الى الله تعالى من جميع اهل الشرك فرجع ميسرة الي مكانه وهم أن يخرج اليه عامر بن الطفيل ، وقال أيها الامير انك قد عظمت قدر هذا الرومي الذميم وأدخلت في قلوب المسلمين منه الرعب فقال خالد ان الفرسان تعرف أكفاءها في الحرب وما يخفى علي ما هو فيه من الشجاعة والشدة وانت لا تقاومه لانه ما برز بين أصحابه وبين شجاعته الا وهو فارس في قومه فقف في مكانك فوقف عامر بن الطفيل في مكانه ولم يخالف ، قال والعلج يدعو الى البراز والحرب فأقبل الى خالد الحرث بن عبدالله الازدي ، فلما وقف بين يديه قال أيها الامير اخرج اليه قال خالد لعمري ان لك جسارة وقوة وشدة وما علمتك الا شهما ، فان شئت أن تخرج فاخرج على اسم الله واعزم فأخذ الازدي أهبته وهم ان يخرج . فقال خالد (رض) على رسلك يا عبدالله حتى أسألك فقال اسأل قال خالد هل بارزت احدا قبله قال لا قال فارجع يا ابن اخي ولا تخرج فانك غير مجرب الحروب وهذا فارس قد جرب الحرب وجربته وعرف مصادرها ، وما أحب أن يخرج اليه الا رجل مثله بصير بالحروب وجعل خالد يقول ذلك وينظر الى قيس بن هبيرة... فقال: يا أبا سليمان اني اظنك تعرض بي واياي تعني أنا أبرز اليه ..

قال خالد : أبرز على اسم الله تعالى فانك كفء والله تعالى يعينك عليه وخرج قيس بن هبيرة وأجرى جواده حتى لين عريكته وكسر حدته ثم سرحه نحو البطريق وهو يقول بسم الله وعلى بركة رسول الله (ص) وقرب من البطريق فلما نظر العلج الى فعاله علم أنه فارس شديد من فرسان المسلمين فعدل نحوه وقصد اليه وتحاملا قال فبادره قيس بن هبيرة وضربه على هامته فتلقاها العلج في خجفته فقد سيف ابن هبيرة الحجفة ووصل الى البيضة فاشتبك فيها وهم أن يخرج سيفه فامتنع عليه وضرب العلج قيس بن هبيرة على حبل عاتقه فثبت للضربة والتقيا بعد الضربتين فطرح العلج نفسه عليه يريد أسره وهو جبار من الجبابرة ، وكان قيس بعد رجوعه من قتال اهل الردة قد عود نفسه الصيام والقيام وهو نحيف الجسم ، فلما نظر قيس الى العلج وقد ظهر عليه انجذب من يده وبعد عنه وجعل ينظر اليه شزرا ويضمه له مكرا الى أن سيفه قد خرج من يده فثنى عنان فرسه يريد عسكر المسلمين ليأخذ سيفا ويعود الى القتال وقد أيس من نفسه ، فلما عطف راجعا صاح العلج في أثره وسعى في طلبه فقصر قيس بن هبيرة في سيره وقال في نفسه أنت مرادك الشهادة وتهرب من هذا العلج فرجع الى العلج فصاح به خالد يا قيس سألتك بالله ورسوله الا رجعت

وتركت حدتها علي فقال قيس يا خالد لقد اقسمت علي بعظيمين ولكن ان رجعت اليك اتزيد في أجلي ؟ قال لا قال فلم اختار الفرار واكون من أصحاب النار ، بل أصبر وافوز بالغفران من الله تعالى ثم انه عطف على قرنه وليس في يده سيف بل استل خنجرا كان معه على وسطه ، قال ونظر خالد الى قيس بن هبيرة وليس في يده سيف . فقال من يأخذ هذا السيف ويدفعه الى قيس ابتغاء ثواب الله تعالى قال عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) أنا يا أبا سليمان .

فقال خالد أنت والله لها يا ابن الصديق ، ثم اخذ عبد الرحمن سيفه ولحق قيس بن هبيرة يريد ان يناوله السيف ، فلما نظرت الروم الى عبد الرحمن وقد لحق بقيس ظنوا أنه يريد أن يعاون قيسا على صاحبهم فخرج عليه بطريق آخر واقبل الى صاحبه ووقف بازائه ، قال فدفع عبد الرحمن السيف الى ابن هبيرة ووقف معه وجعل البطريق الآخر يتكلم بكلام لا يفهمه عبد الرحمن . فقال عبد الرحمن يا ويلك ما الذي تقول فما نعرف كلامك فخرج اليه ترجمان وقال له يا معشر العرب الستم ذكرتم أنكم أصحاب نصفة وحق قال عبد الرحمن بلى وقال الترجمان فما رأينا من نصفتكم شيئا يخرج فارسان الى فارس . قال عبد الرحمن انما خرجت لاعطي صاحبي هذا السيف وأرجع ولو خرج الينا منكم مائة لواحد ما كبر علينا ولا عظم لدينا وها انتم ثلاثة وأنا واحد وانا لكم كفء ، قال فأخبر الترجمان صاحبه بذلك فجعل ينظر اليه شزرا ، فقال عبد الرحمن يا قيس قد تعبث فقف وتفرج علي وانظر ما يكون مني ومنهم ثم حمل عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق (رض) على الذي كان يخاطبه فطعنه في نحره فأخرج السنان يلمع من ظهره فوقع مجندلا ونظر العلجان الى صاحبهما مجندلا فحملا على عبد الرحمن وقصداه فأراد قيس بن هبيرة ان يعاونه عليهما . فقال له عبد الرحمن سألتك برسول الله (ص) وبحق أبي بكر الا تركت عبد الرحمن يصطلي بهما فان قتلت فأنت شريكي في الثواب وأقرىء عائشة مني السلام وقل لها اخوك قد لحق ببعلك وأبيك ، فتأخر قيس عنه وقد عجب من فعاله فحمل عبد الرحمن على احد العلجين وهو الاول فطعنه برمحه فاشتبك السنان في درعه فرمى عبد الرحمن الرمح من يده وانتضى سيفه وقام في الركاب وضرب العلج بسيفه ضربة طرحه بها نصفين ونظر العلج الثالث الى عبد الرحمن وجراءته فبقى حائرا متعجبا من حاله ونظر الى البطريق وهو متحير باهت فبانت له فيه غفلة . فقال ما يوقفك يا قيس وحمل على البطريق وضربه ضربة هشم بها هامته فسقط الى الارض صريعا ، فلما نظرت الروم الى أصحابهم قال بعضهم لبعض ما هؤلاء العرب الا شياطين .

(قال الواقدي) وأخبر ماهان بفعالهم . فقال لقومه ان الملك كان أخبر بهؤلاء القوم وحق المسيح لقد أعلم أن لكم امرا فان لم تحملوا عليهم بكثرتكم والا فما تقوم لكم قائمة ، قال فأتاه بطريق من البطارقة وسارر ماهان في اذنه طويلا ثم انزاح عنه ،

وقد اصفر وجه ماهان وسكت كأنه أخرس فاستخبروا ماهان عما حدثه البطريق فلم يخبرهم قال فحدث من راى ذلك أنه سأل جبلة بن الايهم . فقال لما أخبر ماهان بخبر الثلاثة وفيهم البطريق الاول قال ماهان انهم منصورون عليكم . فقال له البطريق في اذنه : أيها الملك الحق ما قلت اعلم اني رأيت البارحة في منامي كأن رجالا نزلوا من السماء الى الارض وهم على دواب بلق وشهب وعليهم كامل السلاح وأحدقوا بهؤلاء العرب ونحن قيام بازائهم لا يخرج أحد من عسكرنا الا قتلوه حتى أتوا على اكثرنا واظن أنهم هؤلاء الذين نراهم في اليقظة لان واحدا منهم قتل ثلاثة منا وما هم الا منصورون علينا من السماء قال فكسر بهذا قلب ماهان فلم يرد جوابا فاجتمع القوم يسألونه عما قاله البطريق فلم يخبرهم ، فلما اكثروا عليه السؤال تكلم فيهم كالخطيب ، وقال يا اهل هذا الدين انكم ان لم تقاتلوا كنتم من الخاسرين وغضب عليكم المسيح وان الله عز وجل لم يزل لدينكم ناصرا ومظهرا وان لله الحجة عليكم اذ بعث فيكم رسولا وأنزل عليه كتابا ولم يتبع رسولكم الدنيا وامركم أن لا تتبعوها وفي كتابه لا تظلموا فانه لا يحب الظلم ولا الظالمين ، فلما اتبعتم الدنيا وظلمتم وخالفتم نصر أعداؤكم عليكم فما عذركم عند خالقكم وقد تركتم أمر نبيكم وما انزل عليكم في كتاب ربكم ، وهؤلاء العرب بازائكم يريدون قتل فرسانكم وسبي ذراريكم ونسائكم وأنتم على المعاصي والذنوب ولا تخافون من علام الغيوب فان نزع الله سلطانكم من أيديكم وأظهر عدوكم عليكم فذلك بحق منه وعدل لانكم لا تأمرون بالمعروف ولا تنهون عن المنكر .

(قال الواقدي) وكان ماهان لما سمع كلام البطريق الذي رآه في المنام امره ان يكتمه ، وأما قيس بن هبيرة وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق فأخذا سلاحهم واسلابهم ورجعا الى المسلمين فدفعا السلب الى أبي عبيدة فقال هو لكما ، ومن قتل فارسا فله سلبه فكذا عهد الينا عمر بن الخطاب فأخذا السلب ووقف قيس في موضعه الذي أقامه خالد فيه ورجع عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق الى ميدان الحرب فجال بين الصفين ، وكان قد ركب أشهب البطريق الذي قتله فرآه لا ينبعث تحته كما عهد من خيل العرب فرجع وغيره من تحته بفرس غيره وحمل على ميمنة الروم فشوش صفوفهم وقتل منهم فارسين ورجع فحمل على القلب تم انثنى عل ىالميسرة فرشق بالسهام فرجع حتى وقف في صدر الجيش وجعل يفزع الروم باسمه ويدعو الى البراز فخرج اليه علج من علوج الروم فما جال غير ساعة حتى قتله فخرج اليه آخر فقتله . فقال خالد : اللهم ارعه بعينك واحفظه فان عبد الرحمن قد اصطلى اليوم الحرب بنفسه ، ثم ان خالدا صاح به يا عبد الرحمن بحق شيبة ابيك وبيعته الا رجعت الى مكانك فرجع حين أقسم عليه قال حزام بن غنم قلت لرجل ممن شهد اليرموك أكانت النساء معكم مشاهدات القتال ؟ قال نعم احداهن أسماء بنت ابي بكر زوجة الزبير بن العوام وخولة بنت الازور ونسيبة بنت كعب وأم أبان زوجة عكرمة بن ابي جهل وعزة

بنت عامر بن عاصم الضمري مع زوجها مسلمة بن عوف الضمري ورملة بنت طليحة الزبيري ورعلة وأمامة وزينب وهند ويعمر ولبنى وأمثالهن (رض) عنهن فلقد كن يقاتلن قتالا يرضين به الله ورسوله .

نساء المسلمين في المعركة

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن عبد الحميد وكان قد شهد وقعة اليرموك وقال اولها شرر نار وآخرها ضرام الحرب ، وان كل يوم يأتي من القتال اصعب من اليوم الآخر ، قال عمرو بن جرير فشهدنا في اليوم الاول حربا يسيرا وذلك أن ماهان أمر عشرة من الصفوف أن تحمل على المسلمين بعد ان قتل عبد الرحمن من قتل وحمل المسلمون عليهم فالتقت الرجال بالرجال فنظر ابو عبيدة وكان واقفا الى ماهان ولم يحمل على المسلمين فعلم أن الامر يصعب فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وجعل يتلون قوله تعالى ــ الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ــ ، قال ولم يزل الحرب بين الفريقين من قيام الشمس في قبة السماء الى أن همت بالغروب ولم ينفصل الجمعان حتى فرق انليل بينهم ، فحينئذ افترق الجمعان وهم ما يعرفون الا بالشعار وخرج كل قوم من العرب يهتفون بشعارهم وينادون بأنسابهم ورجعت كل فئة الى مكانها واستقبل المسلمين نساؤهم فصارت تجعل المراة مرطها تمسح به عن وجه زوجها وتقول له أبشر بالجنة يا ولي الله وبات المسلمون في خير وسرور وأوقدوا النيران وذلك ان القتل في اول يوم لم يتبين في الفريقين ، بل قتل من الروم يسير ومن المسلمين عشرة رجلان من حضرموت أحدهما يقال له مازن والثاني يقال له صارم وثلاثة من عسفان رافع ومجلي وعلي وواحد من الانصار وهو عبدالله بن الاخرم وثلاثة من بجيلة وواحد من مراد وهو سويد ابن أخي قيس بن هبيرة فحزن عليه قيس لما فقده فعلم انه في القتلى فخرج قيس وخرج معه رجال من قومه حتى أتوا موضع المعركة وفتشوا عليه فلم يروه فلما هم بالرجوع نظر الى نار قد اقبلت من جهة الروم يطلبون مكان الوقعة وهم يطلبون بطريقا كان معظما عندهم . فقال قيس لجماعته اخمدوا ناركم فوالله لآخذن بثار ابن اخي من هؤلاء القوم قال فأخمدوا نارهم ورقدوا بين القتلى وتاهبوا للقتال واذا بالروم قد اتوا وهم نحو مائة وهم في زينة عظيمة وآلة وعدة وكان مع قيس سبعة من قومه فقالوا له : ان القوم مائة ونحن سبعة وقد تولانا التعب . فقال قيس ارجعوا انتم واني والله أطلب الموت لا أريد غيره واجاهد في الله حق جهاده فعجبوا من قوله ووقفوا معه وقفة الكرام واقبلت الاعلاج يريدون المعركة ويدورون بين القتلى وقد وقفوا بالعلج وهو الذي برز أولا وقتله ابن ابي بكر الصديق ، فلما احتملوه وولوا يريدون عسكرهم صاح فيهم قيس من ورائهم وتابعه أصحابه بالصياح فذهلوا ورموا البطريق ووضع المسلمون السيف فيهم وجعلوا يقتلونهم قتلا

ذريعا وكان قيس اذا ضرب فيهم يقول هذا عن ابن اخي قال فقتل منهم ستة
رجلا وقتل اصحابه اكثر القوم وانفلت الباقون ، فلما فرغ قيس من القوم عاد ي
ابن اخيه نحو عسكر الروم فسمع انينا فأقبل نحوه ، فاذا هو ابن اخيه سويد
بهرام المرادي ، فلما عرفه بكى ، فقال ما ابكاك يا ابن اخي ؟ فقال يا عماه اني ت
القوم فرجع الي واحد منهم وطعنني في صدري واني لاعالج منها امرا عظيما ، وه
الحور العين في حذائي ينتظرون خروج روحي ، قال فبكى قيس وقال : يا ابن اخي
اجل كتاب ولعل أن يكون في أجلك طول فقال هيهات والله يا عم أفتقدر أن تحم
الى عسكر المسلمين فأموت هناك قال أجل ، قال ثم احتملته على ظهري واقبلت
الى عسكر المسلمين وقصدت به الى رخله وسجيته وسمع ابو عبيدة بمجيء ق
فأتى اليه وراى الفلام يجود بنفسه فجلس عند راسه وبكى وبكت المسلمون فقال
ابو عبيدة كيف تجدك يا ابن اخي فقال بخير والله وغفران وجزى الله محمدا عنا -
ولقد صدقنا في قوله وهذه الحور تنادي وتشخص فمات قال فما برحنا حتى وار
بالتراب قال و خبره قيس بمن قتل في تلك الليلة من المشركين ففرح فرحا شد
وعلم ان ذلك علامة النصر قال وبات الناس في ليلتهم يقراون القرآن ويصلون ويسأ
المعونة والنصر .

قال واما ماهان فانه لما رجع الى عسكره اجتمع اليه البطارقة والره
والقسوس فقدموا له طعاما ومدوا له سماطا فلم يأكل منه شيئا مما وقع في نفسه
الرؤيا التي رآها البطريق وكان ماهان يود لو ترك الامر وصالح على اداء الجزية ول
كان مغلوبا على امره واقبلت الملوك والقسوس والبطارقة والرهبان على ماهان وق
ما بال الملك امتنع من الطعام ؟ فان كان ذلك من غمه على من مات وعلى ما جرى ع
من الحرب فان الحرب سجال فيوم لك ويوم عليك ، واعلم ايها الملك أن القوم
ظافرون وما نملكهم الا ان نحمل عليهم فلا يبقى منهم احد ، قال ماهان ما اظنكم
منصورين الا من تغير أديانكم والجور في سلطانكم فبهذا نصرت العرب عليكم ، ف
اليه رجل وقال ايها الملك عشت الدهر وانا رجل من اهل دينكم وكان لي مائة رأ
من الغنم وكان فيها ولدي يرعاها فضرب عظيم من عظماء اصحابك الفسطاط ا
جانبها ثم انه عدا عليها فأخذ منها حاجته واخذ بقيتها اصحابه فجاءته زوج
تشكو اليه انتهاب غنمي ، فلما رآها امر بها فأدخلت اليه فطال مكثها عنده فلما را
ولدها ذلك دنا من الفسطاط فاذا هو يجامع امه فصاح الفلام فأمر البطريق بق
الفلام فقتل فأتيت اريد خلاص ولدي وزوجتي فأمر بي فضربت بالسيف فتلقي
الضربة بيدي فقطعها ، ثم انه اخرج يده فاذا هي مقطوعة ، قال فغضب ماهان عند ذ
غضبا شديدا وقال للمعاهد أتعرف هذا البطريق الذي فعل بك ذلك قال نعم هو ه
واومأ بيده الى بطريق من البطارقة فنظر اليه ماهان مغضبا قال فغضب البطر

وغضب البطارقة لغضبه ومالوا على المعاهد فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه وماهان ينظر اليهم فزاد غضبه وقال خذلتم وهلكتم وحق المسيح يا ويلكم ترجون النصر وانتم تفعلون هذا الفعال أما تخافون القصاص غدا وان الله ينتقم منكم وينزع منكم صالح ما اعطاكم ويعطيه غيركم ممن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فوالله انتم الآن عندي كالكلاب وسوف ترون عاقبة هذا كله والي اي مصير مصيركم يكون ، قال ثم انه قام وتركهم ، فلما انصرف القوم ولم يبق عنده الا بطريق واحد قال له أيها الملك والله ان القو ملكما تقول وما اظن الا اننا مغلوبون ، واعلم اني رايت في منامي كأن رجالا نزلوا من السماء على خيل شهب فأحدقوا بهؤلاء العرب وعليهم كامل السلاح ونحن وقوف بازائهم فنظرت اليهم ولا يخرج منا احد الا قتلوه حتى أتوا على اكثرنا وذكر له كما قال ذاك الاول فأقبل ماهان يفكر طول ليلته فيما يصنع في امر المسلمين ، فلما أصبح الصباح عبى المسلمون صفوفهم ونظروا الى عسكر الروم واذا فيه ارتعاد وانزعاج فعلموا أن لهم امرا .

(قال ابو عبيدة) دعوهم ولا تبقوا عليهم فان الباغي مخذول ، قال واجتمعت البطارقة والملوك الاربعة الا ماهان ، وهم قناطر وجرجير والديرجان وقورين وهم اصحاب الجيش يستأذنونه في الحرب فقال ماهان : وكيف لي ان اقاتل بقوم يظلمون ان كنتم احرارا فقاتلوا عن سلطانكم وامنعوا عن حريمكم ، فقالوا الآن احببنا الحرب فوحق المسيح لا نفارقهم حتى ننفيهم من الشام الى بلادهم او يقتلونا او نقتلهم فثق بقولنا وانهض بنا اليهم ، فاذا عزمت على القتال فدع كل واحد منا يقاتل يوما حتى تعرف منا من هو افرس واشد ويضجر المسلمون من المطاولة ونجمع عيالنا واطفالنا واموالنا ، فان كانت على العرب رددنا كل شيء الى مكانه ، وان كانت للعرب علينا الحقوا ببلادهم وقومهم ويكون الامر بيننا وبينهم في يوم واحد او يومين ، فقال له ماهان لعنه الله هذا هو الرأي امهلوا الى أن اكتب الى الملك بمثل ذلك ثم انه كتب الى هرقل : اما بعد فأسأل الله لك ايها الملك ولجيشك النصر ولاهل سلطانك العز والنصر وانك بعثتني فيما لا يحصى من العدد واني قدمت على هؤلاء العرب فنزلت بساحتهم واطمعتهم فلم يطمعوا وسألتهم الصلح فلم يقبلوا وجعلت لهم جعلا على أن ينصرفوا فلم يفعلوا وقد فزع جند الملك منهم فزعا شديدا واني خشيت أن يكون الفشل قد عمهم والرعب قد دخل في قلوبهم وذلك لكثرة الظلم فيهم وقد جمعت ذوي الراي من أصحابي وذوي النصيحة للملك وقد أجمع راينا على النهوض اليهم جميعا في يوم واحد ولا نزايلهم حتى يحكم الله بيننا فان اظهر الله عدونا علينا فارض بقضاء الله ، واعلم أن الدنيا زائلة عنك فلا تأسف على ما فات منها ولا تغتبط منها بشيء في يدك والحق بمعاقلك وبدار ملكك بالقسطنطينية واحسن الى رعيتك يحسن الله اليك وارحم ترحم وتواضع لله يرفعك الله فانه لا يحب المتكبرين ولقد عملت حيلة في احضار اميرهم

خالد ومنيته ورغبته فما اجاب ورايته على الحق مقيما فأردت ان افتك به وامكر فخفت عاقبة المكر والغدر وما نصر هؤلاء الا بالعدل واتباع الحق بينهم والسلام ، ثم طوى ثم طوى الكتاب وبعث به مع أصحابه من العلوج .

(قال الواقدي) وبقي ماهان سبعة أيام اخر بعد الوقعة الاولى لم يقاتل المسلمين ولم يقاتلوه ، وبعث أبو عبيدة برجل من عيونه ينظر ما الذي اخر الروم عن القتال فغاب الرجل يوما وليلة ثم عاد واخبر ابا عبيدة أن ماهان قد كاتب الملك وهو منتظر الجواب فقال خالد ابن الوليد ما تأخر ماهان عن قتالنا الا وقد وقع الفزع في قلبه فازحف بنا اليهم . فقال أبو عبيدة (رض) : لا تعجل فان العجلة من الشيطان .

(قال الواقدي) وكان ابو عبيدة رجلا لين العريكة يحب الرفق ، فلما كان في اليوم الثامن نظر ماهان الى تلهف اصحابه على الحرب والقتال فعزم أن يلقى بهم المسلمون وقد فرح بنشاطهم فدعا برجل من المتنصرة من لخم وقال له اذهب فادخل هؤلاء العرب وتجسس لي أخبارهم وانظر ما عندهم ، قال فمضى اللخمي حتى دخل عسكر أصحاب رسول الله (ص) فأقام فيهم يوما وليلة يطوف في عسكرهم وليس احد من المسلمين ينكره وهم آمنون وليس لهم همة الا اصلاح شأنهم والصلاة والقرآن والتسبيح ، وليس فيهم عدوان ولا ظلم ولا أحد يتعدى على احد ، وقصد الموضع الذي فيه أبو عبيدة (رض) فنظر اليه كأنه اضعف ضعيف في العرب ساعة يجلس على الارض وساعة ينام عليها ، فاذا كان وقت الصلاة قام واسبغ الوضوء وأذن المؤذنون وصلى بالناس ونظر المتنصر الى المسلمين وهم يصنعون كصنعه . فقال المتنصر ان هذه طاعة حسنة ويوشك انهم ينصرون ، قال فرجع الى ماهان وحدثه بما رأى من القوم وما عاينه ، وقال ايها الملك اني جئتك من قوم يصومون النهار ويقومون الليل ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، رهبان في الليل ليوث بالنهار ولو سرق واحد منهم ولو كان كبيرهم قطعوه ، ولو زنا رجموه لا يغلب هواهم على الحق ، بل الحق عندهم غالب ، وأميرهم كأضعف من فيهم الا انه مطاع عندهم ، ان قاموا وان قعدوا قعدوا ، مناهم القتال ، وشهوتهم النزال ومرادهم أن يموتوا شهداء في قتالكم وما تأخروا عن قتالكم الا ليكون البغي منكم اذا بدأتموهم . فقال ماهان هؤلاء القوم منصورون غير اني قد وجدت حيلة اعملها عليهم . فقال المتنصر ما الحيلة ايها الملك ؟

فقال ماهان : الست زعمت انهم لا يبدأون بالقتال حتى نقاتلهم فنكون نحن الباغين . قال : نعم . قال : فانا لا نطلب الحرب بل نطول بيننا وبينهم وندهمهم على حين غفلة دون عدة منهم ولا اخذ حذرهم فعسى أن نظفر بهم . قال ثم ان ماهان جمع الملوك وجعل يعقد لهم الرايات والصلبان حتى عقد ستين ومائة صليب تحت كل صليب عشرة آلاف ، وكان أول صليب عقد لقناطر وكان نظيره في الرتبة وامره أن يكون في الميمنة . ثم عقد صليبا للديرجان وضم اليه الارمن والنجد والنوبة والروسية

والصقالبة . ثم عقد لابن اخت الملك صليبا على الافرنج والهرقلية والقياصرة والبرقل والدوقس ، وعقد لجبلة بن الايهم عقدا وضم اليه المتنصرة من لخم وجذام وغسان وضبة وامره ان يكون على المقدمة ،وقال انتم عرب واعداؤنا عرب والحديد لا يقطعه الا الحديد ، ثم فرق الاعلام في اجناد عسكره . فما انفجر الفجر وبان الصباح واضاء بنوره ولاح حتى فرغ من تعبية جيوشه وترتيب طلائعه وامر بمضرب له فضرب على كثيب عال على جانب اليرموك يشرف منه على العسكرين ، واوقف عن يمينه الف فارس عتاة حماة الروم شاكين السلاح وعن يساره كذلك وهم الملكية واصحاب السرير وامرهم باليقظه . وقال : اي كرب يكون على العرب اعظم من هذه فانكم على تعبية وهم على غير اهبة ، فاذا طلعت الشمس ورايتم المسلمين على غير تعبية ، فاحملوا عليهم من كل جانب ومكان ، فما هم في عسكرنا الا كالشامة البيضاء في جلد الثور الاسود . هكذا سمعت اياد بن غالب الحميري يذكر وكان من المعمرين . قال حدثني جواد ابن اسيد السكاسكي عن ابيه اسد بن علقمة ، فلما انشق الفجر اذن المؤذن وتقدم ابو عبيدة وصلى بالناس وهو لا يعلم بمكيدة ماهان فقرا في اول ركعة ــ والفجر وليال عشر ــ حتى قرا ــ ان ربك لبالمرصاد ــ اذ هتف بهم هاتف وهم في الصلاة وهو يقول : ظفرتم بالقوم ورب العزة وما يغني عنهم كيدهم شيئا وما اجرى الله هذه الآية على لسان اميركم الا بشارة لكم . فلما سمع المسلمون كلام الهاتف عجبوا مما سمعوا ، ثم قرا في الركعة الثانية ــ والشمس وضحاها ، الى قوله : فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها ــ واذا بالهاتف يقول : تم الفأل وصح الزجر وهذه علامة النصر . فلما فرغ ابو عبيدة من صلاته . قال يا معاشر المسلمين : هل سمعتم الهاتف ؟ قالوا نعم سمعنا قائلا يقول كذا وكذا ، فقال ابو عبيدة والله هذا هاتف النصر وبلوغ الامل فابشروا بنصر الله ومعونته فوالله لينصرنكم الله وليرسلن عليهم سوط عذاب كما انزل على القرون الاول ، ثم قال ابو عبيدة : معاشر القوم اني رايت الليلة في منامي رؤيا تدل على النصر على الاعداء والمعونة من الملأ الاعلى ، فقالوا اصلح الله شأن الامير فما الذي رأيت ؟

قال : رايت كأني واقف بازاء اعدائنا من الروم اذ حف بنا رجال وعليهم ثياب بيض لم ار كهيئتها حسنا ، لبياضها اشراق ونور يغشى الابصار وعلى رؤوسهم عمائم خضر وبأيديهم رايات صفر وهم على خيول شهب ، فلما اجتمعوا حولي قالوا تقدموا على عدوكم ولا تهابوهم فانكم غالبون ، فان الله ناصركم ، ثم دعوا برجال منكم وسقوهم بكاس كان معهم فيه شراب ، وكأني انظر عسكرنا وقد دخل في عسكر الروم فلما رأونا ولوا بين ايدينا منهزمين ، فقال رجل من المسلمين : اصلحك الله ايها الامير وانا رايت الليلة رؤيا ، فقال ابو عبيدة خيرا تكون ان شاء الله تعالى ما الذي رايت يرحمك الله ؟ فقال رايت كأنا خرجنا نحو عدونا فصاففناهم للحرب ، وقد انقضت عليهم من السماء

طيور بيض لها اجنحة خضر ومخاليب كمخاليب النسور ، فجعلت تنقض عليهم كانقضاض العقبان ، فاذا جاءت للرجل ضربته ضربة فيقع قطعا . قال ففرح المسلمون بتلك الرؤيا وقال بعضهم لبعض : ابشروا فقد امنكم الله وايدكم بالنصر وامدكم بملائكته تقاتل معكم كما فعل بكم يوم بدر . قال فسر أبو عبيدة بذلك ، وقال هذه رؤيا حسنة ، وهي حق تأويلها النصر واني أرجو من الله تعالى النصر وعاقبة المتقين ، فقال رجل من المسلمين : أيها الامير ما وقوفنا عن هؤلاء الكلاب الاعلاج وما انتظارك للحرب وعدو الله يريد كيدنا بمطاولته وما تأخر عنا الا لبلية يريد أن يوقعنا بها . قال أبو عبيدة ان الامر اقرب مما تظنون . قال سعيد بن رفاعة الحميري فبينما نحن كذلك اذ سمعنا الاصوات قد علت والزعقات قد ارتفعت من كل جانب يهتفون بالقتال وان الروم قد زحفت الينا فظن ابو عبيدة أن المسلمين قد كبسوا في وجه السحر فقام ليرى وكان على حرس المسلمين تلك الليلة سعيد بن زيد وعمرو بن نفيل العدوي (رض) ، اذ اقبل سعيد وهو ينادي : النفير النفير حتى وقف أمام أبي عبيدة ومعه رجل من المتنصرة ، فقال : أيها الامير ماهان كاد المسلمين بتخلفه عن الحرب ، وها هو قد عبى عساكره وصف جيوشه وزحف علينا زحف من يريد الكبسة بنا ، ونحن على غير اهبة ولا عدة ، وهذا الرجل قد أقبل الينا راغبا في الاسلام محذرا لنا من بأسه ويزعم أن ماهان قد قدم الينا حماة البطارقة ، وقد اتفق رايهم على أن يقاتلنا كل ملك من ملوكهم بمن معه وهذا أصعب القتال . ونظر المسلمون الى رايات الروم تقرب منهم والصلبان تدنو . فقال أبو عبيدة : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ثم قال اين أبو سليمان خالد بن الوليد ؟ فأجابه بالتلبية ، فقال له انت لي يا أبا سليمان فابرز في ابطال المسلمين وصد عن الحريم الى أن تأخذ الرجال صفوفها وتستعد بآلات حربها ، فقال حبا وكرامة . . .

فنادى خالد : أين الزبير بن العوام ، أين عبد الرحمن بن أبي بكر ، أين الفضل بن العباس ، أين يزيد بن أبي سفيان ، أين ربيعة بن عامر ، أين ميسرة بن مسروق العبسي ، أين ميسرة بن قيس ، أين عبدالله بن أنيس الجهني ، أين صخر بن حرب الاموي ، أين عمارة الدوسي ، أين عبدالله بن سلام ، أين غانم الغنوي ، أين المقداد بن الاسود الكندي ، أين أبو ذر الغفاري ، أين عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، أين عمار بن ياسر العبسي ، أين ضرار بن الازور ، أين عامر بن الطفيل ، أين ابان بن عثمان بن عفان ، وجعل خالد يدعوهم رجلا بعد رجل من أصحاب رسول الله (ص) وكل رجل منهم يلقى جيشا فاجتمعوا الى خالد بأجمعهم واشتغلوا بالحرب واشتغل ابو عبيدة بترتيب الصفوف وتعبية العساكر فأقبل أبو سفيان الى أبي عبيدة ، وقال له أيها الامير مر نساءنا أن يعلون على هذا التل . قال نعم الرأي ما رأيت فأمرهن بذلك ففعلن وعلون على التل وحصن انفسهن وأولادهن ومعهن الاطفال والاولاد ، فقال لهن أبو

عبيدة خذن بأيديكن اعمدة البيوت والخيام واجعلن الحجارة بين ايديكن وحرضن المؤمنين على القتال ، فان كان الامر لنا والظفر فكن على ما انتن عليه وان رايتن احدا من المسلمين منهزما فاضربن وجهه بأعمدتكن واحصبنه بحجارتكن وارفعن اليه أولادكن وقلن له قاتل عن أهلك وعن دين الاسلام ، فقال النساء أيها الامير ابشر بما يسرك .

(قال الواقدي) فلما حصن ابو عبيدة النساء على التل اقبل يعبي جيشه وقد والعدة وقسم الخيالة ثلاثة فرق فجعلها في الثلاثة صفوف ، واستعمل عليهم ثلاثة من ابتدر الناس القتال بعدما عباهم ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين وقدم أصحاب الرايات وكانت راية المهاجرين صفراء وفيها ابيض وأخضر واسود وسائر القبائل ايضا راياتهم مختلفة ، وجعل المهاجرين والانصار في القلب واظهر المسلمون العدة والسلاح وجعل عسكره ثلاثة صفوف فصف فيه النبلة من اهل اليمن ، وصف فيه اصحاب الخيل

المسلمين ، أحدهم غياث بن حرملة العامري : والثاني مسلمة بن سيف اليربوعي ، والثالث القعقاع بن عمرو التميمي ووقف المسلمون تحت راياتهم ووقف أبو عبيدة تحت رايته التي عقدها له ابو بكر الصديق (رض) يوم مسيره الى الشام ، وهي راية رسول الله (ص) الصفراء التي سار بها يوم خيبر ، قال ومع خالد راية العقاب وكانت سوداء وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة وعلى الجناح الايمن يزيد بن ابي سفيان وعلى الايسر قيس بن هبيرة ، فلما ترتبت الصفوف سار أبو عبيدة بين الصفوف وجعل يحرض المؤمنين على القتال ويقول ــ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ــ والزموا الصبر فان الصبر منجاة من الكرب ومرضاة للرب ، ومقمعة للعدو فلا تزايلوا صفوفكم ولا تنقضوا نيتكم ولا تخطوا خطوة الا وانتم تذكرون الله ولا تبداوهم بالقتال حتى يبداوكم وشرعوا الرماح واستتروا بالدرق والزموا الصمت الا من ذكر الله ولا تحدثوا حدثا حتى آمركم ، ثم رجع الى مقامه من القلب فوقف فيه ثم خرج من بعده معاذ بن جبل فطاف على الناس محرضا لهم يقول : يا اهل الدين ويا انصار الهدى والحق اعلموا رحمكم الله تعالى ان رحمة الله لا تنال الا بالعمل والنية ولا تدرك بالمعصية والتمني بغير عمل مرضي ، ولا تدخل الجنة الا بالاعمال الصالحة مع رحمة الله ، ولا يؤتي الله الرحمة والمغفرة الواسعة الا الصابرين والصادقين ، الم تسمعوا قوله جل من قائل ــ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ــ واستحيوا من الله ان يراكم في فرار من عدوكم وانتم في قبضته ليس لكم ملجأ من دونه ولم يزل معاذ يقول ذلك الى ان رجع الى مقامه ، ثم خرج سهل بن عمرو فمشى بين الصفوف وهو شاكي السلاح وراكب فرسه متقلد سيفه وهو يقول مثله ، ثم رجع وخرج من بعده أبو سفيان فطاف بين الصفوف وهو شاكي السلاح راكب فرسه

متقلد سيفه معتقل رمحه وهو يقول : معاشر العرب الكرام السادة العظام قد أصبحتم في ديار الاعلاج منقطعين عن الاهل والاوطان ، ووالله لا ينجيكم منهم الا الطعن الصائب في أعينهم والضرب المتدارك في هاماتهم ، وبذلك تبلغون أربكم وتنالون الفوز من ربكم . واعلموا أن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم فاصدقوا القتال فان النصر ينزل مع الصبر فان صبرتم ملكتم بلادهم وامصارهم واستعبدتم ابناءهم ونساءهم ، وان وليتم فليس بين أيديكم الا مفاوز لا تنقطع الا بالزاد الكثير والماء الغزير ولا ترجعوا الى دور ولا الى قصور فامنعوا بسيوفكم وجاهدوا في الله حق جهاده ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، قال ثم خرج من بين الصفوف واقبل على النساء وهن على التل وفيهن المهاجرات وبنات الانصار وغيرهن من نساء المسلمين ومعهن أولادهن . فقال لهن ان رسول الله (ص) والجنة أمامكم والشيطان والنار وراءكم واقبل حتى وقف مكانه ولم تغن مكيدة ماهان شيئا ورجعت الروم الى ورائها حين نظروا خالدا زحف اليهم في خمسمائة فارس ، فخافوا لذلك ورجعوا حتى اصطفت الصفوف وعبى المسلمون كتائبهم . فقال ماهان ما يوقفكم عن قتالهم فازحفوا اليهم ، فزحف الروم الى المسلمين فنظر خالد الى جيش عرمرم . قال وكان ماهان قد انفذ ثلاثين الفا من عظمائهم فحفروا لهم في الميمنة حفائر ونزلوا فيها وشدوا ارجلهم بالسلاسل واقترن كل عشرة في سلسلة التماسا لحفظ عسكرهم وحلفوا بعيسى بن مريم والصليب والقسيسين والرهبان والكنائس الاربع ان لا يفروا حتى يقتلوا عن آخرهم ، فلما نظر خالد الى ما صنعوا قال لمن حوله من جيش الزحف هذا يوشك ان يكون يوما عظيما ، ثم قال اللهم أيد المسلمين بالنصر ، ثم اقبل على ابي عبيدة وقال أيها الامير ان القوم قد اقترنوا في السلاسل وزحفوا الينا بالقواضب ويوشك أن يكون على الناس يوما عظيما . فقال لهم ان العدو عدده كثير وما ينجيكم الا الصبر ، ثم قال لخالد فما الذي ترى من الرأي يا أبا سليمان .

(قال الواقدي) وكان ماهان قدم من الروم من عرفت شجاعته وعلمت براعته واشتهر بالثبات في بلادهم وهم مائة الف . فلما نظر خالد اليهم شهد لهم بالفروسية وانهم من أهل الشدة وقال لابي عبيدة : ان الرأي عندي أن توقف في مكاننا الذي أنت فيه سعيد بن زيد وتقف أنت من وراء الناس في مائتين وفي ثلثمائة من أصحاب رسول الله (ص) . فاذا علم الناس انك من ورائهم استحيوا من الله ثم منك ان يفروا . قال فقبل أبو عبيدة مشورته ودعا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وهو احد العشرة المشهود لهم بالجنة فأوقفه ابو عبيدة مكانه ، ثم انتخب ابو عبيدة مائتي فارس من اليمن وفيهم رجال من المهاجرين والانصار ووقف بهم من وراء الجيش بحذاء سعيد بن زيد .

(قال حدثني) ورقة بن مهلهل التنوخي وكان صاحب راية ابي عبيدة يوم

اليرموك . قال وكان أول من فتح باب الحرب يوم اليرموك في جيش السلاسل غلام من الازدحدثا كيسا . فقال لابي عبيدة أيها الامير اني أردت أن أشفي قلبي واجاهد عدوي وعدو الاسلام وابذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلي أرزق الشهادة ، فهل تأذن لي في ذلك وان كان لك حاجة الى رسول الله (ص) فاخبرني بها . قال فبكى أبو عبيدة وقال اقرىء رسول الله (ص) واخبره انا وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . قال ثم دفع الفلام الازدي جواده وحمل يريد الحرب فخرج اليه علج من الروم قام من الرجال على فرس اشهب ، فلما رآه الفلام قصد نحوه وقد احتسب نفسه في سبيل الله تعالى فلما قرب منه قال :

لا بد من طعن وضرب صائب — بكـل لدن وحسام قاضب
عسى أنـال الفوز بالمواهب — في جنة الفردوس والمراتب

قال وبعد شعره حمل كل منهما على صاحبه وابتدأ الفلام الازدي الرومي بطعنة فجندله صريعا وأخذ عدته وجواده وسلم ذلك لرجل من قومه وعاد الى البراز فخرج اليه آخر فقتله وثالث ورابع فقتلهم فخرج اليه خامس فقتل الازدي فغضبت الازد عند ذلك ودنت من صفوف المشركين فعندها اقبلت الروم وزحفت كالجراد المنتشر حتى دنا طرفهم من ميمنة المسلمين . فقال أبو عبيدة ان أعداء الله قد زحفوا عليكم فنكلوهم واعلموا أن الله معكم وثبتوا نفوسكم بالصبر والصدق واللقاء والنصر من الله ، ثم رمق الى السماء بطرفه وقال : اللهم اياك نعبد واياك نستعين ولك نوحد ولا نشرك بك شيئا وان هؤلاء أعداؤك يكفرون بك وبآياتك ويتخذون لك ولدا : اللهم زلزل أقدامهم وارجف قلوبهم وانزل علينا السكينة والزمنا كلمة التقوى وآمنا عذابك يا من لا تخلف الميعاد : اللهم انصرنا عليهم يا من قال في كتابه العزيز ــ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ــ قال فبينما هو يدعو بهذه الدعوات اذ حملت الروم على ميمنة المسلمين ،كان فيها الازد ومذحج وحضرموت وخولان فحملت عليهم الروم حملة منكرة فصبروا لهم صبر الكرام وقاتلوا قتالا شديدا وثبتوا ثباتا حسنا وحملت عليهم كتيبة ثانية فصبروا صبرا جميلا وحملت عليهم كتيبة ثالثة فأزالوا المسلمين عن الميمنة ، فابتدر منهم عمرو بن معد يكرب الزبيدي وهو المقدم على زبيد والامير عليهم وهم يعظمونه لما سبق من شجاعته في الجاهلية وكان يوم اليرموك قد مر له من العمر مائة وعشرون سنة الا أن همته الشجاعة ، فلما نظر الى قومه وقد انكشفوا صاح في قومه : يا آل زبيد يا آل زبيد تفرون من الاعداء وتفزعون من شرب كاس الردى أترضون لانفسكم بالعار والمذلة فما هذا الانزعاج من كلاب الاعلاج : اما علمتم أن الله مطلع عليكم وعلى المجاهدين والصابرين ، فاذا نظر اليهم وقد لزموا الصبر في مرضاته وثبتوا لقضائه أمدهم بنصره وأيدهم بصبره فأين تهربون من الجنة أرضيتم بالعار ودخول النار وغضب الجبار . قال فلما سمعت زبيد كلام سيدهم عمرو بن

معد يكرب رجعوا اليه وعطفوا عليه عطفة الابل على أولادها فاجتمعوا حوله زهاء من خمسمائة فارس وراجل وشدوا على القوم شدة واحدة وحملت معهم حمير وحضرموت وخولان وحملوا حملة صعبة فأزالوا الروم عن أماكنهم وحملت دوس مع أبي هريرة وهز رايته وهو يحرض قومه على القتال ويقول : أيها الناس سارعوا الى معانقة الحور العين في جوار رب العالمين ، وما من موطن أحب الى الله من هذا الموطن : الا وان الصابرين قد فضلهم الله على غيرهم الذين لم يشهدوا مشهدهم ، فلما سمعت دوس كلامه طافوا به وحملوا على إلروم حملة منكرة ودارت بينهم الحرب كما تدور الرحى وتكاثرت جموع الروم على ميمنة المسلمين ، فعادت الخيل تنكص باذنابها راجعة على أعقابها منكشفة كانكشاف الغنم بين أيدي الاسد ونظرت النساء خيل المسلمين راجعة على أعقابها فنادت النساء يا بنات العرب دونكن والرجال ردوهم من الهزيمة حتى يعودوا الى الحرب . قالت سعيدة بنت عاصم الخولاني كنت في جملة النساء يومئذ على التل ، فلما انكشفت ميمنة المسلمين صاحت بنا عفيرة بنت غفار وكانت من المترجلات البازلات ونادت : يا نساء العرب دونكن والرجال واحملن أولادكن على ايديكن واستقبلنهم بالتحريض فأقبلت النسوة يرجمن وجوه الخيل بالحجارة ، وجعلت ابنة العاص بن منبه تنادى قبح الله وجه رجل يفر عن حليلته ، وجعل النساء يقلن لازواجهن لستم لنا ببعولة ان لم تمنعوا عنا هؤلاء الاعلاج . قال العباس بن سهل الساعدي كانت خولة بنت الازور وخولة بنت ثعلبة الانصارية وكعوب ابنة مالك بن عاصم وسلمى ابنة هاشم ونعم ابنة فياض وهند ابنة عتبة بن ربيعة ولبنى ابنة جرير الحميرية متحزمات وهن أمام النساء والمزاهر معهن ، وخولة تقول هذه الابيات :

يا هاربا عن نسوة ثقات ... لهـا جمال ولهـا ثبات
تسلموهن الـى الهنات ... تملك نواصينا مع البنات
أعلاج سوق فسق عتاة ... ينلنَ منـا أعظم الشتات

قال ورجعت الفرسان تحرض الفرسان على القتال ، فرجع المنهزمون رجعة عظيمة عندما سمعوا تحريض النساء وخرجت هند ابنة عتبة وبيدها مزهر ومن خلفها نساء من المهاجرين وهي تقول الشعر الذي قالته يوم احد وهو هذا :

نحـن بنات طارق ... نمشي على النمارق
مشي القطا الموافق ... قيدي مـع المرافق
ومـن ابـى نفارق ... ان تغلبـوا نمالـق
او تدبروا نفـارق ... فـراق غـير وائق
هل من كرَيم عاشق ... يحمي عـن العواتق

قال ثم استقبلت خيل ميمنة المسلمين فراتهم منهزمين فصاحت بهم الى أين تنهزمون أين تفرون من الله ومن جنته وهو مطلع عليكم ونظرت الى زوجها أبي سفيان

منهزما فضربت وجه حصانه بعمودها ، وقالت له الى أين يا ابن صخر ارجع الى القتال وابذل مهجتك حتى تمحص ما سلف من تحريضك على رسول الله (ص) . قال الزبير بن العوام ، فلما سمعت كلام هند لابي سفيان ذكرت يوم أحد ونحن بين يدي رسول الله (ص) . قال فعطف أبو سفيان عندما سمع كلام هند وعطف المسلمون معه ونظرت الى النساء ، وقد حملن معهم وقد رأيتهن يسابقن الرجال وبأيديهن العمد بين أرجل الخيل ولقد رأيت منهن امرأة ، وقد أقبلت الى علج عظيم ، وهو على فرسه فتعلقت به وما زالت به حتى نكسته عن جواده وقتلته ، وهي تقول هذا بيان نصر الله المسلمين ، قال الزبير بن العوام وحمل المسلمون حملة منكرة لا يريدون غير رضا الله ورسوله ، وقاتلت الازد مع أبي هريرة وفشا فيهم القتل واصيب منهم خلق كثير لانهم تلقوا الصدمة الاولى بانفسهم واستشهد منهم ما لم يستشهد من غيرهم . قال سعيد بن زيد كان القتال في الميمنة شديدا وكان المسلمون ينهزمون تارة ويعودون مرة وساعة نصبر وساعة نتأخر . قال ونظر خالد بن الوليد الى الميمنة ، وقد وصلت الى القلب فصاح بمن معه من الخيل ومال عليهم فمالوا وكانوا زهاء ستة آلاف فكبر وحمل على الروم فنكى بهم نكاية عظيمة حتى كشف أعداء الله عن الميمنة والقلب الى أن ردت الى مواضعها ووقف خالد أمامهم يطارد من كان قريبا للمسلمين ، قال فانكسر الروم امام خالد ونظر خالد الى فرسانه فرآهم متبددين فنادى يا أهل الاسلام والايمان ويا حملة القرآن ويا أصحاب محمد (ص) قد تبينت في الروم الكسرة العظيمة ولم يبق عند القوم من الجلد والقتال الا ما رأيتم وقد كسر الله حدتهم فردوا عليهم الكسرة وشدوا عليهم الكرة رحمكم الله ، فوالذي نفس خالد بيده اني لارجو أن يمنحكم الله اكتافهم فنادى المسلمون من كل جانب احمل حتى نحمل معك . قال فانتضى خالد سيفه وحمل وحملت أصحابه معه . قال عبد الرحمن بن الحميدي الجمحي كنت ممن حمل مع خالد فوالله لقد انكشفت الروم بين أيدينا وولت كما تولي الغنم بين يدي الاسد وتبعهم المسلمون وكانت الحملة على ميمنة الروم فانكشفوا انكشافا قبيحا ، وأما المسلسلة فما برحوا من مواضعهم وكانوا يرمون بالسهام وهم حماة القوم .

الشعـــار

قال عبد الرحمن وكان خالد أمامنا في حملته ونحن من ورائه ، وكان شعارنا يا محمد يا منصور أمتك أمتك فلم يزل خالد في حملته ونحن من ورائه حتى وصل الى الديرجان وكان قائما في موضعه الذي أقامه فيه ماهان معه صليب من الجوهر ومعه أصحابه ينتظرون حملته فيحملون معه ، فلما وصلت خيل خالد الى موضعه . قال له البطارقة أيها الملك أما آن لك أن تحمل نحمل معك أو تولي فقد خالطتنا خيل العرب . فقال لاصحابه اعلموا أن يوم السوء لا أحبه ولا أحب أن أراه ولا أحضره ، وقد أحضرني الملك الى هذا الموقف وأنا كارهه ولكن لفوا وجهي ورأسي في هذا الثوب

كشعاع الشمس وتحته فرس من نسل خيول عاد ، فلما خرج جبلة الى عامر بن الطفيل قال له من أي الناس أنت قال أنا من دوس . قال جبلة انك من القرابة فابق على نفسك وارجع الى قومك ودع عنك الطمع ، فقال له عامر قد اخبرتك من انا ومن قبيلتي فأنت من أي العرب . قال انا من غسان وانا سيدها جميعها انا جبلة بن الايهم الغساني ، وانما خرجت اليك حين نظرت اليك ، وقد قتلت هذا البطريق الشديد وهو نظير ماهان وجرجير في الشجاعة فعلمت انك كفؤ فخرجت لاقتلك واحظى عند ماهان وهرقل بقتلك ، فقال عامر بن الطفيل أما ما ذكرت من شدة القوم وعظم خلقهم فالله أشد منعة ، وهو مهلك الجبابرة ، وأما قولك انك تحظى بقتلي عند مخلوق مثلك فاني أريد ان أحظى بجهادي عند رب العالمين بقتلك وحمل عامر على جبلة بن الايهم والتقيا بضربتين فخرجت ضربة عامر بن الطفيل غير ممكنة وخرجت ضربة جبلة ممكنة فقطعت من قرنه الى كتفه فسقط عامر قتيلا فجال جبلة على مصرعه ووقف يعجب بنفسه وبما صنع وطلب البراز فخرج إليه ولد المقتول ، وهو جندب بن عامر بن الطفيل وكانت معه راية أبيه فأقبل الى ابي عبيدة ، وقال ايها الامير ان ابي قد قتل واريد ان آخذ بثاره أو أقتل فادفع رايتك لمن شئت من دوس فأخذ ابو عبيدة الراية ودفعها لرجل من دوس فحملها وخرج جندب الى قتال جبلة بن الايهم ، وهو ينشد ويقول :

سأبذل مهجتي ابدا لاني ... اريد العفو من رب كريم
وأضرب في العدا جهدي بسيفي ... واقتل كل جبار لئيم
فان الخلد في الجنات حق ... تباح لكل مقدام سليم

قال ودنا من جبلة ، وقال له اثبت يا قاتل ابي لاقتلك به ، فقال جبلة ومن انت من المقتول قال ولده . قال جبلة ما الذي حملكم على قتل نفوسكم وأولادكم وقتل النفوس محرم ؟ . قال جندب ان قتل النفس في سبيل الله محمود عند الله وننال به الدرجة العالية ، فقال له جبلة اني لا اريد قتلك ، فقال جندب وكيف ارجع وانا المفجوع بأبي والله لا رجعت او آخذ بثأر ابي او الحق به ثم حمل على جبلة وجعلا يقتتلان وقد شخصت نحوهما الابصار ، ونظر جبلة الى الغلام وما ابدى من شجاعته فعلم انه شديد الباس صعب المراس فاخذ منه حذره وغسان ترمق صاحبها فرأت الغلام جندبا وقد ظهر على صاحبهم وقارنه في الحرب ، فصاح بعضهم على بعض وقالوا ان هذا الغلام الذي برز الى سيدكم غلام نجيب وان تركتموه ظهر عليه فانجدوه ولا تدعوه فتأهب غسان للحملة ليستنقذوه ونظر المسلمون الى جندب وما قد ظهر منه ومن شجاعته وشدته ففرحوا بذلك ونظر الامير ابو عبيدة الى ذلك وما فعل . فبكى وقال هكذا يكون من يبذل مهجته في سبيل الله اللهم تقبل له فعله .

(قال جابر بن عبدالله) شهدت قتال اليرموك فما رأيت غلاما كان انجب من جندب بن عامر بن الطفيل حين قاتله جبلة وبعد ذلك حمل على جبلة وضربه ضربة

اوهته بها وضربه جبلة فقتله وعجل الله بروحه الى الجنه وتحقق منام ابيه عامر بن الطفيل ، وجال جبلة على مصرعه وطلب البراز فصاح به قومه ارجع الينا فقد قضيت ما يجب عليك فرجع وهو معجب بنفسه حتى وقف تحت صليبه . قال وبعث اليه ماهان يشكره واصيب المسلمون بعامر بن الطفيل وولده جندب . قال فعندها صاحت دوس الجنة الجنة خذوا بثار سيدكم عامر وساعدتها الازد وكانوا احلافهم وحملوا على غسان ولخم وجذام وتناشدوا الاشعار فصاح ابو عبيدة بالمسلمين ، وقال أيها الناس سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية ومعانقة الحور العين في جنات النعيم فما من موطن احب الى الله من هذا الموطن الا وان الصابرين فضلهم الله على غيرهم ممن لم يشهد مشهدهم ، هذا ولما سمعت الازد ذلك حملت مع دوس وكان شعارهم يومئذ الجنة الجنة .

(قال الواقدي) حدثني موسى بن محمد عن عطاء بن مراد ، قال سألت رجالا عدة ما كان شعار المسلمين يوم اليرموك فأخبرت ان شعار ابي عبيدة أمت أمت وشعار عبس يا لعبس وشعار اليمن من اخلاط الناس يا انصار الله وشعار خالد ومن معه يا حزب الله وشعار حمير الفتح وشعار دارم والسكاسك الصبر الصبر وشعار بني مراد يا نصر الله انزل ، فهذه كانت شعار المسلمين يوم اليرموك . قال فلما حملت دوس تبعها الازدُ وقصدت العرب المتنصرة وطلبت صليبهم وفرقتهم تفريقا صعبا حتى وصلوا الى الصليب فطلب رجل منهم حامل العلم الذي لغسان فارداه عن فرسه ووقع الصليب من يده منكوسا وقتل من الازد ودوس رجال الا أنهم كانوا مثل الشامة البيضاء في جلد البعير الاسود . ثم كرت غسان تريد اخذ صليبهم فاقتتلوا عنده قتالا شديدا حتى قتلوا خلقا كثيرا .

(قال الواقدي) حدثني هشام بن عمارة عن أبي الجريري عن نافع عن جبير بن الحويرث عن عبدالله بن عدي . قال شهدت اليرموك فكان المسلمون خمسة وعشرين الفا : فغضب الحويرث وقال كذب من حدثك بهذا الحديث . فان المسلمين كانوا يوم اليرموك احدا واربعين الفا وقد اديت اليك ما سمعته ممن اثق به من الرواة .

(قال الواقدي) وهذا اثبت الاقاويل لان المسلمين كانوا يوم اجنادين اثنين وثلاثين الفا وجاءت الامداد بعد ذلك .

(قال الواقدي) حدثني ابن أبي نمرة عن عبد الحميد بن سهل عن جده قال : لما حملت الازد يوم اليرموك ودوس ودوخت المشركين دوخة عظيمة وحمل المشركون حملة هائلة انكشف المسلمون وكان صاحب لوائهم عياض بن غنم الاشعري فولى منهزما واللواء بيده فصاح به الناس انما ثبات القوم وأهل الحرب بألويتهم، فابتدر لاخذه عمرو بن العاص وخالد بن الوليد كلاهما يتسابق اليه فأخذه عمرو ولم يزل يقاتل به حتى انهزمت الروم وفتح الله على ايدي المسلمين ، وكان اليوم الثالث من اليرموك يوما

حتى لا أرى الحرب قال فلفوا وجهه وراسه في ثوب ديباج والناس يقتتلون حتى انهزمت الروم بين ايدي المسلمين ووصلوا الى الديرجان وهو ملفوف الراس فحمل عليه ضرار بن الازور فقتله .

(قال الواقدي) وكان احسن صنع الله تعالى بالمسلمين ان جرجير وقناطر اختلفا وتنازعا وكان جرجير في الميمنة مع الارمن وقناطر في الميسرة تحته ، فقال جرجير لقناطر احمل على العرب فما هذا وقت الوقوف ، فقال قناطر تأمرني ان احمل وكيف لا تحمل انت . فقال جرجير لقناطر وكيف لا آمرك ، وانا امير عليك فقال قناطر كذبت انت امير وانا امير عليك وفوقك وانت مأمور لي بالطاعة فاختلفا وغضب جرجير من قول قناطر فحمل على المسلمين حملة شديدة وكانت حملته على كنانة وقيس وخثعم وجذام وقضاعة وعاملة وغسان وهم يومئذ فيما بين الميسرة والقلب فكشف الروم المسلمين حتى زالت عن مصافهم ولم يبق منهم الا اصحاب الرايات فقاتلوا من يليهم قتالا شديدا وركب الروم اكتاف المسلمين المنهزمين الى ان دخلوا معهم الى معسكرهم فاستقبلهم النساء بالعمد يضربن وجوه الخيل ويرمين وجوهها بالحجارة وينادين بهم الى اين تنهزمون يا اهل الاسلام عن الامهات والاخوات والبنين والبنات اتريدون ان تسلمونا للاعلاج ؟ . قال منهال الدوسي فلقد كانت النساء اشد علينا غلظة من الروم فرجع المسلمون عن الهزيمة ونادى بعضهم بعضا — وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر — وعطفوا على الروم عطفة عظيمة . قال وكان قتامة بن ايشم الكناني امام المسلمين يضرب في عراض المشركين تارة بالسيف وتارة بالرمح حتى كسر ثلاثة رماح ، وهو يقول :

سأحمل في الروم الكلاب النوابح ... واضربهم ضربا بحد الصفائح
وارضي رسول الله خير مؤمل ... نبي الهدى للدين اشرف ناصح

(قال الواقدي) ثم حمل حتى كسر سيفين وجعل كلما كسر رمحا او سيفا يقول من يعيرني سيفا او رمحا في سبيل الله واجره على الله ، ثم نادى يا معاشر قيس خذوا نصيبكم من الاجر والصبر ، فان الصبر في الدنيا عز ومكرمة وفي الآخرة رحمة وفضيلة — فاصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون — . قال فاجابه قومه ونشطوا للقتال . قال قتامة بن ايشم الكناني فما رأيت مثل حملة قناطر وقومه ولقد اختلطوا بنا واختلطنا بهم . قال ورجع خالد من دهمته ومعه الفان من أصحابه ، وقد وضعوا السيوف في الروم وقتلوهم قتلا ذريعا والقتل لا يبين فيهم لكثرتهم ، واقبل خالد على الناس من كرته فرأى الناس يقولون جزى الله قتامة بن الايشم خيرا عن الاسلام فشكره وجزاه خيرا . قال واقبلت ذرعة ابنة الحرث منحدرة عن التل وهي تقول ما فعل خالد حتى وقفت بين يديه ، وقالت يا ابن الوليد انت من العرب الكرام ، وانما الرجال بامرائها ، فان ثبتوا ثبتت الرجال معهم وان انهزموا انهزمت الرجال معهم ، فقال لها خالد ما كنت من المنهزمين وما كنا الا نقاتل في الاعلاج . فقالت قبح

الله وجه عبد نظر الى اميره ثابتا وهو منهزم عنه .

(قال الواقدي) ونظر ماهان لعنه الله الى الميمنة من عسكره وقد عركت عراك الاديم فبعث اليهم يحرضهم على القتال . فعندها خرج علج من الروم وعليه درع سابغ السلاح كانه قطعة جبل وهو على شهباء عظيمة الخلقة فبرز بين الصفين وجال على شهبائه وسأل القتال فخرج اليه غلام من الازد فما جال معه جولة حتى قتله العلج ثم دعا بالبراز فهم ان يخرج اليه معاذ بن جبل ، فقال ابو عبيدة يا معاذ سألتك بحق رسول الله (ص) الا ما ثبت مكانك ولزمت رايتك ولزومك الراية احب الي من برازك الى هذا العلج فوقف معاذ بالراية ونادى يامعاشر المسلمين من اراد فرسا يقاتل عليه في سبيل الله فهذا فرسي وسلاحي فجاءه ولده عبد الرحمن فقال انا يا ابت وكان غلاما لم يحتلم . قال فلبس السلاح وركب الجواد ، وقال يا ابت انا خارج الى هذا العلج ، فان صبرت فالمنة لله علي وان قتلت فالسلام عليك وان كان لك الى رسول الله (ص) حاجة فاوصني بها . فقال له معاذ : يا بني اقرئه مني السلام وقل له جزاك الله عن امتك خيرا ، ثم قال يا بني اخرج وفقك الله لما يحب ويرضي ، فخرج عبد الرحمن بن معاذ الى العلج كانه شعلة نار وحمل على العلج وضربه بالسيف فمال عنه العلج ومال اليه وضربه على راسه فقطع العمامة وشجه شجة فاضحة اسالت دمه ، فلما رأى العلج ذلك الدم ظن انه قتل فتأخر الى ورائه لينظر كيف يسقط عن جواده ، فلما نظر عبد الرحمن الي العلج وقد تأخر عنه انثنى راجعا الى المسلمين ، فقال له معاذ ما بك يا بني . قال قتلني العلج قال له ما الذي تريد من الدنيا يا بني ثم انه شد جرحه . قال فعندها صال العلج وحمل فردته الازد . قال ابو عبيده فمن له منكم فخرج إليه عامر بن الطفيل الدوسي وكان من أصحاب الرايات ممن شهد اليمامة مع خالد بن الوليد وكان قد رأى يوم اليمامة في منامه في قتال مسيلمة الكذاب كأن امرأة لقيته ففتحت له فرجها فدخل فيه ونظر اليه ابنه فأسرع ليدخل مكانه ، ثم استيقظ وقص ذلك على المسلمين فلم يدر احد ما تاويله ، فقال ابن الطفيل اما انا فأعرف تأويلها قالوا وما تأويلها يا ابن الطفيل قال : تأويله اني اقتل لان المراة التي ادخلتني فرجها هي الارض وابني سيصيبه جراح ويوشك أن يلتقي بي . قال فقاتل يوم اليمامة وأبلى بلاء حسنا وسلم ولم يلحقه اذى ، فلما كان يوم اليرموك شهد فيه الحرب وخرج الى قتال العلج وهو كانه شعلة حريق أو صاعقة وطعن البطريق ، وكانت قناته قد شهدت معه المشاهد فاندقت بين يديه وانتضى سيفه وهزه وضرب به العلج على عاتقه فخالط امعاءه فتنكس العلج صريعا عن جواده وأسرع عامر بن الطفيل فرمى به الى المسلمين وسلمه الى ولده وانثنى راجعا نحو الروم وحمل على الميمنة وعلى الميسرة وعلى القلب.

ثم قصد المتنصرة فقتل منهم فارسا ودعا للبراز وخرج اليه جبلة بن الايهم وعليه درع من الديباج المثقل بالذهب وتحتها درع من دروع التبابعة وعليه بيضة تلمع

(١٤)

شديدا انهزمت فيه فرسان المسلمين ثلاث مرات كل مرة تردهم النساء بالحجارة والعمد ويلوحون بالاطفال اليهم فيرجعون الى القتال ولم يزل القتال قائما الى أن اقبل الليل بسواده ورجعت الروم الى مواضعها والقتل فيهم كثير وفي المسلمين قليل الا أن الجراح فيهم فاشية من النشاب ، فلما دخل الليل بسواده رجعت كل فرقة الى اماكنها وباتوا تحت السلاح ، قال واما المسلمون فما كانت همتهم الا الصلاة وبعد ذلك شدوا الجراح ، وصلى أبو عبيدة (رض) وقال : ايها الناس اذا عظم البلاء فانتظروا الفرج فانه ياتي من عند الله فاضرموا نيرانكم وتحارسوا واظهروا التهليل والتكبير ، وقام أبو عبيدة يمشي في الناس هو وخالد بن الوليد يتفقدان الجرحى ويقولان : أيها الناس ان عدوكم يألم كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وباتا طول ليلهم كله وهما طائفان على المسلمين الى أن اصبح الصباح ، قال وانحازت الروم الى جانب اليرموك مع ماهان الارمني فجمع بطارقته ووبخهم وزجرهم . وقال لهم قد علمت ان هذا يكون منكم ، وقد رايت فشلكم وخوفكم وجزعكم من هؤلاء العرب الضعاف قال فاعتذروا اليه وقالوا غدا نبارزهم فان فينا فرسانا وشجعانا لم يقاتلوا اصلا وغدا نصدقهم الحرب فتكون لنا العاقبة . قال فسكت عن توبيخهم وأمرهم أن يتاهبوا لذلك وبات الفريقان يتحارسون ، وقد رعبت الروم من كثرة القتل فيهم ، وأما المسلمون فانهم اقوى قلوبا لشدة دينهم ويقينهم .

قال فلما أصبح الصباح صلى بهم ابو عبيدة صلاة الخوف واذا بالصلبان قد بدت وبرايات القوم قد طلعت في عدد الشوك والشجر كأنهم لم يلاقوا قتالا قط فوقفوا في مصافهم ونصب ماهان سريره على الكثيب الذي كان عليه بالامس وهو يشرف منه على العساكر فامرهم ان يعبوا مصافهم ، فلما نظر امير المؤمنين الى سرعة الروم صاح كل امير برجاله وحرضهم على القتال فانقلبوا من الصلاة الى خيولهم ولبسوا السلاح وركبوا خيولهم ورجع كل أمير الى مكانه وهو يعظ أصحابه ويوصيهم ويعدهم من الله بالنصر ، وسار أبو عبيدة بين الصفوف وهو يصف لهم فضل الجهاد وما أعد الله للمجاهدين الصابرين وخلف على الذرارى والنساء والاموال والاود عمرو بن سعيد ابن عبدالله الانصاري وجعل من الرماة خمسمائة في الميسرة وخمسمائة في القلب وطاف أبو عبيدة عليهم ، وقال لهم معاشر الرماة الزموا مراكزكم فان رأيتم القوم زحفوا الينا فارشقوهم بالنبال واذكروهم عند رميكم ولا تتركوها مفرقة ولتخرج سهامكم كانها من كبد قوس واحدة ، فان هم زحفوا اليكم فاثبتوا مكانكم حتى يأتيكم أمري ففعلوا ما أمرهم به الامير ، وتقدم أبو سفيان الى ولده يزيد والراية في يده وحوله أصحابه وقد عزم على الحملة والجهاد . فقال يا بني ان أحسنت أحسن الله اليك عليك بتقوى الله والصبر فاتق الله حق تقاته وانصر دين الله وشرع نبيه (ص) ، واياك والجزع فما قضاه ربنا قد أمضاه فاصبر مع أصحابك صبر اولى العزم ، واياك ثم اياك أن يراك الله

منهزما فتبوء بغضب من الله . قال يزيد : سأصبر جهدي وطاقتي والله أسأله أن يكون معينا لي وناصرا .

ثم صاح يزيد برجاله وهز الراية وندبهم الى القتال وحمل على من يليه من الروم فقاتلوا قتالا عظيما ولم يزالوا حتى انكوا العدو نكاية عظيمة وابلوا بلاء حسنا ، وكان قتالهم من جانب القلب ولم يزالوا كذلك حتى برز اليهم بطريق من البطارقة وبيده رمح عظيم وعليه صليب من الذهب وحوله زهاء من عشرة آلاف فارس من الروم فحملوا على الميمنة وكان فيهم عمرو بن العاص ومن معه فرجعوا على اعقابهم منهزمين حتى دخلت الروم في أوائل عسكر المسلمين مما يلي عمرا ومن معه وهم يتراجعون على الرجال فيكرون تارة ويرجعون تارة حتى تكاثرت عليهم الروم فكشفوهم حتى الصقوهم بالتل الذي عليه النساء واحاطوا بالتل فصاحت امراة اين انصار الدين اين حماة المسلمين ، وكان الزبير ابن العوام جالسا عند زوجته أسماء بنت أبي بكر الصديق يداوى عينه وكان ارمد ، فلما سمع صوت المراة وهي تنادي اين انصار الدين ؟ قال يا اسماء ما لهذه المراة تصيح اين انصار الدين . فقالت له عفرة ابنة عثمان : يا ابن عمة رسول الله (ص) انهزمت ميمنة المسلمين حتى الجأهم الروم الينا واحاط بنا الاعلاج ، وهذه نساء الانصار مستصرخة بانصار الدين . فقال الزبير والله اني انا من انصار الدين ولا يراني الله جالسا في مثل هذا الوقت . قال ثم طرح الخرقة عن عينه واستوى جالسا على متن جواده فأخذ قناته وتسمى باسمه وقال في حملته : انا الزبير بن العوام ، انا ابن عمة رسول الله (ص) ، وجعل يطعن فيهم طعنا متداركا حتى ردهم على اعقابهم وخيلهم تنكص باذنابها . قال ليث بن جابر : فلله در الزبير بن العوام لقد رد الروم بنفسه وحده اذ حمل عليهم وما كان معه من العرب أحد حتى ردهم الى عسكرهم وتراجعت خيل عمرو ورجاله وهو ينادي الرجعة الرجعة الحزم الحزم يا أهل الاسلام الصبر الصبر فتراجعوا بعد ادبارهم .

(قال الواقدي) وحمل جرجير الارمني في ثلاثين ألفا من الارمن على شرحبيل ابن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) فانكشف أصحاب شرحبيل بن حسنة ولم يثبت غيره لقتال الروم في عصبة من قومه دون الخمسمائة فجعل شرحبيل يحمل على الارمن وهو يقول : يا أهل الاسلام لا فرار من الموت الصبر الصبر . قال فتراجع اصحابه اليه وحملوا على الارمن فردوهم على اعقابهم وجعلوا يضربون فيهم حتى اصابوا من الارمن ما لم يصبه الارمن منهم ، فرجع شرحبيل الى مكانه ودار به أصحابه فجعل يعنفهم بالقتال ويقول لهم ما الذي اصابكم حتى انهزمتم أمام هؤلاء الكفرة وانتم الحماة البررة واهل القرآن وعباد الرحمن أما سمعتم قوله عز وجل – ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير – وقال الله تعالى – ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بأن لهم

الجنة ــ وانتم تهربون . فقالوا يا صاحب رسول الله (ص) زلة من الشيطان مثل يوم أحد وحنين وها نحن معك فاحمل حتى نحمل معك فجزاهم خيرا ووقف مكانه وكان موقفه مما يلي سعيد بن زيد وقد لزموا مواقفهم لم يتحركوا التماسا للحفيظة ، ونظر قيس بن هبيرة الى خيل شرحبيل وقد تراجعت فحمل بمن معه ونادى هو وأصحابه بشعارهم وكان شعارهم يا نصر الله انزل يا منصور امت امت وكان هذا شعارهم يوم بدر واحد ، وحمل خالد بن الوليد بمن معه ذات اليمين ، وحمل قيس من ذات الشمال فقاتلوهم قتالا شديدا ولله در الزبير بن العوام وهاشم بن المرقال وخالد بن الوليد : لقد حملوا حملة عظيمة حتى قربوا من سرادقات ماهان وتواقعت الروم على سرادقات ماهان وخيامه ، فلما نظر ماهان الى ذلك نزل عن سريره هاربا وصاح بالروم وعنفهم فتراجعوا يطلبون القتال وصاح أبو عبيدة بسعيد بن زيد فحمل بمن معه وهو ينادي : لا اله الا الله يا منصور امت امت فأقبلوا يقتلون في الروم قتلا ذريعا ، فبينما المسلمون في حملتهم اذ سمعوا قائلا يقول : يا نصر الله انزل يا نصر الله اقرب أيها الناس الثبات الثبات . قال عامر بن أسلم فتأملنا الصارخ فاذا هو ابو سفيان وتحت رايته ابنه يزيد . قال وشدت الامراء بأجمعهم على من يليهم وقاتلوا قتالا شديدا ولم يكن في الروم اثبت من أصحاب السلاسل فانهم ثبتوا في اماكنهم يمنعون من اتاهم ، واما الرماة وهم مائة الف رام فكانوا اذا رشقوا سهامهم نحو العرب يسترون الشمس ، فلولا النصر والمعونة من الله لكان المسلمون هلكوا وانفصل المسلمون فرحين مستبشرين والمشركون قد هلك اكثرهم وبرز علج من اعلاج الروم كأنه نخلة باسقة وعليه درع مذهب وعلى راسه بيضة مذهبة وعليها صليب من ذهب مرصع بالجوهر وهو راكب على شهباء وعليه زرد من حديد وبيده رمح فجال واشهر نفسه وسأل البراز ، فنظر المسلمون الى عظم خلقته وهول جثته فجعلوا ينظرون اليه . فقال أبو عبيدة لا يهولنكم ما ترون من خلقته فكم رايتم من هو عظيم خلقة ولا قلب له فمن له منكم يخرج اليه واستعينوا بالله عليه ؟ .

قال فخرج اليه عبد من عبيد العرب وبيده سيفه وحجفته وهو راجل ، فلما اراد ان يدنو من العلج صاح به مولاه ذو الكلاع الحميري ، فلما رجع خرج اليه ذو الكلاع وجال عليه وكان ذو الكلاع من اهل الشدة والباس فتواقعا وكل منهما رامح فتطاعنا طعنا شديدا اشد من الجمر ، ثم انهما تجاذبا سيوفهما والتقيا فضرب ذو الكلاع العلج ضربة وضرب العلج ضربة ، وكان سيف العلج قاطعا وساعده قويا فقطع سيفه درقة ذي الكلاع وسيفه ودرعه وما تحته من الثياب ووصلت الضربة الى عضده الايسر فجرحته جرحا بليغا وثقلت يده ، فلما نظر ذو الكلاع الى ما لحقه من العلج عطف بجواده يريد المسلمين ونظر العلج الى ذي الكلاع سابقا فلم يلحقه حتى لحق بالمسلمين فأتى قومه والدم يفور من جرحه ، فاجتمع فرسان قومه فقال لهم يا فرسان

حمير اياكم ان تتكلوا في قتالكم على السلاح ومنعته ولكن اتكلوا في قتالكم على الله عز وجل . قالوا وكيف ذلك ايها السيد ؟قال لاني رددت عبدي عن القتال شفقة عليه اذ ليس معه لامة حرب وقلت اني افرس منه واجود عدة ولامة فصنع بي هذا الاغلف ما ترون والله ما لحقني قبلها في حرب مثلها قط فشدوا جرحه ووقف مكانه ، ثم انه صاح بقومه يا رجال حمير ان كان سيدكم قد رجع كلالا فما منكم من يأخذ بثاره فانتدب فارس من فرسان حمير وعليه صبائغ اليمن من الابراد والحبر كأنه جمرة نار وحمل نحو العلج مصمصما وجال جولة عظيمة وطعنه طعنة اثبتها في صدره فأرداه قتيلا وعجل الله بروحه الى النار ، فهم الحميري أن ينزل عن جواده ويأخذ سلبه فحمل عليه كردوس من الروم ليكشفوه عنه فردهم الحميري صاغرين ، ثم رجع اليه واخذ سلبه واقبل به على ابي عبيدة فأعطاه اياه فدفع السلب الى قومه ورجع الى مقامه في القتال فخرج اليه آخر فقتله وآخر فقتله فخرج اليه علج رابع فقتل الحميري ونزل ليأخذ سلب الحميري فرماه رجل من رماة الانصار بنبلة فوضعها في لبته فجندله صريعا وعجل الله برحه الى النار ، قال فانقلبت الروم على وجوهها وهابوا جميع المسلمين ، وكان ذلك البطريق الذي قتل بالنبلة من عظمائهم ويقال انه كان صاحب نابلس فصاح بهم ماهان وسكنهم عن اضطرابهم وخرج الى القتال ملك اللان واسمه مريوس وعليه لامة الملوك وعليه ديباجة وفي وسطه منطقة مرصعة بالجوهر فجال بين الصفين وشهر نفسه وقال انا ملك اللان فلا يبرز لي الا اميركم ، فخرج اليه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) وبيده لواؤه وعليه درع من حديد وهو ممنطق بمنطقة من الاديم وهو على جواده . فقال ابو عبيدة من هذا الذي خرج قالوا له شرحبيل بن حسنة فبعث اليه ابو عبيدة يقول له: ادفع الراية لمن شئت واخرج من غير راية، فلما سمع ذلك سلم الراية لرجل من قومه وقال له قف بها موضعي ، فان قدر علي فسلم الراية الى الامير ابي عبيدة يدفعها لمن يريد ، وان رجعت اخذتها فأخذها الرجل وخرج شرحبيل كاتب وحي رسول الله (ص) نحو ملك اللان وهو يقول :

سأحمل في الشآم بني الاعادي بكل مثقف لدن حداد
فيا بؤسا لقيصر يوم نأتي وجمع الروم شرد في البلاد

قال فسمع البطريق شعر شرحبيل فلم يفهمه وكان يفهم قليلا بالعربية .
فقال له : يا عربي ما الذي تقول . قال أقول كلاما تقوله العرب عند الحرب تشجع به نفوسها وتثق بوعد الله الذي وعد به نبينا . فقال ملك اللان وما الذي وعدكم به نبيكم ؟ . فقال شرحبيل وعدنا الله أن يفتح لنا الارض في الطول والعرض ونملك الشام ونكون من الظافرين بنصر الله لنا . قال ملك اللان : ان الله لا ينصر من يبغي وأنتم تبغون علينا وتطلبون ما ليس لكم بحق . فقال شرحبيل نحن قوم أمرنا الله ان نفعل ذلك والارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، واني أراك تعرف

كلام العرب فلو تركت ما انت عليه من عبادة الصليب ودخلت في دين الاسلام كنت من أهل الجنة وسعدت . فقال ملك املان ما اترك دين المسيح ابدا فان دينه حق ؟ فقال شرحبيل لا تقل انه اله معبود ولا تقل صلب وقتل ، فان الله سبحانه وتعالى أحياه في الارض ما شاء ثم رفعه الى السماء ثم قال ملك اللان لن أرجع عن قولي ، ثم استخرج صليبا من عنقه فرفعه ووضعه على عينه وأقبل يستنصر به ففضب شرحبيل من فعاله . فقال له يا ويلك تبا لك ولمن معك ولمن يقول بقولك ، ثم حمل عليه واخذا في القتال وجالا جولانا عظيما فرمقتهما الابصار وجعل المسلمون يدعون لشرحبيل بالنصر والمعونة ، ونظر شرحبيل الى شدة الكافر ففر بين يديه كأنه منهزم فتبعه عدو الله ، فلما علم شرحبيل انه قد قاربه ثنى عنان جواده فطعنه بقنانه يريد أن يجعلها في نحره فزاغ المشرك عن الطعنة ونجا منها سالما ، ثم قال معاشر العرب انتم لا تدعون الخديعة والمكر . فقال شرحبيل ويلك اما علمت ان الحرب خدعة والمكر راسها . فقال العلج فما الذي نفعك من حيلتك ؟ . قال فتضاربا حتى انقطع السيفان في أيديهما فاعتنقا معانقة شديدة وكان المشرك أعظم جثة واشد منعة ، وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام فضغط عليه المشرك ضغطة أوجعه بها وهم أن يقتله في سرجه والفريقان ينظران اليهما . قال ضرار بن الازور فداخلني والله الفيظ . فقلت في نفسي ويحك يا ضرار يقتل هذا العلج كاتب وحي رسول الله (ص) وانت تنظر اليه فما يمنعك من نصرته .

(قال الواقدي) فخرج ضرار نحوهما يسعى على قدميه كالظبية الخمصاء حتى قرب منهما ولا يعلمان به جميعا وكان في يده خنجر فضرب به العلج من ورائه فأطلع الخنجر من قلبه فسقط العلج قتيلا وخلص شرحبيل من الضغطة . قال فلما سقط العلج عن ظهر جواده نزل اليه شرحبيل وسلب ما كان عليه من لامة حربه ، وركب ضرار جواده وانثنى راجعا هو وشرحبيل نحو المسلمين فهنأ المسلمون شرحبيل وشكروا ضرارا على فعله . قال ثم ان شرحبيل اخذ سلب العلج فنازعه ضرار فيه . فقال السلب لي وانا قتلته ، وقال شرحبيل انا آخذ السلب فأتيا ابا عبيدة فخاف أبو عبيدة أن يحكم بينهما فلا يرضون بحكمه ، فكتب الى عمر بن الخطاب (رض) يقول : يا امير المؤمنين ان رجلا خرج الى البراز وقاتل علجا من الاعلاج وبلغ معه الجهد جهيد ، فخرج آخر من المسلمين فأعان الرجل وقتل العلج : قال ولم يسم ابو عبيدة الرجلين فلمن السلب منهما ؟ ، فجاء الجواب من عمر بن الخطاب ان السلب للقاتل فأخذ السلب ابو عبيدة من شرحبيل وأعطاه ضرارا . فقال ـ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

(قال الواقدي) ولما قتل ضرار ملك اللان غضبت الروم ، فخرج فارس شجاع وطلب البراز فخرج اليه الزبير بن العوام (رض) فقتله واخذ سلبه وخرج اليه ثان وثالث ورابع فقتلهم واخذ اسلابهم . فقال خالد لابي عبيدة : ان الزبير قد تجرد

للروم وبذل نفسه لله ولرسوله واخاف عليه من التعب فصاح عليه ابو عبيدة وأقسم عليه فرجع الزبير الى مقامه . قال وخرج من الروم بطريق فخرج اليه خالد بن الوليد وكان ملك الروسية فقتله خالد وكان زوج بنت ملك اللان فقوم سلبه وتاجه ومنطقته وصليبه ودرعه بخمسة عشر الفا . قال فأخبر ماهان بذلك فغضب وقال سيدان منا قتلا في يوم واحد واني اظن أن المسيح لا ينصرنا ثم أمر الرماة أن يرموا عن يد واحدة فرموا سهامهم واطلقوا نحو المسلمين دفعة واحدة مائة الف سهم ، فكان النشاب يقع في عساكر المسلمين كسقوط البرد من السماء فكثرت الجراح في الناس واعور من المسلمين سبعمائة عين فسمى ذلك اليوم يوم التعوير ، وكان ممن أصيب بعينه المغيرة ابن شعبة وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل التميمي وابو سفيان صخر بن حرب وراشد بن سعيد وكان الرجل بعد ذلك يلقي الرجل . فيقول له ما الذي أصاب عينك ؟ فيقول الآخر لا تقل مصيبة بل هي محنة من الله . قال وعظم وقع السهام في عسكر المسلمين حتى ما كنت تسمع الا من يصيح واعينا وابصراه واحدقتاه وعظم اضطراب المسلمين من ذلك . قال فجذبت العُرب اعنة خيولها راجعة . قال ونظر ماهان اللعين الى اضطراب جيش المسلمين فحرض الرماة والروم وصاح برجاله وزحفت المسلسلة نحو المسلمين فهالهم ذلك وحمل جرجير وقناطر وقورين ، وقال ماهان اثبتوا على الحملة وارموا العرب بالنشاب فزادت الرماة في رميها وزحفت المسلسلة بحديدها والبوارق تلمع من اكف الرجال كمقاييس النيران والحرب قائمة على ساق ، واخذ المسلمون على انفسهم اشفاقا مما نزل بهم ووصل اليهم من قلع الاحداق ، قال عبادة بن عامر فنظرت الى جيش الشرك وهو نحونا سائر وفرسان المسلمين متأخرة وخيولهم ناكصة . فقلت لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم : اللهم انزل علينا نصرك الذي نصرتنا به في المواطن كلها ، ثم صحت في رجال حمير تهربون من الجنة الى النار ما هذا الفرار أما تخافون العار ؟ : أما انتم بين يدي الجبار : أما هو عالم الاسرار فررتم من الكفار . قال فما أجابني والله أحد كأنهم صم لا يسمعون ؟ قال فقلت كان قبيلتك خرست عن الجواب فجعلت أهتف بقبائل العرب فكل قد شغل بنفسه عن اجابتي فجعلت أكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فما كان غير بعيد حتى نزل النصر من الله . وذلك أن المسلمين قد انقلبوا راجعين نحو تل النساء ولم يثبت غير أصحاب الرايات . قال عبدالله بن قرط الاسدي شهدت القتال كله فلم أر قتالا اشد من يوم التعوير ورجعت الخيل على اذنابها وقاتلت الامراء بأنفسها والرايات بأيديهم حتى كان أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمسيب بن نجية الفزاري وعبد الرحمن بن ابي بكر الصديق والفضل بن العباس يقاتلون قتالا شديدا . قال عبدالله بن قرط : فقلت في نفسي وكم مقدار ما يقاتلون هؤلاء وهم نفر يسير حتى ساعدتنا النساء اللاتي شهدن مع رسول الله (ص) المشاهد يداوين الجرحى ويسقين الماء ويبرزن الى القتال ولم أر امرأة من نساء قريش قاتلت بين يدي رسول

الله (ص) ولا في اليمامة مع خالد مثل ما قاتلت نساء قريش يوم اليرموك حين دهمهن القتال وخالط الروم المسلمين فضربن بالسيوف ضربا وجيعا ، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب (رض) ، وكان قد انضم النساء المهاجرات لغيرهن وقامت الحرب على ساق وتنادى النساء بأنسابهن وامهاتهن والقابهن ، وجعلن يقاتلن قتال الموت ويضربن وجوه الخيل بالعمد ويلوحن بالاطفال ، وجعل النساء بعضهن يقاتل المشركين وبعضهن يقاتل المسلمين حتى رجعوا الى قتال المشركين وبعضهن يسقي الماء وبعضهن يشد الجراح . قال فبينما هن يقاتلن وقد هجمت الرجال اذ انهزمت نساء لخم وجذام وخولان ، فخرجت خولة بنت الازور وأم حكيم ابنة حكيم بنت الحرث وسلمى بنت لؤي ، وجعلن يضربن في وجوههن ورؤوسهن بالعمد ويقلن اخرجن من بيننا فانتن توهن جمعنا . قال فرجعت نساء لخم وجذام يقاتلن قتال الموت ، وقاتلت أم حكيم بنت الحرث امام الخيل بالسيف وما نسمع يومئذ صوت واحدة من النساء غير صوت واعظة تعظ ، وأما أم حكيم فانها جعلت تنادي يا معاشر العرب احصدوا القلف بالسيوف ، وأما أسماء بنت ابي بكر فانها قرنت عنانها بعنان زوجها الزبير ابن العوام فما كان يضرب الا ضربت مثله . قال فتراجع المسلمون الى القتال حين رأوا النساء يقاتلن قتال الموت ويقول الرجل لمن يليه ان لم نقاتل نحن هؤلاء .. والا فنحن أحق بالخدور من النساء ، فلله در نساء قريش يوم اليرموك .

(قال الواقدي) حدثني عبد الرحمن بن الفضل عن يزيد بن ابي سفيان عن مكحول قال كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة من الهجرة ، قال أبو عامر وحملت خولة بنت الازور على علج من الاعلاج كان قد حمل علينا فاستقبلته وجعلت تشالشه بالسيف فضربها العلج بسيفه على قصتها فأسال دمها وسقطت الى الارض فصاحت عفيرة بنت عفان حين نظرتها صريعة ونادت فجع والله ضرار في اخته فأخذت راسها على ركبتها والدم قد صبغ شعرها كالشقائق فقالت لها كيف تجدك قالت أنا بخير ان شاء الله تعالى ولكني هالكة لا محالة فهل لك علي باخي ضرار . فقالت عفيرة يا ابنة الازور ما رأيته ؟ فقالت خولة : اللهم اجعلني فداء لاخي ولا تفجع به الاسلام قالت عفيرة فجهدت أن تقوم معي فلم تقم فحملناها الى ان اتينا بها موضعها ، فلما كان الليل رأيتها وهي تدور تسقي الرجال وكان ليس بها الم قط ونظر اليها أخوها والضربة في راسها . فقال لها ما بك ؟ فقالت ضربني علج قتلته عفيرة . فقال لها يا اختاه ابشري بالجنة فقد اخذت لك بثار الضربة مرارا وقتلت منهم اعدادا قال ولم يزل الحرب من اول النهار وكلما قرب الليل يزيد ويشتعل ضرامها وابو عبيدة يقاتل برايته والامراء يفعلون كفعله الى أن فصل بينهما الظلام ، وقد قتل من الروم يوم التعوير اربعون الفا أو يزيدون ، ونقل عن خالد انه انقطع في يده ذلك اليوم تسعة أسياف ولقد اخبرنا عن خالد بن الوليد ممن حضر قتال اليرموك وشاهده قال كان يعد قتال خالد بمائة

رجل من شجعان الرجال ، قال حازم بن معن وبرز من المشركين في قلب الوقعة أصحاب الديباج والحرير والتجافيف على الخيول الشهب والبلق كأنها من الجبال الراسيات ، فلما برزوا غاصوا في القلب وكروا كرة واحدة ورفعوا في وسطهم صليبا من الجوهر وحملت ميمنتهم على ميسرتنا وميسرتهم على ميمنتنا ، وقد شردوا الى النساء والنساء يضربن وجوههم فجعلن يصحن بهم الله الله لا تفموا الاسلام بهزيمتكم واتقوا ربكم . قال كان بين يدي ابي عبيدة رجل من محرز اسمه نجم بن مفرح وكان من خطباء العصر وافصح العرب لسانا واجرئها جنانا وكان رفيع الصوت حسنه جدا فقصده العرب والفصحاء يسمعون ما ينطق به من نظمه ونثره .

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن محمد عن ابيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عوف عن موسى بن عمران اليشكري قال رايت نصر بن مازن وهو بجامع النيل يحدث عن وقعة اليرموك . قال مارد الناس عن الهزيمة بعد قضاء الله الى نصرة الاسلام الا غلام رجل من بني محارب يقال له نجم بن مفرح وكان لا يتكلم الا بالسجع يؤلفه بحسن نظمه ولقد حفظنا منه يوم اليرموك ما نحن نذكره عنه ، ولقد بلغني أن البلغاء الفصحاء المتأخرين مثل الاصمعي وابي عبيدة اللغوي ينسجان على منواله في حسن كلامه فكان من جملة ما وعظ به المسلمين يوم اليرموك وقت هزيمتهم : ايها الناس هذا يوم له ما بعده وقد عاينتم قربه من بعده ولن تنال الجنة الا بالصبر على المكاره وتالله لا ينالها من هو للجهاد كاره وينشد :

ولله في عرض السموات جنة ونكنها محفوفة بالمكاره

واعلى الدرجات درجة الشهادة فأرضوا عالم الغيب والشهادة وهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في اسواقه واخفى نفاقه في نفاقه وانتم اصحاب نبي العصر فأيستم من الثبات والنصر بشروا روح المصطفى بثباتكم وقوموا العزم بصفاء نياتكم واياكم أن تولوا الادبار فتستوجبوا عذاب النار وغضب الجبار ، فوالذي قدر الاقدار ، وأدار الفلك الدوار ، وكل شيء عنده بمقدار لقد تزينت لكم الحور العين بأيديهن أباريق وكأس من معين ، فمن طلب دار البقا هان عليه ما يلقى ، فحققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا الصدور تنالوا الحور وشرعوا الاسنة تنالوا الجنة واغتنموا الصبر يكتب لكم الاجر ، بشروا المؤمنين بحسن عملكم واياكم أن تضلوا عن سبيلكم لا توافقوا الكفار في جهنم واعدلوا عن طريق قولهم ووافقوا من سلف من اسلافكم في فعلهم واسمعوا ما نزل في القرآن من اجلهم ــ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ــ سيروا فقد سبق المفردون ، واجتهدوا فقد فاز المجتهدون ــ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ــ

قال وحمل خالد بن الوليد بعصابة حمراء وهو يفزع الروم باسمه ويقول : انا خالد ابن الوليد فبرز اليه بطريق يقال له النسطور وعليه الديباج فأقبل يدعو خالدا ويهمهم وخالد في القتال لا يشعر به ولا يدري ما يقول فعندما سمعه يرطن عطف عليه فاقتتلا قتالا شديدا فبينما هما في اشد القتال اذ كبا بخالد الجواد فوقع الفرس على يديه وهوى خالد على أم راسه . فقال الناس : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

(قال الواقدي) وخالد يقول : حي حي فعلا البطريق على ظهر خالد في عثرته وقد سقطت قلنسوته من راسه فصاح قلنسوتي رحمكم الله فأخذها رجل من قومه من بني مخزوم وناوله اياها فأخذها خالد ولبسها فقيل له فيما بعد : يا أبا سليمان أنت في مثل هذا الحال من القتال وأنت تقول قلنسوتي . فقال خالد ان رسول الله (ص) لما حلق راسه في حجة الوداع اخذت من شعره شعرات . فقال لي ما تصنع بهؤلاء يا خالد ؟ فقلت أتبرك بها يا رسول الله واستعين بها على القتال قتال اعدائي فقال لي النبي (ص) لا تزال منصورا ما دامت معك فجعلتها في مقدمة قلنسوتي فلم ألق جمعا قط الا انهزموا ببركة رسول الله (ص) ، قال ثم شدها بعصابة حمراء وحمل على النسطور وضربه على عاتقه اخرج السيف من علائقه وانكسر من بقي من ملوكهم وكرهوا البراز بعد ذلك فكان يدعوهم الى البراز فلا يخرج اليه احد ولم يزل يضرب فيهم بسيفه حتى كل فاشفق عليه الحرث بن هشام المخزومي فقال لابي عبيدة : أيها الامير لقد قضى خالد ما يجب عليه وأدى السيف حقه فلم لا أمرته أن يريح نفسه قال فمشى ابو عبيدة اليه وجعل يعزم عليه أن لا يتقدم ويسأله ان يريح نفسه . فقال خالد أيها الامير : أما والله لاطلبن الشهادة بكل وجه فان اخطأتني فالله يعلم نيتي وحمل فلم يرجع عن حملته حتى جلاها ، وذلك ان كل المسلمين استعفوه في حملته واقبلوا على القتال من بعد هزيمتهم والنساء أمام الرجال ولم يزل الحرب بين الفريقين حتى انقلبت الروم على أعقابها وقد قتل منهم الوف عديدة ، واما أصحاب السلاسل فانحطم اكثرهم ووطئتهم الخيل بحوافرها ولم يزل القتال بينهم حتى مالت الشمس بغروبها وانفصل الجمعان وقد جرت الدماء بينهم وفرشت الارض بالقتلى والجراح فاشية في الجمعين لكن في الروم اكثر ورجع كل قوم الى اصلاح شأنهم ومداواة جرحاهم ، واما النساء فأصلحن الطعام وشددن الجروح وداوين السقام ، ولم يقل أبو عبيدة لاحد من المسلمين من يكون الليلة على حرس المسلمين لما عندهم من التعب بل انه تولى الحرس بنفسه ومعه جماعة من المسلمين ، قال فبينما هو يدور اذ راى فارسين قد لقياه وهما يدوران بدورانه فكلما قال لا اله الا الله قالا محمد رسول الله فقرب ابو عبيدة منهما فاذا هما الزبير بن العوام وزوجته اسماء بنت أبي بكر الصديق فسلم عليهما وقال يا ابن عمة رسول الله (ص) ما الذي اخرجكما ؟ . قال الزبير نحرس المسلمين ، وذلك ان أسماء قالت لي يا ابن عمة رسول الله (ص) ان المسلمين مشتغلون بأنفسهم في هذه

الليلة عن الحرس بما لحقهم من التعب في الجهاد طول يومهم فهل لك ان تساعدني على حرس المسلمين ؟ فأجبتها الى ذلك فشكرهما ابو عبيدة وعزم عليهما أن يرجعا فلم يفعلا ولم يزالا كذلك الى الصباح .

(قال الواقدي) حدثني أبو عبيدة عن صفوان بن عمرو عن عبد الرحمن ابن جبيران أبا الجعيد كان رئيسا من رؤساء اهل حمص ، فلما اجتمعت الروم على المسلمين في اليرموك دخلوا على خمص ونزلوا في بلدة تسمى الزراعة ، وكان أبو الجعيد هذا قد جعلها مسكنه لطيب هوائها ومائها وانتقل من حمص اليها فنزل عسكر الروم على الزراعة عنده وكان فيها عرس لابي الجعيد وزوجته تزف عليه في تلك الليلة . قال فتكلف ابو الجعيد بضيافة الروم واكرمهم وأطعمهم وسقاهم الخمر ، فلما فرغوا من أمورهم قال هات امرأتك الينا فأبى ذلك وسبهم فأبوا الا اخذ العروس ، فلما شنع عليهم بذلك عمدوا الى العروس واخذوها كرها منه وعبثوا بها بقية ليلتهم فبكى أبو الجعيد من حزنه ودعا عليهم فقتلوا اولاده ، وكان له ولد من زوجة غيرها قال فأقبلت ام الفتى فأخذت رأس ولدها في خمارها وأقبلت به الى مقدم ذلك الجيش ورمت الرأس اليه وشكت حالها ، وقالت له انظر ما صنع اصحابك بولدي فخذ بحقي فلم يعبأ بكلامها . فقالت له أم الفتى والله لتنصرن العرب عليكم ورجعت وهي تدعو عليه فما كان الا يسير حتى هلكوا في أيدي المسلمين ، قال فلما كان يوم اليرموك بعدما قتل النسطور أتى ابو الجعيد الى عساكر المسلمين ، وقال لخالد اعلم أن هذا الجيش النازل بازائكم جيش عظيم ولو سلموا انفسهم اليكم للقتل لما فرغتم من قتلهم الا في المدة الطويلة فان كدتهم لكم في هذه الليلة مكيدة تظفرون بها عليهم ماذا تعطوني قالوا : نعطيك كذا وكذا ولا تؤدي جزية انت وولدك وأهل بيتك ونكتب لك بذلك عهدا الى آخر عقبك .

(قال الواقدي) فلما استوثق منهم لنفسه مضى الى الروم وهم لا يعلمون واتى الى واد عظيم مملوء ماء فأنزل الروم الى جانبه ، وقال لهم ان هذا المنزل به العرب وانا سأكيد لكم العرب بمكيدة يهلكون بها . قال وجعل الناقوصة فيما بين الروم والعرب ولم يعلم أحد من الروم ما عمقها . قال فلما كان يوم التعوير وعلم أبو الجعيد ان النصر للعرب وأن العرب هم المنصورون ، جاء أبو الجعيد الى أبو عبيدة فوجده يطوف تلك الليلة هو وجماعة من المسلمين المهاجرين. فقال لهم : ما قعودكم ؟ قالوا : وما نصنع ؟ قال اذا كان ليلة غد فأكثروا من النيران . ثم رجع الى الروم لينصب عليهم حيلة . فلما كانت الليلة الثانية اوقد المسلمون أكثر من عشرة آلاف نار ، فلما اشتعلت النيران أقبل اليهم أبو الجعيد ، فقالوا قد اشعلنا النيران كما اردت فما بعد ذلك ؟ قال اريد منكم خمسمائة رجل من ابطالكم حتى أشير عليهم بما يصنعون .

(قال الواقدي) فاختار من المسلمين خمسمائة رجل من جملتهم ضرار بن الازور

وعياض ورافع وعبدالله بن ياسر وعبدالله بن أوس وعبدالله بن عمر وعبد الرحمن بن ابي بكر وغانم بن عبدالله ومثل هؤلاء السادات ، فلما اجتمعوا سار بهم أبو الجعيد على غير المخاضة وقصد بهم عسكر الروم ، فلما كادوا يخالطونهم اخذ أبو الجعيد منهم رجالا ودلهم على المخاضة ولم يكن يعلم بها أحد سواه ممن سكن اليرموك وقال لهم ناوشوهم الحرب ، ثم انهزموا ودعوني واياهم . ففعلوا ذلك وصاحوا فيهم وحملوا ثم انهزموا قدامهم نحو المخاضة ، فعند ذلك صاح أبو الجعيد برفيع صوته يا معاشر الروم دونكم ومن انهزم فهؤلاء المسلمون ، قد أوقدوا نيرانهم وعولوا على الحرب . قال فأقبلت الروم على حال عجلة يظنون أن ذلك حق ، فبعضهم ركب جواده عريانا وبعضهم راجل وساروا في طلب المنهزمين وأبو الجعيد يعدو بين ايديهم الى أن اوقفهم على الناقوصة وقال لهم : هذه المخاضة دونكم واياهم فاقبلوا يتساقطون في الماء كتساقط الجراد حتى هلك في الماء ما لا يعد ولا يحصى عددا ولا يدركه جنان فسمتها العرب الناقوصة لنقص الروم .

(قال الواقدي) هذا ما جرى للروم ، ولا يعلم الاول بما جرى للآخر حتى أصبحوا ، فنظروا المسلمين في اماكنهم فعلموا انهم قد دهموا في الليل وقل عددهم وتبدد شملهم فقال بعضهم لبعض من كان الصائح في ليلتنا . قال الرجل الذي عبثتم بزوجته وقتلتم ولده وقد اخذ بثأره منكم . قال فلما اصبح ماهان وعلم الحقيقة وعلم ما نزل بأصحابه علم أنه هالك لا محالة وأن العرب ظافرون عليه ، فبعث الى قورين ، فقال ما ترى أن اصنع وقد ظهرت العرب علينا وان حملوا علينا حملة لم ينفلت منا احد ، فهل لك ان تسألهم أن يأخروا القتال حتى نفعل الحيلة في خلاص انفسنا ؟ قال قورين افعل ذلك . قال فدعا ماهان برجل من لخم وبعثه الى المسلمين يقول لهم : اعلموا أن الحرب سجال والدنيا زوال وقد مكرتم بنا فلا تبغوا فالبغي له مصرع وأخروا الحرب عنا يومنا هذا ، فاذا كان غد يكون الانفصال بيننا وبينكم . قال فأقبل اللخمي الى ابي عبيدة وبلغه الرسالة فهم ابو عبيدة أن يجيبهم الى ذلك فمنعه خالد من ذلك وقال له لا نفعل أيها الامير فما عند القوم خير بعد ذلك . فقال ابو عبيدة ارجع الى صاحبك وقل له لا نؤخر عنك القتال وانا على عجل من امرنا فرجع الرسول الى ماهان فأعلمه بجواب أبي عبيدة فعظم عليه وكبر لديه وكفر وتجبر وقال : لقد كنت اتربص بنفسي عن العرب ارجو بذلك الصلح فوحق الصليب لا يبرز لهم غيري ثم صرخ بالروم وأصحاب سرير الملك ، ومن كان يتكل عليه في الشدائد وامرهم ان يأخذوا الاهبة فاستعدوا وخرج ماهان في مقدمة الجيش والصليب امامه واذا بالمسلمين اخذوا مصافهم للقتال ، وذلك ان أبا عبيدة صلى بالمسلمين صلاة الفجر وامرهم بالسرعة للقتال واخذوا مواضعهم للحرب ففعلوا وقد ايقنوا انهم منصورون على عدوهم ، وصف أبو عبيدة أصحاب الرايات ووقف هو وخالد في الخيل المعروفة بخيل الزحف وطلعت

الشمس وخرج جرجير هو وبعض ملوك الروم ودعا بالبراز وقال لا يبرز لي الا أمير العرب فسمعه أبو عبيدة فسلم الراية الى خالد ، وقال انت للراية يا أبا سليمان فان عدت من قتاله فالراية لي وان هو قتلني فامسك رايتك حتى يرى عمر رأيه . فقال خالد انا لقتاله دونك فقال ابو عبيدة لا هو طلبني ولا بد لي من الخروج اليه وانت شريكي في الاجر ، فخرج ابو عبيدة وما أحد من المسلمين الا وهو كاره لذلك فأقبلوا يسألونه فلج في الخروج فتركوه ورأيه ، فلما قرب ابو عبيدة من جرجير وعاينه قال له أنت أمير هذا الجيش . فقال أبو عبيدة انا ذلك وقد اجبتك الى ما طلبت من أمر البراز فدونك وعرض الميدان ، فأما هزمتكم او قتلتك واقتل ماهان بعدك . فقال جرجير أمة الصليب تغلبكم وحمل جرجير على ابي عبيدة وحمل ابو عبيدة على جرجير وطال بينهما القتال وبقي خالد ينظر الى ابي عبيدة ويدعو له بالسلامة والنصر وجميع المسلمين يدعون له . قال وفر جرجير أمام أبي عبيدة واخذ في عرض الجيش وطلب في فراره جيش المشركين في الميمنة وتبعه أبو عبيدة على اثره فعندها عطف عليه جرجير وخرج كأنه البرق والتقيا بضربتين فكان ابو عبيدة اسبق فوقعت الضربة على عاتق جرجير فخرجت من علائقه فكبر عند ذلك ابو عبيدة وكبر المسلمون ووقف أبو عبيدة على مصرع جرجير وجعل يتعجب من عظم جثته ولم يأخذ من سلبه شيئا فناداه به خالد لله درك أيها الامير ارجع الى رايتك فقد قضيت ما يجب عليك فلم يرجع ابو عبيدة فأقسم عليه المسلمون أن يرجع فرجع وأخذ الراية من يد خالد ونظر ماهان الى جرجير فعظم ذلك عليه وكبر لديه لانه كان ركنا من اركانهم فهم بالهزيمة ، ثم قال في نفسه ماذا يكون عذري عند هرقل ولا بد ان ابرز الى الحرب ، فان قتلت فقد استرحت من العار وان سلمت كان لي عند الملك عذر احسن من أن أولي الادبار ، ثم انه اعلم رجاله انه يريد المبارزة بنفسه واخذ عدته ولبس زينته وخرج كأنه جبل ذهب يلمع ثم جمع اليه البطارقة والقسوس والرهبان ، وقال لهم ان الملك هرقل كان اعلم منكم بهذا الامر والله أراد الصلح فخالفتموه فها انا ابرز اليهم بنفسي فتقدمُ اليه بطريق من بطارقة السرير وكان فيه نسك ودين وكان يعظم الكنائس والرهبان ويتبع ما فرض عليه في الانجيل وكان يقرب من جرجير في النسب ، فلما علم بقتله عظم عليه وقال وحق الصلب لابرزن الى المسلمين وآخذ بالثأر ، فاما أن الحق به واما ان اقتل قاتله . . .

ثم قال لماهان : قد تعين علي الجهاد وانا أؤدي فرض المسيح ولا بد لي من المبارزة ، قال فتركه ماهان فخرج وكان اسمه جرجيس وكان عليه درع وعلى الدرع ثوب حديد متقلد بسيفه ومعه قنطارية وعوذته القسوس وبخروه ببخور الكنائس واقبل اليه راهب عمورية واعطاه صليبا كان في عنقه وقال هذا الصليب من أيام المسيح يتوارثه الرهبان ويتمسحون به فهو ينصرك فأخذه جرجيس ونادى البراز بكلام عربي فصيح حتى ظن الناس انه عربي من المتنصرة فخرج اليه ضرار بن الازور كأنه شعلة

نار ، فلما قاربه ونظر اليه والى عظم جثته ندم على خروجه بالعدة التي اثقلته . فقال في نفسه وما عسى يغني هذا اللباس اذا حضر الاجل ثم رجع موليا فظن الناس انه ولى فزعا فقال قائل منهم ان ضرارا قد انهزم من العلج وما ضبط عنه قط انه انهزم وهو لا يكلم احدا حتى صار الى خيمته ونزع ثيابه وبقي بالسراويل واخذ قوسه وتقلد بسيفه وجحفته وعاد الى الميدان كأنه الظبية الخمصاء فوجد مالكا النخعي قد سبقه الى البطريق وكان مالك من الخطاط اذا ركب الجواد تسحب رجلاه على الارض فنظر ضرار فاذا بمالك ينادي العلج تقدم يا عدو الله يا عابد الصليب الى الرجل النجيب ناصر محمد الحبيب فلم يجبه العلج لما داخله من الخوف منه قال فجال عليه وهم ان يطعنه فلم يجد للطعنة مكانا لما عليه من الحديد فقصد جواده وطعنه في خاصرته فأطلع السنان يلمع من الجانب الآخر فنفر الجواد من حرارة الطعنة وهم مالك أن يخرج الرمح فلم يقدر لانه قد اشتبك في ضلوع الجواد وهو على ظهره لم يقدر أن يتحرك ، لانه مزرر في ظهر الجواد بزنانير الى سرجه فنظر المسلمون الى ضرار وقد اسرع اليه مثل الظبية حتى وصل اليه وضربه بسيفه على هامته فشطرها نصفين واخذ سلبه فأتاه مالك وقال ما هذا يا ضرار تشاركني في صيدي فقال ما انا بشريكك ، وانما انا صاحب السلب وهو لي . فقال مالك انا قتلت جواده ؟ فقال ضرار رب ساع لقاعد آكل غير حامل فتبسم مالك ، وقال خذ صيدك هناك الله به قال ضرار انما انا مازح في كلامي خذه اليك فوالله ما آخذ منه شيئا وهو لك وانت أحق به مني ثم انتزع سلب العلج وحمله على عاتقه وما كاد ان يمشي به وهو يتصبب عرقا قال زهير بن عابد ولقد رايته وهو يسير به وهو راجل ومالك فارس حتى طرحه في رحل مالك . فقال ابو عبيدة بأبي وامي والله قوم وهبوا انفسهم الله وما يريدون الدنيا قال فلما قتل البطريق قص جناح ماهان فصاح بقومه وجمعهم اليه وقال لهم اسمعوا يا اصحاب الملك وبلغوه عني اني ما تركت جهدي في نصرة هذا الدين وحاميت عن الملك وقاتلت عن نعمته وما اقدر ان اغالب رب السماء ، لانه قد نصر العرب علينا وملكهم بلدنا والآن مالي وجه ارجع به الى الملك حتى اخرج الى الحرب وابرز الى مقام الطعن والضرب وعزمت أن اسلم الصليب الى احدكم وابرز الى قتال المسلمين ، فان قتلت فقد استرحت من العار ومن توبيخ الملك لي ، وان رزقت النصر واثرت في المسلمين اثرا ورجعت سالما علم الملك اني لم اقصر عن نصرته فقالوا ايها الملك لا تخرج الى الحرب حتى نخرج نحن الى القتال قبلك فاذا قتلنا فافعل بعدنا ما شئت ، قال فحلف ماهان بالكنائس الاربع لا يبرز احد قبله ، قال فلما حلف امسكوا عنه وعن مراجعته ثم انه دعا بابن له فدفع اليه الصليب وقال قف مكاني وقدم لماهان عدة فأفرغت عليه

(قال الواقدي) وبلغنا ان عدته التي خرج بها الى الحرب تقومت بستين الف دينار لان جميعها كان مرصعا بالجوهر ، فلما عزم على الخروج تقدم له راهب من

الرهبان ، فقال أيها الملك ما أرى لك الى البراز سبيلا ولا احبه لك ، قال ولم ذلك ؟ قال لاني رأيت لك رؤيا فارجع ودع غيرك يبرز . فقال ماهان لست افعل والقتل احب الي من العار ، قال فبخروه وودعوه وخرج ماهان الى القتال وهو كأنه جبل ذهب يبرق واقبل حتى وقف بين الصفين ودعا الى البراز وخوف باسمه فكان أول من عرفه خالد بن الوليد فقال : هذا ماهان هذا صاحب القوم قد خرج ، ووالله ما عندهم شيء من الخير قال وماهان يرعب باسمه فخرج اليه غلام من الاوس وقال والله أنا مشتاق الى الجنة وحمل ماهان وبيده عمود من ذهب كان تحت فخذه فضرب به الغلام فقتله وعجل الله بروحه الى الجنة . قال ابو هريرة (رض) فنظرت الى الغلام عندما سقط وهو يشير باصبعه نحو السماء ولم يهله ما لحقه فعلمت أن ذلك لفرحه بما عاين من الحور العين قال فجال ماهان على مصرعه وقوي قلبه ودعا الى البراز فسارع المسلمون اليه فكل يقول : اللهم اجعل قتله على يدي ، وكان أول من برز مالك النخعي الاشتر (رض) وساواه في الميدان فابتدر مالك ماهان بالكلام وقال له أيها العلج الاغلف لا تفتر بمن قتلته ، وانما اشتاق صاحبنا الى لقاء ربه وما منا الا من هو مشتاق الى الجنة ، فان أردت مجاورتنا في جنات النعيم فانطق بكلمة الشهادة او اداء الجزية والا فانت هالك لا محالة . فقال له ماهان : انت صاحبي خالد بن الوليد ؟ قال : لا أنا مالك النخعي صاحب رسول الله (ص) فقال ماهان لا بد لي من الحرب ثم حمل على مالك وكان من أهل الشجاعة فاجتهدا في القتال فأخرج ماهان عموده وضرب به مالكا على البيضة التي على رأسه ففاصت في جبهة مالك فشترت عينيه فمن ذلك اليوم سمي بالاشتر قال فلما رأى مالك ما نزل به من ضربة ماهان عزم على الرجوع ثم فكر فيما عزم عليه فدبر نفسه ، وعلم أن الله ناصره قال والدم فائر من جبهته وعدو الله يظن انه قتل مالكا وهو ينظره متى يقع عن ظهر فرسه واذا بمالك قد حمل واخذته أصوات المسلمين يا مالك استعن بالله يعينك على قرينك قال مالك فاستعنت بالله عليه وصليت على رسول الله (ص) وضربته ضربة عظيمة فقطع سيفي فيه قطعا غير موهن فعلمت أن الاجل حصين ، فلما أحس ماهان بالضربة ولى ودخل في عسكره .

(قال الواقدي) ولما ولى ماهان بين يدي مالك الاشتر منهزما صاح خالد بالمسلمين يا أهل النصر والباس احملوا على القرم ما داموا في دهشتهم ثم حمل خالد ومن معه من جيشه وحمل كل الامراء بمن معهم وتبعهم المسلمون بالتهليل والتكبير فصبرت لهم الروم بعض الصبر ، حتى اذا غابت الشمس واظلم الافق انكشف الروم منهزمين بين أيديهم وتبعهم المسلمون يأسرون ويقتلون كيف شاءوا فقتلوا منهم زهاء مائة الف وأسروا مثلها وغرق في الناقوسة منهم مثلها وأمم لا تحصى وتفرق منهم في الجبال والاودية وخيول المسلمين من ورائهم يقتلون ويأسرون ويأتون من الجبال بالاسارى ولم يزل المسلمون يقتلون ويأسرون الى ان راق الليل . فقال ابو عبيدة

اتركهم الى الصباح فتراجعت المسلمون وقد امتلات ايديهم من الغنائم والسرادقات وآنية الذهب والفضة والزلازل والنمارق والطنافس .

(قال الواقدي) ووكل ابو عبيدة رجالا من المسلمين بجمع الغنائم وبات المسلمون فرحين بنصر الله حتى اصبحوا ، فاذا ليس للروم خبر ووقع اكثرهم في الناقوصة في الليل .

(قال عامر بن ياسر) حدثني نوفل بن عدي عن جابر بن نصر عن حامد بن مجيد . قال أراد أبو عبيدة أن يحصى عدد المشركين فلم يقدر ان يحصي ذلك فأمر بقطع القصب من الوادي وجعل على كل قتيل قصبة ، ثم عدوا القصب فاذا القتلى مائة الف وخمسة آلاف والاسارى اربعون الفا غير من غرق في الناقوصة وقتل من المسلمين اربعة آلاف ووجد أبو عبيدة رؤوسا في اليرموك فلم يعلم اهم من العرب أم من الروم . قال ثم انه صلى على قتلى المسلمين وسار في طلبهم الى الجبال والاودية واذا هم براع قد استقبلهم فسألوه هل مر بك احد من الروم . قال نعم مر بي بطريق ومعه زهاء من اربعين الفا .

(قال الواقدي) وكان ذلك ماهان لعنه الله فاتبعهم خالد بن الوليد وجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف فأدركهم على دمشق ، ولما اشرف عليهم كبر وكبر المسلمون وحملوا ووضعوا فيهم السيف فقتل مقتلة عظيمة ، وكان ماهان قد ترجل عن جواده ، وقيل انه ترجل ينكر نفسه ويسلم من القتل فأتاه رجل من المسلمين فحامى عن نفسه فقتله الرجل ، وكان قاتله النعمان ابن جهلة الازدري وعاصم بن خوال اليربوعي وقد اختلفوا في أيهما قتل ماهان .

(قال الواقدي) وخرج اهل دمشق الى لقاء خالد وقالوا له نحن على عهدنا الذي كان بيننا وبينكم . قال خالد انتم على عهدكم ومضى في طلب الروم يقتلهم حيث وجوهم حتى انتهى الى ثنية العقاب واقام تحتها يوما ، ثم مضى الى حمص ونزل بها وبلغ ذلك أبا عبيدة فسار حتى لحق به فيمن معه قال والامراء في طلب الروم من كل جهة من الشام ثم اجتمعوا وعادوا الى دمشق وجمع ابو عبيدة الغنائم واخرج منها الخمس وكتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتاب البشارة والفتح : بسم الله الرحمن الرحيم وصلوات الله على نبيه المصطفى ورسوله المجتبي (ص) ، من أبي عبيدة عامر بن الجراح : أما بعد فأنا أحمد الله الذي لا اله الا هو وأشكره على ما أولانا من النعم وخصنا به من كرمه ببركات نبي الرحمة وشفيع الامة (ص) ، واعلم يا امير المؤمنين أني نزلت اليرموك ونزل ماهان مقدم جيوش الروم بالقرب منا ولم ير المسلمون اكثر جمعا منه فأقصى الله تلك الجموع ونصرنا عليهم بمنه وكرمه وفضله فقتلنا منهم زهاء من مائة الف وخمسة آلاف واسرنا منهم اربعين الفا واستشهد من المسلمين اربعة آلاف ختم الله لهم بالشهادة ووجدت في المعركة رؤوسا مقطوعة لم اعرفها فصليت عليها

ودفنتها وقتل ماهان على دمشق قتله عاصم بن خوال ، وقد كان قبل وقعة الانفصال نصب عليهم رجل منهم يقال له أبو الجعيد من أهل حمص حيلة فالقاهم في موضع يقال له الناقوصة ففرق منهم ما لا يحصى عددهم الا الله تعالى ، واما من قتل من المشركين في الاودية والجبال من المنهزمين وغيرهم واخذت عدتهم فتسعون ألفا وقد ملكنا أموالهم وخيولهم وحصونهم وبلادهم وكتبنا اليك هذا الكتاب بعد الفتح ونزلنا في دمشق والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وعلى جميع المسلمين ، وطوى الكتاب وختمه ودعا بحذيفة بن اليمان ودفع الكتاب اليه وضم اليه عشرة من المهاجرين والانصار وقال لهم سيروا بكتاب الفتح والبشرى الى أمير المؤمنين وبشروه بذلك وأجركم على الله ، فأخذ حذيفة الكتاب وسار هو والعشرة من وقتهم وساعتهم يجدون السير ليلا ونهارا حتى قربوا من المدينة .

(قال الواقدي) قال عبدالله بن عوف المالكي عن أبيه قال : لما هزم الله الروم في اليرموك وكان من امرهم ما كان راى عمر بن الخطاب ليلة هزيمة الروم رسول الله (ص) جالسا في الروضة ومعه ابو بكر الصديق (رض) ، وكان عمر يسلم عليهما ويقول : يا رسول الله ان قلبي مشغول على المسلمين وما يصنع الله بهم ، وقد بلغني أن الروم في الف الف وستين الفا . فقال يا عمر ابشر فقد فتح الله على المسلمين وقد انهزم عدوهم وقتل كذا وكذا ، ثم تلا رسول الله (ص) ــ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا ــ الآية . قال فلما كان من الغد صلى عمر بالناس صلاة الفجر وأعلم الناس بما راى في منامه . قال فاستبشر المسلمون وفرحوا وعلموا أن الشيطان لا يتمثل بالنبي (ص) وأرخوا تلك الليلة فكانت كما ذكره النبي (ص) فسجد عمر لله شكرا ووصله الكتاب فقراه عمر على الناس فارتفعت أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير . ثم قال يا حذيفة فهل قسم أبو عبيدة الغنائم ؟ فقال يا أمير المؤمنين هو منتظر كتابك وأمرك . فدعا عمر بدواة وقرطاس وكتب الى ابي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام سلام عليك . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين من نصرتهم وانهزام عدوهم ، فاذا وصل اليك كتابي هذا فاقسم الغنيمة بين المسلمين وفضل أهل السبق واعط كل ذي حق حقه واحفظ المسلمين واكلأهم واشكرهم على صبرهم وفعالهم ، واقم بموضعك حتى يأتيك أمري ، والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ، وطوى الكتاب وسلمه لحذيفة ابن اليمان فأخذه حذيفة وسار حتى ورد على أبي عبيدة فوجده على دمشق ، فسلم عليه وعلى المسلمين وناوله الكتاب ، فلما قراه على المسلمين قسم الغنائم فأصاب الفارس اربعة وعشرون ألف مثقال من الذهب الاحمر والراجل ثمانية آلاف وكذلك من الفضة وأعطى الفرس الهجين سهما والفرس العتيق سهمين والحق

القادمين على الخيل بالعراب ، فلما فعل ابو عبيدة ذلك . قال أصحاب الحمر الحقنا بالعراب . فقال أبو عبيدة اني قسمت عليكم بما قسم النبي (ص) الفنيمة بين اصحابه فلم يقبلوا قوله فكتب الى عمر بذلك يعلمه باختلاف الناس في الخيل والهجين والعراب فكتب اليه عمر يقول : اما بعد فقد عملت بسنة رسول الله (ص) ولم تتعد حكمه ، فأعط الفرس العربي سهمين والهجين سهما ، واعلم أن رسول الله (ص) عرب العربين وهجن الهجين يوم خيبر فجعل للهجين سهما وللعربي سهمين ، فلما ورد الكناب على أبي عبيدة وقراه على المسلمين . قال ما اراد أبو عبيدة أن يحقر رجلا منكم ، ولكن تبعت سنة رسول الله (ص) .

(قال الواقدي) فلما قسم أبو عبيدة الغنائم على المسلمين . قال له خالد بن الوليد : ان رجلا من المسلمين تشفع بي اليك أن تلحق فرسه الهجين بفرسه العتيق العربي وتعطيه سهمين فأبى أبو عبيدة ، وقال والله ان سف التراب أحب الي من ذلك . وروى عثمان أن ابن الزبير . قال شهدت جدي الزبير بن العوام يوم اليرموك ومعه فرسان يتعقب عليهما للقتال يركب هذا يوما وهذا يوما ، فلما كان وقت قسم الغنائم اعطاه أبو عبيدة ثلاثة أسهم له سهم ولفرسه سهمان . فقال الزبير اما تصنع بي كما صنع بي رسول الله (ص) يوم خيبر كان معي فرسان فأسهمني رسول الله (ص) يوم خيبر خمسة اسهم لفرسي أربعة واعطاني سهما ، وقال المقداد ابن عمرو كنت أنا وانت يوم بدر ومعنا فرسان لا غيرهما فاعطى رسول الله (ص) سهمين سهمين للفرسين ، قال أبو عبيدة انك لصادق يا مقداد أنا أتبع فعل رسول الله (ص) واعطي الزبير واقبل جابر بن عبدالله الانصاري فشهد عند أبي عبيدة أن رسول الله (ص) أعطى الزبير يوم خيبر خمسة أسهم ، فلما فعل ذلك اتى رجال من رجال العرب لكل واحد منهم أربعة افراس وخمسة افراس فقالوا الحقنا بالزبير قال فاستأذن عمر في ذلك . فقال صدق الزبير ان رسول الله (ص) اعطاه يوم خيبر خمسة أسهم فلا تعط غيره مثله .

وروى عروة عن أبي الزبير . قال لقي الزبير غلاما كان قد وقع بيده يوم غنيمة عمان فهرب منه ، فلما كان يوم اليرموك قبل قسم الغنائم عرفه فقبض عليه واخذ بيده فقال له الموكل على حفظ الغنيمة لست أدعك فبينما هما في المحاورة اذ أقبل أبو عبيدة ، فقال ما بالكما ؟ فقال الزبير أيها الامير هذا غلامي وصل الى من غنيمة عمان وهرب مني وقد رأيته الآن فلا بد لي منه فقال أبو عبيدة صدق ابن عمة رسول الله (ص) هو له وأنا سلمته له من غنيمة عمان فسلمه اليه فأخذه الزبير ، قال زيد المرادي هربت منا جارية الى العدو وظفرنا بها يوم اليرموك في قسم الغنائم فكلمنا أبا عبيدة فيها فكتب الى عمر فرد اليه الجواب ، ان كانت جارية حربية ففيها السهام والا فلا سبيل اليها وان كانت لم تجر فيها السهام فردوها فكأن القوم لا يرضون بهذا من أبي عبيدة . فقال أبو عبيدة والله الذي لا اله الا هو هذا كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

يحكم بما امرتكم فقبل قوله ودفع الجارية الى القسم .
(قال الواقدي) حدثني لؤي بن عبد ربه عن سالم مولى حذيفة بن اليمان عن القاسط بن سلمة بن عدي بن عاصم عمن حدثه عن فتوح الشام . قال لما هزم الله الروم باليرموك على يد أصحاب رسول الله (ص) وبلغ الخبر الى هرقل بهزيمة جيشه وقد قتل ماهان وجرجير وغيرهما ، قال علمت ان الامر يصل الى هنا ثم أقام ينتظر ما يجري من المسلمين .

ذكر فتح مدينة بيت المقدس

(قال الواقدي) واما ما كان من المسلمين فانهم اقاموا على دمشق شهرا فجمع ابو عبيدة أمراء المسلمين وقال لهم اشيروا علي بما أصنع واين اتوجه ؟ فاتفق رأي المسلمين اما الى قيسارية واما الى بيت المقدس . فقال فما الذي ترون منهما ؟ . فقالوا انت الرجل الامين وما تسير الى موضع الا ونحن معك . فقال معاذ بن جبل اكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فحيث أمرك فسر واستعن بالله . فقال أصبت الراي يا معاذ فكتب الى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يعلمه انه قد عزم على قيسارية او الى بيت المقدس وانه منتظر ما يأمره به والسلام ، وارسل الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي وامره بالمسير فسار حتى وصل المدينة فأرسل الكتاب لعمر (رض) فقراه على المسلمين واستشارهم في الامر . فقال علي (رض) : يا أمير المؤمنين مر صاحبك ان يصير الى بيت المقدس فيحدقوا بها ويقاتلوا اهلها فهو خير الرأي وأكبره ، واذا فتحت بيت المقدس فاصرف جيشه الى قيسارية فانها تفتح بعد ان شاء الله تعالى كذا أخبرني رسول الله (ص) . قال صدقت يا أبا الحسن فكتب اليه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب الى عامله بالشام أبي عبيدة . أما بعد فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه ، وقد ورد علي كتابك وفيه تستشيرني في أي ناحية تتوجه اليها ، وقد أشار ابن عم رسول الله (ص) بالسير الى بيت المقدس فان الله سبحانه وتعالى يفتحها على يديك والسلام عليك ، ثم طوى الكتاب ودفعه الى عرفجة وامره أن يعجل بالمسير فسار حتى قدم على أبي عبيدة فوجده على الجابية ، فدفع الكتاب اليه فقرا على المسلمين ففرحوا بمسيرهم الى بيت المقدس ، فعندها دعا أبو عبيدة بخالد بن الوليد وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف فارس من خيل الزحف وسرحه الى بيت المقدس ، ثم دعا بيزيد بن أبي سفيان وعقد له راية على خمسة آلاف وأمره أن يلحق بخالد الى بيت المقدس ، وقال له يا ابن أبي سفيان ما علمتك الا ناصحا ، فاذا أشرفت على بلد ايلياء فارفعوا أصواتكم بالتهليل والتكبير واسألوا الله بجاه نبيه ومن سكنها من الانبياء والصالحين أن يسهل فتحها على أيدي المسلمين ، فأخذ يزيد الراية وسار يريد بيت المقدس فسار ثم دعا شرحبيل بن حسنة كاتب وحي النبي (ص) وعقد له راية وضم اليه خمسة آلاف

فارس من أهل اليمن وقال له سر بمن معك حتى تقدم بيت المقدس وانزل بعسكرك عليها ولا تختلط بعسكر من تقدم قبلك ، ثم دعا بالمرقال بن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وضم اليه خمسة آلاف فارس مع جمع من المسلمين وسرحه على أثر شرحبيل ابن حسنة وقال له انزل على حصنها وأنت منعزل عن اصحابك ، تم عقد راية خامسة فسلمها للمسيب ابن نجية الفزاري وأمره أن يلحق بأصحابه وضم اليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل ، وعقد راية سادسة وسلمها الى قيس بن هبيرة المرادي وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءه ، تم عقد راية سابعة وسلمها الى عروة بن مهلهل بن يزيد الخيل وضم اليه خمسة آلاف فارس وسيره وراءهم ، فكان جمله من سرحه ابو عبيدة الى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفا وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام في كل يوم أمير ، وذلك كله يرهب به أعداء الله فبقي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه .

فكان اول من طلع عليهم بالراية خالد بن الوليد ، فلما أشرف عليهم كبر وكبر أصحابه ، فلما سمع أهل بيت المقدس ضجيج أصواتهم انزعجوا وتزعزعت قلوبهم وصعدوا على أسوار بلدهم ، فلما نظروا الى قلة المسلمين استحقروهم وظنوا أن ذلك جميع المسلمين فنزل خالد ومن معه مما يلي باب اريحاء ، وأقبل في اليوم الثاني يزيد بن أبي سفيان ، وفي اليوم الثالث شرحبيل بن حسنة ، وأقبل في اليوم الرابع المرقال ، واقبل في اليوم الخامس المسيب بن نجية ، وأقبل في اليوم السادس قيس بن هبيرة فنزل ، وأقبل في اليوم السابع عروة بن مهلهل بن زيد الخيل فنزل مما يلي طريق الرملة . قال عبدالله بن عامر بن ربيعة الفطفاني ما نزل احد من المسلمين على بيت المقدس الا وكبر وصلى ما قدره الله عليه ودعا بالنصر والظفر على الاعداء ، ويقال ان خالدا كان هو وأبو عبيدة . قال فلما مضى العسكر قام أبو عبيدة وخالد وبقية المسلمين والذراري والسواد والغنم وما أفاء الله على المسلمين من المواشي والاموال فلم يبرحوا من مكانهم . قال وأقام العسكر على بيت المقدس ثلاثة أيام لا يبارزهم حرب ولا ينظرون رسولا يأتي اليهم ولا يكلمهم أحد من أهلها الا انهم قد حصنوا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والسيوف والدرق والجواشن والزرد الفاخرة ، قال المسيب بن نجية الفزاري ما نزلنا ببلدمن بلاد الشام فرأينا اكثر زينة ولا احسن عدة من بيت المقدس ، وما نزلنا بقوم الا وتضعضعوا لنا وداخلهم الهلع واخذتهم الهيبة الا اهل بيت المقدس نزلنا بازائهم ثلاثة أيام فلم يكلمنا منهم احد ولا ينطقون غير أن حارسهم شديد وعدتهم كاملة ، فلما كان في اليوم الرابع قال رجل من البادية لشرحبيل بن حسنة : أيها الامير كأن هؤلاء القوم صم فلا يسمعون أو بكم فلا ينطقون أو عمي فلا يبصرون ازحفوا بنا اليهم ، فلما كان في اليوم الخامس وقد صلى المسلمون صلاة الفجر كان أول من ركب من المسلمين من الامراء لسؤال اهل بيت المقدس يزيد بن أبي سفيان فشهر سلاحه

وجعل يدنو من سورهم وقد أخذ معه ترجمانا يبلغه عنهم ما يقولون فوقف بازاء سورهم بحيث يسمعون خطابه، وهم صامتون .

فقال لترجمانه قل لهم أمير العرب يقول لكم ماذا تقولون في اجابة الدعوة الى الاسلام والحق وكلمة الاخلاص وهي كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله حتى يغفر لكم ربنا ما سلف من ذنوبكم وتحقنون بها دماءكم ، وان أبيتم ولم تجيبونا فصالحوا عن بلدكم كما صالح غيركم ممن هو أعظم منكم عدة واشد منكم ، وان ابيتم هاتين الحالتين حل بكم البوار وكان مصيركم الى النار . قال فتقدم الترجمان اليهم وقال لهم من المخاطب عنكم فكلمه قس من القساوسة عليه مدارع الشعر وقال انا المخاطب عنهم ماذا تريد ؟ . فقال الترجمان : ان هذا الامير يقول كذا وكذا ويدعوكم الى احدى هذه الخصال الثلاث : اما الدخول في الاسلام ، أو اداء الجزية ، واما السيف . قال فبلغ القس من وراءه ما قال الترجمان . قال فضجوا بكلمة كفرهم وقالوا لا نرجع عن دين العز والقبول وان قتلنا أهون علينا من ذلك فبلغ الترجمان ذلك ليزيد . قال فمشى الى الامراء واخبرهم بجواب القوم . قال لهم ما انتظاركم بهم . فقالوا ان الامير ابا عبيدة ما أمرنا بالقتال ولا بحرب القوم بل بالنزول عليهم ولكن نكتب الى امين الامة فان أمرنا بالزحف زحفنا ، فكتب يزيد بن ابي سفيان الى ابي عبيدة يعلمه بما كان من جواب القوم فما الذي تأمر ؟ فكتب اليهم ابو عبيدة يأمر بالزحف وانه واصل في اثر الكتاب ، فلما وقف المسلمون على كتاب ابي عبيدة فرحوا واستبشروا وباتوا ينتظرون الصباح .

(قال الواقدي) ولقد بلغني ان المسلمين باتوا تلك الليله كأنهم ينتظرون قادما يقدم عليهم من شدة فرحهم بقتال أهل بيت المقدس ، وكل امير يريد أن يفتح على يديه فيتمتع بالصلاة فيه والنظر الى آثار الانبياء ، قال فلما اضاء الفجر أذن وصلت الناس صلاة الفجر قال فقرأ يزيد لاصحابه — يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا — الآية فيقال ان الامراء اجرى الله على السنتهم في تلك الصلاة أن قراوا هذه الآية كأنهم على ميعاد واحد ، فلما فرغوا من الصلاة نادوا النفير النفير يا خيل الله اركبي . قال فأول من برز للقتال حمير ورجال اليمن وبرز المسلمون للحرب كأنهم أسود ضارية ، ونظر اليهم أهل بيت المقدس وقد انشرحوا لقتالهم فنشطهم ورشقوا المسلمين بالنشاب فكانت كالجراد ، فجعل المسلمون يتلقونها بدرقهم فلم تزل الحرب بينهم من الغد الى الغروب يقاتلون قتالا شديدا ولم يظهروا فزعا ولا رعبا ولم يطمعوهم في بلدهم ، فلما غربت الشمس رجع الناس وصلى المسلمون ما فرض الله عليهم واخذوا في اصلاح شأنهم وعشائهم ، فلما فرغوا من ذلك أوقدوا النيران واستكثروا منها ، لان الحطب عندهم كثير فبقي قوم يصلون ، وقوم يقراون ، وقوم يتضرعون ، وقوم نائمون مما لحقهم من التعب والقتل ، فلما كان الغد بادر

المسلمون اليهم وذكروا الله كثيرا واثنو عليه وصلوا على رسول الله (ص) ، وتقدمت رماة النبل واقبلوا يرمون ويذكرون الله وهم يضجون الى الله بالدعاء .

(قال الواقدي) ولم يزل المسلمون على القتال عدة أيام واهل بيت المقدس يظهرون الفرح وانه ليس على قلوبهم من هم ولا جزع ، فلما كان اليوم الحادي عشر أشرفت عليهم راية أبي عبيدة يحملها غلامه سالم ومن ورائها فرسان المسلمين وابطال الموحدين وقد احدقوا بأبي عبيدة وخالد عن يمينه وعبد الرحمن بن أبي بكر عن يساره وجاءت النسوان والاموال وضج الناس ضجة واحدة بالتهليل والتكبير فأجابتهم القبائل ووقع الرعب في قلوب أهل بيت المقدس فانقلب كبارهم وعظماؤهم وبطارقتهم الى البيعة العظمى عندهم وهي القمامة ، فلما وقفوا بين يدي جاثليقهم وكانوا يعظمونه ويبجلونه ، فلما سمعوا تلك الضجة دخلوا عليه ووقفوا بين يديه وخضعوا له وقالوا يا ابانا قد قدم امير القوم الينا ومعه بقية المسلمين وهذه الضجة بسببه ، فلما سمع بتركهم وجاثليقهم تغير لونه وتغير وجهه وقال هي هي . قالوا ما ذلك أيها البترك والاب الكبير . قال وحق الانجيل ان كان قدم أميرهم فقد دنا هلاككم والسلام . قالوا وكيف ذلك ؟ قال لانا نجد في العلم الذي ورثناه عن المتقدمين ان الذي يفتح الارض في الطول والعرض هو الرجل الاسمر الاحور المسمى بعمر صاحب نبيهم محمد ، فان كان قد قدم فلا سبيل لقتاله ولا طاقة لكم بنزاله ولا بد لي ان أشرف عليه وانظر اليه والى صورته ، فان كان اياه عمدت الى مصالحته واجبته الى ما يريد ، وان كان غيره فلا نسلم اليه قط لان مدينتنا لا تفتح الا على يد من ذكرته لكم والسلام ، ثم انه وثب قائما والقسوس والرهبان والشمامسة من حوله وقد رفعوا الصلبان على راسه وفتحوا الانجيل بين يديه ودارت البطارقة من حوله وصعد على الصور من الجهة التي فيها أبو عبيدة فنظر الى المسلمين وهم يسلمون عليه ويعظمونه ، ثم يرجعون الى القتال كانهم الاسد الضارية فناداهم رجل ممن كان يمشي بين يدي البترك . فقال : يا معاشر المسلمين كفوا عن القتال حتى نستخبركم ونسألكم . قال فامسك الناس عن القتال فناداهم رجل من الروم بلسان عربي فصيح : اعلموا أن صفة الرجل الذي يفتح بلدنا هذا وجميع الارض عندنا ، ان كان هو اميركم فلا نقاتلكم بل نسلم اليكم وان لم يكن اياه فلا نسلم اليكم ابدا .

(قال الواقدي) فلما سمع المسلمون ذلك اقبل نفر منهم الى ابي عبيدة وحدثه بما سمعوه . قال فخرج أبو عبيدة اليهم الى أن حاذاهم ، فنظر البترك اليه وقال ليس هو هذا الرجل فابشروا وقاتلوا عن بلدكم ودينكم وحريمكم ، فلما سمعوا قوله رفعوا أصواتهم واعلنوا بكلمة كفرهم واقبلوا يقاتلون القتال الشديد وعاد البترك الى القمامة ولم يخاطب أبا عبيدة بكلمة واحدة ، بل أمر قومه بالحرب والقتال وعاد أبو عبيدة الى أصحابه . فقال خالد ما كان منك أيها الامير ؟ فقال لا علم لي غير اني خرجت

اليهم كما رايت واشرف علي شيطان من شياطينهم الدي يضلهم ؛ فما هو غير ان نظر لي وتأملني حتى ضجوا ضجة واحدة وولى عني ولم يكلمني . فقال خالد يوشك أن يكون لهم في ذلك تأويل ورأي فنقف عليه ونعلم نبأه ، ثم قال شدوا عليهم الحرب والقتال فشد عليهم المسلمون .

(قال الواقدي) وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في ايام الشتاء والبرد وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت . قال وزحف المسلمون اليهم وبرزت النبالة من أهل اليمن ، وصمم أصحاب القسي ورشقوهم بالنبل وكانوا غير محترزين من النبل لقلة اكتراثهم به حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم من وراء ظهورهم وهم لا يشعرون . قال مهلهل لله در عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فيتهافتون من سورهم كالغنم ، فلما رأوا ما صنع بهم النبل احترزوا منه وستروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل . قال ونظرت الروم الى ضرار بن الازور وقد اقبل نحو الباب الاعظم وعليه بطريق كبير وعلى رأسه صليب من الجوهر وحوله غلمان وعليهم الطوارق وبأيديهم القسي الموترة والعمد وهو يحرض القوم على القتال . قال عوف بن مهلهل الى ضرار وقد قصد نحوه وهو يختفي ويستتر الى أن قرب من البرج الذي عليه البطريق ثم اطلق اليه نبلة ، قال عوف فنظرت الى النبلة مع علو هذا الجدار وقد خرجت من قوس ضرار والبرج عال رفيع . فقلت وما تكون هذه النبلة مع علو هذا الجدار وما الذي تصنع في هذا العلج وعليه هذه اللامة اللامعة فأقسم بالله لقد وقعت هذه النبلة في فيه فتردى الى أسفل برجة فسمعت للقوم ضجة عظيمة ورجولة هائلة فعلمت أنه قتل ، قال ولم يزل ابو عبيدة ينازل بيت المقدس اربعة أشهر كاملة ، وما من يوم الا ويقاتلهم قتالا شديدا والمسلمون صابرون على البرد والثلج والمطر . فلما نظر أهل بيت المقدس الى شدة الحصار وما نزل بهم من المسلمين قصدوا القمامة ووقفوا بين يدي بتركهم وسجدوا بين يديه وعظموه وقالوا له : يا أبانا قد دار علينا حصار هؤلاء العرب ورجونا أن يأتينا مدد من قبل الملك ، ولا شك أنه اشتغل عنا بنفسه من أجل هزيمة جيشه وانهم أشهى منا للقتال وانهم من يوم نزلوا علينا لم نخاطبهم بكلمة واحدة ولم نجبهم احتقارا منا لهم ، والآن قد عظم علينا الامر وانا نريد منك أن تشرف على هؤلاء العرب وتنظر ما الذي يريدون منا ، فان كان أمرهم قريبا أجبنا الى ما يريدون ويطلبون ، وان كان صعبا فتحنا الابواب وخرجنا اليهم فاما أن نقتل عن آخرنا واما ان نهزمهم عنا فاجابهم البترك الى ذلك واشتمل بلباسه وصعد معهم على السور وحمل الصليب بين يديه واجتمع القسوس والرهبان حوله وبأيديهم الاناجيل مفتحة والمباخر حتى أشرف على المكان الذي فيه أبو عبيدة فنادى منهم رجل بلسان فصيح العربية : يا معاشر العرب ان عمدة دين النصرانية وصاحب شريعتها قد اقبل يخاطبكم فليدن منا أميركم فاخبروا أبا عبيدة بمقالهم .

فقال والله اني لاجيبه حيث دعاني ، تم قام أبو عبيدة وجماعة من الامراء والصحابة ومعه ترجمان ، فلما وقف بازائه قال لهم الترجمان : ما الذي تريدون منا في هذه البلدة المقدسة ؟ ومن قصدها يوشك أن الله يغضب عليه ويهلكه فأخبره الترجمان بذلك . فقال قل لهم نعم انها شريفة ومنها اسرى بنبينا الى السماء ودنا من ربه — كقاب قوسين أو أدنى — وانها معدن الانبياء وقبورهم فيها ونحن أحق منكم بها ولا نزال عليها أو يملكنا الله اياها كما ملكنا غيرها . قال البترك فما الذي تريدون منا ؟ قال أبو عبيدة خصلة من ثلاث : أولها أن تقولوا لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، فان أجبتم الى هذه الكلمة كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا . قال البترك انها كلمة عظيمة ونحن قائلوها الا أن نبيكم محمداً ما نقول انه رسول . قال أبو عبيدة كذبت يا عدو الله انك لم توحد قط وقد أخبرنا الله في كتابه انكم تقولون المسيح ابن الله : لا اله الا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . قال البترك هذه خصلة لا نجيبكم اليها فما الخصلة الثانية . فقال أبو عبيدة تصالحوننا عن بلدكم أو تؤدون الجزية الينا عن يد وانتم صاغرون كما أداها غيركم من أهل الشام .

قال البترك هذه الخصلة أعظم علينا من الاولى وما كنا بالذي يدخل تحت الذل والصغار أبداً . فقال أبو عبيدة ما نزال نقاتلكم حتى يظفرنا الله بكم ، وتستعبد أولادكم ونساءكم ونقتل منكم من خالف كلمة التوحيد وعكف على كلمة الكفر . فقال البترك : فانا لا نسلم مدينتنا أو نهلك عن آخرنا ، وكيف نسلمها وقد استعددنا بآلة الحرب والحصار ، وفيها العدة الحسنة والرجال الشداد ، ولسنا كمن لاقيتم من أهل المدن الذين اذعنوا لكم بالجزية فانهم قوم غضب عليهم المسيح فأدخلهم تحت طاعتكم ونحن في بلد من اذا سأل المسيح ودعاه أجاب دعوته ، فقال أبو عبيدة كذبت والله يا عدو الله — ما المسيح بن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وامه صديقة كانا يأكلان الطعام — فقال أنا اقسم بالمسيح انكم لو اقمتم علينا عشرين سنة ما فتحتموها أبدا وانما تفتح لرجل صفته ونعته في كتبنا ولسنا نجد صفته ونعته معك أبدا ، فقال أبو عبيدة وما صفة من يفتح مدينتكم ؟ . قال البترك لا نخبركم بصفته لكن نجد في كتبنا وما قراناه من علمنا انه يفتح هذه البلدة صاحب محمد اسمه عمر يعرف بالفاروق وهو رجل شديد لا تأخذه في الله لومة لائم ولسنا نرى صفته فيكم ، قال فلما سمع أبو عبيدة ذلك من كلام البترك تبسم ضاحكا ، وقال فتحنا البلد ورب الكعبة . ثم اقبل عليه ، وقال له اذا رايت الرجل تعرفه ؟ . قال نعم وكيف لا أعرفه وصفته عندي وعدد سنينه وأيامه . قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحب نبينا . فقال البترك : ان كان الامر كما ذكرت ، فقد علمت صدق قولنا فاحقن الدماء وابعث الى صاحبك يأت فاذا رأيناه وتبيناه وعرفنا صفته ونعته فتحنا له البلد من غير هم ولا نكد واعطينا الجزية . فقال أبو عبيدة : فاني ابعث اليه بأن يقوم علينا افتحبونا

القتال أم نكف عنكم ؟ . فقال البترك : معاشر العرب الا تدعون بفيكم . . انخبركم باننا قد صدقناكم في الكلام طلبا لحقن الدماء وانتم تأبون الا القتال . قال أبو عبيدة نعم ، لان ذلك اشهى الينا من الحياة نرجو به العفو والغفران من ربنا . قال فأمر ابو عبيدة بالكف عنهم وانصرف البترك .

(قال الواقدي) فجمع أبو عبيدة الامراء والمسلمين اليه واخبرهم بما قال البترك فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير ، وقالوا افعل أيها الامير واكتب الى أمير المؤمنين بذلك فلعله يسير الينا ويفتح هذا البلد علينا ، فقال شرحبيل بن حسنة اصبر حتى نقول لهم ان الخليفة معنا ويتقدم خالد اليهم . فاذا نظروا اليه فتحوا الباب وكفينا التعب وكان خالد أشبه الناس بعمر بن الخطاب (رض) ، فلما أصبح الصباح . قال له الترجمان قد جاء الخليفة وكان قد قال أبو عبيدة لخالد فركبوا جميعا ، وقالوا قد جاء الرجل الذي تطلبونه فعرفوا البترك فأقبل الى ان وقف على السور ، وقال له قل له يتقدم بحيث نراه عيانا فتقدم خالد قتبينه ، وقال وحق المسيح كأنه هو ولكن باقي العلامات ما هي فيه فبحق دينك من أنت ، فقال أنا من بعض أصحابه ، فقال البترك : يا فتيان العرب كم يكون هذا الخداع فيكم وحق المسيح لئن لم نر الرجل الموصوف ما نفتح لكم ولا يرجع احد منا يكلمكم ولو اقمتم علينا عشرين سنة ثم ولى ولم يتكلم ، فقال المسلمون عند ذلك اكتبوا الى أمير المؤمنين وعرفوه بذلك فعسى أن يأتي ويتشرف بهذه البقعة فكتب ابو عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم الى عبد الله امير المؤمنين عمر بن الخطاب من عامله أبي عبيدة عامر بن الجراح . اما بعد السلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) واعلم يا أمير المؤمنين انا منازلون لاهل مدينة ايلياء نقاتلهم أربعة اشهر كل يوم نقاتلهم ويقاتلوننا ولقد لقي المسلمون مشقة عظيمة من الثلج والبرد والامطار الا انهم صابرون على ذلك ويرجون الله ربهم ، فلما كان اليوم الذي كتبت اليك الكتاب فيه أشرف علينا بتركهم الذي يعظمونه ، وقال انهم يجدون في كتبهم انه لا يفتح بلدهم الا صاحب نبينا واسمه عمر وانه يعرف صفته ونعته وهو عندهم في كتبهم وقد سألنا حقن الدماء فسر الينا بنفسك وانجدنا لعل الله ان يفتح هذه البلدة علينا على يديك . ثم انه طوى الكتاب وختمه ، وقال يا معاشر المسلمين من ينطلق بكتابي هذا واجره على الله فأسرع بالاجابة ميسرة بن مسروق العبسي ، وقال : انا اكون الرسول وأرجع مع عمر بن الخطاب (رض) ان شاء الله تعالى .

قال ابو عبيدة فخذ الكتاب بارك الله فيك فأخذه ميسرة واستوى على ناقة له كوماء ولم يزل سائرا الى أن دخل المدينة فدخلها ليلا ، وقال والله لا نزلت عند أحد من الناس فأناخ ناقته على باب المسجد وعقلها ودخل المسجد وسلم على قبر رسول الله (ص) وعلى قبر أبي بكر الصديق (رض) ، ثم اتى مكانا في المسجد فنام وكان له ليال

عدة لم ينم فأخذته عيناه فما استيقظ الا على أذان عمر وكان يغلس في الاذان ، فلما اذن دخل المسجد وهو يقول الصلاة رحمكم الله . قال ميسرة فقمت وتوضأت وصليت خلف عمر صلاة الفجر ، فلما انحرف عن محرابه قمت اليه وسلمت عليه ، فلما نظر الي صافحني واستبشر ، وقال ميسرة ورب الكعبة . ثم قال ما وراءك يا ابن مسروق . قلت الخير والسلامة يا أمير المؤمنين ثم ناولته الكتاب فقراه على المسلمين فاستبشروا به ، فقال ما ترون رحمكم الله فيما كتب به أبو عبيدة ؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان (رض) ، فقال يا امير المؤمنين ان الله قد اذل الروم واخرجهم من الشام ونصر المسلمين عليهم وقد حاصر أصحابنا مدينا ايلياء وضيقوا عليهم وهم في كل يوم يزدادون ذلا وضعفا ورعبا فان انت أقمت ولم تسر اليهم راوا انك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر فلا يلبثون الا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية ، فلما سمع عمر ذلك من مقال عثمان جزاه خيرا ، وقال هل عند احد منكم راي غير هذا ؟ . فقال علي بن أبي طالب (رض) نعم عندي غير هذا الراي ، وانا أبديه لك رحمك الله ، فقال عمر وما هو يا أبا الحسن ؟ . قال ان القوم قد سألوك وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين ، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام واني أري انك ان سرت اليهم فتح الله هذه المدينة على يديك وكان في مسيرك الاجر العظيم في كل ظمأ ومخمصة وفي قطع كل واد وصعود جبل حتى تقدم اليهم . فاذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الامن والعافية والصلاح والفتح ولست آمن ان ييأسوا منك ومن الصلح ويمسكوا حصنهم ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم فيدخل فلا يتخلفون عنه ، والصواب أن تسير اليهم ان شاء الله تعالى . قال ففرح عمر بن الخطاب بمشورة علي (رض) وقال : لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو واحسن علي المشورة للمسلمين فجزاهما الله خيرا ولست آخذ الا بمشورة علي فما عرفناه الا محمود المشورة ميمون الغرة ، ثم ان عمر (رض) أمر الناس بأخذ الاهبة للمسير معه والاستعداد فأسرع المسلمون الى ذلك واستعدوا وتأهبوا وامر عمر أن يكونوا خارج المدينة ، ففعلوا ذلك واتى عمر المسجد فصلى فيه أربع ركعات ثم قام الى قبر رسول الله (ص) فسلم عليه وعلى أبي بكر (رض) واستخلف على المدينة علي بن أبي طالب وخرج من المدينة واهلها يشيعونه ويودعونه .

(قال الواقدي) وخرج عمر من المدينة وهو على بعير له احمر وعليه غرارتان في احداهما سويق وفي الاخرى تمر وبين يديه قربة مملوءة ماء وخلفه جفنة للزاد وخرج ومعه جماعة من الصحابة قد شهدوا اليرموك وعادوا الى المدينة منهم الزبير وعبادة بن الصامت وسار عمر نحو بيت المقدس فكان اذ نزل منزلا لا يبرح منه حتى يصلي الصبح فاذا انفتل من الصلاة اقبل على المسلمين وقال : الحمد لله الذي اعزنا بالاسلام وأكرمنا بالايمان وخصنا بنبيه عليه الصلاة والسلام وهدانا من الضلالة

وجمعنا بعد الشتات على كلمة التقوى والف بين قلوبنا ونصرنا على عدونا ومكن لنا في بلاده وجعلنا اخوانا متحابين فاحمدوا الله عباد الله على هذه النعمة السابغة والمنن الظاهرة . فان الله يزيد المستزيدين الراغبين فيما لديه ويتم نعمته على الشاكرين . ثم يأخذ الجفنة فيملؤها سويقا ويصف التمر حولها ويقرب للمسلمين ويقول كلوا هنيئا مريئا فيأكل ويأكل المسلمون معه ، ثم يرحل فلم يزل كذلك في مسيره . قال عمرو بن مالك العبسي كنت مع عمر بن الخطاب حين سار الى الشام فمر على ماء لجذام وعليه طائفة منهم نزول والماء يدعى ذات المنار فنزل بالمسلمين عليه ، فبينما هو كذلك واصحاب رسول الله (ص) حوله اذ اقبل اليه قوم من جذام ، فقالوا يا امير المؤمنين ان عندنا رجلا له امراتان وهما أختان لاب وام . قال فغضب عمر وقال علي به فأتى بالرجل اليه ، فقال له عمر ما هاتان المراتان ؟ . قال الرجل زوجتاي قال فهل بينهما قرابة ؟ . قال نعم هما أختان قال عمر فما دينك الست مسلما ؟ قال بلى قال عمر وما عملت ان هذا حرام عليك والله يقول في كتابه ـ وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ـ فقال الرجل ما علمت وما هما علي حرام فغضب عمر وقال كذبت والله انه لحرام عليك ولتخلين سبيل احداهما والا ضربت عنقك . قال الرجل : افتحكم علي قال اي والله الذي لا اله الا هو ، فقال الرجل ان هذا دين ما اصبنا فيه خيرا ولقد كنت غنيا عن ان ادخل فيه ، قال عمر ادن مني فدنا منه فخفق راسه بالدرة خفقتين ، وقال له أتتشاءم بالاسلام يا عدو الله وعدو نفسه ، وهو الدين الذي ارتضاه الله لملائكته ورسله وخيرته من خلقه خل يا ويلك سبيل احداهما والا جلدتك جلدة المفتري ، فقال الرجل كيف أصنع بهما واني أحبهما ، ولكن اقرع بينهما فمن خرجت القرعة عليها كنت لها وهي لي ، وان كنت لهما جميعا محبا فأمر عمر فاقترع فوقعت القرعة على احداهما فأمسكها واطلق سبيل الثانية ، ثم اقبل عليه عمر ، وقال له اسمع يا ذا الرجل وع ما أقول لك انه من دخل في ديننا ثم رجع عنه قتلناه فاياك أن تفارق الاسلام واياك يبلغني انك قد أصبت أخت امراتك التي فارقتها فانك ان فعلت ذلك رجمتك .

(قال الواقدي) وسار عمر حتى مر على حي من بني مرة . فاذا بقوم منهم قد اقاموا في الشمس يعذبون فقال لهم عمر : ما بال هؤلاء يعذبون ؟ فقيل : عليهم خراج فهم يعذبون قال فما يقولون . قال يقولون ما نجد ما نؤدي ، فقال عمر دعوهم ولا تكلفوهم ما لا يطيقون فاني سمعت رسول الله (ص) يقول « لا تعذبوا الناس في الدنيا يعذبكم الله يوم القيامة » فخلى سبيلهم . ثم سار حتى اذا كان بواد القرى أخبروه أن شيخا على الماء وله صديق يوده ، فقال له صديقه هل لك ان تجعل لي في زوجتك نصيبا وأكفيك رعي ابلك والقيام عليها ولي فيها يوم وليلة ولك فيها يوم وليلة ؟ قال له الشيخ : قد فعلت ذلك ورضي . فلما اخبر عمر بذلك أمر بهما فأحضرا . فقال ويلكما ما دينكما ؟ قالا الاسلام . قال عمر فما الذي بلغني عنكما ؟ قالا وما هو ؟ فأخبرهما

عمر بما سمعه من العرب ، فقال الشيخ قد كان ذلك يا امير المؤمنين . فقال عمر : اما علمتما أن ذلك حرام في دين الاسلام ؟ قالا لا والله ما علمنا ذلك . فقال عمر للشيخ وما دعاك أن صنعت هذا القبيح ؟ قال انا شيخ كبير ولم يكن لي احد اثق به ولا اتكل عليه فقلت يا هذا اتكفيني الرعي والسقي وتعينني على دوابي وانا اجعل لك نصيبا في امراتي والآن علمت أنه حرام فلا افعله فقال لي عمر خذ بيد امراتك فلا سبيل لي عليها ، ثم قال للشاب اياك أن تقرب منها فانه ان بلغني ذلك ضربت عنقك ثم ارتحل عمر يريد بيت المقدس حتى دنا من اول الشام واشرف عليه . قال أسلم ابن برقان مولى عمر ، فلما اشرفنا على الشام واشرف عليه المسلمون نظرنا الى طائفة من خيل المسلمين . فقال عمر للزبير أسرع وانظر ما هذه الخيل فأسرع الزبير اليها ، فلما قرب منها واذا هي خيل من اليمن قد بعث بها ابو عبيدة يأخذون له خبر عمر (رض) ، قال الزبير فسلموا علي وقالوا يا فتى من أين اقبلت ؟ فقلت من مدينة رسول الله (ص) قالوا كيف خلفت اهلها ؟ قلت بخير ، قالوا فما فعل عمر هل قدم علينا أم لا ؟ قال الزبير من انتم قالوا نحن من عرب اليمن قد وجهنا ابو عبيدة لنأخذ له خبر عمر ، قال فرجع الزبير الى عمر وحدثه قال : اصبت يا ابا عبدالله ، فأقبل علينا جمع آخر فسلموا علينا وسألونا عن عمر . فقال لهم ها انا عمر فما تريدون ؟ قالوا يا امير المؤمنين قد ذرفت العيون وطالت الاعناق بطول قدومك فلعل الله أن يفتح بيت المقدس على يدك .

(قال الواقدي) ثم رجعوا على أعقابهم حتى اشرفوا على عسكر المسلمين وابي عبيدة ونادوا بأصواتهم ابشروا يا مسلمون بقدوم عمر قال فارتج الناس وهموا ان يركبوا لاستقباله بأجمعهم . فقال لهم ابو عبيدة عزيمة على كل رجل ان لا يخرج من مركزه ثم سار ابو عبيدة في اناس من المهاجرين والانصار حتى اشرف بمن معه على عمر قال ونظر عمر الى ابي عبيدة وهو لابس سلاحه متنكب قوسه وهو راكب على قلوصه مغطى بعباءة قطوانية وخطام قلوصه من شعر ، فلما نظر ابو عبيدة الى عمر (رض) اناخ قلوصه واناخ عمر بعيره وترجل كلاهما ومد أبو عبيدة يده فصافح عمر وتعانقا جميعا وسلم بعضهما على بعض واقبل المسلمون يسلمون على عمر ثم ركبا جميعا وجعلا يسيران أمام الناس وهما يتحادثان ولم يزالا كذلك حتى نزلا ببيت المقدس ، فلما نزل صلى عمر (رض) بالمسلمين صلاة الفجر ثم خطبهم خطبة حسنة فقال في خطبته : الحمد لله الحميد المجيد ، القوي الشديد ، الفعال لما يريد ، ثم قال ان الله تعالى قد أكرمنا بالاسلام وهدانا بمحمد عليه افضل الصلاة والسلام ، وأزاح عنا الضلالة وجمعنا بعد الفرقة والف بين قلوبنا من بعد البغضاء فاحمدوه على هذه النعمة تستوجبوا منه المزيد فقد قال الله تعالى ــ لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد ، ثم قرأ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ــ قال فلما تلا عمر ذلك قام قس من النصارى كان حاضرا بين يديه . فقال ان الله لا

يضل احدا ، فلما كررها قال عمر انظروا ان عاد الى قوله فاضربوا عنقه فعرف القس ما قال عمر فأمسك ومضي عمر في خطبته . فقال :

اما بعد فاني أوصيكم بتقوى الله عز وجل الذي يبقي ويفني كل شيء سواه ، الذي بطاعته ينفع أولياءه ، وبمعصيته يفني أعداءه ، ايها الناس ادوا زكاة اموالكم طيبة بها قلوبكم وانفسكم لا تريدون بها جزاء من مخلوق ولا شكورا افهموا ما توعظون به فان الكيس من احرز دينه ، وان السعيد من اتعظ بغيره الا ان شر الامور مبتدعاتها وعليكم بالسنة سنة نبيكم (ص) فالزموها فان الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة والزموا القرآن فان فيه الشفاء والثواب ، ايها الناس انه قام فينا رسول الله (ص) كقيامي فيكم وقال الزموا اصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يظهر الكذب حتى يشهد من لم يستشهد ويحلف من لم يحلف فمن اراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، وتعوذوا من الشيطان ولا يخلون احد منكم بامراة فانهن من حبائل الشيطان ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن ، والصلاة الصلاة ، فلما فرغ من خطبته جلس فجعل ابو عبيدة يحدثه بما لقي من الروم وعمر باهت ، فتارة يبكي وتارة يهدا فلم يزل كذلك الى أن حضرت صلاة الظهر . فقال الناس يا امير المؤمنين اسأل بلالا أن يؤذن لنا ، وكان بلال مقيما ببلد ، فلما بلغه أن عمر قد وصل سار مع ابي عبيدة حتى تسلم على عمر فعظم قدره ، فلما حضرت صلاة الظهر وسأل المسلمون عمر ان يسأل بلالا . فقال له يا بلال ان اصحاب رسول الله (ص) يسألون ان تؤذن لهم وتذكرهم أوقات نبيهم (ص) فقال بلال نعم فلما قال الله أكبر خشعت جلودهم واقشعرت ابدانهم ، قال فلما قال : اشهد أن لا اله الا الله اشهد ان محمدا رسول الله بكى الناس بكاء شديدا حتى كادت قلوبهم أن تتصدع عند ذكر الله ورسوله ، فلما فرغ بلال من اذانه وجلس قال بلال يا امير المؤمنين ان أمراء المسلمين واجناد الشام يأكلون لحوم الطيور والخبز النقي وما لا يلحق ضعفاء الناس وما لا تناله أيديهم وان الكل يفني وما له الى التراب ومصيرنا اليه . فقال له يزيد بن ابي سفيان : ان سعر بلادنا هذه رخيص وانا لنصيب ما قاله بلال ههنا مثل ما كنا نقوت به انفسنا مدة من الزمان في الحجاز . فقال عمران الامر كما ذكرت فكلوا هنيئا مريئا ولست ابرح من مكاني حتى تجمعوا الي من في المنازل وان تكتبوا الى فقراء المسلمين ممن في المدن والقرى فأفرض لكل اهل بيت ما يجزيهم من البر والشعير والعسل والزيت وما يحتاجون اليه ولا بد لهم منه ثم قال عمر : هذا لكم من امرائكم غير ما يأتيكم مني من بيت مال المسلمين ، فان قطعت عنكم امراؤكم فأمروني حتى أعزلهم عنكم ثم أمرهم بالرحيل ، فلما هم بالركوب على بعيره وعليه مرقعة من صوف وفيها أربع عشرة رقعة بعضها من ادم .

(قال الواقدي) بلغني ممن اثق به انها كانت مرقعة من صوف . فقال له المسلمون يا امير المؤمنين لو ركبت بدل بعيرك جوادا ولبست ثيابا بيضا . قال ففعل

قال الزبير احسب انها كانت من ثياب مصر تساوي خمسه عشر درهما وطرح على عاتقه منديلا من كتان ليس جديدا ولا بالخلق دفعه اليه ابو عبيدة وقدم اليه برذون اشهب من براذين الروم ، فلما صار عمر على ظهره جعل البرذون يهملج به ، فلما نظر عمر الى البرذون وفعاله نزل عنه مسرعا وقال أقيلوا عثرتي أقال الله عثرتكم يوم القيامة ، فقد كاد اميركم ان يهلك بما دخل من العجب والكبر واني سمعت رسول الله (ص) يقول « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر » ولقد كاد أن يهلكني ثوبكم الابيض وبرذونكم المهملج ، ثم ان عمر (رض) نزع ما كان عليه ثم عاد الى لبس مرقعته .

(قال الواقدي) كنا يوم نقرأ فتوح الشام وفتوح بيت المقدس عند قبر ابي حنيفة ، وكان الفتوح يقرا على عبادة بن عوف الدينوري وكان من اهل الفضل ، وكان يسجع كلامه . فلما وصل الى ما ذكرناه من لبس عمر لمرقعته . قال قد سمح خاطري بما انا قائله .

(قال الواقدي) قلت قل ولا تخف الصدق فتهوى في النار ، وان الصدق أمانة والكذب خيانة . قال لما لبس عمر مرقعته وجعل ينميز في شمائل فقره ، والكائنات تتعجب من زهده وصبره عندما تزينت له الدنيا بملابسها وتراءت له في حلل أمنيتها بواسطة حدثان مشيئتها ، وقد جعلت أشباح شهواتها على قمة راس مرآتها واقبلت رافلة في حلة مراودته ، مطلقة عند الطمع في طلب زوال مجاهدته ، معرضة بملابس جمالها على سوق معارضته في سناء قبلة مرآة تبهرجها في عين مشاهدته ، واقفة على قدم الاستدراج الى ترك خدمته ، جاعلة ودادها ذريعة الى وصلته ، وعمر قد امسك عرا طاعته بيد عصمته ، فلما نصبت له حبائل بلاها ، ولم تره وقع في أشراك هواها ، أسمعت في معناها ، قد شغفها حبا أنا لنراها ، وقالت يا عمر قد وليت أرضي فلا بد من القيام بفرضي ، فالولاية لا تقوم الا بالملابس الهنية والمآكل الشهية ، والظلم في الرعية ؛ فقال عمر : اذهبي فلست من رجالك ولا ممن يقع في حبالك ولا في أوحالك . اما علمت اني قد تجردت لمعاندتك ولا حاجة لي في مشاهدتك ، وها أنا على قدم تجردت لاقامة دعوة سيد الامم ، حتى أفتح بلاد الروم والعجم ، ثم اظهر في وجهها صارم اجتهاده من معنى قوله ـ وجاهدوا في الله جهاده ـ .

(قال الواقدي) فاستحسنت هذا الكلام والحقت ما قاله في هذا الموضع بقول رسول الله (ص) « ان من البيان لسحرا » قال وان عمر سار يريد العقبة ليصعد منها الى بيت المقدس فلقيه قوم من المسلمين وعليهم ثياب الديباج مما أخذوه من اليرموك فأمر عمر ان يحثوا التراب في وجوههم ، وان تمزق عليهم ، ولم يزل على ذلك حتى أشرف على بيت المقدس ، فلما نظر اليها قال الله أكبر : اللهم افتح لنا فتحا يسيرا . واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا ، ثم سار واستقبلته العشائر والقبائل وأصحاب

العقود وسار عمر حتى نزل بالموضع الذي كان فيه ابو عبيدة وضربت له خيمة من شعر وجلس فيها هناك على التراب . ثم قام يصلي أربع ركعات .

(قال الواقدي) وعلت للمسلمين ضجة عظيمة وصياح مزعج بالتهليل والتكبير ، فسمع أهل بيت المقدس الضجة والجلبة ، فقال لهم البترك يا ويلكم ما شأن العرب قد ارتفعت لهم جلبة من غير شيء فاشرفوا عليهم وانظروا ما شأنهم .

(قال الواقدي) فاشرف عليهم رجل ممن يعرف العربية ، فقال : يا معاشر العرب أخبرونا ما قصتكم ؟ قالوا ان أمير المؤمنين عمر قد قدم علينا من مدينة نبينا ، وهذه الضجة من فرح المسلمين به . قال فرجع واعلم البترك فاطرق الى الارض ولم يتكلم ، فلما كان الغد وصلى عمر بالناس صلاة الفجر . قال لابي عبيدة يا عامر تقدم الى القوم واعلمهم أني قد اتيت . قال فخرج ابو عبيدة وصاح بهم وقال يا أهل هذه البلدة ان صاحبنا امير المؤمنين قد ورد فما تصنعون فيما قلتم . قال فأعلموا البترك فخرج من كنيسته وعليه المسوح وترجل الرهبان والقسوس والاساقفة معه ، وقد حمل بين يديه صليب لا يخرجونه الا في عيدهم وسار معه البطاليق الوالي عليهم وهو يقول : للبترك يا ابانا ان كنت تعرفه معرفة حقيقية والا فلا تفتح له ودعنا وهؤلاء العرب فاما أن نبيدهم ، واما ان يبيدونا ، قال البترك انا أفعل ذلك ، ثم صعدا على الصور ووقف البطاليق الى جانبه والصليب امامهم واشرف على أبي عبيدة وقال ما تشاء ايها الشيخ الباهي ، قال ابو عبيدة : هذا امير المؤمنين عمر وليس عليه أمير قد اتى فاخرجوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة واداء الجزية . فقال البترك يا ذا الرجل ان كان صاحبك الذي ليس عليه امير قد أتى فدعه يدن منا فانا نعرفه بنعته وصفته وافردوه من بينكم وليقف بازائنا حتى نراه ، فان كان صاحبنا الذي نعته في الانجيل نزلنا اليه وعقدنا معه الامان واقررنا له بالجزية ، وان كان غير الذي نجد نعته في الانجيل وصفته فما لكم عندنا غير القتال ، قال فرجع ابو عبيدة الى عمر واخبره بما قاله البترك فهم عمر بالقيام . فقال له اصحابه يا امير المؤمنين تخرج اليهم منفردا ، وليس عليك آلة حرب غير هذه المرقعة وانا نخشى عليك منهم غدرا أو مكرا فينالون منك .
فقال عمر — قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون — ثم امر ببعيره فقدم اليه فاستوى في ركوبه عليه وعليه مرقعة ليس عليه غيرها وعلى رأسه قطعة عباءة قطوانية وقد عصب بها راسه وليس معه غير ابي عبيدة (رض) وهو سائر بين يديه حتى قرب من السور ووقف بازاء السور والبترك والبطاليق عليه ، فتكلم أبو عبيدة وقال يا هؤلاء هذا امير المؤمنين قد اتى فمسح البترك عينه ونظر اليه وزعق بأعلى صوته هذا والله الذي نجد صفته ونعته في كتبنا ومن يكون فتح بلادنا على يديه بلا محالة ، ثم انه قال لاهل بيت المقدس يا ويحكم انزلوا اليه واعقدوا معه الامان والذمة ، هذا والله صاحب محمد بن عبدالله .

(قال الواقدي) فلما سمعت الروم كلام البترك نزلوا مسرعين وكانوا قد ضاقت انفسهم من الحصار ففتحوا الباب وخرجوا الىعمر بن الخطاب يسألونه العهد والميثاق والذمة ويقرون له بالجزية ، فلما نظر اليهم عمر على تلك الحالة تواضع لله وخر ساجدا على قتب بعيره ثم نزل اليهم وقال ارجعوا الى بلادكم ولكم الذمة والعهد اذ سألتمونا واقررتم بالجزية . قال فرجع القوم الى بلدهم ولم يغلقوا الابواب ورجع عمر الى عسكره فبات فيه ليلة ، فلما كان الغد قام فدخل اليها وكان دخوله يوم الاثنين واقام بها الى يوم الجمعة وخط بها محرابا من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو واصحابه صلاة الجمعة فهمت الروم بغدرهم وكان ابو الجعيد الذي احتال على الروم باليرموك ببيت المقدس هو واهله وماله فقالوا ما ترى في غدر هؤلاء العرب اذا هم اشتغلوا بصلاتهم وليس معهم آلة حرب ولا ما يحترزون به من الضرب والقتل ؟ . فقال لهم ابو الجعيد يا قوم لا تفعلوا ولا تغدروا بهم فان فعلتم ذلك أخبرتهم بما تريدون ان تفعلوا بهم فقالوا وما الذي نصنع ؟ فقال ابو الجعيد اظهروا للعرب ما لكم من الزينة ومتاع الدنيا فان متاع الدنيا وما فيها لا يصبر صاحبهما عنهما ، فان طلبوهما بغدر فشأنكم وما تريدون ، قال فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن فأظهروه وصفوه في طريق المسلمين وشوارعهم ، فجعل المسلمون ينظرون الى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم ولم يمل أحد منهم اليه ولم يلمسه وهم يقولون الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم مثل هذا ، ولو ساوت الدنيا عند الله جناح بعوضة لما سقي كافرا منها شربة ماء ، قال عوف بن سالم فوالله ما من المسلمين من جعل يده على شيء من متاعهم ولا لمسه . فقال لهم أبو الجعيد هؤلاء القوم الذين وصفهم الله في التوراة والانجيل وانهم لا يزالون على الحق ولا يقر بهم احد ما داموا على ما هم عليه .

(قال الواقدي) واقام عمر في بيت المقدس عشرة ايام . قال شهر بن حوشب سمعت كعب الاحبار يقول : ان عمر بن الخطاب لما صالح أهل بيت المقدس ودخلها اقام فيها عشرة أيام فأقبلت اليه وكنت في قرية من فلسطين ، وتقدمت اليه لاسلم عليه وأسلم على يديه ،وذلك أن أبي كان اعلم الناس بما أنزل الله على موسى بن عمران وانه كان لي محبا وعلي مشفقا ولم يكتم علي شيئا الا أعلمني اياه مما كان يعلم الناس ، فلما حضرته الوفاة ، دعاني اليه وقال لي يا بني انك تعلم اني ما ادخرت عنك شيئا مما كنت أعلمه لاني خشيت أن يخرج بعض هؤلاء الكاذبين وتتبعهم وقد جعلت هاتين الورقتين في هذه الكرة التي ترى فلا تتعرض لهما ولا تنظر فيهما الى أن تسمع بخبر نبي يبعث في آخر الزمان اسمه محمد ، فان يرد الله بك خيرا فأنت تتبعه ، ثم مات بعد وصيته اياي . قال كعب فدفنته ، فما كان شيء أحب الي بعد انقضاء العزاء من النظر في الورقتين وقراءة ما فيهما ففتحهما ، فاذا فيهما لا اله الا الله محمد رسول الله

خاتم النبيين لا نبي بعده ، مولده بمكة ، ودار هجرته طيبة ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ، امته الحامدون الذين يحمدون الله على كل حال السنتهم رطبة بالتهليل والتكبير وهم منصورون على كل من عاداهم من اعدائهم اجمعين يغسلون وجوههم ويسترون أوساطهم اناجيلهم في صدورهم تراحمهم بينهم تراحم الانبياء بين الامم ، وهم أول من يدخل الجنة يوم القيامة من الامم . قال كعب الاحبار فلما قرات ذلك قلت في نفسي وهل علمني أبي شيئا اعظم من هذا ثم مكثت بعد وفاة والدي ما شاء الله الى ان بلغني ان النبي (ص) الموصوف قد ظهر بمكة وهو يظهر مرة بعد اخرى . فقلت هو والله لا محالة ولم ازل ابحث عن أمره حتى قيل انه خرج ونزل بيثرب فجعلت اترقب امره حتى غزا غزوات ونصر على اعدائه ، فتجهزت اريد المسير اليه فبلغني انه قد قبض (ص) وانقطع الوحي . فقلت في نفسي لعله ليس الذي كنت انتظره حتى رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت والملائكة تنزل زمرة بعد زمرة وقائل يقول قد قبض رسول الله (ص) وانقطع الوحي عن اهل الارض فرجعت الى دار قومي وجاءنا الخبر انه تقدم امته خليفة اسمه ابو بكر فقلت اقدم عليه فلم البث حتى جاءتنا جنوده الى الشام ثم جاءتنا وفاته ، ثم قيل انه استخلف عليهم رجل اسمه عمر . فقلت لا ادخل هذا الدين حتى احققه ولم ازل متوقفا حتى قدم عمر بن الخطاب (رض) ببيت المقدس وصالح اهلها ونظرت الى وفائهم بعهدهم وما صنع الله بأعدائهم ، وقلت انهم امة النبي الامي فحدثت نفسي بالدخول في هذا الدين ، فوالله اني كنت ذات ليلة على سطحي واذا انا برجل من المسلمين يقول — يا أيها الذين اوتو الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقالما معكم من قبل ان نطمس وجوها فنردها على ادبارها او نلعنهم كما لعنا اصحاب السبت وكان امر الله مفعولا — .

قال كعب فلما سمعت هذه الآية خفت والله ان لا اصبح حتى يحول وجهي فما كان شيء احب الي من الصباح ان يرد ، فلما اصبحت غدوت من منزلي وسألت عن عمر فقيل لي انه ببيت المقدس فقصدت اليه واذا به قد صلى بأصحابه صلاة الفجر عند الصخرة فاقبلت اليه وسلمت عليه فرد علي السلام، وقال لي : من انت ؟ فقلت له : انا كعب الاحبار وانني جئت اريد الاسلام والدخول فيه فاني وجدت صفة محمد (ص) وامته في الكتب المنزلة ، وان الله عز وجل أوحى الى موسى عليه السلام اني ما خلقت خلقا اكرم علي من امة محمد (ص) ولولاه ما خلقت جنة ولا نارا ولا سماء ولا أرضا ، وامته خير الامم ودينه خير الاديان ، بعثته آخر الزمان ، أمته مرحومة ، وهو نبي الرحمة ، وهو النبي الامي التهامي القرشي الرحيم بالمؤمنين ، الشديد على الكافرين ، سريرته مثل علانيته ، وقوله لا يخالف فعله ، القريب والبعيد عنده سواء ، أصحابه متراحمون متواصلون ، فقال عمر احقا ما تقول يا كعب ؟ . قال اي والله والله يسمع ما اقول ويعلم ما تخفي الصدور ، فقال عمر : الحمد لله الذي اعزنا واكرمنا وشرفنا

ورحمنا برحمته التي وسعت كل شيء وهدانا بمحمد (ص) فهل لك يا كعب في الدخول في ديننا ؟ ، فقال كعب يا امير المؤمنين في كتابكم الذي انزل اليكم في امر دينكم ذكر ابراهيم . فقال عمر نعم وقرأ ـ ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون ام كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الها واحدا ونحن له مسلمون ـ . ثم قرأ ـ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ـ ثم قرأ ـ افغير دين الله يبغون وله أسلم ـ الآية . ثم قرأ ـ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ـ الآية ، ثم قرأ ـ قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ـ الآية ، ثم قرأ ـ وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ـ الآية . قال كعب فلما سمعت هذه الآيات . قلت يا امير المؤمنين انا اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، ففرح عمر باسلام كعب الاحبار . ثم قال هل لك أن تسير معي الى المدينة فنزور قبر النبي (ص) وتتمتع بزيارته ؟ . فقلت نعم يا امير المؤمنين انا افعل ذلك . قال وارتحل عمر بعد ان كتب لاهل بيت المقدس كتابا : أي عهدا واقرهم في بلدهم على الجزية وسار بمن معه من العساكر الى الجابية فأقام بها ودون الدواوين واخذ الخمس الذي لله مما افاء الله على المسلمين ، ثم قسم الشام قسمين فاعطى ابا عبيدة من حوران الى حلب وما يليها وامره بالمسير الى حلب وان يقاتلوا اهلها الى ان يفتحها الله على يديه واعطى ارض فلسطين وارض القدس والساحل ليزيد[9] بن ابي سفيان ، وجعل ابا عبيدة واليا عليه وامر يزيد ان يحارب اهل قيسارية الى ان يفتحها الله على يديه ، وكان قد اعطى اكثر الاجناد لابي عبيدة مع خالد وسير عمرو بن العاص الى مصر واستعمل على قضاء حمص عمرو بن سعيد الانصاري ثم سار عمر(رض) يريد مدينة الرسول(ص) واخذ كعب الاحبار معه وكان اهل المدينة يظنون ان عمر يقيم بالشام لما يرون من كثرة خيرها وطيب فواكهها ورخص اسعارها ولما يخبرون عنها انها بلاد الانبياء وهي الارض المقدسة وفيها المحشر فبقي الناس يتطاولون نحوه ويخرجون في كل يوم ينظرونه حتى قدم عمر (رض) فارتجت المدينة يوم قدومه واستبشر اصحاب رسول الله (ص) برؤيته وسلموا ورحبوا به وهنئوه بما فتح الله على يديه ، فأول ما بدأ بالمسجد سلم على قبر رسول الله (ص) وعلى ابي بكر الصديق (رض) ، ثم صلى ركعتين وعاد بكعب الاحبار . وقال حدث المسلمين بما رايت في الورقتين فازداد الناس ايمانا .

(قال أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي) حدثنا احمد بن الحسين بن العباس المعروف بأبي سفيان النحوي . قال حدثنا أبو جعفر بن احمد بن عبيد الناسخ . قال حدثني عبدالله بن أسلم الزهري وعبدالله بن يحيي الزرقي عمن حدثه ممن تقدم ذكرهم وأسماؤهم أول الكتاب وحديث القوم قريب بعضه من بعض والله يعيذنا من

الزيادة والنقصان ، لان الصدق أمانة والكذب خيانة والله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة ما اعتمدت في خبر هذه الفتوح الا على الصدق وما حدثت حديثه الا على قاعدة الحق لاثبت فضل اصحاب رسول الله (ص) وجهادهم حتى أرغم بذلك أهل الرفض الخارجين على أهل السنة ، اذ لولاهم بمشيئة الله تعالى لم تكن البلاد للمسلمين وما انتشر علم هذا الدين فلله درهم لقد جاهدوا في الله حق جهاده لا جرم ، وقد قال فيهم الملك المقتدر ـ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ـ .

(قال الواقدي) وذلك انه لما بعث عمر بن الخطاب ابا عبيدة وجعله أمير الشام وامره بالمسير الى حلب ونطاكية والمفرق وما يليهم من الحصون بعث عمرو بن العاص الى مصر ويزيد بن ابي سفيان الى ساحل الشام فنازلوا قيسارية وهي آهلة بالخلق كثيرة الجند وكان عليها قسطنطين الى أن نزل يزيد وقسطنطين هذا ابن الملك هرقل وكان معه ثمانون الفا من الروم والعرب المتنصرة والروسية ، فلما نظر قسطنطين الى نزول يزيد بن ابي سفيان عليه بعث الى ابيه يستنجده فبعث اليه هرقل بصاحب مرعش وعشرين الفا من ابطال الروسية وانفذ له المراكب بالزاد والعلوفة ، فلما نظر يزيد الي ذلك وأن لا قدرة له على ذلك كتب الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد بن ابي سفيان العامل على بعض الشام الى عمر بن الخطاب (رض) اني نازلت أهل قيسارية وهي مدينة آهلة بالخلق كثيرة الجند وليس اليها سبيل وان قسطنطين قد استنجد بابيه وقد انجده بصاحب مرعش وعشرين الفا والمراكب ترد عليه كل يوم بالعلوفة والزاد واريد النجدة والسلام . وبعث الكتاب مع عمرو بن سالم بن حميد النخعي فلما ورد المدينة وسلم الكتاب الى عمر بن الخطاب . قال عمر من أين هذا الكتاب قال من عاملك يزيد بن ابي سفيان فقرأه ، فلما اتى على آخره تفكر في أمر يزيد وما وقع له حتى دخل عليه علي بن ابي طالب كرم الله وجهه فأراه كتاب يزيد من قيسارية الشام يطلب منه نجدة . فقال علي لا تغتم على المسلمين فان الله يفتحها على يديك رغما فانجد يزيد وانفذ اليه الكتاب .

ذكر فتح مدينة حلب وقلاعها

(قال الواقدي) كان مع ابي عبيدة عشرون الفا ومع يزيد وعمرو بن العاص عشرة آلاف .

(قال الواقدي) فلما وصل كتاب عمر الى ابي عبيدة انفذ الى يزيد ثلاثة آلاف فارس مع حرب بن عدي وبقي ابو عبيدة في سبعة عشر الفا واكثرهم من اليمن ، وكان ابو عبيدة قد صالح اهل قنسرين والعواصم على خمسة عشر الف مثقال من الذهب ومثلها من فضة وألف ثوب من اصناف الديباج وخمسمائة وسق من التين والزيت ، فلما تم الصلح وجاءوا بما ضمنوه من مدينتهم كتب لهم كتابا وشرط فيه الشروط ودخل ابو عبيدة وخالد في رجال من المؤمنين وسادات المسلمين فخطوا بها مسجدا ،

فبلغ ذلك أهل حلب من الصلح لقنسرين ومسير العرب فاضطربوا اضطرابا شديدا وكان عليهم رئيسان أخوان لاب وأم وكانا يسكنان في القلعة ولم تكن القلعة محيطة بالمدينة بل كانت المدينة منفردة بذاتها وكان البطريقان يقال لاحدهما يوقنا والآخر يوحنا وكان أبوهما ملك البلد وأعماله وضياعه ورساتيقه الى حدود الضروب والى حدود الفرات وقد ملك حلب سنين لا ينازعه فيها منازع ، وكان هرقل طاغية الروم يهابه ويوقره ولا يحاربه كل ذلك لبقاء ملكهم واجتماع كلمتهم لانه كان قد انتزع من رومية الى أقصى البلاد لئلا يجيش عليه أحد جيشا ولا ينازعه في ملكه لكثرة شره وتدبيره وشدة بني عمه ، فلما نزل بالعواصم استخلص لنفسه قلعة حلب وبناها وحصنها ومكن في البلاد ، فلما هلك آل الامر بعده لولده يوقنا وكان الكبير وكان شجاعا بطلا جامعا للاموال مقداما للحروب لا يصطلي له بنار ولا يدفع شره وكان اخوه يوحنا دينا قد نزع يده من الرياسة وترهب وكان اعلم الناس في أهل زمانه وانه لما بلغهم الخبر ان أبا عبيدة قد قصد اليهم قال لاخيه يوقنا على ماذا عولت ؟ قال على قتال العرب ولا أدعهم يقربون من ارضنا وبلادنا حتى يرى العرب اني لست كمن لقوا من بطارقة الشام ولا من غيرها وكان يوحنا قد درس الانجيل وقرأ المزامير ، وليس له همة الا عمارة الكنائس والاديرة وتشييد المواضع وكثرة الشمامسة والقسوس والرهبان والقيام بأمورهم ، فلما بلغ هذين الاخوين فتح العواصم عنوة وقنسرين صلحا وان العرب نازلون عليها وان خيلهم تضرب الى الفرات والعواصم والبقاع فاقبل يوحنا على اخيه الاكبر يوقنا . وقال : يا اخي اريد أن اختلي بك الليلة واشاورك واطلعك على سري ورايي واشرف على سرك ورايك . قال نعم ، فلما اجتمعا في الليل في دار كانت لابيهما في القلعة وجلسا للمشورة اقبل يوقنا على اخيه يوحنا وقال يا اخي الا ترى ما نزل بنا من العرب الجياع الاكباد العراة الاجساد وما حل بأهل الشام منهم من القتل والنهب وأخذ الاموال وانهم لا ينزلون مدينة من مدن الشام الا فتحوها وملكوا أهلها. فما ترى أن نصنع في أمر هؤلاء فكاني بهم وقد اشرفوا علينا .

(قال الواقدي) فقال يوحنا يا اخي اذ قد استشرتني في امرك فاني انصحك ولا اغشك اذا قبلت النصيحة وان كنت أصغر منك سنا فاني أعلم منك بصيرة ، فوحق المسيح والقربان لئن قبلت مشورتي ليعلون أمرك ويسلم لك مالك ونفسك . فقال يوقنا يا اخي ما علمتك الا ناصحا فما عندك من الراي ؟ . فقال الراي عندي أن ترسل رسولا الى العرب وتبذل لهم ما شاءوا وتسالهم الصلح وتتفق معهم على معلوم يدفع لهم في كل عام ما دامت الغلبة لهم ، فلما سمع يوقنا ذلك من كلام اخيه يوحنا اقبل عليه وقد استوثق منه الغضب وقال قبحك المسيح ما اعجز رايك ما ولدتك امك الا راهبا أو قسيسا ولم اقلدك لا ملكا ولا محاربا ولا مقاتلا ، والرهبان ليس لهم قلوب لاكلهم العدس والزيت والبقل ولا ياكلون اللحم ولا يعرفون النعيم وليس لهم بالقتال

بصيرة ولا بملاقاة الرجال خبرة ، وأما انا فملك ابن ملك وليس بيني وبينهم الا الحرب ولا ترى الملوك العجز ويلك كيف نسلم ملكنا العرب ونعطيهم القياد من انفسنا من غير حرب ولا قتال . قال فلما سمع يوحنا ذلك من اخيه تبسم من كلامه وتعجب كل العجب وقال يا أخي ، وحق المسيح ان اجلك قد اقترب لانك صاحب بغي تحب سفك الدماء وقتل النفس وما اظن جموعك أكثر من جموع الملك هرقل التي جمعها باليرموك مع ماهان ويوم أجنادين ، وهؤلاء القوم قد أيدهم الله علينا فاتق الله ولا تسع في قتل نفسك . فلما سمع يوقنا كلام اخيه داخله الغضب وقال له قد اكثرت واطلت في مدحك العرب واني لست كمن لاقوه من هذه الجموع التي ذكرتها ولا اقاس بهم ومع ذلك اعلم ان كل من ذكرت من أهل المدن وغيرها أسلم بلده عنوة لو صلحا قبل أن يقاتل بلا عذر في القتال ويبذل المجهود عن نفسه ، وانما جمعت الاموال من قبل الى الآن لادفع بها الاذى عن نفسي واني مجمع على قتال العرب ومحاربتهم ، فان اظفرني الصليب بهم واعانني المسيح عليهم طلبت العرب الى ان ادخل خلفهم الحجاز واسود على سائر الملوك وأرجع الى الشام ملكا فلا يقدر هرقل أن ينازعني ، وان هزمتني العرب طلعت الى قلعتي هذه ولزمتها فاني قد عبيت فيها من الزاد والاطعمة ما يكفيني طول دهري واكون فيها عزيزا الى ان أموت ولا القي يدي الى ألعرب ولا ابذل أموالي من غير طلب فلا تعارضني في شيء من أمر العرب ولا تدعني الى الصلح والا بطشت بك قبلهم .

(قال الواقدي) واحتوى الشيطان على قلب يوقنا وقد سولت له نفسه العمل ، فلما سمع يوحنا من اخيه يوقنا هذا المقال قال له كلامك علي حرام ابدا حتى ترجع الى رأيي وتعود الى قولي ثم قام عنه مغضبا ، فلما كان من الغد جمع يوقنا اليه جميع من التجأ اليه من العسكر من الارمن والمتنصرة وغيرهم وعرضهم على نفسه ، فمن اراد سلاحا أعطاه وفرق فيهم الاموال وجعل يهون العرب عليهم ويقول انما هم قليل ونحن أكثر منهم، لان جموعهم قد تفرقت منها جماعة على قيسارية ومنهم من توجه الى مصر.

(قال الواقدي) وعزم على قتال ابي عبيدة قبل أن يصل اليه والى بلده ، ثم عمد الى بطريق من بطارقته يقال له كراكس وضم اليه الف فارس ووكله بحفظ بلده وسار يوقنا بمن معه يريد ان يلقي جيش أبي عبيدة والمسلمين هو وقومه في اثني عشر الف مدرع غير من كان معه بغير درع ونشرت أمامه الاعلام والصلبان وكان فيها صليب من الذهب والجوهر ومن حوله ألف غلام عليهم ثياب الديباج المنسوج بالذهب . قال ابن ثعلبة الكندي فأقام أبو عبيدة على مدينة قنسرين بعد أن فتحها بالصلح وبعد أن أتاه يزيد بكتاب عمر بن الخطاب (رض) يأمره أن يبعث الى يزيد بن ابي سفيان طائفة من جيشه فبعث له بثلاثة آلاف فارس لابسين السلاح الكامل وعول أبو عبيدة على المسير الى حلب فدعا برجل من بني ضمرة وكان بطلا مجربا بشدة البأس وكان اذا

ثبت على وجه الارض للقتال لا يهاب الجحافل قلت او كثرت فضم اليه الف فارس وسيره على مقدمته وقال يا كعب لا تقاتل جيشا لا تطيقه واختبر امر هذا العلج واعرف خبره وانا راحل من ورائك فسار كعب بن ضمرة يريد حلب وكان يوقنا قدم أمامه عيونا يأتونه بالاخبار فأتته جواسيسه يخبرونه ان خيول العرب قد اتت تريد بلده وقتاله . فقال لهم في كم اتت العرب ؟ قالوا في الف فارس وهم على ستة اميال من بلدك نزول . قال فكمن يوقنا كمينا ثم سار اليهم بجيوشه وبطارقته ، فلما اشرف عليهم وهم نزول على نهر يسقون خيلهم ويتوضئون فبينما هم كذلك اذ اشرف عليهم يوقنا بجيوشه وبطارقته والصليب امامه ، فنادى المسلمون بعضهم بعضا واستووا على متون خيولهم ، وورد كعب بن ضمرة على فرسه وسبق في اول الخيل واشرف على جيش يوقنا فحزره انه في خمسة آلاف فارس وكان يوقنا قد قسم عسكره شطرين النصف معه والنصف مع الكمين ، فلما نظر كعب الى يوقنا وجيشه انقلب الى أصحابه وقال يا انصار دين الله اني نظرت عسكر عدوكم وحزرته فهو في خمسة آلاف وهم لكم مغنم ويقاتل الواحد منكم خمسة . قالوا بلى والله ، واقبل أصحابه يشجع بعضهم بعضا فقربت الفئة من الفئة وصاح يوقنا بأصحابه ورجاله وغلمانه وعبيده وبطارقته وأمرهم بالحملة على المسلمين فحملوا بأجمعهم حملة صعبة وحمل عليهم المسلمون والتقى الجمعان واشتبك الحرب وقاتل الجمعان قتال الموت وقد أيقن المسلمون بالظفر والغنيمة فطلع عليهم الكمين من ورائهم واكبوا عليهم جميعا .

قال مسعود بن عون العجي : شهدت الخيل التي بعثها ابو عبيدة طلائع مع كعب بن ضمرة وكنت فيها يوم التقى الجمعان وقد خرج علينا الكمين ونحن في القتال ، ونحن لا نظن أن لهم كمينا يطلع من ورائنا واذا بأصوات حوافر الخيل اكبت علينا وأيقنا بالهلكة بعدما كنا موقنين بالغلبة وصرنا في وسط عسكر الكفار فلم يكن لنا بد من القتال فافترقت المسلمون ثلاث فرق فرقة منهم منهزمة وفرقة قصدت قتال الكمين وفرقة مع كعب بن ضمرة قصدت قتال يوقنا ومن معه . قال مسعود بن عون فلله در كندة يومئذ لقد قاتلوا قتالا شديدا وابلوا بلاء حسنا ووهبوا انفسهم لله تعالى حتى قتل منهم ذلك اليوم مائة رجل في مقام واحد وعمل اهل الكمين عملا عظيما وكعب بن ضمرة قلق على المسلمين فجاهد عنهم وهو يجول بالراية وينادي يا محمد يا محمد يا نصر الله انزل معاشر المسلمين اثبتوا انما هي ساعة ويأتي النصر وأنتم الاعلون ، فاجتمع المسلمون عليه والجراح فيهم فاشية وقتل من المسلمين مائة وسبعون رجلا من الاعيان : منهم عباد بن عاصم النخعي وزفر بن أم راضي وحازم ابن شهاب المقري وسهل بن أشيم ورفاعة بن محصن وغانم بن برد ، وسهيل بن مفلج وكان ممن شهد يوم السلاسل وتبوك بين يدي رسول الله (ص) وشهد قتال اليمامة مع خالد بن الوليد. قال مسعود بن عون : والله لقد تاسفنا على قتله ووجدنا فيه اربعين ضربة كلها في

مقدمه (رض) ولم نجد واحدة في ظهره وكان الاعيان اربعين رجلا ، لان الرجل منا ما قتل حتى قتل عددا من المشركين ، فلما نظروا الى ثبات المسلمين مع قلتهم وما هالهم ممن قتل منهم هم المشركون أن ينهزموا فثبتهم يوقنا وقال ويلكم ما العرب الا مثل الذئاب ان صدمت ولت وان تركت طمعت ، ولما نظر كعب بن ضمرة الى من قتل تحت رايته اغتم لذلك غما شديدا فنزل عن فرسه ولبس درعا من فوق درعه وشد وسطه بمنطقة ومسح وجه فرسه ومنخره وقبله بين عينيه وكان قد شهد معه المواطن وجاهد معه بين يدي رسول الله (ص) وكان قد سماه الهطال . فقال يا هطال هذا يومك المحمود عاقبته فاثبت للقتال في طاعة الله ، ولما استوى على متنه وقف امام المسلمين وجعل ينظر الى القتلى وهو متفكر في امره والراية بيده وهو ينتظر من ابي عبيدة جيشا يقبل عليه او طليعة تنجده فلم ير لذلك اثرا .

وذلك ان أبا عبيدة ما قطعه من المسير اليه الا قدوم أهل حلب عليه ، وذلك أنه لما سار يوقنا الى حرب المسلمين اجتمع مشايخ اهل حلب والروسية بعضهم الى بعض وقالوا يا قوم تعلمون ان هؤلاء العرب قد أطاعهم اهل دين النصرانية والصليب ودخلوا في دينهم ومنهم من رجع الى دينهم ومنهم من قاتلهم . فأما الذي قاتلهم فخسر فهل لكم أن تسيروا الى أمير المؤمنين ونسأله الصلح ونصالح عن مدينتنا وندفع اليه ما أحب من أموالنا ، فان ظفر المسلمون بالبطريق يوقنا نكن نحن آمنين غير وجلين منهم ونقر عينا من بأسهم ، وان صالح يوقنا القوم نكن نحن قد سبقناه الى الصلح ، وان غلب ورجع سالما لم نبلغه ولم نعلمه ، واستوى رأيهم على ذلك فخرج منهم ثلاثون رجلا من رؤسائهم وسلكوا طريقا غير طريق يوقنا حتى أشرفوا على عسكر المسلمين فنادوا الغوث الغوث وكان العرب قد علمت أن الغوث بالرومية هو الامان ، وقال لهم الامير فمن سمعتموه يقولها فلا تعجلوا عليه بالقتل لئلا يطالبكم الله يوم القيامة وعمر بريء منه فكان العرب يعرفونها ، فلما سمع المسلمون منهم ذلك أسرعوا اليهم وأوقفوهم بين يدي ابي عبيدة . فقال خالد : يوشك ان هؤلاء يطلبون الصلح والامان لانفسهم وهم أهل حلب . قال ابو عبيدة ارجو ذلك ان شاء الله تعالى ، وان صالحوني صالحتهم وهو لا يعلم ما أصابه من الحرب الشديد والقتل العتيد وكان قدومهم عليه ليلا والنيران تضرم بين يديه وكان في العسكر رجال قيام في صلاتهم يتلون القرآن فجعل بعضهم يقول لبعض بهذه الفعال ينصرون علينا ، فلما سمع الترجمان مقالهم اخبر ابا عبيدة بما قد تناجوا بينهم . فقال ابو عبيدة انا قوم قد سبقت لنا العناية من ربنا وانا رجال لا نريد من الله ورسوله بدلا ولن نجزع من قتال الاعداء فأخبرهم الترجمان بذلك ، ثم قال لهم من أنتم ؟ قالوا نحن سكان حلب من تجارها وسوقتها ورؤسائها وقد جئنا نطلب منكم الصلح . فقال ابو عبيدة فكيف نصالحكم وقد بلغنا أن بطريقكم قد صمم على قتالنا وقد حصن قلعته وجعل فيها ما يقوته سنين واتخذ الجند وأكثر من ذلك

وما لكم عندنا صلح . فقالوا أيها الامير ان صاحبنا قد خرج من عندنا يريد حربكم وقتالكم . قال ابو عبيدة : ومتى خرج ؟ قالوا خرج سحر ونحن من بعده وسلكنا طريقا غير طريقه وانا نرجو انه هالك لا محالة لانه ركب البغي ولم يرض بالصلح وقد اطاع هواه فقد وقع في شرك الردى ، فلما سمع ابو عبيدة بخروج البطريق خاف على طليعته منه . فقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم هلك والله كعب ومن معه انا لله وانا اليه راجعون ، ثم أطرق الى الارض فقالوا لبعض مشايخ اهل حلب كلم لنا الامير في الصلح قال فكلمه . فقال أبو عبيدة بضجر لا صلح لكم عندنا ، قال فخاف الشيوخ على انفسهم وقالوا انا قد اجتمع عندنا من القرى والرساتيق خلق كثير ، فان صالحتمونا عمرنا لكم الارض وكنا لكم عونا على عمارتها وعشنا في ظلكم أيام عدلكم ، وان انتم أبيتم ذلك فر الناس عنكم وطلبوا أقصى البلاد وشاع الخبر عنكم انكم لا تصالحون فلا يبقى حولكم احد . قال فأعلمه الترجمان بما قالوا فجعل ينظر اليهم واذا قد برز من القوم وصاح رجل احمر الوجه وكان من حكماء الروم فصيحا بلسان عربي . فقال أيها الامير اسمع ما ألقيه اليك من العلم الذي أنزل الله في الصحف على الانبياء . قال أبو عبيدة قل لنسمع فان كان حقا علمناه ، وان كان غير حق لا نسمعه ولا نعمل به وكان اسمه دحداح . فقال أيها الامير ان الله سبحانه وتعالى أنزل على انبيائه يقول : انا الرب الرحيم خلقت الرحمة واسكنتها في قلوب المؤمنين واني لا ارحم من لا يرحم من احسن احسنت اليه ومن تجاوز تجاوزت عنه ومن عفا عفوت عنه ومن طلبني وجدني ومن اغاث ملهوفا امنته يوم القيامة وبسطت له في رزقه وباركت له في عمره واكثرت له أهله ونصرته على عدوه ومن شكر المحسن على احسانه فقد شكرني وانا قد اتيناك ملهوفين خائفين فأقل عثراتنا وآمن روعاتنا واحسن الينا .

قال فبكى أبو عبيدة من قوله وقرأ ـ ان الله يحب المحسنين ـ ثم قال اللهم صل على محمد وعلى جميع الانبياء ، فبهذا والله أرسل نبينا ارسله الله الى جميع الخلق والحمد لله على هدايته لنا ، ثم اقبل على المسلمين وهم حوله وفيهم الرؤساء من المهاجرين والانصار وقال لهم : الحمد لله على هدايته ، ثم قال ان هؤلاء أهل متجر وسوقة وضياع وهم مستضعفون وقد رأينا أن نحسن اليهم ونصالحهم ونطيب قلوبهم ومتى كانت المدينة في أيدينا والسوقة معنا فانهم يميروننا بالعلوفة ويعلموننا بما يعزم عليه عدونا ويكونون عونا لنا عليه . فقال رجل من المسلمين أصلح الله الامير ان مدينة القوم بالقرب من القلعة ولا نأمن أن القوم يدلون على عوراتنا ويخبرون بأحوالنا وما انى القوم ليخدعونا الا ترى الى بطريقهم وقد خرج يبغي قتالنا وحربنا فكيف يطلب هؤلاء الصلح منا ؟ ولا شك انهم مكروا بكعب بن ضمرة ومن معه من المسلمين . فقال ابو عبيدة أحسن ظنك بالله وثق بالله فان الله ينصرنا ولا يسلط علينا عدونا ، فرحم الله من قال خيرا أو صمت واذا اشرط عليهم النصيحة في صلحهم للمسلمين ، ثم

اقبل على القوم وقال اني اريد ان تبذلوا في صلحكم ما بذله اهل قنسرين . فقالوا أيها الامير ان قنسرين أقدم من مدينتنا وأكثر جمعا ومدينتنا خالية من السكان لجور صاحبنا لانه قد أخذ اموالنا وغلاتنا واصعد الكل الى قلعته وما بقي عندنا الا الضعفاء ومن لا مال له وانا نسألك الترفق بنا والعدل فينا والاحسان الينا . فقال ابو عبيدة فما الذي تريدون ان تبذلوا في صلحكم ؟ قالوا نعطي نصف ما أعطى اهل قنسرين فقال ابو عبيدة قد قبلت منكم ذلك على أننا اذا نزلنا بصاحبكم اعنتمونا بالميرة والعلوفة وتبيعون وتشترون في عسكرنا ولا تكتموا عنا خبرا تكونون تعلمونه من اعدائنا ولا تتركوا جاسوسا يتجسس علينا وان رجع اليكم بطريقكم منهزما تمنعوه ان يصل الى القلعة . فقالوا ايها الامير اما قولك هذا أن نمنع البطريق ان لا يصعد الى القلعة فما نجد الى ذلك من سبيل ولا نقول لك ما لا نفعله ، ما لنا به طاقة ولا بمن معه من اعوانه وجنده . قال أبو عبيدة فلا تمنعوه من الصعود الى القلعة وعليكم عهد الله وميثاقه والايمان المؤكدة الغليظة ان لا تقولوا هذا القول وان توفوا لنا كل شرط تم عليكم ، ثم حلفهم بالايمان التي يعرفونها فحلف القوم عن آخرهم وصالحوا عن رجالهم ودوابهم وابنائهم ونسائهم وعبيدهم وسائر اهاليهم وانتهوا على ذلك . فقال أبو عبيدة انكم قد حلفتم وقد قبلنا قولكم وايمانكم فان اصبنا احدا قد اخلف او علم من البطريق علما ولم يعلمنا به فقد وجب عليه القتل ، واخذ ماله وولده حلال لنا لا يطلبنا الله بذمته ، ومتى نقضتم ما شرطنا عليكم فلا عهد لكم عندنا ولا ذمة لكم علينا ولنا عليكم الجزية في العام المقبل . قال سعيد بن عامر التنوفي فرضي اهل حلب بما شرطه عليهم ابو عبيدة واخذوا عهدهم وكتب اسماءهم وعزم القوم على الانصراف الى ديارهم ، وقال لهم ابو عبيدة على رسلكم حتى ابعث معكم من يسير معكم الى مأمنكم فقد وجب علينا حفظكم الى ان تعودوا سالمين الى بلدكم . فقال له الدحداح ايها الامير : اننا نرجع من الطريق الذي جئنا منه وما نريد احدا يسير معنا ، فتركهم أبو عبيدة وبات بقية ليلته قلقا على كعب بن ضمرة ومن معه .

(قال الواقدي) ورجع القوم من ليلتهم الى حلب وانفجر الصبح ولم يصلوا ، فلما اشرفوا على حلب نظر اليهم بعض اعلاج البطريق وهم راجعون فاقبل اليهم وسالهم من اين اقبلتم ؟ وما صنعتم فظنوا انه من اهل حلب فأخبروه بصلحهم مع ابي عبيدة فتركهم ومضى وان القوم استقبلهم اهل حلب فسألوهم فأخبروهم بالصلح ففرحوا بذلك واقبل العلج حتى اشرف على عسكر يوقنا وهو نازل على اصحاب رسول الله (ص) وقد احاط بهم وهو يظن انه قد ملكهم وهو يتوقع الصباح اذ اتى عليه العلج . فقال له ايها البطريق انك غافل عما نزل بك ودهمك . قال له وما ذاك يا ويلك ؟ قال له ان اهل بلدك قد صالحوا العرب وكأنك بهم وقد ملكوا القلعة واخذوا الاموال والنسوان ، فلما سمع يوقنا ما اخبر به العلج خشي على قلعته أن يملكوها في

غيبته فانعكس عليه ما كان يؤمل ان يفوز به من الظفر بأصحاب رسول الله (ص) . وكان قد قتل من المسلمين نيف عن المائتين ، وكعب قد اجهد نفسه في الحرب وايقنوا انهم هالكون لا محالة . قال كعب بن ضمرة : وكنت ذلك اليوم صاحب القوم وانا اثبتهم في الحرب ، والى الحرب انهضهم بهمتي وادفع عنهم بمهجتي فاذا اجحفني القتال وركبني الحرب التجأت الى أصحابي وانا مع ذلك اتوقع فرجا من الله تعالى واترقب راية ابي عبيدة ان تطلع فبعد علينا ذلك ولم تزل الحرب بيننا يوما وليلة الى الصباح من اليوم الثاني ، فأقسم بالله ان كان احدنا ليصلي ولا حصل له زاد يأكله ولا ماء يشربه وانا بين اليأس والرجاء اترقب طريق قنسرين ان تطلع منه علينا راية الاسلام فما ارى لها اثرا ، فرايت عند الصباح جيش العدو وقد اضطرب من جوانبه وقد علت لهم ضجة عظيمة من جميع جوانبه فقلت ما هذا الا مدد لحقهم من البلد او من الملك فالتجأت الى كلمة الشدائد ، وهي لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . قال كعب بن ضمرة ، فوعيش رسول الله (ص) ما قلت الكلمة حتى رايت جيش العدو وقد انكشف عنا على عقبة فقلت الحمد لله حمد الشاكرين واني أظن أن صائحا صاح بهم من السماء فبددهم او ملائكة نزلت عليهم كيوم بدر فلم ار لهم أثرا . قال كعب : فهممت ان اتبعهم فصاح المسلمون الى اين يا كعب أما كفاك ما نحن فيه انزل بنا الى الارض وارض بما نحن فيه من التعب والنصب ونؤدي فرضنا ونريح خيولنا فما رد الله هؤلاء القوم الا بمشيئته وقدرته . قال فنزل كعب وشربوا الماء وأسبغوا الوضوء وصلوا ما فاتهم واكلوا زادهم واستقبلوا الراحة .

(قال الواقدي) وابطأ خبر كعب على ابي عبيدة ، فلما صلى الصبح انفتل من صلاته واقبل على المسلمين وخاطب من بينهم خالدا ، وقال يا ابا سليمان ان اخاك ابا عبيدة ما رقد الليلة غما ، وانه كان يجب علينا الشكر بما فتح الله علينا ، وان نفسي تحدثني بأن الذين مع كعب ابن ضمرة قد قتلوا لما اخبرني هؤلاء الذين يسألون الصلح أن صاحبهم يوقنا قد سار اليهم ولم ار اثرا واظن انه صادف أصحابنا وقتلهم وافناهم عن آخرهم ، فقال خالد . والله اني ما نمت مثلك من الغم عليهم فما الذي عزمت ان تصنع ؟ قال الرحيل ، ثم أمر الناس بالرحيل وارتحلوا ، وساروا يريدون حلب ، وعلى المقدمة خالد بن الوليد ، وعلى الساقة أبو عبيدة ، فما كان غير بعيد حتى اشرف على المسلمين خالد بن الوليد وهم نيام ، وقد أقاموا لهم من الديدبان من يحرسهم ، فلما اشرف عليهم خالد والراية في يده رفعها فوق رأسه ، فلما رآها الديدبان صاح النفير يا انصار الدين فثاروا عن مضاجعهم كأنهم اسد ثائرة واستووا في متون خيولهم واستقبلوا صاحب الراية فعرفوه فصاح بعضهم ببعض : هذه والله راية الاسلام والمسلمين ، فنزل خالد وسلم عليهم واتصلت بهم الساقة واقبل ابو عبيدة فلما نظر كعب بن ضمرة حمد الله واثنى عليه ونظر الى موضع القتلى مطروحين وما كان من

المسلمين وراوهم ، فلما نظروا الى ذلك عاد فرحهم ترحا واسترجعوا وقالوا : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم انا لله وانا اليه راجعون ، وسأل كعبا : كيف قتل اصحابك هؤلاء ومن قتلهم ؟ فأخبره كعب بقتال يوقنا وانه أشرف هو وقومه ، ومن كان معه على الهلاك حتى لم يبق فيهم حركة ونمنا ليلتنا هذه ، فلما اصبحنا واذا هم قد صاحوا وانقلبوا راجعين عنا من غير قتال ، فقال ابو عبيدة فسبحان مسبب الاسباب ليت ابا عبيدة قتل امامهم ولم يقتلوا تحت رايته ، ثم أمر بدفن المسلمين بعدما جمعهم زمرا زمرا وصلى عليهم ودفنوهم بأسلابهم ودمائهم ، ثم قال سمعت رسول الله (ص) يقول « يحشر الله الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله يوم القيامة ودماؤهم على اجسادهم : اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، والنور يتلألأ عليهم ويدخلون الجنة » فلما واروهم في حفرهم قال لخالد : ان كان عدو الله يوقنا رجع الى القوم ، وعلم بصلحهم لنا فيلقون منه تعبا عظيما فالحق بهم فقد وجب علينا أن نذب عنهم لانهم تحت ذمتنا وارتحل ابو عبيدة يريد حلب فلما وصل اليها راى البطريق وجنوده قد احدقوا بأهل البلد وهم يريدون قتلهم ويقال لهم يا ويلكم صالحتم العرب عن انفسكم وصرتم عونا لهم علينا ، قالوا قد فعلنا ذلك وانهم قوم منصورون فقال يا ويلكم ان المسيح لا يرضى بفعلكم فوحق المسيح لاقتلنكم عن آخركم او تخرجون معي الى قتالهم وتنقضون ما بينكم وبينهم من العهد والميثاق فاخبروني بمن بدا بهذا الامر حتى ابدا به قال فلم يطيعوه على ذلك . فقال لعبيده ادخلوا عليهم وائتوني بهم لاقتلنهم ، فقد اخبرني فلان أنه لقيهم وعرفني بهم فهجم العبيد عليهم وجعلوا يقتلونهم على فرشهم وابواب منازلهم فسمع اخوه يوحنا الضجة في البلد وهم في القلعة فنظر الى اخيه وهو يقتل في الناس وقد قتل من اهل البلد ثلثمائة ، فصاح بهم وبأخيه على رسلك لا تفعل فان المسيح يغضب عليك وقد نهانا ان نقتل عدونا فكيف بمن هو على ديننا ؟ . فقال يوقنا لاخيه انهم صالحوا العرب عن البلد وصاروا لهم عونا علينا . فقال يوحنا : وحق المسيح لا ابقت عليك العرب ابدا وان لهم من يقتص منك .

قال : ومن يقتص مني ؟ قال : المسيح يقتلك كما قتلتهم بغير ذنب ، فقال يوقنا : انت حملتهم على ذلك وانت اول من ابطش به ، ثم عمد الى اخيه وقبض عليه وجرد سيفه ليعلوه به ، فلما نظر يوحنا الى اخيه وقد جرد سيفه وعلم انه هالك رفع راسه الى السماء وقال : اللهم اشهد على اني مسلم واني مخالف لدين هؤلاء القوم ، وانا اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، ثم قال لاخيه اصنع ما انت صانع فان كنت قاتلي فاني صائر الى جنات النعيم ، فورد على يوقنا من اسلام اخيه مورد عظيم ومن اهل بلده ومن فزعه من المسلمين فحمله الغيظ على أن يرمي براس اخيه عن جسده والتفت الى اهل البلد فوجدهم يستغيثون فلا يغاثون ويسألونه فلا يجيبهم ولا يكف عنهم فكثر منهم الضجيج وعلت الجلبة ، وقد اخذوا عليهم البلد من سائر

جوانبها ، وقد ايس اهل حلب من نفوسهم ، واذا بالفرج وقد اتى ، والمعونة وقد ادركتهم واشرفت عليهم رايات المسلمين وابطال الموحدين وهم ينادون بكلمة التوحيد ويقدمهم خالد بن الوليد ، فلما نظر خالد الى اهل حلب ولهم ضجيج بالصياح والبكاء قال لابي عبيدة ايها الامير هلك والله أهل صلحك وذمامك كما ذكرت فصاح بجواده وحملة الراية وزعق في القوم وقال افرجوا معاشر الاعلاج عن اهل صلحنا ثم اجاد فيهم الطعن وحمل المسلمون معه ، وبذلوا السيف في الاعلاج ، فلما نظر يوقنا الى ذلك انهزم الى القلعة ومعه بطارقته . قال محصن بن عترة : فرج الله عن أهل البلد بقتل الاعلاج يوم حلب في البلد فمن لجأ الى القلعة سلم ومن طلب الهرب قتلناه قال محصن فكان جملة من قتل يوقنا من أهل صلحنا ، ثلثمائة وقتلنا نحن من أصحابه ثلاثة آلاف أو يزيدون فكانت وقعة عجيبة ففرح المسلمون بها ، فلما قتل من قتل وفرج الله عن اهل حلب ما يجدون أخبروا أبا عبيدة كيف قتل يوقنا أخاه يوحنا وبالقصة جميعها ؟.

(قال الواقدي) فلما سمع يوقنا سيوف المسلمين صعد القلعة هو ومن معه من جنده واستعد للحصار ونصب المجانيق ونشر السلاح على الاسوار وكثر آلة الحصار ، واما اهل حلب فانهم اخرجوا لعساكر المسلمين اربعين اسيرا من البطارقة . فقال لهم ابو عبيدة لاي سبب اسرتم هؤلاء قالوا لانهم من أصحاب يوقنا هربوا الينا فلم نر ان نخفيهم منك لانهم ليسوا منا ولا معنا في الصلح قال فعرض عليهم الاسلام فاسلم منهم سبعة ، واما الباقون فابوا فضرب رقابهم وقال لهم لقد نصحتم في صلحكم وسترون منا ما يسركم وصار لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، وهذا بطريقكم قد تحصن في هذه القلعة فهل تعرفون لها عورة تدلونا عليها حتى نقاتلهم منها فان فتحها الله علينا جعلناها لكم غنيمة مع ما غنمتم من قومكم حتى نكافئكم بفعلكم الجميل فقالوا أيها الامير : والله ما نعرف لها عورة وان يوقنا قد شحن طرقاتها وقطع مسالكها ، ووعر فجاجها ، وهذا ما نعلمه ولولا أنه قتل يوحنا لكان اخذها سهلا لكم . فقال ابو عبيدة وما جرى له ؟ فاخبروه بخبره وحديثه مع اخيه وانه اسلم بعدما رفع يديه الى السماء وما ندري ما قال غير اننا سمعنا طرف كلامه وهو يقول : اللهم اني اشهد أن لا اله الا انت وأن عيسى عبدك ورسولك ومحمدا عبدك ورسولك ختمت به الانبياء وجعلته سيد المرسلين ولا دين اعلى من دينه فاصنع ما انت صانع ، فلما اسلم قتله . قال فلما سمع ابو عبيدة ذلك قال في اي موضع قتله ؟ ثم وثب واخذ خالدا معه وجماعة من المسلمين واتوا الى موضع قتله وهو راس سوق الساعة فوجده ملقى على ظهره وكأنه البدر ليلة تمامه مشيرا باصبعه الى السماء وقد مات واصبعه قائمة فاخذه أبو عبيدة وكفنه وصلى عليه ودفنه في مقام ابراهيم ، فلما واروه اتى الى أبي عبيدة رجل من المسلمين ، فقال أصلح الله الامير انظر الى هؤلاء القوم فان كانوا من حزبنا نصحوا ودلونا على عورات قومهم . فقال لا والله ما يفعلون ذلك أبدا فعندها اقبل أبو عبيدة على المسلمين ، وقال

اشيروا علي رحمكم الله ، فقال له ذلك الرجل وكان اسمه يونس بن عمرو الغساني وكان رجلا بصيرا بالشام وجباله ومدنه وجميع ارضه وعارفا بطريق الشام أصلح الله الامير انظر الى ما أعرفه من البلد وما عندي من الراي .

قال ابو عبيدة : تكلم يا ابن عمرو فانت عندنا ناصح للمسلمين . فقال ان الله قد فتح على يدك الشام وسهله وجبله وحزنه ووعره وقتل طاغية الكفر وحاميته ، وأما بقايا عساكرهم فهي من وراء الدروب وهي جبال وعرة ومضايق والقوم قد رعبت قلوبهم مما أباد الله منهم ، وليس لهم قلوب يقاتلون بها المسلمين فحاصر هذه القلعة وبث الخيل وشن الغارات في بقايا البلاد وشاطىء الفرات فما لهم زاد يقوم بهم فتبسم خالد من كلام الغساني ، وقال هذا والله هو الراي وأنا اشير عليكم بمشورة اخرى : أن نزحف نحو القلعة فلعل الله أن يفتحها في وقتنا هذا فاني اخشى ان طال بنا المقام أن تعطف علينا جيوش الروم من جهة اخرى فيحولوا بينها وبيننا . قال ابو عبيدة : يا أبا سليمان لقد اشرت فاحسنت وقلت فصدقت ، ثم امر ابو عبيدة بالزحف الى القلعة فترجلت الفرسان عن خيولهم وتجردت من ثيابهم واختلط العبيد والسادات وافتخرت القبائل وانبثت العشائر وتجاوبوا بالاشعار وتداعوا بالانساب . قال مسروق بن مالك فوالله ما رايت في قتال حصون الشام يوما كان اعظم من ذلك اليوم لاننا كنا نشبه دوران الحرب كدوران الرحى تهشم ما دارت عليه وقد برزنا اليهم في أول حربهم وتبادرت أبطال اليمن وسادات ربيعة ومضر يتلو بعضهم بعضا وجعلوا يطلبون القلعة من حيث لا طريق عليها . فاذا دنوا منها أخذتهم الحجارة من كل جانب ورموهم بالمجانيق والفرازات ، وكنت أنا وأصحابي اقرب الناس الى الارض ففزعنا راجعين على اعقابنا يدفع بعضنا بعضا لا نظن أن ينجو منا احد فوقعت الخذلة في المسلمين وقد شدخت منا الحجارة خلقا كثيرا ، فقتلت بعضنا وبعضنا رمته فكان من جملة من قتل يوم حصار قلعة حلب بالحجارة عامر بن الاصلع الربعي ، ومالك بن خزعل الربعي وحسان بن حنظلة ومروان بن عبدالله وسليمان بن فارغ العامري وعطاف بن سالم الكلابي وسراقة بن مسلم بن عوف العدوي ورجال من اهل اليمن من آل عامر ومن بني كلاب وغيرهم وسبعة من بني عبدالله . قال مرزوق بن مالك فلقد كنا نرى بعد ذلك بسنين خلقا كثيرة عرجا من يوم حصار قلعة حلب فعندها نصب ابو عبيدة رايته خارج المدينة وجعل ينادي بالمسلمين فاجتمعوا انيه . فقال أيها الناس انكم قاتلتم اليوم على غرة فادفنوا الشهداء وشدوا كل من اصابه جرح فانتدب المسلمون الى ذلك وفرح الروم بهزيمة المسلمين وما قد نزل بهم . فقال لهم يوقنا ان العرب لا تدنوا من القلعة بعد هذا اليوم أبدا ، وان حاصرونا فلاكيدنهم ولاهبطن الى عسكرهم .

(قال الواقدي) ولقد حدثني عبدالله بن سليمان الدينوري وكان ممن نقل أخبار الشام وفتوحه عن ثقات المسلمين . قال حدثني عمرو : أن يوقنا انتخب الفين من خيار

بطارقته وابطاله ، وقال لهم : انزلوا مسرعين وليحذر بعضكم بعضا وميلوا على طرف عسكر المسلمين اذا خمدت نيرانهم واغتنموا غرتهم وامر عليهم وزيره ، فنزلوا ليلا من القلعة وجعلوا يدورون حول العسكر الى ان اتوا الى مكان ، وقد خمدت نيرانهم ، وكان القوم بادية من اهل اليمن مثل مراد وبني كلاب وعبيدهم . قال عبدالله بن صفوان البكي : كنا تلك الليلة غادين من عدونا آمنين لكثرتنا وقد غفل حرسنا ، فلم نشعر الا وجماعة الروم قد هجموا علينا وهم ينادون بلغتهم وقد اعلنوا التبهرج بزينتهم فلا نعلم ما يقولون ووضعوا السيف فينا فكان النجيب منا من استوى على جواده وطلب النجاة وهو لا يعلم من أين هي ولا كيف يتخلص ، وقد وقعت الجندلة في ابطال المسلمين وعساكرهم والقوم ينادون النفير النفير دهينا ورب الكعبة ، وهم يسرعون الى خيمة ابي عبيدة وينادون أيها الامير كبسنا يوقنا ، فعندها ركب الامير في بعض الرجال وجعل يدور حول العسكر فنظر صاحب الروم الى العرب وقد لحقته ، فصاح بأصحابه ، من كان اخذ شيئا فليتركه ويطلب نجاة نفسه . قال عبدالله بن صفوان : أخذوا مَن رجالنا نحو خمسين رجلا من أخلاط الناس واكثرهم من ربيعة ومضر ومضوا يجمع بعضهم بعضا ويطلبون القلعة ، فلما نظر خالد الى ذلك حمل في اصحابه واقتطع من الروم زهاء من مائة رجل ووضع فيهم السيف فقتلهم عن آخرهم فلما وصل اصحاب يوقنا الى القلعة فتح لهم وأدخلهم ، فلما اضاء الفجر وطلعت الشمس دعا يوقنا بالمسلمين الخمسين رجلا وهم موثقون بالحبال ، فقربهم الى موضع ينظرهم المسلمون ويسمعون اصواتهم وهم يقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله حتى قتلوا عن آخرهم ، فلما نظر أبو عبيدة الى ذلك أمر مناديا ينادي في عسكره عزيمة من الله ورسوله ومن الامير ابي عبيدة : على كل رجل لا يكل حرسه الى غيره ، ولكن كل رجل منكم حارس نفسه ، ولا يتكلم بعضكم مع بعض . قال فأخذ القوم حذرهم واعدوا حرسهم ، واقبل يوقنا يدبر امره في مكيدة أخرى ليكيد بها المسلمين اذ علم أنهم محاصرون ومع ذلك جواسيسه تأتيه بالاخبار في الليل والنهار وكان اعظم جواسيسه من متنصرة العرب لانهم كانوا يحسنون لسان الرومية .

قال فبينما يوقنا ذات يوم جالس في قلعته والبطارقة من حوله وقد اضر بهم الحصار وأشد ما كان عليهم من أهل المدينة لانهم لا ينظرون الى رجل من اصحابه يعرفونه الا اخذوه وسلموه للمسلمين ، واذا بجاسوس قد اقبل وهو من عيونه ، فقال له : أيها السيد ان أردت أن تكيد العرب فهذا وقتك ، فقال له يوقنا وكيف ذلك ؟ وما الذي عندك من الخبر ؟ قال ان العلافة منهم قد خرجوا الى وادي بطنان وقد صالحوا أهله وعلوفة العرب وميرتهم منه ، وقد رأيت منهم جمالا وبغالا ومعهم طائفة منهم وعليهم القمصان الخلقة وبأيديهم الرماح المشبعة وهم يقصدون القرى في طلب الميرة وهم قليلون وليس هم في كثرة . فلما سمع يوقنا ذلك من جاسوسه ، اختار الفا من

اصحابه وقال : لهم اصلحوا شأنكم فوحق المسيح لاضيقن على العرب مسالكهم ولاقطعن عليهم طرقاتهم . فلما اقبل الليل فتح لهم الباب ، وسار الجاسوس امامهم حتى استقاموا على الجادة وجعلوا يسيرون تحت جنح الليل فبينما هم كذلك ، اذ هم براع ومعه سرح من البقر يريد بها بلده ، وقد خرج بها من بلد آخر وهو يسير بها سيرا عنيفا ، فلما نظروا اليه أسرعوا نحوه وقالوا احسست بأحد من العرب قد عبر عليك قال نعم والشمس عند الغروب قد اصفرت وهم نحو مائة رجل على خيول وهم مسرعون ومعهم جمال وبغال وهم يريدون الميرة من هذا الوادي من الذين هم في صلحهم ولسنا نخاف منهم ، فقال له المقدم عليهم الآن قد القيت علينا من صلح أهل هذا الوادي ما لم يكن عندنا منه خبر فبحق المسيح اخبرنا بأي طريق ذهبت العرب . فقال من ههنا وأومأ بيده الى الشرق فصار البطريق بمن معه ولم يعرفوا أن صاحب البقر منهم حتى اذا قرب الصبح أشرفوا على خيل المسلمين وكان الامير عليها يقال له مناوش ، فلما نظر مناوش الى خيل الروم قد اقبلت اقبل على اصحابه وقال يا بني العرب هذا بطريق من بطارقة الروم قد اقبل الينا فدونكم اياه والجهاد والصبر على الشدة تنالوا الجنة ثم حمل وحمل معه أصحابه فحملت عليهم الروم فثبت لهم المسلمون واقتتلوا قتالا شديدا وقتل مناوش بن الضحاك والفطريف بن ثابت ومنيع بن ثابت ومنيع بن عاصم وكهلان بن مرة فقتل من المسلمين ثلاثون رجلا كلهم من طيء وانهزم الباقون وملكت الروم ما كان مع المسلمين من الابل والبغال وعاد المسلمون منهزمين فعند ذلك اقبل البطريق على أصحابه ، وقال ارموا الاحمال عن هذه الدواب واعقروها وسوقوا بقية الدواب بما عليها فانها لنا ميرة واطلبوا الجبل واختفوا عن أعين العرب والا ففي هذه الساعة تطلع علينا خيول العرب كالرياح تهزمكم فأكمنوا حتى اذا جاء الليل طلبنا القلعة واعتصمنا بها ففعلوا ذلك وقتلوا الجمال وساقوا الدواب والتجؤا في الجبل الى قرية فأقاموا بقية يومهم يرقبون الليل ليرجعوا الى القلعة واقاموا لهم ديدبانا . قال عوف صباح الطائي كنت في الخيل لما قتل عمي مناوش ، ونحن في قلة وقد دهمتنا الخيل ، فلما نظرنا الى كثرة الروم وشدة بأسهم مع قلتنا اخذنا على انفسنا واتينا المسلمين فبادر الينا أبو عبيدة ، وقال لنا ما وراءكم قلنا : الحرب والطعان ، قتل منا مناوش وقتل معه خلق كثير من فرساننا واخذ ما كان معنا من الزاد والدواب .

فقال أبو عبيدة وما الذي دهاكم وقد حاصر الله الروم وما يجسر احد أن يخرج منهم قالوا لا علم لنا غير انا رأينا بطريقا عظيما قد اشرف علينا وهو في عدة حصنة وخيول كثيرة مستعدين للقتال لا نعلم عددهم ولا من اين أتى مددهم فهجموا علينا ونحن سائرون فأصيب اميرنا وقتل رجالنا واخذوا ما كان معنا من الدواب والزاد فلما سمع أبو عبيدة ذلك دعا بخالد بن الوليد اليه وقال يا ابا سليمان انت لها والمعد لمثلها وانا

(١٧)

واثق بالله ثم بك مع اني استخير الله في جميع اموري ، سر على بركة الله تعالى وخذ معك من المسلمين من اردت لعلك ان تقفو القوم وتعاني موضع اثر الوقعة دتتبع آثارهم عسى الله ان يوقعنا بهم واطلبهم اينما كانوا وحيث ساروا لعلك تأخذ بثار المسلمين ، واعلم اننا صالحنا اهل الوادي واننا لا ننقض عهدنا ولا نحول عن قولنا الا ان يكون القوم قد مكروا بنا فنجد الى قتالهم سبيلا فاتق الله فيهم ، سر يرحمك الله . قال فأسرع خالد الى خيمته ولبس سلاحه واستوى على متن جواده وهم بالمسير وحده . فقال له ابو عبيدة الى اين يا أبا سليمان ؟ قال له اسارع الى ما امرتني به . فقال له خذ من اردت معك من المسلمين ، فقال خالد انا امضي وحدي وما اريد احدا فقال له ابو عبيدة كيف تمضي وحدك وعدوك في عدد كثير ؟ قال خالد لو كانوا في الف او الفين القاهم بمعونة الله تعالى . فقال له ابو عبيدة انك كذلك ولكن خذ معك رجالا قال فاخذ ضرارا وامثاله وسار حتى اتى الى موضع الوقعة فراى القتلى مطروحين وراى حولهم اهل الوادي وهم يبكون خوفا من المسلمين على انفسهم وذراريهم وان العرب تطالبهم بهم ، فلما طلع عليهم خالد ومن معه كأنهم شعلة نار تصارخ القوم في وجهه والقوا انفسهم بين يديه ، فقال لهم خالد من هؤلاء القوم الذين قتلوا أصحابنا ؟ قالوا انا نحن بريئون من دماء أصحابكم ونحن في صلحكم فاستحلفهم خالد انهم لا يعلمون من قتلهم فحلفوا له فقال لهم من الذي اوقع بأصحابي ؟ فقالوا بطريق بعثه يوقنا من القلعة ومعه الف فارس من أشد قومه وان لهم في عسكركم عيونا يخبرونه بما انتم فيه كل ساعة ، فقال لهم وفي اي طريق قصدوا . قالوا في هذا الطريق ، فقال خالد أو ما حلفتم ان ما عندكم علم بهم ، قالوا هذا الذي يخبرك من اهل حلب قد اتى يشتري طعاما ولولا انك اقبلت في هذه الساعة ما كنا عرفنا من قتلهم ، فقال له خالد اعلى هذا الطريق اخذوا . فقال له الرجل نعم ورايتهم يطلبون الجبل ، فقال خالد لاصحابه ان القوم علموا انهم لا بد لهم من خيل تطلبهم وتتبعهم وقد عدلوا عن طريقنا حتى اذا هجم عليهم الليل رجعوا الى قلعتهم فعولوا على المسير في طلبهم . ثم انهم ارخوا الاعنة وخالد يقدمهم وقد اخذ معه رجالا من المعاهدين يقفون بهم أثر الطريق والقوم ، فلما حصلوا على الطريق . قال خالد لواحد من المعاهدين الهم طريق الى قلعتهم غير هذا ؟

قال : نعم ولكن كن ههنا فانك تفوز بهم ان شاء الله تعالى فنزل خالد ومن معه في الوادي ، وهم يرقبون الطريق فما مضى من الليل الا قليل اذ سمع وقع حوافر الخيل والبطريق أمامهم والخيل من ورائه وهو يزجرهم ويحثهم على المسير ، فلما توسطوهم صاح خالد صيحة شديدة ووثب خالد كأنه الاسد وخرج عليهم هو واصحابه فما كان قصد خالد غير البطريق وظن أنه يوقنا فضربه ضربة رماه نصفين وقد وضعوا السيف فيهم وجعلوا يطلبونهم وهم في الهرب فلم ينج منهم الا من اطال الله اجله وحازوا جميع ما معهم واتوا براس البطريق الى أبي عبيدة على راس رمح فوجدوه

متلهفا على قدومهم ، فلما اشرف خالد بمن معه من الاسارى والاسلاب والدواب هللوا وكبروا . فأجابهم العسكر بالتهليل والتكبير . قال واتى خالد ومن معه بالراس والاسلاب والاسارى ، فكانوا ازيد من ثلثمائة اسير ورؤوس القتلى سبعمائة فعرضوا عليهم الاسلام فأبوا ، وقالوا نحن نعطيك الفداء . فقال خالد نضرب رقابهم قبال القلعة لنوهن بذلك عدو الله قال فضربت رقابهم قبال القلعة . فقال خالد انا كنا نظن انا محاصرون القوم واذا نحن بخلاف ذلك وهم يرقبون غفلتنا وينتظرون غرتنا ، وقد قتلوا جمالنا والدواب والصواب ان نجعل عليهم حرسا في كل طريق يمكننا ولا نمكنهم ان يخرجوا من قلعتهم ونضيق عليهم ما استطعنا . قال ابو عبيدة جزاك الله خيرا يا ابا سليمان ما ابصرك بالامور ، فلما كان من الغد وصلى ابو عبيدة بالناس صلاة الفجر دعا بعبد الرحمن بن ابي بكر وبضرار بن الازور وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وقيس بن هبيرة وميسرة بن مسروق ففرقهم حول القلعة ومعهم من اختاروا وامرهم ان يمسكوا الطريق والمسالك على يوقنا حتى لو طار طائر منها أو اليها اقتنصوه واقام القوم على ذلك مدة ، فلما طال عليهم ذلك ضجر ابو عبيدة لطول مقامه فامر الناس بالرحيل عنهم وعزم أن يتباعد عنهم : أي عن القلعة لعل أن يجد منهم غفلة فينتهزها .
قال فبعد عن المدينة فنزل بقرية بقرب منها يقال لها النيرب وهو يريد حيلة يصل بها الى يوقنا . قال ويوقنا لا ينزل من القلعة ولا يفتح بابها ، ففكر ابو عبيدة غاية الفكرة ، وقال لخالد يا ابا سليمان ان جواسيس عدو الله تكشف اخبارنا وتوصلها اليه وتخوفه فاني اقسم عليك يا ابا سليمان الا ما جلت في عسكرنا جولة واختبرت امر الناس فلعلك تقع باحد من جواسيسه . قال فركب خالد وامر الناس أن يدوروا في عسكرهم وان يقبضوا على كل من انكروه . قال فبينما خالد في طوافه اذ نظر الى رجل من العرب المتنصرة وبين يديه عباءة يقلبها فجعل خالد يرقبه فاستراب الرجل منه فناداه ، وقال من اي الناس انت يا اخا العرب ؟ . قال انا رجل من اليمن . قال من ايها ؟ قال فاراد ان يقول وينتمي الى غير قبيلته فجرى الحق على لسانه ؟ فقال انا من غسان ، فلما سمع خالد كلامه قبض عليه ، وقال له يا عدو الله انت عين علينا لعدونا .
قال ما انا متنصر وانا مسلم فاتى به الى ابي عبيدة ، وقال ايها الامير قد رابني امر هذا لانني ما رأيته قط الا يومي هذا وقد ذكر انه من غسان ولا شك انه من عباد الصليب .
فقال ابو عبيدة اختبره يا ابا سليمان قال وكيف اختبره ؟ قال اختبره بالقرآن والصلاة، فان اجابك والا فهو كافر. فقال له خالد : فصل ركعتين واجهر بالقراءة فيهما .فلم يدر ما يقول . فقال له خالد انت يا عدو الله عين علينا . ثم استخبره عن شأنه فاخبره واقر انه عين عليهم ، فقال له خالد انت وحدك ؟ قال لا ولكنا ثلاثة انا احدهم والاثنان قد ذهبا الى القلعة ليخبرا يوقنا بخبركم ، وانا قد تخلفت لانظر ما يكون من امركم ، فقال ابو عبيدة اخبرني ايما احب اليك : القتل أو الاسلام فليس بعدهما شيء .
فقال الغساني انا اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله ، ثم رجع

ابو عبيدة الى حلب وما زالت القلعة محاصرة اربعة اشهر ، وقيل خمسة اشهر ، وابطأ خبر أبي عبيدة على امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فكتب الى أبي عبيدة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله ابي عبيدة سلام عليك ، فاني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه محمد (ص) ، واعلم يا ابا عبيدة ان بانقطاع كتابك وابطاء خبرك يكثر قلقي ويضني جسدي على اخواني المسلمين وما لي ليل ولا نهار الا وقلبي عندكم ومعكم . فاذا لم يأت منك خبر ولا رسول فان عقلي طائر وفكري حائر ، وكأنك لا تكتب الي الا بالفتح او الغنيمة ، واعلم يا ابا عبيدة انني وان غائبا عنكم فان همتي عندكم واني داعي لكم ، وقلقي عليكم كقلق الوالدة الشفوقة على ولدها ، فاذا قرات كتابي هذا فكن للاسلام والمسلمين عضدا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعث الكتاب الى ابي عبيدة . فلما ورد عليه وقراه عليهم . قال معاشر المسلمين : اذا كان امير المؤمنين داعيا لكم وراضيا عنكم في فعالكم فان الله ينصركم على عدوكم . ثم كتب جواب الكتاب يقول : بسم الله الرحمن الرحيم : الى ابي عبدالله امير المؤمنين عمر بن الخطاب ، من عامله بالشام أبي عبيدة : سلام عليك ، واني أحمد الله تعالى واصلي على نبيه ، وبعد يا امير المؤمنين فان الله تعالى له الحمد قد فتح على ايدينا قنسرين ، وقد شننا الغارة على العواصم وقد فتح الله علينا مدينة حلب صلحا ، وقد عصت علينا قلعتها وبها خلق كثير مع بطريقها يوقنا ، وقد كادنا مرارا وذكر له ما جرى له مع اخيه يوحنا وانه قتل منا رجالا ورزقهم الله الشهادة على يديه . ثم انه ذكر له من قتل والله تعالى من ورائه بالمرصاد ، وقد اردنا الحيلة عليه فلم نقدر واردت الرحيل عنه وعن محاصرته الى البلاد التي بين حلب وانطاكية ، وانا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ، وبعث الكتاب مع عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فسارا الى ان اخذا في طريق هيشت العتيقة وجدا في السير حتى قطعا ارض الجفار الى صكاصكة وهي حصن العرب قريبة من تيما ، فلما وصلا اليها عارضهما فارس وعليه درع سابغ وعلى رأسه بيضة تلمع ، وهو معتقل برمح كأنه قد برزُ الى عدوه او قاصد الى قتال . فلما نظر اليهما قصدهما . فقال عبدالله بن قرط لجعدة ابن جبير : يا ويلك اما ترى هذا الفارس ، وقد عارضنا في مثل هذا المكان على مثل هذه الحالة فقال له جعدة : وما عسى أن نتخوف من فرسان العرب ورجالها ، وليس في هذا الموضع من رفع عمودا او ضرب وتدا الا واصبح معنا ودخل تحت طاعتنا وفي شريعتنا ، فلما قرب الفارس منا سلم علينا ، وقال من أين اقبلتما والى اين قاصدان ؟ فقالا له نحن رسولان من الامير ابي عبيدة الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فمن انت أيها الرجل ؟ قال انا هلال بن بدر الطائي . فقالا له ما لنا نرى عليك آلة الحرب . قال اني خرجت في طوائف من قومي وجماعة من اصحابي نريد الشام للجهاد ، لكتاب ورد علينا من عمر بن الخطاب . فلما رايتكما في بطن الوادي قصدتكما لانظر ما قصتكما ، ولي أصحاب من ورائي مقبلون .

ثم سلم عليهما وولى فركضا مطيهما وسارا واذا بالخيل قد اشرفت ، والابل قد اقبلت تتبع هلال بن بدر ارسالا يتبع بعضها بعضا الى أن لحقوه فأخبرهم بقصة صاحبي رسول الله (ص) ففرحوا بذلك وساروا يريدون الشام ، وأما عبدالله بن قرط وجعدة بن جبير فانهما وصلا المدينة ودخلا المسجد وسلما على عمر بن الخطاب وعلى المسلمين ودفعا له الكتاب ، فلما قراه استبشر ورفع كفيه الى السماء ، وقال اللهم اكف الناس شر كل ذي شر . ثم أمر مناديا في الناس الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس قرا عليهم كتاب ابي عبيدة ، فلما قراه قدم عليه من حضرموت واقاصي اليمن من همدان ومدان وسبا ومارب يسألونه أن ينفذهم الى الشام ، فقال لهم عمر في كم انتم بارك الله فيكم ؟ قالوا نحن زهاء من اربعمائة فارس وثلثمائة مطية مردفين ومعنا اناس يمشون على اقدامهم لا ركاب لهم ، فان كان عند امير المؤمنين ما يحملهم عليه حتى نصل الى عدونا ، فقال لهم عمر وكم يبلغ الرجال الذين معكم ، قالوا اربعين ومائة رجل ، فقال لهم عرب أو موال ، قالوا عرب وموال اذن لهم ساداتهم في الجهاد والمسير الى الاعداء ، فعندها دعا عمر بعبدالله ابنه (رض) ، وقال امض الى مال الصدقات فأت القوم بسبعين راحلة ليعتقبوا عليها ويحملوا زادهم وميرتهم على ظهورها فأسرع عبدالله بن عمر وأتى بسبعين بعيرا وسلمها اليهم ، وقال لهم جدوا رحمكم الله الى اخوانكم المسلمين وأسرعوا الى حرب عدوكم ، ثم كتب الى ابي عبيدة . اما بعد فقد ورد علي كتابك مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح والنصر على اعدائكم ومن قتل من الشهداء ، وأما ما ذكرته من انصرافك الى البلاد التي بين حلب وانطاكية وتترك القلعة ومن فيها فهذا راي غير صواب تترك رجلا قد دنوت من دياره وملكت مدينته ، ثم ترحل فيبلغ الى جميع النواحي انك لم تقدر عليه ولم تصل اليه فيضعف ذكرك ويعلو ذكره ويطمع من يطمع ويجترىء عليك اجناد الروم خاصتهم وعامتهم وترجع اليه الجواسيس وتكاتب ملوكها في امرك فاياك أن تبرح عن مجاهدته حتى يقتله الله أو يسلم اليك ان شاء الله تعالى أو يحكم الله ، وهو خير الحاكمين وبث الخيل في السهل وألوعر والضيق والسعة ... واكناف الجبال والاودية ... وشن الغارات في حدود المفازات ، ومن صالحكم منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى المسلمين ، وقد انفذت كتابي اليك ومعه عصبة من حضرموت وغيرهم وأهل مشايخ اليمن ممن وهب نفسه لله تعالى ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال فرسان ورجال والمدد يأتيك متواترا ان شاء الله تعالى والسلام . وختم الكتاب وسلمه لعبدالله بن قرط وجعدة ، وجعل القوم يجدون في سيرهم ومع ذلك يسألون عبدالله بن قرط وصاحبه عن بلاد الشام وفتح البلاد ، وقتال الروم الى أن سألوهما عن مستقر العسكر ، فقال لهم عبدالله : ان جميع المسلمين وأميرهم محاصرون بقلعة حلب وفيها عظيم من عظماء الروم ومعه اعلاج من أصحابه ، وقد تحصنوا في رأس قلعته ، فقالوا له يا ابن قرط ما لهؤلاء لا يدخلون في جملة من صالح من أصحابهم ، فقال لهم يا معاشر

العرب انا لم نر بعد وقعة اليرموك رجالا اشجع من هذا فلقد قتل رجالا وجندل ابطالا وانه ليغير على اطراف العسكر في وقت صلاتهم فيقتل رجالهم وينهب اموالهم ويرجع الى قلعته وربما انه يستتر في سواد الليل في طلب العلافة فيقع بهم فيأمر بهم ويأخذ دوابهم وجميع زادهم وميرتهم ، ثم يعود الى قلعته ونحن لا نعلم به ، وان المسلمين له محاصرون ومنه خائفون حذرون .

قال وكان فيمن سمع كلامه وفهمه مولى من موالي بني طريف من ملوك كندة ويقال له دامس ويكنى بأبي الاهوال مشهور باسمه وكنيته وكان اسود كثير السواد بصاصا كأنه النخلة السحوق اذا ركب الفرس العالي من الخيل تخط رجلاه بالارض ، وان ركب البعير العالي تقارب ركبتاه رجلي البعير وكان فارسا شجاعا قويا قد شاع ذكره ونما امره وعلا قدره في بلاد كندة واودية حضرموت وجبال مهرة وارض الشحر وقد اخاف البادية ونهب اموال الحاضرة ، وكان مع ذلك لا تدركه الخيل العتاة ، وكان اذا ادركته العرب في باديتها تعجبت من صولته وشجاعته وبراعته ، فلما سمع دامس أبو الهول بذكر يوقنا وما فعل بالمسلمين كاد ان يتمزق غيظا وحنقا ، وقال لعبدالله ابن قرط ابشر يا اخا العرب فوالله لاجتهدن في أن يخذله الله على يدي ، فلما سمع عبدالله كلامه جعل ينظر اليه شزرا ، وقال : يا ابن السوداء لقد حدثتك نفسك آمالا لا تبلغها واشياء لا تدركها يا ويلك ألم تعلم ان فرسان المسلمين وابطال الموحدين بأجمعهم له محاصرون ولاصحابه محاربون ومع ذلك لا يقدر أحد له على شر وقد كاد ملوكا وقهرها . فلما سمع دامس كلام عبدالله بن قرط غضب ، وقال والله يا عبدالله لولا ما يلزمني لك من اخوة الاسلام لبدات بك قبله فاحذر أن تزدري بالرجال وان احببت أن تعرفني فسل عني من حضر من اهلي وما قد تقدم من فعلي الذي من ذكره تطيش العقول وتضيق الصدور كم من عساكر قتلتها وجموع فرقتها ومحافل بددتها وغارات شننتها ولا يضام لي جار ولا يلحقني عار وبحمد الله انا فارس كرار غير فرار . ثم تركه مغضبا وسار امام الناس وان قوما من العرب قالوا لعبدالله بن قرط يا اخا العرب ارفق بنفسك فانك وايم الله تخاطب رجلا يقرب اليه البعيد ويهون عليه الصعب الشديد وانه لجليد فريد لا تهوله الرجال ولا تفزعه الابطال ان كان في حرب كان في اولها لا يدركه من طلب ولا يفوته من هرب ، فقال عبدالله لقد كثر وصفكم واطنبتكم في ذكركم وارجو ان يجعل الله فيه خيرا وفرجا للمسلمين ، قال ثم اخذ القوم في جد السير حتى قدموا حلب الى ابي عبيدة ، وهو منازل اهل قلعة حلب ومحاصرها وقد احاط المسلمون بالقلعة من كل جانب ، فلما اشرف القوم عليهم اخذوا في زينتهم وجردوا سيوفهم واشهروا سلاحهم ونشروا راياتهم وكبروا بأجمعهم وصلوا على نبيهم . فأجابهم أهل العسكر بالتكبير من كل جانب واستقبلهم أبو عبيدة وسلم عليهم وسلموا عليه ونزل كل قوم عند بني عمهم وعشيرتهم ، ويوقنا ما زال في كل ليلة ينشط اليهم برجاله ويناوشهم وذلك انه كان لا يقاتلهم الا قليلا ولا يظهر من القلعة نهارا ابدا وكان

اكثر خروجه في وقت خروج الناس ، فلما بات المسلمون القادمون في تلك الليلة ونظرت طيء وسنبيس ونبهان وكندة وحضرموت الى شدة الحرس وعظم حرسهم وحذرهم اقبل دامس ابو الهول على اهله الذين نزل عليهم من طريف وكندة ، فقال لهم دامس والله ما انتم محاصرون لا محالة . فقالوا له وكيف ذلك . قال لان العدو في راس قلعة وانتم قدام العدو من الارض لقربكم ولا عسكر بازائكم تخافونه فما هذا الخوف ؟ . قالوا يا ابا الهول ان صاحب هذه القلعة علج ميشوم يرتقب غفلتنا ويغير على اطرافنا ويأتينا من مأمننا .فبينما دامس يخاطب القوم واذا بالضجة قد وقعت في طرف عسكر المسلمين ولها جلبة عظيمة فوقف دامس منتضيا حسامه متنكبا حجفته وطلب الناحية التي سمع منها الصوت حتى بلغ اليها واذا بيوقنا في خمسمائة رجل ابطال انجاد وليوث شداد وقد وجد غرة من القوم ، فلما نظر دامس الى الروم وقع في وسطهم ، وجعل يقول :

انا ابو الهول واسمي دامس	اكر في جمعهم مداعس
ليث هزبر بطل ممارس	مدمر كل عدو ناكس

قال وجعل يضرب في اعراضهم بسيفه ومعه طائفة من بني طريف من شجعانهم وفرسانهم ، فلما نظر يوقنا ما نزل به تقهقر الى ورائه ، وقد قتل من رجاله مائتان ودامس يكر عليهم ويتبعهم الى راس درب القلعة وكندة من ورائه فناداهم ابو عبيدة : عزيمة مني عليكم ان لا يتبعهم منكم احد في ظلمة هذا الليل ، فقال الناس يا ابا الهول ان الامير يعزم علينا وعليك بالرجوع فارجع رحمك الله فرجع دامس الى رحله ، وتراجع القوم الى رحالهم ، وقد ابليت كندة بلاء حسنا والناس قد خرجوا فلما اصبح الناس اجتمعوا للصلاة مع ابي عبيدة ، فلما قضيت الصلاة تفرقوا ولم يبق الا نفر يسير من امراء المسلمين فجعلوا يذكرون ليلتهم . فقال خالد اصلح الله الامير لقد رايت كندة وقد ابليت بلاء حسنا ، وقد تقدمت رجالها وثبتت ابطالها ، وما زالت تضرب حتى ازالت عنا جامية الكفر والعدو ، فقال ابو عبيدة : صدقت والله يا ابا سليمان ، والله لقد اسعدت الناس كندة بثباتها والله لقد سمعتهم يقولون : احسن دامس واجاد ابو الهول ، فقام الى ابي عبيدة رجل من رؤساء كندة يقال له سراقة بن مرداس بن يكرب ، فقال اصلح الله الامير دامس هو ابو الهول ، وهو مولى طريف قدم مع هذا الوفد الذي ورد بالامس ، وهو رجل يفجر ويهول على الابطال ويفضح الشجعان ويذل الاقران ، لا يهوله جمع ولا يصعب عليه غارة ، فقال ابو عبيدة لخالد اما تسمع كلام سراقة في عبدهم دامس ، فقال خالد يوشك أن يكون صادقا في قوله ، ولقد سمعت بذكره وحديثه وشجاعته وبراعته ، ولقد اخبرني رجل يقال له النعمان بن عشيرة المهري ان دامسا هذا اغار وحده وهم على ساحل البحر في سبعين رجلا من اهل مهرة ، وكان دامس هذا يطلبهم لاجل ثار كان له عند القوم ، وكانوا يخافون منه ومن شره وباسه ،

فكانوا مع ذلك يفتدون بأموالهم ودوابهم ويهربون الى أطراف الجبال وسواحل البحر حذرا منه ، وكان مع ذلك يسأل عن أخبارهم ويطلع على آثارهم ، فلما أصبح عند نزولهم على ساحل البحر استصرخ قومه للغزو فتتشاغلوا ولم ينفر منهم أحد معه ؛ وكان خبيرا بالبلاد سهلها ورعرعها برها وبحرها ، فلما أيس من قومه دخل الى خبايته واحتمل رزمة على عاتقه فأتاه أناس من قومه وقالوا له : الى أين تريد وما هذا الذي معك ؟ ، فقال يا قوم أنا أريدُ الغارة على بني الشعر وآخذ بالثأر وأكشف العار ، فقال له مشايخ الحي ما راينا اعجب من امرك وانت تعلم أن بني الشعر سبعون ، فمن يريد أن يغير عليهم وحده ويأخذ منهم بالثأر ؟ وما سمعنا بهذا ابدا ، وانا نرى أن تقصد جواد ، وكانت جواد هذه أمة لبني حياس من الحضارمة ، وكانت بقرية من قرى حضرموت يقال لها أسفل ، وكان دامس هذا يهواها وكل ما يأخذه من الاموال والخيل والابل يدفعه اليها ولا يعظم عليه كثرته ، وكان لا يرضى لها بالقليل ولا يشبع لها بالكثير فظن القوم انه مضى اليها وقصد نحوها بحملته التي معه من رزمته ، فقال لهم وايم الله اني بطل فما تظنون ؟ وسوف تعلمون أن ما أفعله الحق واليقين . قال فرجع قومه وتركوه وسار الى أن اتى الى مرعى قومه فأخذ راحلته من ابلهم ورحلها وأخذ سيفه وحجفته ، وجعل الرزمة تحته وسار بقية يومه وليلته ، حتى اذ كان آخر الليل عطف بالراحلة الى بعض الاودية فأبركها وحل رحلها وعقلها ودورها ترعى معقولة ، ثم كمن بين حجرين ، وكان قريبا من القوم ويخاف أن يدوروا به ، فلما مضى عليه نهاره واقبل ليله اتى الى راحلته وأبركها ورحلها واستوى في كورها ، وسار حتى أشرف على نار القوم فعدل بناقته حتى أشرف على الحي ، وكان في ذلك الشرف شجر من الطلح فأبرك ناقته وزم شدقها لئلا ترغو فيسمع القوم رغاءها . ثم عمد الى رزمته فحلها واستخرج منها الثياب واتى الى تلك الشجرة ، فجعل على كل عود منها مثل عمامة الرجل ، ويأتي بالعود ينصبه ويسنده بالحجارة ويطرح عليه الازار ، ولم يزل حتى أقام اربعين عودا على هذه الصفة ، وجعل عليه حلة حمراء ارجوانية وهبط من ذلك الشرف الذي عليه الثياب وقصد الحي ودار حول بيوتهم وتفكر في أمره ، وكيف يحتال وقد مضى اكثر الليل . ثم صبر الى أن طلع الفجر وسار نحو الساحل ، فلما قرب منهم صاح فيهم وقال : دنا أجلكم أنا أبو الهول ولقد أصبحتم بالويل وأخذتم من البر والبحر ، وجعل ينادي يا لثار طريف يا آل طريف يا آل كندة ، فلما وقع صوته في اسماعهم ذهلت رجالهم وتصارخت نساؤهم وفزع القوم بين يديه من البيوت هاربين والى الساحل نحو الجبل طالبين وهو من خلفهم ، فلما رأوه وحده شجع بعضهم بعضا ورجعوا اليه يقاتلونه وطمعوا فيه لما راوه وحده ولم يروا أحدا من ورائه واخذوا في طلبه ، فجعل يكر عليهم ويرجع عنهم ويقتل رجلا بعد رجل ، فلما نظروا الى شدة بأسه وعظم مراسه وهول صولته وشدة حملته ارادوا أن يسبقوه الى الشرف ليأتوا اليه من ورائه ، فلما علم أنهم قد قاربوا الاعواد التي عملها وعليها الثياب خاف أن ينظروا اليها

ويعلموا ما فعله من المكر ، فسبقهم الى الشرف وسار امامهم واقبل على الاعواد مخاطبا لها كانه يخاطب الرجال وهو يقول : يا اهل كندة يا اهل طريف اياكم والقوم ، قد اتتكم الرجال فلا تحملوا عليهم وانا افديكم بنفسي ، فان رايتم علي الحيف فاحملوا على القوم ، فمد القوم ابصارهم اليه فوجدوا عنده الثياب على الاعواد في انشقاق الفجر فلم يشكو انهم رجال فانقلبوا راجعين نحو البحر ، وجعل دامس ينادي الا يا قوم اقسمت عليكم ان لا تبرحوا من اماكنكم وانا اكفيكم مؤنة القوم وحدي فرجعت بنو مهرة ناكصين على اعقابهم . هذا قد اردف زوجته ، وهذا اولاده وهذا امته وهذا اخذ ما قدر عليه من اثاثه ورجع ابو الهول الى الحي ، فلم يصادف فيه الا العبيد والصبيان والمشايخ والعجائز فأمر العبيد ان يوقروا الجمال فحملوها وكتفهم وساق الجميع قدامه وعاد واخذ الثياب من على الاعواد ولحقهم واتى بهم ديار قومه فعجبوا منه ومن فعاله ، فلما سمع ابو عبيدة ذلك من خالد اقبل على سراقة وقال له : ادع لي عبدكم حتى انظر اليه واسمع كلامه فأتى به سراقة ، فقال له ابو عبيدة انت دامس . قال نعم أصلح الله الامير ، فقال له بلغني عنك عجائب وانت وايم الله اهلها ، لانك جزل من الرجال واعلم انك وقومك تقاتلون في بلاد سهلة لا تأتون الجبال ولا القلاع ، ولقد اقتحمت البارحة اثر القوم اقتحاما منكرا فارفق بنفسك واحذر من هذا البطريق يوقنا ، فقال له دامس أصلح الله الامير لقد غزوت مهرة واخذت اموالها ، وان جبالها منيعة شامخة رفيعة ذات وعر وحجر ، وما هذه بامنع من تلك الجبال ، فقال ابو عبيدة انا اراك نجيبا فهل حدثتك نفسك من امر هذه القلعة بشيء ؟ ، فقال دامس أصلح الله الامير اني لما قدمت عليك في هذا الوقت كنت رايت في نومي رؤيا ، فقال ابو عبيدة وما الذي رأيت ؟ اراك الله الخير . قال رايت كأني سائر في وطاة من الارض واني مجد اطلب قومي ، فبينما انا في مسيري اذ اشرفت عليهم وهم حائرون لا يتقدمون ولا يتأخرون فناديتهم : يا قوم ما شأنكم واي شيء عرض لكم في طريقكم ؟ فقال لي القوم ما ترى هذا الجبل كيف قد عرض لنا في آخر هذا الطريق وليس لنا فيه مسلك ولا مطلع ، فقلت على رسلكم الا ترون هذه الفجوة في هذا الجبل ؟ فقالوا هيهات ليس لنا فيه منفذ ولا مطلع ، فقلت ولم ذلك . قالوا لان فيه ثعبانا عظيما لا يمر به احد الا واهلكه ، وقد قتل رجالا وجندل ابطالا ، فقلت يا قوم الا تهجمون عليه بأجمعكم ؟ . قالوا لا نقدر على ذلك لان النار تخرج من انفاسه وليس لنا عليه من سبيل ، فقلت لهم فالتمسوا لكم طريقا من وراء ظهره . فقالوا لا نقدر على ذلك من عظم جثته فتركتهم والتمست لي طريقا فلم اجد الا طريقا صعبا حرجا فاقتحمته فما سلكته الا بعد المشقة واتيت الى الثعبان من ورائه فقتلته ، ثم اشرفت على قومي فاتبعوني ، فما وصلوا الا بعد جهد جهيد وهم آمنون من عدوهم ، ثم استيقظت فرحا مسرورا .

فقال ابو عبيدة خيرا رايت وخيرا يكون يا دامس . اما رؤياك هذه فانها للمسلمين

بشارة ، ولعدونا خسارة ، ثم قال له اجلس مكانك ، وأمر أبو عبيدة أن ينادي المسلمين فحضر رؤساء المسلمين واعيانهم ، فلما حضروا قال ابو عبيدة : الله أكبر فتح الله ونصر ، وحبانا بالظفر ، وخذل من كفر ، ثم قال : يا معاشر المسلمين اسمعوا رؤيا أخيكم دامس فانها عبرة لمن اعتبر وموعظة لمن افتكر . قال فأقبلوا يسمعون له ، فعندها قام ابو عبيدة على قدميه وقال : الحمد لله وصلى الله على رسوله وسلم ، ثم قال يا معاشر الناس ان الله سبحانه وتعالى له الحمد قد وعدنا في كتابه على لسان نبيه محمد (ص) الغلبة على اعدائنا والظفر بمرادنا ، وما كان الله ليخلف وعده ، واني نذرت ان فتح الله هذه القلعة على يدي اصنع من البر ما استطعت ، والآن قد هجس في نفسي ووقع في قلبي انا ظافرون بهذه القلعة ومن فيها ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، لانه قد دلني على ذلك رؤيا هذا الفلام . ثم قبض بكفه على زند أبي الهول وقال له : رحمك الله حدث اخوانك بما رأيت في منامك فقام دامس قائما وقال : اعلموا اني رايت في منامي كذا وكذا وجعل يقص على الناس رؤياه من أولها الى آخرها ، فلما فرغ منها اقبل المسلمون على ابي عبيدة وقالوا له ايها الامير قد سمعنا قوله وحفظنا شرحه ، فما تأويل رؤياه ؟ . قال أبو عبيدة : اعلموا رحمكم الله ، أما الجبل الذي رآه عاليا شامخا شديد الامتناع بين الشعاب والقلاع فذلك دين الاسلام بلا شك وسنة محمد (ص) ، وأما الثعبان الذي رآه وقدمنع الناس وقد هجم عليه بسيفه فأمر حسن هو ان يفرج الله على يديه على المسلمين ففرح الناس بتأويل ابي عبيدة . وقالوا أيها الامير فما الذي تأمرنا به ، فقال آمركم بتقوى الله سرا وجهرا . ثم المكيدة على الاعداء طوعا وصبرا فارجعوا الى رحالكم حفظكم الله واصلحوا شانكم وآلة حربكم وما تحتاجون اليه فاني أقدمكم غداة غد الى اعاديكم الى ان يحدث لي راي غير هذا ، فاني لست ادع الاجتهاد في الراي والمشاورة لمن اثق به وبرأيه من المسلمين ، فقالوا بأجمعهم وفق الله رايك أيها الامير وظفرك بأعدائك انه سميع عليم ، فعال لما يريد ومضوا الى رحالهم ، فجعل هذا يحد سيفه ، وهذا يصلح آلة حربه وفرسه ، وهذا يتفقد درعه ، وهذا قوسه ونشابه ، وما زالوا كذلك بقية يومهم ، فلما أصبحوا دعا أبو عبيدة بدامس ، فقال له ايها الولد المبارك . ماذا ترى في أمر هذه القلعة وما عندك من الحيلة ، فقال دامس : اعلى أيها الامير انها قلعة منيعة شامخة حصينة تعجز الوافد وتمنع القاصد في اهلها محاصرة ولا تضيق صدورهم من قتال ، غير اني افكر في حيلة أحتالها او بلية اعملها وارجو من الله ان يتم ذلك عليهم ، فيكون تبديدهم ، ونملك بمشيئة الله ديارهم ، ونقلع آثارهم ، فقال ابو عبيدة : يا دامس وما هي ؟ فقال اصلح الله الامير أنت تعلم ما في اذاعة الاسرار من الشر والاضرار ، ومن كتم سره كانت الخيرة فيما لديه ، ويقال ان دامسا هذا اول من تكلم بهذه الكلمة فصارت مثلا ، فقال ابو عبيدة : فما الذي تشير اليه ، وما الذي تعتمد عليه ؟

قال تزحف بعسكرك وجملة من معك من أصحابك حتى تنزلوا بازاء القلعة ليظهر

لهم منك الحرص والهيبة ، واعلم ان في ذلك من الحيل ما أرجو من الله ان يتمها ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فأمر ابو عبيدة عسكره بالرحيل فارتحلوا ونزلوا تحت القلعة وهللوا وكبروا واظهروا سلاحهم وأرهبوا أعداء الله تعالى . قال فاشرف عليهم الروم ونظروا الى جمعهم فهابوهم والقى الله الرعب في قلوبهم حتى انهم اضطربوا في قلعتهم وماجوا وجعل كبراؤهم يستشيرون فيما بينهم . فقال قوم نقاتلهم ، وقال قوم بل نقعد في قلعتنا فانهم لا يقدرون علينا ، ثم اجتمع رأيهم على القتال من فوق القلعة وقعدوا على الابراج والبنيان وجعلوا يرمون المسلمين بالحجارة والسهام وقد اقاموا على ذلك ليلا ونهارا ودامس مع ذلك يعمل حيلة يصل بها اليهم بسوء . قال فلما كان بعد السبعة والاربعين يوما اقبل دامس على أبي عبيدة وقال له ايها الامير قد عجزت وانا اعمل حيلا فما صدر من يدي في حقهم شيء وقد افتكرت في شيء وأرجو من الله أن يكون به الظفر والظهور على اعداء الله . فقال أبو عبيدة وما الذي دبرت ؟ قال تضيف الي من صناديد الرجال ثلاثين رجلا وتأمرهم بالطاعة وترك المخالفة والاعتراض علي فيما آمرهم به وافعله وأراه . فقال ابو عبيدة سأفعل ذلك ، ثم ضم اليه ثلاثين رجلا من الشجعان حتى اذا اجتمعوا قال لهم أبو عبيدة معاشر المسلمين اني قد أمرت دامسا عليكم وامرتكم بالطاعة والقبول لامره واعلموا رحمكم الله اني ما امرته عليكم لكونه اجل منكم حسبا ونسبا ولا اعظم موكبا ولا اشد بأسا ولا اكثر مراسا فلا يقل احدكم اني قد امرت عليكم عبداً احتقاراً بكم ، وبالله احلف مجتهدا لولا ما يلزمني من تدبير هذا العسكر لكنت اول من ينطلق معه في جمعكم وانا ارجو من الله ان يفتح على يديكم ، فاقبلوا عليه بجمعهم ، وقالوا اصلح الله الامير ما نشك في اعظامك لنا ومعرفتك بسابقتنا ، ولقد كان كلامك الاول اثر في نفوسنا ، وها نحن لك وبين يديك ولو أمرت علينا علجا اغلف لم نخرج لك من امر ولا راي اذ علمنا أنك لا تريد الا نصحا للدين وحياطة ، فالسمع والطاعة لله ثم لك ثم لمن وليته علينا من قبلك كائنا من الناس اجمعين . قال ففرح ابو عبيدة بما قالوه ووثق بكلامهم وجزاهم خيرا ، وقال لهم : اعلموا رحمكم الله تعالى ان نفسي تحدثني أن الله تعالى يفتح هذه القلعة على يد هذا العبد المقبل لانه دقيق الحيلة حسن البصيرة فسيروا معه وثقوا بالله وتوكلوا عليه وقد تعلمون أن رسول الله (ص) قد ولى قوادا على سادات العرب من المسلمين والاشراف من عشيرته ، ثم اقبل على دامس . فقال له : يا دامس ما الذي تحب بعد هذا ؟ قال ترحل انت بجيشك من وقتك هذا فتكون منا على مسيرة فرسخ فتنزل بالعسكر وتأمرهم بقلة الحركة وان يختفوا ما استطاعوا او يكون لك رجال تثق بشدتهم ونصحهم للمسلمين يتجسسون عن اخبارنا وآثارنا من غير أن يعلم بهم وبنا احد ويكونون بغير سلاح سوى الخناجر ، فاذا عاينوا منا الظهور على أعدائنا والظفر بهم لحقوك وبشروك بذلك فتلحق بنا ان شاء الله تعالى وليكونوا متفرقين في موضع واحد ، فان ذلك اسلم لهم وأبلغ لما يريدون من امورهم والله المستعان في جميع الامور

والاحوال .
فعلم ابو عبيدة انه نصيح من الرجال صاحب راي وبصيره ، ثم ان دامسا اقبل على رفاقه الذين ولى عليهم وقال لهم يا فتيان العرب انهضوا بنا بارك الله فيكم حتى نكمن في بعض هذا الوادي ما دام الناس عازمين على الرحيل لئلا تشرف الروم فينظروا الى رحيلنا فلا يتفق لنا ان نطلب لنا مكمنا اذا أشرفوا من أعلى حصنهم وليكن مع كل رجل منكم سيفه وحجفنه وخنجره لا غير ، ففعلوا ذلك ، فلما تكاملوا لبس دامس لامة حربه وجعل خنجره تحت أنوابه واخذ جماعته وخرج بهم حتى اذا فارق العسكر جعلوا يخفون آثارهم واشخاصهم وهو سائر بهم حتى اتى بهم كهفا في الجبل فأمرهم بالدخول اليه وجلس على بابه . قال واما ابو عبيدة فانه امر الناس بالرحيل بعد ما رتب الرجال كما وصاه ابو الهول فارتحل العسكر واشرف عليهم أهل القلعة فراوهم يرحلون ففرحوا بذلك وسروا سرورا عظيما وصاروا يصيحون على المسلمين من اعلى القلعة وقالوا لبطريقهم أيها السيد افتح لنا الباب حتى نخرج وراء العرب فلعل ان نقتل احدا أو نأسره فنهاهم عن ذلك قال وداموا بقية يومهم الى المشاء . فقال دامس لاصحابه من فيكم ينهض الى تحت القلعة ويأتينا بخبر منها اذ يقدر على رجل يأسره فيأتينا به فنأخذ منه خبرا فلم يجبه احد ، فقال انا اعلم ان ما في هذه الجماعة الا من هو ضنين بنفسه كاره للموت وأنا لكم الفداء فانظروا كيف تكمنون ، ثم تركهم دامس ومضى فغاب عنهم ساعة واذا به قد اتى ومعه علج وقال لهم يا فتيان العرب دونكم هذا فاسألوه فسألوه فلم يفقهوا قوله . فقال على رسلكم فغاب غير بعيد وأتى بثلاثة اخر فلم يكن فيهم من يفهم بلغة العرب . فقال دامس لعن الله هؤلاء ما افظع لغتهم واكثر طمطمتهم ثم أوثقهم كتافا وغاب الى ان مضى من الليل نصفه ولم يأت فقلق عليه أصحابه قلقا شديدا واغتموا عليه وقال بعضهم لبعض انا أقول ان دامسا قد فطن به فقتل او اسر وماجوا في ذكره وهموا ان يرجعوا الى العسكر فبينما هم في ذلك اذ دخل اليهم دامس وهو يقود رجلا من الروم فتواثبوا اليه وقبلوه بين عينيه وسألوه عن ابطائه وقالوا له يا دامس لقد حدثتنا نفوسنا بالعظائم وصعب علينا ابطاؤك عنا .
فقال اعلموا رحمكم الله تعالى : اني لما فارقتكم سرت الى قريب من سور القلعة وكمنت لهم وهم يمرون علي وهم يرطنون بلغتهم وأنا لا اتعرض للقوم كل ذلك ، وانا أطلب من يتعرض للعربية ويتكلم بها فلم ار احدا حتى أيست وهممت بالرجوع خائبا اذ سمعت هدة شديدة قد وقعت من أعلى السور فأسرعت اليها لانظر اليها ما هي فاذا أنا بهذا الرجل وقد القى نفسه من القلعة الى اسفل السور فبادرت اليه واخذته واتيت به اليكم فانظروا ما هو ؟ فدنوا اليه وخاطبوه فلم يكلمهم الا بلغته واذا به قد انفتحت جبهته . فقال لهم دامس اعلموا أن له شأنا وأي شأن ، واني أظنه هاربا من القوم وليس فيكم من يفهم ما يقول ولكن على رسلكم فأنا آتيكم بمن يتكلم بلسانه وبالعربية ، ثم أسرع دامس من عندهم فلم يكن الا قليل واذا به قد عاد ومعه رجل قد نزلت عمامته

في رقبته وهو يقوده حتى مثله عندنا . فقالوا له من المدينة انت ام من القلعة ؟ . فقال له دامس ممن أنت تكون أمن الروم أم من العرب المتنصرة ؟ . قال ولكني مع العرب المتنصرة ؟ فقالوا يا هذا هل لك أن تطلعنا على عورات القلعة او عورة من عوراتها ، ونحن نطلق سبيلك ولا يتعرض اليك احد بسوء . فقال يا هؤلاء لست أعرف لهذه القلعة عورة ولا طريقا ولو عرفت لما وسعني في ديني ولا رأيت أن أدلكم عليها وحق المسيح . قال فانغاظ منه دامس وقال له اسأل هؤلاء الاسارى هل فيهم احد من أهل الربض فان بيننا وبينهم صلحا . قال فسألهم فلم يجد فيهم أحدا من أهل الربض بل كلهم من أهل القلعة وأنا أعرفهم .

فقال له دامس فاسأل هذا الرجل لم طرح نفسه من السور وما دعاه الى ذلك ؟ فسأله فقال له انه يقول ان الملك يوقنا غضب على أهل الربض لاجل صلحهم لكم وبعث يتهددهم ، فلما انصرفت العرب نزل يوقنا فجمع رؤوسهم واصعدهم الى القلعة وأنا في جملتهم وطلب منا من الاموال ما لا طاقة لنا به ولا نقدر عليه ، فلما رأيت ما قد نزل بنا هربت والقيت نفسي من القلعة أطلب الفرج وأنجو من العقوبة فلم أشعر الا وأنت قد قبضت علي وأنا من أهل الربض ، فان كنتم من العرب فأنا في ذمتكم وأمانكم فلا تنكثوا ولا تغدروا وان كنتم من غيرهم ، فاطلبوا مني ما أردتم من الفداء فاني قد هربت من العقوبة . فقال له دامس قل له نحن من العرب ولا بأس عليك ولا خوف ولا ينالك منا سوء وأراد دامس أن يرى الربض ما يفعل بأعدائه ، فأخرج الروم والمتنصرة وضرب رقابهم ولم يدع غير الربض ، ثم أطلقه واستمروا الى الليل وعمد دامس الى مزوده فاستخرج منه جلد ماعز وألقاه على ظهره واخرج كعكا يابسا وقال لاصحابه : بسم الله استعينوا بالله وتوكلوا عليه واخفوا نفوسكم وقدموا الحزم في أموركم فاني معول على فتح هذه القلعة ان شاء الله تعالى . فقالوا سر على بركة الله تعالى فقاموا مسرعين ، وتقدم دامس وبعث رجلين من أصحابه يعلمان أبا عبيدة بشأنهم ويقولان له ابعث الخيل عند طلوع الفجر . قال فانطلق الرجلان وصعد دامس ومن معه تحت الظلام ودامس على المقدمة يمشي على أربعة والجلد على ظهره وكلما أحس بشيء قرض في الكعك كأنه كلب يفرض عظما وهم من ورائه يقفون أثره وهم يستترون بين الاحجار فلا زالوا كذلك حتى لاصقوا السور وسمعوا أصوات الحرس وزعقات الرجال من اعلى القلعة والحرس شديد فلم يزل دامس دائرا بهم حول السور الى أن أتى الى مكان لم يجد به حسا واذا بحرسه قد ناموا وراء المكان ولم يروا في السور أقرب منه . فقال دامس لاصحابه أنتم ترون هذه القلعة وعلوها وتحصينها وليس فيها حيلة لشدة الحرس ويقظة القوم فما الذي ترون من الراي أن نصنع بها وكيف الحيلة في الصعود اليها الى ان نحصل في وسطها ؟ . فقالوا يا دامس ان الامير امرك علينا وانت أدرى منا واجر أجنانا ونحن لك بين يديك فمهما رأيت فيه الصلاح للمسلمين فلا نتأخر عنه

ووالله ان قتل نفوسنا وذهاب أرواحنا أسهل علينا من الرجوع بغير فائدة فمنك الامر ومنا السمع والطاعة فليس منا من يتأخر عنك ولا نموت الا تحت ظلال السيوف وفي طاعة الله ونصرة دين الاسلام . فقال دامس شكر الله فضلكم ورزقكم النصر على أعدائكم ، فان كانت هذه نيتكم فالتصقوا بنا الى هذا المكان . قال وكانوا ثمانية وعشرين رجلا واثنان كانوا أرسلوهم الى الامير يعلمانه بأن يأتي اليهم في الصبح .

فقال لهم دامس افيكم من يقدر على الصعود على هذه القلعة فقلنا له يا أبا الهول وكيف لنا أن نرقى اليها وعلى اي شيء نصل الى أعلاها بغير سلم فقال على رسلكم ، ثم انه اختار منا سبعة رجال كالاسد الضواري لو كلفوا حمل ذلك البرج على مناكبهم لما عظم ذلك عليهم ، ثم جلس على قرافيصه وقال لاحد السبعة اجلس على منكبي وارم بحيلك الى الجدار واجلس كما انا جالس ففعل الرجل ما أمر به وأمر آخر أن يفعل ويصعد على منكبي الآخر وان يرمي بقوته على الجدار قال ففعل ، ثم انه لم يزل يصعد واحد بعد واحد الى ان صعد الثامن بقوته على الجدار وهم متمسكون به ، فعند ذلك أمر الاعلى أن يقوم قائما وان يطرح حيله على الجدار فقام الاول وقام الثاني ثم قام الثالث ثم قام الرابع والخامس والسادس وكل واحد منهم قد طرح نفسه على الجدار ، ثم قام دامس آخرهم فاذا الاعلى قد وصل الى شرافة السور وتعلق بها فاستوى على السور ونظر إلى حارس ذلك المكان فوجده نائما وهو ثمل من الخمر فأخذ بيده ورجله ورماه ، فلما وصل الى الارض قطعوه واخفوا جسده ووجد من أصحابه اثنين سكارى وهم رقود فذبحهم بخنجره ورمى بهم ، ثم أرخى عمامته لصاحبه ونشله اليه فاذا هو معه على السور وكان دامس قد أعطاه حبلا فبقوا ينشلوّن به بعضهم الى ان تكاملوا على السور واصعدوا من بقي معهم على الارض ، وكان آخر من صعد ابو الهول . فقال لهم مكانكم حتى اقفو الخبر واكشف لكم الاثر ، ثم انه اتى الى دار البطريق وهو في وسط القلعة واذا عنده سادات البطارقة واكابرهم وهم جلوس وبين أيديهم بواطي الخمر ، ويوقنا جالس في وسطهم على بساط من الديباج منسوج من الذهب وعليه بدلة من اللؤلؤ ومعصب بعصابة من الجوهر والقوم يشربون والمسك والبخور يفوح عندهم فعاد دامس الى أصحابه وقال : اعلموا ان القوم خلق كثير وان هجمنا عليهم فلا نأمن الغلبة من كثرتهم ولكن ندعهم فيما هم فيه ، فاذا كان وقت السحر هجمنا على يوقنا ومن معه من الملوك نقتلهم بسيوفنا فاذا ظفرنا بهم وذلهم الله لنا وعلى أيدينا فهو الذي نريد ، وان كان غير ذلك فيكون الصباح قد قرب ، ولا شك أن الرجلين من أصحابنا قد اعلما خالد بن الوليد فيأتينا . فقالوا ما نخالف لك أمرا ونحن قد صرنا في قلعة هؤلاء الاعداء وليس ينجينا الا صدق جهادنا والعزم والشدة من قوتنا . فقال لهم مكانكم فلعل أن يفتح الباب . قال وكان للقلعة بابان وبينهما دهليز والبوابون داخلهما والرجال تنام عندهم بالنوبة ، فلما وصل دامس الى الباب وجده مغلقا واذا بالقوم

رقود من السكر فعاجلهم بالذبح ، ثم فتح البابين وتركهما مردودين ورجع الى أصحابه وقد قرب الفجر فقال لهم ابشروا فاني قد فتحت البابين وقتلت من كان وراءهما فدونكم والباب فاسبقوهم اليه وخذوه عليهم فقد بقي القوم حصيدا بأسياف المسلمين ان شاء الله تعالى . قال وارسل من يستعجل خالدا ويبشره بذلك ، ثم ارسل خمسة من اصحابه يمسكون الباب واخذ الباقين ومشى نحو دار يوقنا فصاحوا عليه ووقع الصياح في القلعة فرجعوا بأجمعهم الى الباب وأخذ كل واحد منهم مكانا يحميه فعندها جاءت الابطال وصاحت الروم ويلاه كيف تمت علينا هذه الحيلة وصرخ يوقنا بأصحابه فأتوا من كل جانب ، فعندها كبر المسلمون ونادوا بلسان واحد الله أكبر فخيل للروم ان القلعة ملآنة منهم . قال ابن أوس وقاتلت الروم قتالا شديدا ، وأما المسلمون فكانوا كالاسد الضارية . فما رأيت أقوى بأسا ولا اشد مراسا من دامس ابي الهول في ذلك اليوم فلقد عددنا في بدنه بعد ما انفصلنا ثلاثة وسبعين جرحا كلها في مقدم بدنه . قال فبينما نحن في اشد القتال ونحن يحمي بعضنا بعضا وقد بقي منا ثلاثة وعشرون وقتل منا اربعة وهم اوس بن عامر الحزمي من بني حزم وأبو حامد بن سراقة الحميري والفارع بن مسيب التميمي وفزارة بن مراد العوفي .

(قال الواقدي) لقد حدثني نوفل بن سالم عن جده غويلم بن حازم وكان ممن صحب دامسا في قلعة حلب قال : لما قتل من قتل منا وقد قتل أيضا ملاعب بن مقدام بن عروة الحضرمي وكان ممن حضر مع رسول الله (ص) الحديبية وتبوك ومرارة بن ربيعة العامري وهلال بن امية وهو ابن اخي كعب الذي تخلف عن رسول الله (ص) في تبوك وانزل الله فيه ما انزل ، قال وبقينا عشرين رجلا وتكاثرت الروم علينا في أزيد من خمسة آلاف وهم سد من حديد ، قال ونحن قد ايسنا من الحياة اذ دخل علينا خالد بن الوليد ومعه جيش الزحف فوجدنا ونحن في أشد ما يكون من القتال ، فلما دخلوا علينا صاح فيهم خالد فجفلت الروم عنا . قال أوس فلما رأيناهم كذلك وانفرج عنا ما كنا فيه اشتدت قلوبنا فعندها كبرت المسلمون ودخل ضرار وأمثاله يضربون رقابهم ، فلما راى الروم ذلك وعلموا انهم لا طاقة لهم بما وقع بهم القوا السلاح ونادوا الغوث الغوث وكفوا انفسهم عن القتال فكفت المسلمون أيديهم عنهم فبينما هم كذلك اذ أقبل أبو عبيدة ومعه عساكر الاسلام فأخبروه أن الروم يطلبون الامان وأن المسلمين قد رفعوا عنهم القتل الى أن تأتي وترى فيهم رايك ، فقال أبو عبيدة قد وفقوا وسددوا فأمر باحضار رجالهم ونسائهم وعرض عليهم الاسلام فكان أول من اسلم بطريقهم يوقنا وجماعة من ساداتهم . قال فرد عليهم اموالهم واهاليهم واستبقى منهم الفلاحين وعفا عنهم من القتل والاسر وأخذ عليهم العهود أن لا يكونوا الا مثل أهل الصلح والجزية واخرجهم من القلعة . قال ثم اخرج المسلمون من الذهب والاواني ما لا يقع عليه عدد فأخرج منه الخمس وقسم الباقي على المسلمين وأخذ الناس في حديث دامس وحيله

وعجائبه وعالجوا جراحته حتى برات قال واعطاه ابو عبيدة سهمين ثم ان ابا عبيدة طلب امراء المسلمين واكابرهم وشاورهم في امره وقال ان الله وله الحمد قد فتح هذه القلعة على أيدي المسلمين وما بقي لنا موضع نخافه ، فهل نقصد انطاكية ، وهي دار الملك وكرسي عزهم وفيها بقية ملوكهم مع هرقل فما ترون من الراي ؟ . قال فعندها قام البطريق يوقنا وتكلم بلسان عربي فصيح وقال : ايها الامير ان الله تبارك وتعالى قد أيدكم واظفركم بعوكم ونصركم وما ذاك الا ان دينكم هو الدين القويم والصراط المستقيم ونبيكم هو المشهور في الانجيل وهو لا محالة الذي بشر به المسيح ولا شك فيه ولا مراء وهو الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وهو النبي الكريم اليتيم الذي يموت أبوه وامه ويكفله جده وعمه فهل كان ذلك أم لا أيها الامير ؟ فقال أبو عبيدة : نعم هو نبينا (ص) واني يا يوقنا قد حرت في امرك وانت بالامس تقاتلنا ومرادك ان تكسر عسكرنا وتقطع الطريق على علوفتنا واليوم تقول مثل هذا القول ، وقد بلغني انك لا تفهم بالعربية شيئا فمن أين لك حفظها . فقال لا اله الا الله ومحمد رسول الله وانك تعجب أيها الامير من هذا الامر قال نعم قال له اعلم أيها الامير أني كنت البارحة مفكرا في أمركم وقد وصلتم الى قلعتنا ونصرتم علينا وانه لم يكن عندنا أمة اضعف منكم وتوسوست في ذلك ، فلما نمت رايت شخصا ابهى من القمر واطيب رائحة من المسك الاذفر ومعه جماعة فسألت عنه فقيل لي هذا محمد رسول الله فكأني أقول ان كان نبيا حقا فليسأل ربه أن يعلمني العربية وكان يشير الي وهو يقول يا يوقنا انا محمد الذي بشر بي المسيح وانا لا نبي بعدي وان اردت فقل لا اله الا الله وابي محمد رسول الله فأخذت يده فقبلتها وأسلمت على يديه واستيقظت وفمي من تلك الليلة كالمسك الاذفر وأنا أتكلم بالعربية ، ثم اني قمت الى منزل اخي يوحنا وفتحت خزانة كتب فوجدت في بعض الكتب صفة محمد (ص) وما يكون من أمره ووجدت كل الصفات صحيحة وأن أبغض الخلق اليه اليهود أكان ذلك أيها الامير أم لا .

فقال ابو عبيدة : نعم كانت اليهود تطلبنا أشد الطلب حتى نصرنا الله عليهم واخذنا حصونهم وقتلنا أبطالهم . قال يوقنا وجدت هذا في سيرته وجملة اخباره وان الله تعالى كان يوصيه بأصحابه وبالمسلمين وبالايتام والمساكين أكان ذلك ام لا ؟ قال أبو عبيدة نعم ، أما وصيته من الله على أصحابه . فقد قال الله تعالى ــ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ــ ، وقال في حق اليتيم والمسكين ــ فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر ــ . فقال يوقنا كيف قال ووجدك ضالا فهدى فما معنى وصفه بالضلال وهو عند الله كريم . فقال له معاذ بن جبل (رض) وجدناك ضالا في تيه صحبتنا فهديناك الى مشاهدتنا وأيضا سهل لك الوصول الى سبل المكاشفة ووفقك للوقوف في مقام المشاهدة ووجدك ضالا في بحار الطلب على مركب العطب فهداك الى سواحل الحق وقربك الى ظل حقائق الصدق لتكون بقلبك مائلا عن الاغيار أو تهيم في قيعان

الاختيار متمنيا ساعات الوصول والتلاق وليس لك منا خبر ولا معك منا اثر الحنا لك لوائح الرضا وكشفنا لك عن واضح القضا ، أما علمت يا يوقنا انه لا شيء عند المؤمن اوفى من العلم ولا اربح من الحلم ولا حسب أوضح من الدين ولا قرين أزين من العقل ولا رفيق اشر من الجهل ولا شيء أعز من التقوى ولا شيء أوفى من ترك الهوى ولا عمل افضل من الفكر ولا حسنة اعلى من الصبر ولا سيئة اخرى من الكبر ولا دواء ألين من الرفق ولا داء أوجع من الخرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل انصح من الصدق ولا فقر اذل من الطمع ولا غنى اشقى من الجمع ولا حياة احسن من الصحة ولا معيشة أهنا من العفة ولا عبادة افضل من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس احفظ من الصمت ولا غائب اقرب من الموت ، فلما سمع يوقنا هذا الكلام من معاذ تهلل وجهه ، وقال هكذا قرأته في كتب اخي يوحنا وهو مذكور في الانجيل والتوراة ثم خر ساجدا وقبل الارض شكرا ، وقال : الحمد لله الذي هداني الى هذا الدين والله لقد رسخ هذا الدين في قلبي وعلمت انه الحق وسأقاتل في الله كما كنت اقاتل في طاعة الشيطان والله لانصرن هذا الدين حتى الحق بأخي يوحنا ، ثم انه بكى بكاء شديدا على ما فرط في أمر أخيه . فقال له أبو عبيدة قال الله في حق اخوة يوسف ــ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين ــ ، وقال له ان خاك في عليين مع الحور العين ، واما انت فساعة اسلمت خرجت من ذنوبك كيوم ولدتك امك فبكى لذلك وقال اشهد علي المسلمين اني كلما جاهدت وقتلت من المشركين فثوابه في صحيفة اخي يوحنا ولا بد ان اقاتل في سبيل الله وامحو ما سلف من الفعال . فقال أبو عبيدة : يا عبدالله دلنا اين نسير ؟ فقال يوقنا اعلم ايها الامير ان حصن عزاز حصن منيع وهو قوي بالرجال والعدد والزاد وفيه ابن عم لي اسمه دراس بن جوفناس وهو ذو شدة وبأس وقوة ومراس جلد في الحرب قوي عند الطعن والضرب وان انتم تركتموه ومضيتم الى نحو انطاكية اغار على حلب وقنسرين واذاقهم شرا . فقال ابو عبيدة يا عبدالله قد انطق الله لسانك بالحق والصواب فما عندك من الحيلة ؟ .

فقال يوقنا عندي من الراي ان اركب جوادي وتضم الي مائة فارس من المسلمين ولنكن على زي الروم ولباسهم واتقدم بهم ، ثم يتقدم امير من العرب ومعه الف فارس على خفاف الخيل وانا في المقدمة بالمائة فارس على مقدار فرسخ كأننا هاربون منكم واوائل الخيل الالف في طلبنا فاذا اشرفنا على عزاز نلقي الصوت ، فاذا نظر الينا صاحبها دراس لا بد أن ينزل الينا ويلقانا ، فاذا سألني اخبرته اني اسلمت زورا ثم هربت فخرجت العرب في طلبي فاذا سمع مني ذلك يصعد بنا الى حصنه وليكن مقدم الالف بالقرب منا في قرية هناك فاذا كان نصف الليل سرنا في وسط الحصن ونضع السيف في اعدائنا فاذا كان عند صلاة الفجر يأتينا امير العرب بالالف الذي معه ، فلما سمع أبو عبيدة ذلك استنار وجهه واستشار خالدا ومعاذا في ذلك فقالا يا امين الامة

راي سديد ان لم يقدر هذا الرجل ويرجع الى دينه . فقال ابو عبيدة ــ ان ربك لبالمرصاد ــ . فقال يوقنا انا والله رجعت عن ديني الى دينكم بعدما كنت اعظم من تلك الصور والصلبان وما بقي في قلبي سوى محبة الرحمن ومحمد سيد ولد عدنان والجهاد عن افضل الاديان والله على ما اقول وكيل ، وحق الذي لا اله الا هو ، وحق محمد عبده ورسوله (ص) الذي رايته وعاينته في المنام ان كنتم تظنون في غير ذلك فلا تتركوني أ فعل شيئا مما ذكرته لكم . فقال ابو عبيده يا عبد الله ان انت نصحت للمسلمين ولم تغدر بهم كان الله لك معينا في كل ما تحاوله فاتبع الصدق تنج به فان ديننا مبني على الصدق واتبع سنن اخوانك المؤمنين ، واعلم أن المؤمن الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه ما وجد فلا يحزنك ما تركت من ملكك وحكمك وامارتك فان الذي تركته فان ، والذي تطلبه باق لان نعمة الدنيا فانية والآخرة خير وابقى ، واعلم انك في يومك هذا عار من الشرك ، واعلم ان الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر والمؤمن يتيقن ان القبر مضجعه ، والخلوة مجلسه ، والاعتبار فكره ، والقرآن حديثه ، والرب انيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شانه ، والحياء شعاره ، والجوع ادامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة داره ، واعلم يا يوقنا ان المسيح قال : عجبت لمن ليله غافل وليس بمغفول عنه ومؤمل دنيا والموت يطلبه وبان قصرا والقبر مسكنه ، وقد قال نبينا (ص) من اعطى اربعا اعطى اربعا وتفسير ذلك في كتاب الله تعالى : من اعطى الذكر ذكره الله عز وجل لان الله تعالى يقول ــ اذكروني اذكركم ــ ومن اعطى الدعاء اعطى الاجابة لان الله تعالى يقول ــ ادعوني استجب لكم ــ ومن أعطى الشكر اعطى الزيادة لان الله تعالى يقول ــ لئن شكرتم لازيدنكم ــ ومن اعطى الاستغفار اعطى المغفرة لان الله تعالى يقول ــ استغفروا ربكم انه كان غفارا ــ .

(قال الواقدي) **حدثني عامر** بن قبيصة اليشكري . قال حدثني يونس ابن عبد الاعلى قراءة عليه قال شهر بن حوشب عن جده عامر بن زيد قال كنت ممن شهد فتوح الشام وكنت في فتوح قنسرين وحلب مع ابي عبيدة وكنت كثيرا ما اصحب الروم الذين دخلوا في ديننا فلم ار منهم اشد اجتهادا ولا اخلص اعتقادا ولا اعظم نية ولا احسن في الجهاد حمية ولا ابلغ في قتال الروم من يوقنا ولقد نصح والله للمسلمين وجاهد في الكافرين وارضى رب العالمين ، ولقد فعل في الروم ما لم يقدر احد عليه من ابناء جنسه من بعد ما قاسى المسلمون منه على قلعة حلب وما تركهم ينامون ولا يقرون ليلا ولا نهارا وما قتل من المسلمين (رض) اجمعين .

ذكر فتح عزاز

(قال الواقدي) لما وعظ ابو عبيدة يوقنا وفرغ من وعظه ضم اليه مائة فارس والبسهم زي الروم قال وكان كل عشرة من قبيلة قال وهم من طيء وفهر وخزاعة

وسنيس ونمير والحضارمة وحمير وباهلة وتميم ومراد وجعل على كل عشرة نقيبا ، فأما نقيب طيء فخزعل بن عاصم وعلى فهر فهر بن مزاحم وعلى خزاعة سالم بن عدي وعلى سنيس مسروق ابن سنان وعلى نمير اسد بن حازم وعلى الحضارمة ماجد بن عميرة وعلى حمير ملكهم ذو الكلاع الحميري وعلى باهلة سيف بن قادح وعلى تميم سعد بن حسن وعلى مراد مالك بن فياض ، فلما كملوا قال لهم أبو عبيدة اعلموا رحمكم الله اني مرسلكم مع هذا الرجل الذي وهب نفسه لله ورسوله وكل طائفة منكم عليها نقيب وقد وليته عليكم فاسمعوا له وأطيعوا ما دام مرضاة الله عز وجل قال فلبسوا وركبوا وساروا معه ، فلما بعدوا بفرسخ أرسل وراءهم الف فارس وأمر عليهم مالكا الاشتر النخعي وقال له سر في أثر القوم وانظر ما يكون من أمر هذا العبد الصالح . فاذا قربت من هذا الحصن فاكمن الى وقت السحر ثم تظاهر لاخوانك ، سر وفقك الله وارشدك ، فسار مالك يقدم قومه فساروا بقية يومهم ، فلما جن عليهم الليل كمنوا في قرية بالقرب من الحصن وهي خالية من السكان . وأما ما كان من يوقنا فانه اخذ على غير طريق وسار طالبا عزاز .

(قال الواقدي) حدثني سليمان بن عبدالله اليشكري حدثني الشديد بن مازن عن جده خزعل بن عاصم قال كنت في خيل يوقنا لما وجهنا ابو عبيدة معه . قال لما شارفنا عزاز قال لنا يوقنا اعلموا يا فتيان العرب انا قد شارفنا هذا العدو فاياكم أن يتكلم احد منكم فان لفتكم لا تخفى على الروم وانا المترجم عنكم وكونوا على يقظة من أمركم . فاذا رايتموني وقد بطشت بصاحب الحصن فثوروا على اسم الله تعالى ، ثم ساروا وليس عنده خبر من تواتر القدر .

(قال الواقدي) حدثني سليمان بن عبدالله اليشكري . قال حدثني عبد الرحمن المازني وكان ممن يكتب فتوح الشام . قال حدثني الاكوع بن عباد المازني . قال كنت مع مالك الاشتر من جملة الالف حين سرنا في اثر يوقنا صاحب حلب حتى اذا كنا في تلك القرية ، ونحن ننتظر الصباح واذا نحن بجيش من ورائنا من غربي القرية فسار مالك الاشتر وقصد الحصن فغاب عنا غير بعيد وعاد ومعه رجل من العرب المتنصرة وقد اقبل به ، فلما صار بيننا قال يا فتيان اسمعوا ما يقول هذا الرجل فقلنا وما الذي يقوله ؟ قال اسالوه فانه يخبركم فسألناه وقلنا من أي الناس انت قال من غسان من بني عم جبلة بن الايهم . فقال له مالك ما اسمك ؟ قال اسمي طارق بن شيبان . فقال له يا طارق بحق ذمة العرب لا تكتمنا أمرا تعرفه من اعدائنا قال والله لا أكتم أمرا اعرفه ولكن خذوا على انفسكم قبل قدوم عدوكم قال مالك ، وكيف ذلك قال لأنا البارحة ورد علينا جاسوس من عندكم وهو منا اسمه عصمة بن عرفجة ، وكان يسمع ما تناجيتم به من الحيلة التي أرادها يوقنا على صاحب عزاز ، فلما سمع الجاسوس منكم ذلك كتب رقعة وربطها تحت جناح طير كان معه واطلقه الى صاحب عزاز ، فلما

قراها ارسلني الى صاحب الراوندات لوقا بن شاس يستنجده عليكم فمضيت اليه بالرسالة وهو قادم في خمسمائة فارس وكانكم بهم وقد هجموا فخذوا حذركم .

(قال الواقدي) واما ما كان من امر يوقنا فانه سار حتى وصل الى الحصن فوجد صاحبه قد تجهز بنفسه ومعه أصحابه وهو خارج الحصن وكان اللعين يركب في ثلاثة آلاف فارس من الروم وألف من العرب المتنصرة غير من التجأ اليه من السواد ، فلما قدم عليه يوقنا لم يوهمه في شيء من امره بل استقبله وترجل اليه واقبل كأنه يقبل ركابه وكان في يده سكين أمضى من القضاء فقطع به حزام فرس يوقنا وجذبه اليه واذا به قد وقع على أم رأسه فأطبق الاربعة آلاف على اصحاب رسول الله (ص) ولم يمهلوهم حتى أخذوهم قبضا بالكف وشدوهم كتافا وبصق دراس في وجه يوقنا ، وقال لقد غضب عليك المسيح والصليب اذ فارقت دينك ودخلت في دين اعدائك وحق المسيح لا بد لي أن أبعثك الى الملك الرحيم هرقل يصلبك على باب انطاكية بعدما اضرب رقاب هؤلاء العرب ثم انه اصعدهم الى الحصن .

(قال الواقدي) ومن خيرة الله للمسلمين ان الجاسوس لم يكتب لصاحب عزاز في مكاتبته بسير مالك الاشتر . قال وان مالكا الاشتر لما سمع كلام المتنصر أيقظ أصحابه وربط المتنصر عنده واقاموا ينتظرون صاحب الراوندات ، فلما راق الليل سمعوا وقع حوافر الخيل فلم يكلمهم مالك حتى توسطوا الكمين واطبقوا عليهم ، فكل اثنين ربطوا واحدا من الروم واخذوهم بالكف ولم ينفلت منهم أحد ولبسوا ثيابهم ورفعوا رايتهم وصليبهم كما كانت ، ثم ان مالكا قال للمتنصر هل لك أن ترجع الى دين الله عز وجل ودين نبيه محمد (ص) فيمحو عنك ما سلف من الكفر بالايمان وتبقى لنا من جملة الاخوان ؟ . فقال ان قلبي ولبي عندكم فلا جزي الله من الجأنا الى الدخول في هذا الدين خيرا وانا والله من الطائفة التي هي أول من اسلم على يد عمر بن الخطاب وقد سمعنا عن محمد (ص) أنه قال من بدل دينه فاقتلوه . فقال له مالك لقد صدقت في قولك ولكن انسخ هذا الحديث بقول لا اله الا الله ، فقد قال الله تعالى ــ الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات ــ الآية ، وقبل رسول الله (ص) توبة وحشي قاتل عمه حمزة فأنزل الله فيه الآيات ، فلما سمع الغساني ذلك فرح وقال انا اشهد أن لا اله الا الله واشهد ان محمدا عبده ورسوله والآن والله يا مالك قد طاب قلبي وانجبر كسري أخذ الله بيدك وانقذك الله يوم القيامة . قال ففرح مالك باسلامه ، وقال له وفقك الله وثبت ايمانك ، ثم قال له يا عبد الله اني أريد أن تمحو ما سلف منك بما تفعله . فقال وما تريد ايها الامير ؟ . قال تمضي الى صاحب عزاز وتبشره بقدوم صاحب الراوندات الى نصرته . فقال أفعل ذلك ان شاء الله تعالى وان كنت في شك من امري فأرسل معي من تثق به حتى يسمع ما أقول فان الليل قد تنصف والحرس شديد وباب الحصن مقفول وأنا أخاطبهم من شفير الخندق ، قال

فأرسل معه مالك ابن عم له يقال له راشد بن مقبس ووصاه ان يكون مستيقظا فسارا جميعا الى ان وصلا الى الحصن فوجدا الحرس شديدا والروم تضرب بوقاتها والصوت عال في وسط الحصن . فقال طارق لابن عم مالك ما هذا وحق أبي الاقتال وضرب

وحرب فأنصتا فاذا هو كما قال طارق .

(قال الواقدي) وكان السبب في ذلك أن ابن صاحب عزاز شاب شجاع يقال له لاوان كان ابوه دراس في وقت يرسله الى يوقنا بالهدايا والتحف لمابينهم من القرابة وكان يقيم عنده اشهرا في أعز مكان وانه حضر عنده في بعض المرات في عيد الصليب في البيعة التي هي اليوم الجامع ، وكان يدخل في كل وقت فراى يوما ابنة يوقنا وهي بين جواريها وخدمها وحشمها فوقع بقلبه حبها فكتم أمرها وعاد الى عزاز وشكا حاله الى أمه وما كان لابيه ولد غيره وهي تجد له محبة عظيمة فقالت له انا اخاطب اباك في ذلك والزمه ان يرسل ليخطبها من ابيها ويزوجك بها ونبذل له من المال ما أراده وطلبه واشتغل قلب الشاب بحب الجارية ، وفي اثناء ذلك جاءت العرب الى بلادهم واشتغلت خواطرهم ، فلما وقع يوقنا في يد ابيه وكان من امره ما كان وقبض عليه وعلى المائة من المسلمين وحبسهم جميعا في دار ولده لاوان ووصاه بحفظهم فقال لاوان في نفسه وحق ديني أن ابن عمنا يوقنا اعلم من ابي بالاديان ولولا انه رأى الحق مع هؤلاء العرب ما تبعهم بعدما قاتلهم اشد القتال وايضا ان جيوش الملك ما ساوتهم وان الله قد نصرهم على ضعفهم وانا قلبي متعلق بابنته واني أرى من الراي السديد أن احل هؤلاء القوم من الوثاق وارجع الى دينهم بعد أن اثق من ابن عمي أن يزوجني ابنته فانه على الحق وانال ما اطلب بعدها واتزوج ابنته ، فلما حدثته نفسه بذلك أقبل الى يوقنا وجلس بين يديه وقال له يا عم اني عولت على ان احل وثاقك انت واصحابك ، وقد اخترتك على اهلي وابي وملكي وانت تعلم ان فراق الاهل صعب واخترت الايمان على الكفر وقد علمت ان دين هؤلاء صحيح ، ولكن لي عليك شرط أن تزوجني ابنتك ومهرها عتقك انت وهؤلاء الناس الذين معك . فقال يوقنا يا بني ما لك الى زواجها من سبيل اذا كنت تدخل فيه لاجل غرض الدنيا وليكن دخولك فيه خالصا من قلبك حتى ان الله يأجرك على ما تفعله وانا ان شاء الله تعالى ابلغك ما ترومه وتنال عز الدنيا والآخرة فقال لا وانا اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمد رسول الله ، ثم حل وثاق يوقنا واعطاه سلاحه وحل المائة واعطاهم سلاحهم ، وقال لهم كونوا على اهبة وانا امضي الى ابي وهو ممل بالخمر فأقتله وثوروا على بركة الله تعالى في رضا الله فعندها قال يوقنا للمائة اشهدوا علي اني زوجته ابنتي وجعلت صداقها عتقنا فقبل منه ومضى الى دار ابيه فوجد اباه مقطوع الراس واخوته عنده ، فقال لهم من فعل هذا بأبي ؟ قالوا نحن قال ولم ذلك ؟ . قالوا اردنا بذلك وجه الله وقد سمعناك وما تحدثت به مع يوقنا واصحابه فخفنا عليك ان لا يتم لك هذا الامر ويتكاثر الجمع على القوم ويبلغ ابانا خبرك

فيقتلك فبطشنا به قبلك ، قال ففرح لاوان بذلك ورجع الى يوقنا واصحابه وأعلمهم بما جرى فخرجوا من دار لاوان وتوسطوا الحصن ورفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير والسراج المنير ووضعوا السيف في الروم ، قال ووقع الصائح في الحصن كما وصفنا وتبادرت الروم لقتال المسلمين ، وفي تلك الساعة قدم طارق ورفيقه قال فسمعنا الاصوات قال فرجعنا الى مالك واعلمناه بما سمعناه . فقال مالك لاصحابه اركضوا لاصحابكم فركضوا خيولهم وخلف منهم مائة يحفظون الاسرى ، فلما قربوا من الحصن وكان يوقنا قد قال للاوان ان نجدة من المسلمين تاتينا فأتى لاوان فرأى المسلمين قد اتوا ففتح لهم باب الحصن من باب السر وأدخلهم ، فلما حصل مالك الاشتر في حصن عزاز نادى هو ومن معه الله أكبر فتح الله ونصر وخذل من كفر ، فلما راى أهل الحصن ذلك رموا سلاحهم ونادوا الغوث الغوث فرفعوا عنهم السلاح واخذوهم اسارى وشكروا ليوقنا ومن معه ، قال فحدث يوقنا مالكا الاشتر بحديث الغلام لاوان فقال مالك اذا اراد الله امرا هيأ اسبابه .

(قال الواقدي) حدثني قيس عن عقبة عن صفوان عن عمرو بن عبد الرحمن عن جبير عن ابيه . قال سألت أبا لبابة بن المنذر وكان ممن حضر فتوح الشام كيف كانت فتوح عزاز وقتل دراس فان نفسي تنكر هذا واريد صحته ؟ . فقال لما وضعت الحرب أوزارها وجمع مالك الاشتر الاسارى والمال والثياب والذهب والفضة والآنية ، وأمر باخراج ذلك من الحصن ووكل به قيس بن سعد ، وكان ممن حضر وأصابه سهم فعوره ، وكذلك أبو لبابة بن المنذر وكلاهما حضر بدرا مع رسول الله (ص) فلم يبق احد في عزاز . ثم قام مالك فمشى في الحصن وتفقد دراسا فوجده مقتولا ، فقال من قتل هذا اللعين ؟ ، فقال لاوان قتله أخي لوقا وهو اكبر مني سنا فأمر مالك باحضاره ، وقال لم قتلته وهو ابوك ؟ وما سمعنا ولدا قتل اباه من الروم سواك . فقال حملني على ذلك محبة دينكم ، لان في بيعة هذا الحصن قسا من المعمرين ، وكنا نقرأ عليه الانجيل ويعلمنا بعلم الروم ، واني كنت في بعض الايام في البيعة أنا وهو وليس عندنا أحد وكان اسمه ابا المنذر ، فقلت له يا أبا المنذر الا ترى الى بلاد الشام كيف استولت عليها العرب وملكوا أكثرها وهزموا جيوش الملك ؟ وما كنا نظن ان العرب تقدر على ذلك لانه ليس في الامم أضعف منهم وان الله تعالى نصرهم على ضعفهم ، فهل قرات ذلك في كتب الروم أو ملاحمهم أو ملاحم اليونانيين ؟ فقال يا بني نعم اني قرات ذلك ، ولقد اخبرنا الملك هرقل بذلك قبل وقوع هذا الامر وجمع اليه الملوك والاساقفة والبطارقة وغيرهم ، واخبرهم ان العرب لا بد أن يملكوا ما تحت سريري هذا ، ولقد بلغنا عن نبي القوم انه قال « زويت لي الارض فرايت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » فقلت له يا أبانا فما تقول في نبي القوم ؟ قال له يا بني ان في كتبنا أن الله تعالى يبعث نبينا بالحجاز وقد بشر به عيسى المسيح بن مريم ، ولا ندري

اهو هذا أم لا ؟ فعلمت انه كتم عني امره محافة ان اذيع سره فكتمت ما قال لي البارحة . فلما رأيت يوقنا وأصحابه أسرى قلت هذا يوقنا قد قتل اخاه يوحنا وعاند العرب وقاتلهم . ثم انه رجع الى دينهم . وما ذاك الا انه قد علم الحق معهم ، فقلت انا لنفسي قم انت واقتل أباك وخلص يوقنا وأصحابه وارجع الى دين هؤلاء فهو الدين الحق لا شك فيه ، فلما نام ابي بعدما شرب الخمر وسكر قتلته وسرت الى خلاص يوقنا ومن معه فوجدت اخي لاوان قد سبقني الى ذلك ، فقال له مالك يا غلام لم فعلت ذلك ؟ قال محبة في دينكم وانا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فقال له مالك قبلك الله ووفقك . ثم خرج مالك من الحصن وولاه سعيد بن عمرو الغنوي وترك معه المائة الذين كانوا مع يوقنا وقدموا اليه صاحب الراوندات ومن معه فعرض عليهم الاسلام فابوا فضرب رقابهم .

(قال الواقدي) حدثني عبد الملك بن محمد عن ابيه حسان بن كعب عن عبد الواحد عن عبدالله بن قرط الازدي ان فتح عزاز كان هكذا ، والذي ذكر ان بنات دراس وزوجته قتلنه لم يصح والله اعلم ، ثم ان مالكا الاشتر اراد ان يرحل فعرض عليه سبي عزاز فكان ألف رجل من الشباب ومائتين وخمسة واربعين رجلا من الشيوخ والرهبان والفي امرأة من النساء والبنات ومائة وثمانين عجوزا ونظر الى شيخ من الرهبان مليح الشيبة واضح الهيبة ، فقال ان صدقت الفراسة فهذا القس الذي اخبرني به لوقا واخوه لاوان فدعا بهما وقال : هذا هو القس الذي اخبرني به لوقا ، فقال نعم فقال له يا شيخ اذا كنت من علماء اهل الكتاب فكيف تكتم الحق عن مستحقيه فقال : والله ما كتمت الحق عن مستحقيه ، ولكن خفت من الروم أن يقتلوني ، لان الحق ثقيل وقد قتلوا الابناء والاخوة وذلك لاجل الحق فكيف انا . فقال له مالك أفتدخل في ديننا ؟

فقال : لست أدخل فيه الا اذا سألتكم عن مسائل وجدتها في الانجيل . فقال له مالك هات ما عندك ، فلما أراد القس أن يتكلم وقع الصياح في الحصن فارتاع الناس ووثب مالك لينظر ما خبر الناس ؟ وظن ان الروم قد غدرت بهم واذا بأناس من المسلمين الذين بالحصن يقولون أيها الامير خذوا حذركم فانا نرى غبرة على طريق منبج وبزاعة ولا ندري ما هي فركب مالك ومن معه ووقفوا ينتظرون ما ذاك واذا قد لاح من تحتها خيول الاسلام وهم يسوقون السبايا والاموال والرجال وهم مشددون في الحبال ووراءهم الف فارس من المسلمين وأميرهم الفضل بن العباس (رض) ، وكان قد أرسله ابو عبيدة حتى غازى منبج والباب وبزاعة فوقع الكثير في الفريقين وسلم بعضهم على بعض وسأل الفضل مالكا عن قصته فحدثه أن الله قد فتح عزاز وأذل من فيها ، وحدثه بما كان من حديث يوقنا ، وانني ما منعني من الرحيل الا هذا القس وسؤاله ، فقال له الفضل ايها القس قل ما انت قائل ، فقال القس أخبرني عن اي شيء خلقه الله تعالى قبل خلق السموات والارض ؟ فقال الفضل : أول ما خلق اللوح والقلم ويقال العرش

والكرسي ويقال الوقت والزمان ، ويقال العدد والحساب ، ويقال أول ما خلق الله جوهرة فنظر اليها فصارت ماء ، ثم خلق العرش ياقوته وكان عرشه على الماء ، وانه نظر الى الماء فاضطرب وارتعد وصعد منه دخان فخلق الله منه السماء ، ثم خلق الارض ، وقيل خلق أولا العقل لانه أراد أن ينتفع به الخلق ، وقيل أول ما خلق الله نورا وظلمة ، ثم دعاهما الى الاقرار فانكرت الظلمة واقر النور ، فخلق منه الجنة لرضاه عنه ، وخلق النار من الظلمة لسخطه عليها ، وخلق أرواح السعداء من النور وأرواح الاشقياء من الظلمه ، فلاجل ذلك كل منهم يرجع الى مستقره ، ويقال أول ما خلق الله نقطة فنظر اليها بالهيبة فتضعضعت وسالت ألفا فجعلها مبدأ كتابه العزيز فسبحان من ألف كتابه من نقطة ، وخلق خلقه من نقطة ، ثم يميتهم بقبضة ويحييهم بنفخة . فلما سمع القس ذلك من كلام الفضل ابن العباس . قال : اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمداً رسول الله ، هذا هو العلم الذي استأثر به انبياء الله تعالى . فلما نظر أهل عزاز الى قسهم وقد أسلم أسلموا عن آخرهم الا قليلا منهم والله أعلم .

(قال الواقدي) حدثني عامر بن يحيي عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش عن جده. قال لما أسلم أهل عزاز باسلام قسهم الذي كان معتقدهم عول الفضل ومالك على المسير الى حلب ، فقال يوقنا أنا والله ما لي وجه أقابل به المسلمين ، لاني كنت قلت قولا ودبرت أمرا فلم يتم لي واني سائر الى انطاكية فلعل الله ان يظفرني بالاعداء وينصرني عليهم ، فقال له الفضل ان الله تعالى . قال لنبيه (ص) ليس لك من الامر شيء فلا تحمل قلبك هما ، فقال ودين الاسلام لا ارجع الا بأمر يبيض الله به وجهي عند اخواني المسلمين ، فنظر وقد صحبه مائتان من بني عمه ممن قد رسخ في قلوبهم الايمان ولهم عيال وأولاد في حلب فاخذهم يوقنا وسار يريد انطاكية ، فلما قرب من أرضها أخذ منهم أربعة وامر الباقي ان يتعوقوا خلفه أربعة أيام ، ثم يأتوا كأنهم هاربون من العرب ليتم ما دبره في خاطره وسار هو والاربعة على طريق حارم والباقي على طريق أرناح ، وقال لهم الميعاد بيننا انطاكية ففعلوا ذلك وساروا وسار هو الى ان اشرف على دير سمعان المشرف على البحر ، فوجد هناك خيلا ورجالا يحفظون الطرقات ، فلما رأوا يوقنا والاربعة معه بادروا اليهم واستخبروهم عن حالهم ، فقال لهم يوقنا انا صاحب حلب وقد هربت من العرب فوكل بهم صاحب الدرك جماعة وأمرهم ان يسيروا بهم الى الملك فأخذتهم الخيل واتوا بهم اليه فوجدوه في كنيسة الفتيان يصلي ، فوقفوا حتى فرغ من صلاته فاوقفوا يوقنا بين يديه ، وقالوا ايها الملك ان بطرس صاحب الحرس الذي عند دير سمعان ، قد وجه بهذا ومن معه اليك ويزعم انه صاحب حلب ، فلما سمع هرقل ذلك . قال له يا يوقنا ما الذي اتى بك وقد بلغني انك دخلت في دين العرب ؟ ، فقال ايها الملك لقد بلغك الحق ، وذلك اني ما اسلمت الا لمكيدة القوم حتى اتخلص من شرهم ومن كراهة منظرهم ونتن رائحتهم ، واني قلت

لهم اسلم اليكم حصن عزاز واقتل صاحبها واخذت منهم مائة سيد من ساداتهم وسرت بهم ، وامرت أن ينفذ ورائي الف حتى اذا صاروا داخل الحصن اقبض عليهم وارسلهم اليك فعجل دراس علي ولم يفهم ما اضمرته ووثق بكلام جاسوسه ولم يثق بكلامي ، فقبض علينا فأتت العرب ووضعت السيف في اهلها ، وذلك أن لوقا قتل أباه رجل من العرب وانا من جملتهم ، فلما اشتغلوا بالقتال والنهب هربت انا وهؤلاء الاربعة وجئنا اليك ، ولولا محبتي في ديني ما كنت قتلت أخي يوحنا وصبرت على قتال العرب وحصارهم سنة كاملة .

(قال الواقدي) فاعانته البطارقة والملوك الذين كانوا حاضرين ، وقالوا صدق يوقنا أيها الملك ، وسيظهر لك فعله وعمله وجهاده ، فانبش وجه الملك لذلك وخلع عليه من لباسه الذي هو عليه وسوره ومنطقه وتوجه ، وقال له : ان كانت حلب أخذت منك فاني وليتك على انطاكية واعطاه وظيفة دمستقها وسكندرها يعني واليها .

(قال الواقدي) فسمع يوقنا له ودعا له . فبينما هو كذلك اذ أتى اليه الموكل بجسر الحديد واخبر الملك انه قد قدم عليهم مائتا بطريق من فرسان حلب ، وهم يزعمون انهم من بيت واحد من الرومية من بني عم يوقنا ، وانهم قد هربوا من العرب ، فلما سمع ذلك قال ليوقنا : ايها الدمستق والكندر قم واركب واشرف على هؤلاء القوم ، فان كانوا من بني عمك فأهل بهم وضمهم اليك ليكونوا عسكرك ، وان كانوا غير ذلك فات بهم لارى فيهم ما أرى ، وإياك أن يكونوا من قبل العرب ممن رجع الى دينهم من اهل سيجر وحماة والرستن وجوسية وبعلبك ودمشق وحوران ، فقال نعم أيها الملك فركب وركبت معه المفرسان من الملكية والسريرية ، وأتوا الى جسر الحديد وامر اصحاب الدرك ان يأتوا بالمائتين ، فلما رآهم يوقنا رحب بهم ونظروا اليه وهو في ذلك الزي والحشمة وخلعة الملك عليه ، فترجلوا وقبلوا ركابه ، فقال لهم كيف خلصتم من أيدي العرب ؟ ، فقالوا أيها السيد اننا خرجنا مع امير من امرائهم واغرنا على منبج وبزاعة ، فلما رجعنا نريد حلب اخذنا على عزاز فوجدناهم قد ملكوها ، فلما كان الليل تركناهم وأتينا .

(قال الواقدي) وهذا كله وحجاب الملك يسمعون ، فلما حضروا اخبروا الملك بذلك ودخل يوقنا بهم على الملك فخلع عليهم وانزلهم وامرهم أن يكونوا في خدمة يوقنا واعطاه دارا بازاء قصره، فقال يوقنا أيها الملك انت تعلم أن هذه الدار لا يدوم نعيمها، وأن السيد المسيح شبهها بالجيفة ، وطلابها بالكلاب يتجاذبونها . كما روى عن المسيح انه رأى طائرا حسنا مزينا بكل زينة ، فنزع جلده فرآه اقبح ما يكون منظرا ، فقال له من انت ؟ . قال انا الدنيا ظاهري مليح وباطني قبيح ، وانما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم انه ما خلا جسد من حسد ، واذا اقبلت الدنيا على احد كثرت حساده ، وانا اخاف من الحساد أن يتكلموا في عند الملك ويرموني بالبهتان وبما لا افعله ، فان

كان الملك ينفر مني فليول هذه الوظائف غيري وأنا ما أبرح على ركابك . ثم انه بكى ، فقال له الملك أيها الدمستق ما وليتك هذا الامر الا وقلبي وخاطري واثق بك ، ومن تكلم فيك بشيء سلمته اليك تفعل به ما تريد ، فشكره يوقنا واراد الخروج الى وظيفته التي ولاه اياها ، واذا بخيل البريد قد اقبلت من مرعش وهم رسل ابنته زيتونة ، وانها خائفة من العرب ، وهي تريد القدوم عليك حتى ترى ما يئول من الامر ،وانها تسألك أن نرسل لها جيشا يوصلها اليك ، فلما سمع الملك ذلك . قال ليس لهذا الامر الا الدمستق يوقنا ، فقبل الارض وقال السمع والطاعة لامرك فضم اليه الف فارس ومائتين من أصحابه من المدبجة والقياصرة .

(قال الواقدي) فسار بالالفين والمائتي فارس وقد رفع الصليب فوق راسه وجنبت الجنائب وعليها الرخوة المذهبة ، وسار يجد السير الى أن وصل الى مرعش وأخذ زيتونة بنت هرقل ، وهي الصغرى ، وكان الملك قد ولاها على تلك البلاد وزوجها بنوسطير بن حارس ، وكانوا يسمونه سيف النصرانية لشجاعته ، وكان قد قتل على اليرموك من جراحات أصابته .

(قال الواقدي) فلما أخذ يوقنا ابنة الملك وعاد يطلب بها انطاكية اخذ على الجادة العظمى لعله يلقي احدا من جواسيس المسلمين أو يرى معاهدا فيرسله ليعلم أبا عبيدة انه قد تمكن من الملك ومن البلد ، فلما وصل مرج الديباج ، وكان ليلا واذا بخيله التي على مقدمته قد أتته وهم مذعورون ، فقال لهم ما بالكم ، فقالوا له أيها السيد الدمستق ان هناك عسكرا نازلا فقربنا منهم فاذا هم عرب وهم نيام ولا شك أنهم مسلمون ، فقال لهم خذوا أهبتكم وايقظوا خواطركم وانصحوا لدينكم وجاهدوا عدوكم وقاتلوا عن ابنة الملك ولا تسلموها الى أعدائها وكونوا خير جند قاتل عن نعمة صاحبه ، واذا تمكن الحرب بيننا وبينهم فاعتمدوا على الاسر واياكم والقتل واعلموا أن العرب وأميرهم لا بد لهم ان يقصدوا الملك ومن معه ، فان أسروا منا احدا يكن عندنا الفداء ، فقد وجدت في كتاب حرفناس الحكيم : ان من نظر في عواقب زمانه توشح بوشاح أمانه ، ومن اهمل أمره خاف حذره ، ومن أكثر الفدر حل به الامر ، سيروا على بركة الله .

(قال الواقدي) فشرعوا الاعنة وقوموا الاسنة وقصدوا ذلك العسكر ، فلما أحسوا بهم بادروا اليهم واستقبلوهم وهم ينادون بعيسى بن مريم والصليب المفخم من أنتم ؟ . فقال لهم يوقنا ومن انتم ؟ فقالوا نحن أصحاب جبلة بن الايهم ، فلما سمع يوقنا ذلك ترجل عن دابته وسلم عليه وسلمت العرب المتنصرة على الروم ، فقال جبلة من أين جئتم ؟ فقال له مرعش ومعي ابنة الملك وانتم من أين جئتم ، فقال جبلة من العمق وقد أتينا بميرة أهلها ، فلما رجعت ووصلت الى مرج دابق لقيت كتيبة من فرسان المسلمين وهم زيادة عن مائتي وهم لابسون زينا ، فلما وصلنا اليهم ابتدرونا

بعزم شديد وحرب عتيد واذا مقدمهم لا يصطلي له بنار فلقد أباد منا رجالا وجندل منا ابطالا ونحن في ألفي فارس وهم مائتان وكان فينا كالنار المحرقة فما زلنا نقاتلهم حتى اسرناهم بعدما قتل الفارس منهم الفارس والاثنين والثلاثة منا وبقي أميرهم الى آخر الناس فقصدنا جواده بالسهام حتى قتلناه ووقع فهجمنا عليه واخذناه اسيرا . فاذا هو من أصحاب محمد وهو ضرار بن الازور ونحن قاصدون بهم الى الملك هرقل ليرى فيهم رايه فاظهر لهم يوقنا الفرح ، وقال وحق ديني لقد فزت بالفخر بأسرك لهؤلاء وهذا الفلام ، فلقد بلغني عنه ما فعل بأبطال الشام وفرسان الروم ، ثم سار القوم جميعا يطلبون انطاكية .

(قال الواقدي) حدثني الشريد بن عاصم عن شروان بن مجزل عن قادم ابن بشر عن زائدة بن معمر . قال حدثنا بشار عن عوف عن صالح عن عبدالله عن جده مسروق ، قال المؤلف : وحدثني هذا الحديث عباد بن عاصم عن عمران بن حصين . قال لما فتح المسلمون حصن عزاز وترك مالك الاشتر عليها سعيد بن عمرو الفنوي والتقى بالفضل بن العباس ورجعا بالغنائم الى حلب استبشر ابو عبيدة بسلامة الناس وبفتوح عزاز فسأل مالكا عن يوقنا فحدثه فيما بينه وبينه سرا وانه قصد انطاكية ليدخل على كلب الروم بحيلة ولم يكن له وجه يعود اليك به ، فقال ابو عبيدة الله ينصره ويظفره ويغفر له ، فلقد ظهر لنا منه ما لم يكن لنا في حساب ، ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب (رض) كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من ابي عبيدة عامر بن الجراح الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب سلام عليك . فاني احمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد (ص) أما بعد . فان الله سبحانه له المنة علينا التي يستوجب بها الحمد من جميع المسلمين اذ فتح علينا مستصعب قلاع الكفر وحصونه واذل لنا ملوكهم واورثنا ارضهم وديارهم وان سبحانه قد فتح علينا قلعة حلب واردفها بحصن عزاز وان البطريق يوقنا صاحب حلب قد أسلم وحسن اسلامه وقد صار عونا للمسلمين على الكافرين من بعد ما قاسينا منه ما الله عالم به فالله يجازيه فلقد نصر الله به الدين ونصح للمسلمين واباد المشركين ، وقد دخل انطاكية يدبر حيلة على كلب الروم ، وقد ألقى بنفسه الى الهلاك في طاعة الله ورسوله ، ولقد كتبت هذا الكتاب ونحن معولون على المسير الى انطاكية نقصد طاغية الروم فما بقي حصن سواه لاعدائنا قريبا منا ونحن طامعون في أخذه واخذ سريره وكنوزه كما وعدنا رسول الله (ص) فزودنا بالدعاء منك فانه سلاح المؤمنين ودمار الكافرين ، والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته . ثم انه اخرج الخمس وسلمه الى رباح بن غانم اليشكري وضم اليه مائتي فارس من المسلمين فيهم قتادة وسلمة بن الاكوع وعبدالله بن بشار وجابر بن عبدالله ومثل هؤلاء (رض) فأخذوا الخمس وساروا . ثم ان أبا عبيدة دعا بضرار بن الازور وضم اليه مائتي فارس وامره أن يشن الغارة فركب ضرار

وكان معهم سفينة مولى رسول الله (ص) ولم يزل ضرار سائرا هو ومن معه ومعهم رجال من المعاهدين يدلونهم على الطرق حتى وصلوا الى مرج دابق ، وكان وقت السحر ، فقال لهم المعاهد ارفقوا على خيولكم فنزلوا واراحوها بقية يومهم وليلتهم حتى اذا كان وقت السحر فما شعروا الا وجبلة كبسهم ، فلما وقع الصياح ركب ضرار وركب معه نحو بمائة فارس واما المائة الاخرى فقد دهمتهم خيول المتنصرة فلم يتمكنوا من الركوب فقاتلوا رجالا فنفرت خيولهم ووصل اليهم عدوهم حتى انه قتل كل واحد خصمه وتكاثرت عليهم الخيل فأسروا المائة واما ضرار فانه صاح بالمائة الثانية ، وقال يا فتيان العرب ان اعداءكم قد هاجموكم على حين غفلة منكم وهم عرب مثلكم وهذه أفضل الساعات عند الله فقووا عزمكم ولا تفشلوا فانتم تعلمون أن النبي (ص) . قال « الجنة تحت ظلال السيوف » وقد قال الله تعالى ــ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ــ . قال ميسرة بن عامر ، وكان من جملة من حضر معنا في مرج دابق ربيعة بن معمر بن أبي عوف وهو ابن عمر بن ربيعة الشاعر وكان ربيعة من فصحاء العرب لا يتكلم الا بالسجع كلامه ينظم بحسن مقاله وكنا نصغي اليه اذا سجع ونحفظ منه ، فلما سمع ضرارا وهو يحرضنا . قال : يا فتيان العرب لن تنالوا الجنة الا بالصبر على المكاره ، والله لن يدخلها من هو للجهاد كاره :

ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

واعلى الدرجات درجة الشهادة ، فارضوا علم الغيب والشهادة فهذا الجهاد قد قام على ساقه وكسد النفاق في أسواقه واختفى بنفاقه في انفاقه أما انتم أصحاب نبي العصر ؟ ولم يئستم من الثبات والنصر ؟ بشروا روح المصطفى بثباتكم وقووا العزم بصفاء نياتكم ، واياكم أن تولوا الادبار فتستوجبوا غضب الجبار ، واعلموا ان النصر والثبات جندان منصوران فمن طلب دار البقا هان عليه الملتقى فصححوا طلبتكم تنالوا رحمة ربكم ، حققوا حملتكم تنالوا بغيتكم واطعنوا النحور تنالوا الحور وتسكنوا القصور وقوموا الاسنة تنالوا الجنة واعتمدوا على الصبر تنالوا النصر واياكم ان توافقوا الكفار في حالهم واعدلوا عن طريق قولهم . قال العالم بحالهم وفعلهم ــ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ــ . قال سمرة ابن غانم : والله لقد دهشت انفسنا بقوله وحملنا على المتنصرة وضرار ينشد :

الا فاحملوا نحو اللئام الكواذب لترووا سيوفا من دماء الكتائب
وردوا عن الدين المعظم في الورى وارضوا اله العرش رب المواهب
فمن كان منكم يبتغي عتق ربه من النار في يوم الجزا والمآرب
فيحمل هـذا اليوم حملة ضيغم ويرضي رسولا في الورى غير كاذب

(قال الواقدي) ثم حمل ضرار ونحن من ورائه وبذلنا نفوسنا وروينا سيوفنا

ورماحنا من المتنصرة وجرى الحرب بما لا يوصف وضرار فيهم كانه النار في الحطب اليابس وجبلة بن الايهم يتعجب من حملاته وضرباته فأمر قومه ان يقصدوا جواده بسهامهم ، ففعلوا ذلك فانصرع الجواد ووقع ضرار فتكاثروا عليه واخذوه أسيرا واخذوا بقية اصحابه وساروا يريدون انطاكية فالتقوا بيوقنا وابنة الملك كما ذكرنا .

(قال الواقدي) ولقد حدثني معمر بن رواحة عن القاسم عن خزامة بن عمرو وعن ابي المنذر ان سفينة مولى رسول الله (ص) كان في حرب ضرار بن الازور أسيرا ، فلما كان الليل انطلق هاربا يلتمس الوصول الى ابي عبيدة ، فاذا هو بأسد عارضه . فقال سفينة يا أبا الحرث انا مولى رسول الله (ص) وكان من امري كيت وكيت فقرب منه وهو يبصبص بذنبه حتى وقف الى جانبه واشار اليه براسه أن سر فسرت وهو الى جانبي حتى اتى بي الى بلد من صلحنا فتركني ومضى .

(قال الواقدي) فلما وصل سفينة الجيش حدث الناس بأسر ضرار ومن معه فصعب ذلك على المسلمين وبكى ابو عبيدة وخالد بن الوليد على أسرهم ، وقالا لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم وبلغ ذلك اخته خولة . فقالت ــ انا لله وانا اليه راجعون ــ يا بن أمي ليت شعري في السلاسل اوثقوك ، أم بالحديد قيدوك ، أم في البيداء طرحوك ، أم بدمائك خضبوك ، وانشدت تقول :

الاه مخبر بعد الفراق يخبرنا ... فمن ذا الذي يا قوم اشغلكم عنا
فلو كنت أدري انه آخر اللقا ... لكنا وقفنا للوداع وودعنا
ألا يا غراب البين هل انت مخبري ... فهل بقدوم الغائبين تبشرنا
لقد كانت الايام تزهو لقربهم ... وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا
الا قاتل النوى ما امرّه ... واقبحه ماذا يريد النوى منا
ذكرت ليالي الجمع كنا سوية ... ففرقنا ريب الزمان وشتتنا
لئن رجعوا يوما الى دار عزهم ... لثمنا خفافا للمطايا وقبّلنا
ولم انس اذ قالوا ضرار مقيد ... تركناه في دار العدو ويممنا
فما هذه الايام الا معارة ... وما نحن الا مثل لفظ بلا معنى
ارى القلب لا يختار في الناس غيرهم ... اذ ما ذكرهم ذاكر قلبي المضنى
سلام على الاحباب في كل ساعة ... وان بعدوا عنا وان منعوا منا

(قال الواقدي) ولقد بلغني عن واصل بن عوف انه قال اجتمعت النساء من العربيات ممن كان لهم أسير مع ضرار عند خولة ومن جملتهم مزروعة بنت عملوق الحميرية وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابر بن أوس فيمن أسر مع ضرار فجعلت تندب ولدها وتقول :

ايا ولدي قد زاد قلبي تلهبا ... وقد احرقت مني الخدود المدامع
وقد أضرمت نار المصيبة شعلة ... وقد حميت مني الحشا والاضالع

واسأل عنك الركب كي يخبروني ... بحالك كيما تستكن المدامع
فلم يكن فيهم مخبر عنك صادقا ... ولا منهم من قال انك راجع
فيا ولدي مذ غبت كدرت عيشتي ... فقلبي مصدوع وطرفي دامع
وفكري مقسوم وعقلي موله ... ودمعي مسفوح وداري بلاقع
فان تك حيا صمت لله حجة ... وان تكن الاخرى فما العبد صانع

فقالت لهن سليمى بنت سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وكانت من الزاهدات العابدات أبهذا أمركن الله ؟ انما أمركن بالصبر.ووعدكن على ذلك الاجر ، اما سمعتن ما قال الله سبحانه وتعالى ـ الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون ـ فاصبرن تؤجرن فسكتن عن البكاء .

(قال الواقدي) ولما ورد الخمس على امير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وكتاب ابي عبيدة مع رباح بن غانم اليشكري وقع الصائح في المدينة بقدومه ، فاجتمع الناس الى المسجد ليسمعوا ما تجدد من امر المسلمين ، فلما دخل رباح المسجد بدا بالسلام على قبر رسول الله (ص) وعلى قبر ابي بكر وصلى ركعتين واتى عمر وقبل يده وعرض عليه الكتاب فقراه على المسلمين فضجوا بالتهليل والتكبير وصلوا على البشير النذير ، واخذ الخمس وكتب الى ابي عبيدة يامره بالمسير الى أنطاكية ولا يصده عن ذلك شيء ورد الجواب مع رباح اليشكري .

(قال الواقدي) اخبرني مازن بن عبد ربه عن مالك بن اسيد عن جده مروان بن الجرير ان الجواب لما ورد على ابي عبيدة سار من يومه يطلب انطاكية . قال واما ما كان من امر يوقنا رحمه الله تعالى وجبلة بن الايهم لعنه الله فانهم ساروا الى انطاكية وسبق البشير الى الملك هرقل بقدوم ابنته مع يوقنا وقدوم يوقنا ومعه المائتا اسير من المسلمين فأمر بتزيين البلد والبيع فأظهرت الروم زينتها ودفعت الصدقات الى الفقراء واخرج موكب الروم الى لقائهم مع ابن اخيه في زينة عظيمة ودخل القوم وهم في زيهم وحشمهم وكان يوما مشهودا وقد ترجلت الملكية والسريرية بين يدي ابنة الملك وخرج كل من بانطاكية وقدموا اصحاب رسول الله (ص) امامها وهم مشدودون والروم تشتمهم وتبصق عليهم وقد دارت بهم الرجال والبطارقة ودخلت ابنة الملك الى قصر ابيها .

(قال الواقدي) ودخل جبلة بن الايهم ويوقنا على الملك فخلع عليهما وعلى كبار أصحابهما ، ثم انهم أحضروا الصحابة واوقفوهم بين يديه وهم في الحبال ، فلما وقفوا صاحت بهم الحجاب اسجدوا الى الارض تعظيما للملك فلم يلتفتوا الى قولهم ولا اعتنوا به . فقال لهم الحاجب الكبير : ما منعكم أن تعظموا الملك بالسجود بين يديه ؟ فقال لهم ضرار لا يحل لنا أن نسجد لمخلوق وقد نهانا نبينا (ص) عن ذلك .

(قال الواقدي) حدثني سهل بن برقان (رض) عن السائب بن حازم عن الحكم بن مازن . قال لما وقف ضرار والصحابة بين يدي هرقل خاطبهم من غير ترجمان وأراد الملك أن يسمع بطارقته وحجابه بما كان يحدثهم به حين بعث النبي (ص) ، وذلك انه جمعهم اليه لما بلغه أن النبي (ص) قد ظهر وقال : هذا هو النبي المبعوث الذي بشر به عيسى بن مريم وهو صاحب الوقت ولا بد لدينه ان يظهر حتى يملأ المشرق والمغرب ، ثم ان هرقل دعاهم لاداء الجزية فأرادوا قتله فأراد ذلك اليوم أن يبين لهم حقيقة قوله وانه اراد بذلك الاصلاح لهم ولجالهم . فقال لضرار ومن معه من يخاطبني منكم عما أسأله من العلم ؟ فأشاروا الى قيس بن عاصم الانصاري (رض) وكان شيخا معمرا وكان شاهد جميع احوال رسول الله (ص) ومعجزاته وغزواته ، فلما اشاروا اليه قال للملك قل ما أنت قائل ايها الملك . قال هرقل كيف نزل على نبيكم الوحي أول مبتدإ امره . فقال قيس ابن عاصم : سأل هذا السؤال لنبينا (ص) رجل من مكة يقال له الحرث بن هشام . فقال لرسول الله (ص) كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله (ص) يأتيني احيانا مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فينفصم عني وقد وعيت عنه ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول . قال قيس : ولقد كان ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فينفصم عنه وان جبينه ليرفض عرقا ، فأول ما بدىء به رسول الله (ص) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه : اي يتعبد الليالي ذوات العدد ، فلم يزل كذلك حتى جاءه الملك وقال له اقرا . فقال لست بقارىء : قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني وقال لي اقرا فقلت ما انا بقارىء ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني وقال لي اقرا فقلت لست بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال — اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم — فرجع بها رسول الله (ص) يرجف بها فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد (رض) . فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فأخبر خديجة وقال لها لقد خشيت على نفسي . فقالت له خديجة : كلا لا يخزيك الله ابدا انك تصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقوي الضعيف وتعين على نوائب الدهر والحق ، وذكر الحديث بطوله . قال رسول الله (ص) بينما انا أمشي اذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فاذا انا بالملك الذي جاءني بحراء وهو جالس على كرسي بين السماء والارض فخشيت منه رعبا فرجعت الى خديجة فقلت دثروني دثروني فأنزل الله تعالى — يا أيها المدثر قم فأنذر — الآية ، ثم حمي الوحي وتتابع ، ولقد كنت معه يوما في المسجد اذ دخل رجل ومعه بعير له فأناخه بالباب وعقله ودخل وقال السلام عليكم فرددنا عليه السلام . فقال أيكم محمد ؟ فقلنا هذا الابيض الوجه . فقال له الرجل يا ابن عبد المطلب قد أتيت أسألك مشددا عليك فلا تجد علي في نفسك . فقال له سل

عما بدا لك . فقال بربك ورب من قبلك آلله ارسلك الى الناس كلهم كافة ؟ . قال اللهم نعم . قال انشدك بالله آلله امرك ان تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ . قال اللهم نعم . قال انشدك بالله آلله امرك ان تصوم هذا الشهر من السنة ؟ . فقال اللهم نعم . فقال انشدك بالله آلله امرك ان تأخذ هذه الصدقة من اغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ . فقال اللهم نعم . فقال الرجل آمنت بما جئت به وانا رسول من ورائي من قومي : انا ضمام بن ثعلبة اخو بني سعد بن بكر . فقال هرقل بحق دينك ما الذي رايت من معجزاته . قال كنت معه في سفر فأقبل اليه اعرابي فدنا منه . فقال له النبي (ص) اتشهد ان لا اله الا الله واني محمد رسول الله . قال الاعرابي ومن يشهد بما تقول فقال النبي (ص) هذه الشجرة ، ثم ان النبي (ص) دعا الشجرة وهي بشاطىء الوادي فأقبلت اليه وهي تخط الارض حتى قامت بين يديه فاستشهدها ثلاث مرات . فقالت أنت محمد رسول الله ، ثم امرها فرجعت الى منبتها . فقال هرقل انا نجد في كتابنا ان الرجل من أمته اذا عمل السيئة كتبت عليه واحدة وان عمل الحسنة كتبت له عشرا . قال قيس بن عاصم هذا في كتابنا . قال الله تعالى ــ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي الا مثلها ــ فقال هرقل : اعلم ان النبي (ص) الذي بشر به عيسى المسيح هو الشاهد على الناس يوم القيامة . فقال قيس هو نبينا ، قال الله تعالى في كتابه العزيز ــ يا ايها النبي انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا ــ الآية : أما شهادته في العقبي فهو قول ربنا في كلامه القديم ــ وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ــ . فقال هرقل : ان الذي وصفته لك هو الذي يأمر العباد ان يمضوا اليه في حياته ويصلوا عليه في حياته وبعد وفاته . فقال قيس هو نبينا (ص) . قال الله تعالى في كتابه العزيز ــ ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ــ قال هرقل ان الذي وصفه المسيح يعرج به الى السماء ويخاطبه العلي الاعلى . فقال قيس هو والله نبينا (ص) . قال الله تعالى في حقه ــ سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ــ » .

(قال الواقدي) وكان في ذلك الوقت بترك الروم وهو راس دينهم جالسا يستمع هذا الكلام فالتفت هذا البترك الى الملك وقال له أيها الملك ان الذي ذكره عيسى لم يبعث بعده ولا قبله بل هي تآويل كاذبة . فقال ضرار بن الازور كذبت في وجهك وكذبت هذه اللحية الملعونة المخزية يا كلب الروم أنت من أمثالك من يكذب عيسى عليه السلام وينكر بعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ، اما تعلم ان عيسى قراه في الانجيل وموسى قراه في التوراة وقراه داود في الزبور ، وان نبينا المبعوث بخير الاديان المشهود له بالنبوة والرسالة في كتاب الله العزيز وجميع الكتب المنزلة على الانبياء من قبله ، وهو نبينا محمد بن عبدالله بن عبد المطلب المكي ، ولكن حجاب الكفر منعكم عن معرفته ، فلما ان سمع هرقل من ضرار هذا الكلام قال له لقد اسات الادب في المجلس اذ خرجت

واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم ، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنو عمه المائتان . فقال يوقنا لفلنطانوس : ايها الملك عولت على ان تكبس المسلمين فقال لا والقديم الازلي وانما انا قاصد اليهم وداخل في دينهم وملتهم واكون من جملتهم ، فمن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن عولنا عليه ؟ . فقال يوقنا ايها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على ان يغدر بالروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما ارى معك الا نفرا يسيرا . فقال ايها الملك ان في داخل بيتي مائتين من المسلمين من اكابر اصحاب رسول الله (ص) في مقام عشرين الفا من الروم ، ولقد رايت ان تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلا الى امير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه فاذا كان غدا تقف أنت وجيشك حول الملك هرقل وادخل انا البلد واطلق المائتي اسير واعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل انت وعسكرك على مركب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه وتكون قد جاهدت واسير انا ومن معي في داخل البلد فنملكها ان شاء الله تعالى ، وان اردت ان ترجع الى دار ملكك ويكون امرك مكتوما علينا فحول امر جيشك لمن تثق به من بني عمك . قال فلنطانوس ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا ، بل اذا قضى هذا الامر ونصر الاسلام قصدت مكة فأحج وازور قبر النبي (ص) ، ثم ارجع الى بيت المقدس فأقيم فيه الى ان اموت ، فمن يذهب الى امير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه ؟ فقال له يوقنا : اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وانا اعلمهم بما قد وقع ، قال فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل واذا بشيخ قصد اليهما فتأمله يوقنا فاذا هو عمرو بن امية الضمري ساعي رسول الله (ص) فسلم على يوقنا وعلى من معه ، وقال ليوقنا ان الامير ابا عبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه راى في المنام رسول الله (ص) واخبره بما كان من امر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقد تفتح انطاكية ويزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها .

(قال الواقدي) فتهلل وجه فلنطانوس فرحا وازداد ايمانا وقال : الحمد لله الذي هدانا للاسلام والايمان .

(قال الواقدي) وذلك ان ابا عبيدة (رض) رأى النبي (ص) في النوم وهو يقول يا ابا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغدا تفتح انطاكية صلحا وان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من امره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فأنفذ اليهما بنجاز الامر . قال فاستيقظ ابو عبيدة وقص رؤياه على خالد وانفذ عمرو بن امية كما ذكرنا . قال فلما سمع فلنطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال : اشهد أن لا اله الا الله واشهد أن محمدا رسول الله ، واشهد ان هذا

ولا ضاع عند الله ما تصنعانه ... فقد خف عني ما وجدت من الضر
بصنعكما لي نلت خيرا وراحة ... كذلك فعل الخير بين الورى يجري
وما بي وايم الله موتي وانما ... تركت عجوزا في المهامة والقفر
ضعيفة حال ما لها من جلادة ... على نائبات الحادثات التي تجري
تعودها حب القفار مقيمة ... على الشيح والقيصوم والنبت والزهر
وكنت لها ركنا تعد رحاله ... واكرمها جهدي وان مسني فقري
واطعمها من صيد كفي ارانبا ... من الوحش واليربوع والظبي والصقر
من الضب والغزلان والبهت بعد ... مع البقر الوحش المقيمات في البر
واحمي حماها ان تضام ولم ازل ... لها ناصرا في موقف الخير والشر
واني اردت الله لا شيء غيره ... وجاهدت في جيش الملاعين بالسمر
وارضيت خير الخلق اعني محمدا ... لعلي انال الفوز في موقف الحشر
فمن خاف يوم الحشر ارضى الهه ... وقاتل عباد الصليب بني الكفر
كذا جلت يوم الحرب في كل كافر ... وجندلته بالطعن في الكر والفر
تقول وقد حان الفراق لحينه ... الا يا أخي ما لي على البين من صبر
الا يا أخي هذا الفراق فمن لنا ... بحسن رجوع قادم منك بالبشر
اذا سافر الانسان عن ارض اهله ... فاما رجوع او هلاك مدى الدهر
الا بلغاها عن أخيها تحية ... وقولا غريب مات في قبضة الكفر
جريح طريح بالسيوف مشرح ... على نصرة الاسلام والطاهر الطهر
الا يا حمامات الاراك تحملي ... رسالة صب لا يفيق من السكر
حمائم نجد بلغي قول شائق ... الى عسكر الاسلام والسادة الغر
وقولي ضرار في القيود مكبل ... بعيد عن الاوطان في بلد وعر
حمائم نجد اسمعي قول مفرد ... غريب كئيب وهو في ذلة الاسر
وان سألت عني الاحبة خبري ... بأن دموعي كالسحاب وكالقطر
حمائم نجد خبري الاخت انني ... قتلت بحد المرهفات من البتر
حمائم نجد عددي عند موطني ... وقولي ضرار قد يحن الى الوكر
وقولي لهم اني أسير مقيد ... له علة بين الجوانح والصدر
له من عداد العمر عشر وسبعة ... وواحدة عند الحساب بلا نكر
وفي خده خال محته مدامع ... على فقد أوطان وكسر بلا جبر
مضى سائرا يبغي الجهاد تطوعا ... فوافاه أبناء اللئام على غدر
الا فادفناني بارك الله فيكما ... الا واكتبا هذا الغريب على قبري
الا يا حمامات الحطيم وزمزم ... الا خبرا امي ودلا على امري
عسى تسمح الايام منا بزورة ... لقلب غريب لا يرام من الفكر

(قال الواقدي) لما كتب ابن يوقنا هذه الابيات كتب ابوه يوقنا الى ابي عبيدة

يعلمه بما يريد أن يدبره وسلمه الى رجل يثق به وبعثه الى المسلمين .

قال المؤلف حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاط اذ جاء معن بن أوس من آل مخزوم ، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة فجاء برجل من الروم فقال لابي عبيدة خذ هذا اليك فهو يزعم انه رسول فاستخبره ابو عبيدة في السر . فقال انا رسول اليك بكتاب . فقال ممن، قال من يوقنا ومن اسير لكم بانطاكية يقال له ضرار بن الازور فأخذ ابو عبيدة الكتاب وقراه على من يعز عليه فبكوا من أبيات ضرار وبلغ الخبر اخته فأتت الى ابي عبيدة وقالت يا أمين الامة اسمعني أبيات اخي فقرأ البعض عليها ولم يتمها فاسترجعت وقالت ـ انا لله وانا اليه راجعون ـ ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، فوالله لآخذن بثأره ان شاء الله تعالى وحفظ الناس ابيات ضرار وتداولوها بينهم فكان اشد الناس عليه حزنا خالد بن الوليد .

(قال الواقدي) حدثنا عبد الملك بن محمد عن ابيه حسان ابن كعب عن عبد الواحد بن عون عن موسى بن عمران اليشكري عن عامر بن يحيي عن أسد بن مسلم عن دارم بن عياش ان أهل حازم فتحوا قلاعا كثيرة وحصونا منها الراوندات وما سواها من قورص وباسوطا ، ولم يزل أبو عبيدة سائرا بالمسلمين الى ان نزل على جسر الحديد وبلغ الخبر هرقل فتمكن الخوف من قلبه وامر بطارقته بالتأهب للقتال ونصب سرادقاته مما يلي جسر الحديد وضربت الملوك خيامها وفتح الملك هرقل خزائن السلاح وفرقها على رجاله وابطاله وخلع على يوقنا وقال له أيها الدمستق قد وليتك على جيشي هذا كله فكن انت مدبره وسلم اليه صليبا كان في بيعة القيسان لا يخرجونه الا في الايام العظام عندهم وقال له أيها الدمستق قدم هذا الصليب بين يديك واعتمد على نصرته فهو ينصرك فأخذه وسلمه الى ولده وأمره ان يحمله بين يديه فعندها ركب الملك هرقل الى كنيسة القيسان ومعه الملوك والحجاب حتى يصلي صلاة النصر ، فلما وصلوا وصلى الملك جلس وأمر باحضار المائتين من اصحاب رسول الله (ص) ليقربهم قربانا فقبل يوقنا يده وقال له : يا عظيم الروم ما ولاك الله على البلاد والعباد الا وقد علم أن عقلك يسع ذلك وقد قال ديسقور الحكيم : ان العقل مرقى جليل وصاحبه نبيل ، لانه عز الانسان ومصباح الانام ، واعلم أيها الملك أن العرب قد قصدتنا بعددها وعديدها وقد نزلوا على جسر الحديد ولا بد لنا من القتال والمصاف معهم ولا ندري على من تكون الدائرة ، فان قتلت هؤلاء الاسرى ووقع أحد منا بأيديهم فانهم لا يبقون عليه ، والصواب تركهم الى أن نرى ما يئول من امرنا ، فان أسروا من أصحابنا احدا أو من اعياننا نفاديه ، فقال أرباب الدولة صدق الدمستق في قوله قال البترك ايها الملك احضرهم الى هذه الكنيسة فانها احسن كنائس بلدنا وأمر النساء والبنات يتزين ويحضرن هنا فاذا هم نظروا الى نسائنا وحسنهن وجمالهن وطيب رائحتهن مالت انفسهم اليهن فيرجعون الى ديننا فيكون ذلك وهنا على المسلمين .

قال فأمر بذلك ، فلما حضروا رفعت القسوس أصواتهم بقراءة الانجيل فرفع المسلمون أصواتهم بالتهليل والتكبير وقالوا كذب الجاحدون وضلوا ضلالا بعيدا ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله ، وكان في الاسرى رجل من اليمن من فضلائهم وعلمائهم ممن علم علم الحميريين وقرأ الكتب السالفة وكان اسمه رفاعة بن زهير يقول الشعر وينظم الكلام وانه لما نظر الكنيسة ملآنة بأهل الكفر ورآهم يعظمون الصلبان ويسجدون للصور قال الله أكبر الله أكبر لا اله الا الله كذب العادلون عن الله أصحاب الشيطان ولا اله الا الله الواحد الرحمن الذي ليس له اب محسوب ، وانه فرد صمد لا الى شيء منسوب ، ليس له ضد ولا ند ولا حد أوجد الموجودات ، وصور المخلوقات ، وخلق الكائنات ، ودبر الارض والسموات ، أول لا افتتاح لوجوده ، وآخر لا عدم لشهوده لا يموت ولا يفنى ، ولا يزول ولا يبلى ، لا شريك له ولا وزير له ولا صاحب له ، ولا مشير له ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . قال فاضطربت الكنيسة لقوله ومالت القسوس بعكاكيزها اليه فأشارت الحجاب اليهم ان لا يكموه ويتركوه فتفرقوا عنه . فقال له الملك هرقل ما اسمك يا اخا العرب . قال أيها الملك وما تريد من اسمي ولست من جنسكم فتستخبروني ؟ ، فقال البترك صدق أيها الملك ليس هو من جنسنا ولا له علم ولا خبرة فعلام تسأله انما هو بدوي يعلم بسكنى القفار وصحبة الاشرار والحكمة من بلادنا ظهرت ، وفي حكمائنا اشتهرت ، لأنها نبعت من اليونانيين ووعاها جدودنا السريانيون من أين للعرب حكمة يتوارثونها وعلوم يتدارسونها والفضائل كلها من علمائنا والعدل في ملوكنا الاسكندر وبطليموس وموريق ويوسطنيوس وارمويل وانطاميس وارجاس وجرجس واسطوس واسطانيس وسارغورس النوصيدي ، وهو الذي بنى انطاكية وسفليوس واريسا ، وكان نبيا ملكا ويلينوس وهو الذي بنى الرها ومنبج واسطبس وكان كاهنا وهو الذي اخبر ملك زمانه انه قد ولد مولود يخاطب الرب ويكون له شأن ونبأ عظيم يهلك على يديه أفلاطون وهو فرعون ، ومنافسطين الحكيم ومنا فجر العلوم ، ومنا منتهو وهو الذي بنى رومية الكبرى وباسمه ، ومناسطاليوس وهو الذي وضع الكتاب الاول الذي فيه حوزة الارض بجبالها وبحارها وبنائها وصوانها ووصف أمة كل اقليم بألوانها وخواصها ووصف ما في كل اقليم من معدن ذهب أو فضة أو جوهر وأحصى عيون الارض جميعها بأسمائها وجبالها وأوديتها وشعابها وغدرانها وعجائبها ، ومنا ايردروس القلنسب الرومي وهو الذي يقول لاحشرني الله مع الذين يقال لهم في الميعاد ادبروا مع ابليس وجنوده الى النار ، الم تطهر نفسك أيها المسكين الناظر في كتابي القاري الآبي من ادناس الدنيا وشهواتها المظلمة للنفوس المعوقة للحس الروحاني النوراني ان ترقى الى عالم عليين فانظر في الحكمة فانها سلم العالم الروحاني فمن عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ومصوره ومنشئه .

(قال الواقدي) انما تكلم البترك بهذا الكلام بين يدي الملك هرقل وهو يظن انه

يطعن في العرب ليسمع جبلة بن الايهم حكمته ، وكان جبلة وولده حاضرين وكان بين البترك وبينه عداوة سببها أن البترك كان بنى له ديرا عظيما وجعل له عيدا في السنة تقصده الروم من كل مكان بالنذور والاموال والستور والشموع ، وكان ذلك كله برسم البترك قال فاعطى الملك لجبلة تلك الارض التي فيها الدير فتغلب جبلة على الدير وبنى حوله مدينة وسماها باسمه وهي جبلة هذه .

حدثنا سليمان بن عامر عن منصور الجوني . قال حجاج بن جريج اخبرني يحيي بن عمارة ابن أبي الحسن . قال لما سمع رفاعة بن زهير كلام البترك تبسم من قوله وقال : ايها البترك لقد مدحت اقواما ليس لهم الى الفضل سبيل ، ولا فيهم فاضل ولا نبيل ، ولا من وحد الملك الجليل ، الذي ليس له مثيل ولا عديل ، وما الفضل الا لولد اسمعيل بن ابراهيم الخليل ، الذي لهم البيت الحرام وزمزم والمقام والمشعر الحرام ، ومنهم التبابعة والاقيال والحماة والاشبال الذين ملكوا الارض في الطول والعرض ، ومنهم الملك الصعب الاسكندر الذي ملك قرني الارض ودخل الظلمات ودخل في طاعته أهل الارض ، وبلغ مطلع الشمس ومغربها واذل ملوكها وجعل له منهم جندا واعوانا وسماه الله ذا القرنين ، ومنهم سبأ بن يعرب بن قحطان وشداد بن عاد وشديد بن عاد وعمرو ذو الاذقان وهو ابن سكسك والهدهد بن عاد ولقمان بن عاد وشعبان بن اكسير بن تنوخ وعباد بن رقيم ، وهاديل بن عتبان وكان يتكلم بالحكمة ومناجاة موسى (٧) بن جلهمة بن سياسة بن عجلان بن ياقد بن رخ وثمود بن كنعان ، ومنا سبأ بن يشجب ، وهو أول متوج منا ثم ولى بعده حمير ثم منا تبع وهو متوج ومنا وائل بن حمير متوج ومنا عاد بن حمير متوج ومنا نبي الله حنظلة ابن صفوان من أهل الرس ، ومنا نفيل بن عبد المدان بن خشدم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان بن هود عليه السلام عاش خمسمائة سنة ، وهو الذي بني المصانع واستخرج الكنوز وقاد الجيوش وورثه الله علم نبيه حنظلة بن صفوان ، وقد ختم الله شرفنا ورفع قدرنا اذ جعل محمدا (ص) منا فنحن السادة وانتم العبيد .

حدثنا سفيان عن عبد ربه . قال اخبرنا رحيم ، قال حدثنا الوليد بن زيادة عن حزام ابن حكيم قال : بلغني أن هذا الرجل يعني رفاعة بن زهير بن زياد بن عبيد بن سرية الجرهمي ، كان عالما بأنساب العرب واخبارهم وملوكهم وكان طالع كتب هود وصالح وحنظلة عليهم السلام ، فلما تكلم بحضرة الملك هرقل بهذا الكلام اراد البترك ان يعجزه بسؤال يلقيه عليه ، فقال يا ذا الهمم العلية والقرائح الذكية بم تصل القلوب الى نسيم العقل الروحاني وترقى الى ملكوت اللاهوت والطيور الخفية الغائبة عن الابصار بالاقطار وترقى في رياضات الالباب المصفاة من الادناس والافكار النورانية بصفو اكدار الاخلاق المحيطة بالافكار من الهياكل الجسمانية ؟ فعند الصفو من مفارقة الكدر تعيش الارواح عيشة الابد الذي لا يصل اليه انحلال ولا اضمحلال ، فحينئذ

يختلط العنصر بالعنصر ، ويطفو الصفو بالصفو ، ويرسب الكدر الى الكدر ؟ فقال رفاعة بن زهير ما اصبت ايها البترك في مقالتك ، فقال ولم ؟ قال رفاعة كيف تدل القلوب الى علام الغيوب ، وقد حجب عنها صواب المصيب ، أم كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب من الكفر وكيف تحلى الافكار من غوامض الاسرار وهي في حجب الاغترار اذا تناهت الاهوال الى مفازاتها وقربت الهمم من مواضعها وعادت الفكر الى عناصرها وعادت متحركات الفكر الى مساكنها وغاليات الاذهان الى اماكنها فانحازت الاشكال عن الاشكال بلطف تأثير الهوى فيها وانكبت مشرفة عن هياكلها من اقطار عناصرها . قال ايها البترك هذا كلام العرب الذي زعمت ان الحكمة ليست من اخلاقهم ولا تباع في اسواقهم ولقد كان ملك من ملوك اليمن اسمه سيف بن ذي يزن الذي بشر نبينا محمد (ص) يتكلم بفوامض العلوم الحكمية ووشح بوشاح شكر النعمة ، ومن جملة ما قال فصيح من فصحائنا اسمه قيس بن ساعدة هذه الابيات :

الا اننا من معشر سبقت لهم ... اياد من الحسنى فعوفوا من الجهل
ولم ينظروا يوما الى ذات محرم ... ولا عرفوا الا التقية في الفعل
وفينا من التوحيد والفعل شاهد ... عرفناه والتوحيد يعرف بالعقل
نعاين ما فوق السماء جميعها ... معاينة الاشخاص بالجوهر المجلى
ونعلم ما كنا ومن اين بدؤنا ... وما نحن بالتصوير في عالم الشكل
وانا وان كنا على مركز الثرى ... فأرواحنا في عالم النور تستجلي
وما صعدت كي تستريح وانما ... حقيقة ممثول وجلت عن المثل

(قال الواقدي) قال ابو سعيد حدثنا شيبة بن ابي عبدالله بن عيسى عن لقية بن هند عن عبدالله بن ربيعة ، قال قلت لرفاعة بن زهير لما خلص من قبضة الروم يا عم كيف كان البترك يفهم ما تقول وتفهم ما يقول ، فقال يا بني ما رايت أفصح من اللعين بلسان العربية ، ولقد سالت عن ذلك من عبد الله يوقنا ؟ . فقال اما علمت ان ملوك الروم والبطارقة لا يستقيم ملكهم الا أن يتعلموا لسان العربية . قال ولما حدث رفاعة المسلمين بمناظرة البترك كتبها كثير من الناس .

(قال الواقدي) وكان لرفاعة بن زهير الجرهمي ولد جاهل . قال وكان اسر معه . قال وكان قلبه يميل الى الكفر وكان رفاعة يدعو عليه ، فلما حضر الاسارى في كنيسة القيسان واشتغل رفاعة مع البترك بالمناظرة اقبل ولد عامر يحدق بنظره الى البيعة وزينتها وصورها وصلبانها ويتأمل نساء الروم وزينتهن فبادر الى تقبيل الصلبان والاشراك بالرحمن ، فلما رآه أبوه رفاعة بكى ، وقال يا ويلك اكفرت بعد الايمان ، يا ويلك طردت عن باب الرحمن ، يا ويلك كفرت بالملك الديان ، يا طريد القدرة يا من بعد عن الحضرة فيا ولدي ما بكائي على فراقك ، وانما اذا سلكت انا في طريق وانت في طريق اذا مضيت انت الى دار الابالسة وحشرت مع الرهبان والشمامسة

وتكون في طبقة النار السادسة ، وانا امضي مع محمد الى دار فيها الارواح مستأنسة يا بني لا تطلب حياة الدنيا ، يا بني لا تختر شهوتها على الآخرة واخجلني من فعالك اذا وقفت بين يد العزيز الجبار . يا بني لقد فضحت شيبة أبيك اذ كفرت بعالم السر والنجوى ، يا بني لقد خاب املي فيك والرجاء . يا بني كيف طاب قلبك ان تتبرأ من محمد المصطفى . يا بني ممن تطلب الشفاعة غدا . يا بني غرتك الحياة فصرت تكفر بالعليم . يا بني صرت الى الشقاء من بعد كونك في النعيم . يا بني اما تخشى العذاب في الجحيم . أما تستحي من احمد يوم القيامة . اما تعلم أن أباك قد غدا من أجل كفرك في هموم . أين المفر اذا دعاك الله في اليوم العظيم ، ويقول يا عبدي كفرت بواحد فرد . يا بني أنت في عيش ذميم . اما ابوك فانه يبقى بعز مقيم ، اسألك يا ولدي بما قد كان في الزمن القديم من حنوي وتعطفي حال الرضاعة والفطام الا رجعت الى الذي غطاك بالستر العميم . قال فقيل له ان ولدك قد اغلق الباب عليه وارخى الحجاب ، فامر به البترك فحل من الوثاق ، وامر به الى جرن ماء المعمودية فغمسوه فيه ، ودارت به القسوس والشمامسة وبخروه ووقعت عليه الخلع من البطارقة والملوك ، ووهب له البترك مركبا وجارية ومنزلا وضمه الى عسكر جبلة بن الايهم . ثم قال البترك يا هؤلاء ما منعكم أن تدخلوا في ديننا كما فعل صاحبكم . قالوا منعنا من ذلك صحة ديننا وثبات يقيننا ، وما نحن من الذين يبدلون ايمانهم بالكفر ولو قتلنا ، فقال لهم البترك طردكم المسيح عن بابه وابعدكم عن جنابه .

فقال له رفاعة الله يعلم أينا المطرود ومن هو عن رحمة ربه معبود ، فقال هرقل يا معاشر العرب قد وصل الينا ان خليفتكم واميركم يلبس مرقعة وقد وصل اليه من أموالنا وذخائرنا ما يكل عنه الوصف فما منعه ان يتزيا بزي الملوك ؟ فقال رفاعة يمنعه من ذلك طلب الآخرة والفزع من جبار الجبابرة ، فقال هرقل ما صفة دار امارته ؟ فقال رفاعة مبنية بالطين خالية من الحجاب آنسة بالفقراء والمساكين . قال فما بساطه ؟ . قال العدل والتمكين . قال فما سريره . قال العقل واليقين ، قال فما بدلة ملكه ؟ . قال الزهد والدين . قال فما خزائنه ؟ . قال الثقة برب العالمين . قال فمن جنده ؟ . قال أبطال الموحدين . أما علمت أيها الملك ان جماعته قالوا له يا عمر قد ملكت كنوز القياصرة وذللت البطارقة والا كاسرة فهلا لبست ثيابا فاخرة . قال انتم تريدون زينة الحياة الظاهرة ، وانا اريد رب الدنيا والآخرة ، فلما أبدى هذا القول واضمر اشار اليه منادي القدرة وبشر ـ الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ـ ، قال ثم ان الملك هرقل امر بهم الى السجن الذي هو في كنيسة القيسان وخرج الى عسكره ليشرف على الخيام فرأى السرادقات قد ضربت لان البطارقة ضربت سرادقاتها عند خيامه ونونيا الملوك قد نصبت بازاء كل نونية كنيسة من الخشب المدهون بسائر الاصانيع والنواقيس على

ابوابها وكان زي الروم ذلك وهذه البيع والخشب كانوا يتنافسون فيها وفي صنعتها وتكون معهم في أسفارهم وعساكرهم وطاف هرقل على عسكره جميعه واراد الدخول الى انطاكية واذا بفوارس تركض اليه ، فقالت لهم الحجاب واصحاب السرير ما وراءكم ؟ قالوا : ملك جسر الحديد منا وقد حصلت العرب منا على داخل الجسر . قال فأيقن الملك بزوال ملكه ، وقال وكيف ملكت العرب الجسر والبرجين وفيها ثلثمائة من البطارقة الشداد ، قالوا ايها الملك ان المقدم الذي على الابراج هو الذي سلمهم .

(قال الواقدي) ومن حسن لطف الله بالمسلمين ان صاحب الملك كان في كل يوم يمضي الى الجسر ويوصي من في البرجين باليقظة والحرس الشديد وانه مضى في بعض الايام على عادته فوجدهم يشربون الخمر وليس عندهم حفظ ولا حرس فأخذهم وضرب كبراءهم وهم بقتل مقدمهم . ثم انه أمسك عنه خوف الملك فعمل الحقد في قلوبهم فجاءهم يوقنا في بعض الايام يتجسس ليدبر فيه حيلة فرآهم حنقين من صاحب الملك فسألهم فانكروا منه ، فقال لهم اطلعوني على خبركم ، فقالوا له أتعطينا منك امانا فأعطاهم ، فقالوا نحن نسلم هذا الجسر للعرب . فلما صح عنده ذلك ، قال لهم ما مرادكم . قالوا نأخذ امانا من المسلمين ، فقال يوقنا انا اكتب لكم كتابا الى اميرهم بأن يعطيكم امانا ، وان دخلتم في دينهم فهو خير لكم ، فقالوا له وكيف انت دخلت في دينهم . ثم رجعت ، فقال حاش لله وانما اتيت ادبرهم على تسليم انطاكية لهم ، فلما صح عندهم ذلك . قالوا ونحن نسلم اليهم الجسر ، فلما وافقهم على ذلك كتموا امرهم ، فلما قدم المسلمون مضى اليهم صاحب الجسر من غير ان يعلم به احد واخذ له ولمن معه امانا وناوله كتاب يوقنا ففرح المسلمون بذلك بان ياخذوا جسر الحديد من غير قتال فاعطوا للمقدم امانا ، فلما وصل عسكر المسلمين الى الباب الذي على الجسر فتح لهم فدخلوا ، فلما سمع هرقل بذلك امر الناس ان يتأهبوا للحرب . قال ففعلوا ذلك .

(قال الواقدي) حدثنا ياسر بن عبد الرحمن عن منازل بن نزاف الصيدلاني وكان أعرف الناس بفتوح الشام . قال بلغني انه لما صار المسلمون بأرض انطاكية . قال أبو عبيدة لخالد يا أبا سليمان قد صرنا بأرض انطاكية بلد كلب الروم والساعة يأتينا عسكره فما ترى من الرأي . قال خالد ان الله قال — واعدوا لهم ما استطعتم من قوة — الآية فامر اصحابك ان يتأهبوا ويظهروا زينة الاسلام وقوة الايمان وسير كل أمير بجيشه ولتكن الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا . قال ففعل أبو عبيدة ذلك ، وأول من سير سعيد بن زيد أحد العشرة ومعه ثلاثة آلاف فارس فيهم المهاجرون والانصار وجعله على مقدمة الجيش ، وسير وراءه رافع بن عميرة الطائي ومعه الف فارس ، وسير وراءه ميسرة بن مسروق العبسي في ثلاثة آلاف فارس ، وسار وراءه خالد في جيش الزحف ، وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية العسكر ، وكان معه عمرو بن

معد يكرب الزبيدي وذو الكلاع الحميري وعبد الرحمن بن ابي بكر وعبدالله بن عمر وابان بن عثمان ابن عفان والفضل بن العباس وابو سفيان صخر بن حرب وراشد بن ضمرة وسعيد بن رافع وزيد ابن عمرو ومثل هؤلاء السادات وسار وراءهم النساء اللاتي لهن الاسرى وفيهم خولة بنت الازور وعفيرة ابنة عفان ومزروعة ابنة عملوق وام ابان بنت عتبة وليس فيهم اشد حزنا من خولة بنت الازور .

(قال الواقدي) ومما بلغني انها قالت في اسر أخيها من المراثي المبكيات :

ابعد اخي يلذ الغمض عيني	فكيف ينام مقروح الجفون
سأبكي ما حييت على شقيق	اعز علي من عيني اليمين
فلو اني لحقت بـه قتيلا	لهان علي اذ هو غير هون
وكنت الى السلو أرى طريقا	واعلق منـه بالحبل المتين
وانا معشر مـن مات منا	فليس يموت موت المستكين
واني أن يقال مضى ضرار	لباكية بمنسجم هتـون
وقالوا كم بكاؤك قلت مهلا	اما ابكى وقد قطعوا وتيني

قال فسار ابو عبيدة في مواكبه كما ذكرنا ، فبينما الروم في خيامها وعسكرها اذ وقع فيهم الصائح بقدوم العرب ، فركزوا خيولهم وصفوا صفوفهم ، فأول من اشرف عليهم برايته سعيد بن زيد وبعده المسيب بن نجبة الفزازي، وبعده ميسرة بن مسروق العبسي ، وبعده اتى خالد بن الوليد ، وبعدهم ابو عبيدة في مواكبه ، فنزل كل أمير بقومه ، فلما نظر هرقل اليهم وانهم قد نزلوا بفنائه وبنائه ترك على حفظ جيشه صاحبه الاكبر نسيطاروس بن روميل ، وكان من شجعان الروم ، ودخل الى كنيسة القيسان وجمع الملوك والبطارقة والسريرية والحجاب ، وقام هرقل فيهم خطيبا .

وقال : يا أهل دين النصرانية ويا بني ماء المعمودية قد قرب ما حذرتكم منه من زوال ملككم وذهاب عزكم من ارض سورية ، وقد كنت حذرتكم من زوال ملككم ومن هذا المقام فلم تقبلوا مني واردتم قتلي ، وهؤلاء القوم قد دخلوا بدار ملككم ورياح عزكم فقاتلوا عن حريمكم واموالكم وانفسكم ، واياكم والفشل لا يلحقكم في الجهاد فقد جاهدت عنكم جهدي واتلفت اموالي وخزائني ورجالي عن دينكم وملككم ، فلم تصادفني مساعدة ولا ادركت من القوم فائدة ، فان انتم فشلتم وتقاعستم ولم تجردوا لهؤلاء العرب سيوف العزم ، والا كان العار عليكم ، والذلة تصل اليكم ، اين ابناؤكم ومن سلف من آبائكم ؟ ماتوا كراما غير لئام وسكنت ديارهم العرب اللئام ، وكنائسهم صيروها جوامع ، واخربوا البيع والصوامع ، واذلوا ملوككم واستعبدوا ابناءكم ونساءكم وملكوا قلاعكم واستولوا على حصونكم ومدائنكم ، وقد مضى ما مضى فاستأنفوا الامر وقاتلوا ، فكم هلك من الامم قبلكم على ممالكهم وعلى الغيرة على حريمهم ، ولقد كانت حكمتي انتجت لكم ان تنسجوا على منوال المصالحة بينكم وبين هؤلاء العرب فأبيتم

ذلك ، لان ظلمة جهلكم قد اطفات نور الحكمة . أما علمتم انه قد وجد لوح من الحجر على قبر طيماون تلميذ اقيانوس وفيه مكتوب : الحكمة سلم العالم الاعلى ، من عدمها فقد عدم القرب الى بارئه ، الحكمة حياة القلوب ، وبغية الاذهان ، ونزهة النفوس ، ونور العقول ، من لم يكن حكيما لم يزل سقيما ، من تدبر نظر ، ومن نظر عرف ، ومن عرف عمل ، ومن عمل انفتح ذهنه وعقله ، ومن انفتح عقله صفت نفسه ، فقام اليه جبلة بن الايهم ، وقال يا عظيم الروم انما قتال هؤلاء العرب بقتل خليفتهم عمر بالمدينة ، فلو انت ارسلت اليه رجلا من آل غسان يقتله فيكون سبب فشلهم وانتزاع الشام من ايديهم فقال هرقل هذا شيء لا يصح أمله ولا ينقضي اجله ، لان الآجال مقدرة ، والانفاس مقررة ، ولكن هو شيء تطيب النفس عند سماعه فافعل ما اردت . قال فارسل جبلة من قومه رجلا يقال له واثق بن مسافر الغساني ، وكان جريئا مقداما في الحروب فقال له انطلق الى يثرب فلعلك تقتل عمر ، فان انت فعلت ذلك فانا اعطيك ما أردته من الاموال . قال : فانطلق واثق بن مسافر حتى دخل المدينة ليلا ، فلما كان الغد صلى عمر بن الخطاب (رض) بالناس صلاة الصبح ودعا وخرج الى ظاهر المدينة يتنسم اخبار المجاهدين بالشام . قال فسبقه المتنصر وجلس له بأعلى شجرة من حديقة بن الدحداح الانصاري واستتر باغصانها ، ثم ان عمر قام عن ظاهر المدينة حين حميت الرمضاء وعاد وهو وحده فقرب من الحديقة ودخلها ونام في ظلها ، فلما نام هم المتنصر بالنزول من الشجرة وجرد خنجره واذا هو بأسد اقبل وهو بقدر البقرة الكبيرة وطاف حول عمر وجلس عند قدميه يلحسهما واقام حتى استيقظ ، فعندها نزل المتنصر وقبل يد عمر ، وقال له : يا عمر قد عدلت فأمنت . . . بأبي والله من الكائنات تحفظه والسباع تحرسه والملائكة تصفه والجن تعرفه ، ثم حدثه بأمره واسلم على يديه .

(قال الواقدي) وكانت هذه الفعلة قبل نزول المسلمين على انطاكية .

حدثنا ابو محمد قال اخبرني ابي عن حسان عن السدي عن يحيي الواقدي عن شهر بن عباس البيروتي ان عمر حدثه عن نزول ابي عبيدة بالمسلمين على انطاكية . قال وعظ هرقل قومه بكنيسة القيسان واستحلفهم انهم لا ينهزمون أو يموتوا عن دم واحد فحلفوا وخرجوا مع الملك الى عسكره ، وقد رفعت الصلبان وقرات القسوس والرهبان وارتفع الضجيج من اهل الكفر والطغيان واصطفوا للقتال ، وكان المسلمون قد رتبوا صفوفهم وأوقفوا كل امير في مكانه ونشرت الرايات والاعلام واشار ابو عبيدة الى ربيعة بن معمر الشاعر ، وكان لسنا فصيحا لا يتكلم الا بالكلام المنظوم . فقال له : يا ربيعة فوق سهام لفظك ووعظك الى المجاهدين وحرض المسلمين على قتال المشركين قال فتقدم ربيعة امام الصفوف وكان جهوري الصوت يسمعه القريب والبعيد . فقال أيها الناس الى متى هذه المهلة فتاهبوا للحملة ، فهذه طيور الارواح قد عولت على فراق اقفاص الاشباح وقد ارتاحت الى باريها واجابت صوت مناديها وها هي تخاطبنا

بلسان اشارتها عن نطق عبارتها ما هذا الوقوف على بذل انفسكم وقد اشتراها مؤيدكم ؟ افركنتم الى حب الحياة الفانية والانفس الدانية ، وهذه اوقاتكم بالنصر مؤيدة وهمتكم عن طلب زينة الدنيا متحيدة والمواعظ الصادقة بكلام الحق مقيدة : اينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وهذه طوالع سعودنا بالاقبال طالعة وشجرة آمالنا بالتأييد يانعة ، فلله درهم فلقد ظهرت زهرة نجوم المحبة في افلاك راياتهم وتبلج فجر العشق في سماء سماتهم واشرقت شموس المعرفة في مشارق عشقهم ، فلما هموا بالحملة بأجمعهم واصطفوا وقدموا همم النفوس في رضا الملك القدوس واستبقوا وزاحموا بعضهم بعضا ولم يرفقوا نودوا من صفاء اسرارهم — من المؤمنين رجال صدقوا — .

(قال الواقدي) رحمه الله حدثني زيد بن اسمعيل الصائغ عن جعفر بن عون عن عياش ابن ابان عن جابر بن اوس . قال كنت حاضرا في مصاف ابي عبيدة على انطاكية حين وعظنا بسجعه ربيعة بن معمر ، فكان اول من خرج من الروم للبراز شجاع الروم نسطاروس بن روبيل وهو كانه برج من حديد ، فلما توسط الميدان طلب البراز فخرج اليه دامس ابو الهول مولى بني طريف فاتح قلعة حلب ، وهو يومئذ فارس غطريف فحملا على بعضهما ، فلما اشتعلت نار الحرب بينهما عثر جواد دامس فسقط على ظهره فانقض عليه نسطاروس واخذه اسيرا وقاده ذليلا ورجع الى الميدان ، فخرج عليه الضحاك بن حسان الطائي وكان يشبه خالدا في حملاته وخفته ، فلما برز . قال قائل من الروم ممن شاهد قتال خالد في المواطن وعرفه هذا فارس الشام والمسلمين الذي فتح بلادنا فصار كل من في انطاكية ينظر اليه وهم يظنون انه خالد فازدحمت خيل المشركين من كثرة النظر اليه فقطعت حبال السرادقات التي لنسطاروس وغيروا سريره فخاف الغلمان على انفسهم وسرادقاته على ذلك واذا رآها على تلك الحالة قتلهم ولم يجدوا احدا يعينهم على رفع السرادق لان كل من في العسكر مشغول بالفرجة على نسطاروس مع خصمه فاتفق اثنان من الفراشين وكانوا ثلاثة على حل دامس ابي الهول ، وقالوا له نحن نحلك من وثاقك وتعيننا على شيل عمود هذا السرادق ونعيدك الى الوثاق . فاذا جاء البطريق نشفع فيك فانه يخلي سبيلك . فقال نعم فحلوه من وثاقه ، فعندها قبض على الاثنين كل واحد بيد وضرب واحد بواحد فصرعهما فماتا فهجم على الثالث فقتله وفتح صندوقا من الصناديق فوجد فيه ثياب نسطاروس فلبسها وركب من الطوالة جوادا من خيارها واخذ بيده قنطارية وسيفا ولثم وجهه وقصد عسكر المتنصرة ووقف الى جانب حازم بن عبد يغوث وهو ابن عم جبلة ، وكان قدمه على عسكر المتنصرة وجبلة وولده وبنو عمه في موكب الملك .

(قال الواقدي) ولم يزل القتال بين نسطاروس والضحاك بن حسان الى ان كل الجوادان ولم يقدر احد منهما على صاحبه فافترقا وعاد نسطاروس الى سرادقاته

ليستريح فوجد السرادق على الارض والفراشين قتلى ولم ير دامسا فعلم أن المصيبة من قبله فمضى الى الملك واعلمه بذلك ، فقال وحق المسيح ما هؤلاء العرب الا شياطين. قال وهرج العسكر بصنع ابي الهول ، فقال الملك هو الآن في عسكرنا وما رايناه خرج وما هو الا مختف في عسكر المتنصرة لانه من جنسهم ، فلما راى دامس هرج عسكر الروم ، وان ذلك بسببه انتضى سيفه على حين غفلة وضرب به حازم بن عبد يفوث فرمى راسه عن بدنه فبهتت المتنصرة من فعله وأمسك الله عنه أيديهم ودهشوا لذلك واطلق جواده وطلب عسكر المسلمين ، فلما رأوه صاحوا بالتهليل والتكبير فاتى الى ابي عبيدة واخبره بما وقع له مع القوم . فقال لا شلت يداك . قال وبلغ الخبر جبلة من قتل ابن عمه حازم ففضب واتى الى هرقل وصقع له ، وقال يا عظيم الروم انا لا أقدر على الصبر ولا بد لنا من الحملة على هؤلاء الذين قد تعدوا طورهم وجهلوا قدرهم ، فاراد الملك ان يأمرهم بالحملة ، واذا قد اقبلت عليه خيل تركض ، فقال لهم ما وراءكم ؟ . قالوا أيها الملك انه قد قدم الى نصرتك فلنطانوس بن سطانيوس بن ارمونيا صاحب المدائن ورومية الكبرى وباسم جده سميت ، وكان قد وضع فيها هيكلا عظيما يسمى ابا سرفيا وكان به صورة من نحاس مطلية بالذهب الاحمر ولذلك الهيكل سبعة ابواب من الذهب على كل باب هيكل مدور على راسه شخص آدمي وبيده عدة الواح من الذهب وفي كل عام يعلق منها لوح على الهيكل تلقاء الشمس ثم ينظر كاهن ذلك الهيكل في ذلك اللوح فيعلم ما يجري في الاقليم المختص بذلك اللوح ، وكان كل لوح مختصا باقليم من الاقاليم السبعة وكذلك لكل هيكل من تلك السبعة هياكل ، فيعلم اهل رومية الكبرى ما يجري في العالم بما وضعه حكماؤهم الاقدمون وفي وسط تلك السبعة هياكل قبة مثمنة على ثمانية عمد من نحاس أصفر مطلية بالذهب محوط به سور مرقط ببياض وفيه بابها الاعظم وعلى راسها صورة من حجر لا يعلم ما هو ؟ بل الحجر أسود . فاذا كان استواء الزيتون في مشارق الارض ومغاربها يسمعون من تلك الصور صوتا هائلا تكاد القلوب تتفطر منه ، فاذا كان الغد تأتي من آفاق الارض زارزيرها وكل زرزور حامل ثلاث زيتونات واحدة في منقاره واثنتان في رجليه فيلقونها على رأس تلك الصورة فلا تزال كذلك حتى يمتلىء ذلك المكان العظيم . قال فيعصرون منه زيتهم وما يأكلون من العام الى العام وكان في داخل الهيكل الاعظم بيت مقفل لم يفتح منذ بنيت رومية ولما اراد فلنطانوس الملك النهوض الى نصرة هرقل احتاج الى مال يصرفه على عسكره فاتى الى ذلك البيت المقفل وهم بفتحه ، فقال له عظماؤه وعطماوس ، وهو القيم على أمر الهياكل كلها : ايها الملك ان هذا البيت منذ اقفل تاريخه سبعمائة سنة وذلك من قبل ظهور المسيح بمائة سنة وسبعين ، وما أحد من أجدادك تعرض اليه ولا أحد ممن ولى أمر هذه الكنيسة الا ويوصي على هذا البيت أن لا يفتح فلا تزل حكمة أسسها من كان قبلك من الحكماء والملوك ، وقد بنى هذه المدينة وأسس هذا الهيكل وهذا البيت ، وهو بيت جدك رسيوي بن قطاوس وبقي

في ملكه على ما بلغنا ثلثمائة وسبعين سنة ووصي كوصية أبيه وتولى عليه احد اجدادك حتى وصل اليك هذا الملك ولك فيه مائة سنة فلا تزل حكمة اجدادك اجدادك الذين اسسوها وطلاسم وضعوها . قال فأخذه اللجاج في فتحه ، فلما فتحه لم يجد فيه شيئا الا انه راى في البيت صورة القدس ومدن الشام وصفة ملوكهم وعددهم وفي آخرهم صورة ليطن وهو هرقل كأنه ينظر في اللوح مكتوب باليونانية : يا طالب العلم عليك بكثرة القراءة فانه كلما تكرر مرور النكت على مسامع من يتعلمها كان ذلك أشد لثبوته وأحكم لتصريفه ، اذ العلوم كلها انما تستخرج بالعقل والقياس ، وانما يكون بكثرة الرياضة ، والعلم مطية التدبير ، والتدبير موضع العلم ، والعلم موضع العقل ، هذا هو المتمم لاشكال العلوم ، وقد راينا في الحكم والاسرار الخفية ان صاحب الغمامة اذا خيمت على صفحة الارض وحلت الضلالة خرج مصباح الهداية من ارض تهامة فيذهب بظلام الجهل المظلم للحس ويدعو الناس بدينه الى توحيد الصانع وهو صاحب الجمل الاورق فيذهب بالاديان والملك ، يضيق لدعوته السهل والجبل ، فاذا غلب نوره على كل كثيف انتقل الى العلم الروحاني وولي بعده رجل نحيف الصورة قلبه منور بنور الصدق يشيد ملته ويصدق شريعته وويل للشام مما يحل بها من الرجل الاحور الذاهب بملك قيصر وهو الرجل الكثيف صولته الربعة صورته العدل صفته والحق منقبته جبته مرقعة وسيفه درته ، في أيامه تذهب الدول وتتحول وتضمحل وتزول ، واوانه اذا فتح هذا البيت المصور بالحكمة المحفوظ بحفظ النعمة فطوبى لمن رسخت الحكمة في قلبه ، واشرقت مصابيحها في لبه واتبع الحق وعرفه ، وجانب الباطل وخالفه . قال فلما قرأ فلنطانوس ما في اللوح اخذه العجب ، وقال لعطماوس قيم الهياكل : أيها الاب الشفيق ما تقول في هذه الحكمة ؟ قال أيها الملك وما عسى أن أقول في حكمة وضعتها العظماء وعلمت بها الحكماء وانما العلوم غامضة يصل اليها الخبر الجوهري بنور العقل ، وانما أرى أن دولة هرقل وهي عز دولتها وانهدت اركان ملكه من ارض سوريا وانتقل ملك الروم الى ارض اسطور يعني قسطنطينية وبذلك اخبر مهرايس الحكيم في كتابه العزيز الذي وضعه وسماه اسلاوس يعني جواهر الحكمة ، ومن جملته : اذا ظهر نور اليتيمة المصفاة من الادناس من جبال ثاران تصفت الاذهان بنور حكمته وانصرفت الظلمة المتكاثفة في سماء الجهل بقوة عزيمته ، ودعا الناس الى لطيف دعوته وقادهم بازمة لطائته فيعلو على الافلاك ، فويل لارض ايليا من صولة صاحبه المتوشح بوشاح الهيبة المتوج بتاج العقل ، صاحب فتوح الارض ومذل ملوكها العدل فسطاطه والمرقعة لباسه ، وفي زمانه ينكسر الصليب وتخرج الهياكل وتندرج المذابح ويذوب ماء المعمودية .فلا نجاة من صولته الا باتباع شريعته وصاحبه . قال فلما سمع ذلك فلنطانوس من القيم على الهياكل كتم الامر في نفسه وقال لا بد لي من النظر الى العرب والمسير اليهم والى نصرة الملك هرقل وقد وصل الى كتاب البترك وندبني الى نصرة دين المسيح فان تأخرت حرمني ، ثم انه اختار من جيشه في رومية

ثلاثين الفا وهم الكرجية وولى في موضعه ولده استفليوس وهو مثلث النعمة واستخرج من بيت الحكمة رايات الاسكندر اليوناني ، وكانت منسوجة بالذهب واللؤلؤ التي نشرها يوم فتحت الواحات من ارض باليوس ، وكانت لا تنشر الا في يوم واحد في السنة ببيعة ايا صوفيا وهو يوم عيد الصليب والشعانين . قال فلما رفعت على راس قلنطانوس سار حتى ورد انطاكية ونزل على باب هاوس ومعناه باب فارس ، قال وركب الملك هرقل في موكبه الى لقائه وضربت سرادقاته بازاء سرادقات هرقل وفرحت الروم وتفاءلت بالنصر وضربت النواقيس ووقعت ضجة عظيمة في جيوشهم وارتفعت اصواتهم وجاءت عيون المسلمين فاخبروهم بقدوم صاحب رومية فرفع ابو عبيدة كفه الى السماء ، وقال : اللهم ان اعداءك يستنصرون علينا بكثرة عددهم وتزايد مددهم فشتت كلمتهم ودمر جيوشهم وزلزل اقدامهم وعسر ايامهم واجعل كلمتنا العليا وكلمتهم السفلى وانصرنا كنصر نبيك في يوم الاحزاب : اللهم رد كيدهم في نحرهم وانصرنا عليهم قال : وامنت المسلمون على دعائه .

(قال الواقدي) حدثنا ابراهيم بن العلاء عن ابي يوسف الكندي عن ابي جعفر الدارمي عن الربيع بن انس عن جعفر بن ميسرة قال : قال لي عمي لما قدم صاحب رومية بجنوده خاف المسلمون ولكن ثبتهم الله وبعث ابو عبيدة معاذ بن جبل ومعه ثلاثة آلاف وقال له يا صاحب رسول الله ان الروم قد تجمعت من سواحل البحر لنصرة دينها فانهض وشن الغارات على بلاد السواحل واحتفظ ان تؤتي المسلمون من قبلك قال ففعل ذلك معاذ وسار الى جبلة واللاذقية فاحتوش اموالها ، واخذ غنائمها ووجد على باب جبلة عنان بن جرهم الغساني ابن عم جبلة بن الايهم ومعه الف دابة محملة برا وشعيرا لعسكر الكفر ، وقد جمعها من طرابلس وعكا وصور وصيدا وقيسارية وقد بعث بها قسطنطين بن هرقل الى ابيه ، فلما وصلت مدينة جبلة سلمها العرب المتنصرة لابن عم جبلة وعادوا فوقع بها معاذ (رض) فاخذها ورجع قافلا الى عسكر المسلمين ، فلما راوها رفعوا اصواتهم بالتهليل والتكبير فسأل هرقل عن ذلك فاخبروه بما وقع فغضب على اخذ الميرة التي تتقوت بها عسكر اعدائه . فقال لبطارقته ما بقي بيننا وبين هؤلاء الا المصاف ويعطي الله النصر لمن يشاء ، ثم انه امر عساكره بالاهبة للقتال ثم انه ركب والى جانبه قلنطانوس صاحب رومية وصاحب مرعش وصاحب قلعة اسكبادنيس وهي قلعة الروم وصاحب طرطوس وصاحب مصيصا وصاحب قونية وصاحب ماصر وصاحب اقصرا وصاحب قيسارية الروم الاقصى وصاحب قوماط وصاحب انطرانه وصاحب طبرزند وجبلة ابن الايهم .

(قال الواقدي) واقبل يوقنا يرتب الصفوف في الحرب ، فلما وقف كل ملك بجيشه وكل بطريق باصحابه اراد قلنطانوس ملك رومية ان يتقرب الى هرقل بمبارزة العرب فصقع له على قربوس سرجه وقال : ايها الملك ما تركت ملكي واتيت الى خدمتك

من مائتي فرسخ الا حتى ارضي المسيح واخدمه بين يديك وان كل عسكرك قد قاتلوا وجاهدوا واريد ان ابرز في هذا اليوم الى هؤلاء المحمديين واشفي فؤادك وفؤادي منهم فاراد الملك ان يطيب قلبه . فقال له الزم مكانك ولا تخرق بحرمتك وحشمتك حشمة الملوك فانت اقدم مني في المملكة فدع غيرك يكون لهذا الامر فما بلغ من شأن العرب ان تخرج انت اليهم بنفسك . فقال فلنطانوس ايها الملك واي حشمة بقيت لنا مع هؤلاء وقد اهملوا عزنا واذلوا اعز ديننا والجهاد مفروض على كبيرنا وصغيرنا ، اما علمت ايها الملك انه من نظر الى الدنيا بعين المحبة جذبته الشهوات الى الغلو في محبتها والتعلق بزخارفها ، فاذا فعل ذلك ركب غيم كثافه الجهل على صفحة صدره فمنعه ذلك عن طلب معاده ، ومن سارع الى طاعة خالقه بترك شهواته ارتقى الى دار دائرة القدس في محل الانس ، ولما علم القديم الازلي بركون انفسكم المحجوبة بحجاب الغفلة الى طلب ما يفني سلط عليكم اضعف امة قد اخرجتكم من دياركم وابعدتكم عن اوطانكم وما ذاك الا لخلودكم الى الاهواء الجاذبة الى مهاويكم والى ادراك المهالك لانكم حكمتم بغير الحق واجترائم على الرعية بطلبكم منهم ما ليس لكم بحق والجور في اخذ اموالهم وفساد احوالهم وكثرة الزنا واتباع الخنا فلاجل ذلك لم تنصروا ، ودارت دائرة السوء عليكم .
قال ثم تكلم صاحب الملك هرقل الكبير واسمه سروند وصاح عليه وقال له أيها السيد لا تحمل على قلب الملك من كلامك ما لا يطيق في مثل هذه الساعة ، فقد وعظه من هو اكبر منك فلم يسمع قوله . قال فغضب فلنطانوس من صياح الحاجب عليه وكتم امره الى الليل ، فلما مضى من الليل ربعه طلب حجابه وخواصه ، وقال لهم أرضيتم أن يزعق علي حاجب هرقل ويوبخني بين الملوك وانتم تعلمون ان بيتي أعظم من بيته ونسبه أدنى من نسبي وملكي أقدم من ملكه ؟ ، ولقد قال قسيس حكيم بلاد الذكر المشهور بحكمته وهو الذي وضع المنار الاعظم في يوم كبير كان بين بلاد الجرامقة وبلاد الانجار وهي مسيرة اثني عشر يوما ولا يصل الى ارضها الا بعد عناء كبير فاحتفر لها بئرا ووضع في وسطها عمودا على راس حجر يدور من صنعة حكمتها يسمع له من حدة النداء من حوله ويرشح له بقدر ما يملأ ذلك الجرن العظيم ، فانه قال : لا تسع بقدمك الى من يراك دونه فتصغر عنده واجعل عز نفسك في مقابلة كبرياء عجبه ، فان عزة النفوس تقابل جاه الملوك ولا تصنع صنيعك لغير مستحقه لانها تجلب عليك السوء من قبل ذلك ، فان ذلك الاحسان لا يزكو الا عند ذوي الاصول فانه يندسج عند السفهاء والارذال لا تصنع اليهم النصيحة ، فانك انت تطلب منفعته وهو يريد هوى نفسه باذيتك وقد جئنا من مائة فرسخ واكثر الى خدمة رجل يرى اننا قد قصدنا داره وتاج عزه واننا نحن من جملة خدمه وان نور العقل المجوهر للحس يمنعني من اتباع الجهل المظلم للحواس ، وان نفسي تأبى ذلك ، والعز محل جليل ومقا منبيل ، والذل وبيل وصاحبه قليل ، وقد عولت ان اسير الى هؤلاء العرب واختبر ملتهم فانها هي الملة الواضحة بالحق المؤيدة بالصدق ، ومن كان عليها أمن في معاده من الهول الاكبر فما

انتم قائلون ؟ . قالوا أيها الملك وكيف تطيب نفسك بترك دينك وملكك وعزك وتتبع هؤلاء وهم لا فضل لهم ولا عندهم حكمة . فقال فلنطانوس : اما الحكمة البالغة فعندهم مقرها وفي نفوسهم موطنها . لان نور توحيدهم صفى اذهانهم ونور ايمانهم ببركة صاحبهم المسمى في علوم الغيوب ، لان مغناطيس حكمته الربانية جذب جوهر عقولهم الى متابعته والاقتداء بشريعته ، ومن أراد ان يلقى عالم عليين فلا يقعد على صفحة أرض الجهل : أما علمتم ان النور أنور من الظلمة والموت نهار الحياة . قال فلما سمعوا قوله قالوا أيها الملك نحن ما نمنعك من عز دائم يخرجنا من الذل ومهابة الغلبة ، فاذا كنت تطلب بنا طريقا يؤدي الى البقاء ويذهب بالشقاء فالحق اتباع الحق ونفي الباطل فنحن لك وبين يديك . قال فخذوا على انفسكم فاذا كانت ليلة غد ركبنا كأنا نطوف حول البيت نحرسه ونطلب جيش العرب . قال ففعلوا ذلك واخذ فلنطانوس في أمره . قال ابن وهب وابن صالح عن ابي موسى الاشعري . قال : لما عزم ان يسير الى جيش المسلمين اتى اليه يوقنا برسالة الملك هرقل ، فلما أدى الرسالة وهم بالقيام قال له فلنطانوس من انت من الحجاب ؟ قال انا يوقنا صاحب حلب . قال وكيف تركت بلدك ؟ قال استولت عليها العرب وحدثه بحديثه . فقال فلنطانوس : وما الذي ظهر لك من هؤلاء العرب . قال أيها الملك اني دخلت في دينهم واطلعت على امرهم وكشف سرهم فرأيت القوم لا يستمعون الى الباطل ولا يحيدون عن الحق ولا ينامون الليل من كثرة اجتهادهم ولا يتكلمون بغير ذكر ربهم ينصفون المظلوم من الظالم ويواسي غنيهم فقيرهم ، الامراء منهم في زي المساكين ، والعزيز والذليل عندهم سواء . فقال له فلنطانوس فاذا وقفت على سرهم ورأيت فضلهم فما منعك أن تقيم عندهم وبينهم ؟ فقال يوقنا منعني من ذلك صحة ديني وصحبة قومي لاني لم أر فراقهم .

قال فلنطانوس : ان النفوس الزكية الباقية اذا رات الحق جذبها جاذب اليقين الى حضرة طلب الاخلاص من المعيشة الذميمة الى أن ترقى الى اعلى عليين . قال فخرج يوقنا وقد رسخ كلام فلنطانوس في قلبه ، فقال والله ما تكلم بشيء الا وهو منقوش على صفحة صدري وكلامه يشهد بقبول عقله لصحة دين الاسلام ، واقام يوقنا على قلق من ذلك حتى أقبل الليل فأتى الى فلنطانوس فرآه وهو على نية الركوب الى ما ذكرناه ، فلما وقف بين يديه صقع له . فقال له فلنطانوس بأي حجاب حجب الله الظالمين عن اتباع سبيل المتقين فالحق واضح لمن طلبه والباطل خفي عمن اتبعه . فقال يوقنا أيها الملك ما معنى هذا الكلام الذي اشرت اليه ؟ فقال لو انك رأيت بعين البصيرة لما رجعت عن ملتهم ولا أردت بدلا غيرهم وانما انت طلبت نعيما يئول الى الزوال الى النكال . قال فسكت يوقنا وخرج من عنده وجعل يتجسس عليه ومضى ووقف على الطريق الذي يمضي الى المسلمين فركب فلنطانوس وخرج من سرادقه فوجد بني عمه قد أخذوا أهبتهم وهم أربعة آلاف فارس وقدموا عزمهم وساروا بدا

واحدة يطلبون جيش الموحدين وقد تركوا عزهم وفارقوا دينهم ، فلما قربوا من جيش المسلمين ظهر لهم يوقنا وبنو عمه المائتان . فقال يوقنا لفلنطانوس : ايها الملك عولت على ان تكبس المسلمين فقال لا والقديم الازلي وانما انا قاصد اليهم وداخل في دينهم وملتهم واكون من جملتهم ، فمن نظر الى الدنيا بعين الفناء عمل للآخرة فما الذي يمنعك يا يوقنا مما نحن عولنا عليه ؟ . فقال يوقنا ايها الملك لقد جذبك جاذب الحق عن طريق الضلال ثم انه حدثه بحديثه وانه عازم على أن يغدر بالروم فقبله فلنطانوس وفرح بمقالته وقال له كيف تقدر على ذلك وما ارى معك الا نفرا يسيرا . فقال ايها الملك أن في داخل بيتي مائتين من المسلمين من اكابر أصحاب رسول الله (ص) في مقام عشرين الفا من الروم ، ولقد رأيت ان تعود أنت وقومك ولا تستعجل ونبعث رجلا الى أمير المسلمين يخبره بما نحن معولون عليه فاذا كان غدا تقف انت وجيشك حول الملك هرقل وأدخل أنا البلد واطلق المائتي أسير واعطيهم سلاحا ويحمل جيش العرب وتحمل انت وعسكرك على مركب هرقل وتقصده بنفسك فتقبض عليه ونكون قد جاهدت واسير انا ومن معي في داخل البلد فنملكها ان شاء الله تعالى ، وان أردت أن ترجع الى دار ملكك ويكون امرك مكتوما علينا فحول امر جيشك لمن تثق به من بني عمك . قال فلنطانوس ما فعلت هذا ولي نية في ملكي ولا في ملك الدنيا ، بل اذا قضى هذا الامر ونصر الاسلام قصدت مكة فأحج وأزور قبر النبي (ص) ، ثم ارجع الى بيت المقدس فاقيم فيه الى ان أموت ، فمن يذهب الى أمير العرب برسالتي ويخبرهم بما قد عولنا عليه ؟ فقال له يوقنا : اعلم ان لهم عندنا عيونا وجواسيس ممن هو تحت ذمتهم وأنا اعلمهم بما قد وقع ، قال فبينما هم في الكلام تحت ستر الليل واذا بشيخ قصد اليهما فتامله يوقنا فاذا هو عمرو بن امية الضمري ساعي رسول الله (ص) فسلم على يوقنا وعلى من معه ، وقال ليوقنا ان الامير ابا عبيدة يقول لك جزاك الله خيرا عن الاسلام وانه راى في المنام رسول الله (ص) واخبره بما كان من امر صاحب رومية وما تحدثتما به وما وقع له مع قومه وما عزمتم عليه وبشره بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تاخر وقد تفتح انطاكية ويزول عز الروم عنها وينتزع ملك صاحبها .

(قال الواقدي) فتهلل وجه فلنطانوس فرحا وازداد ايمانا وقال : الحمد لله الذي هدانا للاسلام والايمان .

(قال الواقدي) وذلك أن أبا عبيدة (رض) راى النبي (ص) في النوم وهو يقول يا أبا عبيدة أبشر برضوان الله ورحمته وغدا تفتح انطاكية صلحا وان صاحب رومية المدائن الكبرى قد جرى من امره كيت وكيت هو ويوقنا صاحب حلب وهما بالقرب منك فانفذ اليهما بنجاز الامر . قال فاستيقظ أبو عبيدة وقص رؤياه على خالد وانفذ عمرو بن امية كما ذكرنا . قال فلما سمع فلنطانوس ذلك اقشعر جلده وارتعدت فرائصه وقال : اشهد أن لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله ، وأشهد أن هذا

الدين هو الحق اليقين ، ثم انهم عادوا وطافوا بجيس الملك كأنما يحرسون ، فبينما يوقنا قد ذهب بأصحابه من عند صاحب رومية وقد قوي عزمهم على ما ذكرنا من أمر كبسهم الملك وإذا بالحاجب قد لقيه والمشاعل بين يديه وقد خرج من أنطاكية ومعه ضرار بن الازور ورفاعة بن زهير والمائتا أسير وقد عول على قتلهم وان يرمي غدا برؤوسهم الى المسلمين ، فلما سمع يوقنا ذلك ضاقت الدنيا عليه وقال له أيها الحاجب الكبير أنت تعلم ان المصاف غدا واقع بيننا وبينهم فان انتم قتلتم هؤلاء ورميت برؤوسهم الى المسلمين فانهم لا يقعون بأحد منا فيبقون عليه فاتق الله ولا تعجل بذلك ودعهم عندي وراجع الملك في أمرهم الى أن نرى ما يئول أمرهم اليه . قال فتركهم الحاجب عند يوقنا ومضى الى الملك وأخبره بما قال يوقنا . فقال له دعهم عند الدمستق فرجع اليه وقال له الملك يقول لك احتفظ عليهم فأمرهم لك فأخذهم يوقنا وسار بهم الى خيمته وصعب عليه اخراجهم من انطاكية لانه كان قد عول على أن يملك بهم البلد ، فلما حلوا في خيمته حلهم من الوثاق وسلم اليهم العدد واخبرهم بما قد عزم عليه هو وصاحب رومية من القبض على الملك هرقل . فقال ضرار والله لارضين الرب غدا بجهادنا وكانت قد ختمت جراحاته لانه كان في الاسر ثمانية اشهر وفرقتم مع بني عمه .

(قال الواقدي) حدثنا ابو محمد عن سعيد بن ابي مريم عن يحيي بن أيوب عن عبدالله بن مسعود أن الذي امر باخراج الاسرى لم يكن هرقل وانما كان مملوكه الخاص واسمه تاليس بن رينوس وكان قد البسه تاجه ومنطقته وكان اشبه الخلق به وقال له كن غدا مكاني فاني اريد أن اكيد العرب واكمن خلفهم وما ذاك الا انه راى في نومه كأن شخصا قد نزل من السماء وقلبه عن سريره وكأن تاجه قد طار من على راسه ، وكأن شخصا يقول له قد قرب ما بعد وقد زال ملكك من سورية وقد ذهبت دولة الشقاق والنفاق وجاءت دولة الوفاق ، وكأن ذلك الشخص قد نفخ في عسكره فأوقد نارا فاستيقظ مرعوبا وفسر منامه على نفسه بزوال ملكه ، وكان قبل نزول العرب قد عبى خزائنه وجمع ما يخاف عليه من التحف ووضعها في المراكب من حيث لا يعلم بذلك احد من دولته وعبى الزاد والماء ، ثم انه ارسل أهل بيته في تلك الليلة بعدما راى في المنام ولم يدع من حريمه واولاده وعياله احدا وبعده أمر مملوكه تاليس بن رينوس بما امره أن يفعله . قال فلما ركب تاليس فما كان من امره الا ان قال للحاجب اخرج الاسارى واضرب رقابهم فأخرجهم واخذهم يوقنا كما وصفنا . قال حدثنا ياسر عن سليمان بن عبد الواحد عن صفوان بن بشر عن عروة بن مذعور عن محمد بن علي عن عدي عن شعبة عن قتادة عن أبي الصديق الناجي عن ابن سعد . قال ما خرج هرقل من انطاكية الا وهو مسلم وذلك انه كتب الى عمر بن الخطاب في السر عن قومه أن بي صداعا لا يسكن فانفذ الي بدواء أتداوى به فأرسل اليه قلنسوة فكان اذا وضعها على

راسه سكن صداعه واذا رفعها عاد اليه فتعجب من ذلك وامر بفتحها فاذا فيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم . فقال هرقل ما اكرم هذا الاسم واعزه حيث شفاني الله به وكانوا قد توارثوا هذه القلنسوة الى ان وصلت الى صاحب عمورية ، فلما كان يوم المعتصم ونزل عليها عرض للمعتصم صداع فأرسل اليه صاحب عمورية بالقلنسوة ، فلما وضعها على راسه سكن ما به فأمر المعتصم بفتحها فاذا فيها الرقعة ومكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم .

(قال الواقدي) وأما ما كان من امر تاليس ، فلما أصبح ركب ورتب عساكر الروم عن آخرها ودارت المواكب حول تاليس بن ريبنوس ، وكان كل من رآه يظن انه هرقل ولا يشك فيه ودار بمواكبه عسكر فلنطانوس صاحب رومية وركب يوقنا ومن معه وهم متنكرون تحت السلاح ، فكان اول من حمل خالد بن الوليد بجيش الزحف . قال وتبعه سعيد بن زيد وتبعه قيس بن هبيرة وتبعه ميسرة وبعده عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وذو الكلاع الحميري وامثالهم واطبق الناس بعضهم على بعض ، فلما اشتبكت الحرب هجم يوقنا ومن معه وحمل ضرار فلله دره لقد أعطى السيف حقه واخذ بثأره من الروم وكلما قتل واحدا صاح واثارات أسر ضرار بن الازور ، وكان قد قصد عسكر المتنصرة هو واصحابه ورفاعة بن زهير يشجعهم ويوبخهم ويقول خذوا بثاركم ممن اسركم واحملوا ، واياكم أن تفشلوا واعلموا أن الجنة قد فتحت أبوابها وزينت حورها وقصورها وأشرق بنيانها ومرح ولدانها وتجلى ديانها ، ثم صاح يا فتيان العر بأيكم يرغب في زواج الحور فان بذل النفوس هي المهور ومن يريد عرسا في الجنان ويقوم في خدمته الولدان ، من يرغب فيما قال الملك الديان ــ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ــ أين من شهد بدرا وحنين مع سيد الكونين ، أين من يزيل عن قلبه حجاب الغفلة والرين ؟ وافقوا قوما صارت هممهم الى دار الازل فأناخوا بباب من لم يزل محبوبهم ، فأراد الحق أن يوقفهم على منازلهم ليزيدوا في حسن أفعالهم فكشف عن سرائرهم فراوا دارا بناؤها النور قواعدها من الرحمة حيطانها من الذهب ملاطها المسك ماؤها من الحيوان حصباؤها الدر والجوهر ترابها الكافور والعنبر سورها المجيد اللطيف ستورها الكرم أشجارها لا اله الا الله اغصانها محمد رسول الله ثمارها سبحان الله والحمد لله عرضها السموات والارض سقفها عرش الرحمن ، فلما كشف لهم عن هذه الاسرار اشتاقوا الى سكنى الدار ، قيل لهم لن تصلوا اليها الا ببذل النفوس في رضا الملك القدوس ، ثم خلع عليهم خلع الاحسان وتوجهم بتيجان الرضوان ونشر على رؤوسهم رايات الغفران مرسوم على طرازها بقلم السر المكنون ــ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ــ لقد بذلوا النفوس في رضا القدوس .

(قال الواقدي) فبينما ضرار يحمل في الاعداء ويذيقهم شراب الردى واذا هو

بفارس يطحطح الكتائب ويفرق المواكب ويصيح واثارات ضرار بن الازور فتأمله فاذا هو أخته خولة فناداها دارك يا بنت الازور أنا والله اخوك فأقبلت لتسلم عليه . فقال لها اليك عني ما هذا وقت سلام ، وان قتال الكفر أفضل من كلامك يا بنت الازور فاجعلي عنانك مع عناني وسنانك مع سناني وجاهدي في سبيل الله ، فان قتل أحدنا فالملتقى في الحشر عند حوض سيد البشر ، فبينما هم في ذلك اذ نظر الى جيوش الروم وقد تقهقرت وفرسانهم قد انهزمت وكان السبب في ذلك أن صاحب رومية رحمه الله لما رأى الحرب قد أضرمت نيرانها وعلا دخانها حمل بأصحابه وقصد تاليس بن رينوس فقبض عليه وهو يظن أنه هرقل فصاح الصائح ان الملك هرقل قد قبض عليه فلنطانوس ملك رومية وغدر به فولت الروم الادبار وقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة لم يقتل مثلها الا بأجنادين واليرموك ، وقتل من العرب المتنصرة زهاء من اثني عشر الفا وطلب جبلة ولده فلم ير لهم خبرا فقيل انهم واكابر قومهم ركبوا مع الملك هرقل في المراكب ، وكان جملة من هرب من سادات المتنصرة مع جبلة وابنه خمسمائة من جملتهم ابن عمه قرظة وعروة بن واثق ومرهف بن واثق وهحام بن سالم وشيبان بن مرة . قال فسكنوا جزائر البحر فمن نسلهم هذه الافرنج . قال واخذ المسلمون ما كان من السرادقات والخيام والديباج والمتاع والخزائن واسروا ثلاثين الفا وقتلوا من الروم سبعين الفا وولت العرب المتنصرة منهزمين ، فمنهم من أخذ نحو الدروب ومنهم من طلب قيسارية الى قسطنطين بن هرقل ، فلما وضعت الحرب أوزارها وخمدت نارها جمعوا الاموال والاثقال والاسرى بين يدي أبي عبيدة ، فلما نظر الى ذلك سجد لله شكرا وسلم المسلمون بعضهم على بعض ، وجاء ضرار وأصحابه ويوقنا وفلنطانوس وأصحابه وسلموا على المسلمين وفرحوا بهم ، فلما وصل فلنطانوس قام اليه المسلمون وقال كبار الصحابة سمعنا نبينا (ص) يقول اذا اتاكم كريم قوم فاكرموه . قال فنظر فلنطانوس الى تواضعهم وحسن سيرتهم وكثرة عبادتهم فقال هؤلاء والله القوم الذين بشر بهم عيسى عليه السلام ، قال فأسلم بنو عمه عن آخرهم وجاهدوا في الكفار الى أن فتحوا جميع الامصار وبعدها مضى فلنطانوس الى مكة فحج وزار قبر النبي (ص) المختار ، وسلم على عمر (رض) ، فلما رآه وثب اليه قائما وصافحه هو وجميع المسلمين وعاد الى بيت المقدس فجلس يعبد الله فيه حتى أتاه اليقين .

(قال الواقدي) ونظر أبو عبيدة الى جيش انطاكية وقد تحصنوا فيها وهم لا يحصون فقال اللهم اجعل لنا الى فتحها من سبيل وافتح لنا فتحا مبينا . قال وكان على انطاكية بطريق اسمه صليب بن مرقس ، وكان جاهلا في رأيه فعزم على القتال من داخل السور فاجتمع اكابر البلد الى البترك في الليل وقالوا له اخرج الى هؤلاء العرب وصالح بيننا وبينهم على ما تقدر عليه . قال فخرج البترك الى أبي عبيدة وحدثه في الصلح فأجابه الى ذلك ، فكان جملة ما صالح عليه أهل انطاكية ثلثمائة الف

مثقال من الذهب ، فلما تقرر الصلح قال له أبو عبيدة احلف لنا أنكم لا تغدرون بنا فان مدينتكم مانعة كثيرة الجبال والوعر . فقال خالد ومن يحلفه ؟ فقال ابو عبيدة يوقنا . قال فوضع يوقنا يده على راس البترك فوق يده وقال قل والله والله والله اربعين مرة ، والا قطعت زناري وكسرت صليبي ولعنتني الشمامسة والديرانيون وخلعت دين النصرانية وذبحت الجمل في جرن ماء المعمودية ونجستها ببول مولود من أولاد اليهود وقتلت كل الشهود ، والا خرقت شدائد مريم وعصبت راسي ، والا ذبحت القسوس وصبغت بدمائهم ثوب عروس ، والا جعلت مريم زانية به ، والا جعلت في المذبح حيضة يهودية ، والا اطفات قناديل بيعة جرجيس وجعلت عزيرا في مقام كالوس ، والا تزوجت يهودية طامثة لا تلقي ابدا والا غسلت أثوابي صبيحة يوم الجمعة وهدمت الكنائس والبيع واحللت الاعياد والجمع ، والا عبدت اللاهوت وجحدت الناسوت ، والا اكلت لحم الجمل يوم الشعانين ، والا صمت رمضان عاطشا وكنت للحم الرهبان ناهشا ، والا صليت في ثياب اليهود وقلت ان عيسى دباغ الجلود اننا لا نغدر بكم ولا كنا الا معكم

(قال الواقدي) فعندها قام ابو عبيدة ودخل انطاكية وكان دخوله لخمسة أيام مضين من شعبان سنة سبع عشرة من الهجرة فدخله وبين يديه اللواء الذي عقده له ابو بكر الصديق (رض) وعن يمينه خالد بن الوليد وعن يساره ميسرة بن مسروق ودخلها والقراء بين يديه يقراون سورة الفتح ، فلم يزل سائرا حتى وصل الى باب الجنان فنزل هناك وخط هناك مسجدا وأمر ببنائه وبه يعرف الى يومنا هذا . قال ميسرة بن مسروق فنظرنا الى بلد رطب طيب الهواء كثير الماء والخيرات ، فاستطابه المسلمون ووددنا لو اقمنا فيه شهرا لنستريح ، فما تركنا أبو عبيدة فيه غير ثلاثة أيام ، ثم انه كتب الى عمر بن الخطاب (رض) : سلام عليك واني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو ، واصلي على نبيه محمد (ص) واشكره على ما فتح علينا ورزقنا من الغنيمة والنصر واعلمك يا امير المؤمنين ان الله عز وجل قد فتح على المسلمين كرسي النصرانية ، مدينة انطاكية وكسر الله عسكرها ، ونصرنا الله عليهم وهرب هرقل في البحر واني لم اقم بها لطيب هوائها واني خشيت على المسلمين أن يغلب حب الدنيا على قلوبهم فيقطعهم عن طاعة ربهم واني معول على المسير الى حلب واني منتظر أمرك ، فان امرتني أن اسير الى داخل الدروب فعلت ، وان امرتني بالمقام أقمت ، واعلم يا امير المؤمنين ان العرب قد نظرت الى بنات الروم فدعتهم انفسهم الى التزوج فمنعتهم من ذلك ، واني اخشى عليهم الفتنة الا من عصمه الله ، فعجل الي بامرك والسلام عليك وعلى جميع المسلمين . وطوى الكتاب وختمه ، وقال : معاشر المسلمين من يسير بكتابي هذا الى امير المؤمنين ؟ فاسرع بالاجابة زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد مولى عمرو بن عوف ، فقال انا أيها الامير أوصله ان شاء الله تعالى ، فقال ابو عبيدة يا زيد انت لست مالك نفسك ، وانما انت مملوك ، فان اردت المسير فسل مولاك أن يأذن لك في

ذلك ، فأسرع زيد الى مولاه عمير فانكب على يديه يقبلهما فمنعه من ذلك ، وذلك أن عميرا كان رجلا زاهدا في الدنيا راغبا في الآخرة . ما يملك من الدنيا سوى سيفه ورمحه وفرسه وبعيره ومزادته وقصعته ومصحفه ، وكان الذي يصيبه من الغنائم لا يدخر منه ولا يأخذ الا ما يقوته ، وكان يفرق الباقي على قرابته وقومه ، فان فاض شيء يرسله الى عمر (رض) يفرقه على فقراء المسلمين المهاجرين والانصار . قال فلما اراد زيد ان يقبل يد سيده منعه ، وقال له ما الذي تريد ؟ . فقال يا مولاي تأذن لي ان اكون رسولا للمسلمين بشيرا الى عمر بن الخطاب (رض) . فقال عمير بن سعيد تريد أن تكون بشيرا المسلمين وامنعك من ذلك . اني اذا لآثم ، امض فأنت حر لوجه الله تعالى ، وارجو بعتقك أن يجيرني الله من النار .

قال ففرح زيد بذلك وعاد الى ابي عبيدة فأخبره ان ببركة كتابه صار حرا فسر ابو عبيدة وسار زيد على نجيب من نجب اليمن دفعه اليه وكان سابقا . قال فجعل زيد يطلب اقرب الطرق حتى قدم المدينة ودخلها ، واذا بها ضجة عظيمة ولاهلها ضجيج وهم يهرعون نحو البقيع وقباء ، فقلت لنفسي ان لهم امرا فتبعتهم لارى ما شأنهم وانا احسب انهم يريدون حربا فرايت رجلا فعرفته فسلمت عليه فعرفني ، وقال انت زيد ؟ قلت نعم . قال : الله اكبر ما وراءك يا زيد ؟ . قلت البشارة والغنيمة والفتح . قلت ما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟ . قال انه خارج يريد الحج ومعه ازواج النبي (ص) يحج بهن والناس يشيعونه . قال زيد بن وهب : فأنخت بعيري وعقلته وأسرعت مهرولا حتى وقفت بين يدي عمر (رض) وهو يمشي راجلا ووراءه مولاه يقود بعيرا وقد رحله بعباءة قطوانية وزاده وجفنته عليه ، والهوادج بين يديه سائرة ، وعن يمينه علي بن ابي طالب ، وعن يساره العباس ابن عبد المطلب ، ومن ورائه المهاجرون والانصار وهو يوصيهم بالمدينة . قال زيد بن وهب : فلما وقفت بين يديه ناديت : السلام عليك يا أمير المؤمنين انا زيد بن وهب مولى عمير بن سعيد اتيتك بشيرا . قال عمر بشرك الله بخير فما بشارتك ؟ قلت هذا كتاب من عاملك ابي عبيدة يخبرك أن الله قد فتح على يديه انطاكية . قال فلما سمع عمر بذكر انطاكية وان الله فتحها خر لله ساجدا يمرغ خديه على التراب ، ثم انه رفع راسه من سجوده وقد تترب وجهه وشيبته من التراب ، وهو يقول : اللهم لك الحمد والشكر على نعمك السابغة ، ثم قال هات الكتاب رحمك الله فناولته اياه ، فلما قراه بكى ، فقال له علي كرم الله وجهه مم بكاؤك ؟ . قال مما صنع ابو عبيدة بالمسلمين وبما استعقب رايه في الموحدين ، ثم قال ان النفس لامارة بالسوء ودفع الكتاب الى علي فقراه على المسلمين الى آخره . قال زيد بن وهب : ثم رأيت عمر قد هدأ من بكائه ، وقد زاد فرحه واقبل علي ، وقال يا زيد اذا عدت فأمعن النظر في اتيانها واعنا بها واحمد الله كثيرا ، فقلت يا أمير المؤمنين ليس هذا أوانه . قال ثم جلس عمر على الارض ودعا بدواة وقرطاس

وكتب الى ابي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر الى عامله بالشام أبي عبيدة عامر ابن الجراح ، سلام عليك واني احمد الله الذي لا اله الا هو واصلي على نبيه واشكره على ما وهب من النصر للمسلمين ، وجعل العاقبة للمتقين ولم يزل بنا لطيفا معينا . واما قولك لم نقم بانطاكية لطيبها ، فان الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، فقال ـ يا ايها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا ـ ، وقال ـ يا ايها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ـ الآية فكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون ابدانهم من نصب القتال مع من كفر بالله ، واما قولك انك منتظر أمري فالذي آمرك به ان تدخل وراء العدو وتفتح الدروب فانك الشاهد وانا الغائب ، وقد يرى الشاهد ما لا يراه الغائب وانت بخضرة عدوك وعيونك تأتيك بالاخبار ، فان رايت أن دخولك الى الدروب بالمسلمين صواب فابعث اليهم بالسراية وادخل معهم الى بلادهم وضيق عليهم المسالك ، ومن طلب منك الصلح فصالحهم ووف لهم بما تقدر ، واما قولك ان العرب ابصرت نساء الروم فرغبت في التزوج ، فمن احب ذلك فدعه ان لم يكن له اهل بالحجاز ، ومن اراد أن يشتري الاماء فدعه فان ذلك أصون لفروجهم واعف لنفوسهم ، وما تحتاج أن أوصيك في أمر فلنطانوس صاحب رومية أوسع عليه في النفقة وعلى من معه فانه قد فارق اهله وملكه وأمره ونهيه والسلام عليك وعلى جميع المسلمين . وطوى الكتاب ودفعه لزيد بن وهب ، وقال له انطلق رحمك الله واشرك عمر في ثوابك ، فأخذ زيد الكتاب وهم ان يسير فامره أن يقف ، وقال له على رسلك حتى يزودك عمر من قوته ، ثم ان عمر اناخ راحلته واخرج له تمرا واعطاه صاع تمر وصاع سويق وقال يا زيد اعذر عمر فهذا ما امكنه ، ثم ان عمر قبل راس زيد بن وهب فبكى زيد ، وقال يا امير المؤمنين او بلغ من قدري أن تقبل راسي وانت أمير المؤمنين وصاحب سيد المرسلين ، وقد ختم الله بك الاربعين فبكى عمر وقال ارجو أن يغفر الله لعمر بشهادتك . قال زيد بن وهب : فاستويت على كور ناقتي وهممت بالمسير فسمعته يقول : اللهم احمله عليها بالسلامة واطو له البعيد وسهل له القريب انك على كل شيء قدير . قال زيد بن وهب : ففرحت بدعوة عمر (رض) وعلمت أن الله لا يرد دعوته اذ كان لربه طائعا ولنبيه تابعا ، فجعلت أسير والارض تطوي لي تحت اخفاف مطيتي فكنت والله في اليوم الثالث عند ابي عبيدة ، وقد رحل عن انطاكية وقد نزلت على حازم . قال زيد : فلما وصلت الى عساكر المسلمين سمعت ضجة وجلبة وقد ارتفعت الاصوات فسألت رجلا من أهل اليمن ما سبب ذلك ؟ . قال فرحا بما فتح الله على المسلمين . وهذا خالد قد اتى وكان قد ضرب على شاطىء الفرات واغار بخيله ، وقد صالحه اهل منبج وبزاعة وبالس واتى برجالهم وأموالهم وافتتحها صلحا ، وقد فتح منبج وبزاعة وبالس وقلعة نجم في العشر الاوسط من المحرم سنة ثماني عشرة من الهجرة وصالحهم بعد رد اموالهم على مائة الف وخمسين

الف دينار واخذها بعد ان نزل صاحبهم جرفناس وسار بأمواله وعبيده وخيوله الى بلاد الروم وولى على منبج عباد ابن رافع التميمي ، وعلى الجسر نجم بن مفرج ، وولى على بزاعة أوس بن خالد الرابعي وعلى بالس بادر بن عوف الحميري وبنى له بها قلعة الى جانب بالس من الشرق وسماها باسمه وعاد خالد بالاموال والاثقال يوم قدوم زيد بن وهب . قال فاتيت ابا عبيدة وهو جالس وخالد الى جانبه ، وقد قدم مال الصلح فانحت ناقتي وسلمت عليهم ودفعت الكتاب الى ابي عبيدة ففضه وقراه على المسلمين ، فلما سمعت المسلمون ما فيه . قال ابو عبيدة : معاشر المسلمين ان امير المؤمنين قد جعل امر الدخول الى الدروب الي ، وقال انت الشاهد وانا الغائب وانا لا افعل شيئا الا برايكم فما تشيرون علي ان افعل رحمكم الله ؟ فلم يجبه احد ، واعاد القول ثانيا فلم يجبه احد ، والله اعلم .

تم الجزء الاول

ويليه : الجزء الثاني : اوله ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فهرس الجزء الاول


فتوح الشام
٢





-٢-

تأليف

ابي عبدالله محمد بن عمر الواقدي





بسم الله الرحمن الرحيم

انا فتحنا لك فتحا مبينا

ذكر غزوة مرج القبائل داخل الدروب

فقال ابو عبيدة : معاشر المسلمين هذا الشام قد ملكتموه وملككم الله اياه واخرج عدوكم منه بالذل والهوان ، واورثكم أرضهم وديارهم : كما قال الله تعالى في كتابه العزيز ، فما تشيرون به علي ؟ أندخل في هذه الدروب وراء أعدائنا ؟ فلم يجبه أحد فأعاد الكلام . ثم قال : ما هذا السكوت أفشل بكم بعد الشجاعة ، أم كسل بعد النشاط ، أم قد إنتقيتم من الحسنات ولم يبق عليكم من الذنوب ، وان الحسنات لكم كثيرة ، ولم يبق عليكم خطيئة فالرغبة الى الله ان يعينكم على الجهاد ، فهو خير لكم من الدنيا وما فيها . قال فكان أول من تكلم ميسرة بن مسروق العبسي ، فقال : ايها الامير انا لم نسكت لجزع لحقنا ولا لفزع رهقنا ، وانما بعضنا ينتظر بعضا اجلالا وأدبا ، واعلم أيها الامير أنه ما لنا تجارة ولا عمل غير الجهاد في أعداء الله ، وها نحن لك وبين يديك ومنك الامر ومنا الطاعة لله ولرسوله ولك ، وأما أنا فلا أملك الا نفسي فوجهني حيث شئت تجدني طائعا ، فقال أبو عبيدة : معاشر المسلمين من له رأي وحضرته مشورة فليقلها ويظهر ما عنده ، فقال خالد أيها الامير ان اقامتنا عن طلب القوم وهن وعجز منا في ديننا وطلبهم هو الغنيمة ، والنصر من عند الله ، والذي أشر به أيها الامير أن تبعث الجيوش في كل درب من هذه الدروب . فان ذلك يوهن العدو وتقر به أعين المسلمين . قال فجزاه ابو عبيدة خيرا ، وقال يا أبا سلمان : انى قد رأيت أن أعقد لميسرة عقدا وأسير معه رجالا لانه هو أول من سارع الى هذا الامر واشار به ، فيفتح الله لهم الدروب ويغير على ما قرب من البلاد ويرجع فيخبرنا عن خبر البلاد فنعمل على حسب ما نرى.
فقال خالد : هذا الصواب . فعقد لميسرة وانتخب له من القبائل

ثلاثة آلاف فارس من الشجعان وألف عبد من السودان ، وجعل من كل قبيلة نقيبا ، وجعل على العبيد دامسا أبا الهول ، قال فلبسوا أكمل السلاح وكل منهم يقول انه يلقي الكتيبة وحده ، وجعل أمير القوم ميسرة ، وقال أبو عبيدة : يا أبا الهول كن أنت بجماعتك في أوائل العسكر ولا تخالف ميسرة فيما أشار به . فانه مبارك الطلعة . فقال سمعا وطاعة . قال وجهز القوم . ثم ان خالدا قال : أيها الامير أرسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق ويكونون لهم عيونا على أعدائهم ، فطلب لهم من أهل حلب من المعاهدين من يكون ناصحا لهم ، فاختاروا لهم أربعة وأعطاهم بو عبيدة واحسن اليهم وطرح عنهم الجزية ، وقال لهم : في أي درب يكون دخول المسلمين في طلب العدو ؟ فاجتمع رايهم على أن يدخلوا في الدرب الاعظم من بلد قورص .

ثم انهم قالوا أيها الامير ان هذه الدروب ليست كمثل البلاد التي فتحتموها بل هي بلاد شديدة البرد كثيرة الشجر والمدر والحجر وفيها مضايق وشعاب وأودية وكهوف وعقبات ، فقال أهل اليمن سيروا أنتم أمامنا فانكم ترون منا عجبا ، فسار أبو الهول والمعاهدون امامه ، وسار ميسرة في أعقابهم بعدما ودعوا الناس ومضوا وهم بالتهليل والتكبير وقراءة القرآن والمسلمون يدعون لهم بالنصر والسلامة . قال عطاء بن جعيدة : وسرنا والدليل أمامنا حتى أتينا عقبة حنداس فقطعناها،وعبرنا نحو الساجور وأتينا قورص فنزلنا فيها وبتنا ، فلما أصبحنا ودخلنا الدروب وجدنا بها أرضا وعرة وأشجارا ومياها جارية ومضايق ليس للفرس فيها مجال ، فهالنا وحشة ذلك المكان اذ ليس للعرب فيه مجال ولا فسحة . فقلت في خاطري ان طالت علينا هذه الاودية خشيت على المسلمين أن يظفر بهم عدوهم والادلاء أمام المسلمين ، وقد تعلقوا في جبال شامخة صعبة الصعود فلم يبق أحد الا وترجل عن فرسه ، قال ومشينا حتى تقطعت نعالنا وسال الدم من أرجلنا فلم نزل على ذلك ثلاثة أيام والادلاء يقولون لنا كونوا على يقظة ، فان اخذ عليكم المجاز هلكتم ، فلما كان في اليوم الرابع خرجنا الى ارض واسعة ، وكان دخولنا الى بلاد الروم في أول الصيف ونحن مخففون من الثياب ولما دخلنا الى تلك الارض وجدنا بردا كثيرا ونظرنا الى الثلج، وهو على الجبال عن يميننا وشمالنا. قال وكان دامس أبو الهول لم يأخذ معه ثيابا تدفئه فحصل له من البرد فقال يا أبا الهول ما لي أراك ترتعد ؟ فقال أخذني البرد وليس معي ما يدفئني . فدفع اليه فروة فلبسها فدفىء . فقال كساك الله من ثياب الجنة .

(قال الواقدي) وساروا الى ان وصلوا الى ارض طيبة كثيرة

المياه قليلة الشجر فنزلوا فيها . ثم انهم ساروا فلم يروا أحدا لان الروم كانوا قد نزحوا عن البلاد لحذرهم من المسلمين . فلما كان في اليـــوم الخامس ونحن سائرون اذ لاحت لنا قرية فقصدها المسلمون ... واذا هي خالية بل سمعوا أصوات الديوك والغنم فدخلوها فلم يجدوا عندها مانعا ولا دافعا فعرفنا انهم تواروا عنا فصاح ميســـرة ، وقال خذوا حذركم . فان القوم قد انهزموا . فدخل الناس الى القرية فأخذوا ما كان فيها من طعام وأثاث ومتاع . قال سعيد بن عامر : فرأيت أبا الهول، وهو يحمل على عاتقه ثلاثة أكسية وقطعتين . قال فقلت له : يا أبا الهول ما هذا ؟ فقال استعد به لبرد هذه البلاد الخبيثة فما انساها ابدا . قال وأخذوا ما كان في القرية من طعام وعلوفة وساروا الى أن وصلوا الى مرج يقال له مرج القبائل ، وهو مرج واسع ، فانبثت الخيل فيه يمينا وشمالا ونزل الجيش هناك ، وميسرة يراود نفسه في الرجوع الى حلب، وذلك ان أبا عبيدة كان قد أمره أن لا يبطىء عنه ، وأن يكون حــذرا ، فبينما هو كذلك والخيل منبثة والناس آمنون من عدو يدهمهه ، اذ اقبل بعض الخيالة ومعه علج يقوده ، فلما وصل الى ميسرة ، قال له : ما شان هذا ومن اين اخذته ؟ فقال : اعلم أيها الامير اني سبقت اصحابي فرأيت شخصا يلوح مرة ويختفي مرة فأسرعت اليه . فاذا هو هــــذا فأتيته وسقته اليك . قال فتقدم اليه رجل من المعاهدين فسأله فحدثه فأطال معه الكلام والناس سكوت ، فلما أطال ، قال ميسرة : ويلك مـــا الذي يقول هذا العلج ؟

فقال أيها الامير انه يقول : ان الملك هرقل لما ركب البحر وخرج من انطاكية ووصل الى قسطنطينية قصدته الروح من كل مكان من المنهزمين وغيرهم ، وبلغه ان انطاكية قد فتحت صلحا وانه قتل من كان فيها من المقاتلة فصعب عليه وبكى ثم قال : « السلام عليك يا أرض سوريا الى يوم اللقاء » ، وقد تجمع عنده من البطارقة والحجاب وغيرهم خلــق كثير ، فقال لهم اني أخاف من العرب أن ترسل في طلبنا . ثم أنه جهز ثلاثين ألفا مع ثلاثة بطارقة وأمرهم ان يحفظوا له الدروب . فقال لـــه ميسرة : قل له كم بيننا وبينهم ؟ قال يقول لكم فرسخان . قال فلمـــا سمع ذلك ميسرة أطرق الى الارض لا يرد جوابا ولا يبدي خطابا . فقال له رجل من آل سهم يقال له عبد الله بن حذافة السهمي ، وكان مـــن أبطال الموحدين وشجعانهم ، وكان له عمود من حديد ، وكان يقاتل به لا يقله في الحرب سواه وكان ذميم الخلقة ، فقال لميسرة بن مسروق : ما لي أراك أيها الامير مطرقا الى الارض اطراق الحصان لصلصلة اللجام والرجل منا يقابل الفا من الروم .

فقال والله يا عبد الله ما أطرقت خوفا ولا جزعا ، ولكن خوفا على

المسلمين أن يصابوا تحت رايتي وهي أول راية دخلت الدروب فيلومني عمر بن الخطاب ، وكل راع مسؤول عن رعيته . فقال المسلمون : والله ما نبالي بالموت ولا نفكر في الفوت لاننا قد بعنا أنفسنا بجنة ربنا ومن يعلم أنه ينقل من دار الفناء الى دار البقاء فلا يبالي بما وصل اليه من الكفار، ثم انه قال أيها الناس أترون أن نلقاهم في موضعنا هذا أو تسير اليهم ؟ فسألوا المعاهد ، وقالوا ان كان موضعهم افسح من هذا رحنا اليهم . فقال ليس من هذه البلاد بعد عمورية أفسح من هذا المكان ، فان عوّلتم على لقائهم فاثبتوا مكانكم ، وان عدتم الى ورائكم كان خيرا لكم من قبل أن يشرف عليكم عدوكم . قال فعرض ميسرة على العلج الاسلام فأبى ، وكانوا كالجراد المنتشر . وكان قد مضى النهار فأضرمت النيران . فلما أصبح الصبح صلى ميسرة بالناس صلاة الفجر ، فلما فرغ قام في الناس خطيبا ، فقال أيها الناس هذا يوم له ما بعده ، وان رايتكم هذه أول راية فضرب عنقه ، فبينما هم على ذلك اذ أشرفت عليهم الروم فنزلوا بازائهم ما لا يحصل لغيره . فقال قبح الله تلك البلاد ، فاذا كان هذا البــرد عندهم في الصيف فكيف يكون في الشتاء . وجعل يرتعد فرآه ميسرة ، دخلت الدروب . واعلموا أن اخوانكم مطاولون لفعلكم ، واعلموا أن الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر واسمعوا ما قال نبينا (ص) « الجنة تحت ظلال السيوف » ولا تنظروا الى قلتكم وكثرة أعدائكم ، فقد قال تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » . فقال المسلمون : اركب بنا يا ميسرة على بركة الله والقهم بنا ، وانا لنرجو من الله النصر عليهم . قال فاستبشر بقولهم وركبوا وانفصلت العبيد من العرب ووقفوا تحت راية أبي الهول وأخذوا على أنفسهم قتال عدوهم واستنصروا بربهم ، وهو يوصيهم ، وجعل على الميمنة عبد الله بن حذافة السهمي وعلى الميسرة سعد بن أبي سعيد الحنفي وقدم العبيد مع أبي الهول فلم ينطق بكلمة وركب جيش الروم ومدوا صفوفهم ثلاثة صفوف كل صف عشرة آلاف وأمامهم الصلبان وهم في عددهم وعديدهم ، فلما استوت الصفوف خرج رجل من الروم من المتنصرة وقرب من المسلمين، وقال ان الباغي بقيه برديه ، أما كفاكم ما ملكتموه من الشام العظيم حتى اقتحمتم هذه الجبال ؟ وانما ساقتكم الآجال وهنا ثلاثون الف عنان ، وقد حلفوا بالصلبان ان كلا منهم لا ينهزم وان وقع ميتا ، فان اردتم ان نبقي عليكم فاستسلموا للاسر حتى يحكم الملك هرقل فيكم بما يــريد . فخرج أبو الهول والراية بيده ، وقال له صدقت في قولك ان الباغي برديه بغيه . وأما قولك انا نلقى اليكم بأيدينا لتبقوا علينا فأنت اذا باغ بقولك هذا اذ نطقت بغير تجربة منكم وها أنا عبد من عبيد العرب لا قدر لي ولا قيمة عند ذوي الرتب فاقرب مني حتى أجندلك صريعا تخور في دمك ،

ثم أن دامسا همز حصانه ,لبه وطعنه فأرداه عن فرسه قتيلا . ثم جال على فلوه وهز رايته ، وقال الله واكبر فتح الله ونصر وجاءنا بالظفر . ونظرت الروم الى ابي الهول ، وقد قتل صاحبهم وكان من شجعانهم ، ففضبوا لذلك فخرج اليه آخر فما تركه يقرب منه حتى طعنه في نحره فاخرج السنان من ظهره . ونظر الروم الى ذلك ، فقالوا : هذا عبد من عبيد العرب قد فعل ما ترون . قال فلم يجسر احد ان يخرج اليه فأغار عليهم وقتل من القلب واحدا ورجع . قال فحمل عليه صف من الصفوف وهم عشرة آلاف ودهموه بالخيل فحملت العبيد وحملت المسلمون والتقى الجمعان . قال ميسرة : فالله درّ العبيد لقد ابلوا بلاء حسنا واستنقذوا أبا الهول من عين الهلاك وهم يقولون : « نحن عبيد لعباد الله وضربنا مثل الحريق في سبيل الله ونقتل من كفر بالله » ، قال : ولم يزل الحرب بينهم حتى قامت الشمس في قبة الفلك وحمي عليهم الحر وافترق الجمعان . قال وان المسلمين موقنون بالظفر والنصر ، والمشركون قد ايقنوا بالهلاك ، وقد قتل منهم خلق كثير واسر من الروم تسعمائة وقتل منهم زهاء من الف . فلما انفصل الجمعان افتقد المسلمون أبا الهول فلم يجدوه ، فقال ميسرة : « أن كان ابي الهول قد قتل او اسر فقد أصبنا به والى الله تعالى اشكو ما أصبنا من فقد ابي الهول » ، واسر من المسلمين عشرة . ثم ان ميسرة قال : من فيكم يكتشف لنا خبرهم ؟ واذا بالروم قد عادوا للقتال وحملوا بأجمعهم فقاتلوا قتالا شديدا فكان الرجل من المسلمين يجتمع عليه العشرة والعشرون والخمسون الى أن يقتلوه أو يأسروه ، وكانت العرب في أربعة آلاف والروم في ثلاثين الفا ، فعظم بينهم الحرب وهاج الطعن والضرب ، فلله درّ ميسرة بن مسروق العبسي ، لقد جاهد في الله حق جهاده وهو مع ذلك ينادي : ايها الناس اذكروا الدار الآخرة واعلموا انها أقرب لاحدكم من رجوعه لاهله فاستقبلوها استقبال الوالدة لولدها ولا تولوا الادبار عنها ، فان أصاب القوم منا فاني أخشى أن ذلك وهن بنا . ثم انه نادى أحطموا اجفرة سيوفكم فذلك طريق النجاة .

قال زيد بن وهب : فلم يبقى احد من المسلمين حتى رمى بجفير سيفه ، فلما رات الروم ذلك فعلوا مثلنا ورمى كل منهم بجفير سيفه . وسميت تلك الواقعة باسمين : وقعة مرج القبائل ووقعة الحطمة ، لاجل حطم اغمدة السيوف . قال : واقتتلوا حتى أن الرجل يقول ان سيفه ما بقى يقطع ، والمسلمون يبتهلون الى الله والكفار تعج بكلمة كفرهم . قال وان المسلمين يطلبون الفرج من الله ، والسودان تقاتل قتال الموت ، وكان شعار العرب في ذلك اليوم النصر النصر ، وشعار السودان يا محمد يا محمد . قال ابن ثابت : وكنت قد اخذني القلق على المسلمين ، ونحن

في ركب عظيم اذ سمعت في الروم ضجة هائلة واذا بهم يقاتلون اناسا من ورائهم وهم في وسط عسكرهم والزعقات منهم قد علت وسمعت قائلا يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله . فقلت هذه أصوات الملائكة . فاتبعت الصوت ، فاذا هو صوت دامس ابي الهول ، وهو بارك تحت حجفته ومعه العشرة المأسورين وهم يقاتلون معه ويحمون بعضهم الى ان خلصوا من بيتهم ، وسمعته يقول هذه الابيات :

يوثقني الاعداء في الحديد   وناصري وسيدي المبيد
مهلك عاد وبني ثمود   أغاثني بعونه الشديد
محمد الطاهر الرشيد   فحل عني القيد والحديد
ذاك رسول الملك المجيد   صلى عليه الناصر الحميد

قال فحملت المسلمون وكشفوا عنهم فخرجوا وكأنهم قد غرقوا في بحر دم ، ووالله ما قتل من المسلمين أكثر من خمسين رجلا بواحد أو باثنين ، وقتل من المشركين نيف عن ثلاثة آلاف غير ما قتله ابو الهول واصحابه في وسط عسكر الكفر . فلما نظر ميسرة الى دامس اراد ان يترجل اليه فاقسم عليه أن لا يفعل وافترق الجيشان فضم ميسرة دامسا الى صدره وقبله بين عينيه وقال له : كيف كان امركم ؟ . قال اعلم أيها الامير أن الروم كانوا قد تكاثروا على فرسي فقتلوه ووقعت فأخذوني اسيرا وجعلوني في الحديد وفعلوا بأصحابي مثلي وقد أيسنا من انفسنا ، فلما جنّ الليل رأيت رسول الله (ص) وهو يقول لا بأس عليك يا دامس اعلم أن منزلتي عند الله عظيمة ، ثم انه أمرّ يده الكريمة على الحديد فسقط مني وفعل ذلك مع أصحابي وقال لنا ابشروا بنصر الله فأنا نبيكم محمد رسول الله . وقال لي أقرىء عني ميسرة السلام وقل له جزاك الله خيرا ، ثم غاب عني فانتبهت فوجدت الموكلين بنا نياما مما لحقهم من التعب وقد رموا سلاحهم فأخذنا سيوفهم وطوارقهم وقتلناهم وحملنا فيهم ونصرنا الله عليهم ببركة رسول الله (ص) فقتلنا منهم من قتلنا وخرجنا من بينهم سالمين وهذا حديثنا . قال فضج المسلمون بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير .

النجدة

(قال الواقدي) ثم ان بطريق الروم كان اسمه جارس ، فلما رأى ما قد حل بأصحابه قال وحق المسيح خاب ملك انتم حماته ، فان لم تقاتلوا بعزم وشدة والا قتلتكم ، قال فتحالفوا أن لا ينهزموا أو يقتلوا عن آخرهم ، فلما وثق منهم امر أن تضرم النيران على شواهق الجبال

وامر ان ينفذ النفير الى البلاد بأسرها ، قال فاتت اليه الروم من كل جانب فأتى اليه عشرون الفا ، ولكن المسلمين لم يكترثوا بذلك ، فلما كان الغد صلى ميسرة بالمسلمين صلاة الخوف وهو أول من صلاها داخل الدروب وأول راية دخلت كانت رايته ، فلما فرغ من صلاته قام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه وقال : ايها الناس اثبتوا لما نزال بكم فالصبر عند نزول المصائب ، وهذه رحمة من الله لنا اذ نحن في صدور الاعداء وقد دارت بنا هذه الجيوش ونحن لا نقاتل الا بنصر الله لنا وان الامير ابا عبيدة كان قد أمرني ان لا أبعد بكم عنهم ولنا منهم الآن سبعة أيام وما يظن ابو عبيدة اننا نلاقي جيشا .

فقال له سعيد بن زيد : يا ميسرة ما الذي تريد بهذا الكلام ؟ ان كنت تريد انك تحرضنا فنحن أشوق الى لقاء الله من الظمآن الى الماء البارد . فقال ميسرة ما أردت بذلك الا مشورتكم ، وقد رأيت أن ننفذ الى امير المسلمين رجلا نعلمه بما قد بلينا به وان مدد القوم يزيد فلعله ينجدنا باخواننا . فقال سعيد : نعم ما قد أشرت به . فدعا برجل من الاربعة المعاهدين ووعده بكل خير وامره أن يأخذ معه آخر وأن يسير الى أبي عبيدة ويعلمه أن نفير القوم قد لحقنا من الحصون والقرى وسائر البلاد ، وقد نزلوا بازائنا وان يحدثه بما قد راى . قال فسار المعاهد والرجل الى حلب واجهدا نفسيهما في السير في طرق يعرفانها الى أن وصلا جيش المسلمين فسقطا كأنهما البغال الهرمة من شدة السير والتعب . فأمروا أن يرش عليهما الماء ، فلما افاقا قال لهما : ما وراءكما أهلكت الكتيبة ؟ قالا : لا والله ولكن نفر عليهم العدو من كل مكان ... واخبراه بما كان من الحرب والقتال وكيف حطموا أجفرة سيوفهم وكيف أسر ابو الهول وكيف خلص وما هم فيه ؟ فقلق ابو عبيدة عند ذلك وقام مسرعا وأتى قبة خالد بن الوليد فوجده يصلح درعه ، فلما رآه قام اليه قائما وقال له خيرا أيها الامير فأخذ بيده وسار به الى أن أتى رحله وقال للرجلين قوما فحدثا الامير بما عاينتما فحدثاه بما كن من أمر المسلمين . فقال خالد ان الله سبحانه وتعالى منذ نصرنا ما خذلنا فله الحمد على ذلك وقد أمرنا بالصبر على الشدائد فقال عز من قال « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » ، وقال : ان الله مع الصابرين . وأما خالد فقال أحبس على الجهاد في سبيل الله ولا أبخل على الله ورسوله فلعل الله أن ينجيني من النار ويرزقني الشهادة .

ثم أسرع الى خيمته ولبس لامته وقلنسوته المباركة وركب جواده فوقع النفير في الناس . قال فاقبلوا من كل جانب فلولا ان منعهم ابو

عبيدة كانوا ساروا بأجمعهم . فانتخب منهم ثلاثة آلاف فارس وأردفهم بالفين آخرين . اخبرنا احمد بن هشام عن عياض عمن حدثه قال . لما سار خالد بالجيش لمعونة ميسرة بن مسروق ومن معه ، رفع خالد يديه الى السماء وقال : اللهم اجعل لنا اليهم سبيلا واطو لنا البعيد ويسر لنا كل صعب شديد . وسار نحو الدروب . قال وأما ميسرة ومن معه فانهم دارت بهم الروم من كل جانب وهم يقاتلون في كل يوم اشد القتال الى أن يقبل الظلام فيفترقون ، وفي كل يوم يزيد عددهم ومددهم وقد لحق المسلمون من التعب والجراح ما لحقهم ولكن من غير فشل ، وكأنهم قوم قد حجب عنهم الموت باذن الله تعالى .

(قال الواقدي) حدثنا عمر بن راشد عن الزبيدي قال : لما سار خالد ليلحق ميسرة وينجده الى داخل الدروب سجد أبو عبيدة سجدة اطال فيها ، وقال : اللهم اني أسألك بمن جعلت اسمه مع اسمك وعرفت فضله لانبيائك ورسلك الا طويت لهم البعيد وسهلت لهم كل صعب شديد والحقتهم باصحابهم يا قريب يا مجيب . قال وميسرة ومن معه منتظرون من الله فرجا يأتيهم ونصراً ينزل عليهم . قال عبد الله بن الوليد الانصاري حدثني ثابت بن عجلان عن سليمان بن عامر الانصاري قال : كنت مع ميسرة في وقعة مرج القبائل ويوم حطمنا أغمدة السيوف والروم تقبل من كل جانب ومكان الى المسلمين ونحن نباكر القتال ونروح رواحا . قال سليمان بن عامر فخرج يوما من الايام بطريق من الروم قد لبس درعين وعليه سواعد من الحديد وعلى رأسه بيضة تلمع فوقها صليب من الجوهر وبيده عمود من الحديد كأنه ذراع بعير فجال بين الصفوف وطلب البراز وكان أحد الثلاثة المقدمين على الثلاثين ألفا . قال : فجعل يدعو الى البراز ويطمطم ، فقال ميسرة للترجمان : ما يقول هذا الاغلف ؟

قال : انه يذكر انه فارس شديد ويطلب شجعانكم وأبطالكم . فقال ميسرة : من يبرز اليه ؟ فأسرع اليه رجل من المسلمين من قبيلة النخع وعليه درع من دروع الروم وثياب من ثيابهم . فقلنا انه من المتنصرة وقد عاد الى الاسلام . فجعل العلج يتكلم وهو يظن انه يفهم كلامه ، فلما رآه لا يبرز اليه حمل عليه وضربه بعموده فزاغ النخعي عنها وعطلها عليه فوقع العمود على رأس جواده فصرع الجواد براكبه ، وسار النخعي على قدميه فناداه ميسرة : يا أخا النخع ارجع ، فرجع القهقرى والعلج يطلبه والنخعي راجل والعلج فارس ، فسار اليه عبد الله بن حذافة السهمي وصاح بالعلج فأدهشه ، فالتفت اليه وسار النخعي الى أن وصل عسكر المسلمين وحمل عبد الله بن حذافة على العلج وحمل العلج عليه

وصعب بينهما المجال صار عبد الله كلما ضرب العلج لا يقطع فيه شيا والعلج كلما ضرب عبد الله يأخذها بحجفته فتوهن ساعده من ثقل العمود وطال بينهما القتال والتقيا بضربتين فبادره عبد الله بالضربة تحت لحيته فطلب بها نحره فلحق رأس سيفه رقبة العلج فطار راسه عن بدنه وأراد الفرس أن يرجع الى عسكر الروم فأخذه عبد الله ونزل اليه واخذ سلبه ورجع الى المسلمين فعظم ذلك على الروم وكان عندهم معظما وعند الملك، قال فبرز بطريق آخر وقال : هذا صاحب الملك قد قتل ولا بد لي من اخذ ثأره من الذي قتله اما بقتله أو أسره وأبعث به الى الملك يصنع به ما يريد . ثم انه اتى البطريق المقتول وراسه طائح عن بدنه فبكى عليه وقال بلسان فصيح : معاشر العرب لا شك ان الله سيهلككم ببغيكم علينا وفعالكم بنا فليبرز اليّ قاتل هذا البطريق حتى آخذ منه بثأره .

فلما سمع عبد الله بن حذافة همّ بالخروج فمنعه ميسرة شفقة عليه لاجل راحته . فانه قد تعب وأراد ميسرة أن يلقاه بنفسه . فقال عبد الله : يدعوني ايها الامير باسمي واتخلف ، إنني اذا لعاجز . فقال له ميسرة : انني اشفق عليك . فقال عبد الله : اتشفق عليّ من تعب الدنيا ولا تشفق عليّ من حر النار وعيش عاش فيه رسول الله (ص) لا يبرز اليه غيري . ثم برز اليه وتحته فرس المقتول وما غير من لامته شيئا وبيده سيفه وحجفته ، فلما التقيا ورأى البطريق فرس صاحبه علم أنه قاتله فما أمهله حتى نفر اليه وحمل عليه عبد الله كأنه جبل قد انهد من علو وتشبث به وجذبه فأخذه أسيرا وذهب به الى قومه وقال أوثقوه بالحديد واحملوه على خيل البريد واذهبوا به الى الملك في هذه الساعة . قال : ففعلوا ذلك وساروا به ورجع البطريق الى الميدان وهو يفتخر بما صنع فأراده ثلاثة من المسلمين كل منهم يريد أن يخرج اليه ، فقال ميسرة ما يخرج لهذا اللعين غيري واستدعى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وسلم الراية اليه ، وقال له : كن للراية حافظا حتى أخرج الى هذا اللعين . فان عدت أخذتها . وان قتلني فأجري على الله. فأخذ سعيد الراية وخرج ميسرة الى البطريق ، وهو يقول :

قد علم المهيمن الجبار   بأن قلبي قد كوي بالنار
على الفتى القائم بالاسحار   سيعلم العلج اخو الاشرار
انى منه آخذ بالثار

قال وحمل عليه وتجاولا طويلا وعظم الامر بينهما وتدانيا وتقاربا وتباعدا وغابا عن الابصار تحت الغبار وكل فرقة تنظر الى صاحبها وتدعو له ، ثم انكشفا وهما للتفرق اقرب منهما للتقارب فقال العلج

لميسرة : بحق دينك ما هذه الراية التي طلعت من وراء عسكركم فلم يلتفت الى كلامه بل قال له : « وما ذلك على الله بعزيز » . فقال وحق ديني ما قلت لك الا حقا . قال وهو يحلف كاذبا . فالتفت ميسرة لحرصه أن يأتي الله بالفرج وينظر حقيق ما قاله اللعين فحمل البطريق عليه ومكن يده منه ليأخذه أسيرا ، واذا قد طلعت راية خالد بن الوليد وهي مشرقة بالنور وهي في يد خالد ابن الوليد . وكبر المسلمون يدا واحدة فمن عظم تكبيرهم ارتجت يد العلج عن ميسرة والتفت البطريق ليرى ما الخبر ، فقبض عليه ميسرة وهمَّ أن يقلعه فلم يقدر لانه كان مرفلا في السرج ، فجعل يجذبه فلم يقدر وقرب خالد منهم فرفع سيفه يريد أن يضرب به ميسرة ليطلقه من يده فحاد السيف عن ميسرة ووقع على يد العلج الشمال فقطعها وانتخع ميسرة وانثنى البطريق الى اصحابه ويده مقطوعة وهو يئن فالتقى به غلمانه فأخذوه وكووه . وأما خالد فانه التقى بميسرة وتسالما وحدثه بما وقع له مع الروم وكيف اسروا عبدالله بن حذافة السهمي فتأسف خالد واسترجع ، وقال : يؤسر مثل عبد الله بن حذافة والله لا يفارقهم خالد أو يخلصه ان شاء الله تعالى . وأقام خالد بقيد ذلك اليوم ، فلما كان من الغد أتاهم من جيش الروم شيخ وعليه مسوح السواد حتى وقف بازائهم وأومأ بالسجود فمنعه خالد ، وقال : ما الذي تريد ؟

قال : ان كبير هؤلاء القوم يريد صلحكم ويطلق أسيركم ويدفع ما تريدون وترجعون . فقال خالد : ما نرجع الا على انفصال ، وأما الأسير فاذا لم تطلقوه طوعا أطلقتموه كرها . قال : انت أمير هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : ان رأيت أن تؤخر القتال بقية يومنا هذا وليلتنا فافعل لندبر ما بيننا وبينكم ويبرد وجع هذا البطريق ونجيبكم الى ما تريدون . قال له أجبناكم الى ذلك . فرجع الشيخ الى قومه ، وقال البطريق قد اجابوا ووضعت الحرب أوزارها ونزل خالد والمسلمون بازائهم في أماكنهم وأضرم الروم النيران وزادوا فيها وحملوا اثقالهم وساروا من أول الليل ، فلما كان الغد ركب المسلمون فلم يجدوا للروم اثرا فعلموا انهم قد ولوا الادبار . فتأسف خالد على ما فاته فأراد أن يتبعهم فمنعه ميسرة ، وقال له انها بلادهم وهي وعرة وان الصواب رجوعنا الى عسكر المسلمين . قال : فأخذوا ما تركه الروم ورجعوا منصورين ولكنهم حزينون على أسر عبدالله بن حذافة السهمي وساروا حتى اتوا حلب فلقيهم أبو عبيدة وفرح بسلامتهم واقبل ميسرة يحدثه بما جرى لهم وكيف أسر عبدالله بن حذافة ، فتأسف عليه ، وقال : اللهم اجعل له من أمره فرجا ومخرجا. وكتب الى عمر بن الخطاب يخبره بما وقع له من أمر السرية الى الدروب وما كان من المسلمين واخبره بأسر عبد الله بن حذافة وبعث الكتاب .

كتاب عمر

فلما وصل الى عمر بن الخطاب فرح بسلامة المسلمين واغتم على عبد الله بن حذافة واسره لانه كان يحبه حبا شديدا ، فقال : وعيش رسول الله لاكتبن الى هرقل بأن يرسل عبد الله بن حذافة ، فان لم يفعل والا سرت اليه بالجيوش والعساكر. ثم انه كتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وصلى الله على نبيه محمد المؤيد ، من عبد الله عمر بن الخطاب امير المؤمنين . اما بعد فاذا وصل اليك كتابي هذا فابعث الي بالاسير الذي عندك وهو عبدالله بن حذافة . فان فعلت ذلك رجوت لك الهداية ، وان ابيت بعثت اليك رجالا وأي رجال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى . ثم انه طوى الكتاب وبعث به الى أبي عبيدة وامره ان ينفذه الى هرقل . فلما وصل الكتاب الى هرقل ، قال له : من أين كتابك هذا ؟ قال من امير المؤمنين امير العرب. فقراه ، فاذا هو من عند عمر بن الخطاب . قال فدعا بعبد الله بن حذافة اليه . قال عبد الله بن حذافة فدخلت عليه والتاج على راسه والبطارقة حوله ، فلما وقفت بين يديه ، قال لي : من أنت ؟

قلت : رجل من المسلمين من قريش . قال انت من بيت نبيك ؟ قلت لا انا من بني عمه . قال : هل لك أن تتبع ديننا وازوجك ابنة بطريق من بطارقتي واجعلك من اخصائي ؟ فقلت : لا والله الذي لا اله الا هو ، لا فارقت دين الاسلام أبدا وما جاء به محمد عليه السلام . فقال : اجب الى ديننا ، وانا اعطيك المال كذا وكذا ، ومن الغلمان كذا وكذا ، ومن الجواري كذا وكذا . قال عبد الله : ثم دعا بسفط من الجوهر وقال : اذا دخلت في ديني أعطيتك اياه . فقلت لا والله لو أعطيتني ملكك وملك قومك ما فارقت دين الاسلام أبدا ولو أعطيتني كل ما تملكه . فقال : اذا لم ترجع الى ديني قتلتك شر قتلة . فقلت : لست افعل ولو قطعتني قطعا ولو أحرقتني بالنار لا رجعت عن ديني فاصنع ما أنت صانع . قال فغضب من كلامي ، وقال : اسجد لهذا الصليب سجدة واخلي سبيلك . فقلت : لست افعل . قال : فكل من لحم الخنزير وأنا أطلقك. قلت : حاشى لله ما كنت بالذي افعل . قال : فاشرب من هذا الخمر شربة واحدة واطلقك . قلت : لا والله لا اشرب ابدا . قال : وحق ديني لتأكلن وتشربن قهرا . ثم أمر بي فجعلني في بيت ، وجعل عندي من ذلك اللحم والخمر ، وقال : اذا أضر به الجوع والظمأ أكل وشرب . واغلقوا علي الابواب .

قال : حدثنا عامر بن سهل عن يوسف بن عمران عن سفيان بن خالد عمن يثق به أن هرقل كان قد مات بعد هزيمته من انطاكية بأيام قلائل مما دخل على قلبه من القهر ويقال انه مات مسلما والذي فعل ذلك بعبد الله بن حذافة ولده سطيوس وكانوا لقبوه باسم هرقل . قال : فلما كان في اليوم الرابع طلب عبد الله بن حذافة وقال للغلمان : ما فعل؟ قالوا لم يأكل شيئا ولم يشرب وهو على حاله . فقال له وزيره : أيها الملك اعلم أن هذا الرجل شريف في قومه لا يرى الذل فكل ما تفعله في هذا الرجل تفعله المسلمون اذا قبضوا على ملك منا . قال فاستدعاه ، وقال له : ما فعلت باللحم ؟ قال : هو على حاله . فقال : ما منعك أن تأكل ؟ قال : فزعا من الله ورسوله ، وأيضا انه قد حلَّ لي بعد ثلاثة أيام ، ولكن ما أردت ان تشمت بي الملحدون . وورد كتاب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فلما قرأه اعطى عبد الله مالا كثيرا وثيابا وأعطاه لؤلؤا كثيرا هدية لعمر بن الخطاب وبعث معه خيلا الى ان اخرجوه من الدروب ووصل الى حلب ولقي المسلمين ففرحوا به . ثم انه سار الى عمر بن الخطاب ، فلما رآه سجد لله شكرا وهناه بالسلامة وحدثه بما كان من هرقل واخرج له اللؤلؤ . فلما رآه عمر عرضه على التجار ، فقالت التجار له هذا ما يقوَّم ومن جاءك به ، فقالت الصحابة خذه اليك بارك الله لك فيه ، فقال : لا اله الا الله محمد رسول الله ، اذا كنتم قد جعلتموني منه في حل فكيف أصنع بمن غاب من المسلمين ومن في بطون الامهات واصلاب الرجال من أولاد المهاجرين والانصار والمجاهدين في سبيل الله ، ولا طاقة لعمر بمطالبتهم يوم القيامة . ثم باعه وجعل ثمنه في بيت المال .

حدثنا عمر بن سالم عن عبد الله بن غانم عن أبي بكر بن عمر عن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله ، قالوا جميعا انه لما فتح أبو عبيدة انطاكية صلحا ، وكان من أمر سرية ميسرة بن مسروق ما ذكرناه أقام أبو عبيدة بحلب ينتظر ما يأتي اليه من عمرو بن العاص لما مضى الى قيسارية في خمسة آلاف من المسلمين فيهم عبادة بن الصامت وعمرو بن ربيعة وبلال بن حمامة وربيعة بن عامر .

ذكر فتح قيسارية الشام بساحل البحر

قال سبيع بن ضمرة الحراني : كنت مع عمرو بن العاص حين سار الى قيسارية فدخلنا قرية من قرى الشام، وكان البرد شديدا ونظرنا الى كرومها ونظرت الى كرمة في دار من دور القرية وفيها عناقيد مدلاة أكبر ما يكون فأخذنا منها وأكلنا فبردنا ولحقنا البرد الشديد من شدة برد ذلك العنقود. فقلت قبح الله هؤلاء الملاعين بلدهم بارد وعنبهم بارد وماؤهم

بارد وأنا أخاف الهلاك من شدة برد بلادهم . قال فسمعني رجل من أهل البلد فأراد أن يقرب الي لاداعبه ، فقال لي : يا أخا العرب ان كنت تجد البرد من العنب فاشرب من مائه . قال سبيع : ثم انه دلنا على دن كبير فيه خمر فشربت أنا وجماعة من عرب اليمن فسكرنا فجعلنا نتمايل سكرا فأخبر بذلك عمرو ابن العاص ، فكتب الى أبي عبيدة يعلمه بذلك فكتب اليه أبو عبيدة : أما بعد فمن شربها فحده عليها وأقم حدود الله كما أمر ، ولا تخش لومة لائم ، فلما وصل الكتاب الى عمرو دعا بسبيع ابن ضمرة وأصحابه فجلدهم بالسياط . قال سبيع :فلما ضربني عمرو وأوجعني . قلت والله لأقتلن العلج الذي دلنا على الخمر حتى شربناها وأكلنا الحد ، فأخذت سيفي ودخلت القرية أطلب العلج فلما رأيته ووقعت عيني عليه أردت قتله فولى هاربا فتبعته وهو يقول : ما ذنبي عندك ؟ فقلت أنت دللتني على ما يغضب الله حتى أكلت الضرب ، فقال والله ما علمت أنه محرم عليكم . قال فناداني عبادة بن الصامت وقال يا سبيع اباك أن تقتله فانه تحت الذمة . قال فتركته ومضى العلج وأتى الي بتين وجوز وزبيب وقال كل هذا بذاك فانه يدفئك . قال فأكلته فوجدته طيبا فقلت لحاك الله أين هذا كان قبل أن أضرب بالسياط ؟ .

(قال الواقدي) ثم ان عمرا ارتحل فنزل بموضع يقال له محل وبلغ الخبر فلسطين بن هرقل ، وكان قد أتاه المنهزمون من عسكر أبيه ولجئوا اليه واكتمل جيشه في ثمانين ألفا ، ثم انه دعا برجل من المتنصرة وقال له : امض واحزر لي عسكر العرب واكشف لي أخبارهم فوصل اليهم ولجأ الى قوم من اليمن وهم يصطلون حول النار ، فجلس بينهم يسمع حديثهم ، فلما أراد القيام عثر في ذيله . فقال باسم الصليب كلمة أجراها الله على لسانه ، فلما سمعوا قوله علموا أنه متنصر جاسوس للروم فوثبوا اليه وقتلوه ووقع الصائح في العسكر فسمع عمرو الضجة . فقال ما الخبر ؟. قيل ان قوما من اليمن وقعوا بجاسوس من الروم فقتلوه . قال فغضب عمرو وطلبهم ، وقال ما حملكم على قتل الجاسوس ؟ وهلا أتيتموني به لأستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا ثم انها ترجع فتصير لنا ، لأن القلوب بيد الله يقلبها كيف شاء . ثم انه نادى في جيشه : من وقع بغريب أو جاسوس فليأت به الي . قال وان فلسطين استبطأ الجاسوس فعلم بقتله فأرسل غيره فأشرف على القوم من فوق شرف عال وحزرهم وعاد اليه فأخبره أنهم في خمسة آلاف ، الا انهم كالأسود الضارية أو كالعقبان الكاسرة يرون الموت مغنما والحياة مغرما ، فلما سمع ذلك . قال وحق المسيح والقربان لا بد من قتالهم . فأما أن

أبلغ المراد أو أموت صبرا ، ثم انه جمع عسكره واختار منهم عشـرة آلاف فارس شدادا وولى عليهم بطريقا اسمه بكلاكون وهو صاحب جيشه : وقال سر بهؤلاء فأنت طليعة جيشي فسار من ساعته ، ثم انه عقد صـليبا آخـر وسلمه الى دمستق العسكر واسمه جرجيس بن باكور وضم اليه عشرة آلاف وقال له الحق بصاحبك فسار في أثره ، فلما كان في اليوم الثانـي خـرج فلسطين ببقية الجيش وترك ابن عمه فسطاس في قيسارية يحفظها وتـرك عنده عشرة آلاف . قال بشار بن عوف : فبينما نحن نازلون اذ أشرف علينا البطريق الأول في عشرة آلاف فارس ، فلما قربوا منا رأيناهم فحزرناهـم فاذا هم عشرة آلاف . قال ففرحنا وقلنا نحن خمسة الاف وعدونا في عشرة آلاف ، فكل رجل منا يقاتل اثنين ، فبينما نحن كذلك اذ أشـرف علينـا البطريق الثاني في عشرة آلاف ، فقال عمرو رضي الله عنه : اعلموا أن مـن أراد الله واليوم الآخر فلا يرتاع من كثرة العدو ولو تزايد المدد ، فان الجهاد أوفر متجرا وأعز قدرا ، وأي فخر عند الله ممن يقتـل في سبيـل الله .. وصفوف الكفار ويكون حيا عند الله يرتع في مروج الجنة وينال من الله سابغ النعمة والمنة ، فقد قال الله تعالى — ولا تحسبن الذين قتلوا في سـبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهـم — الآيـة ، ولو أن الجاسوس الذي قتلتموه لم تعجلوا عليه ، لأخبرنا بمسير هذا الجيش الينا وكثرته ، وكنا قد أخذنا حذرنا على انفسنا واحطنا ، ولكن أمر الله لا يرد . ثم انه جمع أبطال الموحدين ، وقال قد رأيت أن ننفذ الى أبي عبيدة نعلمـه ليمدنا بالخيل والرجال ، فان هذا جيش عظيم . ثم قال : أيها الناس مـن يركب ويسير الى الأمير أبي عبيدة ويعلمه بما قد صرنا اليه ؟ فلعله أن ينجدنا كما أنجد يزيد بن أبي سفيان . وهو محاصر قنسرين وأجره على الله .

المعارك في فلسـطين

فقال له ربيعة بن عامر : يا عمرو الق بنا العدو وتوكل على الله ، فان الذي نصرنا في مواطن كثيرة ونحن في قلة ينصرنا اليوم على بقيـة القـوم الكافرين . قال فقنع عمرو بكلام عامر بن ربيعة ، وقال والله لقد صدقـت وأمر الناس بالتأهب الى لقاء العدو ، فركب المسلمون ورفعوا أصواتهـم بالتهليل والتكبير فأجابتهم الجبال والتلال والأوعار والأشجار والأحجار ، ومن في تلك الأرض من العمـار ، وقالوا : الهنا ومولانا انا نسمع أصواتـا موحدة غير مشركة ولا ملحدة في التوحيد ، وقد أسمعتنا كلام التوحيد وأريتنا وجوه أهل التمجيد والتحميد ، الهنا ما أطيب سماع ذكرك ومن لنا أن نـوفي

بشكرك • قال و ضجت الوحوش والسباع الى مولاها شاكرة لما أعطاها وأولاها ، ونادت عالم سرها ونجواها : يا من جمع الوحوش راضية بما آتاها أخرج رزقها ومرعاها تغدو خماصا وتروح بطانا الى باب سيدها ومولاهـا ، يا من لو توارت دودة تحت الأرضين السبع لرآها ، ولو كانت في غلس الظلمات تحت اليم المظلم حبة لرزق عبد لبلغه اياها ، الهنا انا سمعنا أصوات توحيدك في هذه الأرض وما كنا عهدناها ، ونسمع آيات ما كنا عرفناها ولا سمعناها ، سبحانك يا من قدرته لا ننساها ويا من احسانه وفضله لا يتناهى • قال : فهتف بهم هاتف من الجو ، كم لله من مسبح في الجبال وذراها تحت تخوم الأرض وثراها ، وفي فلوات البراري المقفرات ، وفي قعور البحار الزاخرات وماها • قال فارتاع عسكر الكفار لما سمعوا في الجو هذه الأصوات ، وكأنما الأرض وأقطارها وأهلها تجاوبهم ، وكان فلسطين قد أتى وسمع ذلك ونظر الى جيش العرب وقد زاد في عينيه أضعافا • فقال: وحق ديني لما أشرفت على القوم ما كانوا في هذه الكثرة وما كانوا أكثر من خمسة آلاف ، وقد زاد الآن عددهم وتزايد مددهم ، ولا شك أن الله قد أمدهم بالملائكة ، ولقد كان أبي هرقل على بصيرة من أمر هؤلاء العرب ؛ وليس جيشي هذا بأعظم من جيش ماهان الأرمني لما لقيهم باليرموك في ألف ألف ، ولقد ندمت على خروجي اليهم ، ولكن سوف أدبر حيلة على هؤلاء العرب ، ثم انه دعا بقس عظيم القدر عند النصرانية ، وهو قس قيسارية وعالمها وقال له اركب الى هؤلاء القوم وكلمهم بالتي هي أحسن ، وقل لهم ان ابن الملك يسألكم أن تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا فابعثوا به ولا يكون من طغام العرب •

قال فركب القس وعليه ثوب من الديباج الأسود وعليه برنس من الشعر فركب بغلة شهباء وأخذ بيده صليبا من الجوهر وسار حتى وصل الى المسلمين فوقف بحيث يسمعون كلامه • فقال : يا معشر العرب اني رسول اليكم من الملك فلسطين بن هرقل يسألكم ان تنفذوا اليه أفصحكم لسانا وأجرأكم جنانا ، وانه والله يريد صلحكم ولا يبغي قتالكم ، لأنه عالم بدينه بصير بأموره ، وليس يحب سفك الدماء ولا فساد الصور ، فلا تبغوا علينا فالباغي مقهور والمبغى عليه منصور ، وقد قال لنا المسيح لا تقاتلوا الا من بغى عليكم ، وان الملك يريد أن تبعثوا اليه رجلا من أفصحكم لسانا وأجرئكم جنانا ، ثم سكت • قال فلما سمع عمرو كلامه • قال أيها الناس قد سمعتم ما قاله هذا الأغلف ، فمن منكم يبادر الى مرضاة الله تعالى ورسوله وينظر ما يتكلم به مع ملك الروم ؟•

فتقدم اليه بـــلال بن حمامـــة مؤذن رســـول الله (ص) ، وكان غلاما أسود طويلا من الرجال كأنه النخلة السحوق بصاص من الســـواد ، عيناه جمرتان كأنهما العقيق جهوري الصوت • فقال يا عمرو أنا أسير اليه، فقال يا بلال انك قد حطمك الحزن على رسول الله (ص) ، وأيضا انك من جنس الحبش ولست من العرب ، لأن العرب لهم الكلام الجزل والخطـــب والفصاحة • فقال بلال بحق رسول الله (ص) الا تركتني أمضي اليه • فقال عمرو لقد أقسمت علي بعظيم اذهب واستعن بالله ولا تهبه في الخطاب وأفصح في الجواب وعظم شرائع الاسلام • فقال بلال ستجدني ان شاء الله حيث تريد• قال فخرج بلال نحوهم وهو كالنخلة السحوق عريض المنكبين كأنه من رجال شنوءة ، وكان من عظم خلقته اذا نظر اليه أحد يهابه ، وكان لابسا يومئـــذ قميصا من كرابيس الشام وعلى رأسه عمامة من صوف منقلدا بســـــيف ومزوده على عاتقه وبيده عصا • قال فلما برز بلال من عسكر المسلمين ونظر اليه القس أنكره ، وقال ان القوم قد هنا عليهم فانا دعوناهم نخاطبهم فبعثوا الينا بعبيدهم لصغر قدرنا عندهم • ثم قال أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك يريد أميرا منكم حتى يخاطبه بما يريد ، فقال بلال : أيها القس أنـــا بلال مولى رسول الله (ص) ومؤذنه ولست بعاجز عن جواب صاحبك ، فقال له القس قف مكانك حتى أعلم الملك بأمرك وعاد القس الى الملك ، وقال له : أيها الملك انهم قد بعثوا بعبد من عبيدهم يخاطبك ، وما ذاك الا استصـــغارا لأمرنا عندهم ، وهو عبد أسود • قال فأرسل له رجـــلا يقول له : أيها العبد أبلغ مولاك وقل له ان الملك ايما يريد أميرا منكم حتى يخاطبه • فقال لـــه بلال أيها الرجل أنا بلال بن حمامة مولى رسول الله (ص) ولست بعاجز عن جواب صاحبكم • فقال فلسطين ارجع اليهم وقل لهـــم بعث اليـــكم ملـــك النصرانية أيليق أن تبعثوا له بعبد من عبيدكم ؟

فرجع الترجمان الى بلال وقال له يا أسود : ان الملك يقول لك : لسنا ممن نخاطب العبيد بل يأتينا صاحب جيشكم أو المؤمن عليكم ، فرجع بلال وهو منكسر وأخبر عمرا بذلك • فقال لشرحبيل أنا أمضي اليه • فقـــال شرحبيل يا عبد الله اذا مضيت أنت فلمن ندع المسلمين ؟• فقال عمـــرو الله لطيف بعباده وهو أرحم الراحمين بخلقه ، ولكن خـــذ الراية واخلفنـــي في قومي • فان غدر الروم فالله الخليفة عليكم ، فوقف شرحبيل في مقـــام عمرو وأخذ الراية وخرج عمرو نحو القوم وعليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء قد أدارهـــا على رأســـــه كورا وأرخى لها عذبة ، وفي وسطه منطقة ، وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه وسار

عمرو حتى وقف بازاء الترجمان الذي أرسله فلسطين بن هرقل . فلما رآه الترجمان ضحك ، فقال مم تضحك يا أخا النصرانية ؟. قال من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح ، ما الذي تصنع به ولم تحمله معك وما نريد حربا ؟ فقال عمرو ان العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وانما حملت السلاح معي استظهارا ، ولعلي أن ألقي عدوًّا فيكون ذلك حصنا من عدوّي وأحامي به عن نفسي . قال الترجمان : شيمتكم أيها العرب الغدر والمكر فكن مطمئن الجانب. ثم عطف الترجمان الى فلسطين بن هرقل وأخبره بما سمع من مقالة عمرو بن العاص ، وقال أيها الملك ان أمير العرب قد قدم علينا وعليه من اللباس كذا وكذا فتبسم الملك من قول القس، وقال : قل له يتقدّم الينا. قال فلما قدم أخذ الملك في التأهب لقدوم عمرو عليه ، وزين ملكه واوقف القسوس عن يمينه وشماله والحجاب بين يديه ، وأقبل على الترجمان ، وقال له يا أخا العرب قد أذن لك الملك ، فسار عمرو على جواده وعسكر قيسارية تتعجب منه ومن زيه الى أن وقف على قبة الملك ، ثم ترجل ومشت الحجاب أمامه حتى وقعت عينه على عين فلسطين فأدناه ورحب به وبش في وجهه ، وقال مرحبا بأمير قومه ، وأراد أن يجلسه على السرير فامتنع عمرو من ذلك ، وقال بساط الله أطهر من بساطك ، لأن الله تعالى جعل الأرض بساطا وأباحنا اياها فنحن فيها سواء ، وما أريد أن أجلس الا على ما أباحه الله . ثم جلس على الارض باركا وترك رمحه أمامه وسيفه على فخذه الأيسر ، فقال له فلسطين ما اسمك ؟.

قال اسمي عمرو وأنا من العرب الكرام أرباب الحزم المعظمين في القوم. قال فلسطين : انك لفتى كريم من عرب كرام ، يا عمرو ان كنت من العرب فنحن من الروم وبيننا قرابة وأرحام متصلة ؛ ونحن وأنتم في النسب متصلون ومن يكونون متصلين في النسب ما لهم يسفك بعضهم دم بعض ؟ ، فقال عمرو ان أنسابنا لاحقة من أبينا ونسبتنا الأعلى هو دين الاسلام ، واذا كان أخوان قد اختلفا في الدين كان حلالا أن يقتل أحدهما أخاه ، وقد انقطع النسب بيننا ، وقد ذكرت أن نسبك لاحق بنا فكيف يكون نسبك ونسبنا واحدا ونحن قريش الكرام وأنتم بنو الروم ؟. قال يا عمرو أليس أبونا آدم ثم نوحا ثم ابراهيم وعيصو بن اسحق واسحق أخو اسماعيل وكلاهما ولد ابراهيم ، ولا ينبغي للأخ أن يبغي على أخيه بل يجود عليه . فقال انك لصادق في قولك الذي قلت وان عيصو ونحن بنو أب واحد وأبونا نحن اسمعيل صلوات الله عليه وان كان نوح عليه السلام قسم الأرض شططا حين غضب على ولده حام وعلم أن أولاد حام لن يرضوا بها فاقتتلوا عليها زمانا، وهذه

الارض التي أنتم فيها ليست لكم وهي أرض العمالقة من قبلكم ، لان نوحا عليه السلام قسم الأرض بين أولاده الثلاثة سام وحام ويافث وأعطى ولده ساما الشام وما حوله الى اليمن الى حضرموت والى غسان ، والعرب كلهم ولد سام ، وهو قحطان وطسم وجديث وعملاق وهو أبو العمالقة . حيث كانوا من البلاد وهم الجبابرة الذين كانوا بالشام فهذه العرب العاربة ، لأن لسانهم الذي جبلوا عليه العربية ، وأعطى حاما الغرب والساحل وأعطى يافث ما بين المشرق والمغرب - وان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين - ونريد أن نردّ هذه القسمة فنأخذ ما في أيديكم من العمارة والأنهار عوضا عما نحن فيه من الشوك والحجارة والبلد القفر ، فلما سمع فلسطين كلام عمرو بن العاص علم أنه رجل ماكر . فقال له : صدقت في قولك الا أن القسمة قد جرت ، فان نقضتموها كنتم من الباغين علينا ، واعلم أنه ما حملكم على ذلك وأخرجكم من بلادكم الا الجهد العظيم ، فقال له عمرو : أيها الملك . أما زعمت أن الجهد أخرجنا من بلادنا ، فنعم كنا نأكل خبز الشعير والذرة فاذا رأينا طعامكم واستحسناه فلن نبارحكم حتى نأخذ البلاد من أيديكم وتصيروا لنا عبيدا ونستظل تحت أصول هذه الشجرة العالية والفروع المورقة والأغصان الطيبة الثمار ، فان منعتمونا مما ذقناه من بلادكم من لذيذ العيش ، فما عندنا الا رجالا أشوق الى حربكم من حبكم الحياة ، لأنهم يحبون القتال كما تحبون أنتم الحياة . قال وأفحم فلسطين عن جوابه ، فرفع رأسه الى قومه و قال ان هذا العربي صادق في قوله وحق الكنائس والقربان والمسيح والصلبان ما لنا معهم ثبات . قال عمرو فوجدت الى وعظهم سبيلا ، وقلت : معاشر الروم ان الله عز وجل قد قرّب عليكم ما كنتم تطلبون . ان كنتم تريدون بلدكم فادخلوا في دينا وصدّقوا قولنا ، فان الدين عند الله الاسلام .

قال فلسطين : يا عمرو انا لا نفارق ديننا وعليه مات آباؤنا وأجدادنا . قال عمرو : فان كرهت الاسلام فأعطنا الجزية منك ومن قومك وأنتم صاغرون . قال فلسطين لا أجيبك الى ذلك ، لأن الروم لا تطاوعني الى أداء الجزية ولقد قال لهم أبي ذلك من قبل فأرادوا قتله ، فقال هذا ما عندي من الأعذار ، ولقد حذرتكم ما استطعت ولم يبق بيننا حكم الا السيف ، والله يعلم أني دعوتكم الى أمر فيه النجاة فعصيتموه كما عصى أبوكم عيصو عن أمه فخرج من الرحم قبل أخيه يعقوب ، وأنتم تزعمون أنكم أقرباؤنا في النسب ، وانا لبراء الى الله عز وجل منكم ومن قرابتكم اذ أنتم تكفرون بالرحيم ، أنتم من والد عيصو بن اسحق ، ونحن من ولد اسمعيل بن ابراهيم

عليه السلام ، وان الله تعالى اختار لنبينا خير الأنساب من لدن آدم الى أن أخرج من صلب أبيه عبد الله ، فجعل خير الناس من ولد اسماعيل فتكلم بالعربية وتكلم اسحق على لسان أبيه فولد اسمعيل العرب ، ثم جعل خير الناس كنانة ، ثم جعل خير العرب قريشا، وخير قريش بني هاشم ، ثم جعل خير بني هاشم بني عبد المطلب ، وخير بني عبد المطلب نبينا محمد (ص) فبعثه رسولا واتخذه نبيا وأهبط عليه جبريل بالوحي ، وقال له طفت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر أفضل منك • قال فخضعت جوارح القوم حين ذكر رسول الله (ص) ووجلت قلوبهم ودخلت الهيبة في قلب فلسطين حين سمع كلام عمرو • فقال صدقت في قولك ، كذلك الأنبياء تبعث من خير بيوت قومها على لسان ربها ، ثم قال له يا عمرو : وهل في أصحابك رجل بيّن كلامه سريع الجواب اذا سئل ؟ فقال له : اعلم اني والله أحب أن أمضي وآتيك بهم لتقف على صحة قولي ، ثم وثب وسار الى عسكره وركب وأتى جيشه فحمدوا الله المسلمون على سلامته وباتوا يتحادثون ، فلما صلى عمرو بالناس صلاة الفجر أمرهم بالركوب الى قتال عدوّهم • قال : فأسرعوا الى ذلك واستووا على متون خيولهم ، واصطفوا للحرب والقتال •

المعركة

(قال الواقدي) **حدّثنا** عروة بن زيد عن موسى مولى الحضرميين عن موسى بن عمران وابن الصباح لما كان يوم الحرب صف فلسطين جيشه ثلاثة صفوف وقدّم المشاة وعدّل الميمنة والميسرة ورفع الصليب أمامه وتقدم أمام الجيش فنظر عمرو الى فلسطين وقد رتب عساكره وعزم على الحرب ، فهيأ المسلمين ، وصفهم صفا واحدا وجعل في الميمنة الحماة من أصحاب رسول الله (ص) ومعهم شرحبيل بن حسنة كاتب الوحي وصابوب بن حباية الليثي عن شماله و كان أحد فرسان المسلمين ، فبينما الناس كذلك اذ خرج فارس من الروم وعليه ديباج ودرع وجوشن ، وفي عنقه صليب من الذهب فحمل حتى خطى برمحه من الميمنة الى الميسرة ومن الميسرة الى الميمنة، ثم الى القلب ثم وقف بازاء جيش المسلمين وركز رمحه بازائه وأخذ القوس بيده وفوق سهمها ورمى رجلا من الميمنة فاثبت السهم فيه فجرحه ورمى آخر من الميسرة فقتله فنظر اليه عمرو وما قد صنع فصاح بالمسلمين : ألا ترون هذا العلج اللعين وما يصنع بقوسه ؟ فمن يكفينا أمره ويزيل عن المسلمين شره ، فخرج اليه رجل من ثقيف وعليه بردة دنسة وبيده قوس عربية قد فوق سهمها ، وخرج الى العلج يريده فنظر اليه العلج وليس عليه شيء من الحديد يستره الا فروة دنسة ، وما معه من السلاح غير القوس فازدرى به وبلبسه

وأطلق سهما من كبد قوسه فوقع سهمه في صدره فاشتبك في الفروة ووقع غير مصيب ، وكان اللعين أرمى أهل زمانه · ما رمى قط شيئا الا نفذ فيه ، فغضب لذلك وهم أن يرميه بسهم ثان فامتعط الثقفي نبلة ورمى بها نحوه فلم يرها لصغرها وخفاء موقعها فاشتبكت النبله في حلق العلج فخرجت من قفاه ، فما تمالك العلج الا ان وقع صريعا فأسرع الثقفى الى جواده فاخذه واستوى على متنه ونزع بيضة المشرك عن رأسه ، وجعل يسحبه نحو جيش المسلمين فاستقبله ابن عم له وكلمه فلم يجبه من فرحه بما صنع · ثم أقبل الى عمرو فاعطاه اياه فنظرت الروم الى فعل الثقفي فغاظهم ذلك ، وجعلوا ينسيرون الى السماء فلعلمنا أنهم يقولون ان الملائكة تنصرنا قال ونظر فلسطين الى ذلك فعظم عليه وقال لبعض البطارقة اخرج الى هؤلاء العرب وحام عن دينك فخرج البطريق وعليه ديباجة خضراء ودرع حصين ومن تحت الدرع جوشن منيع وفي عنقه صليب من الذهب الأحمر ومعه غلام من ورائه يجنب جنبية وعليه سيفه ودرقته فخرج حتى وقف بين الصفين فجعل يسأل القتال ، فلما نظر المسلمون اليه أقبلوا اليه ينظرون ولا يخرج اليه أحد ·

فقال عمرو : معاشر العرب من يخرج اليه ويهب نفسه لله عزّ وجل فخرج اليه رجل من العرب وهو يقول أنا أكون ذلك · فقال عمرو بارك الله فيما تريد وحمل صاحب المسلمين عند ما خرج مصمما واستقبله البطريق وجعلا يتجاولان ساعة وهما يتعانفان بالسيوف الى أن خرجت لهما ضربتان فسبقه البطريق بالضربة فأخذها الرجل بالدرقة فقدها نصفين وكانت جلد بعير بطانة واحدة فلم يصل اليه من الضربة شيء وضربه الرجل ضربة في أثرها فقطعت البيضة وسلكها فتقهقر البطريق الى ورائه ولم يصلْ اليه أذى ، فلما رجعت اليه روحه حمل على المسلم وضربه فجرحه جرحا فاحشا فألوى الى أصحابه فصاح به رجل من العرب من وهب نفسه لا يرجع من بين يدي عدوه · فقال الرجل أما كفاك هذه الضربة حتى توبخني ان الله ليلومني بأن ألقي بيدي الى التهلكة ثم شد جراحه وعظم عليه ما قال ابن عمه ، فلما خرج قال له ا بن عمه الذي خاطبه ارجع فخذ هذه البيضة واجعلها على رأسك فقال ثقتي بالله أعظم من حديدك ، ثم دلف نحو البطريق وهو يقول :

يقول لي عند الخروج للقا — دونك هذا الترس فاجعله وقا
من علج سوء قد بغى وقد طغى — أقسمت بالله يمينا صادقا
لأتركنّ البيض فوق المرتقى — وأدخل الجنة دار الملتقى

قال فدعا له المسلمون بالنصر وقالوا اللهم أعطه ما تمنى وحمل على

البطريق وضربه ضربة هائلة فوقعت على عاتقه وخرجت من علائقه ثم حمل في جيش الروم فقتل رجلا وجندل أبطالا ولم يزل كذلك حتى قتل رحمه الله تعالى • فقال عمرو : هذا رجل اشترى الجنة من الله بنفسه : اللهم أعطه ما تمنى •

البطريق قيدمون

(قال الواقدي) وكان هرقل حين بعث ولده فلسطين الى قيسارية بعث معه بطريقا من البطارقة وكان اسمه قيدمون وكان من أفرس الروم ويقال انه خال فلسطين ، وقد كان لقي عسكر الفرس وعسكر الترك وعسكر الجرامقة قال وكان اللعين بحفظ سائر اللغات • فقال فلسطين : لا بد لي من قتال العرب • قال وخرج وعليه لامة وخرج مبارزا ، فلما رآه المسلمون قد خرج وكأنه جبل قد انهد من أعلاه الى أسفله وهو يلمع من بريق الجوهر ضج المسلمون بقول لا اله الا الله ، فلما وقف في الميدان أقبل يرطن بلغته ويطلب البراز فأقبل العرب يهرعون اليه من كل جانب ومكان يريدون قتاله لأجل ما عليه ، فقال عمرو ثواب الله خير لكم مما عليه فلا يخرج أحد لطلب سلبه فيكون خروجه لأجل ذلك وان قتل مات في سبيل ما خرج اليه ، وقد سمعت رسول لله (ص) يقول « من كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » قال فخرج غلام من اليمن ومعه أمه وأخته يريدون الشام ، وأخته تقول له : يا ابن أمي جدّ بنا في السير لنصل الى الشام فنأكل من خيره ونعمه •

فقال لها أخوها انما أذهب لأقاتل لمرضاة الله عزّ وجل • وقد سمعت معاذ بن جبل يقول : ان الشهداء عند ربهم يرزقون • فقالت له أخته كيف يرزقون وهم أموات • قالسمعت رسول الله (ص) نقول « ان الله تعالى يجعل ارواحهم في حواصل طيور الجنة فتأكل تلك الطيور من ثمار الجنة وتشرب من أنهارها فتغدو أرواحهم في حواصل تلك الطيور ، فهو الرزق الذي جعله الله لهم » فلما كان قتال قيسارية خرج ذلك الغلام الى القتال بعد ان ودع أمه وأخته وداع الموت وقال لهم نجتمع على حوض رسول لله (ص) ثم خرج وبيده قناةوهي موصولة كثيرة العقد وتحته جواد هجين •

فلما خرج الغلام حمل على البطريق من ساعته وطعنه بسنانه • قال فاشتبك السنان فيدرع البطريق فلم يقدر على انتزاعه فضرب البطريق قنا الغلام بسيفه فقطعها وحمل على الغلام وضربه على هامته فشطرها فوقع

الغلام ميتا رحمه الله وجال قيدمون على مصرعه ، ثم طلب البراز ، فخـــرج اليه ابن قثم فقتله البطريق ، فلما نظر الى ذلك شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه اقبل يعاتب نفسه ويقول : تتفرجين على قتل المسلمين ، ثـم خـــرج والراية بيده التي عقدها له أبو بكر (رضي) يـــوم خروجه الى الشـــــام ، فلما رآه عمرو قد عوّل على الخروج قال : يا عبدالله اركز الراية لئلا تشغلك . فركزها شرحبيل فوقفت كالنخلة وغاصت في حجر كأنها منه فنفاءل بالنصر وخرج الى لقاء قيدمون والمسلمون يدعون له بالنصر على عـدوّه فلمـــا رآه البطريق ضحك من زيه وكان للملعون صوت عال وهو ضخم من الرجال وكان شرحبيل نحيف الجسم من كثرة الصيام والقيام بالليل والبطريق في ميدانه فحمل كل واحد منهما على صاحبه واختلفا بضربتين ، وكان السابق شرحبيل فلم يعمل السيف في لامة البطريق شيئا وثبت السيف في بيضته وحمـــــل قيدمون على شرحبيل فشجه ثم تجــاولا على الجواديـــن . قـــال سعيد بن روح وكان ذلك اليوم كثير البرد والسحاب فبينما همـــا في المعركـــة اذ نزل المطر كأفواه القرب قال فنزلا عن الجوادين وجالا يتصارعان في وسط الطين وذلك آن قيدمون حمل على شرحبيل فضرب يده في مراق بطنه فاقتلعه من الارض ورمى به على ظهره ثم استوى على صدره وهم أن ينحره فنـادى شرحبيل يا غياث المستغيثين فما استتمّ كلامه حتى خرج اليه فارس من الروم وعليه لامة مذهبة ومن تحته جواد من عتاق الخيل فقصد موضع البطريـق وشرحبيل فظن قيدمون أنه انما خرج ليعطيه جواده ويعينه ، فلما قرب منهما ترجل وأمال البطريق برجليه عن صدر شرحبيل وقال يا عبد الله قد أتـاك الغوث من غياث المستغيثين فوثب شرحبيل قائما ينظر اليه متعجبا من قوله وفعله ، وكان الفارس متلثما ثم جرد سيفه وضرب البطريق ضربة قطع رأسه ، وقال يا عبد الله خذ سلبه . فقال شرحبيل والله ما رأيت أعجب من أمرك واني رأيتك جئت من عسكر الروم فقال أنا الشقي المبعد أنا طلحة ابن خويلد الذي ادعى النبوّة بعد رسول الله (ص) وكذب على الله وزعم ان الوحي كان ينزل عليه من السماء ، فقلت له يا أخي ـ ان رحمة الله قريب من المحسنين ، وقد وسعت رحمته كل شيء ـ ومن تاب وأقلع وأناب قبل الله توبته وغفر له ما كان منه والنبي (ص) يقول « التوبة تمحو ما قبلها » أما علمت يا ابن خويلدان الله سبحانه وتعالى لما انزل على نبيه ـ ورحمتي وسعت كل شيء ـ طمع فيها كل شيء حتى ابليس فلما نزل قوله تعالى ـ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ـ قالت اليهود نحن نؤتي الزكاة ونتصدق ، فلما نزل قوله تعـالى ـ والذين هم بآياتنا يؤمنون ـ قالت اليهود نحن مؤمنون بما انزل الله في الصحف

والتوراة فأراد الله أن يعلمهم انها خاصة بأمة محمد (ص) بقوله ـ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ـ • فقال طلحة بن خويلد مالي وجه أرجع الى الاسلام وهمّ أن يسير على وجهه فمنعه شرحبيل وقال له: يا طلحة لست أدعك تمضي ، بل ترجع معي الى العسكر قال ما يمنعني من المسير معك الا الفظ الغليظ خالد بن الوليد ، واني أخاف أن يقتلني ، فقلت يا أخي انه ليس معنا وهذا الجيش لعمرو بن العاص قال فرجع معي ، فلما قربنا من المسلمين تبادروا الينا وقالوا يا شرحبيل من هذا الرجل معك ؟ فلقد صنع معك جميلا قال ولم يعرفوه ، لانه كان متلثما بفضل عمامته • فقلت هذا طلحة بن خويلد الذي ادعى النبوّة فقالوا أو تاب ورجع الى الله ؟ فقال أنا تائب الى الله سبحانه وتعالى • قال شرحبيل فاتيت به الى عمرو بن العاص فسلم عليه وبش في وجهه ورحب به •

قال حدثنا حسان بن عمر لربعي عن جده ان طلحة بن خويلد لما ادعى النبوّة وجرى له ما جرى من الحرب مع خالد بن الوليد رضي الله عنه وسمع ان خالدا قتل مسيلمة الكذاب وقتل الاسود العنسي أيضا لانه قال انه نبي فخاف طلحة على نفسه من خالد فهرب بالليل ومعه زوجته للشام واستجار برجل من آل كلب فأجاره الكلبي وأنزله في داره ، وكان الكلبي مؤمنا وبقي عنده مدة أيام الى أن استخبره عن حاله فحدّثه طلحة بجميع أحواله مع خالد بن الوليد ووقائعه معه وكيف ادعى النبوّة فغضب الكلبي لكلامه وطرده من جواره فأقام طلحة بالشام ، وقد تاب من أمره ، فلما بلغه أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قد قبض قال ذهب من جرّدت السيف في وجهه فمن ولي بعده قالوا عمر بن الخطاب ، قال : الفظ الغليظ ••• وهاب أن يمضي اليه وفزع من خالد بن الوليد أن يراه بالشام فيقتله ، فقصد قيسارية ليركب في المراكب ويطرح نفسه في بعض جزائر البحر ، فلما نظر الى جيش فلسطين قد خرج الى قتال العرب قال أسير مع هذا الجيش فلعلي انكب نكبة وأغسل بها شيئا من أوزاري وتكون لي قربة الى الله تعالى والى المسلمين ، فلما نظر شرحبيل في عين الهلكة قال لا صبر لي عنه فخرج واستنقذه كما ذكرناه ، فلما وقف بين يدي عمرو بن العاص شكره وبشره بقبول التوبة • فقال يا عمرو اني أخاف من خالد بن الوليد أن يراني بالشام فيقتلني • فقال عمرو فاني أشير اليك بشيء تصنعه وتأمن به على نفسك في الدنيا والآخرة • قال وما هو ؟

قال : أكتب معك كتابا بما صنعت وشهادة المسلمين فيه وتنطلق به الى عمر ابن الخطاب وتدفعه اليه وأظهر التوبة فانه يقبلها وسيندبك الى الفتوح

وقتال الروم فتمحو عنك ما سلف من خطاياك فأجابه طلحة الى ذلك فكتب له عمرو كتابا الى عمر بن الخطاب رضي الآ عنه بما صنع وأخذه طلحة ومشى به الى مدينة رسول الله (ص) فلم يجد عمر في المدينة وقيل له هو بمكة فمضى حتى وردها فوجد عمر متعلقا بأستار الكعبة فتعلق معه وقال يا أمير المؤمنين اني تائب الى الله عز وجل وحق رب هذا البيت مما كان مني • قال عمر من انت ؟ قال أنا طلحة ابن خويلد • قال فنفر عمر عنه وقال :

ـ يا ويلك ان أنا عفوت عنك فكيف الامر غدا بين يدي الله عز وجل بدم بن محصن الاسدي • قال طلحة : يا أمير المؤمنين عكاشة رجل أسعده الله على يدي وشقيت أنا بسببه وأرجو أن يغفر الله لي بما عملته • قال عمر وما عملت فأخرج له كتاب عمرو بن العاص ، فلما قرأه عمر وفهم ما فيه فرح به وقال أبشر فان الله غفور رحيم وأمره عمر أن يقيم بمكة حتى يرجع الى المدينة فأقام معه أياما ، فلما رجع عمر الى المدينة وجه به الى قتال أهل فارس •

قال الواقدي رجعنا الى الحديث • قال لما قتل البطريـق قيدمون على يد طلحة ونجا شرحبيل مما كان قد لحقه ورجع الى عمرو وكان المطر شديدا فقطع الناس القتال ولحق الناس الاذى لان أكثرهم بلا أخبية ولا بيوت والتجئوا الى الجابية وتستروا بدورهـا وكان مـن رحمة الله بالمسلمين أن وقع في قلـب فلسطين الفزع والرعب لما قتل قيدمون البطريق وكان ركنه ودعامته فشـاور أصحابه في الرجوع الى قيسارية وقال : يا معاشر الروم أنتم تعلمون أن جيوش اليرموك ما تبتت لهؤلاء العرب ، وان أبي قد ولى الى القسطنطينية من خوفهم وقد ملكوا الشام جميعه وما بقي غير هذا الساحل ، واني أخاف أن ندهي من قبلهم ويملكوا قيسارية والرحيل أوفق من المقام ههنا فأجابوه الى ذلك ، فلما كان الليل ارتحل القوم والمطر ينزل • قال سعيد بن جابر الاوسي : وكان ذلك كله رحمة للمسلمين من الله عز وجل • قال فلما كان في اليوم الرابع ارتفع المطر وطلعت الشمس فخرجنا من الجابية نطلب قتال الروم فلم نر لهم أثرا ، فوالله لقد فرحنا بطلوع الشمس أكثر من فرحنا برحيل الروم فكتب عمرو بذلك الى أبي عبيدة كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عمرو بن العاص السهمي الى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فيا صاحب رسول الله (ص)، فان فلسطين بن هرقل قد أخرج الى لقائنا ثمانين ألفا من الروم وكان لقاؤنا معهم على موضـع يقال له نخل وأخذ شرحبيل ابن حسنة وكان الذي ملك أسره قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم خلصه الله على يد طلحة بن خويلد الاسدي وقتل قيدمون ابن خالة هرقل ، ثم وجهته بكتاب الى عمر بن الخطاب وقد انهزم عدو الله فلسطين ، وأنا منتظر جوابك والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته •

وبعث الكتاب مع جابر بن سعيد الحضرمي ، فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب فرح بسلامة المسلمين وسير الجواب وقال : اذا قرأت كتابي فانزل على قيسارية وأنا في أثر الكتاب معوّل على السير الى صور وعكاء وطرابلس والسلام • ثم سلم الكتاب الى جابر بن سعيد وأمره بالرجوع •

ذكر فتح صور وعكاء وطرابلس الشام وقيسارية

قال وعوّل أبو عبيدة على النهوض الى الساحل ، فقام اليه عبدالله يوقنا وقال ايها الامير اعلم أن الله عز وجل قد أباد المشركين ورفع علم الموحدين واني أريد أن أسير قبلك الى الساحل لعلي أفوز من القوم بغزوة • فقال يا عبدالله ان أنت عملت شيئا يقرّبك الى الله تجده بين يديك فافعل فوثب يوقنا قائما وأخذ أصحابه وكان قد انضاف اليه من كان يخدمه بحلب وكلهم رجعوا الى الاسلام وكانوا أربعة آلاف ، وفي عسكر العرب أيضا ممن أسلم من البطارقة ما يزيد عن ثلاثة آلاف فارس من البطارقة المعدة وعليهم وال يقال له جرفاس •

ولما انهزم فلسطين الى قيسارية وتحصن بها بعث الى أهل طرابلس ان يبعثوا له بنجدة فبعثوا له بثلاثة آلاف فارس قال وساروا يطلبون قيسارية ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا في مرج ليعلقوا على خيولهم ، فبينما هم كذلك اذ أشرف عليهم يوقنا وأصحابه وكان قد صحبهم فلنطانوس صاحب رومية وأصحابه وكانوا معوّلين على زيارة بيت المقدس والمقام بها ، فلما أشرفوا على المرج وهم بزيهم ما غيروا منه شيئا ورآهم جرفاس ركب بنفسه يختبر حالهم ، فلما قرب منهم سلم عليهم ورحب بهم وقال من أنتم قالوا نحن الذين لجأنا الى هؤلاء العرب واستكفينا شرهم وظننا أنهم على شيء فاذا هم طغاة لا دين لهم فهربنا بديننا ونحن أصحاب حلب وقنسرين وعزاز ودارم وانطاكية ونحن قاصدون الى الملك هرقل لنكون في جنابه ، فلما سمع جرفاس من القوم ذلك فرح بهم وأنس لكلامهم وقال انزلوا عندنا كي تستريحوا ساعة من التعب ، فلا شك أنكم سرتم الليل والنهار وخافت أنفسكم من العرب قال يوقنا أين انتم سائرون ؟ قال بعث الينا فلسطين لنكون في طرابلس فقال يوقنا : تيقظوا لانفسكم فان أمير العرب أبا عبيدة تركناه على نية القدوم الى الساحل • فقال جرفاس وماذا ينفع حذرنا ودولتنا قد اضمحلت وأيامنا قد ولت ولسنا نرى الصليب يغني عن أهله شيئا •

قال الواقدي : فنزلوا عندهم ساعة وقدموا لهم من أزوادهم فأكلوا ثم ركبوا وهمّ جرفاس أن يركب لركوبهم • فقال يوقنا اشتغل بأصحابك وألبسهم أفخر ثيابهم ، فان ذلك مما يظهر الرعب في قلوب أعدائكم •

قال الواقدي : حدّثني سليم بن عامر عن نوفل بن عبدالله عن جرير بن البكاء وكان أعرف الناس بفتوح الشام قال ما دخل يوقنا الى ساحل البحر حتى

أتقن الحيلة وذلك أنه قد نزل فيه الحرث بن سليم من بني عمه يرعون ابلهم وكانوا في مائتي بيت من العرب فأغار عليهم يوقنا وأخذهم وشدهم كتافا ودخل بهم الى بلاد الساحل ، فلما جنّ الليل جمعهم اليه وقال لا تظنوا اني رجعت عن الاسلام وانما فعلت بكم هذا كي تسمع الروم بسواحلها اني غدرت بالعرب وأخذتهم ؟ قال فاطمأنت العرب الى كلامه وقالوا له ان كنت تريد اقامة دين الله فالله ينصرك وبالاعداء يظفرك ٠ قال ووكل يوقنا رجالا تسوق الاموال وانما اطمأن جرفاس وأصحابه الى يوقنا لما رأى الاسرى من العرب والجمال والانعام ، فلما ركب يوقنا وأصحابه ورأى أنهم طالبون لساحل البحر نكب عن طريق طرابلس وكمن فى الليل على طريق القوم ٠ قال وان جرفاس فرق خزائنه التي كانت عنده على أصحابه وقعد حتى جنّ الليل وأكلت الخيل عليقها ، ثم ركبوا واستقاموا على الطريق ، فلما توسطوا أطبق عليهم يوقنا وأصحابه وداروا بهم ولم يمهلوهم بالقتل وأخذوهم أخذا بالكف وانتشرت الخيل في تلك الارض لئلا يكون قد انفلت من الروم أحد ، فلما حصلوا في قبضتهم وتحت أسرهم أرادوا أن يطلقوا الحرث بن سليم وأصحابه ، فقال الحرث اني أرى من الرأي أن تتركونا على حالنا فان ثواب الله قد حصل وصبحوا بنا بلاد العدو فانكم ما تشرفون على بلد من بلاد الساحل الافتحة الله لكم ٠ قال يوقنا هذا رأي صحيح ثم أمر أصحابه أن يستوثقوا من الأسرى وكمن ألفين من أصحابه وأصحاب فلنطانوس مع الاسرى وهم ثلاثة آلاف فارس وقال اذا جاءكم رسلي فاقدموا ، ثم ألبس أصحابه زي الروم مثل أصحاب قيسارية الذين أخذوهم وساروا نحو طرابلس فلما خرج كل من في البلد الى لقائهم كان كتاب فلسطين قد وصل اليهم اني قد بعثت اليكم بثلاثة آلاف فارس مع جرفاس بن صليبا ودخل يوقنا مع أصحابه حتى استقر قراره في دار الامارة ودخل عليه شيوخ طرابلس والبطارقة وأهل الحشمة منهم ، فلما حصلوا عنده أمر بهم وقبض عليهم وقال : يا أهل طرابلس ان الله سبحانه قد نصر الاسلام وأهله وقد كنا في عيش مظلم نسجد للصلبان ونعظم الصور والقربان ونجعل لله زوجة وولدا حتى بعث لنا هؤلاء العرب فهدانا وألحقنا بهم ببركة نبيهم (ص) وهو النبي المبعوث الذي ذكره الله في التوراة وبشر به عيسى المسيح وان الاسلام حق وقوله الصدق يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينطقون

بالحق ويتبعون الصدق ويوحدون الله وينزهونه عن الصاحبة والولد ويجاهدون في سبيله وهو الذي أمر به أنبياءه ورسله فاما أن ترجعوا الى دين الاسلام أو تؤدوا الجزية والا بعثتكم عبيدا للعرب ، وهذا ما عندي والسلام ٠

قال فلما سمعوا كلامه علموا أن يوقنا اجتاز عليهم وأخذ أصحاب الملك في الطريق ٠ فقالوا أيها السيد نحن نفعل ما أمرتنا به ، فمنهم من أسلم ومنهم رضي بالجزية وعدل يوقنا فيهم وبعث الى أصحاب الكمين فحلوا الاسرى فعرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بحبسهم وبعث الى أبي عبيدة بالخبر وما جرى له وبعث الكتاب مع الحرث بن سليم من وادي بني الاحمر وقال يا عبدالله كن للامير مبشرا بهذا الفتح ٠ قال سأفعل ذلك ان شاء الله تعالى وسار بالكتاب حتى وصل الى أبي عبيدة وسلم عليه وناوله الكتاب ، فلما قرأه وعلم معناه فرح وقال للحرث بن سليم : ألم تستأذني أن تسير أنت وبنو عمك الى وادي بني الاحمر فمن أوصلك الى طرابلس ؟ قال أوصلني القضاء والقدر ، وذلك أن يوقنا أغار علينا وأخذنا أسرى ٠٠٠ وحدثه بحديثهم فعجب من ذلك أبو عبيدة: وقال اللهم ثبتهم وأيدهم بنصرك ٠ ٠

قال حدثني عامر بن أوس قال اخبرني ابن سالم قال حدثني موسى بن مالك ٠ قال ان عمرو بن العاص لما ارتفع المطر رحل من الجابية ونزل على أبواب قيسارية ، وأما ما كان من أمر يوقنا فانه لما ملك طرابلس واحتوى عليها واستوثق من سورها وأبوابها ترك أصحابه على الابواب وقال لا تدعو أحدا يخرج من الابواب وكان في المرسى مراكب كثيرة فرفع آلاتها وأخذها كل ذلك ولا يعلم أحد من أهل الساحل بما صنع ٠ قال وبعد أيام جاءت مراكب كثيرة زهاء من خمسين مركبا ، فتركهم يوقنا حتى نزل أكثرهم الى المدينة فأمر بهم اليه فاستخبرهم عن حالهم وقال من أين جئتم ؟ قالوا جئنا من جزيرة قبرص ومن جزيرة أقريطش وقالوا معنا العدد والسلاح مضروبة لملك فلسطين فأراهم الفرح والسرور وسلم عليهم وقال اني أريد أن أسير معكم ، ثم أمر بهم الى دار الضيافة وبعث الى قواد المراكب فأنزلهم وقدم لهم السماط ، فلما أكلوا قال اني أريد أن أسير اليكم الزاد والعلوفة وعدة السلاح الى خدمة الملك ولكن تقيمون عندي ثلاثة أيام ٠ فقالوا : أيها البطريق انا على عجل من أمرنا نخاف من لوم الملك ولسنا نقدر على ذلك ولم يزل بهم حتى اذعنوا له ٠

فقال : أريد أن تنزلوا الشراعات والمقاذيف فتكونوا في المدينة ليطمئن قلبي بذلك ففعلوا وألصقوا المراكب بالسور ونزل كل من في المراكب وما بقي في المراكب الا ثلاثة رجال ، فلما دبر هذا التدبير قبض على الجميع فلما كان

الليل سلم طرابلس لبني عمه وللحرث بن سليم وفلنطانوس وعمر المراكب برجاله وهمّ بالصعود اليها واذا عند غروب الشمس قد أقبل خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه في ألف فارس من أصحابه ، فلما رآهم يوقنا سجد لله شكرا وسلم على خالد بن الوليد وسلم له المدينة وحدثه بما جرى له وما قد عزم عليه فقال نصرك الله وأيدك ، ثم ان يوقنا ركب من ليلته وسار وكان على سور دمشق جيش فلسطين وهو أرمويل بن نشطة ومعه أربعة آلاف فما أصبح يوقنا الا وهو في مدينة صور فأمر بالبوقات فضربت والرايات فنشرت ووقف الدمستق يختبر خبرهم فعاد صاحب البحرالية • فقال هؤلاء أهل قبرص وجزيرة اقريطش قد أقبلوا بالعلوفات والطعام والعدد يريدون قيسارية في خدمة الملك ، ففرح أهل صور بذلك وأمروهم بالنزول فنزل يوقنا واصحابه وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل وكان قد استخلصهم لنفسه فصنع لهم الدمستق طعاما ومدّ لهم سماطا عظيما وأحضر لقوادهم الخلع ويوقنا ينتظر الليل حتى يثور بأصحابه ، وكان جملة من نزل معه تسعمائة رجل كما ذكرنا وترك الباقين في المراكب، وقال ان لم يتمّ لنا ما نريد ولم نظفر بهم فلا تبرحوا من مراكبهم وأنفذ الى خالد وأخبره بالقصة •

قال الواقدي : ما سمع بأعجب من هذه القصة ، ولقد حدّثني ابن مزاحم عن الارقط بن عامر عن عمار بن ياسر الربعي • قال لما حصل « يوقنا » والتسعمائة بمدينة صور وأكلوا سماط الملك وخلع على كبرائهم ••• أقبل عليهم في السر رجل من بني عمّ يوقنا ممن استحكمت الضلالة في قلبه واحتوى الكفر على أقانيم جسده فأقبل الى الدمستق وحدثه بأمر يوقنا وما قد عزم عليه وأنه مسلم وأنه يقاتلكم مع العرب وقد فتح طرابلس وأخذ البطريق جرمانس صاحب الملك ، فلما سمع الدمستق ذلك لم يكذب خبرا دون أن ركب بأصحابه وقبض على يوقنا وأصحابه ووقع الصياح وكثر الضجيج وسمع بذلك أصحاب يوقنا فعلموا أن ذلك بسبب أصحابهم وانه قبض عليهم فاغتنموا لذلك غما شديدا وأخذوا على أنفسهم من عدوّ يقبل عليهم، قال فلما استوثق عليهم الدمستق أرمويل بن نشطة وكل بهم ألف رجل وقال سيروا بهم الى الملك يفعل فيهم ما يريد وأقبلوا يعنفون يوقنا وأصحابه ويقولون لهم : ما الذي رأيتم في دين العرب حتى تبعتموهم وتركتم دينكم ودين آبائكم قد طردكم المسيح عن بابه وأبعدكم عن جنابه ، فلما هموا أن يسيروا بهم وقع الصياح من الابواب ونفر أهل القرى ، ومن كان بالقرب من صور فسألوهم عن أخبارهم • فقالوا قدمت العرب عليكم •

قال الواقدي : وكان عمرو بن العاص لما نزل على قيسارية وجه يزيد

ابن أبي سفيان في الفي فارس الى صور ، فلما سمع الدمستق أمر بالابواب فأغلقت وصعدت الرجالة على الاسوار وعمروا الابراج ونصبوا المجانيق وأدخل الدمستق يوقنا الى قصر صور واستوثق منهم لئلا يتمّ عليه أمر منهم وبات القوم يحرسون وأضرموا نيرانهم على الاسوار فأقبلوا يرقصون ويشربون طول ليلتهم ، فلما كان الغد أشرف عليهم يزيد بن أبي سفيان نظر اليهم الدمستق ، فلما رآهم قليلا استحقرهم وطمع فيهم وقال : وحق المسيح لا بدّ لي من الخروج اليهم وهزم هذه الشرذمة اليسيرة ٠ ثم لبس الدمستق اللباس وأمرهم بالخروج وترك على حفظ يوقنا وأصحابه ابن عمه باسيل ٠ قال وكان باسيل هذا ممن قرأ الكتب السالفة والاخبار الماضية وكان قد رأى النبي (ص) في دير بحيرا الراهب وكان باسيل قد مضى الى زيارة بحيرا ، فلما قدمت عير قريش وجمال خديجة بنت خويلد وفيها رسول‌الله (ص) نظر بحيرا الى القافلة ورسول الله (ص) في وسطها والسحابة على رأسه تظله من حر الشمس ، فلما تبينه قال والله هذه صفة النبي الذي يبعث من تهامة ثم انتظروا واذا بالركب قد نزل ورسول الله (ص) نزل وحده تحت شجرة يابسة واستلقى اليها فأورقت الشجرة بين يدي رسول الله (ص) ، فلما عاين بحيرا ذلك صنع طعاما لقريش واستدعاهم فدخلوا الدير وبقي هو مع الابل ليرعاها ، فلما نظر بحيرا اليهم ولم يره في جملتهم قال يا معشر قريش هل بقي منكم أحد ؟ قالوا نعم بقي فينا من تخلف لحفظ القافلة ورعي الابل ٠ قال ما اسم من يرعى الابل قالوا محمد بن عبد الله ؟ قال هل مات أبوه وأمه قالوا نعم قال هل كفله جده وعمه قالوا نعم ، قال يا قريش هو والله سيدكم وبه يعظم في الدنيا مجدكم، قالوا: من أين علمت ذلك ؟ قال لما أشرفتم عليّ من البرية لم يبق صخر ولا مدر الا خرّ له ساجدا ٠٠٠

قال الواقدي : فبقي باسيل في حيرة من أمرهم وكتم سره وعلم أن بحيرا لا يتكلم الا بالحق ، فلما وقع يوقنا وأصحابه ووكله الدمستق على حفظهم قال ان الاسلام هو الحق وقد بشر به بحيرا الراهب ، ولعل الله يغفر لي اذا حللت هؤلاء القوم ٠

قال الواقدي : من حسن تدبير الله لعباده المؤمنين أنه لما خرج الدمستق الى لقاء يزيد ابن أبي سفيان لم يتأخر أحد من شباب المدينة لا صغير ولا كبير الا وخرج معه وبقيت العوام ينتظرون على الاسوار ما يكون بينهم وبين العرب، فلما نظر باسيل الى المدينة وخلوّها واشتغل أهلها بالحرب أخذ رأيه على خلاص يوقنا ومن معه فأقبل اليهم بالليل والتفت الى يوقنا وأصحابه وقال أيها البطريق كيف تركت دين آبائك وأجدادك من قبل وعولت على دين هؤلاء العرب

وما الذي رأيت من الحق حتى تبعتهم وقد كانت الروم تتخذك عضدا لها وعونا.
قال له يوقنا : يا باسيل ظهر لي من الحق ما ظهر لك من الحق فعرفته وقد
هتف بي هاتف يقول لي ان الذي هداك الى دينه يخلصك وبشرني بالخلاص
على بديك • قال فلما سمع زاد ايقانه وتحقق ايمانه وقال ليوقنا لقد أنطق
الله لسانك بالحق وان الله تعالى كشف حجاب الغفلة عن قلبي منذ رأيت نبي
هؤلاء القوم بدير بحيرا الراهب وهو في قافلة لاهل مكة ورأيت من دلائله أنه
لا يسير على الارض الا والشجر تسير اليه والسحابة على رأسه تظلله ولقد
استند الى شجرة يابسة فأورقت في الحال وأنبأني بحيرا الراهب أنه وجد في
العلم أن جماعة من الانبياء استندوا اليها وجلسوا حولها فلم تورق ، فلما
استند بظهره اليها أورقت أغصانها وأينعت فعجبت من ذلك ، وسمعت بحيرا
يقول هذا والله الذي بشر به المسيح فطوبى لمن تبعه وآمن به وصدقه ، فلما
عدت من زيارة بحيرا سافرت الى القسطنطينية بتجارة وطفت في بلاد الروم
وأقمت ما شاء الله ، ثم عدت الى قيسارية فرأيت الروم في هرج ومرج فسألت
عن أحوالهم فقيل قد ظهر نبي في الحجاز اسمه محمد بن عبدالله وقد أخرجه
قومه من مكة وقد أتى الى المدينة التي بناها تبع وقد ظهر على قومه ونصر عليهم
فما زلت أسأل عن أخباره وهي في كل يوم تنمو وتزيد حتى مات ، ثم ولى
صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأنفذ جيوشه الى الشام فلم يلبث
الا يسيرا ثم مات وولى هذا الرجل عمر بن الخطاب ففتح بلادنا وهزم جيوشنا
وأنا مع ذلك أنتظر قدومهم الى هذا الساحل حتى أتى الله بهم • فقال له يوقنا
وما الذي عزمت عليه ؟ قال عزمت والله ان أفارق قومي وأتبعكم فان الحق بين
ثم حل يوقنا وأصحابه وسلم اليهم العدد والسلاح وقال ليوقنا : اعلم ان مفاتيح
أبواب المدينة عندي والعسكر خارج المدينة مشتغل بقتال العرب وليس في
المدينة من يخاف جانبه فانهض على اسم الله فقال يوقنا جزاك الله خيرا فلقد
هداك الله الى دينه وسلك بك طريق النجاة وختم لك بخير ويجب الآن علينا
أن نظهر أنفسنا ونبعث في المراكب حتى ينزلوا الينا ونكون نحن يدا واحدة •

فقال باسيل : سأفعل ذلك ثم انه خرج في حال الخفاء وفتح باب البحر
ومعه رجل من بني عم يوقنا وركبا زورقا حتى وصلا الى البحر والمراكب
وحدثاهم بما قد كان فأقبل كل مركب برجاله اليهما وساروا الى أن نزل الجميع
وحصلوا داخل المدينة أعني مدينة صور وأعمى الله أبصار الكفار ، فلما هموا أن
يثوروا قال يوقنا : ليس هذا من الرأي وأين من يهب نفسه لله عز وجل ويخفي
أمره ويخرج من الباب ويدور الى عسكر المسلمين ويتوصل الى أميرهم ويعلمه
بما كان منا ويكون على أهبة واذا سمع بنا أحد لا يهوله وليصدم جيش العدو

فقال رجل من القوم أنا أكون ذلك الرجل ، ثم خرج متنكرا وأغلق باسيل خلفه ووصل الى يزيد بن أبي سفيان وحدّثه بالامر على حقيقته وبما كان من أمر يوقنا فسجد لله شكرا وبعث من ساعته الى المسلمين ليأخذوا على أنفسهم في الكبة على القوم ففعلوا ذلك .

وأما يوقنا رحمه الله، فلما علم أن الخبر وصل الى المسلمين قال لاصحابه: ليصعد منكم خمسمائة رجل الى السور ويقتلوا من عليه ، قال باسيل ليس هذا رأيا فان العوام لا اعتبار لهم ولعل الله أن يهديهم الى الاسلام ولكن مر أصحابك أن يلزموا مطالع السور حتى لا ينزل أحد منهم ويزعقوا بالامان قال فاستصوب رأيه ووكل الرجال بالمطالع ثم زعق يوقنا وأصحابه بصوت مزعج وقالوا : لا اله الا الله محمد رسول الله فسمع كل من في المدينة ومن على السور ذلك فعلموا أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الاسر ووثبوا في المدينة وطارت عقولهم وانزعجت أفئدتهم على أولادهم وأهاليهم فبقوا في حيرة فسمع يزيد بن أبي سفيان الضجة فعلم أن المسلمين قاموا في المدينة فكبر وكبرت المسلمون وهلل الموحدون فسمع الدمستق الضجة من المدينة فعلم أن يوقنا وأصحابه تخلصوا من الاسر وهم الذين فعلوا ذلك فوقع الرعب في قلوبهم ونظروا الى النيران قد اشتعلت في عسكر المسلمين وتأهبوا للحملة عليهم فلم يبق لهم صبر وقد انقطعت قلوبهم من أجل أموالهم وأولادهم الذين في داخل المدينة وقيسارية محاصرة وليس لهم مدد من ولد الملك فولوا الادبار واتبع المسلمون آثارهم وملكوا خيامهم وما كان فيها ، فلما أصبح الصباح فتح يوقنا باب المدينة ودخل يزيد بن ابي سفيان ومن معه من المسلمين واحتووا على أموال الروم ونادى من كان على السور الغوث الغوث فأمنهم المسلمون ونزلوا بأجمعهم . فقال لهم يزيد : ان الله عز وجل قد فتح لنا مدينتكم عنوة وأنتم الآن لنا عبيد ، فما شئنا حكمنا فيكم ، ولكن نحن اذا عاهدنا وفينا ، واذا قلنا صدقنا ، وقد أعطيناكم الامان من أنفسنا ولكن عليكم الجزية على من لم يدخل في ديننا ومن أسلم منكم فله مالنا وعليه ما علينا ، فأجاب القوم الى ذلك وأسلم أكثر القوم وبلغ الخبر الى فلسطين بأن صور قد فتحت ، فعلم أنه لا بقاء له فأخذ الفرصة وانهزم وأخذ خزائنه وأمواله وذخائره وخدمه وأركبهم في المراكب بالليل وقلع يريد اللحوق الى قسطنطينية ، فلما نظر أهل قيسارية الى ذلك خرجوا الى عمرو بن العاص وصالحوه على أن يسلموا له المدينة فصالحهم على مائة ألف درهم وما ترك الملك من خزائنه ورجاله فأجابوه الى ذلك وكتب لهم كتاب الصلح فعندها دخل عمرو بن العاص الى قيسارية وأخذ بقية ما ترك الملك وضرب الجزية عليهم من السنة الآتية كل رجل أربعة دنانير وبذلك أمرهم عمر بن

الخطاب رضي الله تعالى عنه وبعث عمرو جيشا الى صور مع ياسر بن عمار بن سلمة وكان شيخا كبيرا قد شهد مع رسول الله (ص) حنينا والنضير وقتل أخوه يوم حنين قتله مالك بن عون النضيري فبعثه عمرو الى صور ومعه رجل من أصحابه ، وصالح عمرو بن العاص أهل قيسارية على مائة ألف درهم وما خلفه فلسطين من بقية ذخائره ، قال ودخلها يوم الاربعاء في العشر الاول من رجب الفرد سنة تسع عشرة من الهجرة ووصل الخبر الى الرملة وعكاء وعسقلان ونابلس وطبرية فعقدوا كلهم صلحا مع المسلمين وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية ، وملك الله الشام كله للمسلمين ببركة سيد المرسلين ، (ص)

ذكر فتوح مصر

بسم الله الرحمن الرحيم وهو حسبي • قال زياد بن عامر ، قال شام بن عبدالله العنبري : حدثنا سالم مولي عروة بن نعيم اليشكري ، قال : لما فتح عمرو بن العاص قيسارية صلحا كان لعمر في الخلافة أربعة أعوام وستة أشهر وبلغ الخبر الى أهل الرملة وعكاء وبلقاء وعسقلان وصيدا وغزة ونابلس وطبرية فأتي كبراؤهم الى أبي عبيدة وأصلحوا أمرهم معه على مال لا يحصى وكذلك أهل بيروت وجبلة واللاذقية وأنفذ أبو عبيدة لعمرو بن العاص أن يسير الى مصر بأمر عمر بن الخطاب (رضى) ، وملك المسلمون أقاصي البلاد ببركة نبينا محمد (ص) وعظم وكرم • قال وسكنها العرب وتفرقوا في البلاد والمدن ودانت لهم العباد وكل يوم يزدادون فلم يبق في الشام وأعمالها مركز من مراكز الروم الا أخذه المسلمون وتوالدوا وتناسلوا وكثروا ببركة سيدنا محمد (ص) •

قال محمد بن اسحق الاموي رحمه الله تعالى • قال حدثنا يونس بن عبد الاعلى قراءة عليه بالخضراء بمدينة عسقلان • قال أخبرنا الليث بن سعد • قال حدثنا نوفل بن عامر ، قال أخبرني يحيى بن ساكن المدني قراءة عليه يوم الجمعة ، ونحن عند منبر يونس بن متى • قال لما فتح الله ساحل الشام على المسلمين في سنة تسع عشرة من هجرة رسول الله (ص) كتبوا بذلك الى أمير جيوش المسلمين أبي عبيدة عامر بن الجراح : بسم الله الرحمن الرحيم • من عمرو ابن العاص الى أمين الامة • أما بعد : فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد صلى الله (ص) وان الله جل وعلا قد فتح ما كان قد بقي من الساحل وأخذنا قيسارية صلحا وهرب منها فلسطين بن هرقل بأمواله وعياله ونحن بها ننتظر أمرك والسلام • وكتب أيضا يزيد بن أبي سفيان بما تم ليوقفنا في صور وان الله قد عضد الدين ووصل الكتابان الى أبي عبيدة وقد رحل من حلب يريد طبرية فوصل اليه الخبر وهو نازل على

الزراعة ، فلما قرأ الكتابين تهلل وجهه فرحا وضج المسلمون بالتهليل والتكبير وكتب من وقته وساعته الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبشره بما فتح الله على المسلمين وبما فعله يوقنا ووجه الكتاب مع عرفجة بن مازن فركب ناقته وسار حتى وصل المدينة • قال عرفجة بن مازن وعلي من ديباج الروم قباء فاخر وعلى رأسي مطرف خز مذهب • قال فلما أتيت المدينة ودخلتها يوم الجمعة أول ليلة من شهر رمضان قبل مغيب الشمس ، وعمر رضي الله عنه قد أتى يريد المسجد ، فلما أبركت ناقتي وعقلتها وجئته لأسلم عليه نظر الي شزرا وقال من الرجل ؟ قلت عرفجة بن مازن ، فقال يا ابن مازن أما كان لك برسول الله أسوة حسنة وان هذه ثياب الجبارين ، ومن جعل الله لهم الدنيا جنة وهذا الديباج حرام على الرجال منا ولا يصلح الا للنساء وهذا الذي عليك تصدق به على فقراء المدينة • أما والله لقد دخلت يوما على رسول الله (ص) وهو نائم على سرير مرمل بشريط ، وليس بين جلده وبين الشريط شيء ، وقد أثر الشريط في نعومة جلد رسول الله (ص) ، فلما رأيت ذلك بكيت •

فقال لي : يا عمر ما الذي أبكاك ، فقلت : يا رسول الله ان كسرى وقيصر يعيشان في ملك الدنيا وأنت رسول الله بهذه المثابة •

فقال : يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة • قال عرفجة فسلمت اليه الكتاب ، فلما قرأه تهللت أسارير وجهه • قال عرفجة : ثم نزلت على خالتي عفراء بنت أبي أيوب الانصاري وبت عندها ليلتي ، فلما أصبحت لم أقدر أن أقابل عمر بذلك الزي فأعطيت الثوب والعمامة لخالتي فباعتهما وتصدقت بثمنهما على فقراء المدينة ، قال وسرت الى عمر وعلي ثوب من كرابيس الشام كان تحت ثيابي فلما رآني تبسم في وجهي ، وقال يا ابن مازن ما فعلت بديباجتك ؟ قلت يا أمير المؤمنين باعتها خالتي وتصدقت بثمنها على المسلمين فقرأ عمر — وما تفعلوا من خير يعلمه الله — ثم انه كتب الى أبي عبيدة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عمر ابن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح أما بعد ، فأني أحمد الله الذي لا اله الا هو ، وأصلي على نبيه محمد (ص) وقد فرحت بما فتح الله على المسلمين وما وعدنا به رسول الله من كنوز قيصر وسيفتح علينا من كنوز كسرى ، والحمد لله على ذلك كثيرا وقد بلغني أن بادية الاعراب قد استلذوا الدنيا وزينتها ، وقد نصبت لهم شباك محبتها ، وقد تمسكوا بذيل غرورها ونسوا نعيم الجنة وقصورها ورفلوا في ثياب الديباج والخز وأكلوا الحلواء وخبز الحنطة ولهاهم ذلك عن الآخرة ، وقد بلغني يا ابن الجراح أنهم قد تهاونوا بالصلاة ونسوا المفترضات فجرد عليهم عتاق الخيل ذوات الهمم وأغلظ عليهم ولا تكن لهم

خاملا فيطمعوا فيك ، ومن أخلّ منهم بشيء مما فرض عليهم فأقم فيهم حدود الله ، واعلم بأنك راع مسئول عـــن رعيته • قال الله عز وجـل ـ الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الـزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عـــن المنكر ـ وقد قال فيك رسول الله (ص) : أبو عبيدة أمين هذه الامة فأعط الامانة حقها ومن ترك صلاته فأضربه عليها ، ولقد كان رسول الله (ص) يحدثنـــا ونحدثه • فاذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه اشتغالا بالصـــلاة وبعظمة الله ، وعنه (ص) أنه قال « ان الله عز وجل يقول : ان بيوتي في الارض المساجد وان زوّاري فيها عمارها بالعبادة فطوبى لعبد تطهر في بيته ، ثم زارني فحقّ على المزور أن يكرم زائره » وقال (ص) « جميع المفترضات افترضها الله عليّ في الارض الا الصلاة فان الله افترضها عليَّ في السماء » واذ قــرأت كتابي هذا فأمر عمرو بن العاص أن يتوجه الى مصر بعسكره ويقدمهم عامــر بن ربيعة العامري ومشايخ من أصحاب رسول الله (ص) يفضي بهم عنـــد مشورته وأنفذ من قدرت عليه الى أرض ربيعة وديار الجدّ بن صالـــح والله أسأل أن يكون لكم عونا ومعينا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وســلم الكتاب الى عرفجة بن مازن وأمر له بنفقة من بيت المال •

قال عرفجة فأخذت الكتاب وسرت به على طريق تيماء فلقيت عند بيت لحم ركبا من أهل وادي القرى ، فسألتهم عن أبي عبيدة فأخبروني أنـه على غباغب وهو طالب طبرية • قال عرفجة أطلب الغور والجولان وأقصد طبرية، قال فالتقيت بأبي عبيدة على الأردن ، فسلمت عليــه وناولتـــه كتاب عمر (رضي) فلما قرأه جمع المسلمين وقرأه عليهم ، فلمــا فرغ قـــال ما مــن جل ترك الصلاة أو أخلّ بشيء مما افترضه الله عليه الا جلدته ، ومن الغد تى خالد بن الوليد من طرابلس فقرأ عليه الكتاب وأنفذه الى عمرو بن العاص أرسل يحثه على المسير الى أرض مصر ، فلما وصل الكتاب الى عمرو أخـذ على نفسه بالمسير وسار معه يزيد بن أبي سفيان وعامر بن ربيعة العامــري وجماعة من الصحابة وسار معه يوقنا في أربعة آلاف من أصحابه وقد وهبوا أنفسه لله ورسوله فسار عمرو على البيداء من وراء العريش قال وكانـــت أرض مصر وريفها عامرة بالديور والصوامع وكان دير الزجـاج في مملـــكة القبط ، وكان ملكهم يومئذ المقوقس ابن راعيل ، وكان هذا الملك من أهــل الرأي والتدبير والفضل والحكمة ، وكان تلميذ الحكيم أعاشادمون وهـــو الذي لما غلبت الحيات على أرض مصر واخربتها صنع لها جلجـلا ، وكان ان حركه سمع صوته من مقدار ميل • قال فتخرج الحيات من حجرتهـا فمـــن هربت نجت ومن وقعت هلكت ، وكان المقوقس من أعلم أهل زمانه وكانـت

القبط معه في عيشة مرضية وكان يتوقع ظهور رسول الله (ص) ٠

وكان حكيم ذلك الزمان بمصر يقال له عطماوس وهو الذي صنع دواليب الريح ورحى الهواء ، وكان عمّر في الأجيال واطلع على مكنون الحكم والأسرار وعرف عمل صنعة الاكسير وعمل الذهب والفضة والجوهر والحركات المتحركة من نفسها بهبوب الريح وأجناس الأهوية في أجسامها وكان يجد في عمله أن الله يبعث نبيا من أرض تهامة ينشر دينه وتعلو كلمته وتملك أصحابه البلاد ، فعمل في أيام راعيل أبي المقوقس هيكلا عظيما على أعمدة من نحاس بمكان يعرف بعين شمس وجعل عليه أشخاصا مجوّفة وجعل وجهها الى جهة مصر وكتب عليها بالقبطية اذا دارت هذه الأشخاص الى جهة الحجاز فقد قرب ملك العرب قال فبينما المقوقس راكب في بعض الأيام للصيد وقت هجرة رسول الله (ص) ، وقد انتهى سيره الى عين شمس اذ هو سمع أصواتا من الأشخاص فد علت تم انها حوّلت وجهها نحو الحجاز فأيقن بتلف ملكه وزواله ، فعاد من ركوبه وهو قلق ودخل قصر الشمع وجلس على سريره وجمع القسوس والرهبان وكبراء القبط ، وقال لهم يا أهل دين النصرانية اعلموا أن زمانكم قد مضى وهذا النبي المبعوث لا شك فيه وهو آخر الأنبياء ولا نبيّ بعده وقد بعث بالرعب ولا بدّ لرجل من أصحابه أن يملك ما تحت سريري هذا فانظروا الى ملككم وأصلحوا ذات بينكم وارفقوا برعيتكم ولا تجوروا في حكمكم وأمّنوا ضعفاءكم واياكم واتباع الظلم فان الظلم وبيل ومرتعه وخيم وأعطوا الحق من أنفسكم ولا يستطل قويكم على ضعيفكم وما دامت الدنيا لأحد من قبلكم حتى تدوم لكم وكما ملكتموها ممن كان قبلكم كذلك يأخذها منكم من كان بعدكم فأصلحوا نياتكم فيما بينكم وبين خالقكم فان فعلتم ذلك رجوت لكم النصر على أعدائكم ومن يريدكم ، وان اتبعتم أهواءكم تبين هلاككم ٠

قال **حدّثنا** ابن اسحق عن عبد الملك عن أبيه عن حسان بن كعب عن عبد الواحد بن عوف عن موسى بن عمران عن حميد الطويل عن أبي اسحق الراوي المغازي مع رسول الله (ص) قال : لما جاء النبي (ص) من مكة الى المدينة وبايعه الأوس والخزرج كتب الى ملوك الأرض ، وفي الجملة كتابا الى المقوقس ملك مصر وكان الذي كتب الكتاب اليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ونسخة الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عند رسول الله (ص) الى صاحب مصر ٠ أما بعد : فان الله أرسلني رسولا وأنزل عليّ كتابا قرآنا مبينا وأمرني بالانذار والاعذار ومقاتلة الكفار حتى يدينوا بديني ويدخل الناس فيه وقد دعوتك الى الاقرار بوحدانية الله تعالى فان أنت فعلت سعدت

فإن أنت أبيت شقيت والسلام ، ثم طوى الكتاب وختمه بخاتمه • قال أنس بن مالك فاستخرجه رسول الله (ص) من أصبعه وكان فصه عليه ثلاثة أسطر : السطر الأول محمد ، السطر الثاني رسول ، السطر الثالث الله ولا نقش أحد على خاتمه كنقشه • قال سمرة بن عوف قلت لحميد الطويل أكان لخاتم رسول الله (ص) فص أم لا ؟ قال : لا أدري ، قال وسأل رجل جابر بن عبد الله الأنصاري • فقال له في أي يد كان يتختم رسول الله (ص)؟• فقال : في يده اليمنى ويقول اليمنى أحق بالزينة من الشمال وفص الخاتم في يمينه ، وقال عبد الله بن عباس رأيت رسول الله (ص) يتختم في يمينه ثم حوله الى يساره •

حدثنا أنس بن مالك أن رسول الله (ص) كان يتختم في يساره ، وحدثنا جعفر بن محمد عن أبيه قال : كان رسول الله (ص) وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعا يتختمون في اليسار•

(قال الراوي) فلما طبع الكتاب بخاتمه قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا الى صاحب مصر وأجره على الله قال فوثب اليه حاطب بن ابي بلتعة القرشي وقال أنا يا رسول الله • فقال له بارك الله فيك يا حاطب قال فأخذت الكتاب من يد رسول الله (ص) وودعته وأصحابه وسرت الى منزلي وشددت راحلتي وودعت أهلي واستقمت على الطريق الى نحو مصر • فلما بعدت عن المدينة بثلاثة أيام أشرفت على ماء لبني بدر فأردت أن أورد ناقتي الماء واذا على الماء رجلان ومعهما ناقتان ومعهما رجل آخر راكب على جواد أدهم ، فلما رأيتهم وقفت واذا بالفارس أتى الي ، وقال لي : من أين أقبلت وأين تريد ؟ فقلت يا هذا لا تسأل عما لا يعنيك فتقع فيما يحزنك ويخزيك أنا رجل عابر سبيل وسالك طريق • فقال ما اياك أردنا ولا نحوك قصدنا نحن قوم لنا دم وثار عند محمد بن عبد الله وقد جئت أنا وهذان الرجلان وتحالفنا على أن ندهمه على غفلة فلعلنا نجد منه غرة فنقتله • قال حاطب والله لقد أمكنني الله منهم فلأجعلن جهادي فيهم ولو بالخديعة ، فقد سمعت رسول الله (ص) يقول « الحرب خدعة » •

فبينما أنا أخاطب الفارس واذا بالراكبين قد وصلا الي وقالا لي بغلظة و فظاظة ويحك لعلك من أصحاب محمد ؟ فقلت لهما لقد كاد أن يتبدل لكما الطريق عن سبيل التحقيق واني رجل مثلكما أطلب ما تطلبون وأنا قاصد يثرب ، وقد عولت على صحبتكم لأكون معكم ، ولكن سمعت في طريقي هذا ممن أثق به أن محمدا أنفذ رسولا من أصحابه الى مصر بكتاب فلعله في هذا الوادي فان وقعنا به قتلناه • فقال صاحب الفرس أنا أسير معك ثم انه

تقدّم أمامي وتركنا صاحبيه واقفين ينتظران ، قال حاطب : فلما بعدت به عن أصحابه وغبنا عنهما ، قلت ما اسمك ؟ قال اسمي سلاب بن عاصم الهمداني ، قلت يا سلاب اعلم أنه لا يقدر أن يدخل على يثرب الا من كان له جنان وقلب وغدر ومكر لان بها سادات الأرض وأبطالها مثل عمر وعليّ ، ولكنْ كيف سيفك قال سيفي ماض ، قلت أرني اياه فاستله منْ غمده وسلمه اليّ فأخذت السيف من يده وهززنه وقلت سيف ماض ثم قلت :

سيوف حداد يالؤي بن غالب   مواض ولكن أين للسيف ضارب

فقال ما معنى هذا الكلام ؟ قلت يا ابن عاصم ان سيفك هذا من ضرب قوم عاد من ولد شدّاد ، وما ملكت العرب سيفا مثله ولا أمضى من هذا السيف ، ولكن وجب عليّ اكرامك وأريد التقرب اليك بحيلة أعلمك اياها تقتل بها عدوّك • فقال بذمة العرب افعل ذلك • فقال حاطب اذا كنت في مقام حرب وقتال وخصمك بين يديك وتريد قتله فهز هذا السيف حتى يهتز هكذا وتلتئم مضاربه واضرب عدوّك بحرفه فانه أسرع للقتل والقطع ، وملت بالسيف على عنقه واذا برأسه طائر عن بدنه ، فنزلت اليه وأمسكت الجواد لئلا ينفلت فينذر أصحابه ، وتركته مربوطا الى شجرة وأسرعت الى صاحبيه واذا هما ينتظراننا ، فلما رأياني أقبل أحدهما اليّ فقال : ما وراءك وأين سلاب ؟ فقلت أبسر بأخذ الثأر وكشف العار واعلم بأننا وجدنا رجلين من أصحاب محمد وهما نائمان ، وقد وجهني سلاب بأن يمضي أحدكما حتى نتمكن منهما ويقف أحدكما ههنا ، فان هذا الوادي ما خلا ساعة من اصحاب محمد • فقال نعم الرأي الذي قد أشرت به وسار معي ، فلما غيبته عن صاحبه قلت : ما اسمك ؟ قال عبد اللات • قلت كن رجلا واياك والخوف فانك اذا رأيتنا وقد هجمنا على الرجلين فاستيقظ • فقال لا بد أن أفعل ذلك ، فقلت له : اني أرى غبرة ولا شك أن تحتها قوما ممن صبأ الى دين محمد ، فجعل يتأمل كأنه الواله الجيران فعاجلته بضربة على غفلة فرميت رأسه عن بدنه وعدت الى الثالث ، فلما رآني وحدي تيقن بالشر فقارعني وقارعته وصدمني وصدمته ، الا ان الله أعانني عليه فقتلته، وأخذت الراحلتين والفرس وأسلابهما ، ووضعت الجميع عند رجل من أصحابي ، وكان رفيقا لي من زمن الجاهلية وهو من عبد شمس ، ثم توجهت أريد مصر ولم أزل الى أن أتيتها ، فلما وصلت الى باب الملك ، قالوا من أين جئت ؟ قلت أنا رسول الى ملككم ، فقالوا من عند من ؟ قلت من عند رسول الله (ص) ، فلما سمعوا بذلك أحاطوا بي وأوصلوني الى قصر الشمع بعد أن استأذنوا لي وأوقفوني

على باب الملك فأمرهم باحضاري بين يديه ، فعقلت راحلتي وسرت معهم عند المقوقس واذا هو في قبة كثر الجوهر في حافتها ولمع الياقوت من أركانها ، والحجاب بين يديه • فأومأت بتحية الاسلام ، فقال حاجبه يا أخا العرب أين رسالتك ؟ قال فأخرجت الكتاب فأخذه الملك من يدي بيده • قال فباسه ووضعه على عينيه ، وقال مرحبا بكتاب النبي العربي ، ثم قرأه وزيره الباكلمين ، فقال له اقرأه جهرا فانه من عند رجل كريم ، فقرأه الوزير الى أن أتى الى آخره • فقال الملك لخادمه الكبير : هات السفط الذي عندك فأتى به ، ففتحه واستخرج نمطا ففتح ذلك النمط واذا فيه صفة آدم وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وفي آخره صفة محمد (ص) فقال لي صف صاحبك حتى كأنني أراه • قال حاطب ومن يقدر أن يصف عضوا من أعضاء رسول الله (ص) فقال لا بدّ من ذلك • قال فوقفت بعدما كنت جالسا وقلت ان صاحبي وسيم قسيم معتدل القامة ، بعيد الهامة بين كتفيه شامة وله علامة كالقمر اذا برز ، صاحب خشوع وديانة وعفة وصيانة صادق اللهجة واضح البهجة أشمّ العرنين ، واضح الجبين سهل الخدين رقيق الشفتين براق الثنايا بعينيه دعج وبحاجبيه زجج ، وصدره يترجرج وبطنه كطي الثوب المدبج له لسان فصيح ونسب صحيح وخلق مليح • قال والملك ينظر في النمط ، فلما فرغت قال : صدقت يا عربي هكذا صفته ، فبينما هو يخاطبني اذ نصبت الموائد وأحضروا الطعام ، فامرني أن أنقدم فامتنعت فتبسم وقال : قد علمت ما أحلّ لكم وحرّم عليكم ، ولم أقدم لك الا لحم الطير فقلت اني لا آكل في هذه الصحاف الذهب والفضة فان الله قد وعدنا بها في الجنة ، قال فبذلوا طعامي في صحاف فخار فأكلت ، فقال أيُّ طعام أحب الى صاحبك ؟ فقلت : الدباء يعني القرع فاذا كان عندنا شيء منه آثرناه على غيره فقال : ففي أيُّ شيء يشرب الماء ؟ •

فقلت في قعب من خشب • قال أيحب الهدية قلت نعم فانه قال (ص) « لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدي اليّ ذراع لقبلت » • قال أيأكل الصدقة قلت لا بل يقبل الهدية ويأبى الصدقة ، وقد رأيته اذا أتى بهدية لا يأكل منها حتى يأكل صاحبها • فقال الملك أيكتحل ؟ قلت نعم ، في عينه اليمنى ثلاثا وفي اليسرى اثنتين ، وقال من شاء اكتحل اكثر من ذلك أو أقل وكحله الأثمد وينظر في المرآة ويرجل شعره ويستاك • فقال المقوقس اذا ركب ما الذي يحمل على رأسه ؟ فقلت راية سوداء ولواء أبيض وعلى اللواء مكتوب لا اله الا الله محمد رسول الله • فقال أله كرسي يجلس عليه أو قبة ؟ قلت نعم له قبة حمراء تسع نحو الأربعين • • قال فما الذي يحب من الخيل ؟ قلت

الأشقر الأرثم الأغرّ المحجل في الساق ، وقد تركت عنده فرسا يقال لهـا المرعد . قال فلما سمع كلامي انتخب من خيله فرسا من أفخر خيول مصـر الموصوفة ، وأمر به فاسرج وألجم فأعده هدية لرسول الله (ص) وهو فرسه المأمون وأرسل معه حمارا يقال له عفير ، وبغلة يقال لها دلـدل وجاريـة اسمها بريرة وكانت سوداء ، وجارية بيضاء من أجمل بنات القبط اسـمها مارية ، وغلام اسمه محبوب وطيب وعود وندّ ومسك وعمائم وقباطي ، وأمر وزيره أن يكتب الى رسول الله (ص) كتابا ، يقول فيه : باسمك اللهم مـن المقوقس الى محمد . أما بعد ، فقد وصل اليّ كتابك وفهمته ، وأنت تقول : ان الله أرسلك رسولا وفضلك تفضيلا وأنزل عليك قرآنا مبينـا ، فكشفنا يا محمد خبرك ، فوجدناك أقرب داع الى الله وأصدق من تكلم بالصـدق ، ولولا أنني ملكت ملكا عظيما لكنت أول من آمن بك لعلمي أنك خاتم النبيين وامام المرسلين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته مني الى يوم الديـن . قال وسلم الكتاب والهدية اليّ وقبلني بين عيني وقال : بالله عليك قبـل بين عيني محمد عني هكذا ، ثم بعث معي من يوصلني الى بلاد العـرب والى مأمني . قال فوجدنا قافلة من بلاد الشام وهي تريد المدينة فصحبتها الى أن وردت المدينة فأتيت المسجد وأنخت ناقتي ودخلت وسلمت على رسـول الله (ص) وأنشأت أقول :

أنعم صباحا يـا وسـيلة أحمـد ... نرجو النجاة غداً بيوم الموقف
اني مضـيت الى الـذي أرسلتني ... أطـوي المهامه كالمجـدّ المعنف
حتى رأيت بمصر حصاحب ملـكهم ... فبدا اليّ بمثل قول المنصف
فقرا كتابك حين فـك ختامـه ... فأطلّ يرعد كاهتزاز المرهـف
قال البطارقة الذيـن تجمعـوا ... ماذا يروعك مـن كتاب مشرف
قال اسكتوا يا ويلكم وتيقنـوا ... هذا كتاب من نبيّ المصـحف
قالوا وهمت فقال لست بواهـم ... اني قرأت بيان لفظ الأحـرف
وبكل سطر من كتـاب محمـد ... خط يلوح لناظـر متوقـف
هذا الـكتاب كتابه لك جامعـا ... يا خير مأمـول بحبـك نكتفي

(قال الراوي) ورجعنا الى الفتوح ، قال حدّثني أحمد بن عبيد عـن عبد الله بن عمر السلمي عن محمد الزهري عن عبد الله بن زيد الهذلي عن أبي اسحق الأموي وهو المعتمد عليه في فتوح مصر وأرض ربيعة والفرس .

حدّثنا عمر بن حفص ولم ينفرد بهذه الرواية سواه ، وكان أصحاب السير قد اشتغلوا بوقائع العراق وفتوحه ، وما تجدد من سعد بن أبي وقاص

وبني كسرى أنوشروان وتركوا فتوح الشام وأرض مصر فيما بعد ، وكان قد ارتحل عنهم فتركوه لأجل الزيادة والنقصان فيه ، وانما انفرد ابن اسحق لأنه انفرد عن مشايخ ثقات قد وثق بهم من آل مخزوم اجتمع بهم في الرملة بعد الفتوح أحدهم نوفل بن ساجع المخزومي وكان عمه خالد بن الوليد وكان من المعمرين ، شهد تبوك مع النبي (ص) ، وشهد بعدها الحديبية ، وشهد يوم اليمامة ومسيلمة ، وكان مع عمرو بن العاص بأرض مصر في جميع فتوحها ، والثاني فهد بن عاصم بن عمرو بن سهل بن عمرو المخزومي وغيرهما من الثقات ممن شهد فتوح أرض مصر والوقائع كلها قالوا جميعا ، ومنهم من قال : ان عمرو بن العاص لما انفصل من ساحل الشام وكتب الله سلامة المسلمين وسار متوجها يريد أرض مصر ، فلما كان بمكان يقال له رفح قال له يوقنا : يا عمرو أنت تريد أن تدهم مصر على حين غفلة من أهلها ، وأنا ممن يمنكني ذلك لأن ثواب الله أجلّ غنيمة ، فان قلبي ملوث بحب الدنيا واني كنت ممن أشرك بالله سواه ، وأنا أجتهد في الخلاص وأقاتل من كنت انصره على الكفر وعبادة الصلبان والسجود للصور من دون الله ، وقد أخذت الاسلام بنية وقبول لأنه الحق وأريد أن أتقدّم الى أرض مصر فلعلي أجد لكم بالحيلة سبيلا • فقال عمرو : وفقك الله وأعانك وحفظك وصانك • قال فسار يوقنا ليلا من رفح يطلب الفرماء ولم يقرب من العريش ولا القاربا وكلها حصون عامرة وقد سكنها أقوام من العرب المختلطة ، وكانوا يؤدون المال الى الملك المقوقس بن راعيل ، وسنذكر فتوحها فيما بعد ان شاء الله تعالى • قال وان يوقنا أشرف على الفرماء ، وكان بها وال من قبل المقوقس اسمه الرندبان ، والفرماء على جانب بحيرة تنيس من الشرق • فرأى يوقنا خياما منصوبة وقبابا مضروبة ، فلما رأوا يوقنا وقع الصائح ، فركب من كان هناك وكانت الأخبار ترد عليهم كل وقت بما صنع الصحابة ، فلما بلغهم أن قيسارية فتحت اغتموا لذلك ، لأنه كان فلسطين بن هرقل قد تزوّج بابنة المقوقس ارمانوسة ، وكان قد جهزها أبوها وأرسلها مع غلمانها وأموالها الى بلبيس ، ثم انها وجهت حاجبها تميلاطوس الى الفرماء في ألفي فارس لحفظ ذلك المكان •

الاستعداد

حدّثنا ابن اسحق أخبرنا موسى بن محمد بن ابراهيم بن الحرث التيمي عن أسامة ابن زيد بن أسلم • قال ابن اسحق حدثني رجل من القبط رأيته وقد دخل في دين الاسلام فقربت اليه وسألته فاخبرني أنه من قبط مصر من جند المقوقس فقلت له : كيف كان من أمركم لما سمعتم بقدوم

المسلمين من الشام وكسر جيوش هرقل • قال لما بلغنا ذلك بعث المقوقس رسله الى جميع اطراف بلاده مما يلي الشام بأن لا يتركوا أحدا من الروم ولا غيرهم يدخل أرض مصر ، كل ذلك لئلا يتحدثوا بما صنع المسلمون بجنود هرقل فيدخل الرعب في قلوب قومه فلأجل ذلك أنه لما دخل يوقنا أرض مصر لم يعلم به أحد فلما ركبوا الى لقائه ورأوا حشمه وعسكره وكانوا بزيّ الروم سألوه عن مكانه وكان قد أخبر في طريقه من حصن كيفا وأعلموه بابتعاد فلسطين عن زوجته أرمانوسة •• وان أباها قد جهزها وهي على مدينة بلبيس• فقال يوقنا : ومتى تزوّجها ؟ قالوا تزوجها والمسلمون على حصن حلب •

فقال لهم انه قد ركب في البحر وترك قيسارية وقد أرسلني حتى آخذها في المراكب من دمياط ، ومضى يوقنا يقول : أنا قد جئت رسولا من الملك فلسطين الى الملك المقوقس حتى يرسل معي ابنته الى زوجها ، فلما سمعوا كلامه قالوا ان الملكة في بلبيس وقد أنفذها اليه وما منعها من المسير الا خوف العرب وهروب فلسطين من قيسارية فسار يوقنا حتى قرب من بلبيس فنزل هناك وسار حاجبها اليها وعرفها بما قاله يوقنا • فقالت عليّ به فأتى اليه الحاجب ، وأمره بالمسير فركب وركب أصحابه و هم بأحسن زيّ وأتوا الى عسكر أرمانوسة واذا به عسكر كبير أكثر من عشرة آلاف • قال فترجل يوقنا وترجل قومه ووقفوا على باب قصرها واستأذنوا عليها فأذنت لهم بالدخول ، فلما وقفوا بين يديها خضعوا لها فأمرت لهم بكراسي فوضعت لهم فأمرتهم بالجلوس فجلسوا ووقفت الحجاب والمماليك والخدم فقالت الملكة أرمانوسة له من غير ترجمان كم لكم عن الملك فقال شهر • فقالت أكان رحل من المراكب أم قبل رحيله فقال يوقنا بل قبل رحيله وحين ركب منهزما ، ولما وصلت الى غزة بلغني أنه سار وقد قال لي في السرّ بيني وبينه لا طاقة لنا بقتال هؤلاء العرب ، فان أبي هرقل ترك أنطاكية وذهب وقد قاتلهم بجميع جنوده واستنصر عليهم بجميع دين النصرانية وأنفذ اليهم ما هان الأرمني الى اليرموك في ألف ألف فهزموه وقتلوه واني أريد أن آخذ خزائني وأطلب القسطنطينية ، ثم انه وجهني اليك أيتها الملكة لتركبي في المركب اليه •

قال فلما سمعت ذلك أطرقت برأسها الى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت اني لا أقدر أن أصنع شيئا الا بأمر الملك أبيّ واني مرسلة اليه • قال فقام يوقنا وصقع لها ودعا ثم خرج من عندها فوجد غلمانه قد ضربوا خيامه فنزل بها وارسلت اليه العلوفة والضيافة • قال ابن اسحق الأموي (رضي): ولقد بلغني نه لما جنّ الليل أتت اليها الجواسيس وأعلموها بفتح قيسارية ومدائن

الساحل جميعها وبتوجه عمرو بن العاص الى مصر وبحديث يوقنا صاحب حلب وحذروها منه وعرفوها بجميع الأخبار مفصلة وانه هو الذي فتح طرابلس وصور وجبلة • قال فلما سمعت ذلك دخل في قلبها الرعب وعلمت انه محتال فطلبت حاجبها وقالت له : مر العسكر بلبس السلاح وأن يكونوا مستيقظين فقد جرى من الأمر كذا وكذا ثم انها أوقفت مماليكها وغلمانها وقالت لهم اذا دخل هذا الرجل وخواصه فاقبضوا عليهم فاذا نحن ملكناهم انخذل عسكر المسلمين ، فلما رتبت هذا أرسلت تطلب يوقنا فذهب حاجبها اليه وقال له أيها البطريق الكبير ان الملكة تطلبك لتوصيك بما تقوله لأبيها : فقال له السمع والطاعة ها أنا راكب وأصحابي فذهب القاصد • فقال يوقنا لأصحابه اعلموا أن الملكة شعرت بنا والقوم قد عوّلوا على قتلنا فان حصلنا في أيديهم قتلونا لا محالة وتضرب بنا الأمثال لمن يأتي بعدنا فموتوا كراما ولا تلقوا بأيديكم الى القتل بأيدي الكفار وكونوا نصرة لدين الاسلام وما عسى نرجو من هذه الدنيا الغدارة التي ما صفت لأحد الا وغيرته بالكدر فاعمروا دار البقاء و جاهدوا في سبيل الله حق جهاده فلعلكم ترضونه بذلك • قال فأخذ القوم على أنفسهم واشتدوا وركبوا وتوكلوا على الله في جميع أمورهم •

حدثنا ابن اسحق قال : لقد بلغني أن الملكة أقامت تنتظر قدومهم لتقبض عليهم فاستبطأتهم فبعثت رسولا ثانيا تستحثهم • فقال له يوقنا ارجع الى صاحبتك وقل لها ما جرت بذلك عادة الملوك يبعثون يطلبون الرسل الا لأمر يحدث وقد كنت عندها فما الذي تريده نصف الليل مني ؟ فعاد الرسول وأخبرها بما قاله فركبت من وقتها وتقدمها حاجبها وأمرت الجيش كله أن يركب ودارت بيوقنا وأصحابه ولم تحدث بشيء الى الصباح فأقبل صاحب الملكة اليهم وقال: ما حملكم أن تركتم دين آبائكم وهجرتم دين المسيح وأمه وقد جئتم تحتالون علينا ألا وان المسيح قد غضب عليكم • فقال يوقنا أن المسيح عبد من عبيد الله لا يقدر على شيء لانه مأمور مكلفٌ وقد أنطقه الله بذلك وهو في المهد فقال ــ اني عبد الله وقال : وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ــ ، ومن يؤمر بالصلاة والزكاة ويموت فليس باله انما هو عبدالله مكلف بالعبادة مثل واحد منا وان الله لا يتشبه بأحد منا وان الله لا يشبهه شيء ولا يتشبه بأحد، ولقد أضلكم من صدكم عن ذلك وزاغ بكم عن طريقَ الحق بقوله على الله والمسيح ، ولقد كنا مثلكم نسجد للصلبان ونعظم القربان ونسجد للصور ونجعل مع الله الها آخر الى أن تبين لنا دين محمد (ص) فشفانا بعد العمى وشرح صدورنا للهدى ، ودين الاسلام هو الدين الواضح وكنا نقولُ مثل

قولكم ان المسيح ابن الله ، وان ابراهيم واسحق كانا نصرانيين فكذبنا الله بقوله في كتابه ـ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ـ وقال سبحانه ـ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ـ وهانحن قد جئناكم لنجاهدكم : اما أن تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله واما الجزية واما القتال . قال فلما سمع الحاجب كلامه قال لقومه دونكم وهؤلاء فقد جاءوا يريدون قتلكم وأخذ أموالكم وأولادكم وحريمكم . قال فحملوا على بوقنا وأصحابه وعمل السيف بينهم بقية يومهم ، فلما كان من الغد ركبوا وداروا بهم وتصايحت عليهم القبط ودارت بهم الخيل والرجال فبلى يوقنا ومن معه بما لا طاقة لهم به وقتل منهم جماعة وقتلوا هم من القبط خلقا كثيرا ولكنهم صبروا لأمر الله وقالوا والله لا نسلم أنفسنا أو نموت كلنا فقد حصل لنا ما كنا نطلب من رضا ربنا . قال ابن اسحق :

حدثنا سيف بن شريح عن يونس بن زيد عن عبد الله بن عمر بن حفص عن عبد الله بن الحرث . قال لما أخبرت الجواسيس أرمانوسة بقصة يوقنا أنفذت كتابا الى أبيها المقوقس تعلمه بذلك وأنها مغلوبة معهم وان العرب متوجهون مع رجل يقال له عمرو بن العاص وأنا منتظرة جوابك . قال فلما وصل الكتاب اليه دعا أرباب دولته وقال لهم قد تمّ من الأمر عليّ كذا وكذا فما تشيرون به عليّ ؟ . قالوا أيها الملك نرى لك من الأمر أن تنفذ جيشا الى الملكة ينصرها على عدوّها ، وتنفذ الى جلباب ملك البرية تستنصر به على هؤلاء العرب وتنفذ الى مازع بن قيس ملك البجاوة ينفذ لك جيشا وتنفذ الى من بالاسكندرية يأتون والى من بالصعيد يأتون فاذا اجتمعت اليك هذه الأمم فالق بهم العرب ولا تأمن لهم فيطمعوا فيك . فقال يا أهل دين النصرانية اعلموا أن الملك محتاج الى سياسة ، ومن ملك عقله ملك رأيه ومن ملك رأيه أمن من حوادث دهره وليست الغلبة بالكثرة وانما هي بحسن التدبير ،والله لقد كان قيصر أكثر مني جندا وأوسع بلادا وأعظم عدة وقد جمع من بلاد الروم الى اليونانية ومن أقاليمه ومن القسطنطينية ومن سائر البلاد وبلاد الاندلس واستنصر بنا وبغيرنا فما أغنى عنه جمعه شيئا ولا قدر أن يردّ القضاء والقدر عنه ، وأعلموا أن العقل أساس الآدمي المخاطب المكلف المفضل به على سائر ما خلق على الأرض ، فمن ملك عقله ملك أمره ومن لم يجد منه حظا كان بجهله أرضيا ، ولن تنال الحكمة الا بالعقل .

قال الحكيم ماسوسي : ان الحكمة مرقى جليل وطالبها نبيل وتاركها ذليل لانها غذاء الارواح وقوت القلوب ، واعلموا أني لست أتكلم الا بالصدق

وأنتم تعلمون أن محمدا في أيامه بعث الينا يدعونا الى دينه فاستدليت على صدق قوله بكتابه وما ظهر من معجزاته وقد سمعتم أنه لما بعث ما سمع أحد بذكره الا وخاف منه ، وقد سمعتم أن القمر انشق له والذراع المسموم كلمه وقال : يا رسول الله اني مسموم فلا تأكلني وقد كلمه الضبّ والحجر والشجر والمدر وعرج به الى السماء وركب أوج الماء وأول من تغلب عليه قومه وحاربه عشيرته حين أنكروا قوله وفعله فنصر عليهم وقهرهم وقد تبين لهم الحق فاتبعوه ونصروه ، وهم هؤلاء الذين فتحوا الشام وما أنكرت من أمرهم شيئا فانهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون حدود الله التي أمر بها وما في كتابهم شيء الا وفي الانجيل مثله وقد أضلكم بولس وأغواكم حين غرّ بكم وبدل شرعكم وسماكم باسم لا يليق بكم ، وكيف وقد عاد بكم من الطريق الواضح وأحلّ لكم جميع ما حرّم عليكم من قبل ، وهذا هو عين المحال وداعية العمى أن تتعدوا ما قال نبيكم وكيف نبغي لروح الله عيسى بن مريم أن يكلمكم بما لم يرسله الله اليكم . ثم ان بولص قال لكم انه أحلّ لكم الخنزير وشرب الخمر وارتكاب المعاصي ما ظهر منها وما بطن فأطعتم أمره وصدّقتم قوله وحاشا المسيح أن يفعل ذلك ، وما كان أحد من الانبياء الا على ما جاء به محمد ، وهؤلاء الحكماء الأولون ما منهم الا من يتكلم بوحدانية الله تعالى ، وهذا الحكيم دمونا الذي صح في براري اخيم أرصادا وجعلها مثلا للامم الآتية ، وذكر فيها من يأتي من الامم والاجيال الى آخر الزمان وصور الحكماء منفردة به والنسر يعقد رأس الحمل والنسر يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة كما قدر بالمقدار الحكيمي ، وكان قدر صوّر صورة وكتب على رأسها بقلم اليونانية أربعة أسطر . الاول من خاف الوعيد سلم مما يريد . الثاني : من خاف ما بين يديه صان دموعه بما في يديه . الثالث : ان كنت تريد الجزيل فلا تنمّ ولا تقيل . الرابع بادر قبل نزول ما تحاذر ، فمن كان هذا كلامهم فكيف صنع سواهم ، وهذه فريضة هؤلاء القوم المحمديين . قال فأطرقوا برؤوسهم الى الارض غيظا على الملك . قال وما تكلم المقوقس بهذا الكلام حتى أوقف عنده من مماليكه ألف غلام فوق رأسه بالسيف ، لانه كان قد سمع ما جرى لقيصر وهرقل مع بطارقته لما جمعهم ونصحهم فوثبوا عليه وأرادوا قتله . أما المقوقس فانه استوثق بمماليكه حتى لا يطمع فيه . قال فلما تكلم بذلك قال له وزيره : أيها الملك رأيك راجح وأنا أول من يؤمن بما تقول . فقال للوزير اكتب الى ابنتي كتابا تأمرها فيه أن تتلطف بالقوم وتعطيهم الامان وتنفذهم الينا حتى نخلع عليهم وتطيب قلوبهم ويكونوا معنا يقاتلون من يريد قتالنا ، وما أراد بذلك الا أن يسلم مثل يوقنا وأصحابه اذ هم على الحق . قال فكتب الوزير الى

الملكة كتابا بما قاله أبوها ، فلما وصل الكتاب اليها وقرىء عليها أمرت أصحابها أن يرجعوا عن قتل يوقنا ومن معه فرجعوا وأرسلت الى يوقنا تعلمه بكتاب بيها وأرسلت اليه الكتاب ، فلما قرأه قال لرسولها : امض اليها حتى استخبر الله تعالى في ذلك •

فقال « يوقنا » لاصحابه : ان الله قد كشف حجاب الغفلة عن قلب هذا الملك وقد ظهر له ما ظهر لنا من الحق فما الذي ترون من الرأي ؟ قالوا نحن نسمع من رأيك • فقال دعوني هذه الليلة • قال فلما جنّ عليه الليل قام يصلي وأمر أصحابه أن لا ينزلوا عن خيولهم مخافة من غدر القوم فبينما هو يصلي واذا بشخص قد دخل عليه فارتاع منه ثم تأمله فاذا هو عمر بن أمية الضمري ساعي رسول الله (ص) ، فلما رآه يوقنا فرح وكان قد رآه مرارا فقال له مرحبا يا عمرو من أين ؟• فقال ان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب بعثني الى عمرو بن العاص لأحثه على المسير الى مصر فوجدته قد وصل وها هو منك قريب وقد أرسلني اليك لأعرفه خبرك فأخبره بما وقع له وقال له امض يا عمرو ودعه يعجل بالمجيء يعيننا على هؤلاء القوم وحدثه بجميع ما جرى علينا • فرجع عمرو مسرعا الى عمرو بن العاص واعلمه بقصة يوقنا •• قال فترك عمرو بن العاص الاثقال ومعها من يحفظها وركب وسار بجرائد الخيل وترك مع الاثقال عامر بن ربيعة العامري ، فما كان قبل طلوع الفجر الا وهو عند يوقنا فدار بالقوم فلما أحس بهم يوقنا كبر هو ومن معه ورفع الجميع أصواتهم بالتهليل والتكبير ووضعوا السيف في القبط فما طلعت الشمس الا وقد قتل من القبط أكثر من ألف وأسر منهم خلق كثير وولى الباقي منهزمين ، وأخذت أرمانوسة ابنة الملك وجميع ما معها من الاموال والرجال والجواري والغلمان •

فقال عمرو بن العاص لاصحاب رسول الله (ص) مثل يزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد الطائي والقعقاع بن عمرو التميمي وخالد بن سعيد وعبد الله بن جعفر الطيار وصفوان وأمثالهم : أن الله سبحانه وتعالى قد قال — هل جزاء الاحسان الا الاحسان — وهذا الملك قد علمتم أنه كاتب رسول الله (ص) وبعث هدية ونحن أحق بمن كافأ عن نبيه (ص) هديته وكان يقبل الهدية ويشكر عليها وقد رأيت أن ننفذ الى المقوقس ابنته وما أخذنا معها ونحن نتبع سنة رسول الله (ص) وقد سمعته يقول « ارحموا عزيز قوم ذلّ ، وغني قوم افتقر » فاستصوبوا رأيه فبعث بها مكرمة مع جميع ما معها مع قيس بن سعد (رضي) •

ذكر فتح مدينة مصر

قال ابن اسحق الاموي (رضي) : لما ورد المنهزمون على الملك وأخبروه بما تمّ عليهم وعلى ابنته ••• ضاق صدره وبقي متفكرا فيما يصنع وليس له

نية في القتال مع الصحابة ، فبينما هو متفكر اذ جاءه البشير بقدوم بنته وما معها فخف عنه بعض ما كان يجده ، فلما دخل عليه قيس رفع مجلسه فوق الملوك والحجاب وأرباب دولته وكانوا قد اجتمعوا يهنئونه بابنته ، فلما حضر قيس بن سعد سأله الملك عن أشياء لعل أصحابه أن تلين قلوبهم الى الاسلام • فقال يا أخا العرب أخبرني عن صاحبكم ما الذي كان يركب من الخيل • قال الاشقر الارتم المحجل في الساق وكان اسمه المترجل • فقال لقد بلغنا أنه كان لا يركب الا الجمال • فقال قيس ان الله أكرم الابل وشرفها قال لها كوني فكانت وأخرج ناقة من الصخر وخص بها العرب من دون غيرهم من بني آدم وكان يركبها لكونها قد جعلها الله مباركة تقنع بما تجد وتصبر على الحمل الثقيل والسير الشديد وتصبر عن الماء أياما وقد ذكرها ربنا في قوله في كتابه العزيز • فقال — وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق — وقال — والبدن جعلناها لكم من شعائر الله —

ولما غزا رسول الله (ص) من غزواته غزوة بدر كان معه مائة ناضح من الأبل وكان معه فرسان يركب أحدهما المقداد بن الاسود الكندي ويركب الاخر مصعب بن عمير وانا لقينا قريشا في عددها وعديدها فهربوا ببركة رسول الله (ص) ، وكان أصحابه يتعاقبون في الطريق ، وكان عليه الصلاة والسلام وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد حليف حمزة بن عبد المطلب وغيرهم يتعاقبون شامخا ، وكان أيها الملك يركب الحمار الذي أهديته اليه ويردف وراءه معاذ بن جبل ، وعلى الحمار ركاب من ليف وخطامه ليف ، واعلم يا ملك القبط أنه كان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويقول « من رغب عن سنتي فليس مني » ، وكان قميصه من القطن قصير الطول والكمين ليس له أزرار ولقد أهدى اليه ذويزن حلة اشتراها له قومه بثلاثة وثلاثين بعيرا فلبسها رسول الله (ص) مرة واحدة وأهدى له جبة من الشام فلبسها حتى تخرقت وخفين فلبسهما حتى تخرقا ، وكان له رداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعات ونصف ، وكان له ثوب خز يلبسه للوفد اذا قدموا عليه ، وكان أفصح الناس اذا تكلم بكلمة يرددها ثلاثا ، وكلما رأى قوما سلم عليهم ورأيته كلما تحدث تبسم في حديثه ، وكان اذا اجتمع اليه أصحابه وأراد أن ينهض • قال سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا اله الا أنت أستغفرك وأتوب اليك ، قلنا يا رسول الله ان هذه الكلمات اتخذتهن عادة • قال أمرني بهن جبريل وأخرجت لنا زوجته لما قبض كساء وازارا غليظين ، وقالت قبض رسول الله (ص) فوق هذين •

فقال المقوقس : هذه والله أخلاق الانبياء فطوبى لمن اتبعه ، فان أمته هي الامة الموصوفة في الانجيل ، فقال بعض من حضر أيها الملك ما تكون أمة عند

الله أفضل من هذه الامه وهم نحن فغضب الملك من قوله ، وقال وبأي شيء أنتم أفضل عند الله أبأكلكم الحرام وارتكابكم الآثام وصنعكم المنكرات وتجنبكم الحسنات وظلمكم في الرعية وميلكم الى الدنيا أين أنتم من قوم عبر عليهم الاسكندر فرآهم ليس بينهم قاض ولا حاكم ولا أمير قائم عليهم ولا فيهم من يختص بالغنى دون أخيه ، بل هم سواء في كل ما هم فيه ، أكلهم وشربهم واحد غير متناف ، ولامتضاد وملبسهم غير متناف ولا متباعد ، فتعجب الاسكندر منهم وسأل الأكابر منهم عما رآه من أحوالهم • فقالوا أيها الملك انا وجدنا جمجمة وعليها مكتوب : يا ابن آدم ما خلقت الا من التراب ، وقد خلوت بما قدمت اما صالحا فيسرك ، واما طالحا فيضرك فتندم حيث لا ينفعك الندم ولم يكن لك الى الدنيا مرجع ، فطوبى للكيس العاقل الـذي ليس ببليـد ولا غافل ، يتزود الى ما اليه يصير ولا يلقي الاتكال على التقصير ، فبادر الى الخير قبل الموت واغتنم حياتك قبل الفوت ، وكأنك بالحي وقد هلك وترك كل ما ملك ، فلما قرأنا هذا اعتبرنا أيها الملك بهذه الموعظة البالغة ولبسنا أثوابها السابغة ، فقال ما بال مساجدكم شاسعة نائية وقبوركم دانية ؟• فقالوا أما مساجدنا فبعيدة ليكثر الاجر بكثرة الخطا وقبورنا قريبة لنتذكر الموت فننتهي عن الخطا ، فقال مالي أرى أبوابكم بغير غلاق ؟ ، قالوا لاننا ما فينا خائن ولا سرّق • فقال ما لي لا أرى فيكم أميرا ولا حاكما ؟ فقالوا لاننا ما فينا معتد ولا ظالم •••

فقال : ما لي لا أرى فيكم معسرا ولا فقيرا؟، قالوا لان رزق الله فينا الكبير والصغير ، ثم انهم أخرجوا له جمجمتين عظيمتين فقالوا : أيها الملك هـذه جمجمة رجل عادل سالم وهذه جمجمة رجل ظالم وكلاهما صار الى هذا المصير ولم يغن عنهما الجمع والتدبير • أما العادل فمسرور ريان ، وأما الظالم فنادم حيران فاز المتقي وخسر الشقي ، فاختر ما تراه قبل الحين أيها الملك لانك قد ملكت النواصي ونفذ أمرك في الداني والقـاصي واستخلفـك الله في الارض وأمرك بالقيام بالنفل والفرض ، فتذكر مرجعك ورمسك واعمل لنفسك واعلم أنه لا ينفعك جدك اذا قبضت روحك واشتمـل عليـك لحدك ، فاترك أوامر الشيطان ودواعيه وخذ بأوامر الرحمن ونواهيه ولا يغرنك النعيم فتبوء بالاثم العظيم ، اذكر ايها الملك ما فعل الشيطان بأبيك حين نصب له مكيدته وأدار عليه حيلته فنصب له فخ العداوة وغره فيه بحبة البرّ • فقال قيس أيها الملك أتدري من أولئك ؟• قال لا • قال هم قوم مؤمنون قال الله عنهم في كتـابه ــ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ــ وقد رآهم نبينا (ص) ليلة عرج به ، فلما عاد أخبر أصحابه بهم ، قالوا يا رسول الله أهم قوم مؤمنون بما أنزل

عليك ؟ فأراد أن يعلمهم أن أمة محمد أفضل منهم فأنزل الله ــ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ــ فقال المقوقس لقيس بن سعد يا أخا العرب ارجع الى أصحابك وأخبرهم بما سمعت وبما رأيت وانظر فيما يستقر عندكم وبينكم . فقال قيس أيها الملك لا بد لنا منكم ولا ينجيكم منا الا الاسلام أو أداء الجزية أو القتال . فقال المقوقس أنا أعرض ذلك عليهم واعلم أنهم لا يجيبون لان قلوبهم قاسية من أكل الحرام .

حدثنا ابن اسحق (رضي) حدثنا عبدالله بن سهل عن عدي بن حاطب عن سليمان ابن يحيى قال : ان الملك المقوقس كان من عادته أنه في شهر رمضان لا يخرج الى رعيته ، ولا يظهر لأحد من أرباب دولته ، ولا أحد منهم يعلم ما كان يصنع ، وكانت مخاطبته لقيس بن سعد في أواخر شعبان سنة عشرين من الهجرة ، فخرج قيس من عنده ومضى الى عمرو بن العاص وحدثه بما كان منه . قال ابن اسحق : وكان ولي عهد الملك ولده اسطوليس وكان جبارا عنيدا وانه لما سمع ما تحدث به أبوه رأى ميله الى الاسلام وعلم انه لا يقاتلهم وربما أسلم وسلم اليهم ملكه صبر الى أن دخل أبوه الى خلوته التي اعتاد أن يدخلها ويختلي فيها كل سنة فجمع أرباب الدولة في الخفية لئلا يدري به أحد فيعلم أباه وقال لهم : اعلموا أنكم قد ملكتم هذا الملك وان أبي يريد أن يسلمه الى العرب لانني فهمت من كلامه ذلك . فقالوا أيها الملك أنت تعلم أن هذا الامر مرجعه اليك ، وأنت ولي عهده فاعمل أمرا يعود صلاحه عليك وعلينا . قال فطلب صاحب شراب أبيه وأعطاه ألف دينار ووعده بكل جميل وأعطاه سما وقال له ضعه في شرابه . قال ففعل الساقي ما أمر به وسقى الملك فمات فأتى الساقي الى أرسطوليس وأعلمه ان أباه قد مات فذهب اليه ودفنه في الخفية وقتل الساقي وجلس على سرير الملك كأنه نائب عن أبيه اذا غاب كعادته في كل عام ولم يعلم أحد بموته ، هذا ما كان منه وأما عمرو بن العاص فانه ارتحل من بلبيس ونزل على قليوب وبعث الى أهل البلاد والقرى وطيب خواطرهم وقال لهم : لا يرحل أحد من بلده ، ونحن نقنع بما توصلونه الينا من الطعام والعلوفة فأجابوا الى ذلك وارتحل من قليوب ونزل على بحر الحصى فارتجت بنزولهم اليها ووقع التشويش فيهم وعلا الضجيج وأغلقوا الدروب والدكاكين ووقف أهل كل درب على دربهم بالسلاح ليحموا حريمهم . قال وأما عمرو بن العاص فانه أمر أهل اليمن ومن معه من العربان أن يحدقوا بالبلد ، وأن أهل البلاد أقبلت اليهم بالعلوفة والطعام والخيرات وهم يردون عليهم من كل فج .

ثم ان عمرا أراد أن يرسل الى صاحب مصر رسولا ، وكان عنده غلام له

من أهل الرملة ، وكان اسمه وردان ، وكان يعرف سائر الألسن ، فقال لـه عمرو. يا وردان اني أريد أن أرسلك الى هؤلاء القبط فانك تعرف بلسـانهم ولا تظهر لهم أنك تعرفه ، فقال سمعا وطاعة ، فقال أريد أن أكتب معك كتابا وهم أن يكتب واذا برسول أرسطوليس قد أقبل وقال : يا معاشر العرب ان ولي عهد الملك يريد منكم أن تبعثوا له رجلا منكم ليخاطبه بما في نفسه فلعل الله ان يصلح ذات بينكم • فقال عمرو ليزيد بن ابي سفيان ولهاشم الطائي ولعبدالله بن جعفر الطيار وللنعمان بن المنذر ولسعيد بن وائل : اعلموا أني قد ضربت على ملوك الروم ولست أرى من يتكلم مثلي وما يسير الى هؤلاء الا أنا فاني أريد أن أرد القوم وأنظر حالهم وما هم فيه من القوة وأن لا يخفى عليّ شيء من أمرهم ، فقالوا يا صاحب رسول الله (ص) قوّى الله عزمك وما عندنا الا النصيحة للدين والنظر في مصالح المسلمين فافعل ما أردت تعان • فقال لشرحبيل قد قلدتك أمور المسلمين فكن مكاني حتى أمضي الى القوم وآتيكم بما فيه • فقال له شرحبيل الله يوفقك ويسددك •

قال فلبس عمرو ثوبا من كرابيس الشام وتحته جبة صوف وتقلد بسيفه وركب جواده وسار ومعه غلامه وردان وسار السلانة الى قصر الشمع ، واذا هم بالمواكب مصطفة والعساكر واقفة وهم بالدروع والجواشن والعدد ، وقـد أظهروا ما أمكنهم من القوة ، فلما وصلوا الى قصر الملك أخبروا ارسطوليس أن رسولك أتى بواحد من العرب فأمرهم باحضاره فدخل عمرو راكـبا وهو متقلد بسيفه ، فأراد الحجاب أن ينزلوه عن جواده فأبى وان يأخذوا سيفـه فأبى ، وقال ما كنت بالذي أنزل عن حصاني ولا أسلـم سيفي • فان أذن صاحبكم ان أدخل على حالتي والا رجعت من حيث أتيت فاننا قوم قد أعزنا الله بالايمان ونصرنا بالاسلام فما لنا أن ننزل لأهل الشرك والطغيـان ، وأنتم طلبتمونا ونحن لم نطلبكم فأعلموا الملك بما قاله • فقـال أرسطوليس دعوه يدخل كيف شاء ، فخرجوا اليه وقالوا له ادخل كيف أردت فدخل عمرو وهو راكب حتى وصل الى قبة الملك ورأى السريرية والحجاب وقوفا والبطارقة وهم في زينة عظيمة ، فلما رأى عمرو ذلك تبسم وقرأ ــ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خيرا وأبقي للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ــ • قال وكان قصر الملك قد بناه الريان بن الوليـد بن أرسلاووش وهو الذي استخلف يوسف على مصر بعد العزيز • ثم خرب وأقام خرابا خمسمائة سنة وما بقي الا أثره ، فلما بعث عيسى وانتشرت دعوته ورفعه الله اليه وافترقت أمته فرقا وادعوا فيه ما ادعوا من الالهية وتقوّل الكذب ولي مصر رجاليس بن مقراطيس فبنى ذلك القصر الخراب ، وهو في وسط قصر الشمع ، وانما سمي قصر الشمع لانه لا يخلو من شمع الملوك ، فلما بناه أحضر الحكماء الذين كانوا

قد بنوا في برية اخميم ، وكان المقدم عليهم قربانس • فقال لهم اني قد قرأت كثيرا من الكتب التي أنزلت على الانبياء من الله وقرأت صحف موسى ، ورأيت أن الله يبعث نبيا قوله حق ودينه صدق ، أخلاقه طاهرة وشريعته ظاهرة ، وقد بشر به المسيح فما تقولون فيه ؟ فقال قربانس الحكيم : ان الذي قرأته هو الصحيح • قال فثم من يخالف ذلك ؟

فالوا نعم : قال الحكيم أريد أن أصنع تمثالا من الحكمة ونجعله بيتا للعبادة ، ونجعل على هيكلها تماثيل يكون وجوهها مما يلي التمثال بأعلى قصرك • فاذا جاء وقت مبعث هذا النبي يحول كل تمثال وجهه عن صاحبه • وأما الذي يجعل على الكنيسة • فانه عند مبعث النبي العربي يقع على وجهه ويكون موضع عبادة القوم واقامة شرعهم • قال فأخذوا في عمل الحكمة وأقاموا التماثيل على ما ذكرنا ، فلما بعث النبي (ص) حول كل شخص وجهه عن صاحبه وسقط الذي كان على سطح الكنيسة ، وهو الجامع اليوم • وأما التمثال العالي فبقي على حاله بأعلى القصر ، فلما دخل عمرو بجواده سمعوا من التمثال صوتا عظيما • ثم انه سقط على وجهه فارتاع له الملك وأرباب دولته وصكوا وجوههم ودخل الرعب في قلوبهم ، وقالوا بلسانهم ما وقع هذا التمثال الا عند دخول هذا العربي وما جرى هذا الا لأمر عظيم ، ولا شك أنه هو الذي يفلح دولتنا ويأخذ ملكنا فامروا عمرا أن ينزل عن جواده فنزل وترجل وجلس حيث انتهى به المجلس وأمسك عنان جواده بيده ويده اليسرى على مقبض سيفه ونظر الى زينتهم وزخرفة قصرهم فقرأ — ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وان كل ذلك لمن متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين — ، ثم قال اعلموا أن الدنيا دار زوال وفناء ، والآخرة هي دار البقاء • أما سمعتم ما كان من نبيكم عيسى وزهده وورعه كان لباسه الشعر ووساده الحجر وسراجه القمر ، وقد قال نبينا (ص) « ان الله أوحى الى عيسى أن نح على نفسك في الفلوات ، وعاتبها في الفلوات ، وسارع الى الصلوات ، واستعمل الحسنات ، وتجنب السيئات ، وابك على نفسك بكاء من ودع الاهل والاولاد ، وأصبح وحيدا في البلاد ، وكن يقظان اذا نامت العيون خوفا من الامر الذي لا بد أن يكون » فاذا كان روح الله وكلمته خوف بهذا التخويف فكيف يكون المكلف الضعيف ، وأول من تكلم في المهد • قال اني عبدالله فاذا كان أقر لله بالعبودية فلم تنسبون اليه الربوبية ، تعالى الله ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ولا أشرك في حكمه أحدا ، جل عن الصاحبة والاولاد ، والشركاء والاضداد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك له ولا وزير ،

ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء ، ولا يحويه مكان ، ليس بجسم فيمس ولا بجوهر فيحس لا يوصف بالسكون والحركات ، ولا بالحلول والكيفيات ، ولا تحتوي عليه الكميات ولا المنافع ولا المضرّات • ثم انه قرأ — ان كل من في السموات والارض الا آتي الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدّهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا — • فقال له الوزيرَ أصح عندكم معاشر العرب ان المسيح تكلم في المعهد ؟• قال نعم : قالوا له فهذه فضيلة قد انفرد بها عن جميع الأنبياء ، فقال عمرو قد تكلم في المهد أطفال منهم صاحب يوسف وصاحب جريج وصاحب الأخدود وغيرهم ، فقالوا يا عربي أتكلم نبيكم بغير العربية ؟ قال لا قال الله في كتابه — وما أرسلنا من ر سول الا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء — قالوا : أبعث الله منكم أنبياء غير نبيكم؟• قال نعم : قالوا من ؟• قال صالح وشعيب ولوط وهود • قال فلما سمعوا كلام عمرو وفصاحته وجوابه الحاضر ، قالوا بالقبطية للملك ان هذا العربي فصيح اللسان جريء الجنان ، ولا شك أنه المقدّم على قومه وصاحب الجيش فلو قبضت عليه لانهزم أصحابه عنا • قال وغلام عمرو وردان يسمع ذلك ، فقال الملك انه لا يجوز لنا أن نغدر برسول ، لا سيما ونحن استدعيناه الينا ، فقال وردان بلسان آخر ما قالوه ففهم عمرو كلامه •

ثم ان الملك قال يا أخا العرب ما الذي تريدون منا ؟ وما قصدنا أحد الا ورجع بالخيبة وانا قد كاتبنا النوبة والبجاوة وكأنكم بهم قد وصلوا الينا • فقال عمرو : اننا لا نخاف من كثرة الجيوش والأمم ، وان الله قد وعدنا النصر وأن يورثنا الأرض ونحن ندعوكم الى خصلة من ثلاث • اما الاسلام • واما الجزية • واما القتال • فقالوا انا لا نبرم أمرا الا بمشورة الملك المقوقس ، وقد دخل خلوته ، ولكن يا أخا العرب ما نظن أن في أصحابك من هو أقوى منك جنانا ولا أفصح منك لسانا • فقال عمرو أنا ألكن لسانا ممن في صحابي ومنهم من لو تكلم لعلمت أني أقاس به • فقال الملك هذا من المحال أن يكون فيهم مثلك ، فقال ان أحب الملك أن آتيه بعشرة منهم من يسمع خطابهم • فقال الملك ارسل فاطلبهم ، فقال عمرو لا يأتون برسالة ، وانما ان أراد الملك مضيت وأتيت بهم • فقال الملك لوزرائه اذا حضروا قبضنا عليهم والأحد عشر أحسن من الواحد ووردان يفهم ذلك ، ثم ان الملك قال لعمرو امض ولا تبطىء علي فوثب عمرو قائما وركب جواده ، فقال الملك بالقبطية لاقتلنهم أجمعين ، فلما خرج من مصر ، قال له وردان ما قاله الملك ، فلما وصل الى الجيش أقبلت الصحابة وسلموا عليه وهم يقولون والله يا عمرو لقد ساء تبك الظنون ، فأقبل يحدثهم بما وقع له معهم وبما قالوه وبما قاله

وردان فحمدوا الله على سلامته وكان أقبل الليل ، فلما أصبح صلى عمرو بالناس صلاة الفجر وأمرهم بالتأهب للقتال واذا برسول الملك قد أقبل وقال له أن الملك ينتظرك أنت والعشرة ، فقال عمرو : ان الغدر يهلك أصحابه وأهله وان على الباغي تدور الدوائر ، يا ويلكم ينفذ صاحبكم يطلب منا رسولا ، فلما أتيته أراد أن يقص علي ، وقال كذا وكذا فأنت يا ويلك ما الذي يمنعني عنك اذا أردت قتلك ولسنا نحن ممن يخون ويغدر ارجع اليه وقل له اني فهمت ما قاله وما بقي بيننا وبينه الا الحرب • قال ابن اسحق رحمه الله ورضي عنه هكذا وقع له مع القبط ، وكان عمرو اذا ذكر ذلك يقول لا والذي نجاني من القبط • قال وعاد الرسول وأخبر الملك بما قاله عمرو ، فعند ذلك قال : أريد أن أدبر حيلة أدهمهم بها ، فقال الوزير : اعلم أيها الملك ان القوم متيقظون لانفسهم لا يكاد أحد أن يصل اليهم بحيلة ولكن بلغني أن القوم لهم يوم في الجمعة يعظمونه كتعظيمنا يوم الأحد ، وهو عندهم يوم عظيم وأرى لهم من الرأى أن تكمن لهم كمينا مما يلي الجبل المقطم • فاذا دخلوا في صلاتهم يأتي اليهم الكمين ويضع فيهم السيف • قال فأجابه الملك الى ذلك وأقاموا ينتظرون ليلة الجمعة • قال وأما عمرو فانه أرسل يوقنا الى القرى التي صالحوها ليأتيه منها بما يأكلونه ويعلفون به خيلهم قال فركب يوقنا الى القرى التي صالحوها وسار في عسكره وبني عمه الى ما يأتي به ومضى نحو الجرف ، وكان معهم جواسيس الملك في عسكرهم فاتوا الى الملك وأخبروه بما جرى من المسلمين ، فعندها دعا بابن عمه ماسيوس وهو المقدم على جيوش مصر ، وقال له اختر من جيوشنا أربعة آلاف وأمض بهم واكمن وراء عسكر المسلمين من جهة الجبل ، واياك أن يظهر عليكم أحد وليكن لكم ديدبان • فاذا دخل القوم في صلاتهم فاحملوا عليهم وضعوا فيهم السيف • قال ففعل ماسيوس ما أمره به الملك ومضى في الليل من نحو مغارة السودان ولم يعلم بهم أحد ، فلما كان وقت صلاة الجمعة أتاهم الديدبان وأعلمهم أنهم دخلوا في الصلاة وكانوا قد أخذوا بغالا ودواب وحملوها برا وشعيرا وكان قد قال لهم اذا أردتم أن تحملوا عليهم فقدموا الحمول أمامكم فانهم يأمنون ويحسبون أنها هي التي مضى صاحبهم يأتي بها قال ففعلوا ذلك •

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمارة بن وهب عن سعيد بن عامر سليمان بن ناقد عن عروة عن جابر عن محمد بن اسحق قال : هكذا دبر عليهم القبط وكان بين القوم وبينهم نصف ميل ، وليس عند المسلمين خبر ما صنع المشركون ، وكان سعيد بن نوفل العدوي يقول لعمرو أيها الأمير ما الذي يمسكنا عن قتال هؤلاء القبط فيقول والله ما تأخري جزع وانما قد علمتم

قصد هذا الملك المقوقس وما عليه من الدين والعقل وهو مقرّ بنبوةّ نبينا وقد دخل الى خلونه التي سنها لنفسه في هذا الشهر المعظم ، وقد بقي منه خمسة أيام ويظهر ونبعث اليه رسولا ونرى ما يكون جوابه ؟ فاما الصلح ، واما القتال . قال فبينما هم يتحادثون في ذلك اذ أتاهم رسول من عند أرسطوليس بن المقوقس ، وقال لهم معاشر العرب ان ولي عهد الملك يسلم عليكم ويقول لكم أني لا أقدر أن أحدث أمرا حتى يخرج الملك من خلونه ، وقد بقي له خمسة أيام وهو يدبر في رعيته بما يشاء . فقال له عمرو : قد علمنا ذلك ولولا الملك وما نعلم منه أنه يحب نبينا وأنه مؤمن به ما أمهلناكم طرفة عين ، فمضى الرسول . قال ابن اسحق وما بعث هذا اللعين هذا الرسول الا ليطمئن المسلمون وليقضي الله أمرا كان مفعولا واذا جاء القدر لا ينفع الحذر واذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه .

(قال الراوي) فكان المسلمون قد أطمأنت قلوبهم بذلك الخبر وقربت الصلاة فقام عمرو وخطبهم خطبة بليغة حذر فيها وأنذر ، فلما فرغ أقيمت الصلاة وأقاموا مواليهم يرقبون مخافة العدوّ أن يكبسهم في صلاتهم . قال صابر بن قيس ونحن لا نرى أحدا من أهل مصر لا فارسا ولا راجلا قال فاصطففنا خلف عمرو للصلاة ، وليس بينا لنا عدوّ نخافه ، فلما أحرمنا وقرأ عمرو ركعنا وأومأنا للسجود اذ أشرفت الدواب والبغال وعلى ظهورها الأحمال والعسكر من ورائها وهم أهل الكمين الذي أكمنه أعداء الله وهم على عدد أصحابنا الذين مع يوقنا فلما رآهم موالينا ظنوا أنهم أصحابنا وقد أقبلوا بالعلوفة فرفعوا أصواتهم بالفرح وقالوا جاء يوقنا وأصحابه ولم يكلمهم العدوّ حتى أتونا ونحن في الصلاة ووضعوا السيف فينا ونحن ساجدون السجدة الأخيرة ونحن بين يدي الله تعالى قال واذا بالسيوف تقرقع في لحومهم وما أحد منهم قام من سجوده وكان القتل في آخر صف من المصلين والصف الذي يليه وهم من اليمين ومن بجيلة ومن وادي القرى ومن الطائف ومن وادي نخلة ، ثم قال ابن عتبة وكنت قد شهدت وقائع الشام وحضرموت واليرموك فوالله ما قتل منا في وقعة من الوقائع مثل ما قتل منا يوم بحر الحصى في أرض مصر بالحيلة التي دبرها عدوّ الله علينا ، وقال والله ما منا من انحرف عن صلاته ولا حوّل وجهه عن ربه وقد أيقنا بالهلاك عن آخرنا حتى أشرف علينا يوقنا بأصحابه ، فلما نظروا ما حلّ بالمسلمين صاحوا ورموا ما على رؤوسهم من العمائم وقال يوقنا لبني عمه والله من قصر منكم عن عدوّه فالله يطالبه به يوم القيامة وما أرى الا أن الاعداء قد غدروا وكبسوا المسلمين فدوروا من حولهم وضعوا السيوف فيهم واحذروا أن ينفلت منهم

أحد، فحملوا وأطبقوا على القبط فدفعوهم عن أصحاب رسول الله (ص) ولم يزل القتال بينهم حتى فرغ عمرو من الصلاة هو ومن معه وثاروا ثوران الاسد وركب عمرو ومعاذ وسعيد بن زيد وجميع الصحابة وحملوا في العدو وطحنوهم طحنا . قال جابر بن أوس وحلنا بينهم وبين الوصول الى مصر فوالله ما نجا منهم أحد وبقوا كأنهم طيور وقعت عليهم شبكة صياد ، فلما وضعت الحرب أوزارها هنأ المسلمون بعضهم بعضا بالسلامة وشكروا الله على ما أولاهم من نصره وأثنوا على يوقنا خيرا وافتقدوا قتلاهم فكانوا أربعمائة وستة وثلاثين قد ختم الله لهم بالشهادة . قال واتصل الخبر الى أرسطوليس بقتل ابن عمه ، ومن معه وانهم لم ينج منهم أحد فصعب عليه ذلك وأيقن بهلاكه ، فدعا ببطارقته وأرباب دولته وشاورهم في أمره فقالوا أيها الملك أنت تعلم بأن الدنيا ما دامت لأحد ممن كان قبلك حتى تدوم لك وما زالت الملوك تنكسر وتعود وما أنت بأكثر ممن انهزم من ملوك الارض ، وقد سمعنا أن داونوس بن أردين بن هرمز بن كنعان بن يزحور الفارسي هزمه الاسكندر الرومي سبعين مرة فأخرج الى لقاء القوم واضرب معهم مصافاً ولا تيأس وهؤلاء القسوس والرهبان والشمامسة والمطران والبترك يدعون لك بالنصر . قال فعوّل على لقاء المسلمين وفتح خزائن أبيه وأنفق على الجند وأعطاهم السلاح وطلب شباب مصر وأمرهم بالخروج وبعث يستنجد بملك النوبة وملك البجاوة وأقام مدّة ينتظر قدومهم .

قال حدّثنا محمد بن اسحق القرشي عن عقبة بن صفوان عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه قال : لما كان من أمر المسلمين ما ذكرنا مما قدّره الله عليهم من كبسة عدوّهم كتب بذلك عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب (رضي) : بسم الله الرحمن الرحيم . من عمرو ابن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، سلام عليك واني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه . أما بعد فقد وصلت الى مصر سالما وجرى لنا على بلدة بلبيس مع ابنة المقوقس كذا وكذا ونصرنا الله عليهم ورحلنا الى بحر الحصى وقد كنا صالحنا قوما من أهل قرى بلاد مصر ببلاد يقال لها الجرف حتى يعينونا بالعلوفة والميرة ويجلبوا الينا الطعام واني أرسلت عبدالله يوقنا ليشتري لنا منهم طعاما ومضى في خيله وسرت بنفسي رسولا الى مخاطبة القوم فهموا بالقبض عليّ ونجاني الله منهم وانهم أكمنوا لنا كمينا من الليل وأشغلونا برسول والكمين كان من الليل ، فلما استوت صفوفنا للصلاة كبسوا علينا ونحن في الصلاة فلم نشعر حتى بذلوا فينا السيف وقتلوا منا اربعمائة وستة وثلاثين رجلا والاعيان منهم ستون ختم الله لهم بالشهادة ، ونحن الآن في بحر متلاطم أمواجه من كثرة القوم والعساكر فانجدنا يا أمير المؤمنين وأدركنا بعسكر ليعيننا على عدوّنا

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وختم الكتاب واعطاه عبدالله بن قرط ، فسار من ساعته وجدّ في السير الى أن وصل المدينة فقدمها في العشر الاوسط من شوّال سنة اثنتين وعشرين من الهجرة فأناخ مطيته بباب المسجد ودخل فرأى عمر بن الخطاب عند قبر رسول لله (ص) • قال ابن قرط فدفعت الكتاب اليه فنظر اليّ ، وقال عبدالله ؟• قلت نعم : قال من أين أتيت ؟• قلت من مصر من عند عمرو بن العاص • قال مرحبا بك يا ابن قرط ثم فك الكتاب وقرأه وقال : لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، ثم قال من ترك الحزم وراء ظهره تباعدت عنه فسيحات الخطا ، ووالله ما علمت عميرا الا حازم الرأي مليح التدبير ، ضابط الامر ، حسن السياسة ولكن اذا نزل القضاء عمي البصر ، ثم انه كتب كتابا الى أبي عبيدة وذكر له ما جرى لعمرو بن العاص بمصر وأمره أن ينفذ اليه جيشا عرمرما ، وأنفذ الكتاب مع سالم مولى أبي عبيدة قال عبدالله بن قرط فأقمت في المدينة يومين واستأذنته في المسير فزوّدني من بيت المال وكتب الى عمرو يقول : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص • أما بعد : فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي وأسلم على سيدنا محمد (ص) ، وقد بلغني ما جرى لكم بمصر من غدر عدوّكم كما سبق في أم الكتاب ، وكان يجب عليك يا بن العاص أن لا تطمئن الى عدوك ولا تسمع منه حيلة ، وما كنت أعرفك الا حسن الرأي والتدبير ولكن ليقضي الله أمرا كان مفعولا ، فاستعمل النشاط في أمرك ولا تأمن لعدوّك واستعمل الحذر فان الامام ما يكون الا على حذر والله يعيننا واياك على طاعته وقد أنفذت الى أبي عبيدة أن يرسل اليكم جيشا ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته • وختمه وسلمه لعبدالله ابن قرط • قال فأخذته وسرت وأنا أجدّ السير حتى أتيت مصر ودفعت الكتاب لعمرو بن العاص فقرأه على المسلمين ففرحوا بذلك وأقاموا ينتظرون اخوانهم •

كبسة الجيش

حدّثني ابن اسحق حدّثني سهل بن عبد ربه عن موسى عبد الرزاق • قال : لما كبس ابن المقوقس جيش المسلمين ورجعت دائرة السوء عليه وقتلوا عن آخرهم وبلغه الخبر بكى على ابن عمه وحلف بما يعتقده من دينه انه لا بد له أن يأخذ بثأرهم ، ثم أنه أمر أرباب دولته أن يجتمعوا بالكنيسة المعلقة في داخل قصر الشمع فاجتمعوا فجلس على سرير عند المذبح وقام فيهم خطيبا • فقال : يا أهل دين النصرانية وبني ماء المعمودية اعلموا أن ملككم عقيم وبلدكم عظيم وهذه بلاد الفراعنة ممن كان قبلكم وقد ملكها عدة ملوك ممن احتوى على الاقاليم وملكها مثل الملك المعظم من آل حمير ومثل مستفان والبستق

والملحان وهو باني هذه الاهرام ونمروذ ابن كنعان ولقمـان بن عـاد ، وذي القرنين الملك العظيم وانقضى ملكهم منها ورجع الى سبأ وأرضها وحضرموت وقصر عمان ، ثم تولى هذه الارض القبط من آبـائكم وأجدادكـم اطسليس وبلينوس والريان بن الوليد وهو الذي استخلص يوسف لنفسه والوليد وهو المكنى بفرعون ، وبعدهم طبلهاوس ثم جدي راعيل ، ثم أبي المقوقس وجميع ملوك الارض تحسدنا على ملك مصر وهؤلاء العرب الطماعة ، وليس في العرب أطمع منهم فاني أراكم قد كسلتم وفشلتم عن لقائهم فطمعوا فيكم وفي ملككم كما طمعوا في ملك الشام وانتزعوه من أيدي القياصرة فقاتلوا عن أموالـكم وحريمكم وأولادكم ، وأما أنا فواحد منكم ، واعلموا أن الملك المقوقس قد أمرني بلقاء هؤلاء العرب وقال انه لا يظهر اليهم حتى أرى ما يظهر من قومي وأرباب دولتي فما تقولون وما الذي اجتمع عليه رأيكم ؟ فقالوا أيها الملك انما نحن عبيد هذه الدولة وغلمانها فانها قد استعبدت رقابنا بنعمتها واحسانها ، ونحن نقاتل لمحبتها فاما أن نرزق النصر من المسيح واما أن نموت فنستريح ۰ قال فسكر قولهم وخلع علي أكابرهم وقال لهم اخرجوا واضربوا خيامكم ظاهر البلد مع القوم وطاولوهم بالمبادرة الى أن يأتي الينا نجدة من ملك النوبة والبجاوة فأجابوا الى ذلك وأمروا غلمانهم بأن يضربوا الخيام خارج البلد فضربوها مما يلي النور والرصد ۰

قال ابن اسحق : وفي ليلتهم تلك جاءتهم الأخبار بأنه وقع بين ملـك النوبة وملك البجاوة حرب وانه ما يجيبكم منهم أحد وأخرجوا للملك ارسطوليس سرادقا معظما وسط جيش القبط ۰ قال وأخذ المسلمون على أنفسهم وأقبلوا يحرضون بعضهم ويحرسون قومهم بالنوبة ، فكان عمرو في أول الليـل يطوف حول العسكر ومعاذ اذا انتصف الليل ويزيد بن أبي سفيان في آخـر الليل والنور على عسكرهم والايمان لائح عليهم وأصواتهم مرتفعـة بالقرآن وبذكر الله وبالصلاة على نبيه (ص) قال ابن اسحق ، فلما وصـل كتاب عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة وقرأه على المسلمين قال لخالد بـن الوليـد يا أبا سليمان ما ترى من الرأي ؟ فقال اذا كان أمير المؤمنين أمرك أن تنجد عمرو بن العاص فانجده ۰ فقال أبو عبيدة ان الطريق الى مصر بعيد وان أنا أرسلت جيشا كبيرا خفت عليه من بعد الطريق ومن المشقة فقال خالـد كم جهدك أن ترسل ؟ قال أربعة آلاف فارس ۰ فقال خالد ان الله كفاك ذلك قال وكيف ذلك يا أبا سليمان ۰ ؟ قال ان عزمت على ما ذكرت فابعث أربعة من المسلمين فهم مقام أربعة آلاف فارس ۰ فقال أبو عبيدة من الأربعة ؟ ۰ قـال خالد أنا أحد الأربعة والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر ومالك بن الحرث ،

فلما سمع أبو عبيدة ذلك تهلل وجهه وقال يا أبا سليمان افعـــل ما تراه فدعاهم خالد وأعلمهم بما عزم عليه ، فقالوا سمعا وطاعة فقال خـــذوا على أنفسكم فنحن نسير هذه الليلة • قال فلما صلى أبو عبيدة بالناس صـــلاة المغرب قدم الثلاثة الى قبة خالد فركبوا وودعوا أبا عبيدة والمسلمين وأخذوا معهم دليلا يدلهم على الطريق الى وادي موسى والشوبك وأخذوا معهم مـــا يحتاجون اليه وساروا يريدون مصر فما زالوا يجدّون الى أن قربوا من عقبة أيلة واذا هم بخيل ومطايا تزيد على ألف فارس فأسرعوا اليهم فاذا هم مـــن ثقيف وطي ومرداس قد وجههم عمر بن الخطاب الى مصر مع رفاعة بـــن قيس وبشار بن عون • قال فلما رأوهم سلموا عليهم ورحبوا بهم واستبشـــروا بالنصر لما رأوا خالدا وعمارا والمقداد ومالكا وارتفعت أصواتهم بالتهليـــل والتكبير وساروا بأجمعهم •

قال **حدّثنا** يوسف بن يحيي عن دارم عن منصور بن ثابت قال كنت في جملة الوفد الذي وجهه عمر (رضي) مع رفاعه وبشار والتقينا بخالـــد بن الوليد وأصحابه عند عقبة أيلة وسرنا معهم حتى وصلنا أرض مصر وقربنـــا وبقي بيننا وبينها يومان ، فبينمانحن نسير في بعض الليالي وكانت ليلـــة مظلمة لا يكاد الرجل أن يرى من شدة الظلام اذ سمعنا حسا بالبعد منـــا فوقفنا • فقال خالد أيكم يأتينا يا فتيان العرب بخبر هؤلاء الذين في هـــذا الجيش قال نصر بن ثابت وكنت راكبا فقفزت من ظهر ا لراحلة وسعيت على قدمي وأخفيت حسي الى أن تبين لي جيش كثير فتحققت أمرهم فاذا هـــم جيش من العرب المتنصرة وهم يزيدون على ثلاثة آلاف وهم ركبان المطايـــا والخيل • فقلت والله لاعدت الى أصحابي الا بالخبر اليقين • قال فانبعـــت أثرهم لأسمع ما يقولون وما يتحدثون فمشيت معهم قليلا فأسمعهـــم يقولون أذلّ الصليب أعداءنا فانا قد أصابنا التعب ولحقنا الجهد ومن وقت خروجنا من مدين لم نجد أحدا ومصر قد قربنا منها فانزلوا لنأخذ راحة ونريح مطايانا ونعلق على خيلنا واذا بمقدمهم يقول : وحق المسيح ما بغيتنا الا في الخلـــع والأموال من ملك مصر ولكن اذ عوّلتم علي الراحة فانزلوا قال فنزل القـــوم على ماء يعرف بالغدير وأقبلوا يجمعون الشيح ويصنعون لهم الزاد وعلقـــوا على خيولهم وتركوا ابلهم ترعى • قال نصر بن ثابت فعلمت أن ا لقوم مـــن متنصرة العرب فتركتهم وأتيت الى أصحابي وحدثتهم بذلـــك فحمـــدوا الله كثيرا وأثنوا عليه وقالوا لخالد ما الذي ترى ؟• فقال أرى أن تركبوا خيلكم الآن وتستعدّوا للحرب ونسير اليهم ونكبسهم فانهم قد أتوا لنصرة صاحب مصر وما أتوه الا بمكاتبة لهم يستنجد بهم على أصحابنا ، قـــال فلبســـوا

سلاحهم وركبوا الخيل وتركوا مواليهم مع المطايا والرجال وساروا خيلا ورجالا الى أن قربوا من نيران القوم فصبروا حتى خمدت وناموا فتسللوا عليهم كتسلل القطاة فقال خالد : دوروا بالقوم ولا تدعوا أحدا منهم ينفلت من أيديكم فيثير عليكم عدوّكم ، قال فداروا بهم كدوران البياض بسواد الحدق وأعلنوا بالتهليل والتكبير ووضعوا فيهم السيف فما استيقظ أعداء الله الا والسيف يعمل فيهم ووقعت الدهشة في القوم وهم في أثر النوم فقتل بعضهم بعضا ووقف ابن قيس ومعه جماعة على البعد منهم وبشار ورفقته وكل من انهزم أخذوه ، فلما أصبحنا راينا القتلى منهم ألفا وأسرنا منهم ألفا فعرضوهم على خالد فقال حدثوني من أين جئتم والى أين مقصدكم ؟٠

فقالوا انا قوم من متنصرة العرب وكلنا كنا أصحاب الشام ، فلما هزمتم الملك هرقل رحلنا من أرض الشام ونزلنا أرض مدين ونحن على خوف منكم وكاتبنا صاحب مصر وهو المقوقس لعله أن يأذن لنا أن نكون من أصحابه ونكون له عونا عليكم ، فلما أجابنا الى ذلك بعثنا الخيل العربية الى وليّ عهده وصاحب الامر من بعده ، فلما كان في هذه الايام جاءتنا خلعة ورسالة بالدخول الى مصر فرحلنا اليهم فوقعتم بنا ، فلما سمع خالد منهم ذلك قال « من حفر لمسلم قليبا أوقعه الله فيه قريبا » ثم عرض عليهم الاسلام فأبوا فأمر بقتلهم فقتلناهم عن آخرهم وقسمنا رحالهم وما كان معهم ووجدنا معهم الخلع التي وجهها اليهم ابن المقوقس ففرقها خالد على المسلمين وفيها خلعة سنية وكانت لمقدّم القوم فأعطاها رفاعة وساروا حتى قربوا من الجبل المقطم فرأوا جيش القبط فأرسل خالد رجلا من قبله وهو نصر بن ثابت وقال له : امض الى هذا الملك وقل له ان العرب أصحاب مدين قد أتوا لنصرتك قال فمضى الرجل الى أن وصل الى عسكر القبط فأخذه الحرس وقالوا له من أنت ؟ قال أنا مبشر الملك بقدوم العرب المتنصرة الى نصرته قال ابن اسحق فأخذوا نصر بن ثابت وأتوا به الى سرادق الملك ٠ قال فلما وقفت بين يديه ناداني الحجاب أن اسجد للملك ففعلت وأنا أسجد لله تعالى حتى لا ينكروا عليّ وكان قد صح عندهم أنه من امتنع من السجود فهو مسلم ٠ قال فلما رفعت رأسي قال لي الوزير يا أخا العرب أوصل أصحابك الى نصرة الملك فقلت نعم وها هم في دير الجبل المقطم ٠ قال فلما سمع الملك ذلك أمر من حجابه أناسا أن يمضوا الى لقائهم وسرت في جملتهم وأخذوا معهم الجنائب وأظهروا زيّ الفراعنة وخلع على نصر بن ثابت عوض بشارته وساروا الى لقاء المتنصرة ٠

قال **حدّثنا** عسكر بن حسان عن رفاعة بن وس عن موسى بن

عون عن جده نعيم بن مرة ٠ قال : كنت فيمن وجه عمر بن الخطاب من أهل نخلة وكان خالد يحبني ويقرّبني لان أبي كان يسافر له ببضاعة الى سوق بصرى ٠ قال فلما رأى خالد أصحاب الملك قد أتوا قال لي خالد : يا ابن مرة أريد أن أوصيك ٠ فقلت بماذا قال : اعلم أن العدوّ قد أرسل يلاقينا وهو يظن أننا من متنصرة العرب ولا شك أن عمرو بن العاص ومن معه تجفل قلوبهم منا وأريد أن تنزل عن فرسك وتكمن خلف هذه الحجارة فاذا خلا لك الطريق فانسلّ نحو عسكر المسلمين وحدثهم بأمرنا وما قد عزمنا عليه من غدر القوم ، فان عمر لا يطمئن لغيرك وأقرئه سلامي وقلْ له يكن على أهبة فاذا سمع تكبيرنا يأمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بالتهليل والتكبير ، فان ذلك مما يزيد في رعب أعدائنا فقال نعم ٠ قال وفعلت كما أمرني خالد ونزلت عن فرسي وأسلمتها لغلامي دارم ومضيت نحو الجبل وكمنت بين الأحجار٠

(قال الراوي) وان خالد أمر أصحابه بلبس الخلع التي أرسلها لهم ابن المقوقس فلبسوها فوق دروعهم ولبس رفاعة بن قيس وبشار بن عون أحسنها وغير خالد زيه والمقداد وعمار ومالك الاشتر ٠ قال فلما وصل مقدم جيش القبط ٠ قال خالد لرفاعة وبشار ترجلوا له واصقعوا بين يديه وصلبوا على وجوهكم فليس عليكم في ذلك حرج واحلفوا بالمسيح والسيدة مريم واياكم والغلط بأن تذكروا محمدا (ص) فيظن ا لقوم بنا واجعلوا الجهاد نصب أعينكم وتوكلوا على الله في جميع أموركم قال ففعلوا ما قال لهم خالد وترجلوا عند رسول القبط وصقعوا ٠

قال **حدّثنا** نصر بن عبد الله عن عامر بن هبار قال : يا عم اعلم ان الله اذا أراد أمرا هيأ أسبابه ، وذلك أننا لما أشرفنا على اول ديار مصر نزلنا على دير يقال له دير مرقص وكان ديرا عامرا بالرهبان ، فلما نزلنا عليه أشرف علينا أهله وقالوا من أنتم ؟ قلنا نحن من أصحاب الملك هرقل ملك الشام وقد جئنا لنصرة صاحبكم فانه قد أرسل الينا يستنفرنا لأجل هؤلاء العرب ٠ قال ففرحوا بنا ودعوا لنا وكان كبيرهم والمقدم عليهم في دينهم شيخا كبيرا وكان من قسوس الشام وكان من أعلم القوم بدينهم وأعرف الناس بآل غسان وكانت الضيحا قد أقطعها هرقل للملك جبلة ابن الأيهم وكان قد جعل على جبايتها ولد هذا القس وكان اسمه نونلس ، وان المسلمين لما فتحوا بعلبك وحمص هرب هذا القس بأمواله وأولاده الى طرابلس وركب البحر في مركب وتوصل الى مصر وبلغ خبره المقوقس فأحضره وسأله عن حاله فحدّثه بأمره فخلع عليه وجعله قيما في الكنيسة المعلقة التي في قصر الشمع وصار من أصحاب سكناه في دير مرقص ولا يدخل مصر الا في أمر مهمّ ، فلما نزل

عمرو بمن معه عليهم وقتل ابن المقوقس أباه احتاج الى رأي البترك فأرسل اليه وأنزله في الكنيسة وولي البترك مكان هذا القس نونلس بن لوقا فكان في الدير فلما نزل خالد بن الوليد ومن معه على الدير • قال عامر بن المبارك النعلبي فأشرف علينا وتأملنا وكان أعرف الناس بخالد ابن الوليد لانه رآه في مواطن كثيرة من الشام وكان صاحب حمص قد أرسله رسولا الى أبى عبيدة ليصالحوهم • قال فجعل يتفقدهم وينظر في وجوههم ، ثم قال وحق المسيح ما أنتم من آل غسان وما أنتم الا من عرب الحجاز وقد جئتم لتحتالوا علينا فاني رأيت أمامكم الذي فتح الشام وقتل ملوكها وسوف أكاتب الملك بقصتكم ليقبض عليكم ، فقالوا ما عندنا خبر من الذي تقوله وقد خيل لك ذلك : أما علمت أن المسلمين ما خلوا لنا حالا وقد نهبونا وأصبحنا بالذل بعد العز والفقر بعد الغنى وقد كتب الينا ملك مصر بأن نجيء اليه فأرسل الينا بالخلع وطيب قلوبنا • قال عامر فضحك اللعين من قولي وقال لي : ان آل غسان أكثرهم بعرف بكلام الروم وحق ديني ما أنتم منهم وقد صح قولي : انكم مسلمون • فقلنا له يا ويلك لو كنا من الذين تقول عنهم ما كنا نأتيكم بالنهار وكنا نكمن ونسير في الليل حتى نصل الى أصحابنا وانك استحقرت المسيح اذ جعلتنا من أصحاب محمد فقد وقعت في ذنب عظيم ، ثم اننا بالقرب منهم • فقال أصحابه يا أبانا ليس هؤلاء القوم ممن ذكرت فلو كانوا مسلمين ما جسروا أن يدخلوا أرض مصر في ضوء النهار ولا يقربوا العمران • فقال وحق ديني : أنا أعرف الناس بهم وانهم مسلمون بلا شك فامتنعوا منهم ولا تخرجوا لهم طعاما ولا ماء وسأنفذ خبرا للملك بذلك فيكون منهم على حذر • قال عامر بن هبار وكان من لطف الله بنا، أن الرهبان الذين بالدير لما سمعوا كلامه قال بعضهم لبعض يجب علينا أن نأخذ لنا منهم صلحا فنكون آمنين من غائلتهم ولا نبرح من ديرنا هذا • فقال أكبرهم ان أنتم فعلتم ذلك فاننا لا نعلم من ينصر من الفريقين أصحابنا أم العرب ، فان كان النصر لأصحابنا خفنا من هذا القس أن يعلم بنا الملك أننا صالحنا المسلمين بغير أمره فانه يقتلنا ، وان هذا اللعين تعلمون أنه على غير مذهبنا وهو في كل يوم يكفرنا لانه نسطوري ونحن يعقوبية ، فان أنتم أردتم صلح هؤلاء العرب فدونكم وهذا القس فاقبضوا عليه وسلموه لهم وخذوا منهم أمانا • قال ففعلوا ذلك وقبضوا عليه وأشرفوا علينا وقالوا لنا : بحق ما تعتقدون من دينكم أنتم من أصحاب محمد أم لا فانا قد قبضنا على هذا اللعين ونريد أن نسلمه لكم وانكم تعطوننا أمانا فأنا قوم لا نعرف حربا ولا قتالا • فقال لهم مالك الاشتر : يا هؤلاء اما ما زعمتم

من صلحنا فانا نصالحكم وما كان أمرنا بالذي يخفى ولا نرضى بالكذب فانه أشنع شيء عندنا ، ولا سيما ان الاسلام يمنعنا من استعماله ، ولو أن السيف على رأس أحدنا اذا سئل عن دينه أجاب به وتكلم بوحدانية الله تعالى ، ونحن من أصحاب محمد (ص) ولكم الأمان وهذا أمان الله ورسوله ٠

قال فلما سمع الرهبان من مالك ذلك نزلوا وفتحوا الباب وسلموا لنا القس ٠ فقال له خالد : يا عدو الله أردت أمرا وأراد الله خلافه ، ثم انه عرض عليه الاسلام فأبى وقال أنا هربت منكم من الشام ثم أوقعني المسيح في أيديكم وما أظن الا أن المسيح مسلم فافعل ما أردت فضربوا عنقه ٠ قال عامر بن هبار : وخرج الينا أهل الدير بأجمعهم ومعهم الطعام والعلوفة فأكلنا واقمنا عندهم الى الليل ٠ فقال شيخهم الذي أشار عليهم بقبض القس الرومي لخالد : أيها السيد اني قد تفرست فيك الشجاعة فبالله من أنت من أصحاب محمد ٠ فقال أنا خالد بن الوليد المخزومي ٠ فقال أنت وحق ديني الذي فتحت بلاد الشام وأذللت ملوكها وبطارقها وان صفتك عندي ثم انه دخل الدير وأتى ومعه سفط ففتحه واذا فيه بين أوراقه ورقة وفيها صفة عمر بن الخطاب (رضي) وزيه وصورته وصورة أبي عبيدة وصورة خالد بن الوليد والسيف في يده مشهور ٠ قال ما زلت أسمع أخبارك كلها فلم عزلك عمر بن الخطاب وولى غيرك ٠ فقال خالد : اعلم أن عمر هو الامام وهو الخليفة ومهما أمرنا فلا نخالفه فان الله أمرنا بذلك في كتابه فقال تعالى ـ أطيعو الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ـ فطاعته فرض علينا لانه يحكم بالعدل ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وانا قد وجهنا اليه خمس الغنائم من الفتوح كلها من الأموال فما ازداد في الدنيا الا زهدا ولا آثر الدنيا على الآخرة بل مجلسه على التراب ولباسه المرقعة ويمشي في سوق المدينة متواضعا راجلا ، فالتواضع لباسه والتقوى أساسه والذكر شعاره والعدل في الرعية دثاره وما زال يعطف على اليتيم ويرفق بالأرملة والمسكين ويرفد أبناء السبيل ، فظ في دين الله غليظ على أعداء الله قائم بشعائر الله لا يستحي من الحق ولا يداهن الخلق ٠ فقال القس أكانت له الهيبة على عهد نبيكم ؟٠ قال خالد نعم سمعت سعد بن أبي وقاص يقول « استأذن يوما عمر فأذن له فدخل ورسول الله (ص) يضحك ٠ فقال عمر أضحك الله سنك يا رسول الله قال عجبت من هؤلاء اللواتي كن عندي ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب ٠ فقال عمر : أنت أحق أن يهبنك وقال لهن يا عدوات أنفسكن أتهبنني ولا تهبن رسول الله (ص) فقلن نعم أنت فظ غليظ دون رسول الله (ص) فقال رسول الله (ص) : والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكا فجا الا سلك فجا

غيره » . قال فلما سمع القس ذلك قال بركة نبيكم عادت على امامكم وعليكم فقال خالد وما يمنعك من الدخول في ديننا . فقال حتى يشاء صاحب هذه الخضراء ، ثم قال لخالد أريد أن أعطيكم من صلبان هذا الدير حتى تكمل حيلتكم . قال وأخرج لهم صلبانا كثيرة فأخذها خالد ودفعها لرفاعة بن قيس وبشار بن عون وتزيوا بزي الذين قتلوهم من آل غسان وارتحل خالد بعد ما وكل بالدير عشرة من أهل وادي القرى لئلا يخرج أحد بأخبارهم ويقربوا للملك بذلك . قال وعدنا الى سياق الحديث ، فلما أشرف أصحاب ابن المقوقس عليهم رأوهم وقد لبسوا خلع الملك وعلقوا الصلبان وشدّوا الزنانير ورفعوا صليبا من فضة كان قد أخرجه لهم القس فلما صقعوا للحجاب ركبوا وساروا حتى وصلوا الى سرادق الملك فترجلوا وقد أخذوا لهم اذنا فأذن لهم فدخلوا ودخل أوّلهم رفاعة وبشار ومن معه وخدموا الملك وسجدوا له ولم يدخل خالد ومن معه ووقفوا مع بقية العرب خارج السرادق ، وان الملك لما رآهم قال لهم : يا معاشر العرب أنتم تعلمون محبتنا لكم وتقريبنا لكم وقد طلبتم أن تكونوا لنا عونا على هؤلاء العرب فان نصحتم لنا في دولتنا شاركناكم في مملكتنا وقاسمناكم في ملكنا ونعمتنا . فقال له رفاعة أبشر أيها الملك سوف ترى ما نبذله في محبتك يوم الحرب . قال فخلع عليه وخرج من عنده وأمرلهم بخيام تضرب في عسكرهم .

قال **حدّثنا** عامر بن أوس عن جرير بن صاعد عن نوفل بن غانم عن سهل بن مسروق . قال لما قدم الجيش الذي وجه عمر بن الخطاب مع رفاعة وبشار وكان من أمرهم ما ذكرناه ، ونظر اليهم عمرو بن العاص ومن معه من أصحاب رسول الله (ص) أقبلوا ينظرون اليهم والى زيهم . فقال معاذ لعمرو : ما هؤلاء من المتنصرة وان نفسي تأبى ذلك . فقال عمرو والله يا أبا عبد الرحمن لقد نظرت بنور الله وانني نظرت فيهم واحدا واحدا ورأيتهم بزى وادي القرى وزي الطائف . فقال شرحبيل بن حسنة وأنا نظرت أعجب من ذلك أني رأيت خالد بن الوليد في جملتهم ولاحت لي عمامته وقلنسوته وثيابه التي كانت عليه يوم دخول طرابلس . فقال يزيد بن أبي سفيان أنا والله رأيت مالكا الاشتر النخعي وعرفته بطول قامته وركبته على فرسه ، ثم قالوا لا بدّ أن ينكشف لنا خبرهم على جليته فهم في الحديث اذ قد اتاهم نعيم بن مرة ، فلما رأوه تهللت وجوههم فرحا وسرورا ، فلما وصل اليهم وسلم عليهم وحدّثهم بالحديث كله سجدوا لله شكرا ، وقال بعضهم لبعض أيقظوا هممكم وكونوا على يقظة من أمركم ، فاذا سمعتم التكبير في عسكر العدوّ فبادروا اليهم . قال ابن اسحق ولله في خلقه تدبير ، وذلك أنه

لما جنّ الليل جمع أرسطوليس بن المقوقس ارباب دولته ، وقال لهم قد ضاق صدري من هؤلاء العرب ، وقال لهم قد غلا السعر عندنا ، لان أهل البلاد قد أجلت من خوفهم، وان خيلهم تضرب الى الريف من هذا الجانب والى الصعيد من هذا الجانب والنوبة والبجاوة ما يأتينا منهما أحد للفتنة التي هي بينهم والرأي عندي أن نحارب هؤلاء العرب صبيحة عيدهم . قالوا أيها الملك هذا هو الرأي . فقال :أخرجوا السلاح وفرقوه على من ليس معه سلاح .. هذا ما جرى عنده ، وليس عنده خبر بما جرى في قصره بعد .

نتائج المعركة

(قال ابن اسحق) وكان من حسن تدبير الله تعالى لعباده المؤمنين أنه كان للمقوقس أخ شقيق واسمه ارجانوس وكانا متحابين وكان المقوقس لا يقطع أمرا دونه وكانا اذا ركبا لا يفترقان واذا جلسا يجلسان معا على السرير وكان المقوقس قد دخل في خلوته التي ذكرنا وكان أخوه من محبته قد رتب هناك من يعرفه لما يخرج من خلوته ، فلما كان في هذه النوبة استبطأه فأتى الى ابن أخيه فرآه على السرير . فقال له ما فعل الملك ؟ فقال انه في خلوته الى الآن وقد رأى ان طالعه ضعيف مع هؤلاء العرب و قد أمرني أن أكون مكانه حتى يرى ما يريد من قتالهم أو صلحهم قال فكتم ارجانوس الأمر في نفسه وعلم ان أخاه قد قتل وكان ارجانوس ممن يعتقد نبوّة محمد (ص) ويعلم أن دعوته تطوف المشرق والمغرب ، وان الملوك تضمحل في أيام أصحابه وسينزلون على البلاد فترك أرجانوس الأمر موقوفا ولم يبد ما في نفسه لأحد ، فلما خرج ابن أخيه مع العسكر جمع ارجانوس الذين تركهم ابن أخيه لحفظ البلد في قصر الشمع ، وقال لهم : اعلموا أن العقل هو عمدة قوى ابن آدم ، لان الله قد خصه به دون سائر المخلوقات وان أخي قد قتله ولده لا محالة وقد كان محبا لكم ومشفقا عليكم ، واعلموا ان هؤلاء العرب قد كان قدامهم من ملكه أعظم من ملككم وما ثبت بين ايديهم ، وليس بين دولتكم وبين أن تزول وتضمحل الا أن يلتقي هذان الجيشان ، وان ظفر بكم هؤلاء العرب قتلوكم ونهبوكم وسكنوا في مساكنكم وأيتموا أولادكم . فقالوا أيها الملك فما يكون عندك من الرأي وما تفعل ؟ قال انـي أرى من الرأي أن تستيقظوا لأنفسكم وتغلقوا أبواب هذا القصر ولا تدعوا أحدا يدخل عليكم من جند الملك ولا هو نفسه فانهم لا يقدرون أن يقاتلوكم ، والعرب من ورائهم، وانه يعدّي الى الجانب الغربي ويمضي الى اسكندرية ونعقد لنا صلحا مع هؤلاء العرب على أنفسنا وأولادنا وحريمنا ونسلم لهم بعد ذلك ، فمن أراد يتبعهم ومن أراد يعطيهم الجزية . قال فاستصوبوا رأيه واعلموا أنه نطق

بالحق ، كان أرجانوس له في سرايته ألف مملوك · قال فاحتوى على قصر الملك وأخذ الخزائن والأموال وغلق أبواب قصر الشمع وفعل ما فعل وليس عند ابن أخيه خبر الى أن ذهب من الليل نصفه أو أكثر فجاء اليه بعض خدمة وأخبره بما فعل عمه فأيقن بتلفه وخروج ملك مصر منه · قال فبينما هو في حيرة في أمره اذ كبر خالد بن الوليد ومن معه في وسط عسكره فسمع عمرو وأصحابه التكبير فكبروا ووقعت الخذلة على الكفار وحملت فيهم المسلمون ووضعوا فيهم السيوف ، فلما نظر أرسطوليس الى ما نزل به والكبسة التي وقعت بعسكره لم يكن له دأب الا أن ركب وأحدقت به مماليك أبيه وأرباب دولته وطلبوا الهزيمة وقصدوا البحر وعدوا الجانب الغربي وطلبوا اسكندرية فجازوا على مدينة مريوط وفيها الموبذان الساقي ومعه ثلاث آلاف من عسكره ، فلما أن صاح الصائح في مصر بأن الملك انهزم وما ثبت احد من عسكر القبط وولوا والسيف يعمل فيهم وغرق منهم في البحر خلق كثير ونصر الله المسلمين وانهزموا ·

· قال ابن اسحق **حدثني** من أثق به أنه قتل في تلك الليلة من عسكر القبط خمسة آلا ف وغنم المسلمون أثقالهم وما كان فيها من الأموال ، فلما أقبل الصباح اجتمع خالد بالمسلمين وسلم بعضهم على بعض وهنوهم بالسلامة ودخلوا مصر وملكوا دورها وأحاطوا بقصر الشمع فأشرف عليهم أرجانوس بن راعيل أخو المقوقس ، وقال لهم يا فتيان العرب : اعلموا أن الله قد أمدكم بالنصر وقد فعلت في حقكم كذا وكذا ولولا حيلتي على ابن اخي لما انهزم منكم ، وقد ظفرتم الآن ونحن نسلم اليكم على شرط أنكم لا تتعرضون لنا ولا تمدون أيديكم لنا بسوء ، ومن أراد منا أن يبقى على دينه يؤدي الجزية ومن أراد أن يتبعكم يتبعكم · فقال له معاذ بن جبل : قد نصرنا الله على الكفار بصدق نياتنا وصلح أعمالنا واتباعنا للحق ، وانا ما قلنا قولا الا وفيناه ولا استعملنا الغدر ولا المكر ، وأنتم لكم الأمان على أنفسكم وأموالكم وحريمكم وأولادكم ، ومن بقي منكم على دينه فلن نكرهه ، ومن ا تبع ديننا فله ما لنا وعليه ما علينا ، فلما سمع أرجانوس ذلك نزل اليهم بالمفاتيح فأمنوه وأمنوا من كان معه في القصر ، وجمعوا أكابر مصر ومشايخها وقالوا لهم : ان الله قد نصرنا عليكم ، وقد انهزم ملككم منا وأنتم الآن في قبضتنا وقد صرتم مماليكنا ومن أسلم منكم قبلناه ومن أبى استعبدناه ، فقالوا أيها الملك ما هكذا بلغنا عنكم · قال وما الذي بلغكم عنا ؟ قالوا سمعنا عنكم أن الله قد أسكن الرحمة في قلوبكم وأنتم تعفون عمن ظلمكم وتحسنون الى من أساء اليكم وأنت تعلم أننا قوم محكوم علينا ولو كان الأمر الينا لاتبعناكم فارفقوا بنا وانظروا في

أحوالنا ، فقال عمرو لأصحابه وللأمراء : ما ترون من الرأي في أمر هؤلاء القوم ؟

فقال شرحبيل ابن حسنة اصنع ما أمر الله به من العدل فيهم وأحسن اليهم وطيب خواطرهم فاننا اذا قصدنا غير هذه المدينة وسمع أيها الأمير عنك أهل المدينة الأخرى بما فعلته مع أهل مصر يسلمون بغير منازعة ولا حرب ، فقال معاذ بن جبل وخالد بن الوليدوالمقداد وعمار ومالك وربيعة ويزيد : القول الذي قاله كاتب وحي رسول الله (ص) هو المعمول به ، ففال عمرو لأهل مصر : قد أمناكم على أنفسكم وأولادكم وحريمكم منة منا عليكم وقد وضعت عنكم جزية هذه السنة ، وفي السنة الآتية نأخذ منكم الجزية من كل محتلم أربعة دنانير ، ومن أسلم منكم قبلناه ، قال فلما سمع أرجانوس ابن راعيل كلام عمرو ،قال : لقد أنصفت وان الله بهذا نصركم وقد وقفت الآن على صحة دينكم وأنا أشهد أن الله وحده لا شريك لــه وأن محمدا عبــده ورسوله ، واشهدوا على أن كل ما تركه أخي من الأموال والأصول والثياب والمتاع هو هبة مني اليكم بما فعلتم مع أهل بلدي ٠ قال فلما نظر أهل مصر الى أرجانوس وقد أسلم دخل أكثرهم في الاسلام ، وعمد عمرو الى الكنيسة وعملها جامعا وهو المعروف به الى يومنا هذا ، وجمع الأموال التي أخذها من وراء القبط المنهزمين ومن منازلهم وما كان في قصر الملك وأخـرج الخمس وأعطى كل ذي حق حقه ، ثم كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضى) وبعث الخمس والكتاب مع علم بن سارية ، وسلم المال والكتاب له وسير معه مائة فارس وأمره بالمسير الى المدينة ، فاستلم الخمس وسار حتى قدم المدينة وسلم المال والكتاب لعمر بن الخطاب (رضى) ، فلما قرأه سجد لله شكرا وأمر بالمال الى بيت المال ٠ فقال علم بن سارية ، يا أمـير المؤمنين ان عمرا يسلم عليك ويقول لك ان القبط كانوا استسنوا سنة في نيلهم في كل سنة وذلك أنهم كانوا اذا أبطأ عليهم الوفاء في النيل يأخذون جارية من أحسن الجواري ويزينونها بأحسن زينة ويرمونها في البحر فيأتي الماء ويفي النيل وقد قرب ميقات ذلك ، ولا يفعل عمرو شيئا الا باذنك ٠ قال فكتب عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى نيل مصر ، أما بعد فان كنت مخلوقا لا تملك ضرا ولا نفعا وأنت تجري من قبل نفسك وبأمرك فانقطع ولا حاجة لنا بك ، وان كنت تجـري بحول الله وقوته فاجر كما كنت والسلام ٠ وأمره أن يدفعه لعمرو بن العاص يرميه فيه وقت الحاجة اليه ثم انه كتب : بسم لله الرحمن الرحيم ، أما بعد فالسلام عليك واني أحمد الله اليك وأصلي على نبيه ، واذا وصل اليك كتابي

فاطلب أعداء الله حيث كانوا ، واياك أن تلين جانبك لهم وانظر في أحـــوال الرعية واعدل فيهم ما استطعت ، واطلب العفو بالعفو عن الناس وأجر الناس على عوائدهم وقوانينهم وقرر لهم واجبا في دواوينهم وأعل رسوم العافيـــة بالعدل فانما هي أيام تمضي ومدة تنقضي ، فاما ذكر جميل واما خزي طويل، ثم انه سلم الكتاب الى علم بن سارية فسار هو ومن معه الى أن قدموا مصـر وسلم الكتاب الى عمرو ، فأما كتابه فقرأه على المسلمين ، وأما كتاب النيـل فانهم قد كانوا عدوا ليالي الوفاء وتوقف النيل عن الوفاء ، وقد يئس الناس من الوفاء في تلك السنة ، فمضى عمرو الى النيل وخاطبه ورمى فيه كتاب عمر بن الخطاب (رضي) · قال فلما رماه فيه هاج البحر وزاد فوق الحد ببركة عمر بن الخطاب ، وانقطعت عن أهل مصر تلك الســـنة الســـيئة ببركة عمر (رضي)·

حدثنا محمد بن يحيي بن سالم عن عدي بن يحيي بن عوف قال : لما بلغنا أن عمرو افتتح مصر وأتى الى الكنيسة المعظمة عندهم وجد في مذبحهـــا بيتا مغلقا واذا فيه صورة من الفضة وأمام الصورة شخص آخر وفي يده أعلام وهي على صفة ا لصورة التي وجدها النبي (ص) في الكعبة لما فتح مـــكة ، فدعا عمرو بالقسوس ، وقال لهم : ما هذه الصورة ؟ قالوا له هذه صـــورة ابراهيم وأبيه آزر ، فتبسم عمرو وقال ــ ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ــ فقال معاذ بن جبل لما قدمت من اليمن سمعت أبا هريرة يقول : سمعت رسول الله (ص) يقول : « يلقي ابراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجهه قترة ، فيقول له ابراهيم : ألم أقل لك لا تعصني فيقول آزر : اليوم لا أعصيك ، فيقول ابراهيم يا رب انـــك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأي خزي أخزى من هذا ؟ فيقـــول الله حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقول له يا ابراهيم انظر الى ما تحت قدميك، فينظر الى الريح وقد أخذت أباه فتلقيه في النار » قال ثم أمر عمرو بالصورتين فكسرتا ، وعبر عكر المسلمون الى الجانب الغربي ، وقد تقدم خالد فترجل الى نحو الاسكندرية وتقدم على مقدمته عبد الله يوقنا وسار يوما وليلة هو وبنو عمه وهم بزي الروم ·

ذكر فتوح مدينة مريوط

قال ابن اسحق وكان قد بلغ الموبذان الذي مع الثلاثة آلاف وهـــم في مدينة مريوط، وقد حصنها ما حصل ، فلما قدم عليه يوقنا ، قـــال له الموبذان : ما الذي أقدمك علينا ؟ فقال يوقنا ان المسلمين وجهوني اليك وهم يحرضونك على خلاص نفسك ويأمرونك بتسليم هذه المدينة اليهـــم ولك

الأمان على نفسك وأهلك ومالك ومن أردت ، ولك الخيار في المقام تحت يـد الاسلام أو الانفصال فان اخترت المقام فلا مانع يمنعك وأن اردت المسبـير أوصلناك الى أي موضع أردت ، فلما سمع الموبذان ذلك قهقه ضاحكا • وقال : وحق ديني ان الغدر شعاركم والمكر دثاركم ؛ فلا فلح من آمن لكم ، وأما أنا فلا أخون الملك في بلده وأنا وهو في أرض واحدة وسوف أبعث اليه بأن أقدم اليه وأساعده عليكم جزاء بما عملتموه من الخديعة وستعلمون على من تدور الدائرة ومن يكون المغبون في الآخرة وأنت يا معشر الروم قد كفرتم بالمسيح وجحدتم السيدة أمّ النور وخرجتم من ملة الحواريين وأردتم هؤلاء العـرب الجياع الاكباد العراة الاجساد ولن يغنوا عنكم شيئا ووحق المسيح لأبعثـن بكم الى الملك .فيقتلكم على كفركم ، وكان يوقنا قد ترك جماعته ومضـى في عشرين رجلا منهم لعله يعمل عليه حيلة ، فلما دخل عليـه أنزلـه في دار الضيافة فوضعوا سلاحهم ، فلما أكلوا الطعام وتحادثوا وكان قد فطن بهـم وأمر غلمانه أن يكونوا على حذر وأن يهجموا عليهم فيقبضوهم يريد بذلـك أن يرسلهم الى الملك الى الاسكندرية ورماهم في بيت مظلم في دار امارته وأقام ينتظر غفلة من عسكره وكانوا قد أحاطوا بالبلد ووكل بهم جارية اسمها رينا وهي أخت مارية التي أرسلها المقوقس الى رسول الله (ص) •

وكانت أختها شقيقتها وسلم اليها المفاتيح لمعزّتها عنده وقال لها احفظي عليهم لأرى ما أنظر فيهم قال فلما جنّ الليل واشتغـل عدوّ الله الموبذان بالشراب قال فصبرت رينا الى أن غرق في سكره هو ومن معه وناموا وأمنـت على نفسها فأتت الى الباب وفتحت على يوقنا وأصحابه وقالت لهم أبشـروا لا خوف عليكم فان الله قد جعل رحمتكم في قلبي وأنا أخت مارية التي أهداها المقوقس لنبيكم واني أريد منكم أن توصلوني عند أختي مارية • فقال لهـا يوقنا أبشري بما يسرك ، ولكن أخاف عليك من عدوّ الله فما ترين ؟ فقالـت والله ما جئتكم حتى سكر ونام • فقال يوقنا فعرّفينا الطريق التي نسـلكها الى قومنا قالت ان هذا المكان فيه سرب يخرج الى ظاهر البلد وهو مبني مـن قديم الزمان وبابه الخارج مبنيّ عليه قبة على أعمدة وتحتها قبر بين المقابر فكل من رآه يظن انه قبر ، وان الذي بنى هذه المدينة امرأة يقال لها فمعمان بنت عاد وصنعت هذه المقابر التي وراء التل وهي كأنها قصـور مشـيدة ، وكان فيها أناس سكنوها • فقال يوقنا : افعلي بنا ما يقربك الى الله تعـالى ورسوله ولعلك أن تنزلينا من هذا السرب حتى نذهب الى أصحابنا ونأتـي بهم من هذا ما دام الموبذان سكران وهو نائم ، فقالت : سأفعـل ذلـك ان

شاء الله تعالى غير أني أريد أن أفتح لكم باب السرب قبله حتى لا تتعوّقوا •

(قال الراوي) وقد مضت رينا أخت مارية وأشرفت على الموبـــذان • فاذا هو ومن معه صرعى من الخمر فتركتهم وعادت الى باب السرب لتفتحه ، واذا هي تسمع وراءه حسا ففزعت ووقفت تسمع •

قال حدثني عبد الرزاق بن يحيي عن سليمان بن عبد الحميد عـــن سفيان الأعمش عن أوس بن ماجـــد ، وكان ممن شهد فتـــوح مصـــر والاسكندرية • قال لما نزل خالد بن الوليد على مريوط بجيشه تفقد يوقنـا وقال لأصحابه انه من وقت أن بعثته برسالتى الى مريوط للموبذان ما عـاد قالوا أيها الامير انه من وقت ما دخل اليه ما خرج ونحن في انتظاره ، فعلـم خالد أن يوقنا مقبوض عليه فبات مهموما من أجله ، وكان خالد صاحب همة وعزيمة لا ينام من خوفه على المسلمين وكان معه جواسيس قد أخذهم معه من كل أقليم وقد اصطفاهم لنفسه وهو يحسن اليهم وأينما ذهب يكونوا معـه ليأتوه بالأخبار فبينما هو في غمّ بسبب يوقنا ، واذا هو بواحد منهم قد دخل عليه وأعلمه أن ولد الموبذان قد أتى من اسكندرية من عند أرسطوليس ومعه خلع وهدايا لأبيه ومعه خمسمائة فارس ، وقد بلغه أنكم محاصرون أباه فترك العسكر وما معه بالبعد وانفرد ومعه خادمان وأتى وما نعلم ما يريد • قال فلما سمع خالد ذلك قام وأخذ معه غلامه هماما وأربعة ممن يعتدّ بهم وأبعد وقعد على سفح التل من نحو اسكندرية ونظروا الى التل واذا بولد الموبذان ومعه الخادمان قصدوا الى وراء لتل عند تلك المقابر التي وصفتها رينا ليوقنـــا وقصدوا القبة فمشى خالد وراءهم وفرّق جماعته من أربع جهـات القبـــة وكبسهم واذاهم قد فتحوا طبقا في وسط القبة فأخذهم خالد فلما رآه الموبذان ارتعدت فرائصه وخاف فقال خالد ان صدقتموني أمنتكم وان لم تصدقونـي رميت رقابكم • فقال الغلام أنا أصدقك أنا ولد الموبذان وكنت عند الملك في اسكندرية وقد أنفذ معي خمسمائة فارس عونا لأبي وحفظا لهذه المدينة فنحن في الطريق ، واذ قد جاءتني الجواسيس بأنكم نازلون على البلد فأوقفـــت العسكر وأتيت الى هذه القبة ، فقال له خالد : وما الذي تريد من هذه القبـة ألكم فيها سلاح أم مطلب فيه مال ؟ قال لا قال فما تريد منها • قال الغلام ان أمنتني قلت لك الحق •

فقال له خالد قد أمنتك على نفسك فقبل يده وقال يا مـولاي أريـــد أمانا لأبي ، ومن يلوذ به فأعطاه ، فقال : اعلم أن هذه القبـــة على سـرب والسرب ينتهي الى دار الامارة ودار الامارة في وسط هذه المدينة ، قال فلمـــا سمع خالد ذلك تهلل وجهه فرحا وسرورا وقبض على الغلام وعلى الخادمين

وأمرهما مع واحد آخر ممن معه أن يفتحوا السرب ففتحوه فأرسل همـــاما الى العسكر وأمره بأن يأتي بهم في السرب وأن يأتوا معهـــم بالنار والزيت والقناديل وأن يسرع بذلك وكان ذلك التل عاليا والذين في المدينة لا ينظرون ما وراءه ، فلما أقبل همام بما طلبه خالد أوقدوا المسارج ونزلوا في السرب وابن الموبذان أمامهم فوصلوا الى الباب واذا برينا عند الباب تريد فتحه ليوقنا ومن معه ، فلما سمعت حسهم قالت من أنتم ؟ فقال خالد لابن الموبذ ان كلمها فقال أنا فلان بن الموبذان افتحي ولا تعلمي أبي قال فلم يبق لها بد أن تفتـح الباب ففتحت فصعد خالد ومن معه فقبضوا على رينا ٠ فقالت لهم يـا قوم دعوني فاني أردت أن أخلص أصحابكم وجئت لآفتح لهم هذا الباب وأنزلهـم اليكم وتملكوا هذه المدينة من ههنا ، وقد أتى بكم رب العالمين وأنا رينا أخت مارية زوجة نبيكم ، فلما سمع خالد فرح وقال لها وأين أصحابنا ؟ فأتت بهم عندهم فحلوا وثاقهم وأتوا الى دار الامارة فوجدوا الموبذان لا يشعر بنفسه من الخمر فوكل به جماعة وأمر الباـاقي أن يملكوا الســور وقبضوا على الحرس ونزلوا الى الابواب وكان لها بابان فكسروا أقفالهما وفتحوهما وأرسل الى بقية العسكر فدخلوا المدينة والكل في حالك الليل ، فلما أصبح الصباح استيقظ الموبذان ومن معه واذا بالمسلمين حولهم ، وكل من في المدينة قد أسر ٠ فقال له خالد يا عبدالله لولا أني أعطيت ولدك الامان كنت قتلتك شر قتلة ، ولكـن خذ أهلك وانصرف فاننا قوم اذا قلنا قولا نعمل به ، وفهم الموبذان أن ولده قد دلهم على السرب ، فلما خرج الموبذان بأهله قال ولده لخالد يا مولاي ان أنـا مضيت معه قتلني ولست أريد بغيركم بدلا ، وأنا أقول : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فقال له خالد ان قصر أبيك وما فيه لك ، وعرض خالد الاسلام على أهل مريوط فأسلم أكثرهم ثم ان خالدا قال ليوقنا رحمه الله : أبشر من الله بالرضوان والغفران والثواب فبصبرك على الشـدائد فتح الله علينا هذه المدينة ، فقال والله ما فتحها الا بفضله وببركة نبيه (ص) ، فكتب الى عمرو بن العاص يبشره بفتح مريوط ونحن معوّلون على الدخول الى اسكندرية وأرسل الكتاب اليه ٠

قال ابن اسحق : وأقام خالد بمريوط لاجل ذي الكلاع الحميري لانـه مرض معه ، وكان مرضه شديدا فجلسوا عنده شهرا ولم يفارقه خالد فقدّر الله له بالوفاة فحزنوا عليه حزنا شديدا عظيما ، فكان ذو الكلاع ملك حمير ، وكان قبل دخوله في الاسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سود سوى غيرهم ٠ قال أبو هريرة الدوسي (رضي) : ولقد رأيته بعد تلك الحشمة يمشي في سوق المدينة وعلى كتفه جلد شاة لما قدم من اليمن الى الجهاد في أيام أبي بكر

الصدّيق (رضى) ، فلما مات رثاه ولده تنوخ بما رثى به حمير أباه سبأ بن يشجب في الزمن المتقدم وهو :

عجبت ليومك ماذا فعل ... وسلطان عزك كيف انتقل
وسلمت ملكك ذا طائعا ... وسلمت للامر لما نزل
فيومك يوم رفيع النزال ... ودورك في الدهر دور رحل
فلا يبعدنك فكل امرىء ... سيدركه بالسنين الاجل
لئن صحبت نائبات الزمان ... وشت مع الدهر وجه الامل
لقد كنت بالملك ذا قوّة ... لك الدهر بالعزّ عان وجل
بلغت من الملك أقصى المدى ... نقلت وعزّك لم ينتقل
فطحطحت آفاقه والمدى ... وجئت من العرب حول الدول
حويت من الدهر اطلاقه ... ونلت من الملك ما لم ينل
وحملت عزمك ثقل الامور ... فقام بها حازم واستقل
صحبت الدهور فهنأتها ... وما مر عيشك فيما فعل
بنيت القصور كمثل الجبال ... ذهبت فلم يبق الا الطلل
نعمنا بأيامك الصالحات ... ومشربنا بك وبل وطل
تؤمل في الدهر أقصى المنى ... ولم تدر بالامر حين نزل
فزالت لعزمك شم الجبال ... ولم يك حزمك فيها هبل

ذكر فتوح اسكندرية

قال : وعوّل خالد على المسير الى اسكندرية .

حدّثنا زياد بن أوس الطائي عن معمر بن الرشيد ، قال لما نزل خالد بعد رحيله عن مريوط ، قال له عيونه انه لما انهزم ابن المقوقس وأتى الى اسكندرية وبلغه فتح مصر صعب عليه ، قال وكانت اسكندرية عامرة كان فيها الخلق كثيرا والمراكب فأرسل مراكب وعمرها بالرجال وأمرهم أن يكبسوا سواحل بلاد الشام على المسلمين ، فقالوا سمعا وطاعة ومضوا الى ساحل الرملة فوجدوا بالليل نيرانا كثيرة فسألوا من كان خبيرا بالبلاد ، فقالوا هذه نيران المسلمين النازلين ههنا ، فقالوا : هذه حاجتنا التي جئنا في طلبها ، فنزلوا وقصدوها واذا بها حلل من حلل دوس بني عم أبي هريرة ، وكان معهم طائفة من بجيلة وفي جملتهم ضرار بن الازور وهو مريض وأخته خولة معه تمرضه وكان أبو عبيدة أمرهم بالنزول هناك لاجل كثرة المرعى وهم آمنون مطمئنون من الروم وغيرهم ، لان دولة الروم قد انصرمت وأيامهم قد ولت ، فما فطن القوم الا وقد كبسهم القبط في حندس الليل ووضعوا فيهم السيف فقتلوا

منهم رجالا وأخذوا منهم أسارى ومن جملتهم ضرار وأخته وأخذوا ما قدروا على حمله وأتوا بهم المراكب ، وكان جملة من أسروه من الرجال والنساء والاولاد والعبيد ألف ومائة فوضعوهم في المراكب وأقلعوا بهم من ليلتهم وساروا طالبين اسكندرية ٠

قال ابن اسحق : وكان أبو عبيدة قد استوطن طبرية لكونها في وسط البلاد وهي قريبة من الاردن والشام والسواحل ، وان أبا هريرة قد أتى ليزور قومه في تلك الايام ويسأل عن حال ضرار وكانوا يحبونه لشجاعته فأتى أبو هريرة ومعه حليف له من بني بجيلة فأصبحنا تلك الليلة في الحي واذا بهم قد أخذهم القبط وبيوتهم مطروحة والرجال مقتولة وآثارهم منبوذة ووجدوا من الذين انهزموا أناسا مجروحين فسألوهم فقالوا ما عندنا خبر حتى كبسنا قوم نصارى وما نعلم من أيّ الطوائف هم ولم نفق حتى وقعوا فينا بالسيوف فقتلوا ما ترون وأسروا الباقين وأخذوهم في مراكبهم ٠ فقال أبو هريرة : لا حول ولا قوة الا بالله العظيم ، وساروا الى ساحل البحر فلم يروا لهم أثرا ، فلما عولوا على الرجوع اذا بلوح من ألواح المراكب تلعب به الامواج ، وعليه شخص فوقفوا له حتى أقبل وخرج الرجل واذا به أمير دوس وحيان ابن عم أبي هريرة ، فلما رآه ترجل له وعانقه وهنأه بالسلامة وقال له يا ابن عم ما وراءك ٠ فقال هجم العدو علينا ليلا وأسرونا وساروا ، فلما توسطنا البحر بعث الله بريح فغرقت مركبنا ، وقد نجاني الله على هذا اللوح ٠ فقال له : ومن أعداؤكم قال من قبط مصر ، واني سمعتهم يذكرون اسكندرية كثيرا ٠ قال فرجع أبو هريرة يطلب طبرية وأتى ابن عمه الى مكان الحلة حتى يلمّ شعث الناس ويداوي المجروحين فجمع ما تركوه وأتى بهم الى الرملة ٠ وأما أبو هريرة فأتى أبا عبيدة وأخبره بما جرى فاسترجع وبكى ، وقال أعوذ بالله من الساعات الرديئة ، ثم قال والله لئن وصلوا الى اسكندرية ما يبقيهم صاحبها طرفة عين ويموت ضرار ويمضي دمه هدرا وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بذلك ويحذره من صاحب الاسكندرية وانه أسر ألفا ومائة من جملتهم ضرار وأخته ، وكانت تداويه وهي عنده فاذا وصل اليك كتابي هذا فاجتهد في خلاصهم وان وقع في أيديكم أحد من القبط ففادوهم به ودفع الكتاب لزيد الخيل وأمره أن يسير الى مصر ، فلما قدم زيد الخيل الى مصر دفع الكتاب لعمرو بن العاص ، فلما قرأه صعب عليه ، وكان يحب ضرارا فأرسل الكتاب الى خالد بن الوليد ، وكتب اليه يحثه بالمسير الى اسكندرية وأنه يفتقد حال الاسرى ، فلما وصل الكتاب الى خالد وقرأه صعب عليه أمر ضرار وأخته خولة ٠

حدّثنا ابن اسحق قال حدثنا عاصم بن منصور عن أحمد المروزي عن

سلمة عن عبدالله ابن المبارك عن عبد العزيز عن أبيه • قال لما أخذت النصارى حلل دوس وضرارا واخته وعصفت عليهم الريح وغرق أحد المراكب ووصل الباقي الى اسكندرية أوقفوهم أمام ابن المقوقس فأراد قتلهم فقال له أرباب دولته أيها الملك لا تعجل عليهم ، واعلم أن العرب متوجهة اليك ولا بد لنا من قتالهم فان أسر أحد منا ممن يعز عليك يكون عندنا من نفادي به ولعل أن نصالح العرب فاستصوب رأيهم وقال ادفعوا هؤلاء الاسرى الى دير الزجاج وأرسل معهم ألفي فارس يوصلونهم الى الدير فجاءت عيون خالد وأخبروه بما وقع فقام وأخذ معه أصحابه وسار يطلب دير الزجاج فوصل خالد الى الدير قبل وصول الأسارى ومن معهم ، فلما أحدقوا بالدير أشرف عليهم راهب كبير السن وكان اسمه مباحا وكان تلميذا لبحيرا راهب بصري ، وكان مؤمنا بالله وبأنبيائه • فقال له خالد يا راهب كيف ترى الدنيا • قال تنحف البدن ، وتجدد الامل ، وتقرب المنية ، وتقطع الامنية قال فما حال أهلها قال من نال منها شيئا نفضته ومن فاته منها شيء حسرته ، قال فما خير الاصحاب فيها قال العمل الصالح والتقي ، قال فما شر الاصحاب فيها ؟ قال اتباع النفس والهوى • قال خالد صدق رسول الله (ص) اذ قال الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها ، ثم قال كيف طابت لك الوحدة ؟ قال ألفتها قال فهل نلت منها فائدة • قال نعم : الراحة من مداراة الناس • قال فما أحسن هذا الاعتقاد لو كان في دين الاسلام والتوحيد ، قال فما أعرف غيره ، قال فما تقول في محمد ابن عبدالله (ص) ؟

قال : سيد الرسل وخاتم الانبياء وصفيّ الاصفياء وحجة الجبار على الورى ، قال فلم لا تكون في بلاد الاسلام فهي أصلح لك من ههنا ، قال قلبي ملوث بحب الدنيا • قال خالد أعندك خبر بالعرب الاسرى الذين أرسلهم الملك هنا ، قال لا والله ، ولكن مرّ بي البارحة بطريق وأسقف واستقيا ماء من بئر هذا الدير فسألتهما من أين أتيتهما ؟ فقالا من الاسكندرية واننا رسل الملك كيماويل صاحب أرض برقة وانه أرسلنا الى ملك القبط يسأله أن يرسل له أسرى من عرب المسلمين حتى يراهم ويسمع كلامهم فأجاب أنه يرسل منهم جماعة ونا ماضون نعلم صاحب برقة بذلك • فقال لخالد لعلكم من المسلمين الذين فتحوا بلاد الشام قال خالد نحن هم • فقال الراهب ان أخباركم عندي في كل وقت وأعلمك أني رأيت نبيكم (ص) وهو في قافلة قريش وأنا عند بحيرا ، فلما مات بحيرا انتقلنا الى هذا الدير ، واعلموا أنه ما بقي من أرض الكنائس ولا بأرض العقبة ولا بأرض الرمادة أحد ولا ديار من راهب ولا قسٌ الا وقدم لزيارتي ويسألني عنكم وعن نبيكم ، ويقولون لي أنت كنت على

طريقهم ورأيت نبيهم وشرحت لهم دينكم وأوصلتهم الى ما ظهر من معجزات نبيكم (ص) ، ولقد جرى بيني وبين راهب منهم بالفرب مناظرة ، وقال لي ان النبي الذي بشر به عيسى المسيح ابن مريم ليس هذا ، فقلت له بلى هو والله النبي العربي . فقال لي اننا سمعنا في العلم أن الرسول الذي يظهر من أرض الحجاز يعرج به الى السماء ، وما سمعنا أن هذا عرج به ، فقلت بلى والله أنا سمعت بأنه عرج به الى السماء وخاطب العليّ الاعلى ، وأصبح فأعلم بذلك قريشا ، ثم قال لخالد : اعلم أنّ في وسط هذا الجبل ديرا يقال له دير المسيح ، وقد استوى عليه بطريق ومعه جماعة وهو يقطع الطريق على قوافل العرب ، وانه منذ زمان قطع الطريق على قافلة وفيها شخص من بلادكم وهو مسلم ، فأخذ القافلة وعرّى أهلها وأطلقهم وقبض على ذلك المسلم وأخذ ماله ، ووضعه عنده في العذاب الشديد ، والرجل يستجير فلا يجار ، ويقول له ما أطلقك حتى تكفر بالرحمن وتسجد للصلبان ، ثم انه يأتيه بصورة من نحاس وعلى رأسه عمامة سوداء ، ويقول له هذه صفة نبيكم وينصبه قباله ويصبّ فضلة كأسه على رأس هذه الصورة ، وذلك الرجل يستجير من فعاله . قال فلما سمع خالد ذلك أخذ معه شرحبيل بن حسنة وعامر بن ربيعة ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن سعيد والقعقاع ورفاعة ، وترك بقية العسكر محيطة بالدير ومضوا الى وسط الجبل فوجدوا الدير فوصلوا اليه ، واذا بالبطريق قد أقبل ومعه وحش مذبوح ، وقد قصد الى شجرة بالقرب من الدير وتحتها عين ، فنزل على العين وصاح بغلمانه فأتوا اليه وأضرموا النار وجعلوا يشوون له وهو يأكل ويشرب الخمر ، وقال لهم هاتوا المحمدي ، فأتوه برجل قد ركبه الذل وغلبه القهر ، فلما رآه قال له : أنت قد غلبتني بتجلدك على العذاب ، وحق ديني لا أرفع عنك العقوبة حتى ترجع عن دينك الى ديني ، فقال له اصنع ما بدا لك فاني أعلم أن الكل بمشيئة الله وبارادته ، واني صابر على مرّ البلاء وما أرجع عن دين محمد المصطفى . قال فهمّ أن يقوم اليه يضربه فصاح به خالد بن الوليد وحمل عليه وطعنه فأخرج السنان من ظهره وقتلوا غلمانه وخلصوا المسلم ونزلوا على العين ، ولم يكن لأهل الدير شرب الا من تلك العين ، فأشرف عليهم الرهبان من أهل الدير ، وقالوا : ما نحن أهل سيف حتى نقاتلكم ، وقد نهاكم نبيكم عن قتل الرهبان ، فقال خالد : سلموا لنا مال هذا البطريق وعياله وأطفاله ونحن نترككم في ديركم ، ففتحوا لهم وسلموا لهم جميع موجوداته ، وأخذوا الاسير وساروا وسأله خالد بن الوليد من أين أنت ؟ فقال أنا أمية بن حاتم أخو عديّ ، وقد أخذني هذا في أواخر أيام أبي بكر الصديق (رضی) فاني كنت طالب برقة مع قافلة ومعي بضاعة

فأخذها وأخذني ، وكان أمر الله قدرا مقدورا • قال فرجعوا عند أصحابهم ولم يأتوا القبط فما لحقوا أن ينزلوا عن خيولهم الا والراهب صاح ، وقال لهم استعدّوا للقاء عدوّكم فانهم قربوا منكم ، فتجهزوا للقاء العدو واذا بهم قد أقبلوا ، وضجيج الاطفال وبكاء النساس وأنين الرجال وصراخ المأسورات ، وصياح القبط عليهم يسوقونهم من ورائهم ، وزئير الفرسان ، وهفيف الصلبان والعربيات ، تنادي بالويل والهوان ، وخولة بنت الأزور على مقدّمة الأسارى وهي تقول :

جلّ المصاب وزاد الويل والحرب — وكل دمع من الاجفان ينسكب
ومادت الارض مما قد بليت به — حتى توهمت أن الارض تنقلب
جالت يد القبط فينا عند غفلتنا — واستحكم القبط لما زالت العرب
لهفي على بطل قد كان عدّتنا — فيه العفاف وفيه الدين والادب
قد كان ناصرنا في وقت شدتنا — أعني ضرار الذي للحرب ينتدب
فيه الحمية والاحسان عادته — فيه التعصب والانصاف والحسب
لو كان يقدر أن يرقى مراكبه — كان العدو فني والحرب تلتهب
أو كان خالد فينا حاضرا وطنا — لزال عنا الذي نشكو وننتحب
لو كان يسمع صوتي صاح بي عجلا — مهلا فقد زال عنك البؤس والعطب

قال : فلما سمع خالد نداءها ، قال : لبيك يا بنت الأزور ، قد جاءك الفرج وذهب عنك الحرج فأطبقوا على القبط ، فما كان ببعيد حتى قتلوا منهم سبعمائة وأسروا ألفا وثلمائة ، وخلصوا الأسرى وسلموا على ضرار ، وهنئوه بالسلامة وودعوا الراهب ، بعدما كتب له خالد كتابا بأن له من طعام الاسكندرية صاعا ، ولكل من سكن الدير من أهله وقبيلته ، ثم انهم ساروا طالبين الاسكندرية وهم سائقون الاسرى من القبط بين أيديهم • قال وكان الملك أرسطوليس لما سمع بأن العرب قد أتوه أخرج عسكره ، وضرب خيامه خارج باب السدرة • قال فلما قدم المسلمون وقع الصايح بقدومهم ووقع الخوف في قلب الملك وعسكره وقالوا له : أيها الملك ما الذي تدبر في أمر هؤلاء العرب ؟ قال وما عسى أن أدبر والخوف قد ملأ قلوبكم ، وهم طمعوا فيكم ورأوا أنكم تنهزمون ولا تخافون العار ، واذا قاتلتموهم كانت قلوبكم متفرقة وأهواؤكم غير متفقة وقد أسروا رجالكم ولم يرهبوا قتالكم ولا مانع يمنعهم ، ولو أن أصحابهم الذين أرسلتهم الى دير الزجاج عندي لكنت صالحتهم باطلاقهم ودفعناهم عنا ، وقد فرطنا أيضا في الالفين الذين أرسلتهم معهم ، فلو كانوا فينا لقاتلوا معنا • فقال له وزيره : أيها الملك هل لك أن ترسل اليهم وتتحدث

معهم في أمر الصلح ، ونحن نسلم اليهم أصحابهم • فقال انهم لن يقبلوا منكم رسولا منذ صبأنا عليهم ببحر الحصى ، فبينما هم في ذلك واذا بصاحب البحر، قد أتى اليه وهو الموكل بالنار ، وأخبره أنه رأى مركبا قد ظهر من قبـــل الغرب ، ولا أعلم من أين أتى • فقال لا شك أنه مـــن صاحـــب برقة الملك كيماويل ، وقد أنجدنا ، فأقبل المركب ورمى مراسيه ونزل منه شيخ مهيـــب مليح الشيبة ظاهر الهيبة ، وعليه ثياب من الصوف الاسود ونزل معه عشرون شخصا من القسوس والرهبان ، فلما نزلوا الى البر جاءتهم الخيول بالمراكب المذهبة والغلمان والحجاب وعظموا شأنهم وأركبوهم وساروا بين أيديهم الى أن أوصلوهم الى الملك وأدخلوهم عليه ، فقام لهم وعظم شأنهم وأجلس ذلك الشيخ معه على السرير •

(قال الراوي) : وكان أرسطوليس قد أرسل هدية الى الملك صاحب برقة ، وأرسل اليه يعلمه بما فعله العرب في مدّة قيصر وانهم قد أتونا ، ومن جملة ما أرسل له يقول : أيها الملك اعلم أن الدنيا دار زوال وانتقال ، فمـــا وهبت الا واستردّت ، ولا فرّحت الا وأحزنت ، فالمغرور من تشبـــث بذيلها واطمأن اليها ، والسعيد من لبس ثياب الحذر منها وعمل لدار المقر ، أما ترى أيها الملك الى هرقل ملك الشام كيف هرب وزال ملكه ؟ وذلك عند ما رمتـــه الدنيا بمصائبها ،وشتتته بسهام نكائبها بعدما كانت في وجهه مشرقة ولا يخطر له همّ الاعداء على بال ، وما ضربت لك هذا المثال الا لعلمي أن الدنيا لا تبقى على حال ، وهؤلاء العرب قد أستولوا على البلاد ، وأذلوا بسيوفهم العبـــاد ، وقد أقاموا لهم شرعا بالسيوف الحداد ، وقد ملكوا القياصرة وقد جاءت طائفة الينا ، وأخذوا مصر منا وأخذوا ملكنا وحكموا على بلادنا بعدنا ولا بد لهم منك ولا غنى لهم عنك ، والصواب أن تشمر لهم عن الهمم وتنجدنا على من بغى وأجرم ، فنحن جيرانك وكلنا جندك وأعوانك والسلام •

(قال الواقدي) : فلما وصلت الهدية والكتاب عرضه على أرباب دولته وقال لهم ما ترون فيما كاتبكم به صاحب مصر والاسكندرية ؟• فقالوا له أيها الملك ما زالت الملوك يستنصر بعضها ببعض والذي أشار اليه هو الحق وان العرب اذا ملكت ملك القبط فلا بد لهم منا والعبور الى بلادنا ، فابعث اليـــه بنجدة ونكون نحن وهو يدا واحدة ، فالمسيح يعطي النصر لمن يشاء فأجابـــه الى ذلك وأمر ابن أخيه اسطفانوس أن يمضي في أربعة آلاف وأمره أن يسير لمعاونة صاحب اسكندرية ، ثم انه أرسل خادمه الى عالم أرضهم والمشار اليه في علم النصرانية وهو البترك واسمه سطيس ، وكان عمره مائة وعشرين سنة ، وكان تلميذ زيروسا وزيروسا تلميذ مرقس ومرقس تلميذ يوحنا ويوحنا أحد

حواريّ عيسى المسيح وكان هذا البترك سطيس مؤمنا بالله وموحدا وسمع بأخبار رسول الله (ص) ومعجزاته وهو مؤمن من قبل مبعثه وظهوره حتى بلغته أخباره (ص) وانه مات فبكى لموته ولزم زاوية الحزن ولم يظهر خبره لاحد مدة من الزمان ، وقد بنى له صومعة وانفرد بها وجعلها على قارعة الطريق فما مرّت به قافلة الا واستخبرها عنه ويسأل عمن جلس بعده للمسلمين خليفة؟. فقالوا أبو بكر الصدّيق وبلغه موته وولاية عمر ، ثم بلغه فتوح الشام وقدوم الصحابة الى مصر وفتحها ، فلما أرسل صاحب مصر يستنجد صاحب برقة وأرسل أخاه أرسل هذا البترك في مركب ببشره بقدوم اسطفانوس الى نصرته، فلما وصل اليه وبشره فرح بذلك وقال يا أبانا أريد من انعامك أن تسير الى هؤلاء العرب وتختبر دينهم ونبيهم وتدعوهم الى الصلح وتعلمهم أن في أيدينا جماعة منهم أخذناهم من ساحل الرملة وقد أنفذت بهم الى دير الزجاج ، فان أرادوا أصحابهم أطلقناهم لهم ونعطيهم شيئا من مالنا واعقد لنا ولهم الصلح بأنهم لا يرجعون الينا ولا يتعرضون لنا . فقال البترك سأفعل ذلك واني قد قرأت في الكتب السالفة فوجدت فيها ان الله يبعث نبيا من أرض تهامة تعرض عليه مفاتيح الارض وكنوزها فلا يلتفت اليها ولا يعيرها نظره ولا يختار الا الفقر على الغنى وان أصحابه ينبعون سنته وأنا أستخبر حالهم قبل سيري اليهم . فقال الملك وكيف تستخبر حالهم يا أبانا ؟. قال أيها الملك أرسل بغلة من مراكبك وعليها مركب من ذهب وهو مرصع بالمعادن وتأمر غلمانك أن يسيروا بها ويرسلوها نحو عسكر المسلمين ، فان أخذوها فنعلم أنهم يحبون الدنيا ولا يريدون الآخرة وان ردوها فنعلم انهم يطلبون ما عند الله . قال ففعلوا ذلك وأرسلوها وكانوا في حندس الليل ، وكان في الحرس شرحبيل بن حسنة ، فلما رأى البغلة وما عليها من الزينة ضحك وقال : ان أعداء الله يريدون اختبارنا ومعرفة أحوالنا ان كنا نطلب الدنيا أو الآخرة ، فوالله ما منا من يميل الى ما يفنى وانما بغيتنا فيما يبقى ثم قرأ ـ انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الامتاع الغرور ـ ثم أمسك بعنان البغلة وأطلقها نحو عسكر القبط . قال فلما رأوها صلبوا على وجوههم وقال الملك والله بهذا نصروا وخذلنا والله ان أبي كان على بصيرة من أمرهم ، ثم أمر البترك سطيس أن يتوجه اليهم فمضى ، فلما قرب منهم رأى أقواما قد هجروا الدنيا ، فمنهم القارىء ، ومنهم الذاكر ، لباسهم الصوف ، صغيرهم يوقر كبيرهم وكبيرهم يرحم صغيرهم وصوت أحدهم لا يعلو على الآخر ، الذكر كلامهم والقرآن

شعارهم والتقوى لباسهم والخوف من الله أنيسهم ، فلما دخل على عسكرهم سأل عن أميرهم وصاحبهم فدلوه على موضع خالد فقصده ، فلما وصل اليه وجده في ذكر الدين والقيامة فنزل عن بغلته ووقف أمامه وأومأ اليه بالسجود فمنعه خالد . فقال له أنت أمير هؤلاء القوم قال كذا يزعمون اني أميرهم ما دمت على الحق واتباع العدل والانصاف والخوف من الله محسنا للمحسنين منهم مشددا على المسيئين منهم فمتى حدت عن هذه الاشياء فلا امارة لي عليهم . فقال البترك أنتم والله القوم الذين بشر بكم عيسى ابن البتول ، وان الحق معكم لا يفارقكم ، قال فأمره خالد بالجلوس فجلس وقال : يا معاشر العرب أخبروني عن نبيكم ؟ . فقال خالد ان الله اختار من ولد آدم العرب واختار من العرب مضر واختار من مضر كنانة واختار من كنانة قريشا واختار من قريش بني هاشم واختار من بني هاشم عبد المطلب واختار من عبد المطلب عبدالله محمدا (ص) وقال « كنت نبيا وآدم بين الماء والطين » وقال : لما خلق الله العرش كتب عليه لا اله الا الله محمد رسول الله ، فلما وقع آدم في الزلة رأى على ساق العرش لا اله الا الله محمد رسول الله . فقال يا رب من هذا ؟. قال ولدك يا آدم الذي لولاه ما خلقتك قال يا رب فبرحمة هذا الولد ارحم هذا الوالد . فقال يا آدم لو تشفعت الينا بمحمد في أهل السموات والارضين لشفعناك ، ثم ان الله جعل اسمه مقرونا باسمه وذكره مع ذكره ورسمه بما وسم به نفسه . فقال ـ ان الله بالناس لرءوف رحيم ـ ،وقال في حقه ـ بالمؤمنين رءوف رحيم ـ وقال ـ من يطع الرسول فقد أطاع الله ـ وقال ـ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ وقال ـ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ـ وان الله عزّ وجل رفع ذكره وعظم فخره وأعز قدره فقال تعالى ـ ورفعنا لك ذكرك ـ وهذا غاية الشرف والتعظيم والتبجيل والتكريم وقال : يا محمد لا أذكر حتى تذكر فمن أحبك فقد أحبني ، ومن سبك فقد سبني ، ومن جحدك فقد جحدني ، ومن أنكر نبوّتك فما عرفني وها أنا أشهد على نبوّتك . فقال عز من قائل ـ ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ـ ، وقال في موضع آخر ـ وكفى بالله شهيدا محمد رسول الله ـ ، قال فلما سمع البترك ذلك من خالد فرح وقال لقد نجا من اتبعه وخسر من فارقه ثم جدد اسلامه على يد خالد وحدثهم بأمره من أوّله الى آخره ، ثم حذرهم من أخي صاحب برقة وانه واصل ومعه أربعة آلاف فارس واني قد سبقته في البحر ، وهذا الملك القبطي يريد صلحكم ويقرر لكم على انكم تصالحونه أن يعطيكم شيئا من المال ويسلم اليكم قوما من أصحابكم قد أخذوهم من ساحل الرملة . فقال خالد ان أصحابنا قد فك الله أسرهم وجمع بنا شملهم وقد

نصرنا الله على القبط الالفين الذين كانوا مع الاسارى فاننا أخذنا ألفا وثلثمائة أسير وقتلنا سبعمائة ، ثم انه عرضهم عليه وعرض الاسلام عليهم فأبى أكثرهم وأسلم بعضهم فأمر خالد بضرب رقابهم بين العسكرين ثم ان البترك عاد الى صاحب اسكندرية وقال له هؤلاء لا نملك غرتهم لانهم حذرون من أعدائهم وعرفه بقصة أصحابه وانهم هؤلاء الذين ضربوا رقابهم قبالك فقال له يا أبانا ومن أين هؤلاء قال قد وقعوا بهم وخلصوا أصحابهم وأسروا من أصحابك ألفا وثلثمائة وقتلوا سبعمائة ٠ قال فلما سمع ابن المقوقس ذلك سقط في يده وأيقن باتلاف ملكه ، وقال لأرباب دولته وعسكره خذوا أهبتكم للقتال وكأنكم بعسكر الملك كيماويل صاحب برقة ، وقد أقبل عليكم ونقائل هؤلاء العرب بقلوب قوية وأسرار نقية ويعطي الله النصر لمن يشاء وباتوا وهم معولون على القتـــال ٠

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني أن الملك نام بقية ليلته فرأى في منـــامه كان شخصا أشقر عريض الصدر قد خرج من حمام ومعه شخص آخر مليـــح الوجه حسن الخلق وسيم قسيم في عينيه دعج وله نور يسطع كأنه قمـــر ٠ فقال ابن المقوقس للاشقر من أنت ؟ قال ابن العذراء البتول أنا المسيح بن مريم، وهذا الذي بشرت به من قبل مبعثه هذا محمد رسول الله العربي الامي من آمن به فقد اهتدى ، ومن جحد نبوته فقد اعتدى ، وقد جئنا لنصرة أصحابه ومقامنا على القبة ٠

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني ان برج القبة مما يلي باب البحر و ذلك ان الاسكندر لما بني الاسكندرية و سماها باسمه كان الخضر وزيره ، وهـــو الذي بنى الباب الأخضر وصنع تلك القبة باسمه ورسمه وكان يأوي إليهـــا فصار ذلك الباب مشتهرا به الى يومنا هذا ٠ قال ثم ان عيسى عليه الســـلام قال للملك في نومه ان كنت من أمتي فاتبع شريعة هذا النبي وذهب عنه ، فلما أصبح حدث أرباب دولته بما رأى في نومه فقالوا أيها الملك هذه أضغاث أحلام وما كان عيسى المسيح يماشي العربي وهو عدوه ، وانما الشيطان قد خيل لك ذلك فلا تلتفت اليه قال فأصغى الملك الى كلامهم ثم انه أمـــر عســـــكره بالقتال فركبوا وصافوا المسلمين ٠ وأما الملك فانه نظر الى برج القبـــة واذا بالقبة يسطع منها نور فدخل الوهم في قلبه مما رأى في منامه ، وقـــال والله ما هذا النور الانور المسيح ومحمد وان هذا هو الحق لا شك فيه ٠

حدثنا ابن اسحق حدثنا عامر بن بشر عن الاحوص قـــال : كنت في خيل خالد بن الوليد يوم قتالنا على اسكندرية قال لما وقفنا في ميدان الحرب

وقف يقاتلنا فارس وهو بطريق عظيم الخلقة وعليه لبس يلمع وتحته جواد عربي فنادانا بالعربية بلسان فصيح ، وقال يا عرب انصرفوا عنا فانا لا نريد حربكم وقد ملكتم منا مصر والصعيد وأكثر الريف وقد بقي في أيدينا هـذه الجهة وما نحن بمنازعونكم فيما أخذتموه منا ، ونحن لا نقلدكم في البغي ونصالحكم صلحا نعود منه عن ظلم أنفسنا ونعدل في رعيتنا وان أبيتم صلحنا لقيناكم بأسرار نقية وقلوب للجهاد قوية فنردكم على أعقابكم منهزمين ، وفي أذيال الذل متعثرين ، لأنه ما عدا أحد على أهل هذا الدين الا ذل وانهزم لاننا قوم لنا الكنائس الأربع والصوامع والبيع والقسوس والرهبان والمذابح والقربان والانجيل والصلبان ثم سكت عن كلامه ٠

(قال الراوي) وكان هو الملك بن المقوقس فكان أول من بادر الى رد جوابه شرحبيل بن حسنة كاتب وحي رسول الله (ص) فقال له : لقد افتخرت بما يؤدي صاحبه الى البوار ، ويعقبه سوء الدار ، يا ويلكم أتفتخرون علينا بالشرك والطغيان وعبادة الصلبان والكفر بالرحمن ،ونحن أولو التقى والايمان، والفوز والرضوان ، والقبلة والقرآن ، والحج والاحرام ، والصلاة والصيام ، والاجتهاد والاحترام ، ديننا أفضل الاديان ، ونبينا المبعوث بالمعجزات والبيان ،وبالآيات والبرهان والمنزل عليه القرآن ، ومن اتبعه نال من ربه الغفران ، ومن جحد صحبته باء بغضب الملك الديان الذي كان ولا مكان ، ولا دهر ولا زمان ، ولا وقت ولا أوان ، شهد لنفسه بالربوبية ولصفاته بالأزلية ولذاته بالأحدية ، ولملكه بالأبدية سلطانه قاهر وكرمه ظاهر وتدبيره محكم وقضاؤه مبرم وعرشه رفيع وصنعه بديع ، وليس بوالد ولا مولود ولا لذاته حد محدود ولا لبقائه أجل معدود خضعت الأعناق لعظمته وخشعت الاصوات لهيبته وعنت الوجوه لعزته وذلت الاقوياء لقوته لا يحصى نواله ولا يفنى كماله ولا تبيد نعمه وافضاله يا ويلكم كيف طاب لكم الكفر بالهيته والاشراك بربوبيته وان تجعلوا له ولدا من خلقه وبريته وتسجدون للصلبان في دار مملكته ولا تفزعون من عظمته ثم انه قرأ ـ ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ماؤجاها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة واليه ترجعون ـ ٠ ثم قال شرحبيل ان لله عبادا لو أقسموا على الله أن يدكدك لهم هذا السور لفعل ، وكانت اشارته الى سور المدينة فغار السور في الأرض وبانت المنازل والدور ٠ قال فارتعدت فرائص الملك لما عاين ذلك من عظيم القدرة فلوى عنان جواده الى عسكره وأفئدتهم قد طارت وأفكار القبط قد حارت ، فلما جن الليل أخذ الملك خزائنه وأمواله

وحريمه وعياله وركب في المراكب وسار يريد جزيرة أقريطش ، فلما أصبح الصباح وقع الصايح بالمدينة بأنّ الملك قد انهزم فاجتمع الأكابر وقالوا : ان الملك قد انهزم وما لنا من يدفع هؤلاء العرب • قال فخرجوا بأجمعهم الى أصحاب رسول الله (ص) ووقفوا بين يدي خالد ، وقالوا ان الله قد نصركم بحق وأيدكم بصدق ، وانا نريد منكم ان تعاملونا بالنصفة وتنظروا الينا بعين الرحمة ، والعدل سنة من كان قبلنا معكم من الروم ، فقال خالد ما فعل ملككم ؟ • قالوا وانهزم بأهله وماله في البحر • فقال قوم قد أسكن الله الرحمة في قلوبنا وبصرنا بمعالم ديننا ، وأظهرنا على أعدائنا ، وفضلنا على سائر من كان قبلنا من الأجناس • فقال تعالى ـ كنتم خير أمة أخرجت للناس ـ ، ونحن نجريكم على أحسن عوائدنا مع سائر من فتحنا بلادهم ، وقد أمسكنا عنكم ولو أردنا أن نملك البلد بالسيف لهان علينا ، ولكن خير الناس من قدر وعفا ونريد منكم مائة ألف مثقال ذهبا صلحا عن أنفسكم وأهاليكم وندعوكم بعد ذلك الى الاسلام ، فمن أجاب منكم كان له ما لنا وعليه ما علينا ومن عدل عن ذلك أخذنا منه الجزية عن السنة الآتية من كل رجل وغلام بلغ الحلم أربع دنانير ونشرط عليكم شروطا أن لا تركبوا دابة ولا تعلوا دوركم على دور المسلمين ولا ترفعوا أصواتكم عليهم ولا تبنوا كنيسة ولا صومعة ولا ديرا ولا تجددوا ما دثر وتلقوا المسلمين بالذل والانكسار وتسارعوا في قضاء حوائجهم وما يريدون في اصلاح شأنهم لا تعدلوا عن تعظيم أهله ، ومن أذنب منكم ذنبا حددناه ومن ارتد عن قولنا قتلناه ، وان تشدوا الزنانير على خصوركم اظهارا لدينكم ، وأن لا تظهروا ناقوسا ولا صليبا ولو آمنتم بالله ورسوله لكان خيرا لكم • فقالوا أيها الأمير ما نترك ديننا فقرأ ـ واذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره الينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ـ فقالوا أيها الأمير نريد أن تولي علينا رجلا منا حتى يجمع المال الذي تقرر علينا فيلمه بالعدل وليكن معه رجل منكم من أصحابكم ، فقال خالد اني لا أعرف أحدا من أجاويدكم فاختاروا لأنفسكم برضاكم من أوليه عليكم فأشاروا الى رجل منهم اسمه شيعا بن شامس ،وكان مقدما في القبط فولاه خالد على جمع المال ورياسة البلد وندب معه قيس بن سعد وأوصاهم ، وقال خذوا من كان واحد ما يحتمل حاله ومن كان معسرا

صعيفا فدعوه ، واحسنوا ان الله يحب المحسنين • ولا تظلموا يتيما ولا فقيرا ولا أرملة ، فتعجب القبط من حسن وصيته وكلامه فدخل القوم واجتمعوا في دار الامارة وبعث شيعا غلمانه يجمعون الناس •

قال **حدّثنا** جرير بن عاصم عن نعيم بن موسى الداراني عن سليمان بن عوف عن جده مازن بن سعيد • قال وقع القسط على أهل اسكندرية فكان أكبرهم في الحشمة وأغزرهم في المال يزن عشرة قراريط وأوسطهم حالا يزن قيراطين ولقد أتى برجل من أغنيائهم اسمه براس لا يدري ما يملك من المال والدبش والغنم وكان أبخل أهل زمانه ، فقال له شيعا قد وجب عليك في هذا المال دينار ، قال وحق المسيح ما أنا بالذي يؤديه ولو مت وان تصدقت به كان أفضل من عطيتي للعرب • فقال له قيس بن سعد : ان في الذي نأخذه منكم صونا لأنفسكم وحفظا لدمائكم ونحن ما نأخذه على وجه الصدقة منكم بل نأخذه حلالا لا حراما ياويلك لو دخلنا مدينتكم بالسيف ألست كنت أنت أوّل من قتل ومالك أول ما نهب ، وقال له شيعا خذلك الله ولعنك كل من في اسكندرية يعلم أنك كنت أولا فقيرا لا تقدر على شيء من أمور الدنيا وقد آتاك الله من فضله ووسع عليك رزقه • فقال ألشت ورثته عن آباء كرام وأجداد عظام وما لله عليّ من فضل • قال فغضب قيس وقام اليه وقمعه بمقرعة كانت معه ، وقال له كذبت يا عدو الله ورسوله الفضل والحمد والمنة لله لأنه رزقنا من فضله وأسبغ علينا من نعمه — وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها — ثم قال قيس : اللهم انه جحد نعمتك فأزلها عنه • قال فوالله ما مضى يومه حتى جاء الخبر بان أغنامه قد هلكت جميعا وبساتينه يبست ودياره قد تهدمت وأمواله ذهبت • قال قيس : الله أكبر هذا والله حديث سمعته من رسول الله (ص) وأبو هريرة بجانبي • قال « ان ثلاثة من بني اسرائيل كان أحدهم أبرص ، والآخر أقرع ، والآخر أعمى • فبعث الله اليهم ملكا فأتى الأبرص فقال له أيّ شيء أحب اليك ؟ • فقال : الجلد الحسن والابل ، فأتى الأقرع فقال له أي شيء أحب اليك؟ قال الشعر الحسن والغنم، وأتى الثالث فقال له أيّ شي أحب اليك ؟• فقال النظر والبقر • قال ثم ان الملك مسح بيده على جلد الأبرص فعاد أحسن جلدا وأعطاه ناقة عشراء فبارك الله له فيها حتى ضاقت بابله الديار ، وأما الأقرع فأتاه ومسح بيده على رأسه فأنبت الله له شعرا حسنا وأعطاه نعجة عشراء فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار • ثم أتى الأعمى ومسح بيده على عينيه فعادتا أحسن عينين وأعطاه بقرة عشراء فتوالدت الى أن ضاقت بها تلك الديار • قال ثم أتاهم ليمتحنهم ، فأتى الأبرص • فقال له كنت أبرص فقيرا لا تملك شيئا فأعطني مما آتاك

الله من هذه الابل ناقة أتسبب عليها ، فقال له ما كنت فقيرا ولا أبرص وانما ورثت هذا المال من آبائي • قال فذهب الى الأقرع ، وقال له مثل ما قال للأبرص ، فقال مثل ما قال الأبرص ، فذهب الى الثالث ، وقال له مثل ما قال لصاحبيه • فأجاب وقال : بسم الله والله لقد صدقت •• فاذهب الى هذا البقر فاقسمها بيني وبينك ، فقال له بارك الله لك في مالك وقد رد الله صاحبيك كما كانا فانهما كفرا نعمة الله » •

(قال الراوي) وجمعوا المال ومضوا به الى خالد وبنى فيها المساجد وأخذ كنيستهم العظمى فجعلها جامعا وترك لهم أربع كنائس ، وكتب الى عمرو بن العاص يعلمه بفتح اسكندرية ففرح وركب وترك موضعه أباذر الغفاري وذهب الى الاسكندرية وبني فيها جامعا في الربض ، وهو معروف بجامع عمرو الى يومنا هذا •

ذكر فتح مدينة دمياط وما والاها

(قال الراوي) وأتت اليه أهل رشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار والبحيرة وصالحوه على بلادهم • ثم انه بعث المقداد ومعه أربعون فارسا وهم ضرار وشاكر ونوفل وراجح وعاصم وفارس وعروة وسهل وعمير وكعب وسعيد ويزيد وصعصعة وغيرهم وأمرهم بالمسير الى دمياط وأمّر عليهم المقداد بن الأسود الكندي فساروا الى البرلس، ودمياط كان بها خال الملك المقوقس ، وكان عسكره اثني عشر ألفا ، وكان قد حصن البلد وجمع فيها من آلة الحصار من الزاد وغيره ، قال فلما أشرف عليه الصحابة ونظر الى قلتهم ضحك وقال : ان قوما ينفذون الينا منهم أربعين ليملكوا بلدنا لفي عجز وقلة عقل ، قال وكان ولده الأكبر فارسا مشهورا في جميع بلاد النيل وكان اسمه هريرا وكان يثق به وبشجاعته وبراعته وليس في عينيه الفرسان شيئا ، فلما رأى الصحابة وهم أربعون قفز اليهم وهو لابس لامة حربه وطلب البراز فخرج اليه ضرار بن الأزور وحمل عليه فطعنه فقتله وحمل على عسكر دمياط فالجأهم الى حيطان البلد وهو كأنه النار في الحطب فاستعاذ منه الجيش • ثم ان خال الملك وكان اسمه البامرك اجتمع بأرباب دولته وقد صعب عليه قتل ولده وكان عندهم حكيم يثقون به وبرأيه ويعتمدون على عقله فأحضروه ، وقالوا له أيها الحكيم العالم ما الذي تشير به علينا في أمر هؤلاء العرب ؟ •

فقال : أيها الملك ان جوهر العقل لا قيمة له وما استضاء به أحد الا هداه الى سبيل نجاته وقاده الى معالم مصالحه ، وهؤلاء القوم لا تذل لهم

رايةً ولا تلحق لهم غاية قد فتحوا البلاد وأذلوا العباد واشتهر أمرهم ، وعلا ذكرهم ، وفشا خبرهم ، وعلت كلمتهم ، وطافت الأرض دعوتهم ، فما أحد يقدر عليهم ، ولا يصل اليهم ، وما نحن باشدّ من جيوش الشام ولا امنع بلدا وهؤلاء القوم قد أيدوا بالنصر وغلبوا بالقهر وان الرحمة في قلوبهم فعاهدهم فما عاهدوا عهدا وخانوا وما حلفوا يمينا فكذبوا وقد بلغك ما هم عليه من الدين والصيانة ، والصدق والأمانة ، والرأي عندي ان تصالحهم لتنال بذلك الأمن وحقن الدماء وصون الحريم ودفع الأمر العظيم ونكون قد صالحناهم ودفعناهم بشيء من مالنا • قال فلما سمع البامرك ذلك من الحكيم أمر بضرب عنقه فلما عرف الحكيم أن المنية قد غشيته قال : اللهم اني بريء مما يشركون بك لا شريك لك ولا ولد ولا صاحبة لك ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله • قال فلما سمع البامرك كلامه ضربه فقتله وأمرهم بأن يأخذوا على أنفسهم للحرب ، فلما كان الغد خرجوا الى ظاهر دمياط ونصبوا خيامهم • قال وكان للحكيم ولد ورث فضائل أبيه ، وكان فيه فطنة وعقل وتدبير • فلما قتل أبوه أظهر الفرح والدعة للملك البامرك ، وقال لقد أراحني الملك منه ومن شره فبلغ اليامرك ما قاله ابن الحكيم فأرسل اليه وخلع عليه وطيّب قلبه ، فلما كان الليل قال والله لآخذنّ بثأر أبي من هذا اللعين ومن أولاده ، وكانت داره ملاصقة للسور فنقب نقبا واسعا وخرج منه وقصد الصحابة ، فلما رأوه قالوا له من أنت ؟• قال ان أبي قد قتل من أجلكم وقد نقبت نقبا وخرجت منه فقوموا على بركة الله وعونه حتى تملكوا المدينة منه • فقال له ضرار يا ويلك ، وان الذي بعثك بهذه الحيلة أراد قتلك أما علمت ان الحذر شعارنا واليقظة دثارنا ، وهمّ بقتله • فقال له المقداد : أمهل يا ضرار وفقك الله الى الخير ووقاك الألم والضير • ثم قال المقداد اني رأيت رسول الله (ص) في المنام وهو يشير الى شخص بين يديه وكأنما يقول على زي هذا الغلام ، وكأنما أتأمل الى هذا الغلام فرأيته على ما هو عليه الآن وكان على وسطه منطقة من الأديم وفيها جلق فضة وهي تحت أثوابه • ثم ان المقداد • قال يا غلام اكشف عن أثوابك فكشف عن أثوابه واذا المنطقة بعينها ، فقال أشهد ان لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله (ص) ، فقام المسلمون فصافحوه ومضى الغلام أمامهم الى أن دخل بهم النقب ووسعوه بأيديهم حتى دخلت خيولهم • ثم ردوا الحجارة والطين والبناء على حاله وأعمى الله أبصار القوم عنهم ، فلما كان الغد نظر أعداء الله فلم يروا للصحابة أثرا ولا خبرا فضجوا بكلمة كفرهم وماجوا وقالوا

هربت العرب ووقع الصائح في العسكر فظهر أهل البلد ليقفوا على صحة الخبر ولم يبق في البلد سوى النساء والاطفال . قال ابن اسحق وكان للحكيم بنو عم ثمانون رجلا وان ولده طاف عليهم بالليل وأعلمهم بما فعل فأقبلوا معه وأسلموا عن آخرهم ، فلما كان الغد وخرج كل من في البلد بادر بنو عم الحكيم واخوته الى ألابواب فأغلقوها وأعلنوا بالتهليل والتكبير والصلاة على البشير النذير فوقعت الخمدة على النساء والصبيان واستوثق القوم من المدينة بالثمانين رجلا فأمسكوهم الابواب وخرج الصحابة (رضي) ورفعوا أصواتهم يكبرون ويدعون الله عز وجل ، فلما نظر لهم أهل البلد علموا أنهم قد ملكوها وأن الذي فعل ذلك بنو عم الدير جان الحكيم وقد أغلقوا الابواب وقفلوها وملكوا السور ، فوقف الملك ينظر الى ما فعله الصحابة وعلم أن المدينة أخذت منهم وكان في أولاده ولد عاقل لبيب كامل الذات والصفات وافر العقل وكان منذ نشأ يتبع العلماء ويجالسهم ويطلب العلم ومنذ ملك عقله ما أكل لحم خنزير ولا كشف ذيله على محرم ولا سجد لصورة ولا لصليب ، وكان همّ أن يبني صومعة وينفرد فيها فلم يمكنه أبوه من فرط محبته له وكان لا يستطيع فراقه وهذا الغلام اسمه شطا وكان يحب أن يسمع أخبار رسول الله (ص) ويبحث عنها ؛ فلما نظر الى الصحابة وقد ملكوا منه البلد وشطا عن يمين أبيه نظر شطا الى الصحابة والى زيهم والى نور الايمان وهو ساطع منهم .

قال فشخص شطا نحو السماء ببصره وصاح وسقط عن قربوس فرسه بوجهه . قال فارتاع أبوه وجميع عسكره من تلك الصيحة ، فلما أفاق قال له أبوه يا بني ما وراءك ؟. قال ظهر الله والحق وبان وقد تبينت لي حقيقة الايمان ، وقد نظرت الى عسكر هؤلاء العرب وعليهم نور عظيم ومعهم رجال عليهم ثياب خضر وهم على خيول شهب وبينهم قبتان معلقتان في الجو بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها وفيها رجال ما رأيت أحسن من وجوههم ، ولا شك أنهم الشهداء ورأيت في احدى القبتين حورا لو برزن لاهل الدنيا لماتوا شوقا اليهن ، وان الله تعالى ما كشف عن بصري وأراني ذلك الا وقد أراد لي الخير ، وما كنت بالذي بعد هذه الرؤيا أبقى على الضلال ولا أتبع المحال ، وأنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وحرك جواده وقال : من أحبني من رجالي وغلماني فليتبعني . قال فتبعه القوم ألف رجل ولحقوا أحبني من رجالي وغلماني فليتبعني . قال فتبعه من القوم ألف رجل ولحقوا ما فعل ولده شطا . قال والله ما فعل ولدي شطا ذلك الا وقد رأى الحق ولست أشك في عقله ودينه . ثم انه أسلم ولحق بولده ، فلما نظر أرباب دولته ذلك ، قالوا اذا كان الملك وولده قد أسلما فما وقوفنا نحن فاسلموا جميعا على يد

صحاب رسول الله (ص) ودخلوا المدينة ، فمن أسلم تركوه ومن أبى أخرجوه الى بلاد الارياف • قال وفتح المقداد النفب الذي دخلوا منه وأمر ببنائه بابا فسماه باب اليتيم وهو ابن الحكيم وترك عندهم المقداد رجلا من الصحابة يعلمهم شرائع الاسلام وهو يزيد بن عامر (رضى) ورجع المقداد وأصحابه الى اسكندرية وحدثوا عمرا بما فتح الله عليه من دمياط ففرح بذلك وكتب كتابا الى عمر بن الخطاب (رضى) بفتح مريوط والاسكندرية ودمياط ورشيد وفوة والمحلة ودميرة وسمنود وجرجة ودمنهور وابيار والبحيرة وبعث الكتاب مع عامر بن لؤى •

ذكر فتح جزيرة تنيس

قال حدثني زياد عن حميد الطويل عن يونس بن الصامت عن نصر بن مسروق • قال : لما فتحت دمياط وكان من أمرها ما كان • قال البامرك لولده : يا بني ان الله قد أنقذنا من نار الجحيم وقد هدانا الى الصراط المستقيم وذلك لسابقة سبقت لنا في القدم ، وهذه تنيس بالقرب منا وهي جزيرة ولا يمكن التوصل اليها الا في المراكب ، والصواب أننا نكاتب صاحبها أبا ثوب وندعوه الى الله والى دين نبيه • فان أجاب وألا قصدناه والله ينصرنا • فقال شطا هذا هو الرأي وأنا أكون الرسول اليه بنفسي • فقال يا بني اعزم على بركة الله وعونه • قال فركب شطا في مركب وأخذ معه أربعة من غلمانه الخواص ، فلما نظر يزيد بن عامر الى ذلك • قال وأنا أسير معك الى صاحب تنيس • فانه لو سألك عن ديننا ومعالمه لم يكن عندك به علم بأن تكلمه ونحن بحمد الله ما فينا من يتكبر ولا من يتجبر وما طلبتنا الا الآخرة والعمل بما يقربنا الى الله • ثم سار معه يزيد ابن عامر صاحب رسول الله (ص) حتى وصلوا الى جزيرة تنيس وفيها رجال يحفظونها ، فلما نظروا الى شطا وغلمانه وبينهم رجل بدوي • قالوا من أنتم • قال لهم شطا أنا ابن الملك البامرك صاحب دمياط ومعنا هذا الرجل من أصحاب رسول الله (ص) وقد جئناكم رسلا • قال فأرسلوا منهم واحدا يستأذن لهم فأذن لهم أبو بوب • قال فنزلوا في الزورق واذا به قد أرسل لهم دواباً ليركبوها فامتنع يزيد من الركوب ووافقه شطا على ذلك وساروا كلهم رجالا الى أبي ثوب فاستأذنوا عليه فأذن لهم ، فلما دخلوا قصر أبي ثوب واذا به في حشمه وخدمه وزينته والحجاب والغلمان بين يديه وهو في مرتبه امارته ، وكان قد تكبر وتجبر منذ نزل أصحاب رسول الله (ص) على مصر ومنع المال والخراج أن يؤديه للمقوقس وولده ، وقد اجتمع عنده مال عظيم ، فلما دخل عليه يزيد صاحب رسول الله (ص) وشطا وغلمانه

ونظروا الى أبي ثوب وغلمانه ونجبره بدأ يزيد بالسلام ، فقال السلام على من اتبع الهدى ـ انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ـ

(قال الواقدي) حدثنا ابن سالم عن جرير بن أحمد عن أبيه عبينة عن ابن جرير وكان أعلم الناس بقصة فتوح مصر والمغرب • قال : كان أبو ثوب هذا من أرض العريش من متنصرة العرب من آل غسان ، وهو قريب جبلة وكان صاحب مال ورجال ، وأنه لما وقعت الهزيمة على الروم وفتح الشام وانهزم الملك هرقل وهرب معه جبلة هرب معهم أبو ثوب هذا بماله وأهله واخوته الى أرض الجفار ونزل في البرية ما بين العريش ورفح ، وأن المقوقس خرج في بعض الايام يريد الصيد في عسكره فانتهى في سرحته الى أرض العريش ، فانطرد قدامهم وحش كبير فطلبه الملك وتبعه ولم يتبعه أحد من عسكره وهو وراءه وحده الى أن رماه في حلل العرب في حلة أبي ثوب ، فقام اليه وعظمه وبجله وعلم أنه الملك فأمسك ركابه وأنزله في بيته وذبح له الاغنام ووضع له الطعام وتلاحق الجيش • قال فأضافهم أبو ثوب ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع ، ركب في خدمة الملك وشيعه وعاد ، فلما دخل المقوقس الى مصر أمر وزيره بأن يكتب الى أبي نوب بولاية تنيس وأعمالها وأرسل له الخلع والاموال والمماليك والغلمان ، فلما وصل اليه منشور الملك وخلعه فرح أبو نوب وركب وسار الى الفرمة وركب منها في المراكب الى تنيس ، فلما مكث في ولايته بعث الى أهله واخوته فأتوا اليه ، فولى أخاه أباسيف على جزيرة الصدف وولى أخاه الثاني أبا شق على جزيرة الطير ، وولى ولده على دنيوز ، فلما طال عليه الامر طغى وتجبر ومرت الايام والليالي حتى قدم أصحاب رسول الله (ص) الى أرض مصر فمنع دفع الخراج الى مصر والى المقوقس وولده ورأى نفسه في تلك الجزيرة فتحصن بها وقال ما أحد يقدر أن يصل الي ، فلما قدم شطا ويزيد بن عامر ونظر اليهم أبو ثوب أظهر الاعجاب والتكبر ولم يلتفت اليهم ولم يجسر أحد من جماعته أن يأذن لهم بالجلوس ، فلما نظر الى ذلك يزيد بن عامر قرأ ـ ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ـ وجلس الى جانبه شطا ، ونظر يزيد الى سرير أبي نوب فاذا هو من الذهب وفيه صورة النخلة ومن تحتها صورة مريم والمسيح في حجرها فقرأ ـ فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا وهزي اليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي واشربي وقري عينا فاما ترين من البشر أحد فقولي اني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم انسيا الى قوله اني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت

ويوم أبعث حيا — ٠ قال فلما سمع أبو ثوب كلام يزيد ، التفت اليه بغضب وحنق وقال : ما هذا الكلام الذي نطقت به ؟ قال يزيد هذا كلام الله جل جلاله الذي أنزله على نبيه محمد (ص) الذي لا تفنى عجائبه ، ولا تنفد غرائبه ، ولا تبدل كلماته ، ولا تمل آياته ٠ فقال ما معنى الذي ذكرت ونطقت به ، وما تفسيره ؟ فقال يزيد : أما قول الله اخبارا عن عيسى حين قال : اني عبد الله فانه يعلم الخلق أنه عبد الله وليس بولد ، جلّ الواحد الأحد الفرد الصمد ٠ وأما قوله آتاني الكتاب فمعناه أعلمكم الاحكام وأعرّفكم الحلال والحرام ، وأما قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة فمعناه اني مأمور بالطاعة والخدمة والزكاة مثلكم فان في مالي حقا لله ، وأما قوله : والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت فيعلمهم أنه يموت ، ومن يموت لا يكون له العزة والجبروت ، وأما قوله ويوم أبعث حيا ، فيعلمهم أنه واياهم مبعوثون في يوم القيامة وقوف يوم الحشر والندامة ، ولو كانا الهين لكان لهما ارادتان ووقع الخلف بينهما ، وان الحكمة غير ذلك ، وهي على وحدانيته شاهدة ٠ قال فلما سمع أبو ثوب من يزيد بن عامر هذا المقال ، قال : لقد مثلتم بالاباطيل وغرقتم في بحر الاضاليل ٠ فقال يزيد الله أعلم من هو تائه في تيه المحال مشرك بالملك المتعال ، الذي لا سماء تظله ولا أرض تقله ، ولا ليل يؤويه ولا نهار يأتيه ، ولا ضياء يظهره ولا ظلام يستره ، ولا يقهره سلطان ، ولا يغيره زمان ، كل يوم هو في شان ، أما لكم بصائر أما منكم من ينظر ويعتبر في قدرة الله القادر ؟ اما منكم من يعظ نفسه بذهاب النهار واقبال الليل ؟ اما آن لكم أن تنزهوه ؟ أما آن لكم أن توحدوه ، أما سمعتم ممن تعبدونه ، وتبرءون اليه وتعظمونه ؟ فان المسيح قد أقرّ له بالعبودية وتبرأ من دعوى الربوبية ، وقال اني عبد الله ، ولقد بشر بنبينا قبل مبعثه وعرّف بني اسرائيل بقربه من الحق وكرامته ، أما سمعتم بمعجزاته ، وما ظهر من دلالاته أما انشق له القمر ؟ أما كلمه الضب والحجر ؟ أما خاطبه البعير والشجر ؟ أما هو من أطيب بيت من مصر ؟ قال فعجز أبو ثوب عن رد الجواب ، ولم يكن له ما يزيل حجته الا أن قال ليزيد بن عامر : لقد علمنا ما فعل ، ولكنه كان ساحرا ، وان كان قولك هذا حقا ، فادع الله وتوسل اليه بمحمد أن يسقينا الغيث ، فان جاء الغيث علمنا أن قولك ليس فيه شك ، ونؤمن بالله ونصدّق برسالة محمد (ص) ٠ قال يزيد بن عامر : ان الله يقدر على ما ذكرت ، فان الله على كل شيء قدير ، ان العبد المخلص اذا دعاه أجاب دعوته ، ولكنه يفعل ما يشاء ، وأنا أتوسل الى الله بخير خلقه وصفيه وهو الفعال لما يريد ، ثم ان يزيد قام وخرج من مجلس أبي ثوب ٠ فقال له الى أين ؟ ٠ قال : أدعو الذي لو شاء أنزل عليكم رجزا من السماء ، ثم قرأ — بل

اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين —

قال حدثنا عاصم عن رويم عن ابن جبير قال : انما طلب أبو ثوب الغيث واقتصر عليه لانه كانت له مزرعة بالبعد من النيل ، ولا يقدر أن يسقيها ولا يصل اليها ماء ، وكانت قد أشرفت على الهلاك واليبس ، وكانت منه ببال ، وكان قد غرس فيها من جميع الثمار والاشجار وصنع لها مصانع تمتلىء بماء المطر فيسقيها وقت الحاجة اليها ، وكان المطر قد أمسك عنها والمصانع نشفت ؛ فلما خرج يزيد الى البحر توضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع رأسه نحو السماء وقال : اللهم انك قد أمرتنا بالدعاء ووعدتنا بالاجابة ، فقلت وأنت أصدق القائلين — واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان — وقد دعوت كما أمرت ، فاستجب كما وعدت يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدا ولا يحصيه غيرك • قال ابن جبير : لقد بلغني ممن أثق به أن يزيد بن عامر ما برح يدعو حتى ارتفع السحاب من الجو ووقف وقفة الخاضع ، ورفع جناح السائل المتواضع وارتفعت سحابة وتألفت ، والرعد يصول حولها صولة الغاضب ، وهو لها بصوت البرق يزجر بصلصلة وقعقعة وهرير وهو على ذلك سيره ومسيره ، وقد أحاطت بالسحابة ملائكة الرحمة متمنطقة بنطاق الخدمة يسوقونها من خزائن رحمته ، ويجذبونها بأزمة القهر الى ملك أبديته وهو واضع أجنحة عبوديته ، موسوم بوسم — يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته — ، والركام يسري ويسرع اسراع الوجل يسبح من بسجد لجلاله — فترى الودق يخرج من خلاله — فاذا هي أشرفت وتكاملت بالماء ووسقت ، والبروق من أركانها قد انسقت ، وهبت عليها رياح قدرته من مواضع خزائن رحمته — وهو الذي يرسل الرياح بشرابين يدي رحمته — فعندها تفتح مغاليق أبوابها وترفع ستر حجابها فهمت بدموع أشجانها على أيدي خزانها ، فتستبشر الارض عند ورودها وتنتظم عقود الزهر عند ورودها في جيد وجودها ، وتخرج كنوز ذخائرها — فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها — • قال ونزل المطر يسكب بقية يومهم وليلتهم ، فلما كان من الغد حضر يزيد بن عامر مجلس أبي ثوب وقال له : كيف رأيت صنع الله الصانع المتكفل بأرزاق العبيد • قال فضحك أبو ثوب ، وقال ان سحركم لعظيم وان مكركم لجسيم وان سحركم يفعل أكثر من هذا • فقال انما ذلك رحمة من الله ، قد أبر من أقسم باسمه عليه ، فلما رأى نزول المطر وظهرت بركات صاحب رسول الله (ص) قال على سبيل المكر : الآن تحققت أن دينكم الحق وقولكم الصدق وأنا مؤمن بالله ، ومصدق برسالة رسول الله (ص) وسوف أعرض دين الاسلام على أهل جزيرتي

وأصحابي وأهلي ، وأبني المساجد وآمر بالمعروف وأنهي عن المنكر • فقال يزيد ان أنت فعلت ذلك رشدت ، وان نافقت فان ربك لبالمرصاد ، ثم خرج من عنده هو ومن كان معه شطا وغلمانه ومضوا الى دمياط الى البامرك وحدثوه بما كان من أبي ثوب • فقال والله لقد خدعكم بخديعته ورماكم بسهم مكيدته • فقال يزيد بن عامر ـ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ـ فما لبثوا أياما قلائل حتى وصل الخبر أن أبا ثوب جمع من سائر الجزائر وهو قادم عليهم ، فلما سمع البامرك بذلك قال ليزيد بن عامر : ما الذي ترى من الرأى في أمر هذا العدو ؟• فقال يزيد نستعين بالله ونتوكل على الله ، ومن قاتلنا قاتلناه •

(قال بن اسحق) وان البامرك أرسل ولده شطا الى البرلس ودميرة وطناح ومن تحت يده يطلبهم فجاءوا من كل جهة ، وكتب يزيد الى عمرو بن العاص يعلمه أن أبا ثوب قد جمع الجموع ، فلما وصل اليه الكتاب أرسل اليهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة أحد بني لؤى ومعه ألف فارس وأمره بالمسير الى دمياط ، وذلك فى العشر الاول من شعبان سنة عشرين من الهجرة ، وكان لعمر بن الخطاب في الخلافة أربع سنين ونصف • أما ما كان من أبي ثوب ، فانه لما نفر اليه العساكر أخرجهم بظاهر تنيس ، فكانوا عشرين ألفا من الرجال ، ومن الخيل خمسمائة فارس من القبط ومتنصرة العرب وعداهم في المراكب وأتوا نحو دمياط فخرج شطا بن البامرك فقتل رجالا وجندل أبطالا ، وانه اشترى الجنة من الله بنفسه ، ولم يزل يقاتلهم بقية يومه ، ثم انه عاد من قتال اللئام الى الصلاة والصيام ، ولم يزل على قدم الخوف والوجل وهو منكس الرأس من الخجل من الله تعالى عز وجل ، فلما مضى أكثر الليل وطلع نجم سهيل اضطجع ، فلما كان وقت الغلس وقرب الصبح وتنفس استيقظ شطا وهو باكي العين • فقال له أبوه : يا بني ما الذي أبكاك ؟ فقال رأيت شيئا في منامي أبصرته وسمعت منه كلاما وعاينته وحفظته وحررته ، والدنيا هي طالق واني بعون ربي واثق ، ولا شك أني لك مفارق • فقال أبوه أعوذ بالله يا بني ما هذا الكلام ؟ ولعل ذلك أضغاث أحلام •

فقال : لا والله ما هي أضغاث أحلام لكنه أمر من الملك العلام الذي أجرى الاقلام وخلق الضياء والظلام وبعث سيد الانام بشرائع الاسلام ، واني رأيت في منامي كأن أبواب السماء قد فتحت ، وأنوار الهداية قد سطعت ولمعت ، ثم تفتحت أبواب السماء الثانية ، ثم رأيت ملائكتها سجودا على جباههم لا يقومون وركعا لا ينتصبون وقياما من هيبة ربهم لا يقعدون وباكين لا تجف لهم دموع ، ثم كذلك رأيت سماء بعد سماء الى السماء السابعة ، ثم رأيت قبة من زمرد أخضر وفيها قناديل من الجوهر وهي تسرج من الانوار وتوقد من غير نار وفيها

أربعون حوراء عليهن حلل ما رأيت قط مثلها ولا أبصرت شكلها بوجوه تفتن الانس وفي أرجلهن نعال الياقوت الاحمر يطأن بها على النمارق والزرابي ، فصاحت بي احداهن وهي كبيرتهن ، وقالت : يا مفتونا بدار الدنيا أما آن لك أن تذكرنا فقد خلقنا الله لك منذ خلقك ، وجعل مهرنا منك الجهاد في مرضاة رب العباد ، وقد ألفت الجفاء ، وما هكذا صنع أهل الوفاء ، انظر الى ما أعدّ لك وللشهداء ، قال فنظرت واذا بقباب معلقة حيث لا يدرك لها نهاية بعـــدد النجوم وقطرات الغيوم ، وقد نفد الميقات ، وانقضت الســاعات والاوقات ، فتيقظ فى المنام وارحل الى دار السلام ، وقالت : في كل قبة مثل ما رأيت ، فقلت : ما هذه القباب ؟ • فقالت : هذه قباب قوّام الليل والشهداء يأوون اليها في جنة المأوى ، ثم أنها جعلت تقول :

أنــت يا مفتون دوما   في الدنا ثم المنــام
فدع النــوم وبادر   مثل فعل المستهــام
وابك بالوجد دوامــا   بدموع وانسجــام
ثم نح يــاذا كثيرا   فـي نهــار وظـلام
ايها اللائـم دعنــي   لست اصغـي للملام
في عروس قـد تبدت   فاقت البدر التمــام
طرفها يرشق باللحــظ مصيبا كالسهــام
ولهــا صـدغ منير   مثل نــون تحت لام
احسن الاتـراب قـدا   في اعتدال وقــوام
مهرها ان قام ليـلا   وهو بـاك في الظلام
يا عمــادي ورجـائي   ومنــائي والمــرام
فاستمع مني قـولي   ثم فكر في النظــام
وغـدا بــادر لحرب   والى ضـرب السهــام
مسرعا تاتي الينــا   بعد ترحــال الظلام

فقال أبوه : اعلم ياولدي أن من المنام ما يصدق وما يكذب فلا تشغـل نفسك بما رأيت • فقال لا والله يا أباه ما بقي لي في الدنيا طمع ولم يزل باقي ليلته يبكي ويتضرّع ويقوم على أقدام الخشوع ويخضع وأجفانه بالدوام تدمع الى أن أصبح الصباح وأشرق بحبيائه ولاح فودع شطا أباه وأهله وخـرج الى الحرب فتعلق به أبوه وقال له : يا بني بحقي عليك لا تبلني بفراقك • **فقال** شطا دع عنك العتاب ،فقد قرب لقاء الأحباب ، فعندها قامــت على أبيـــه المواسم وانهل الدمع الساجم ودنا الفراق وقامت الاشواق وجرى دمع كـل عين وأقبل البامرك يودع ولده ويقول يا بني ان صح منامك وضـربت في دار السلام خيامك فاذكرنا بحسن طريقة الوفا وأقرىء ســلامي علـى النبـــي المصطفى ،فبرز شطا الى الحرب ودعا للبراز فخرج اليه واحد فقتله وثان وثالث حتى قتل اثني عشر فارسا •

(قال ابن اسحق) فلما رأى أبو ثوب ما فعل شطا بفرسانه لم يطـق الصبر دون أن خرج اليه بنفسه وكان من الفرسان المذكورة ،فلما سار شطا في الميدان قال له يا شطا كيف تركت الدين المستقيم وعدلت عنه وصــغيت الى

هؤلاء اللئام واتبعت دين الاسلام ، لقد عمل فيك القوم واستوجبت العتب واللوم يا فتى عد الى الدين الصحيح والقول الرجيح وهو دين المسيح فأي شيء رأيت من هؤلاء المساكين حتى تبعت دينهم ، فلما سمع شطا كلام أبي ثوب أقبل عليه مغضبا وقال له يا لئيم أتأمرني أن أدع الدين المستقيم الذي كان عليه الخليل والكليم ، وأني لي بذلك وقد رأيت الليلة مالي من الكرامة عند الله ، وقد طلقت الدنيا ثلاثا ، فلما سمع أبو ثوب كلامه حمل عليه ومدّ سنانه اليه فتلقاه بقلب قوي وجنان جري وعزم مضي وحسام سري وتقاتلا نصف نهار فعطش شطا فأراد الله أن يطيب قلبه فكشف عن بصره فرأى القبة التي رآها في المنام والحوراء التي أنشدته الأبيات وفي يدها كأس من شربها لا يفنى ولا يسقم وفيه من الرحيق المختوم ، وهي تقول يا شطا هذا شراب من شرب منه لا يسقم ولا يفيق والساعة تصل الينا وتقدم علينا . قال فلما نظر شطا الى ذلك وسمع منها ما قالت صاح الله أكبر — هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون — وأخذه الدمع والبكاء خوفا من الله . فقال له أبو ثوب مم بكاؤك ؟ . قال : رأيت كذا وكذا فضحك أبو نوب من كلامه وحمل عليه فتقاتلا قتالا شديدا أعظم من الأول الا أن أبا ثوب سبق شطا بطعنة في صدره فأطلع السنان من ظهره فخرّ صريعا ، فلما نظر البامرك الى ولده مطروحا لم يأخذه صبر دون أن حمل عليه هو وأصحابه . قال وأظلمت آفاق تلك الأرض من الغبار وترادف القتال فوقعت الهزيمة على البامرك وأصحابه فالجأهم الى أبواب دمياط وطمع فيهم عدوّ الله أبو ثوب واذ قد أتاهم هلال بن أوس بن صفوان بن ربيعة فوضعوا أيديهم في أبي ثوب وأصحابه وهم ينادون بالتهليل والتكبير وتحامي أصحاب البامرك وحملوا من قبلهم . قال : وأما ابو ثوب وأصحابه فانهم أيسوا من أنفسهم قال فهم في ذلك اذ التقى يزيد بن عامر بأبي ثوب . فقال له يا عدوّ الله أما اتعظت بآيات الله أما ظهر لك الحق من أصحاب رسول الله (ص) ؟ وأطبق عليه فأخذه أسيرا وصاح الصائح أن أبا ثوب أسر فاستسلم قومه للقضاء فأخذوهم عن آخرهم بعد ما قتل منهم خلق كثير ، ثم انهم عزوا البامرك في ولده شطا . فقال احتسبته عند الله . فقال له يزيد بن عامر ان في الجنة درجات لاينالها الا الصابرون قال الله تعالى — وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون — .

(قال ابن اسحق) ودفنوا شطا في ثيابه بعد ما صلوا عليه ودفنوه في موضع قتله . قال فلما كان الغد أقبل البامرك الى يزيد بن عامر ، وقال رأيت الليلة ولدي في النوم وهو في القبة والحور بين يديه . فقلت : ما

فعل الله بك قال قبلني بأحسن قبول وجاد عليّ وأ نزلني بجوار الرسول ٠

حدثنا ابن اسحق حدثنا عمر بن الأسقع عن جده عامر بن خويلد قال قتل شطا في ليلة نصف شعبان فجعل له تلك الليلة موسما في كل سنة ، وذلك انه لما يبق أحد الا زار قبره تلك الليلة .وان هلال بن أوس نزل وأحضر أبا ثوب وعرض عليه الاسلام فأسلم وأسلم من الاسرى أناس وأبى منهم أناس وبقوا على دينهم وقرروا عليهم الجزية ودخل المسلمون في المراكب الى تنيس وبنوا موضع الكنيسة جامعا وبنوا في جميع الجزائر جوامع ، وأخرج أبو ثوب الخمس من ماله وأموال قومه وبعثوه الى عمرو بن العاص مع أموال من قتل وان هلال بن أوس نزل على التل الأحمر بظاهر تنيس وأقر أهل الجزائر في أماكنهم ٠ فقالوا أيها الامير قد أمنتنا من جانبك وبقي علينا الخوف من جانب آخر ٠ قال هلال من أين ؟ قالوا من أصحاب القلعة المسماة الفرماء ٠ قال : وأين هي : قالوا : على جانب بحيرة تنيس مما يلي شرقها وفيهم أقوام وعليهم الصامت ابن مرة من آل مرداس ، فلما سمع هلال بن أوس ذلك مضى اليها بجميع من معه ، فلما وصلوا اليها أشرف عليهم الصامت بن مرّة وأمر أصحابه أن يرموهم وكان بها ألف رجل وغالبهم رماة النبل فرموا عن قوس واحد ألف سهم فسمعتها العرب من الفرماء فأقام عليها هلال بن أوس عشرين يوما فلم يقدر عليها فبعث الى عمرو يعلمه بما وقع ويستنجده فأرسل اليه المقداد ابن الأسود الكندي في خمسمائة من عسكر الاسلام وأرسل معه ثلاثة آلاف ممن أسلم من القبط ٠

ذكر فتوح الفرماء والبقارة والقصر المشيد

قال فلما نزل المقداد على الفرماء تأهب أهلها للقتال فنزل بالصامت بن مرة ما نزل به فعلم أنه بيد القوم ، لأنه ليس له ناصر ولا معين فصالح المقداد على أن يؤدي لهم أربعة آلاف مثقال من الذهب وأربعمائة ناقة وألف رأس من الغنم وأن يمهلوه الى تمام السنة فان شاء دان الى الاسلام والا ارتحل بأمانه ، فأجابه المقداد الى ذلك وارتحل المقداد وهلال بن أوس ونزلوا على البقارة وكان عليها بن الأشرف فأسلم هو ومن معه ومضوا الى القصر المشيد ففتحوه صلحا ثم ارتحلوا ونزلوا على الوردة وكان اسمها الواردة فسلمها أهلها وارتحلوا الى العريش فصالحهم أهلها وكذلك أهل رفح وبيدا وميماس ونخلة وعسقلان ٠

(قال ابن اسحق) **حدثني** يوسف بن عبد الأعلى قراءة عليه بجامع الرملة سنة مائتين وعشرين من الهجرة ٠ قال حدثني موسى بن عامر عن

رفاعة عن جده عبد العزيز بن سالم عن أبي يعلي العبدي عن طاهر المطوعي عن أبي طالب الفشاري عن وهبان بن بشر بن هزان قال سمعت الشرح كله من محمد بن عمر الواقدي وهو يومئذ قاضي بغداد في الجانب الغربي ٠

ذكر فتوح ديار بكر وأرض ربيعة

حدثنا عدنان بن يحيي الخزني عن معمر الجوني ومن طريق آخر عن ابن عمير التميمي والابتداء عن المهلب وطلحة ومحمد قالوا جميعا أو من قال منهم أنه لما فتح الله الشام على يد أبي عبيدة عامر بن الجراح وعلى يد خالد بن الوليد وفتح أرض مصر على يد عمرو بن العاص بن وائل السهمي كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى ابي عبيدة يقول له : بسم الله الرحمن الرحيم ٠ من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عامر بن الجراح سلام عليك فانى أحمد اليك الله الذي لا اله الا هو وأصلّي على نبيه محمد (ض) ٠ أما بعد : فقد أجهدت نفسك في قتل الكفار وسارعت الى رضا الجبار ، وقدمت لك ما تجده يوم عرضك ولم نر منك يوما معرضا عن أداء فرضك وقمت بسنة نبيك وجاهدت في الله حق جهاده تقبل الله منا ومنك وغفر لنا ولك ، فاذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقدا لعياض بن غنم الأشعري وجهز معه جيشا الى أرض ربيعة وديار بكر واني أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يفتحها على يديه وأوصيه بتقوى الله والجهاد والاجتهاد في طاعته ولا تلحقه التواني في الجهاد ويتبع سنن المؤمنين المجاهدين وما أمر به سيد المرسلين مما أنزل عليه رب العالمين يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة الله وبركاته ٠ ثم كتب كتابا آخر الى عياض بن غنم بالولاية والمسير الى أرض ربيعة الفرس وديار بكر ٠ قال وبعث بالكتاب مع ساعدة بن قيس المرادي وزوده من بيت مال المسلمين وأمره بالمسير فسار الى أن ورد على أبي عبيدة في طبرية فسلم اليه كتاب عمر وسلم الكتاب الثاني الى عياض بن غنم الأشعري ، فلما قرأه أبو عبيدة قال السمع والطاعة لله ولأمير المؤمنين وهيأ عياضا بمسيره الى الجهاد وعقد له عقدا على ثمانية آلاف منهم ألف صحابي من جملتهم خالد بن الوليد والنعمان بن المنذر وصرار بن الأزور بن سابق وضمرة وعمرو بن ربيعة وذو الاداغير بن قيس والحكم بن هشام اليسع بن خلف وطلحة وعامر بن بهرام والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر وعبد الله بن يوقنا وكانوا قد قدموا على أبي عبيدة بعد فتوح مصر وكان قدومهم في شهر شوال سنة ست وعشرين من الهجرة وسار عياض بن غنم من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمته خيل

سهل ابن عدي فلم يزل سائرا حتى نزل على بالس وكان خالد قد فتحها صلحا فأقام عليها وسرح سهيل ابن عدي الى الرقة فنزل على حصارها وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قبل صاحب رأس العين ، وكان قد استعد للحرب وعبى آلة الحصار ، فلما رأى أهل الرقة أن صاحبهم معوّل على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا : أي شيء أنتم بين أهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم قال فمشوا الى عياض بن غنم بالصلح فرأى أن يقبل منهم فبعث الى سهيل بن عدي أن يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق وارتحل عياض بن غنم عن بالس ونزل على الرقة البيضاء ، وفي ذلك قال سهيل بن عدي :

وصادفنا الغزاة غداة سرنا	بجود الخيل والاسل الطوال
أخذنا الرقة البيضاء لما	رأتنا الشهب نلعب بالتلال
وأزعجت الجزيرة بعد خفض	وقد كانت تخوف بالزوال
سنقصد رأس عين بعد عين	أجد بحملتي جيش الضلال
قصدك يا سهيل تبيد جيشا	وتقتل في البطارق لا تبالي
فنحن أولو التقية والمعالي	ونحن الصابرون لكل حال
صحابة أحمد خير الموالي	رقبى العلياء والرتب العوالي
الى رب السماء دنا علوا	وخاطبه شفاها بالمقال

ذكر فتح القلعتين : زبا وزلوبيا

(قال الواقدي) لما فتحت الرقة صلحا عول عياض بن غنم على المسير الى رأس العين وكان يملك يومئذ الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال شهر ياض بن فرون وكان جيشه مائة ألف وتحت يده وفي عمله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفا من الأبطال وانهم لما اتصلت بهم الاخبار بفتح الرقة وان المسلمين قاصدون اليهم مع عياض بن غنم وخالد والمقداد أتو الى الملك شهر ياض برأس العين وقالوا له اعلم أيها الملك ان أصحاب محمد (ص) قد أتو ديارنا وقصدوا نحونا ، ونحن علينا الطلب أكثر منكم ومطلب القوم أننا ندخل في دينهم فاضرب خيامك بظاهر البلد واظهر بجيشك حتى نلقاهم فاما لنا ، واما علينا فأجابهم الى ذلك وقال غير أني أخاف أن تنهزموا عني فأعطوا رهائن واستوثق منهم ورتب آلة الحصار وأخرج الخزائن والأموال ورتب الحرس على الأسوار ، وزاد في عمق الخندق وعرضه وأرسل الى جملين وكفرتوتا ودارا وماردين وحران والرها وتل مرزة والسن والموزر وأقام ينتظر عياض بن غنم .

قال حدثنا عبد الله بن أسلم عن عاصم بن عبدالله عن ابن اسحق الأموي عن يزيد ابن أبي حبيب عن راشد مولاه قال لما عول عياض بن غنم الأشعري على المسير الى رأس العين الى قتال الملك شهر ياض بعث قبل مسيره أشعث بن عويلم وعبد الله بن غسان الى القلعتين المعروفتين بزبا وزلوبيا • فقال عبد الله يوقنا لعياض بن غنم : اعلم أيها الأمير : ان هاتين القلعتين اللتين ذكرتهما حصينتان منيعتان احداهما من الجانب الشرقي والاخرى من الجانب الغربي وهما كانتا تحت ولايتي وان صاحبهما كان من قبلي وهو أحد بني عمي واسمه اشفكياص بن مارية كني باسم أمه وكنت قد زوجته ابنتي فأخذت في صداقها الحصن الشرقي من الفرات وقد رأيت أنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى أحل في القلعة الغربية فان فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا • فقال له لله درك يا عبد الله لقد نصحت الاسلام وأهله فجزاك الله خيرا أحسن ما جازى به أولياءه ، سر على بركة الله وعونه فاذا استقر بك المكان ثلاثة أيام أنفذت اليك شعيبا وعبد الله ومن معهما من المسلمين ، وبعد الفتح ان شاء الله تنزلون الينا • فقال يوقنا استعنا بالله وتوكلنا عليه ، ثم انه أخذ معه من صناديد جماعته مائة ولم يأخذوا معهم ثقلا سوى جنيب من الخيل واحد وسار من أول الليل وترك عياض بن غنم علي الباسل فجدوا السير بقية ليلتهم فلما كان قبل الفجر أشرفوا على الخانوقة فوجدوا فيها ألفا من الأرمن وهم بالعدة الكاملة ، فلما أشرف عليهم يوقنا ومن معه وهم يتحدثون بلغة الروم أنسوابهم وسألوهم عن خبرهم فقالوا هذا البطريق المعظم يوقنا صاحب جلب قد هرب من العرب وأقبل لنصرة صاحب هذه القلعة ، فلما سمعوا بذلك فرحوا وصقعوا بين يدى يوقنا وأرسل المقدم عليهم خيالا وأمره بالسرعة ليبشر اشفكياص بقدوم يوقنا اليه وهروبه من العرب وانه يستأذن عليه فمضى الرجل وأخبر اشفكياص فأطرق الى الأرض ، ثم قال لوزيره وحق المسيح والأنجيل ما جاء الا لينصب علينا ويملك هاتين القلعتين منا كما فعل بطرابلس وصور وما أنا بالذي يأمن ، فما ترى أيها الوزير ؟•

(قال ابن اسحق) ولقد بلغني ان هذا الوزير كان من أهل القراءة ، وكان أديبا عاقلا لبيبا ممن قرأ الكتب السالفة والأخبار الماضية وقرأ ملاحم دانيال ، وكان منذ بعث النبي (ص) يسكن في دير مترهبا وهو ما بين السر (٣) وحلب فتعبد فيه زمانا طويلا حتى شاع ذكره بين أهل دين النصرانية ، ثم بعد ذلك أخبر الروم بأنه قد وقع بحافر من حوافر حمار المسيح فكانت الروم ينذرون له النذور والصدقات وشاع خبره وسما ذكره

